

قصة الحضارة

ول وايرنيل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة
محمد بدراف

الجزء الثالث من المجلد الرابع

١٤



تونس



بيروت

الكتاب الثالث

الحضارة اليهودية

١٣٥ — ١٣٠٠

الحوادث التاريخية في الكتاب الثالث مرتبة حسب تواريخها

التنبؤ .	٢٢٠ - ١
يهودا هتسيا .	١٨٩
المجمع العلمي اليهودي في سورا .	٢٢٩
الأموراثم .	٢٢٠ - ٥٠٠
جمع التلمود .	٢٨٠ - ٥٠٠
هلال الثاني يحدد التقويم اليهودي .	٣٥٩
السبورام .	٥٠٠ - ٦٥٠
الجادنم في بابل .	٦٥٨ - ١٠٤٠
وفاة ماشاء الله الفلكي .	٨١٥
إسحق إسرائيل ، الفيلسوف .	٧٥٥ - ٩٥٥
سمديا جاؤن ، الفيلسوف .	٨٩٢ - ٩٤٢
حسدای بن شبروط ، الوزير .	٩١٥ - ٩٧٠
مرسوم الزواج بواحدة يصدره الكوهن جرشم .	١٠٠٠
ابن جبيرول الشاعر والفيلسوف .	١٠٢١ - ١٠٧٠
شمویل بن نجدلا ، الوزير .	١٠٣٨ - ١٠٥٥
شلومة بن يتزحاق (راشي) شارح التلمود .	١٠٤٠ - ١١٠٥
يوسف بن نجدلا .	١٠٥٥ - ١٠٦٦
إبراهام بارحيا (العالم في الرياضيات) .	١٠٦٥ - ١١٣٦
موسى بن عزرا الشاعر .	١٠٧٠ - ١١٣٩
يهودا هلمني ، الشاعر .	١٠٨٦ - ١١٤٧
إبراهام بن عزرا ، الشاعر .	١٠٩٣ - ١١٦٨
مذابح الحرب الصليبية الأولى .	١٠٩٦
إبراهام بن داود ، الفيلسوف .	١١١٠ - ١١٨٠
ابن ميمون .	١١٣٥ - ١٢٠٤
مذابح الحرب الصليبية الثانية .	١١٤٧
دافيد الروقي المسيح الكذاب .	١١٦٠
رحلات بنيامين التطيل .	١١٦٠ - ١١٧٣
مشنة التوراة لابن ميمون .	١١٧٠
اليهود يطردون من فرنسا .	١١٨١ ، ١٢٥٤ ، ١٣٠٦

دلالة الحائرين .	١١٩٠
نشأة القبيلة .	١١٩٠
المذابح في إنجلترا .	١١٩٠
مجلس الاثنيان الرابع يأمر بأن يكون لليهود شارة .	١٢١٥
إحراق كتب ابن ميمون في منبلييه .	١٢٣٤
إحراق التلمود في باريس .	١٢٤٢
اليهود يطردون من إنجلترا .	١٢٩٠
سفر زوهر لموسى الليفى .	١٢٩٥

الباب الخامس عشر

التهود

الفصل الأول

النفي ١٣٥ - ٥٦٥

بين بلاد الإسلام والمسيحية كان يعيش شعب عجيب احتفظ في خلال كل ما مر به من الشدائد بثقافته الخاصة يعزیه ويلهمه دينه الخاص ، ويعيش على هدى شريعته ومبادئه الأخلاقية ، ويخرج من بينه شعراؤه ، وعلماءه ، وأدباؤه ، وفلاسفته ، وينقل الدور الحصبة بين عالمين متعادين . ولم تكن فتنة باركوزية Bar Cocheba (١٣٢ - ١٣٥) آخر الجهود التي بذلها اليهود ليستعيدوا حريتهم التي قضى عليها بعمى وتيس Titus . فقد أعادوا الكرة لاستخلاصها في عهد أنطولينس بيوس Antoninus Pius (١٣٥ - ١٦١) وأخفقوا في محاولتهم وحرم عليهم أن يدخلوا المدينة المقدسة إلا في يوم تلك الذكرى المؤلمة ، ذكرى تدميرها ، فقد كان يسمح لهم نظير جعل معين أن يأتوا إليها ليندبوا ويبكوا أمام جدران الهيكل المهدم . وكان سكان فلسطين التي خرب من مدائنها في فتنة باركوزية ٩٨٥ مدينة حتى محبت من الوجود ، وقتل من أهلها ٥٨٠ رجل وامرأة قد نقص إلى نصف ما كان عليه من قبل ، وانحط الباقون إلى درجة من الفاقة كادت الحياة الثقافية معها ألا يبقى لها أثر . ومع هذا فإنه لم يكذب يعضى على فتنة باركوزية جيل واحد حتى أنشئ في طبرية بيت الدين ، أى المجلس اليهودى القومى - وهو هيئة مؤلفة من واحد وسبعين

من العلماء الأحرار والمشتريين - وافتتحت المعابد والمدارس ودب الأمل مرة أخرى في النفوس :

غير أن فوز المسيحية قد صحبته متاعب جديدة . ذلك أن قسطنطين كان قبل أن يعتنق المسيحية قد سوى من الوجهة القانونية بين الدين اليهودى وبين سائر الأديان التى يدين بها غيرهم من رعاياه . أما بعد اعتناقه المسيحية فقد اضطهد اليهود وفرض عليهم قيوداً ومطالب جديدة ، وحرم على المسيحيين أن يتصلوا بهم (١) . ونفى قسطنطين أحبارهم (٣٣٧) وجعل زواج اليهودى من مسيحية جريمة يعاقب مرتكبها بالإعدام (٢) . وفرض جالوس Gallus أخو قسطنطين على اليهود من الضرائب الفادحة ما اضطر الكثيرين منهم إلى أن يبيعوا أبناءهم ليوفوا بمطالبه منهم . وثار اليهود مرة أخرى فى عام ٣٣٢ وأنحدت ثورتهم ودكت صبورى دكا ، وخربت أجزاء من طبرية وغيرها من المدن ، وقتل آلاف من اليهود ، واستعبد آلاف آخرون . وبلغت حال اليهودى الفلسطينى وقتئذ (٣٥٩) درجة من الانحطاط ، كما بلغ الاتصال بينهم وبين غيرهم من الجماعات اليهودية درجة من الصعوبة ، اضطرت معها حاخامهم هلل الثانى أن ينزل عما كان ليهود فلسطين من الحق فى أن يحددوا لجميع اليهود تواريخ أعيادهم ، وأصدر لهم تقويماً يحددون هم بمقتضاه تواريخ هذه الأعياد مستقلين عن يهود فلسطين ، ولا يزال هذا التقويم الذى أصدره هلل معمولاً به إلى اليوم لدى اليهود فى جميع أنحاء العالم .

فلما ارتقى يوليان عرش الإمبراطورية أنقذ اليهود إلى أجل قصير من هذا التعذيب . فقد خفض هذا الإمبراطور الضرائب المفروضة عليهم ، وألغى القوانين التى تجعلهم أقل منزلة من غيرهم ، وأطرى الصدقات العبرانية ، واعترف بأن يهوه « إله عظيم » . وسأل زعماء اليهود عن سبب امتناعهم عن الضحايا الحيوانية ، فلما أجابوه بأن شريعتهم تحرم عليهم هذه التضحية إلا فى هيكل أورشليم أمر أن

بعد بناء الهيكل من مال الدولة^(٣) . وأعيد فتح أورشليم لليهود فهرعوا إليها من جميع أنحاء فلسطين ومن كل ولاية في الإمبراطورية ، وسخر الرجال والنساء والأطفال جهودهم لإقامة البناء ، وتبرعوا بملابسهم وما ادخروه من أموالهم لتأثيث الهيكل الجديد^(٤) ، وفى وسعنا أن نتصور سرور القوم الذين ظلوا مائى عام يدغون ربهم أن يمن عليهم بهذا اليوم (٣٦١) . ولكن بينما كانوا يحفرون الأرض لوضع الأساس إذ خرج من باطنها لهب أحرق عدداً من العمال القائمين بالعمل^(٥) . غير أن الناس عادوا إلى العمل من جديد - فعادت هذه الظاهرة مرة أخرى - ولعل سببها انفجار بعض الغازات الطبيعية - فأوقفت العمل وثبطت همة القائمين بالمشروع . وفرح المسيحيون إذ بدا لهم أن الله غير راض عن إعادة بناء الهيكل ، وعجب اليهود من هذا وحزنوا له ، ثم مات يوليان فجأة ، فحبست عنهم أموال الدولة ، وسنت من جديد القوانين المقيدة لهم وجعلت أشد صرامة مما كانت من قبل ، وحرمت على اليهود مرة أخرى دخول أورشليم ، فعادوا إلى قراهم ، وفقروهم ، وصلواتهم . وكتب جيروم بعد قليل من ذلك الوقت يقول : إن أهل فلسطين اليهود لا يزيدون على عشر ما كانوا عليه من قبل^(٦) . وفى عام ٤٢٥ ألغى ثيودوسيوس الثانى الحاخامية الفلسطينية ، وحلت الكنائس المسيحية اليونانية محل المعابد والمدارس اليهودية ، وتحلت فلسطين بعد هبة قصيرة فى عام ٦١٤ ، عن زعامة العالم اليهودى .

فهل يلام اليهود بعد هذا إذا أملوا أن تكون حالهم أحسن من هذه الحال فى بلاد لا تسود فيها المسيحية سيادتها فى البلاد التى يخضعون لسلطانها . فمنهم من انتقل نحو الشرق إلى أرض النهرين وإلى بلاد الفرس وقوا العنصر اليهودى البابل الذى لم ينعدم من تلك البلاد منذ الأسر الذى حدث فى عام ٥٩٧ ق . م . وكانت وظائف الدولة محرمة على اليهود فى بلاد الفرس أيضاً ، ولكن هذه الوظائف كانت محرمة كذلك على جميع الفرس ما عدا طبقة الأشراف ، ولذلك

لم يكن هذا القيد ثقيلاً على اليهود أنفسهم (٧) . وقد حاقت باليهود في تلك البلاد عدة اضطهادات ، ولكن الضرائب المفروضة عليهم كانت أخف عبئاً منها في غير تلك البلاد ، وكانت الحكومة في الأحوال العادية تتعاون معهم ، وكان ملوك الفرس يعترفون بالإجزيلارك أى زعيم الطائفة اليهودية ويحولونه . وكانت أرض العراق وقتئذ حصبة تسقيها مياه النهرين ، ولذلك أصبح من فيها من اليهود زراعا أثرياء وتجاراً ناشطين ، ومنهم طائفة من بينها عدد من جلة العلماء الذائع الصيت أثرت من عصر الجعة (٨) . وتضاعف عدد الجالية اليهودية في بلاد الفرس بسرعة كبيرة لأن دين الفرس كان يتيح تعدد الأزواج . وكان اليهود يتبعون هذه العادة لنفس الأسباب التي كانت تتيحها الشريعة الإسلامية . وكان الكوهنان الطيبان رب ونحان أثناء تجوالهما يعلنان في كل مدينة يحلان بها عن رغبتهما في زوجات موقوفات ، لكي يضربا بذلك مثلاً لشبان تلك المدن للحياة الزوجية ويبعدهم على الحياة الإباحة (٩) . وفي نحرية Nehardea ، وسورة ، ويمهديثا أنشئت مدارس للتعليم العالي ، أصبح علماءها ، وأصبحت قرارات كواهنها الدينية ، موضع الإجلال في جميع أنحاء البلاد التي تشتت فيها اليهود .

وظل اليهود في أثناء ذلك الوقت ينتشرون في جميع البلاد الواقعة حول البحر المتوسط فمنهم من ذهب لينضم إلى الجاليات اليهودية في بلاد الشام وآسية الصغرى ، ومنهم من ذهب إلى القسطنطينية ، رغم عداة أباطرة الروم وبيطارقهم ، ومنهم من اتجهوا من فلسطين جنوباً إلى جزيرة العرب وعاشوا في سلام وحرية دينية مع بني جنسهم الساميين ، واحتلوا في تلك البلاد أقاليم هامة مثل خيبر ، وكاد عددهم في يثرب (المدينة) يكون مساوياً لعدد العرب أنفسهم ، واستألوهم إلى دينهم عدداً من الأهلين ، وهبوا عقول العرب لما جاء به الإسلام من عقائد يتفق بعضها مع العقائد اليهودية . ومنهم من عبروا البحر الأحمر إلى بلاد الحبشة حيث تضاعف عددهم بسرعة حتى قيل إنهم بلغوا

في عام ٣١٥ نصف سكان تلك البلاد^(١٠) . وكان اليهود يمتلكون نصف سفن الإسكندرية ، وكان ثراؤهم في تلك المدينة السريعة التأثر والاحتياج مما زاد من حدة العداء الديني .

وانشرت مجاليات يهودية في جميع مدائن أفريقيا الشمالية ، وصقلية ، وسردينية . وكان عددهم كبيراً في إيطاليا ، وكان الأباطرة الوثنيون يحمونهم في العادة من الأذى ، وإن كان الأهلون المسيحيون والإمبراطور ثيودريك ، والبابوات يشددون عليهم الكثير في بعض الأحيان . وكان في أسبانيا جاليات يهودية قبل يولوس قيصر ، ونمت تلك الجاليات دون أن يتعرض لها بأذى تحت حكم الأباطرة الوثنيين ، وأثروا في عهد القوط الغربيين الآريين ، ولكنهم تعرضوا للاضطهاد الميثس بعد أن اعتنق الملك ريكارد (٥٦٨ - ٦٠١) عقائد مؤتمرنية . ولنا نعرف أن اليهود تعرضوا للاضطهاد في غالة قبل أن تصدر قرارات مجلس أورليان الثالث والرابع (في عامي ٥٣٨ و ٥٤١) بعد أن انتصر كلوفس Clovis المسيحي المتمسك بدينه على القوط الغربيين الآريين بجبل من الزمان . وأحرق مسيحيو أورليان كنيسة يهودياً حوالى عام ٥٦٠ ، وطلب اليهود إلى جنثرام Gunthram ملك الفرنجة أن يعيد بناءه من أموال الدولة أسوة بما فعله ثيودريك في مثل هذه الحادثة من قبل . ولما رفض جنثرام هذا الطلب صاح الأسقف جريجورى التورى Gregory of Tours : « ما أعظمك أيها المليك وما أعجب حكمتك ! »^(١١) .

وكان اليهود في البلاد التي انتشروا فيها ينتعشون على الدوام بعد هذه الخطوب ، فكانوا يعيدون بناء معابدهم في صبر وأناة ، وينظمون شئون حياتهم ، ويكدهون ، ويتجرون ، ويرابون ، ويصلون ، ويأملون ، ويزدادون ويتضاعفون . وكان يطلب إلى كل جالية في بلد أن تقيم على نفقتها مجتمعة

ما لا يقل عن مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية يضمهما في العادة الكنيس نفسه ، وكان يشار على العلماء ألا يعيشوا في بلد يخلو من هاتين المدرستين . وكانت لغة العبادة والتعليم هي اللغة العبرية ، أما لغة التخاطب اليومي العادي فكانت الأرامية في بلاد الشرق ، واليونانية في مصر وفي بلاد أوروبا الشرقية ، أما في غير تلك البلاد فكان اليهود يتخاطبون بلغة من يعيشون بينهم من الأهلين . وكان الدين هو الموضوع الذي يدور حوله التعليم اليهودي ، أما الثقافة غير الدينية فكانت في ذلك الوقت أن تهمل إهمالاً تاماً : ذلك أن اليهود المشتتين لم يكونوا يستطيعون أن يحفظوا كياناتهم جسمية وروحياً إلا عن طريق شريعتهم ، وكان الدين عندهم هو دراسة هذه الشريعة والعمل بها . وكان دين آبائهم يزداد قيمة لديهم كلما زاد الهجوم عليه ، وكان التلمود والكنيس الدعائيتين والملجأين للذين لا غنى عنهما لشعب حائر تقوم حياته على الرجاء ويقوم زجاؤه على الإيمان بالله .

الفصل الثاني

مذشو التلمود

كان الكهنة ورجال الدين المقيمون في المعابد والمدارس الفلسطينية والبابلية هم الذين ألفوا أسفار الشريعة المصححة المعروفة بالتلمود الفلسطيني والتلمود البابلي . وكانوا يقولون إن موسى لم يترك فقط لشعبه شريعة مكتوبة تحتويها الأسفار الخمسة ، بل ترك له أيضاً شريعة شفوية تلقاها التلاميذ عن المعلمين ووسموا فيها جيلاً بعد جيل . وكان أهم ما نثر حوله الجدل بين الفريسيين والصدوقيين الفلسطينيين هو : هل هذه الشريعة الشفوية هي الأخرى من عند الله فهي لذلك واجبة الطاعة ؟ ولما أن زال الصدوقيون بعد تشتت اليهود عام ٧٠ م وورث رجال الدين تقاليد الفريسيين ورواياتهم قبل جميع اليهود المتمسكين بدينهم الشريعة الشفوية ، وآمنوا بأنها أوامر من عند الله وأضافوها إلى أسفار موسى الخمسة ، فتكونت من هذه وتلك التوراة أو الشريعة الموسوية التي استمكك بها اليهود وعاشوا بمقتضاها ، وكانت حقيقة لا حجازاً هي كيانهم وقوام حياتهم . وإن القصة التي تروى تلك العملية الطويلة التي استغرقت ألف عام ، والتي تجمعت في خلالها الشريعة الشفوية ، واتخذت فيها صورتها النهائية المعروفة بالمشنا ، والقرون الثمانية التي تجمعت فيها ثمار الجدل ، والأحكام ، والإيضاح فكانت هي الجاريتين أو شروح المشنا ، وانضمام المشنا إلى أقصر هاتين الجاريتين ليتألف منهما التلمود الفلسطيني ، وإلى أطولها ليتألف منهما التلمود البابلي - إن القصة التي تروى هذه الأحداث الثلاثة لمن أكثر القصص تعقيداً وأعظمها إثارة للدهشة في تاريخ العقل البشري . وكما كان الكتاب المقدس أدب العبرانيين

الأقدمين ودينهم ، كانت التوراة حياة يهود العصور الوسطى ودماءهم .
وذلك أن أحكام الشريعة الواردة في الأسفار الخمسة أحكام مسطورة ،
ولهذا فلأنها لم تكن تستطيع الوفاء بجميع حاجات أورشليم بعد أن فقدت
حريتها ، ولا اليهودية بعد أن فقدت أورشليم ، ولا الشعب اليهودى فى خارج
فلسطين ، لم تستطع الوفاء بحاجات هذه أو معالجة الظروف المحيطة بها . ومن
ثم كانت مهمة علماء السنهالرين قبل النشئت ، والأخبار بعده ، هى تفسير
الشريعة الموسوية تفسيراً يهتدى به الجيل الجديد والبيئة الجديدة ويفيدان
منه . وتوارث المعلمون جيلاً بعد جيل تفاسير هؤلاء العلماء ومناقشاتهم
وآراء الأقلية والأغلبية فى موضوعاتها . على أن هذه الروايات الشفوية لم
تدون ، ولعل سبب عدم تدوينها أن هؤلاء العلماء أرادوا أن يجعلوها مرنة
قابلة للتعديل ، أولعلمهم أرادوا بذلك أن يرغموا الأجيال التالية على
استظهارها . فكان فى وسع الأخبار الذين أخذوا على أنفسهم تفسير الشريعة
إذا اضطرتهم الظروف أن يستعينوا بمن قدروا على استظهارها . وكان
الأخبار فى الستة القرون الأولى بعد ميلاد المسيح يسمون « التنايم Tennaïm »
أى « معلمى الشريعة » وإذ كانوا هم وحدهم المتضلعين فيها ، فقد كانوا هم
المعلمين والقضاة بين يهود فلسطين بعد تدمير الهيكل .

وكان أخبار فلسطين وأخبار اليهود «المشتتين» أرستقراطية فذة لأمثل لها فى
التاريخ . ذلك أن هؤلاء الأخبار لم يكونوا طبقة وراثية أو مغلقة مقصورة على
طائفة خاصة من الناس ، بل إن الكثيرين منهم قد ارتقوا من أفقر الطبقات ،
وكان معظمهم يكسبون قوتهم بالعمل فى الصناعات المختلفة حتى بعد أن أصبحوا
من ذوى الشهرة العالمية ، وظلوا إلى ما يقرب من أخريات تلك الفترة التى نتحدث
عنها لا يعطون أجوراً على قيامهم بالتدريس أو بأعمال القضاء . وكان الأثرياء

يجعلونهم في بعض الأحيان شركاء غير عاملين في مشروعاتهم المالية والتجارية ، أو يأوونهم في بيوتهم ، أو يزوجونهم من بناتهم ، ليوفروا عليهم عناء الكد لكسب قوتهم . ومنهم من عدد قليل أفسدهم ما كان لهم من الميزة الرفيعة بين أبناء دينهم ، ومنهم كانوا كسائر الخلق يفضبون ، ويغارون ، ويحقدون ، ويسرفون في النقد ، ويتكبرون . ومنهم من كان لابد لهم أن يذكروا أنفسهم المرة بعد المرة أن العالم يحق رجل متواضع ، لأن الحكيم يرى الجزء في ضوء الكل إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب . وكان الناس يحبونهم لفضائلهم ولعيوبهم ، ويعجبون بهم لعلمهم وتقواهم ، وبروون ألف قصة وقصة تنبئ عن حكمتهم ومعجزاتهم . وقد ظل اليهود إلى يومنا هذا يحلون طلاب العلم والعلماء كما لا يجالهم شعب آخر في العالم كله .

ولما كثرت قرارات الأبحار وتضاعفت أصبحت مهمة استظهارها شاقة غير معقولة . ولذلك حاول هلل وعقيبا Akiba ومير Meir مراراً عدة أن يصنفوها ويستعينوا على استظهارها ببعض الأساليب والرهوز ، ولكن هذه التصانيف والرموز والحيل لم يحظ شيء منها بالقبول من جمهرة اليهود . وكانت نتيجة هذا أن أصبح الاضطراب في نقل الشريعة هو القاعدة العامة ، ونقص عدد من يحفظون الشريعة كلها عن ظهر قلب نقصاً مروعا ، وكان مما زاد الطين بلة أن نشئت اليهود قد نشر هذه القلة في أقطار غائية . وحوالي عام ١٨٩ تابع الحبر يهودا هنسبا Jehuda Hanasi في قرية صبورة(*) بفلسطين عمل عقيبا ومير ، وعدله ، وأعاد ترتيب الشريعة الشفوية بأكملها ، ثم دونها ، وزاد عليها إضافات من عنده ، فكانت هي « مشنا الحبر يهودا »(**) وانتشرت هذه بين اليهود انتشاراً

(*) قرية على بحيرة طبرية في فلسطين . (المترجم)

(**) ونرى أقلية من العلماء أن يهودا لم يدون مشناه ، وأنها أخذت تنتقل شفوية من جيل إلى جيل حتى القرن الثامن الميلادي . ومن شاء معرفة رأى الأغلبية فليرجع إلى -

أصبحت معه بعد زمن ما هي المشنا، والصورة المعتمدة لشريعة اليهود الشفوية .
والمشنا (أى التعاليم الشفوية) كما نعرفها اليوم هي الصورة النهائية .
لطبعات مختلفة كثيرة وحواشى متعددة أدخلت عليها من أيام يهوذا إلى
الآن . ولكنها مع هذا خلاصة مدبجة محكمة ، وضعت لكى تحفظ عن
ظاهر قلب بكثرة التكرار ، ولهذا فإن من يقبل على قراءتها يرى أن
عباراتها المحكمة الجامعة الغامضة تعذب قارئها بما تبعثه فى نفسه من الآمال
الخادعة اللهم إلا إذا كان هذا القارئ ملما بحياة اليهود وتاريخهم .

وقد قبلها يهود بابل وأوربا كما قبلها يهود فلسطين ، ولكن كل
مدرسة فسرت أمثالها وحكمها تفسيراً يخالف ما فسرتها به الأخرى ،
وجمعت ستة أجيال (٢٢٠ - ٥٠٠ م) من أحبار الأموراثم (الشراح) ،
هاتين الطائفتين الضخمتين من الشروح وهما الجمارا الفلسطينية والبابلية ،
كما اشتركت من قبل ستة أجيال (١٠ - ٢٢٠ م) من الأحبار التلاميذ
فى صياغة المشنا . وبذلك فعل المعلمون الجدد بمشنا يهودا ما فعله التلاميذ
بالعهد القديم : فتناقشوا فى النص ، وحلوه ، وفسروه ، وعدلوه ،
ووضحوه لكى يطبقوه على المشاكل الجديدة ، وعلى ظروف الزمان
والمكان . ولما قارب القرن الرابع على الانتهاء نسقت مدارس فلسطين
شروطها وصاغتها فى الصورة المعروفة بالجمارا الفلسطينية . وشرع الكوهن رب
آشى رئيس جامعة سورا حوالى ذلك الوقت فى تقنين الجمارا البابلية وظل
يواصل العمل فى ذلك التقنين جيلا من الزمان . وأتمه ربينا الثانى بار (ابن)
شمويل ، وهو أيضا من جامعة سورا بعد مائة عام من ذلك الوقت (٤٩٩) .

= كتاب ج . ف . مور المسمى « اليهودية فى القرون الأولى من التاريخ المسيحى Judaism in the First Centuries of the Christian Era » طبعة جامعة كيمبردج بولاية ماسشوستس
عام ١٩٣٢ المجلد الأول ص ١٥١ وكذلك كتاب و . ا . أوستلى W. O. Oestley
و . ج . هـ . بوكس O. H. Box المسمى فطرة قصيرة فى الآداب الدينية اليهودية فى العصور
الوسطى Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism.

وإذا ذكرنا أن الجمارا البابلية أطول من المشنا إحدى عشرة مرة ، بدأنا نعرف لم استغرق جمعها مائة عام كاملة . وظل الأحبار السبوراثم (المناطق) مائة وخمسين سنة أخرى (٥٠٠ - ٦٥٠) يراجعون هذه الشروح الضخمة ، وينصقلون التلمود البابلي الصقل الأخير .

بقى أن نقول إن لفظ التلمود يعنى التعليم . ولم يكن الأموراثم يطلقون اللفظ إلا على المشنا . أما فى الاستعمال الحديث فهو يشمل المشنا والجمارا . . . والمشنا فى التلمود البابلى هى بعينها مشنا التلمود الفلسطينى ، ولا يختلف التلمودان إلا فى الجمارا أو الشروح فهى فى التلمود البابلى أربعة أمثالها فى التلمود الفلسطينى (*) .

ولغة الجمارا البابلية والجمارا الفلسطينية هى الآرامية ، أما لغة المشنا فهى اللغة العبرية الجديدة تتخللها ألفاظ كثيرة مستعارة من اللغات المجاورة . وتتماز المشنا

(*) يشمل التلمود البابلى على ٢٠٤٩ ورقة من النطع الكبير أى نحو ٦٠٠٠ صفحة . فى كل منها ٤٠٠ كلمة . وتنقسم المشنا إلى ستة سدريمات sedarim (ست فصول) وينقسم كل سدريم إلى عدد من المسكتات Masechtoth (المقالات) يبلغ مجموعها ثلاثاً وستين مسكتة وتنقسم كل واحدة منها إلى عدد من البرقيات (الفصول) وكل برقيم إلى مسنيوتات (تعاليم) . وتشتمل الطبقات الحديثة من التلمود عادة على : (١) شروح راشى Raah (١٠٤٠ - ١١٥٥) وهذه تظهر على الهامش الداخلى لصفحات النصوص و (٢) توسافوتات Tosafot . (إضافات) وهى مناقشات فى التلمود للأحبار الفرنسيسيين والألمان من رجال القرنين الثانى عشر والثالث عشر وهذه تظهر على الهامش الخارجى لصفحات النصوص . وتضيف عدة طبقات إلى هذه وتلك توسفتات Tosefta (تكلمات) - وهى بقايا من الشريعة الشروية التى تخلو منها مشنا يهودا هلسيا .

وسنقتل فى هذا الفصل فصلاً عن ذلك من المدرش (التفسير) وهى خطب ألقاها - على حد قولهم - التلاميذ أو الأموراثم ولكنها جمعت ودونت خلال الفترة المصورة بين القرنين الرابع والثانى عشر ، وتشرح فى أسلوب شبقى مهمل كتباً مختلفة من الكتب العبرية المقدسة . ومن هذه المدرشيات (التفاسير) الكبرى تفسير جيتيز رباه Rabbah ' لسفر التكوين ، وويقرأ رباه لسفر اللاويين وخمسة ملفات (مجلوتات Megilloth) - تشرح إستير ، ونشيد الأنشاد ، والمراثى ، وسفر الجامعة : وتشرح المكيلا Nechilla سفر الخروج والسفر Sifra يشرح سفر اللاويين ، والسفر Sifre يشرح سفرى الأعداد والثنية ، وتحتوى البسيقتا على عظات ذات صلة بفقرات من الكتاب المقدس (١٢) .

بالإيجاز ، فهي تعبر عن القانون الواحد بقليل من السطور ، أما الجحاريان فتبسطان عن قصد وتعمد ، وتذكران مختلف آراء كبار الأحرار عن نصوص المشنا وتصفان الظروف التي قد تتطلب تعديل القانون وتضيفان كثيراً من الإيضاحات . ومعظم المشنا نصوص قانونية وقرارات (هــكـا) ، أما الجحاريان فبعضهما هـكـا - إعادة نص قانون أو بحثه - وبعضها هـجـدة (قصص) . وقد عرفت الهجدة تعريفاً غير دقيق بأنها كل ما ليس هـكـا في التلمود . وأكثر ما تسجله الهجدة هو القصص ، والأمثلة الإيضاحية . وأجزاء من السير ، والتاريخ ، والطب ، والفلك ، والتنجيم ، والسحر ، والتصوف ، والحث على الفضيلة ، والعمل بالشرعية ، وكثيراً ما تروج الهجدة عن نفس الطلاب المتعلمين بعد جـدل معقد متعب . ومثال ذلك ما يأتي :

بينما كان رب أمي ورب أسى يتحدثان مع الكوهن إسحق منجا إذ قال له أحدهما : « احك لنا يا سيدى قصة لطيفة » ، وقال الآخر : « لا بل أرجوك أن تفسر لنا بدلا من هذا نقطة دقيقة من النقاط القانونية » . فلما بدأ القصة أغضب أحدهما ، ولما أخذ يشرح النقطة القانونية أغضب الآخر . فلما رأى ذلك ضرب لهما هذا المثل : « إن مثلى معكما كمثل رجل تزوج بائنتين إحداهما شابة والأخرى عجوز ، فاقتلعت الزوجة الشابة جميع شعره الأشيب حتى يبدو شاباً ، واقتلعت الزوجة العجوز جميع شعره الأسود حتى يبدو عجوزاً ، وكانت نتيجة فعلهما هذا أن أصبح الرجل أصلع » (١٣) .

الفصل الثالث

الشريعة

فإذا حاولنا الآن على الرغم من جهلنا بالموضوع عامة أن نصور باختصار محل كريبه ، بعض مناحي هذا التلمود الضخم ، الذى تتأثر به كل صغيرة وكبيرة من حياة العبرانيين فى العصور الوسطى ، إذا حاولنا هذا وجب علينا أن نقر من بداية الأمر أننا إنما نخدش الجبل ، وأن معالجتنا لإياه من خارجه تعرضنا لا محالة للخطأ .

الناحية الدينية

يقول رجال الدين اليهود إن من واجب الإنسان أن يدرس الشريعة مسطورة وشفوية ، ومن حكمهم المأثورة فى هذا المعنى قولهم : «إن دراسة التوراة أجل قدراً من بناء الهيكل»^(١٤) . و«إن من واجب الإنسان وهو منهمك فى دراسة الشريعة أن يقول لنفسه كل يوم : «كأننا فى هذا اليوم قد تلقيناها: من طورسيناء»^(١٥) ، وليست الدراسات الأخرى يعد ذلك واجبة ، فالفلسفة اليونانية والعلوم الدنيوية لا تصح دراستها إلا فى تلك الساعة التى ليست ليلاً ولا نهراً^(١٦) . ويعتقد اليهود أن كل كلمة من كتابهم المقدس من كلمات الله بالمعنى الحرفى لهذه العبارة ، وحتى نشيد الإنشاد نفسه إن هو إلا ترنيمة موحى بها من عند الله — لتصور بصورة مجازية اقتران يهوه بإسرائيل عروسه المختارة(*)^(١٧) . وإذا كان انعدام الشريعة تعقبه حتماً القوضى الأخلاقية فإن

(*) ويفسر رجال الدين هذه العبارة بأنها وصف رمزى لاتحاد المسيح بالكنيسة زوجته المختارة .

الشريعة وجدت لا محالة قبل أن يخلق العالم « في صدر الله أو عقاه » (*) ، وكان إنزالها على موسى لا شيء غير حادثاً من حوادث الزمان . والتلمود أو بعبارة أدق جزؤه الذى يبحث في الشريعة (الهلكا) هو أيضاً كلمات الله الأزلية ؛ وهو صياغة للقوانين التى أوحاها الله إلى موسى شفويًا ثم علّمها موسى لحلفائه ، ولهذا فلنـ ما فيها من الأوامر والنواهي واجبة الطاعة تستوى في هذا مع كل ما جاء في الكتاب المقدس (**). - ومن أبحار اليهود من يجعلون المبشرا مرجعاً أقوى حجة من الكتاب المقدس ، لأنها صورة من الشريعة بمعللة بجاءت متأخرة عنها (١٨) . وكانت بعض قرارات الأحبار تتعارض تعارضاً صريحاً مع قوانين أسفار موسى الخمسة . ، أو تفسرها تفسيراً يبيح مخالفتها (١٩) . وكان يهود ألمانيا وفرنسا في العصور الوسطى يدرسون التلمود أكثر مما يدرسون الكتاب المقدس نفسه .

ومن المبادئ البديهة في التلمود ، كما أن من المبادئ البديهة في الكتاب المقدس وجود إله عاقل قادر على كل شيء . وقد وجد بين اليهود من حين إلى حين عدد من المتشككين أمثال الإشع بن أيوبا العالم الذى اتخذ الكوهن مثير صديقا له ، ولكن يبدو أن أولئك المتشككين كانوا أقلية صغيرة لا تكاد تهمج بآرائها . والله كما يصفه التلمود إله متصف بضراعة بصفات البشر ، فهو يحب ويغضب ويغضب (٢٠) ويضحك (٢١) ويبكى (٢٢) . ويحسن بوخر الضمير ،

(*) قارن بذلك ما يعتقد الصينيون المتقدمون من أن حركة العالم وبقائه إنما يعتمدان على القانون الأخلاقى ؛ وتشبيه هرقلطس حيود الكواكب السيارة بالذنوب ؛ و « أمتار » أفلاطون الفؤذية الأصلية المقدسة . وأصل هذه النظرية يرجع إلى الآية الثامنة والعشرين من الأصحاح الثامن من سفر الأمثال . وقبل أقر المسيح بأولية الشريعة (الآية ٧ من الأصحاح السابع عشر من إنجيل لوقا ، والآية الثامنة عشرة من الأصحاح الخامس من إنجيل متى) ؛ كذلك يعتقد المسلمون أن القرآن أيضاً أرى .

(**) لم يقر أى مجمع يهودى رسمى هذا الرأى التلمودى الخاص بالتلمود ؛ واليهودية الحديثة بعد إصلاحها ترفضه .

وبلبس التمام^(٢٤) ، ويجلس على عرش يحيط به طائفة من الملائكة المختلفي الدرجات يقومون على خدمته ، ويدرس التوراة ثلاث مرات في كل يوم^(٢٥) . ويعترف رجال الدين بأن هذه الصفات البشرية قائمة على الافتراض إلى حد ما ، ويقولون : « إننا نستعير له صفات من خلقه نصفه بها لنيسر بذلك فهمه »^(٢٦) ؛ وإذا لم يكن في مقدور العامة أن يفكروا إلا على أساس الصور المادية فليس الذنب واقعاً عليهم . وهم يصورون الله أيضاً بأنه روح الكون غير المنظورة ، السارية فيه كله ، تمدّه بالحياة ، تسمو عليه وتلازمه في وقت واحد ، تعلو على العالم ولكنها مع ذلك حائلة في كل ركن من أركانه وكل جزء من أجزائه . والحضرة الإلهية الكونية المسماة بالسُّكِينَا (السَّكَن) تكون حقيقية بنوع خاص في الأشخاص المقدسين وفي الأماكن والأشياء المقدسة ، وفي ساعات الدرس والصلاة . لكن هذا الإله القادر على كل شيء رغم هذا إله واحد . وليس بين الأفكار كلها فكرة أبغض إلى اليهودية من تعدد الآلهة ، واليهود لا يفتنون يمجرون بوحدانية الله في حماسة قوية وينددون بشرك الوثنية وبما يبدو في الثالث المسيحي من تثليث . وهم يمجرون بهذه الوحدانية في أشهر صلواتهم وأكثرها انتشاراً بينهم صلاة شمع يسرائيل : « اسمعي يا إسرائيل ، الله إلهنا ، الله واحد » (شمع يسرائيل أدوناي إلهنا أدوناي أحد)^(٢٧) . وليس ثمة مكان بجواره في هيكله أو عبادته إلى مسيح ، أو نبي ، أو قديس . وقد نهى أحبار اليهود الناس عن ذكر اسمه إلا في أحوال جد نادرة يقصدون بذلك أن يحولوا بينهم وبين تدنيسه أو اتخاذه وسيلة للسحر ، ولكي يتجنبوا النطق بهذا الاسم الرباعي يهوه كانوا يذكرون بدلا منه لفظ أدوناي أي الرب ، بل ويشيرون بأن يستعمل بدلا منه عبارات مثل : « الواحد المقدس » « الواحد الرحيم » « السماوات » « أبينا الذي في السماء » . وفي اعتقادهم أن الله قادر على صنع المعجزات وأنه يصنعها فعلا ، وخاصة على أيدي كبار الأحبار ، ولكن يجب ألا يظن أن هذه

المعجزات خرق لقوانين الطبيعة إذ ليس ثمة قوانين لإرادة الله ،

وقد خلق كل شيء لغرض إلهي طيب : « فقد خلق الله القوقعة لمداداة الحرب ، والزجاجة لمداداة لسعة الزنبور ، والبعوضة لمداداة عضه الأفعى ، والأفعى لعلاج الاحتقان^(٢٨) ، وبين الله والإنسان صلة لا تنقطع ، وكل خطوة يخطوها إنما يخطوها أمام ناظره لا تخفى عنه ، وكل عمل يعمله الإنسان أو فكرة تجول بخاطره في خلال يومه يمجدها الذات الإلهية أو يغيضها . والناس كلهم أبناء آدم ، ولكن « الإنسان قد خلق أولاً وله ذنب كذنب الحيوان^(٢٩) » و كانت وجوه الناس إلى عهد أخنوخ شبيهة بوجوه القردة^(٣٠) . ويتكون الإنسان من جسم وروح ، فروحه من عند الله ، وجسمه من الأرض ، والروح تدفعه إلى الفضيلة ، والجسم يدفعه إلى الخطيئة . أولعل دوافعه الشريرة قد أتت إليه من الشيطان ، ومن ذلك العدد الجحيم من الأرواح الخبيثة التي تكمن حوله في كل مكان^(٣١) . بيد أن كل شر قد يكون في نهاية الأمر خيراً ؛ ولولا شهوات الإنسان الأرضية لما كد الإنسان أوتناسل . ونقول إحدى الفترات الظرفية « تعال نغز الخير لآبائنا ، فلنهم لو لم يأثموا لما جئنا نحن إلى هذه الدنيا^(٣٢) :

والخطيئة من فطرة الإنسان ، ولكن ارتكابها ليس موروثاً ، وقد قبل أحبار اليهود عقيدة سقوط الإنسان ، ولكنهم لم يقبلوا عقيدة الخطيئة الأولى ولا الكفارة الإلهية . فالإنسان في رأيهم لا يعاقب إلا على ما ارتكبه هو من الذنوب ، وإذا ما لقي من العقاب في الحياة الدنيا أكثر مما يبدو له أنه يستحقه على ذنوبه ، فقد يكون ذلك لأننا لا نعرف مقدار هذه الذنوب كلها ، أو قد يكون هذا الإفراط في العقاب نعمة كبرى ، توهمه للخير العميم في الدار الآخرة . ومن أجل هذا يجب على الإنسان كما يقول عقيباً أن ينتهج لكثرة ما يصيبه من سوء^(٣٣) . أما الموت فقد جاء إلى الدنيا بسبب آثام الإنسان ، وغير الآثم يحق لا يموت أبداً^(٣٤) . فالموت دين على البشرية الآثمة لباعث الحياة جميعها . ويقص

علينا مدرسن قصة مؤثرة عن موت الكائن ماير فيقول :

بينما كان الكوهن ماير يلقى موعظته الأسبوعية عصر يوم من أيام السبت إذ مات ولداه المحبوبان فجاءة في منزله . فغطتهما أمهما بغطاء ، وأبت أن تندبهما في اليوم المقدس . ولما عاد الكوهن ماير بعد صلاة المساء سأل عن ولديه لأنه لم يرها في الكنيس بين المصلين ، فطلبت إليه أن يتلو المهداة (وهي دعاء يختم به السبت) وقدمت له العشاء . ثم قالت له : « لدى سؤال أريد أن أسألك إياه . اتمننى أحد الأصدقاء في يوم من الأيام على جواهر أحفظها له ، ثم أراد الآن أن يستعيدها فهل أردتها إليه ؟ » فأجابها الكوهن ماير « ذلك واجب عليك بلا ريب » ، فأمسكت زوجته حينئذ بيده ، وسارت به إلى الفراش ورفعت عنه المغطاء . فأخذ الكوهن ماير ينتحب ولكن زوجته قالت له : لقد كانا وديعة لدينا إلى حين والآن قد أراد سيدها أن يسترد وديعته » .

ولم يقل كتاب العبرانيين المقدس إلا الشيء القليل عن خلود الثواب والعقاب ، ولكن هذه الفكرة أصبحت ذات شأن كبير في آراء الأبحار الدينية . فقد صوروا النار على أنها جهنم Ge Hinnom أو شاول (*) ، وقسموها كما قسموا السموات إلى سبع طبقات تتدرج في درجات العذاب . ولا يدخلها من المختلئين إلا أخبثهم (٣٦) ، وحتى الآثمون الذين يداومون على الإثم لا يعذبون فيها إلى أبد الآبدين ، بل إن « كل من يلقون في النار يخرجون منها مرة أخرى لإفئات ثلاثا : الزاني ، ومن يفضح غيره أمام الناس ، ومن يسب غيره » (٣٧) . أما السماء فقد كانوا يسمونها جنة عدن Gen Eden ، وكانوا يصورونها في صورة حديقة تحوى جميع المسرات الجسدية والروحية . فخمرها عصرت من كروم احتفظ بها من

(*) كان وادي هم كومة من الأقدار في خارج أورشليم ، تظل النار متقدة فيه لمنع انتشار الأوبئة . أما شاول فقد كانت في رأيهم مكاناً مظلماً تحت الأرض يذهب إليه جميع الأموات .

السته الأيام التي خلق فيها العالم ، وأخواء فيها معطر بالبروائح الزكية ، والله نفسه يجتمع بالناجين من العذاب في وليمة أعظم ما يسر أصحابها أن يروا وجهه . بيد أن بعض أحبار اليهود يعترفون بأن أحداً لا يعرف قط ما وراء القبر (٣٨) .

وإذا ما فكر اليهود في النجاة كان تفكيرهم فيها أنها نجاة الشعب لا نجاة الفرد . وذلك أنهم وقد شتتوا في أنحاء العالم بضروب من القسوة لا يبررها في ظنهم عقل ، وأخذوا يقوون أنفسهم باعتقادهم أنهم لا يزالون شعب الله المحبوب المختار ، فهو أبوهم ؛ وهو إله عادل ، ولا يمكن أن ينكث عهده لإسرائيل . أليسوا هم الذين أنزل عليهم كتابه المقدس الذي يؤمن به المسيحيون والمسلمون ويعظمونه ؟ وقد دفعتهم شدة بأسهم إلى درجة من الكبرياء اضطرب منه أحبارهم الذين سموا بهم إلى تلك الدرجة أن ينزلوا بهم عنها بضروب اللوم والتأنيب . وكانوا في ذلك الوقت كما هم الآن يتوقون إلى البلد الذي نشأت فيه أمهم ، وكانوا يعزونها ويرون أنها المثل الأعلى لجميع البلدان ، ويقولون « إن من يمشى أربع أذرع في فلسطين يعيش بلا ريب إلى أبد الآبدين ، ومن يعيش في فلسطين يطهر من الذنوب » (٣٩) . « وحديث من يسكنون فلسطين في حد ذاته تورا » (٤٠) ، وأهم قسم في الصلوات اليومية وهو الشمونة عسرا (الفقرات الثمان عشرة) . تحوى دعاء بمجىء ابن داود ، الملك المسيح الذي يجعل اليهود كما كانوا أمة متحدة ، حرة ، يعبدون الله في هيكلهم بشعائهم وترانيمهم القديمة

٢ - الشعائر الدينية

لم يكن ما يميز اليهود من غيرهم من الشعوب في عصر الإيمان الذي نتحدث عنه ، والذي يحفظ عليهم وحدتهم وهم مشنتون ، هو عقيدتهم الدينية بل شعائهم ، لم يكن هو العقيدة التي لم تفعل المسيحية أكثر من التوسع فيها والتي قبل الإسلام الكثير منها بل هو قواعد الطقوس والمراسم المعقدة تعقيداً ثقيلاً لم يكن في مقدور

شعب غير هذا الشعب انتكبر : السريع التأثر ، أن يظهر من الوداعة والصبر . ما تتطلبه إطاعته والعمل بها . لقد كانت المسيحية تئسد الوحدة عن طريق توحيد العقيدة ، أما اليهودية فكانت تنفثها عن طريق توحيد الشعائر . وفي ذلك يقول أبا أريكا : « إن الشرائع لم توضع إلا لكي توتذب الناس وترقق طباعهم بالعمل بها »^(١١) .

ولقد كانت الشعائر أولاً وقبل كل شيء هي قانون العبادة . ولما أن حلت المعابد اليهودية محل الهيكل استبدلت بالأضاحى الحيوانية القرابين والصلوات ، ولكنهم لم يكونوا يجيزون وضع صورة لله أو للآدميين في المعابد كما لم يكونوا يجيزون وضعها في الهيكل . ذلك أنهم كانوا يتجنبون كل ما يشتم منه عبادة الأوثان ، وكذلك كانت الموسيقى الآلية المباحة في الهيكل محرمة في المعابد . وفي هذا تختلف المسيحية عن اليهودية وتتفق مع الإسلام ، فقد نكشفت الدينان الساميان عن تقوى قائمة وتكشفت المسيحية عن فن مقبض قائم كذلك .

وكانت الصلاة تجربة دينية يمارسها اليهودى المتدين كل يوم ، بل يكاد يمارسها في كل ساعة . وكانت صلوات الصباح تتلى من قلفطيرات (علب صغيرة محتوية على فقرات من الكتاب المقدس) مثبتة على الجباه والأذرع ولم يكونوا يطعمون طعاماً دون أن يتلوا دعاء قصيراً قبله وصلاة للشكر طويلة في نهايته . على أنهم لم يكونوا يكتفون بهذه الصلوات المنزلية ، ذلك أن الناس لا يرتبطون وبما سكون إلا إذا اشتركوا معاً في القيام بأعمال واحدة ، وكان أحبار اليهود يحتاجون بما عرف عن الشرقيين من مبالغة أن « الله لا يستجيب لصلاة الإنسان إلا إذا قام بها في الكنيس »^(١٢) . وكان أهم ما تشتمل عليه الطقوس الدينية العامة هو « السبوتة عسرا » ، « والشمع يسرائيل » ، وتلاوة من أسفار موسى الخمسة ، ومن سفر الأنبياء ، ومزامير داود ، وعظة تشتمل على تفسير فقرات من الكتاب

المقدس ، وعلى « قديس Kaddish » (أدعية حمد وبركة للأحياء والأموات)
ثم دعاء ختامى : ولا يزال هذا هو الأساس الجوهرى للشعائر التى تقام فى
المعابد إلى يومنا هذا .

وأدق من هذه الشعائر وأكثر منها تفصيلاً القواعد الخاصة بالنظافة
البدنية أو طقوس الطهارة . فقد كان أحبار اليهود يرون أن الصحة البدنية تعين
على سلامة الروح ^(٤٣) ، ولهذا كانوا يحرمون على بنى دينهم أن يعيشوا فى مدينة
ليس بها حمام ^(٤٤) ، ويعينون للاستحمام قواعد تكاد تبلغ مرتبة الأوامر الطبية
كقولهم : « إذا اغتسل الإنسان بماء ساخن ولم يغتسل بعده بماء بارد كان مثله كمثل
الحديد الذى يحمى فى تنور ثم لا يوضع بعدئذ فى ماء بارد » ^(٤٥) ، فثلل الجسم كثلل
الحديد يجب أن يُسقى ويُقَسَّى . ويجب أن يدهن الجسم بالزيت بعد الاستحمام ^(٤٦) .
كذلك يجب غسل اليدين عقب الاستيقاظ مباشرة ، وقبل تناول كل
وجبة من الوجبات وبعد تناولها ، وقبل الصلاة العامة وقبل القيام بكل شعيرة
دينية . وكانت جثث الموتى ، والاتصال الجنسى ، والحيض ، والولادة ،
والحشرات ، والخنازير ، والجلثام (ومختلف الأمراض الجلدية) كانت هذه
كلها حسب القواعد الدينية نجسة . ومن مس شيئاً منها أو أصيب به وجب
عليه أن يتوجه إلى الكنيس ويؤدى فيه شعائر التطهير . وكانت المرأة تعد
نجسة (أى لا يقترب منها زوجها) أربعين يوماً بعد أن تلد ولداً ذكراً ،
وثلاثين يوماً إذا كانت المولودة أنثى ^(٤٧) . ويجب وفقاً لما ورد فى الكتاب
المقدس (فى الآيات من ٩ إلى ١٤ من الأصحاح السابع عشر من سفر التكوين)
أن تجرى عملية الختان للمولود الذكور فى اليوم الثامن بعد مولده ، وكان
هذا الختان يعد قرباناً ليهوه وعهداً بينه وبين عباده ؛ ولكن انتشار
هذه العادة بين المصريين القدماء ، والأحباش ، والفينيقيين ، والسوريين ،
والعرب ، يوحى بأنها كانت إجراء صحياً يحتمه الجو الذى يساعد على
النضوج والاهتياج الجنسى المبكرين ، أكثر مما هو وسيلة من وسائل النظافة

ويؤيد هذا الرأى ما يجتمه أبحار اليهود على بنى دينهم ألا يبقوا لديهم عبداً أكثر من اثنى عشر شهراً دون ختان (٤٨) .

ولقد ينحىل إلى الإنسان وهو يقرأ بعض أجزاء من التلمود أنه كتاب . بسط في الطب المنزلى أكثر مما هو كتاب في الشرائع الدينية ، والحق أنه كان لا بد أن يجعل بمثابة موسوعة من النصائح للشعب اليهودى . ذلك أن يهود القرن الرابع والقرن الخامس بعد الميلاد كانوا كمعظم شعوب البحر المتوسط . ينزلون عائلدين إلى الخرافات والحيل الطبية التى تسود بين الشعوب المنعزلة الفقيرة ؛ ولقد تسرب كثير من هذا الطب الشعبى والخزافى إلى التلمود . غير أننا مع هذا نجد فى الجمارا البابلية وصفها غاية الجودة للمرىء ، والخنجرة ، والقصبه المئوية ، والرئين ، والأغشية السحائية ، وأعضاء التناسل . وقد وصفت فيه خراجات الرئين وتليف الكبد ، والحرص الجبتي وكثير غيرها من الأمراض وصفاً دقيقاً ؛ ومما أثبتته الأحبار أن الدباب وأكواب الشرب قد تنقل العدوى (٤٩) ، كما أثبتوا أن التدمام (أى الاستهداف للنزف) داء وراثى يجعل ختان أبناء المصابين به أمراً غير مستحب . لكن هذه الآراء قد اختلطت بها رقى سحرية لطرده الأرواح الخبيثة التى يحسونها سبباً فى الأمراض .

ولقد كان أبحار اليهود ، مثلنا نحن جميعاً ، خبراء فى التغذية الصحية . وتبدأ القواعد الحكيمة للتغذية عندهم بالأسنان . فهذه فى رأيهم يجب ألا تخلع ، مهما اشتدت آلامها (٥٠) لأن « الإنسان إذا أجاد مضغ الطعام بأسنانه وجدت قدماء القوة » (٥١) . وهم يمتدحون الخضروالفاكهة ما عدا الباق ويوصون بأكلها . أما اللحم فن مواد الترف التى يجب ألا يتناولها سوى المتطهرين (٥٢) . ويجب أن يذبح الحيوان بحيث تقل آلامه إلى أقصى حد ، وبحيث يخرج الدم من اللحم ، لأن أكل اللحم بما فيه من الدم رجس . ومن أجل هذا يجب أن يعهد ذبح الحيوان لمتخاذ لحمه طعاماً إلى أشخاص مدربين ، عليهم أن يفحصوا عن أحشائه

حتى يتأكدوا من أن الحيوان سليم من الأمراض . ويجب ألا يجمع في الوجبة الواحدة بين اللحم واللبن أو بين الأطعمة التي يدخل فيها هذان الصنفان ، بل يجب ألا يوضعا قريبين أحدهما من الآخر في المطبخ^(٥٣) . ولحم الخنزير محرم ممقوت ، ولا يصح أكل البيض ، أو البصل ، أو الثوم إذا كان قد ترك بالليل منزوع القشر^(٥٤) . ويجب الامتناع عن تناول الطعام في غير أوقاته المحددة : « لا تنقر طول النهار كاللدجاج »^(٥٥) . و « الذين يموتون من الإفراط في الأكل أكثر ممن يموتون من نقص التغذية »^(٥٦) . « والأكل إلى سن الأربعين نافع للصحة ، أما بعد الأربعين فالشرب نافع لها »^(٥٧) ، والاعتدال في الشرب خير من الامتناع عنه بتاتا ، فكثيراً ما يكون الخمر دواء نافعا^(٥٨) ، و « ليس ثمة سرور إلا به »^(٥٩) . وقد أراد أحبار اليهود أن يسبروا في موضوع التغذية إلى غايته فقالوا إن « من يطل المكث في المرحاض يطل عمره » وأشاروا بأداء صلاة شكر كلما استجاب الإنسان لنداء الطبيعة^{(٦٠)*} .

وكانوا يقاومون التمسك وينصحون بني دينهم أن يتمتعوا بطيبات الحياة إذا لم يكن فيها ما هو محرم^(٦١) . وقد فرض عليهم الصيام في مواسم معينة وفي بعض الأيام المقدسة ، ولكن لعل الدين هنا قد اتخذ وسيلة للحض على العناية بالصحة . وافتضت حكمة الشعب أن يؤمر اليهود بأن يحتفلوا بالأعياد وقيموا الولائم من آن إلى آن ، رغم نغات الحزن والأسى التي كانت تسمع منهم حتى في أفراحهم . « يجب على الإنسان أن يدخل السرور في العيد على زوجته وآل بيته » . ويجب عليه إن استطاع أن يهيئ لهم ثياباً جديدة^(٦٢) . ويبدو أن السبت — وهو أعظم ما ابتدعه اليهود — كان عبثاً ثقيلاً عليهم في أيام التلمود ، فقد كان ينتظر من اليهودى التي أن يجعل كلامه أقل ما يستطيع ، وألا يوقد النار في منزله ، وأن يقضي الساعات عاكفاً على الصلاة في الكنيس . وثمة نبذة طويلة تتحدث بالتفصيل

(٥) أى كلما ذهب إلى المرحاض .

الواني الممل عما يجوز عمله وما لا يجوز في السبت . ولكن فتاوى الأحبار كانت تهدف إلى التقليل من أهوال التقوى أكثر مما تهدف إلى زيادتها . وكان ما فيها من الدقة يرمى إلى تلمس الأسباب المقتنة لحمل الإنسان على أن يفعل ما يجب عليه أن يفعله في يوم الراحة . . يضاف إلى هذا أن اليهودي الصالح كان يجد سعادة خفية في التمسك بشعائر السبت القديمة : فكان يبدؤه بقداس قصير . كان وهو نحوظ بأفراد أسرته وبأصدقائه (لأن هذا اليوم كان من الأيام التي يخلو فيها دعوة الأصدقاء) ، يمسك بيده كأساً مملوءاً بالخمر ، يتلو عليها بعض الأدعية ، ثم يشرب بعضها ويناول الكأس لضيفه وزوجته وأبنائه . ثم يأخذ بعدئذ الخبز ويباركه ، ويحمد الله « الذي يخرج الخبز من الأرض » ، ويعطي بعضه لكل من يجلسون معه على المائدة . ولا يجوز الصوم أو الحزن في السبت :

وكانت أيام مقدسة كثيرة تتخلل العام وتتيح لليهود الفرص للاحتفال بالذكريات المقدسة أو للراحة المحيية . فمنها عيد الفصح اليهودي الذي يبدأ في الرابع عشر من شهر نيسان (إبريل) ويستمر ثمانية أيام يحيى فيها ذكرى فرار اليهود من مصر : وكانوا في الأيام الأولى من العهد الذي أوحى فيه بالكتاب المقدس يسمونه عيد الخبز الفطير ، لأن اليهود قد فروا ومعهم المعجن الذي يصنعون منه خبزهم دون أن يختمر . وكان هذا العيد يسمى في أيام التلمود عيد المرور ، لأن يهوه وهو يقضى على البكور من أبناء المصريين قد « مر » بالبيوت التي رش من فيها من اليهود دم الحمل على قوائم أبوابها (٦٣) . وكان اليهود يحتفلون في اليوم الأول من هذا العيد بوجبة عيد الفصح (السدير) ، فكان كل أب يرأس حفلة الصلاة لأسرته المجتمعه عنده ، ويقوم معهم بمراسم تذكروهم بأيام موسى البثيسة ، ينقل في خلالها عن طريق الأسئلة والأجوبة القصة القيمة العزيزة إلى الأبناء الصغار وفي عيد الغنصرة ، وموعده بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح يحتفل اليهود في عيد شيعوت بحصاد القمح وتجلل الله لموسى على الجبل في سيناء . وفي اليوم الأول من

تشرين - وهو الشهر السابع من السنة اليهودية الدينية ، والشهر الأول من سنة اليهود المدنية - وهو يتفق بوجه عام مع الاعتدال الخريفي يحتفل اليهود بعيد رأس السنة ، وبهلال الشهر ، وينفخون في قرن الحمل (الشفار أى الصفارة) لإحياء للذكرى نزول التوراة ، ودعوة الناس إلى التوبة من الذنوب ، واستعجالا لذلك اليوم السعيد حين يدعى جميع يهود العالم ليعبدوا الله في أورشليم . ومن مساء رأس السنة إلى اليوم العاشر من تشرين أيام توبة وتكفير عن الذنوب ، وكان أتقياء اليهود في هذه الأيام جميعها ما عدا اليوم التاسع منها يصومون ويصلون ، فإذا جاء اليوم العاشر المسحى يوم هاكيريم (يوم الغفران) لم يكن يجوز لهم فيه أن يأكلوا أو يشربوا أو يخلطوا نعالا أو يقوموا بعمل أو يستحموا أو يقربوا النساء من مطلع الشمس إلى مغيبها ، بل كانوا يقضون النهار كله في الكنيس يصلون ، ويعترفون بذنوبهم ، ويستغفرون لها هي وذنوب بني دينهم ، يستغفرون لهذه الذنوب بما فيها عبادة العجل الذهبي نفسه . وفي اليوم الخامس عشر من شهر تشرين يحل عيد سوكونات أو عيد المظلات . وكان المفروض أن يقضى اليهود هذا العيد في أخصاص لإحياء للذكرى الخيام التي يقال إن آباءهم الأقدمين قد ناموا فيها خلال الأربعين يوما التي قضوها في البيداء . ولما وجد اليهود المشتتون صعبا جمعة في الاحتفال بعيد الحصاد هذا كما هو مفروض عليهم بالدقة ، أظهر أحبارهم ما يتصفون به من تسامح بأن فسروا السكة (الخيمة) بأنها كل ما يصبح أن يرمز به للمسكن . وفي اليوم الخامس والعشرين من الشهر التاسع شهر كسلو (ديسمبر) والسبعة الأيام التالية لهذا اليوم يقع عيد حنكة أو التكريس ، الذي يذكرهم بتطهير الهيكل من المكابيين (١٦٥ ق . م) ، بعد أن دنسه أنتيوخوس إيفانيز Antiochuc Epiphanes ؛ وفي الرابع عشر من آذار (مارس) يحتفل اليهود بعيد يوريم الذي أنجى فيه موردكى وإستر الشعب من مكر الوزير الفارسي هامان . وكانوا في ذلك اليوم يتبادلون الهدايا والدعوات أثناء وليمة مريحة يشربون .

فيها الجمر ، وفي ذلك يقول رب ربا Rab Raba إن على الإنسان أن يشرب في ذلك اليوم حتى لا يستطيع التمييز بين قوهم « ملعون هامان » و « ملعون موردكى » (٦٤) .

وليس من حقنا أن نظن أن هؤلاء اليهود التلموديين قوم مفرطون في التشاؤم يحزن في نفوسهم احتقار من حولهم من الشعوب لمواهبهم ، تتقاذفهم أعباء صير العقائد المتباينة ، يهيمون في بيداء الآمال بالرجوع إلى بلادهم . ذلك أنهم وهم يعانون مرارة التشنث والظلم ، والندم والفقر ، كانوا يرفعون رؤوسهم عالية ، ويتذوقون لذة العمل والكفاح في سبيل الحياة ، ويستمتعون بما يتحلى به نساؤهم المثقلات من جماء قصير الأجل وما في الأرض والسماء من جلال مقيم . وفي ذلك يقول كوهنهم ملير : « يجب أن ينطق الإنسان في كل يوم بمائة دعوة صالحة » (٦٥) . ويقول كوهن آخر قولاً ما أجددنا كلنا أن نعمل به « إذا مشى إنسان أربعة أذرع لا أكثر لم يطأ في فيها رأسه أغضب الله ، ألم يرد في الكتاب المقدس « مجده ملء كل الأرض » (٦٦) .

٣ - المبادئ الأخلاقية في التلمود

ليس التلمود موسوعة من التاريخ ، والدين ، والشعائر ، والطب ، والأقاصيص الشعبية وحسب ، بل هو فوق هذا كله رسالة في الزراعة ، وفلاحة البساتين ، والصناعة ، والمهن ، والتجارة (٦٧) ، وشئون المال ، والغرائب ، والملك والرق ، والميراث ، والسرقة ، والمحاكمات القضائية ، والقوانين الجنائية . وإذا شئنا أن نوفي هذا الكتاب حقه من البحث ، كان علينا أولاً أن نلم بطائفة كبيرة العدد من العلوم المختلفة ، وأن نكتسب منها ما تهيوه لعقولنا من الحكمة وسداد الرأي ، ونستخدم تلك الحكمة الجامعة في الإلمام بأحكام هذا الكتاب في الميدان المختلفة السالفة الذكر .

وأول ما نذكره أن التلمود أولاً وقبل كل شيء قانون أخلاقى ، وأن هذا القانون

الأخلاق شديد الاختلاف عن القانون الأخلاقي المسيحي وعظيم الشبه بالقانون الإسلامي ، حتى لتكفى نظرة خاطفة إليه لدحض الرأي السائد في العصور الوسطى القائل بأنه ليس إلا قصة المسيحية في تلك العصور . إن الأديان الثلاثة الكبرى متفقة في أن المبادئ الأخلاقية الفطرية - غير الدينية - تصلح لأن تكون قواعد عملية للإنسانية ، وترى أن الكثرة الغالبة من الناس لا يمكن أن تحمل على المسلك الحسن والخلق القويم إلا عن طريق خوف الله . ولهذا أقامت الأديان الثلاثة قانونها الأخلاقي على مبادئ رئيسية واحدة : أن الله حيناً تبصر كل شيء ، ويدأ تسجل كل شيء ، وأن القانون الأخلاقي منزله من عند الله ، وأن الفضيلة تنفق في آخر الأمر مع السعادة بما يناله المحسن بعد الموت من الثواب والمسيء من العقاب . ولم يكن من المستطاع في الدينين الساميين فصل القوانين الثقافية والأخلاقية من الدين ، فلم تكن هذه القوانين تجيز التفرقة بين الجرمية والخطيئة ، أو بين الشر والشرعية الكنسية ، بل إنه من مبادئها المقررة أن كل فعل ذميم . يعد إساءة إلى الله وانهاكاً لحرماته ولاسمه جل جلاله .

وتتفق الأديان الثلاثة فضلاً عن هذا في بعض قواعد الأخلاق : تتفق في حرمة الأسرة والمسكن ، وفيما يجب للآباء وكبار السن من تكريم وإجلال ، وفي حب الأبناء ورعايتهم ، وفي عمل الخير لجميع الناس . وليس ثمة شعب أكثر من اليهود حرصاً على تجميل الحياة العائلية ، ولقد كان عدم الزواج عن قصد من الآثام الكبرى في اليهودية كما هو في الإسلام (٦٨) ، وكان إنشاء البيت وتكوين الأسرة من الأمور الشرعية التي يحتمها الدين (٦٩) ، وتنص عليه القاعدة الأولى من قواعد الشريعة البالغ عددها ٦١٣ قاعدة ؛ وفي ذلك يقول أحد المعلمين اليهود (٧٠) « إن من لا ولد له يعد من الأموات » ، ويتفق اليهودي ، والمسيحي ، والمسلم أن البشرية تصبح مهددة بالزوال إذا ما فقدت قوتها وأمر الدين التي نقضى بوجود إيجاب الأبناء . على أن أحبار اليهود أباحوا تحديد عدد أفراد الأسرة ،

بعض الأحوال ، وينضلون أن تكون السبيل إلى هذا هي منع الحمل ، وفي ذلك يقول بعضهم : « هناك ثلاث طبقات من النساء يجب عليهن أن يستعملن الأدوية الماصة : القاصر خشية أن يقضى الحمل على حياتها ؛ كيلا تكون النتيجة هي الإجهاض ، والمرضع حتى لا تحمل فتضطر إلى فطام الرضيع قبل الأوان فيموت الطفل » (٧١) .

وكان اليهود ، كما كان معاصروهم ، يكرهون أن يلدوا بنات ويسرون إذا أنجبوا الذكور ، ذلك أن الذكر لا الأنثى هو الذى يحمل اسم أبيه واسم الأسرة ، ويرث أملاكه ، ويعنى بقره بعد وفاته ؛ أما البنت فسوف تزوج فى بيت غريب وقد يكون بيتاً بعيداً ، ولا تكاد تم تربيتها حتى يفقدها أبواها . لكن الآباء متى ززقوا الأبناء ، ذكورا كانوا أو إناثاً ، أعروهم وأدبوهم تأديباً فمزوجاً بالحب وفى ذلك يقول أحد أحبارهم : « إذا كان لابد لك أن تضرب طفلك ، فاضربه برباط حذاء » (٧٢) . ويقول آخر « إذا امتنع الإنسان عن عقاب طفل ، انتهت به الحال إلى الفساد المطلق » (٧٣) . وكان من الواجب على الآباء أن يتحملوا كل تضحية تتطلبها تربية الأبناء أى تثقيف العقل ، وتقويم الخلق بدراسة « الشريعة وأسفار الأنبياء » . وقد جاء فى أحد الأمثال العبرية : « إن العالم ينجو بنفس تلاميذ المدارس » (٧٤) . فالسكينة أو الحضرة الإلهية تتجلى فى وجوههم ، وفى نظير هذا يجب على الابن أن يعظم والديه ويحميهما بكل ما فى وسعه وفى جميع الأحوال .

والصدقات من الواجبات التى لا مفر من أدائها وإن « من يتصدق لأعظم من يقدم كل القرايين » (٧٥) . ولقد كان بعض اليهود أشحاء ، وبعضهم بخلاء إلى أقصى حدود البخل ، ولكنهم بوجه عام يفوقون سائر الشعوب فى هباتهم وتبرعاتهم ، وقد بلغ من سخائهم فى هذه الناحية أن اضطروا أجبارهم إلى أن ينهزم عن إعطاء أكثر من خمس أموالهم للصدقات ؛ ونعم هذا فقد وجد عند

مؤاة بعضهم أنهم قد أعطوا نصف ما يملكون رغم هذا التحريم^(٧٦) . « لقد كانت تلوح على وجه أبا أومنا على الدوام هالة من الطمأنينة القدسية ، ذلك بأنه كان جراحا ولكنه لم يكن يرضى أن يمسك بيديه أجراً على عمله ، بل كان له صندوق في ركن حجرة استشارته يستطيع من كان في مقدوره أداء شيء من المال أن يضع فيه ما يرغب في أدائه... وحتى لا يعثرى الخجل من يعجز عن أداء شيء منه »^(٧٧) . وكان رب هونا « إذا جلس لتناول الطعام فتح أبوابه ونادى : من كان في حاجة فليدخل ويطعم »^(٧٨) . وكان شاما بن إلعي Chama ben Elai يطعم الخبز كل من يطلبه ويضع يده في كيس نقوده كلما سار في خارج داره حتى لا يحجم أحد عن سؤاله^(٧٩) . ولكن التلمود كاد يؤنب التظاهر بالهذل ويشير بأن يكون سرّاً ويقول « إن من يعطى الصدقات سرّاً أعظم من موسى »^(٨٠) .

ووجه رجال الدين كل ما أوتوا من علم وبلاغة لامتداح نظام الزواج الذى كان هو والدين الأساس الذى يقوم عليه صرح الحياة اليهودية كلها . ولم ينددوا بالشهوة الجنسية ولكنهم كانوا يحشون قوتها وبدلوا جهدهم في كبح جماحها . فمنهم من كان ينصح بأكل الملح مع الخبز « ليقبل المني »^(٨١) ، ومنهم من كان يحس بأن الوسيلة الوحيدة لكبح جماح الشهوة الجنسية هو العمل المجهد مضافاً إلى دراسة التوراة ؛ فإذا لم يجد هذه الوسيلة « فليذهب إلى مكان لا يعرفه فيه أحد ، وليلبس سود الثياب ، وليفعل ما تبتغيه نفسه ، ولكن عليه ألا يدنس اسم الله جهرة »^(٨٢) . وعلى الإنسان أن يتبعد عن كل المواقف التى تثير شهوته ، فلا يكتر من الحديث مع النساء ، « ولا يمشى في الطريق خلف امرأة ولو كانت زوجته... وخير للإنسان أن يمشى خلف أسد من أن يمشى خلف امرأة »^(٨٣) وتظهر فكاهة أحبار اليهود المبهجة مرة أخرى في قصة رب كهنا Reb Kahan .

فقد كان مرة يبيع سلال النساء وإذا هو يتعرض لغواية الشيطان ؛ وأخذ يقاوم طبيعته راجياً أن يطلق هذه المرة على أن يعود إذا نجا . ولكنه بعد أن تغلب

على نفسه لم يعد بل صعد إلى سقف بيت وألقى بنفسه من فوقه ، وقبل أن يصل إلى الأرض وصل إليه الشبع وأمسك به ولامه على أن اضطره إلى قطع مسافة أربعمائة ميل لكي يحول بينه وبين إهلاك نفسه^(٨٤) .

ويلوح أن أحبار اليهود يرون أن البكورية لا بأس بها ، ولكن البكورية الدائمة هي بعينها وقف الثناء الطبيعي ، ويعتقدون أن كمال المرأة في كمال الأمومة ، كما أن أسمى فضائل الرجل فضيلة الأبوة الكاملة . وكان من الواجب على كل أب أن يدخر بائنة لكل بنت من بناته ومهراً يهر به كل ولد من أولاده عروسه حتى لا يتأخر زواج الولد والبنت تأخراً يضر بصحتها . وكانوا يشيرون بالزواج المبكر - في الرابعة عشرة للبنت وفي الثامنة عشرة للولد . وكان القانون يبيح زواج البنت إذ بلغت سنها اثنتى عشرة سنة وستة أشهر وزواج الولد في الثالثة عشرة من عمره . وكان يباح للطلاب المشتغلين بدراسة الشريعة أن يؤخروا زواجهم بعض الوقت . ومن الأحبار من كانوا يقولون إن على الرجل أن يثبت دعائم مركزه الاقتصادي قبل أن يقدم على الزواج : « على الرجل أولاً أن ينشئ البيت ، ثم يغرس الكرمة ، ثم يتزوج »^(٨٥) . - ولكن هذا الرأي هو رأى الأقلية ولعله لا يتعارض مع الزواج المبكر إذا ما تكفل الأبوان بتدبير العون المالى المطلوب . وكانوا ينصحون الشاب أولاً يختار زوجته لجمالها بل لصفاتها التي سوف تجعلها في المستقبل أمّاً صالحة^(٨٦) ، ويقولون « اهبط درجة في اختيار الزوجة ، وأرق درجة في اختيار الصديق »^(٨٧) ، ومن يحتر لنفسه زوجة من طبقة فوق طبقته يدع الناس إلى احتقاره .

وأجاز التلمود ، كما أجاز العهد القديم والقرآن ، تعدد الزوجات ؛ ومن أقوال أحد الأحبار في هذا المعنى : « يستطيع الرجل أن يتزوج أى عدد من النساء يشاء » ولكن فقرة ثانية في مقاله هذا تحدد عدد الزوجات بأربع ، وتطلب

فقرة ثالثة إلى من يريد أن يتخذ له زوجة ثانية أن يطلق زوجته الأولى إذا أرادت هي الطلاق^(٨٨) . ونظام تعدد الأزواج هذا تفترضه كذلك العادة القديمة التي يطالب اليهودي بمقتضاها أن يتزوج من أرملة أخيه بعد وفاته ، وأكبر الظن أن منشأ هذه العادة لم يكن هو العطف والشفقة فحسب ، بل كانت تقوم فوق ذلك على الرغبة في الإكثار من النسل في مجتمع ترتفع فيه نسبة الوفيات شأنه في ذلك شأن كل المجتمعات التي قامت في العصور القديمة والعصور الوسطى .

وبعد أن يسر الأخبار للرجل لإشباع غريزته الجنسية على هذا النحو جعلوا الزنى من الجرائم التي يعاقب مرتكبها بالإعدام ، وكان منهم من يقول مع المسيح إن « الإنسان قد يزنى بعينه »^(٨٩) ، ومنهم من ذهب إلى أبعد من هذا فقال : « إن من يتطلع إلى خنصر امرأة لا أكثر قد ارتكب إثماً في قلبه »^(٩٠) . ولكن رب أريكا أرق من هؤلاء وأولئك قلبا إذ يقول : « يبعد الإنسان في كتاب سيئاته يوم الحشر كل شيء رآه بعينه وأبى أن يستمتع به »^(٩١) .

وأببح الطلاق برضا الطرفين ، فأما الزوج (الرجل) فلا يمكن أن يطلق إلا برضا ، وأما الزوجة فيجوز للرجل أن يطلقها بغير رضاها . وطلاق الزوجة الزانية أمر واجب ، كذلك يشار بطلاق الزوجة إذا ظلت عقيماً عشرين سنة بعد الزواج^(٩٢) . ولم تكن مدرسة شامى تبيح طلاق المرأة إلا إذا زنت ، أما مدرسة هلال فقد أباحت للرجل أن يطلق زوجته إذا وجد فيها « شيئاً معيباً » ، وكانت الغلبة في أيام التلمود لرأى هلال ، وقد ذهب فيه عقيماً إلى حد بعيد فقال إن « في وسع الرجل أن يطلق زوجته ، إذا وجد امرأة أخرى أجمل منها »^(٩٣) . وكان في وسع الرجل أن يطلق زوجته إذا عصت أوامر الشريعة اليهودية ، بأن سارت أمام الناس عارية الرأس ، أو غزلت الخيط في الطريق العام ، أو تحدثت إلى مختلف أصناف الناس أو إذا كانت عالية الصوت أى إذا كانت تتحدث في بيتها ويستطيع جيرانها سماع ما تقول^(٩٤) ولم يكن عليه في هذه الأحوال

أن يرد إليها بائنتها . ولم يكن هجر الرجل زوجته يوجب طلاقها منه (٩٥) ، وأباح بعض رجال الدين للزوجة أن تلجأ إلى المحكمة تطلب الطلاق من زوجها إذا قسا عليها ، أو كان عنيها ، أو أبى أن يؤدي الواجبات الزوجية ، أو لم ينفق عليها النفقة التي تليق بها (٩٦) ، أو كان مشوهاً أو ثلثاً (٩٧) . وكان الأحبار يحاولون تقليل الطلاق بأن يضعوا في سبيله إجراءات قانونية معقدة ، ويفرضون في جميع الأحوال — إلا القليل النادر منها — استيلاء الزوجة على البائة والمهر ، ويقول الحاخام إلعيزر Eleazar « إن المذبح نفسه ليلدرف الدمع على من يطلق زوجة شبابه » (٩٨) .

وجملة القول أن قوانين التلمود ، بوجه عام ، من وضع الرجال وأنها لذلك تمحى الذكور محابة بلغ من قوتها أن بعثت في نفوس أحبار اليهود الفزع من قوة المرأة ، وهم يلومونها ، كما يلومها الآباء المسيحيون ، لأنها أطفأت « روح العالم » بسبب تشوف حواء المنبعث عن ذكائها . وكانوا يرون أن المرأة « خفيفة العقل » (٩٩) ، وإن كانوا يقرون لها بأنها وهبت حكمة غريزية لا وجود لها في الرجل (١٠٠) . وهم يأسفون أشد الأسف لما جبلت عليه المرأة من ثثرة : « لقد نزلت على العالم عشرة مكاييل من الكلام ، أخذت المرأة منها تسعة ، وأخذ الرجل واحداً » (١٠١) . ونددوا بأنهما كها في السحر وما إليه من الفنون الخفية (١٠٢) ، وفي الأصباغ والكحل (١٠٣) . ولم يكونوا يرون بأساً في أن ينفق الرجل بسخاء على ملابس زوجته ، ولكنهم كانوا يطلبون إليها أن تجمل نفسها لزوجها لا لغيره من الرجال (١٠٤) . وفي القضاء — على حد قول أحد الأحبار — « تعدل شهادة مائة امرأة شهادة رجل واحد » (١٠٥) ، وكانت حقوق النساء الملكية محدودة في التلمود بالقدر الذي كانت محدودة به في إنجلترا في القرن الثامن عشر ، فكاسبهن وما يوئل إليهن من ملك لمن حق لأزواجهن (١٠٦) ، ومكان المرأة هو البيت . ويقول أحد الأحبار المتفائلين إن المرأة في « عصر المسيح الثاني ستلد

طفلاً في كل يوم» (١٠٧) وإن « الرجل الذى له زوجة خبيثة لن يرى وجهه جهنم » (١٠٨) ؛ ويقول حقيبا من جهة أخرى إنه ليس أغنى من الرجل الذى له امرأة اشتهرت بأعمالها الطيبة (١٠٩) : ويقول أحد المعلمين اليهود إن « كل شيء يصدر عن المرأة » (١١٠) . وقد جاء في أحد الأمثال العبرية : « إن كل ما في البيت من نعم وبركات قد جاء إليه عن طريق الزوجة » ولهذا فإن من الواجب على زوجها أن يكرمها . . . وليحذر الرجال من أن يبكروا المرأة ، فإن الله يعدّ دموعها » (١١١) .

ولقد جمع ناشر غير معروف في أبهج جزء من أجزاء التلمود ، وهو الرسالة الصغيرة المسماة برقي أبوت Pirke Aboth (الأصول السياسية) ، حكم كبار الأحبار الذين عاشوا في القرنين السابقين لمولد المسيح والقرنين التاليين له . وكثير من هذه الأمثال يمتدح الحكمة وبعضها يعرفها ويحدد معناها !

قال بن زوما : من هو الحكيم ؟ هو الذى يتعلم من كل إنسان ... من هو القوى ؟ هو الذى يخضع ميوله (الخبيثة) ... من يسيطر على رومة خير ممن يستولى على مدينة . من هو الغنى ؟ هو الذى يسر بما قسم له . . . من هو الكريم هو الذى يكرم بنى جنسه (١١٢) . . . لا تحتقر إنساناً ولا تحتقر شيئاً ؛ فليس ثمة إنسان ليست له ساعته ، وليس ثمة شيء ليس له مكانه (١١٣) . . . لقد نشأت طول عمرى بين الحكماء ، ولقد وجدت أن لا شيء أحسن للإنسان من العصف . . . (١١٤) .

وقد اعتاد الكوهن للعزير أن يقول : مثل من تزيد أفعاله على حكمته ، كمثل شجرة كثرت فروعها وقلت جذورها ، إذا هبت عليها الريح اقتلعتها وألقتها على وجهها . . . أما من تزد حكمته على أفعاله فثله كمثل شجرة قلت أغصانها وكثرت جذورها لو أن رياح العالم كلها هبت عليها لما زحزحتها من مكانها (١١٥) .

الفصل الرابع

الحياة والشرعة

ليس التلمود من التحف الفنية ، ذلك بأن جمع أفكار ألف عام كاملة ووضعها في مجموعة مترابطة متناسقة عمل لا يقوى عليه حتى مائة حبر من الأحبار الصابرين . وما من شك في أن كثيراً من المقالات قد وضعت في غير موضعها من الكتاب ، وأن عدداً من الفصول قد وضع في غير المقالات التي يجب أن يوضع فيها ، وأن موضوعات تبدأ ، ثم تترك ، ثم تبدأ من جديد على غير قاعدة موضوعية . وليس الكتاب ثمرة تفكير بل هو التفكير نفسه ، فكل الآراء المختلفة قد دونت فيه وكثيراً ما ترك النقط المتعارضة دون أن تحل وتفسر . وكأننا قد اجتزنا خمسة عشر قرناً من الزمان لننصت إلى نقاش أشد المدارس لإخلاصا ونستمع إلى عقيبا ومليرو ويهودا هنسيا ورب في أثناء جدلهم العنيف . وإذا ما ذكرنا أننا فضوليون متطفلون ، وأن هؤلاء الرجال وغيرهم قد اختطفت ألفاظهم العارضة اختطافاً من أفواههم وقذف بها في نصوص لم تكن معدة لها ، ثم أرسلت تجلجل خلال القرون الطوال ، إذ ذكرنا هذا استطعنا أن نعفو عما نجده في هذه الأقوال من جدل ، وسفسطة ، وأقاصيص غير صادقة ، وتنجيم ، وحديث عن الجن والشياطين ، وخرافات ، ومعجزات ، وأسرار الأعداد ، وأحلام وحى ، ونقاش لا آخر له يتوج نسيجا مهلهلاً من الخيالات والأوهام ، والغرور الذي يغريهم ويأسو جراحهم ويخفف عنهم آلام آمالهم الضائعة .

وإذا ما اشمأزت نفوسنا من قسوة هذه القوانين ، ومن دقة هذه النظم وتدخلها فيما لا يصح أن تتدخل فيه ، وما يجازى به من بخرقها من شدة وبطش ، فإن من واجبنا ألا نحمل هذه المسألة محمل الجدل ، ذلك أن اليهود لم يدعوا قط أنهم ينطيعون

هذه الوصايا كلها ، وأن أحبارهم كانوا يفضون أبصارهم عما يجدونه في كل صفحتين من كتابهم من ثغرات بين نصائحهم التي تدعو إلى الكمال ، وبين ما في الطبيعة البشرية من ضعف خفي . وفي ذلك يقول أحد الأحبار الحذرين : « لو أن إسرائيل قد حرصت الحرص الواجب على سبت واحد بلحاء ابن داود من فوره » (١٦) . ولم يكن التلمود كتاب قوانين يطلب إلى اليهود إطاعتها جملة وتفصيلا ، بل كان سجلا لآراء الأحبار ، جمعه جامعوه ليهدوا به الناس إلى التقى على مهل ، ولم تطع الجماهير غير المثقفة إلا قلة مختارة من الأوامر التي جاءت بها الشريعة .

ويهتم التلمود اهتماما كبيرا بالشعائر الدينية ، ولكن بعض هذا الاهتمام كان رد فعل من اليهود لما بذلته الكنيسة المسيحية والدولة من محاولات لإرغامهم على التخلي عن شريعتهم . ولقد كانت هذه الشعائر سمة تميزهم ، ورابطة تجمع شتاتهم وتصل بين مختلف أجيالهم ، وشعارا يتحدون به عالما لا يعفر قط عنهم . ولنا لنجد في مواضع متفرقة من مجلدات التلمود العشرين كلمات حقة على المسيحية ، ولكنها حقة على مسيحية نسيت رقة المسيح وظرفه ، مسيحية اضطهدت المتمسكين بشريعة أمر المسيح أتباعه بالعمل بها ، مسيحية يرى أحبار اليهود أنها حاذت عن مبدأ التوحيد جوهر الدين القويم وأساسه الذي لا يتبدل . ولنا لنجد بين هذه الشعائر والطقوس المعقدة ، وهذا الجدل الشائك الطويل ، مئات من النصائح السديدة ، والبصيرة النفسانية ، تتخللها في بعض الأحيان فقرات تعيد إلى الذاكرة جلال كتاب العهد القديم أو الحنان الصوفي الذي تراه في العهد الجديد . وإن ما يمتاز به اليهودى من فكاهة شاذة غريبة الأطوار لتخفف عنه عبء هذا الدرس الطويل . انظر مثلا إلى ما يقوله أحد أحبارهم من أن موسى دخل متخفيا إلى الحجرة التي يلتق فيها عقيبا دروسه ، وجلس في الصف الأخير ، ودهش من

كثرة القوانين التي استنبطها المعلم الكبير من الشريعة الموسوية ، والتي لم يحلم بها قط كاتبها (١١٧) .

ولقد ظل التلمود أربعة عشر قرناً من الزمان أسامن التربية اليهودية وجوهرها . وكان الشاب العبراني ينكب عليه سبع ساعات في كل يوم مدى سبع سنين ، يتلو ويثبت في ذاكرته بلسانه وعينه ؛ وكان هو الذي يكون عقولهم ويشكل أخلاقهم بما تفرضه دراسته من نظام دقيق ، وبما يستقر في عقولهم من معرفة ، شأنه في هذا شأن كتابات كنفوشيوس التي كان يستظهرها الصينيون كما يستظهر اليهود التلمود . ولم تكن طريقة تعلمه مقصورة على تلاوته وتكراره ، بل كانت تشمل فوق ذلك مناقشته بين المدرس والتلميذ ، وبين التلميذ والتلميذ ، وتطبيق القوانين القديمة على ما يستجد من الظروف . وقد أفادت هذه الطريقة حدة في الذهن ، وتقوية للذاكرة ، وتثبيتاً للمعلومات ، ميزت اليهودى من غيره في كثير من الميادين التي تتطلب الوضوح ، وتركيز الذهن ، والمثابرة ، والدقة ، وإن كانت في الوقت نفسه قد عملت على تضيق أفق العقل اليهودى والحد من حريته . ولقد روض التلمود طبيعة اليهودى النائرة المهتاجة ، وكبح جماح نزعة الفردية ، وبث فيه روح العفة والوفاء لأسرته وعشيرته ، ولربما كان « نير الشريعة » عبئاً ثقيلاً على ذوى العقول السامية الكبيرة ، ولكنها كانت السبب في نجاة اليهود بوجه عام .

وليس من المستطاع فهم التلمود إلا إذا درس في ضوء التاريخ على أنه العامل الفعال الذي أبقى على شعب مطرود ، معدم ، مظلوم ، يهدده خطر التفكك التام . ولقد فعل أحبار اليهود في تشتتهم الواسع ما فعله أنبياءهم للاحتفاظ بالروح اليهودية في الأسر البابلي . فقد كان لا بد لهم من أن يعيدوا إليهم عزتهم وكبرياءهم ، وأن يعملوا على أن يستقر بينهم النظام ، ويثبتوا في قلوبهم الإيمان ، ويحافظوا على أخلاقهم القويمة ، ويعيدوا إليهم سلامة العقول وصحة الأبدان اللتين حطمتها

الحن الطوال (١١٨) . وبفضل هذا التأديب الشاق ، وعرس أصول التقاليد اليهودية في صدر اليهودى بعد اقتلاعها ، عاد الاستقرار وعادت الوحدة ، عن طريق التجوال في أطراف القارات والأحزان خلال القرون الطوال ، ولقد كان التلمود على حد قول هيني Heine وطناً منتقلاً لليهود يحملونه معهم أينما ساروا . فحيثما وجد اليهود ، حتى وهم جالية واجفة في أرض الغربة ، كان في وسعهم أن يضعوا أنفسهم مرة أخرى في عالمهم ، وأن يعيشوا مع أنبيائهم وأحبارهم ، وذلك بأن يرووا عقولهم وقلوبهم من فيض الشريعة . فلا غرابة والحالة هذه إذا أحبوا هذا الكتاب الذى نراه نحن أكثر تنوعاً واختلافاً مما كتبه مائة كاتب من أمثال منتاني Montaigne . ولم يكفهم الاحتفاظ بالكتاب كله ، بل احتفظوا بأجزاء صغيرة منه بحسب يصل إلى درجة الحنون ، وكانوا يتبادلون قراءة تنف من هذا المخطوط الضخم ، وأنفقوا في القرون المتأخرة أموالاً طائلة لطبعه كاملاً ، وبكوا حين كانت الملوك والبابوات ، والمجالس النيابية تحرم تلاوته ، أو تصادره ، أو تحرقه ، وابتهجوا حين رأوا روشلين Reuchlin وإرزمس Erasmus يدافعان عنه ، وعدوه في أيامنا هذه أئمن ما تمتلكه معابدهم وبيوتهم ، واتخذوه ملجأ وسلوى ، وسجناً للروح اليهودية .

الباب السادس عشر

يهود العصور الوسطى

٥٦٥ — ١٣٠٠

الفصل الأول

المجتمعات الشرقية

كان لليهود وقتئذ شريعة ولكنهم لم تكن لهم دولة ؛ كان لهم كيان ، ولم يكن لهم وطن . ذلك أن أورشليم ظلت إلى عام ٦١٤ مدينة مسيحية ، وإلى عام ٦٢٩ فارسية ، وإلى عام ٦٣٧ مسيحية مرة أخرى ، ثم ظلت من ذلك الوقت إلى عام ١٠٩٩ حاضرة إسلامية . وفي ذلك العام الأخير حاصرها الصليبيون ، وانضم اليهود إلى المسلمين في الدفاع عنها ، فلما سقطت في أيدي الصليبيين سيق من بقى فيها حياً من اليهود إلى إحدى بيعهم وأحرقوا عن آخرهم^(١) ، ولما استولى صلاح الدين على المدينة عام ١١٨٧ أعقب ذلك ازدياد سريع في عدد اليهود ، واستقبل السلطان العادل أخو صلاح الدين ثلثمائة من أئبارهم الذين فروا من إنجلترا وفرنسا في عام ١٢١١ استقبالا حسناً . لكن ابن نوحان لم يجد فيها بعد خمسين عاماً من ذلك الوقت إلا حفنة صغيرة من اليهود^(٢) ، ذلك أن سكان بيت المقدس كانوا قد أصبحوا كلهم تقريباً مسلمين .

وظل اليهود كثيرى العدد في سوريا والعراق وفارس الإسلامية رغم ما لاقوه في بعض الأحيان من الاضطهاد ورغم اعتناق عدد منهم دين الإسلام . وأضحت لهم في ربوعها حياة اقتصادية وثقافية ناشطة قوية . ولقد ظلوا في شئونهم الداخلية ،

كما كانوا في عهد الملوك الساسانيين ، يتمتعون بالحكم الذاتي تحت إشراف الإجزيلارك (رئيس اليهود في المهجر) ومديرى الجامعات الدينية . واعترف الخلفاء المسلمون بالإجزيلارك في كل من بلاد بابل ، وأرمينية ، والتركستان ، وفارس ، واليمن ، رئيساً لجميع اليهود فيها ؛ ويقول بنيامين التطيلي إن جميع رعايا الخليفة كان يفرض عليهم أن « يقوموا واقفين في حضرة أمير الأسر ، وأن يحويه باحترام »^(٣) . وكان منصب الإجزيلارك وراثياً في أسرة واحدة ترجع بنسبها إلى داود ، وكان سلطانه سياسياً أكثر منه روحياً ، وقد أدى ما بذله من الجهود للسيطرة على رجال الدين إلى اضمحلاله ثم إلى سقوطه ، وأصبح مديرو الجامعات العلمية بعد عام ٧٦٢ هم الذين يختارون الإجزيلارك ويسيطرون عليه .

وكانت الكليات الدينية في سورا Sura ومبيديثا Pumbeditha تخرج الزعماء الدينيين والعقليين لليهود في بلاد الإسلام ، وتخرج أمثالهم بدرجة أقل لليهود في البلاد المسيحية . وحدث في عام ٦٥٨ أن أخرج الخليفة مجمع سورا العلمى من اختصاص الإجزيلارك القانونى ، فلما حدث هذا اتخذ رئيس المجمع لنفسه لقب جاؤن Gaon (صاحب السعادة) وابتدأ من ذلك الحين نظام الجاؤنية ، وعهد الجاؤنيم في الدين والعلم البابليين^(٤) . ولما ازدادت موارد كلية مبيديثا وعظمت منزلها لقربها من بغداد ، اتخذ مديروها أيضاً لأنفسهم لقب جاؤن ؛ وكاد اليهود في جميع أنحاء العالم فيما بين القرن السابع إلى القرن الحادى عشر يستفتون الجاؤنيم في المدينتين فيما يعرض لهم من مسائل التلمود القانونية ، ونشأ لليهودية من أجوبتهم على هذه المسائل أدب قانونى جديد .

وحدث في الوقت الذى قامت فيه الجاؤنية انشقاق دينى فرق العالم اليهودى في الشرق وازالت له أركانه — أولعل هذا الانشقاق نفسه هو الذى حتم قيام الجاؤنية في ذلك الوقت . ذلك أنه لما توفى الإجزيلارك سليمان ، طالب ابن أخيه عن بن داود بحقه في أن يخلفه في منصبه ، ولكن زعماء سورا ومبيديثا طرحوا

مبدأ الوراثة وراءهم ظهريا ونصبوا حثانيا أخا عن الأصغر إجزلا ركا في مكانه . فما كان من عنن إلا أن طعن في الجاوثين ، وفر إلى فلسطين وأنشأ فيها كنيسة خاصة به ، وطالب اليهود أينما كانوا أن ينبذوا التلمود وألا يطيعوا إلا قوانين أسفار موسى الخمسة . وكان هذا العمل من جانبه عودة إلى الوضع الذي كان عليه الصدوقيون ؛ وكان شبنها بما ينادى به بعض الشيعة في الإسلام من نبذ « السنة » النبوية واتباع القرآن وحده ، وما يطالب به البروتستنت من نبذ التقاليد الكاثوليكية والعودة إلى الأناجيل . على أن عنن لم يكتف بهذا بل أخذ يعيد النظر في أسفار موسى الخمسة ويشرحها شرحا يعد خطوة جريئة في سبيل الدراسة النقدية لنصوص الكتاب المقدس . واحتج على ما أدخله علماء التلمود من تبديل في الشريعة الموسوية وما يحاولونه في تفسيرهم وشرحهم من توفيق بينها وبين الظروف القائمة في أيامهم ، وأصر على اتباع ما جاء في الأسفار الخمسة من أوامر وتنفيذها بنصها ، ولهذا سمي أتباعه بالقرائين(*) — أى « المتمسكين بالنصوص » وامتدح عنن عيسى وقال إنه رجل صالح لم يرغب في نبذ شريعة موسى المدونة ، بل كل ما كان يطلبه أن ينبذ الناس قوانين الكتبة والفريسيين الشفوية . ويرى عنن أن عيسى لم يكن يرغب في وضع دين جديد ، بل كان يرغب في تطهير الدين اليهودي وتدعيمه(٥) . وكثر اليهود القراءون في فلسطين ، ومصر ، وأسبانيا ، ثم نقص في القرن الثاني عشر ، ولم يبق منهم الآن إلا أقلية أخذت في الانقراض في تركيا وجنوب روسيا ، وبلاد العرب . ونبذ القراءون في القرن التاسع ما كان ينادى به عنن من تفسير حرقى لنصوص الشريعة ، وقالوا إن بعث الأجسام وما جاء في الكتاب المقدس من أوصاف جسمانية لله ، يجب أن تؤخذ على سبيل المجاز ، ولعلهم في قولهم هذا كانوا متأثرين بآراء المعتزلة المسلمين .

(*) من اللفظ الأرامي قرا أى النص وهذا اللفظ نفسه مشتق من قرأ . ومنه أيضا القرآن .

فلما فعلوا هذا عاد اليهود الربانيون إلى القول بأخذ عبارات التلمود بنصها ، وقالوا إن ما ورد في الكتاب المقدس من عبارات أمثال « يد الله » وجاوس الله « يجب أن تؤخذ بمعناها الحقيقي ، بل إن بعضهم قد تغالى في هذا فقدر بالدقة مقاييس جسم الله ، وطول أطرافه ، ولحيته^(٦) . ونشأت فئة قليلة من اليهود حرة التفكير منها صبي البلخي Chivi al-Balchi كانت تنادى بأن أسفار موسى الخمسة نفسها ليست شريعة واجبة الطاعة^(٧) . في هذه البيئة التي تمتاز بالرخاء الاقتصادي ، والحرية الدينية ، والجدل العنيف أنجبت اليهودية أول فيلسوف يهودى ذائع الصيت في العصور الوسطى .

ولد سعديا بن يوسف في قرية من قرى الفيوم في عام ٨٩٢ . وشب في مصر وتزوج فيها ثم هاجر منها إلى فلسطين في عام ٩١٥ ، ثم هاجر بعدئذ إلى بابل . وما من شك في أنه كان طالبا مجدا ومعلما قديرا ، لأنه عين وهو شاب في السادسة والثلاثين من عمره جاوذا أى مديراً لكلية سورا . وشاهد ما أدخله القراءون والمتشككة من بدع في الدين اليهودى القديم ، فآلى على نفسه أن يفعل لهذا الدين ما فعله المتكلمون للدين الإسلامى — فيبين أن هذا الدين القديم يتفق كل الانفاق مع العقل والتاريخ . وأخرج سعديا في حياته القصيرة التي لم تتجاوز خمسين عاماً مقدراً ضخماً من المؤلفات — معظمها — لا يماثلها في سجل التفكير اليهودى في العصور الوسطى إلا مؤلفات ابن ميمون . ومن هذه المؤلفات « الأجرون » وهو معجم آراى اللغة العبرية يعد أساساً للفلسفة العبرية ؛ ومنها « كتاب اللغة » وهو أقدم ما عرف من كتب في نحو اللغة العبرية . وقد ظلت ترجمته العربية للعهد القديم إلى يومنا هذا الترجمة التي يستخدمها جميع اليهود الذين يتكلمون اللغة العربية ، وإن شروحه لأسفار الكتاب المقدس « لتكاد تجعله » أعظم شارح للكتاب المقدس في جميع العصور^(٨) ؛ ويعد « كتاب الأمانات والاعتقادات » (٩٣٣) أعظم رد في الدين اليهودى على الخارجين على هذا الدين .

ويؤمن سعديا بالوحي والتواتر معاً أى بالشرعية المكتوبة وغير المكتوبة ، ولكنه يؤمن أيضاً بالعقل ، ويطلب بأن يثبت استناداً إلى العقل صدق الوحي والتواتر . فإذا ما تعارضت نصوص الكتاب المقدس تعارضاً صريحاً مع حكم العقل ، فلنا أن نفترض أن النص المتعارض لا يقصد به أن تأخذه العقول الناضجة بحرفيته . كذلك يجب أن تؤخذ أوصاف الله الجسمانية على أنها مجاز لا حقيقة ؛ ذلك أن الله ليس إنساناً يتصف بما يتصف به البشر . ويدل نظام العالم وقوانينه على وجود خالق عاقل مدبر . وليس من العقل فى شيء أن يظن أن الله العاقل المدبر يعجز عن أن يثيب على الفضيلة ، ولكن الفضيلة ، كما هو واضح ، لا يثاب عليها دائماً فى هذه الحياة ؛ ومن ثم لا بد أن تكون هناك حياة أخرى تعوّض ما يبدو فى هذه الحياة الدنيا من ظلم ظاهرى ؛ ولعل آلام الصالحين فى هذه الدنيا ليست إلا عقاباً لبعض ما ارتكبه من ذنوب حتى يدخلوا الجنة من فورهم بعد موتهم ، كما أن ما يظفر به الأشرار من نعم إنما هو مثوبة على أعمالهم الصالحة العارضة ، حتى ... ولكن الناس كلهم حتى الذين يقوّمون بأحسن الأعمال الصالحة فى هذا العالم وينالون فيه أعظم الخير والسعادة يحسون فى أعماق قلوبهم أن ثمة حالاً خيراً من حالهم هذه الواسعة الآمال القليلة المتعة ، وكيف يجوز لله الذى اقتضت حكمته العظيمة خلق هذا العالم العجيب أن يبعث هذه الآمال فى النفس إذا لم يشأ أن تتحقق ؟ (٩) ، ولقد تأثر سعديا إلى حد ما بفقهاء الإسلام وسار على نهجهم فى الشرح والإيضاح ، بل إنه استعار منهم فى بعض الأحيان أساليب الجدل والنقاش . وقد انتشرت آراؤه فى جميع أنحاء العالم اليهودية وتأثر بها ابن ميمون ، وهل أدل على هذا من قول ابن ميمون : « لولا سعديا لكادت التوراة أن تختفى من الوجود » (١٠) .

وهنا يجب أن نقر بأن سعديا كان رجلاً فظاً إلى حد ما ، وأن نزاعه مع الإجاز يلارك داود بن زكاي قد أضرب يهود بابل . وكانت نتيجة هذا النزاع أن

أعلن داود في عام ٩٣٠ حرمان سعديا ، وأن أعلن سعديا حرمان داود .
ولما مات داود في عام ٩٤٠ نَصَّب سعديا إيجريلاركا جديداً ، ولكن
المسلمين قتلوا هذا الإيجريلارك لأنه طعن في النبي محمد . فما كان من سعديا
إلا أن عين ابن القنيل خلفاً ، وقتل هذا الشاب أيضاً ؛ وحينئذ قرر اليهود
بعد أن فت في عضدهم على هذا النحو أن يبقوا هذا المنصب شاغراً ،
وبذلك انتهى عهد الإيجريلاركية البابلية الذي دام سبعة قرون . وكان تفكك
الخلافة العباسية في بغداد وقيام دول إسلامية مستقلة في مصر ، وشمال
أفريقية ، وأسبانيا سبباً في ضعف الروابط بين يهود آسية وأفريقية وأوربا
وأصيب يهود بابل بما أصيب به الإسلام في الشرق من ضعف اقتصادي
بعد القرن العاشر الميلادي ، فأغلقت كلية سورا أبوابها في عام ١٠٣٤
وحدث حلوها بمبديثا بعد أربع سنين ، وانتهى عهد الجاؤنية في عام ١٠٤٠ ،
وزادت الحروب الصليبية الهوة بين يهود بابل ويهود مصر وأوربا ، ولما
خرب المغول بغداد في عام ١٢٢٨ كادت الجالية اليهودية البابلية أن تختفي
من صفحات التاريخ .

وكان كثيرون من يهود الشرق قد هاجروا قبل هذه الكوارث إلى
أقصى آسية الشرقية ، وبلاد العرب ، ومصر ، وشمال أفريقيا
وأوربا ، فكان في سيلان ٢٣٠٠٠ عبراني في عام ١١٦٥^(١١) ، وبقيت
في بلاد العرب عدة جاليات يهودية بعد أيام النبي ؛ ولما فتح عمرو بن
العاص مصر في عام ٦٤١ كتب إلى الخليفة يقول إن في الإسكندرية أربعة
آلاف من اليهود « أهل الذمة » ، ولما اتسعت مدينة القاهرة ازداد عدد
من فيها من اليهود أصحاب العقيدة القديمة والقرائين . وكان يهود مصر
يستمتعون بالحكم الذاتي في شئونهم الداخلية بزعامة النجيد أو أمير اليهود ،
وازدادت ثروتهم من الأعمال التجارية وارتفعوا إلى المناصب العالية في
حكومات الدول الإسلامية^(١٢) . وتقول إحدى الروايات إن أربعة من أحبار
اليهود أبحروا على ظهر إحدى السفن من پاری Bari في إيطاليا ، ولكن

أحد أمراء البحر الأندلسيين المسلمين أسر سفينتهم وباعهم بيع الرقيق ، فبيع
الحبر موسى وابنه حنوخ في قرطبة ، وبيع سحرية في الإسكندرية ، وبيع
الحبر هوسيل في القيروان : ثم أعتق كل واحد من هؤلاء الأحرار ، كما تقول
الرواية ، وأنشأ في المدينة التي بيع فيها مجمعا علميا . والشائع على الألسنة ،
وإن لم يكن هذا مؤكداً ، أنهم كانوا من علماء سورا ؛ وأياً كانت نشأتهم
فقد نقلوا العلم من يهود الشرق إلى الغرب ؛ وبينما كانت اليهودية في آسية
آخذة في الضعف بدأت أيام عزها وسعادتها في مصر وأسبانيا .

الفصل الثاني

الجماعات اليهودية في أوروبا

اتخذ اليهود طريقهم إلى بلاد روسيا في العصور الوسطى من بابل وفارس مجتازين ما وراء جيحون والقوقاز ، وإلى ساحل البحر الأسود من آسية الصغرى مجتازين القسطنطينية . وظل اليهود في تلك العاصمة يستمتعون بالرخاء التّكبد من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر . وكان في بلاد اليونان جماعات يهودية كبيرة وبخاصة في طيبة حيث كانت لمنسوجاتهم الحريرية شهرة عظيمة . وهاجر اليهود شمالاً إلى بلاد البلقان مجتازين تساليا وتراقية ومقدونية ، ثم ساروا بمحاذاة نهر الدانوب إلى بلاد المجر . وجاءت حفنة من التجار العبرانيين من ألمانيا إلى بولندة في القرن العاشر لأن اليهود كانوا في ألمانيا من قبل ميلاد المسيح . فكان في متز Metz ، واسپير Speyer ، ومينز Mainz ، وورمز Worms ، واستر سبورج Strassbourg ، وفرنكفورت Fraankfort . وكولوني جاليات يهودية كبيرة في القرن التاسع ، وإن كانت هذه الجاليات قد شغلتها التجارة وما تستلزمه من كثرة الترحال فلم يكن لها شأن كبير في تاريخ اليهود الثقافي . ومع هذا فقد أنشأ جرشوم بن يهودا (٩٦٠ — ١٠٢٧) مجمعاً علمياً للأخبار في مينز وكتب بالعبرانية شرحاً للتلمود ، وبلغ من سلطانه أن كان يهود ألمانيا يستفتونه فيما يعرض لهم من مسائل في شريعة التلمود بدل أن يستفتوا في ذلك جأونيم بابل .

وكان في إنجلترا يهود في عام ٦٩١ (١٣) ، وجاء إليهم عدد آخر كبير منهم مع وليم الفاتح William the Conqueror ، وبسط عليهم النورمان الفاتحون في أول الأمر عايتهم لما كانوا يمدونهم به من رعوس الأموال وما كانوا يقومون به من

من جباية الإيراد . وكانت جماعاتهم المقيمة في لندن ، ونورتش Norwich ، ويورك ، وغيرها من المراكز الإنجليزية خارجة عن اختصاص ولاية الأمور المحليين في شئونهم القانونية ، فكانت لا تخضع إلا للملوك أنفسهم . ووسعت هذه العزلة التفضيئية الهوة بين المسيحيين واليهود ، وكانت سبباً من أسباب المذابح المدبرة التي حدثت في القرن الثاني عشر .

وكان في غالة تجاريهون من عهد يوليوس قيصر ، وقبل أن يحل عام ٦٠٠ بعد الميلاد وجدت جاليات يهودية في جميع المدن الكبرى في غالة ؛ واضطهدهم الملوك المروفتجيون بوحشية ، وأمرهم كليريك Chilperic أن يعتنقوا الدين المسيحي على بكرة أبيهم وإلا فموتهم (٤٨١)^(١٤) ؛ أما شارلمان فإنه بسط عليهم حمايته لأنه وجد فيهم زراعا ، وصناعا ، وأطباء ، ورجال مال نافعين ، واختار يهوديا ليكون طبيبه الخاص ، وإن كان قد أبقى على القوانين التي تحرم اليهود من بعض الحقوق التي يتمتع بها غيرهم . وتقول إحدى الروايات المشكوك في صحتها إنه استقدم في عام ٧٨٧ أسرة كلونيموس Klonimos من لوكا Lucca إلى مينز ليشجع الدراسات اليهودية في دول الفرنجة ، ثم أرسل في عام ٧٩٧ يهوديا مترجماً أو مفسراً مع بعثة سياسية إلى هارون الرشيد . وكان لويس التقي Louis the Pious يعيل إلى اليهود لعملهم في تنشيط التجارة ؛ وعين موظفاً خاصاً للدفاع عن حقوقهم ؛ واستمتع اليهود في فرنسا في القرنين التاسع والعاشر بقدر من الرخاء والطمأنينة لم يستمتعوا به بعدئذ قبل أيام الثورة الفرنسية ؛ وذلك رغم ما كان يذاع ضدهم من الأقاصيص ، وما يفرض عليهم من القيود القانونية ، وما يصيبهم أحياناً من الاضطهاد القليل^(١٥) . وكانت في إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها جاليات يهودية منتشرة من تراني Trani إلى البندقية وميلان ، وكان اليهود كثيرين في بلدوا بنوع خاص ، ولعلمهم كان لهم أثر في نشر فلسفة ابن رشد في جامعتها . وكان في سالرنو Salerno ، حيث أنشئت في البلاد المسيحية اللاتينية أولى مدارس الطب في

العصور الوسطى ، ستمائة يهودى^(١٦) . منهم عدد من مشهورى الأطباء .
وكان فى بلاط فردريك الثانى فى فجيا Foggia طائفة من العلماء اليهود ،
وعين البابا الكسندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١) عدداً من اليهود فى المناصب
الكبرى فى بيته^(١٧) ، ولكن فردريك اشترك مع البابا جريجورى التاسع فى
اتخاذ لإجراءات ظالمة ضد يهود إيطاليا .

وكان يهود أسبانيا يلقبون أنفسهم سفرديم Sephardim ، ويرجعون
بأصولهم إلى قبيلة يهوذا الملكية^(*) ، ولما اعتنق الملك ريكارد Recared
الدين المسيحى الأصيل ، انضمت حكومة القوط الغربيين إلى رجال الدين
الأقوياء أتباع الكنيسة الأسبانية فى مضايقة اليهود وتضييق حياتهم عليهم ،
فحرمت عليهم المناصب العامة ، ومنعوا من الزواج بالمسيحيات أو اقتناء
أرقاء مسيحيين . وأمر الملك سيزبوت Sisebut جميع اليهود أن يعتنقوا
المسيحية أو أن يخرجوا من البلاد (٦١٣) ، وألغى الملك الذى خلفه على
العرش هذا الأمر ، ولكن مجلس طليطلة الذى عقد فى عام ٦٣٣ أصدر
قراراً ينص على أن اليهود الذين عمدوا ثم عادوا إلى الدين اليهودى يجب
أن يفصلوا عن أبنائهم ، وأن يباعوا أرقاء . وأعاد الملك شنتيلا Chintila
العمل بمرسوم سيزبوت (٦٣٥) ، وحرم الملك إجيكا Egica على اليهود
امتلاك الأراضى كما حرم كل عمل مالى وتجارى بين أى مسيحى ويهودى
(٦٩٣) . وكانت نتيجة هذا أن ساعد اليهود العرب حين جاءوا أسبانيا
فاتحين فى كل خطوة من خطوات الفتح .

(*) يطلق اسم سفرد Sepharad فى سفر عهدة (الكتاب الأول الفصل ٢٥) على
إقليم (لعله آسية الصغرى) نقل إليه الملك فايوخلد نصر (٥٩٧ ق . م) بعض اليهود ، ثم
أطلق هذا اللفظ بعدئذ على بلاد أسبانيا . وكان يهود ألمانيا يسمون تسمية غير دقيقة أشكنازيم
لا تشابه المزعوم إلى أشكناز Ashkenaz حفيد يافث بن نوح (سفر التكوين ، الأصحاح
العاشر ، الآية ٣) .

وأراد الفاتحون أن يعمروا البلاد فدعوا إلى الهجرة إليها ، وقدم إليها فيمن قدم خمسون ألف يهودى من آسية وأفريقية^(١٨) ، وكاد سكان بعض المدن مثل أليسانة أن يكونوا كلهم من اليهود . ولما أن تحرر اليهود في أسبانيا الإسلامية من القيود المفروضة على نشاطهم الاقتصادى انتشروا في جميع ميادين الزراعة ، والصناعة ، والمال ، والمناصب العامة ؛ ولبسوا ثياب العرب ، وتكلموا بلغتهم ، واتبعوا عاداتهم ، فلبسوا العمامة والأثواب الحريرية الفضفاضة ، وركبوا العربات حتى أصبح من العسير تمييزهم من بقى عمومهم الساميين . واستخدم عدد من اليهود أطباء في بلاط الخلفاء والأمراء وعين أحد هؤلاء الأطباء مستشاراً لأعظم خليفة من خلفاء قرطبة .

فقد كان حسداى بن شبروط (٩١٥ - ٩٧٠) بالنسبة لعبد الرحمن الثالث ماكانه نظام الملك في القرن التالى للملك شاه . وقد ولد حسداى فى أسرة ابن عزرا المثيرة المثقفة ؛ وعلمه أبوه اللغات العبرية ، والعربية ، واللاتينية ؛ ودرس الطب ، وغيره من العلوم فى قرطبة ، ودأبى الخليفة من أمراضه ، وأظهر من واسع المعرفة وعظيم الحكمة فى الأمور السياسية ما جعل الخليفة يعينه فى الهيئة الدبلوماسية للدولة ، ولما يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره كما يلوح . ثم عهدت إليه تباعاً أعمال أخرى ذات تبعات متزايدة فى حياة الدولة المالية والتجارية . على أنه لم يكن له لقب رسمى لأن الخليفة تردد فى منحه رسمياً لقب وزير خشية أن يثير عليه النفوس . ولكن حسداى قام بمهام منصبه الكثيرة بكياسة أكسبته محبة العرب ، واليهود ، والمسيحيين على السواء ، وقد شجع العلوم والآداب ، ومنح الطلاب الهبات المالية والكتب بلائمن ، وجمع حوله ندوة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ؛ فلما مات تنافس المسلمون واليهود فى تكريم ذكره .

وكان ثمة رجال غيره في أنحاء أخرى من أسبانيا الإسلامية وإن لم يبلغوا ما بلغه . ففي أشبيلية دعا المعتمد إلى بلاطه إسحق بن برونك العالم والفلكي ، ومنحه لقب أمير ، وجعله حاكماً أكبر لكل المحامع اليهودية فيها^(١٩) ؛ وفي غرناطة نافس شمويل هلوى ابن نجلدلا Samuel Halevi ibn Naghdela حسداى ابن شبروط في سلطانه وحكته وفاقه في علمه . وقد ولد شمويل في قرطبة عام ٩٩٣ ونشأ فيها ، وجمع بين دراسة التلمود والأدب العربي ، وجمع بين هذين وبين الاتجار في التوابل . ولما أن سقطت قرطبة في أيدي البربر ، انتقل إلى مالقة ، وفيها زاد دخله القليل بكتابة العروض إلى ملك غرناطة . وأعجب وزير الملك بما كانت عليه هذه العروض من جمال الخط وحسن الأسلوب فزار شمويل ، وصحبته إلى غرناطة ، وأسكنه في قصر الحمراء ، وجعله أمين سره . وما لبث شمويل أن أصبح أيضاً مستشاره ، وكان مما قاله الوزير نفسه أنه إذا أشار شمويل بشيء فلن صوت الله يسمع فيما يشير به^(٢٠) . وأوصى الوزير وهو على فراش الموت أن يخلفه شمويل ، وبذلك أصبح شمويل في عام ١٠٢٧ اليهودى الوحيد الذى شغل منصب وزير في دولة إسلامية وحظى بهذا اللقب . ومما يسر هذا الأمر في غرناطة أكثر منه في أى بلد آخر أن نصف سكان هذه المدينة في القرن الحادى عشر كانوا يهوداً^(٢١) . وسرعان ما رحب العرب بهذا الاختيار ، لأن الدولة الصغيرة ازدهرت في عهد شمويل من النواحي المالية ، والسياسية ، والثقافية . وكان هو نفسه عالماً ، وشاعراً ، وناطقة في الفلك ، والرياضة ، واللغات ، يعرف سبعاً منها ؛ وقد ألّف عشرين رسالة في النحو (معظمها بالعبرية) وعدة مجلدات في الشعر والفلسفة ، ومقدمة للتلمود ، ومجموعة من الأدب العبرى . وكان يقسم ماله مع غيره من الشعراء ، وأنجد الشاعر والفيلسوف ابن جبرول ، وأمد بالمال طائفة من شباب الطلاب ، وأعان الجماعات اليهودية في قارات ثلاث . وكان وهو وزير الملك حاكماً لليهود ، يحاضر عن التلمود . ولقبه بنو ملته — اعترافاً منهم

بفضله - بالنجيد - الأمير (في إسرائيل) . ولما توفى عام ١٠٥٥ خلفه في الوزارة ، والنجادة ابنه يوسف بن نجدا .

وكانت هذه القرون الثلاثة - العاشر ، والحادي عشر ، والثاني عشر - هي العصر الذهبي ليهود أسبانيا ، وأسعد عصور التاريخ العبري الوسيط ، وأعظمها ثمرة . ولما أن افتدى موسى بن شنوك (المتوفى عام ٩٦٥ وأحد المهاجرين من باري) من الأسر في قرطبة ، أنشأ فيها جمعية حسداى مجمعا علميا ، ما لبث أن أصبحت له الزعامة الفعلية على يهود العالم كله . وافتتحت مجامع مثله في أليسانة ، وطليطاة ، وبرشلونة ، وغرناطة . . . ؛ وبيدنا كادت المدارس اليهودية في الشرق تقصر نشاطها على التعليم الدينى ، كانت هذه المدارس الأسبانية تعلم فيما تعلمه الأدب : والموسيقى ، والرياضيات ، والهيئة ، والطب ، والفلسفة^(٢١) . وبفضل هذا التعليم نالت الطبقات العليا من يهود أسبانيا في ذلك الوقت سعة وعمقا في الثقافة والظرف لم ينلها إلا معاصروهم من المسلمين ، والبيزنطيين ، والصينيين . وكان مما يسر بل الرجل المؤثر أو صاحب المركز السياسى بالعار ألا يلم بالتاريخ ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، والشعر^(٢٢) . ونشأت في ذلك الوقت أرستقراطية يهودية تزددان بمن فيها من النساء الحسان ؛ ولعلها قد أفرطت في الاعتداد بتفوقها على غيرها ، ولكن كان يقابل هذا الاعتداد ويخفف من وقعه اعتقادها أن شرف المحتد وكثرة الثراء يفرضان على صاحبهما واجبات من السخاء والفضل .

ويمكننا أن نوّرخ بداية تدهور يهود أسبانيا من سقوط يوسف بن نجدا . ذلك أنه كان يخدم الملك بكفاية لا تكاد تقل عن كفاية أبيه ، ولكنه لم يكن له ما كان لأبيه من تواضع وكياسة جعلتا سكان البلاد - ونصفهم من المسلمين الأندلسيين - يرتضون أن يتولى أمورهم يهودى . من ذلك أنه جمع السلطة كلها في يده ، وتشبه بالملك في لباسه . وسخر من القرآن . وتحديث الناس بأنه لا يؤمن

بالله . ولهذا ثار العرب والبربر في عام ١٠٦٦ وصلبوا يوسف ، وذبحوا أربعة آلاف من يهود غرناطة ، ونهبوا بيوتهم ، وأرغم الباقون من اليهود على بيع أراضيهم ومغادرة البلاد . وجاء المرابطون من أفريقية بعد عشرين عاما من ذلك الوقت متأججة صدمتهم بالحلمة الدينية و متمسكين بأصول السنة ، وانتهى بقدمهم عصر أسبانيا الإسلامية الزاهر الطويل الأمد . ونادى أحد رجال الدين من المسلمين أن اليهود قد وعدوا النبي بأن يعتنقوا الإسلام بعد خمسمائة عام من الهجرة ، إذا لم يظهر في ذلك الوقت مسيحيهم المنتظر ، وأن هذه الأعوام الخمسمائة تنتهي بالحساب الهجري في عام ١١٠٧ ؛ وطلب الأمير يوسف إلى جميع يهود أسبانيا أن يعتنقوا الإسلام ، ولكنه أعفاهم من هذا الأمر حين أدوا لبيت المال مبالغ طائلة (٢٣) . ولما خلف الموحدون المرابطين في حكم مراكش وبلاد الأندلس الإسلامية (١١٤٨) ، خيروا اليهود والمسيحيين كما خير الملك سبزوشت اليهود قبل خمسمائة وخمسة وثلاثين عاما من ذلك الوقت بين الارتداد عن دينهم أو الخروج من البلاد . وتظاهر كثيرون من اليهود باعتناق الإسلام ، وهاجر كثيرون منهم مع المسيحيين إلى شمال أسبانيا .

وهنا وجد اليهود في بادئ الأمر من التسامح العظيم ما لا يقل جلالا عما ظلوا يلقونه منذ أربعة قرون تحت حكم المسلمين . وأحسن الفنس السادس والسابع ملكا قشتالة (الأذفونش) معاملة اليهود ، وجعلهم هم والمسيحيين سواء أمام القانون ، ولما قامت حركة مناهضة للسامية (١١٠٧) في طليطلة ، حيث كان ٧٢٠٠٠ يهودي ، قعها بصرامة (٢٤) . وحدث في أرغونة مثل هذا التآلف بين الديانتين ، الأم والابنة ، وبلغ من هذا التآلف أن دعا الملك جيمس الأول اليهود أن يستوطنوا ميورقة ، وقطلونية ، وبلنسية ، وكثيراً ما كان يمنع المستوطنين اليهود بيوتا وأرضين من غير ثمن (٢٥) . وكانت لهم في برشلونة السيطرة على التجارة في القرن الثاني عشر ، كما كان لهم نصف أراضيها الزراعية (٢٦) . نعم إن يهود

أسبانيا قد فرضت عليهم ضرائب باهظة ، ولكنهم مع ذلك أثروا ، واستمتعوا فيها بالاستقلال في شئونهم الداخلية . وكانت التجارة تتبادل بحرية بين المسيحيين واليهود والمسلمين الأندلسيين ، وكان بنو الأديان الثلاثة يتبادلون الهدايا في الأعياد ، وكان بعض الملوك من حين إلى حين يشترك بالمال في بناء المعابد اليهودية (٢٧) ، وكان في وسع الإنسان أن يجد بين عامي ١٠٨٥ و ١٤٩٢ نفسها يهودا يشغلون المناصب الكبرى في دول أسبانيا المسيحية . منهم القائمون على شئون المال ومنهم الدبلوماسيون ، ومنهم الوزراء أحياناً (٢٨) . واشترك رجال الدين المسيحيون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في هذه الألفة المسيحية (٢٩) .

وكانت بداية عدم التسامح الديني بين اليهود أنفسهم . ذلك أن يهودا ابن عزرا المتولى شئون قصر ألفونسو السابع ملك ليون وقتشالة وجه في عام ١١٤٩ قوة حكومة مليكه ضد اليهود القرائين في طليطلة . ولسنا نعرف تفاصيل ما حدث وقتئذ ، ولكن اليهود القرائين الأسبان الذين كانوا إلى ذلك الحين طائفة كبيرة لم يعد يسمع لهم خبر (٣٠) . ودخل بعض الصليبيين أسبانيا في عام ١٢١٢ ليساعدوا أهلها على طرد المسلمين منها ، وكانوا في أغلب الأحوال يحسنون معاملة اليهود ، ولما أن اعتدت طائفة منهم على يهود طليطلة وقتلت كثيرين منهم ، هب أهل المدينة المسيحيون للدفاع عن مواطنهم ، ووضعوا حداً لاضطهادهم (٣١) ، وأدخل ألفونسو العاشر ملك قشتالة بعض المواد المحقة باليهود في قانونه الصادر عام ١٢٦٥ ، ولكن هذا القانون لم يطبق حتى عام ١٣٤٨ ، وكان ألفونسو في ذلك الوقت يستخدم طبيباً وخازناً لبيت المال يهودياً ، وأهدى إلى يهود أشبيلية ثلاثة من مساجده المسلمين ليجعلوها معابد لهم (٣٢) ، واستمتع بما نخله العلماء اليهود والمسلمون على حكمه اللطيف من مجد . ولما احتاجت مغامرات بيدرو الثالث pedro ملك أرغونة إلى فرض الضرائب الفادحة على رعاياه ، كان وزير ماليته وتعدد آخر من موظفيه يهودا ، ولما ثار أعيان البلاد ومدنها على الملكية ، اضطرب الملك

إلى إقصاء أعوانه اليهود عن مناصب الدولة ، وتوقيع قرار أصدره مجلس الكورتير Cortes (١٢٨٣) ، بالألا^١ يعين بعد ذلك الوقت أى يهودى فى المناصب الحكومية .

وكانت خاتمة عهد التسامح الدينى حين أصدر مجلس زمورا Zamora الدينى (١٣١٣) قراراً بأن يلبس اليهود شارة تميزهم من غيرهم ، وألا يختلط اليهود بالمسيحيين ، ويحرم على المسيحيين استخدام أطباء من اليهود وعلى اليهود أن يكون لهم خدام مسيحيون (٣٢) .

الفصل الثالث

الحياة اليهودية في البلاد المسيحية

١ - الحكومة

لم تحتم المدن المسيحية في العصور الوسطى - إذا استثنينا بالرم وقليلًا من المدن الأسبانية - أن يعيش من فيها من اليهود منعزلين عن سائر السكان . لكن اليهود كانوا في العادة يعيشون في عزلة اختيارية عن غيرهم من الأهليين لتيسر لهم هذه العزلة حياتهم الاجتماعية وسلامتهم الجسمية ووحدهم الدينية . وكان كنيسهم مركز الحى اليهودى الجغرافى ، والاجتماعى ، والاقتصادى ، يجتذب إليه معظم مساكن اليهود ، ولهذا ازدحمت المساكن حوله ازدحاماً كبيراً ، وأضر ذلك الازدحام بالصحة العامة . والخاصة . وكانت الأحياء اليهودية في أسبانيا تحتوى على مساكن جميلة وعمارات كما تحتوى على أكواخ قلدة ، أما في غيرها من بلاد أوربا فكادت المساكن أن تكون أحياء قلدة وبيئة مزدحمة بالسكان^(٣٤) .

وكانت الجماعات اليهودية طوائف منعزلة شبه ديمقراطية وسط عالم ملكى مطلق ، إذا استثنينا من هذا التعميم ما للثراء من أثر في الانتخابات وفي الاختيار للوظائف في جميع أنحاء العالم . وكان دافعوا الضرائب من الجماعات اليهودية يختارون أحرار الكنيس وموظفيه . وكانت فئة قليلة العدد من الكبار المنتخبين تكون بيت المربع أو المحكمة الشعبية ، وهذه المحكمة هى التى كانت تبحى الضرائب ، وتحدد الأثمان ، وتتولى القضاء ، وتصدر القرارات الخاصة بالطعام ، والرقص ، والأخلاق ، والملبس ، ولم تكن هذه القرارات تطاع على اللوام . وكان من حقها

أن نحاكم من يعتدون على القانون اليهودى من اليهود أنفسهم ، وكان لها موظفون ينفذون أوامرها ، وكانت العقوبات التى توقعها تختلف من الغرامات إلى الحرمان الدينى أو النفى ، وقلما كان الحكم بالإعدام من اختصاص بيت الدين أو كان من العقوبات التى توقعها ؛ وكانت المحكمة اليهودية تستعيض عن هذا الإعدام بالحرمان التام ؛ يصدر فى احتفال فخم مرعب توجه فيه التهم ، وتصب فيه اللعنات ، وتطفأ فيه الشموع واحدة بعد واحدة رمزاً إلى موت المجرم الروحى . وكان اليهود يسرفون فى استخدام الحرمان ، كما كان يفرط فيه المسيحيون ، ولهذا فقدت هذه العقوبة ما كان لها من رهبة وتأثير . وكان رؤساء اليهود الدينيون — كما كان رؤساء الكنيسة المسيحيون — يضطهدون الملاحدة ، ويحرمونهم من حماية القانون ، ويحرقون كتبهم فى حالات نادرة (٣٥).

ولم تكن الجماعات اليهودية فى الأحوال العادية خاضعة للسلطات المحلية وكان سيدها الوحيد هو الملك . تولى إليه المال بسخاء لتبتاع منه الميثاق الذى يحمى حقوقها الدينية والاقتصادية ؛ وكانت فيما بعد تولى المال إلى الحكومات المحلية المحررة لتؤيد استقلال اليهود الذاتى بشؤونهم الداخلية . إلا أن اليهود مع ذلك . كانوا يخضعون لقوانين الدولة . وجعلوا طاعة هذه القوانين مبدأ من مبادئهم الواجبة الطاعة ؛ وقد ورد فى التلمود أن « قانون البلد شريعة » (٣٦) ، وتقول إحدى فقراته : « صاوا لسلامة الحكومة ، فلولاً خوف الناس منها لا بئلى بعضهم بعضاً » (٣٧) .

وكانت الدولة تجبى من اليهود « الفرضة » أو ضريبة الرؤس ، وعوائد الأملاك . وكانت تصل أحياناً إلى ٣٣٪ من قيمتها ، وضرائب على اللحم ، والخمور ، والحلى ، والواردات ، والصادرات ؛ فضلاً عن التبرعات « الاختيارية » للمساعدة على تمويل الحروب ، أو تتويج الملوك ، أو « مقدمهم » أو رحلاتهم . وكان اليهود الإنجليز البالغ عددهم فى القان الثانى عشر ١٪ فى المائة من السكان

يؤدون للدولة ٨ ٪ من الضرائب العامة . وقد أدوا هم رُبع ما جمع من المال لحرب رتشارد الأول الصليبية ، وأدوا فيما بينهم ٥٠٠٠ مارك ليفتدوه من أسر الألمان وهو ثلاثة أمثال ما أدته مدينة لندن^(٣٨) . كذلك كانت الهيئات اليهودية تفرض ضرائب أخرى على اليهود ، كما كان يطلب إليهم من حين إلى حين صدقات وإعانات للتعليم وللمساعدة اليهود المضطهدين في فلسطين . وكان الملك في أى وقت من الأوقات يصادر أملاك « يهوده » بعضها أو كلها لسبب أو لغير سبب ؛ ونقول يهوده لأنهم كانوا جميعاً بمقتضى قانون الإقطاع « رجال » الملك . وكان الملك إذا مات ينتهى العهد الذى قطعه بحماية اليهود ، ولم يكن من يخلفه على العرش يرضى بأن يحدد العهد إلا إذا قدم إليه قدر كبير من المال ، قد يبلغ في بعض الأحيان ثلث جميع ما يمتلكه اليهود في الدولة^(٣٩) . من ذلك ما فعله ألبرخت الثالث Albrecht III مارجراف برندنبرج Margrave of Brandenburg في عام ١٤٦٣ إذ أعلن أن كل ملك ألماني جديد « يجوز له ، عملاً بالسنن القديمة ، إما أن يحرق جميع اليهود ، أو يظهر لهم رحمته ، فينقل حياتهم ، ويأخذ ثلث أملاكهم »^(٤٠) ولقد لخص براكتن Bracton كبير المشترعين اليهود في القرن الثالث عشر هذه النقطة بعبارة موجزة فقال : « ليس من حق اليهودى أن يكون له ملك خاص ، لأن ما يحصل عليه أيا كان نوعه لا يحصل عليه لنفسه بل للملك »^(٤١) .

٢ - الشئون الاقتصادية

وكانت هناك فضلا عن هذه المتاعب السياسية قيود اقتصادية . نعم إن اليهود لم يكونوا يمنعون بحكم القانون من تملك العقار ، ولم يكونوا يمنعون من تملكه بوجه عام ، وقد كانوا في أوقات مختلفة في العصور الوسطى يملكون أراضي واسعة في بلاد الأندلس الإسلامية وإسبانيا المسيحية ، وفي صقلية ، وسيليزيا ، وپولندة ،

وإنجلترا ، وفرنسا^(٤٢) ؛ ولكن ظروف الحياة جعلت هذا التملك أمراً غير ميسر من الوجهة العملية يزداد صعوبة على مر الأيام . ذلك أن اليهودى ، وقد حرمت عليه الشريعة المسيحية أن يستأجر أرقاء مسيحيين ، وحرمت عليه الشريعة اليهودية أن يستأجر أرقاء من اليهود ، لم يكن أمامه إلا أن يفلح أرضه باستئجار عمال أحرار يصعب الحصول عليهم ويتطلب الاحتفاظ بهم نفقات طائلة . يضاف إلى هذا أن الشريعة اليهودية تحرم على اليهودى أن يعمل فى يوم السبت ، وأن الشريعة المسيحية كانت عادة تمنعه من العمل فى يوم الأحد ، وكان هذا التعطل عقبة كبيرة فى سبيله ؛ وكانت العادات أو القوانين الإقطاعية تجعل من المستحيل على اليهودى أن يكون له منزلة فى النظام الاقتصادى لأن هذه المنزلة تتطلب منه أن يقسم يمين الولاء للمسيحية ، وأن يقوم بالخدمة العسكرية ، مع أن شرائع الدول المسيحية كلها تقريباً تحرم على اليهود حمل السلاح^(٤٣) . ولما حكم القوط الغربيون أسبانيا ألغى الملك سيزبوت جميع ما منحه أسلافه من الأرض لليهود ، « وأم » الملك إجيكا جميع أملاك اليهود التى كانت ملكاً للمسيحيين فى أى وقت من الأوقات ، وفى عام ١٢٩٣ حرم مجلس الكورتيز فى بلد الوليد بيع الأراضى لليهود ؛ وفوق هذا كله فإن ما كان يتعرض له اليهود فى كل وقت من الأوقات من احتمال طردهم من البلاد ، أو مهاجمتهم ، قد أقنعهم بعد القرن التاسع أن يتجنبوا امتلاك الأراضين أو العيش فى الريف . كل هذه الصعاب ثبطت همة اليهود فى الاشتغال بالزراعة ومالت بهم إلى حياة الحضر ، وإلى العمل فى الصناعة والتجارة والشئون المالية .

ونشط اليهود فى الشرق الأدنى وجنوب أوروبا فى الصناعة ، والحق أن اليهود كانوا فى معظم الأحوال هم الذين أدخلوا الفن الصناعى الراقى من بلاد الإسلام إلى بزنطية وإلى البلاد الغربية ، ولقد وجد بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela مئات من صانعى الزجاج فى أنطاكية ، وصور ؛ واشتهر اليهود فى مصر وبلاد

اليونان بجمال منسوجاتهم المصبوغة والمطرزة وتفوقها على سائر المنسوجات من نوعها ، وكان فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر لا بعد يستقدم إلى بلاده الصناع اليهود ليشرفوا على صناعة نسيج الحرير التابعة للدولة فى صقلية ؛ وكان اليهود فى تلك الجزيرة وفى غيرها من البلاد يشتغلون فى الصناعات المعدنية وبخاصة فى الصباغة وصناعة الحلى ، وظلوا يعملون فى مناجم القصدير فى كورنول إلى عام ١٢٩٠^(٤٤) . وانتظم الصناع العبرانيون فى أوروبا الجنوبية فى طوائف للحرف قوية ، وكانوا ينافسون الصناع المسيحيين منافسة شديدة ، أما فى أوروبا الشمالية فقد احتكرت طوائف أرباب الحرف المسيحية كثيراً من الصناعات ؛ وأخذت الدول المختلفة واحدة فى إثر واحدة تحرم على اليهود الاشتغال حدادين ، ونجارين ، وخياطين ، وحذائين ، وطحانين ، وخبازين ، وأطباء ؛ كما حرمت عليهم بيع الخمور ، والدقيق ، والزبد ، والزيت فى الأسواق^(٤٥) ، وابتاع مساكن لأنفسهم فى أى مكان خارج عن الأحياء اليهودية .

وإزاء هذه القيود الثقيلة لجأ اليهود إلى التجارة وكان رب Rab ، العالم التلمودى البابلى ، قد وضع لبنى ملته شعاراً يدل على ثاقب فكره : « تاجر بمائة فلورين تحصل على لحم وخمر ؛ أما إن استغلت هذا القدر نفسه فى الزراعة فأكبر ما تحصل عليه هو الخبز والملح »^(٤٦) . وكان البائع اليهودى الجائل معروفاً فى كل مدينة وبلدة ، والتاجر اليهودى معروفاً فى كل سوق ومولد ؛ وكانت التجارة الدولية عملاً تخصصوا فيه ، وكادوا أن يحتكروه قبل القرن الحادى عشر ، فكانت أحامهم ، وقوافلهم ، وسفائنهم تجتاز الصحراوات ، والجبال ، والبحار ، وكانوا فى معظم الحالات يصحبون بضائعهم . وكانوا هم حلقة الاتصال التجارى بين بلاد المسيحية والإسلام ، وبين أوروبا وآسية ، وبين الصقلية والدول الغربية ؛ وكانوا هم القائمين بمعظم تجارة الرقيق^(٤٧) ؛ وكان يعينهم على النجاح فى التجارة مهارتهم فى تعلم اللغات ، وقدرة الجماعات اليهودية البعيدة بعضها عن بعض على

فهم اللغة العبرية ، وتشابه عادات اليهود وقوانينهم ، واستضافة الحى اليهودى فى كل مدينة لأى يهودى غريب . ولهذا استطاع بنيامين التطلبى أن يجتاز نصف العالم وأن يجد له أينما حل موطنًا . ويحدثنا ابن خرداذبة صاحب البريد فى الدولة العباسية عام ٨٧٠ فى كتابه المسالك والممالك عن التجار اليهود الذين يتكلمون اللغات الفارسية ، واليونانية ، والعربية ، والفرنجية ، والأسبانية ، والصقلية ، ويصف المسالك البرية والبحرية التى ينتقلون بها من أسبانيا وإيطاليا إلى مصر ، والهند ، والصين^(٤٨) . وكان هؤلاء التجار يحملون الخصيان ، والعبيد ، والحرير المطرز ، والفراء ، والسيوف إلى بلاد الشرق الأقصى ، ويعودون منها بالمسك ، والتند ، والكافور ، والتوابل ، والمنسوجات الحريرية^(٤٩) . ثم كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، واستيلاء أساطيل البندقية وجنوى على بلاد البحر المتوسط ، فأصبحت للتجار الإيطاليين ميزة على اليهود ، وقضى فى القرن الحادى عشر على زعامة اليهود التجارية . وكانت مدينة البندقية قد حرمت حتى قبل الحروب الصليبية نقل التجار اليهود على سفنها ، ولم يمض بعد ذلك إلا قليل من الوقت حتى أغلقت عصبة المدن الهنسية The Hansatic League موانئها الواقعة على بحر الشمال والبحر البلطى فى وجه التجارة اليهودية^(٥٠) ، وقبل أن يحل القرن الثانى عشر أضحت الجزء الأكبر من التجارة اليهودية تجارة محلية ، وكانت هذه التجارة حتى فى هذا المجال الضيق تحددها القوانين التى تحرم على اليهود أن يبيعوا عدة أنواع من السلع^(٥١) .

... فلم يكن لهم بد من العودة إلى شئون المال . ذلك أنهم وجدوا أنفسهم فى بيئة معادية لهم معرضين لأن يتلف عنف الجماهير أملاكهم الثابتة . أو أن يصادروها الملوك الجشعون ، فأرغمهم هذه الظروف على أن يجعلوا مدخراتهم من النوع السائل السهل التحرك ، فعمدوا أولاً إلى ذلك العمل السهل وهو مبادلة النقد ، ثم انتقلوا منه إلى تلقى المال لاستثماره فى التجارة ، ثم إلى إفراض المال بالربا .

وكانت أسفار موسى^(٥٢) والتلمود^(٥٣) قد حرمت التعامل بالربا بين اليهود أنفسهم ولكنها لم تحرّمه بين اليهودي وغير اليهودي. ولما أضحت الحياة الاقتصادية أشد تعقيداً مما كانت قبل، وصارت الحاجة إلى تمويل المشروعات أشد إلحاحاً نظراً لاتساع نطاق التجارة والصناعة، أخذ اليهود يقرض بعضهم بعضاً المال عن طريق وسيط مسيحي^(٥٤) أو عن طريق جعل صاحب المال شريكاً موصياً^(*) في المشروع وأرباحه — وهى وسيلة أجازها أحبار اليهود، وعدد كبير من رجال الدين المسيحيين^(٥٥). وإذا كان القرآن وكانت الكنيسة المسيحية يحرمان الربا، وكان المقرضون المسيحيون لهذا السبب نادري الوجود قبل القرن الثالث عشر، فإن المقرضين المسلمين والمسيحيين — ومنهم رجال الدين المسيحيون، والكنايس والأديرة^(٥٦) — كان هؤلاء المقرضون يلجأون إلى اليهود ليقرضوهم ما يحتاجونه من المال. وحسبنا دليلاً على هذا أن هارون اللنكلنى Aaron of Lincoln هو الذى قدم ما يازم من المال لبناء تسعة أديرة سترسيه Cistercian، وبناء دير سانت أولبنز St. Albans^(٥٧) العظيم. ثم غزا رجال المصارف المسيحيون هذا الميدان فى القرن الثالث عشر، واستعانوا بالوسائل التى أوجدها وسار عليها اليهود، وما لبثوا أن تفوقوا عليهم الثراء واتساع نطاق الأعمال. « ولم يكن المرابى المسيحي أقل صرامة من مياه اليهودى » وإن لم يكن أولها فى حاجة إلى حماية نفسه بالقدر الذى يحتاجه الثانى من خطر القتل والسلب والنهب^(٥٨) فكان كلاهما يشدد الكبير على المدين بما عرف عن الدائنين الرومان من القسوة، وكان الملاك يستغلونهم جميعاً لمصلحتهم الخاصة.

فكان المرابون جميعاً يفرض عليهم ضرائب باهظة، وكان اليهود منهم يتعرضون من حين إلى حين إلى مصادرة أموالهم بأجمعها. وقد سار الملوك على سنة

(*) الشريك الموصى هو الذى يشترك بالمال لا بالعمل وينال نصيباً من الربح إذا كسبت التجارة ولا يخسر شيئاً من ماله إذا لم تربح، ويسميه أهل الريف فى مصر الشريك المرفوع. (المترجم)

السماح للمرايين بأن يتقاضوا رباً فاحشاً ، ثم يلجأون من حين إلى حين إلى اعتصار هذه المكاسب من أصحاب المال . وكان المراهون يتحملون نفقات كبيرة في سبيل الحصول على أموالهم ، وكثيراً ما كان الدائن يضطر إلى أداء الرشا للموظفين لكي يسمحوا له بالحصول على ما ماله^(٥٩) . وحدث في عام ١١٩٨ حين كانت أوروبا تستعد للحرب الصليبية الرابعة أن أمر البابا إنوسنت الثالث Innocent III جميع الأمراء المسيحيين بإلغاء جميع فوائد القروض التي يطالب بها اليهود مدينهم المسيحيين^(٦٠) : وأعفى لويس التاسع ، ملك فرنسا القديس ، جميع رعاياه من ثلث ما كانوا مدينين به لليهود لكي « يستنزل الرحمة على روحه وروح أسلافه »^(٦١) . وكان ملوك الإنجليز في بعض الظروف يصدرن خطابات إعفاء — ياغون بمقتضاها فائدة الدين أو رأس المال أو كليهما — لرعاياهم المدينين لليهود . ولم يكن من النادر أن يبيع الملوك هذه الخطابات ، وأن يدونوا في سجلاتهم المبالغ التي حصلوا عليها نظير وساطتهم في هذا البر بالإنسانية^(٦٢) . وكانت الحكومة البريطانية تطلب أن ترسل إليها صورة من كل تعاقد على قرض ، وأنشأت ديواناً خاصاً باليهود يجمع هذه العقود ، ويراقبها ، ويستمع إلى القضايا الخاصة بها ، فإذا ما عجز صاحب مصرف يهودي عن أداء الضرائب أو المطالب المفروضة عليه ، رجعت الحكومة إلى ما لديها من سجلات عن قروضه ، وصادرتها كلها أو بعضها ، وأندرت مدينه بأن يؤدوا إليها هي لا إليه ما عليهم من الديون^(٦٣) . ولما أن فرض هنرى الثاني على سكان إنجلترا ضريبة خاصة في عام ١١٨٧ ، أرغم اليهود على أداء ربع أملاكهم ، والمسيحيون على عشرها ، وبذلك أدى اليهود وحدهم ما يقرب من نصف الضريبة كلها^(٦٤) . وكان اليهود في بعض الأحيان « هم الذين يمولون المملكة »^(٦٥) . وأمر الملك يوحنا في عام ١٢١٠ أن يزج في السجون يهود إنجلترا على بكرة أبيهم — رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا — ثم جمعت منهم ضريبة للملك بلغت ٦٦,٠٠٠ مارك^(٦٦) .

وعذب الذين ظنوا أنهم لم ييؤخوا بكل ما كان لديهم من أموال مكتوذة بأن اقتلعت سن من أسنانهم كل يوم حتى يقرؤا بحقيقة مدخراتهم (٦٧). وفي عام ١٢٣٠ اتهم هنرى الثالث اليهود بقطع جزء من عملة الدولة (ويبدو أن بعضهم قد فعل ذلك حقاً) ، فصادر ثلث ما يمتلكه يهود إنجلترا من ثروة منقولة ، ولما تبين أن هذه الوسيلة مربحة ، أعيدت في عام ١٢٣١ ، وبعد عامين من ذلك التاريخ انتزع من اليهود ٢٠٠٠٠٠ مارك فضي ، ثم انتزع منهم في عام ١٢٤٤ ستون ألف مارك (*) - وهو مبلغ يوازي مجموع إيرادات التاج البطاني السنوية . ولما أن استدان هنرى الثالث ٥٠٠٠ مارك من دوق كورنوال رهن له جميع يهود إنجلترا ضماناً لدينه (٦٨) . وتوالت على اليهود فيما بين عامي ١٢٥٢ و ١٢٥٥ سلسلة من القروض المالية دفعتهم إلى حال من اليأس لم يروا معها بداً من أن يطلبوا أن يؤذن لهم بمغادرة إنجلترا جملة ، ولكن طلبهم هذا لم يأتى قبولاً (٦٩) . وحرّم إدوارد الأول في عام ١٢٧٥ التعامل بالربا تحريماً باتاً ، ولكن الاقتراض لم يتقطع رغم هذا التحريم ، وإذا كان خطر ضياع المال قد ازداد بسببه ، فقد ارتفع سعر الفائدة ، ولذلك أمر إدوارد بالقبض على جميع اليهود ومصادرة جميع أملاكهم ، وقبض كذلك على كثيرين من المرابين المسيحيين وشنق ثلاثة منهم . أما اليهود فلأن مائتين وثمانين منهم قد شنقوا ، وطيف بجثثهم في شوارع لندن ثم مزقت ، وقتل عدد آخر منهم في المقاطعات الإنجليزية . وصودرت أملاك مئات منهم لصالح الدولة (٧٠) .

وأثرى أصحاب المصارف اليهود في الفترات الفلقة التي تخللت أوقات المصادرة ، وظهرت علائم الثراء المفرط على بعضهم أكثر مما يجب أن تظهر ، فلم يقتصروا على تقديم المال اللازم لبناء القصور ، والكنائس الكبرى ، والأديرة ،

(*) كان المارك نصف رطل من الفضة ، أما قيمته الشرائية فأكبر الظن أنها كانت تعادل قيمته في هذه الأيام خمسين مرة (٨٤٠ دولار أمريكي) .

بل شادوا لأنفسهم فوق ذلك بوناً فخمة ، فكانت تلك البيوت في إنجلترا من أول ما بنى من البيوت بالحجارة . وكان بين اليهود أغنياء وفقراء على الرغم من قول العزر : « الناس كلهم أكفاء عند الله - النساء والعبيد ، والأغنياء والفقراء » (٧١) . وحاول رجال الدين أن يخففوا الفقر ، وأن يمنعوا الاستغلال الجشع للمال بوضع عدة نظم اقتصادية مختلفة ، فأخذوا يؤكّدون ما على الجماعة من تبعات لجميع أفرادها ، وخففوا آلام الشدائد بالصدقات المنظمة ، نعم لأنهم لم ينددوا بالغنى ، ولكنهم أفلحوا في رفع مكانة العلم حتى ساوت مكانة الثراء ، ووسموا الاحتكار والاثمار على التحكم في الأسعار بميسم الخطايا (٧٢) ، وحرّموا على بائع الأشتات أن يكسب أكثر من سدس ثمن الحملة (٧٣) ، وكانوا يرانبون الموازين والمقاييس ، ويحدّدون أقصى الأثمان وأقل الأجور ، لكن كثيراً من هذه النظم قد عجزت عن تحقيق الغرض المقصود منها ، لأن رجال الدين لم يستطيعوا فصل حياة اليهود الاقتصادية عن حياة جيرانهم في البلاد الإسلامية أو المسيحية ، ووجد قانون العرض والطلب في السلع والخدمات له طريقاً ينفذ منها حول جميع التشريعات .

٣ - الأخلاق

وحاول الأغنياء أن يكفروا عن ثرائهم بالصدقات الكثيرة ، فكانوا يقرون بما على الله من واجبات اجتماعية ، ولعلمهم أيضاً قدخافوا ثورة الفقراء أولعهم ، فلم يعرف قط أن يهودياً مات من الجوع وهو يعيش في بيئة يهودية (٧٤) . ومن بداية القرن الثاني المسيحي كان مشرفون رسميون يفرضون في فترات محددة على كل فرد من أفراد العشيرة اليهودية مهما يكن فقيراً أن يكتب بشيء من ماله « لصندوق العشيرة » الذي يعنى بالشيخوخة ، والفقراء ، والمرضى ، وبتعليم اليتامى وزواجهم . وكانت واجبات الضيافة تقدم بالحبان وبخاصة للعلماء الجاهلين . وفي

بعض الجماعات كان المسافرون اليهود إذا قدموا على بلد آواهم موظفون من الجماعات اليهودية في بيوت الأفراد اليهود . وزاد عند الجمعيات الخيرية اليهودية زيادة كبيرة كلما تقدمت العصور الوسطى ، فلم تكن هناك فقط كثير من المستشفيات ، وملاجئ للأيتام وبيوت للفقراء والطاعنين في السن ، بل كانت هناك أيضاً منظمات تؤدي أموال الفقراء للمسجونين ، وبائيات للعائس الفقيرات ، وأجور الأطباء للمرضى ، وتعنى بالأرامل المعدمات ، وتدفن الموتى من غير أجر (٧٧) . وكان المسيحيون يشكون من شره اليهود ويحاولون أن يثيروا حماسة المسيحيين للصدقة بأن يضربوا لهم أمثلة من كرم اليهود (٧٨) .

وكانت الفروق بين الطبقات عند اليهود تظهر في ثيابهم ، وطعامهم ، وحديثهم وفي مائة أخرى من أساليب حياتهم . فكان اليهودى البسيط يلبس فقطناً طويلاً الكمين فوقه حزام ، وكان أسود اللون في العادة ، كأنه رمز للحزن على هيكله المهدم وعلى بلاده ، لكن أثرياء اليهود في أسبانيا كانوا يظهرون ثراءهم بلبس الثياب الحريرية ، وطالما جلدتهم الفقراء دون جدوى من أثر هذا التظاهر في إثارة البغضاء والأحقاد . ولما أن حرم ملك قشتالة هذا التجميل في الملبس أطاع الرجال اليهود أمره ولكنهم ظلوا يلبسون أزواجهم أفخر الثياب ؛ ولما أن سألهم الملك في ذلك أكلوا له أن الشهامة الملكية لم تكن تقصد قط أن يطبق هذا القيد على النساء (٧٩) ، وظل اليهود طوال العصور الوسطى يحملون نساءهم بفخر الثياب ، ولكنهم حرموا عليهن أن يظهرن أمام الجماهير عاريات الرأس ، وأنلدروهن بأن مخالفة هذا الأمر تصبح سبباً للطلاق ، وأمير اليهودى ألا يصلى في حضرة امرأة يرى الناس شعرها (٨٠) .

وكانت نواحي التلمود المتصلة بالقوانين الصحية مما خفف من آثار الازدحام في أحياء المدن ، فعملية الختان ، والاستحمام كل أسبوع ، وتحريم الخمر وأكل اللحم الفاسد ، كلها وسائل وقت اليهود شرّاً الأمراض المنتشرة في البيئات المسيحية

المجاورة لهم أكثر من غيرهم من السكان (٨١) . مثال ذلك أن الجحلام كان منتشرأ بين فقراء المسيحيين الذين يأكلون اللحم أو السمك المملح ، ولكنه كان نادر الحدوث بين اليهود ؛ ولعل هذه الأسباب نفسها هى التى جعلت إصابة اليهود بالكوليرا وما شابهها من الأوبئة أقل من إصابة المسيحيين (٨٢) . لكن اليهود والمسيحيين على السواء كانوا يعانون الأمرين من الملاريا فى أحياء رومة القلعة الموبوءة بالبعوض من منافع كماليا Campagna .

وكانت حياة اليهودى تنعكس عليها من الناحية الأخلاقية تراثه الشرقى والقيود التى يفرضها عليه الأوروبيون ؛ فى كل مناحى الحياة حقوق له مهضومة ، وأمواله معرضة للنهب وحياته للخطر والإذلال ، يتهم بجرائم ليست له يد فيها ، ولهذا كله يلجأ الضعيف الجسم فى كل مكان إلى الدهاء يتق به الأذى . نعم إن أحبار اليهود كانوا ينادون فى كل حين أن « خداع غير اليهودى شر من خداع اليهودى نفسه » (٨٣) ؛ ولكن بعض اليهود كانوا يخالفون هذه النصيحة (٨٤) ؛ ولعل المسيحيين أيضاً كانوا يخادعون بكل ما يعرفونه من خداع . فرجال المصارف اليهود منهم والمسيحيون لم يكونوا يرحمون مدينهم بل كانوا يتقاضون منهم كل ما عليهم من ديون ، وإن كنا لا ننكر أنه كان فى العصور الوسطى ، كما كان فى القرن الثامن عشر ، دائنون لا يقلون أمانة وإخلاصاً عن ملير أنسلم من آل روتشيلد . وكان بعض اليهود والمسيحيين ينحتون النقود ، أو يقبلون البضائع المسروقة (٨٥) ، ولكن كثرة استخدام اليهود فى المناصب المسالية الكبرى توحى بأن من يستخدمونهم من المسيحيين كانوا يثقون بأمانتهم واستقامتهم ؛ وقلما كان اليهود يرتكبون جرائم العنف - كالقتل ، والسطو ، والسلب - ، وكان السكر أقل انتشاراً بينهم فى البلاد المسيحية منه فى البلاد الإسلامية ؛

وكانت حياتهم الجنسية عفيفة إلى حد عجيب على الرغم من أخذهم بمبدأ تعدد

الزوجات ؛ وكانوا أقل ميلاً للواط من غيرهم من الشعوب الشرقية الأصل (*). وكانت نساؤهم عذارى ذوات خفر وحياء ، وأزواجاً عاملات مجذبات ، وأمهات مخصبات ذوات ضمائر حية ، وكان من أثر التبكير بالزواج أن قلت الدعارة يمتن إلى أقل حد يستطاع الوصول إليه عند بنى الإنساد (٨٦). وكان العزاب نادري الوجود بين رجالهم ، وكان من القواعد التي وضعها الحاخام أشير بن يمال أن من حق المحاكم أن ترغم الأعزب على الزواج إذا بلغ العشرين من العمر ، ولم يكن منهمكاً في دراسة الشريعة (٨٧). وكان الآباء هم الذين ينظمون أمور الزواج ، وتقول إحدى الوثائق اليهودية الباقية من القرن الحادى عشر إنه كان بتدريج فتيات « يبلغن من قلة الدوق أو من الوقاحة ما يجرأن معه على أن يبدين هواهن أو خيارهن » في هذه الناحية (٨٨). ولكن الزواج لا يكون قانونياً إلا برضاء الزوجين (٨٩). وكان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن يشاء وهى صغيرة السن حتى وإن كانت في السادسة من عمرها ؛ ولكن زواج الأطفال على هذا النحو لم يكن يتم إلا إذا بلغ الزوجان سن الرشد ، وكان من حق الفتاة أن تلغى هذا الزواج إذا شامت (٩٠). وكانت الخطبة لإجراء رسمياً تجعل الفتاة زوجة للرجل من الوجهة القانونية ، ولا يمكن التفريق بعدها بين الزوجين إلا بوثيقة طلاق قضائية . وكان عقد يوقع عند الزواج (كتوبة) يحدد فيه بائنة الزوجة ومهر الزوج . وكان هذا المهر مبلغاً من المال يُجنَّب من مال الزوج ويؤدى للزوجة إذا طلقها أو مات عنها . وبغير هذا المهر الذى لم يكن يقل عن مائتى زوزا Zuz (وهو قدر يكفى لشراء بيت تسكنه أسرة واحدة) لا يصبح الزواج بعذراء صحيحاً من الوجهة القانونية .

(*) لسنا نعتقد أن المؤلف يريد أن يهتم الشرقيين بأنهم يميلون إلى الواط أكثر من غيرهم من الشعوب . فقد سبق أن وصف اللواط عند اليونان وصفا لا ترى موجبا لإعادته ، ونظن أنه إنما يريد أن يقارن اليهود - وهم شرقيون في الأصل - بنيرهم من شعوب الشرق فيقول إن هذا الداء كان أقل انتشارا عند بعض الشعوب الشرقية . (المترجم)

وكان تعدد الزوجات سنة جرى عليها أغنياء اليهود في البلاد الإسلامية ولكنها كانت نادرة بينهم في البلاد المسيحية^(٩١) . وتشير الآداب الدينية التي وصلت إلينا من عهد ما بعد التلمود ألف إشارة وإشارة إلى « زوج » الرجل ، ولا تشير قط إلى « أزواجه » . وأصدر جرشم بن يهوذا جاجام مينز في عام ١٠٠٠ م أمراً بحرمان كل يهودى يتزوج أكثر من واحدة ، وما لبث تعدد الزوجات بعد هذا القرار أن انقرض أو كاد بين اليهود في جميع أنحاء أوروبا ما عدا أسبانيا . على أن حالات من هذا التعدد ظلت تحدث من حين إلى حين إذا ظلت الزوجة عقيماً بعد عشر سنين من زواجها وسمحت هي للرجل أن يتخذ له حظية أو زوجة ثانية^(٩٢) ، ذلك أن الأبوة كانت مسألة حيوية عند اليهود . وقد ألغى هذا القرار نفسه — قرار جرشم — ما كان للزوج قديماً من حق طلاق زوجته بغير رضاها ومن غير جريمة ارتكبتها ، وأكبر الظن أن الطلاق بين اليهود في العصور الوسطى كان أقل منه في أمريكا في هذه الأيام .

وكانت الأسرة أكبر أسباب نجاة الحياة اليهودية وإن لم تكن رابطة الزواج قوية محكمة من الوجهة القانونية . ذلك أن الخطر المحدق باليهود من خارجهم قد قوى وحدتهم الداخلية ، ويشهد أعداؤهم أنفسهم بما كانت تتمناز به الأسرة اليهودية ، وما تتمناز به الآن ، من « حرارة ، وكرامة ... وتفكير ، وتدبر ، وحب أبوى وأخوى »^(٩٣) . فقد كان الزوج الشاب يشترك مع زوجته في العمل ، وفي السراء والضراء ، وكان شديد الحب لها لأنه يراها جزءاً من نفسه الكبرى ، وإذا أصبح أباً وكبير أطفاله من حوله أثاروا فيه قواه المسخرة وبعثوا فيه أعمق الوفاء . وأكبر الظن أنه لم يكن قبل الزواج قد مس جسم امرأة غير زوجته دون الشعار ، ولم تكن تتاح له في تلك البيئة الصغيرة الوثيقة الصلات إلا أقل الفرص للخيانة الزوجية بعد الزواج . وبكاد منذ ولادة أطفاله يبدأ بادخار بائنات لبناته ومهور لأولاده ، وكان من البدائه عنده أن من واجبه أن يساعد البنين والبنات بماله في

السنين الأولى من حياتهم وحياتهم الزوجية . وكان ذلك يبدو له أكثر حكمة من ترك الشاب يستعد لقيود الزواج المفرد بفترة من الاختلاط الجنسي الطليق . وكثيراً ما كان العريس يعيش مع عروسه في بيت أبيها — وقلماً كان ذلك سبباً في ازدياد سعادة الأسرة . وكان سلطان الأب الأكبر في البيت سلطاناً مطلقاً لا يكاد يقل في ذلك عن سلطانه في رومه الجمهورية . فكان من حقه أن يحرم أبناءه دينياً ، وأن يضرب زوجته ضرباً غير مفرط ، فإذا ما أصابها بأذى جسمي فرضت عليه العشيرة غرامة تتناسب مع موارده ، وكان في العادة يمارس سلطانه بصراوة لا تطفى قط على عاطفة الحب القوية .

وكان مركز المرأة من الوجهة القانونية ، عالياً من الناحية الأخلاقية . واكن الرجل اليهودي يحمده الله ، كما يحمده أفلاطون ، لأنه لم يولد أنثى ، وكانت المرأة تجيب عن ذلك في تواضع جم : « وأنا أحمد الله الذي خلقني كما أراد » (٩٥) . وكان للنساء في المعبد موضع منزول في الرواق أو خلف الرجال — وتلك تحية سمجة لمفاتنهن التي تلهي العابدين عن العبادة ، ولم يكن يحسن في العدد الواجب اكتماله لأداء الصلاة . وكانت الأغاني التي يمتدح بها جمال المرأة تعد عملاً غير لائق وإن كان التلمود قد أباحها (٩٦) . أما التغازل — إذا وجد — فلم يكن إلا عن طريق المراسلة ؛ ولقد نهى الأخبار عن التخاطب بين الرجال والنساء — حتى بين الزوجين — أمام الناس (٩٧) ، وقد أبيح الرقص ولكنه كان مقصوراً على رقص المرأة مع المرأة والرجل مع الرجل (٩٨) .

وكان القانون يجعل الزوج هو الوارث الوحيد لزوجته ، أما الأرملة فلم يكن من حقها أن ترث زوجها ، فإذا ماتت حصلت على قيمة بائنتها ، ومهر الزواج ؛ أما فيما عدا هذا فقد كانت تعتمد على أبنائها الذكور ، ورثة أبيهم الطبيعيين ؛ في أن ييسروا لها سبل الحياة الطيبة . ولم تكن البنات يرثن آباءهن إلا إذا لم يكن له أبناء ذكور ؛ فإذا كان له اعتمدن على جبهن الأخوى ، وقلماً كان يخيب فيهم

وجلاهن^(٩٩) . ولم تكن البنات يرسلن إلى المدارس ؛ فقد كان العلم مهما قل يعد بالنسبة إليهن أمراً شديداً لخطورة . على أنهن رغم هذا كن يسمح لهن بأن يدرسن في بيوتهن ؛ فنحن نسمع عن عدد من النساء يلقين محاضرات عامة في الشريعة . وإن كانت صاحبة المحاضرة تستتر أحياناً عن المستمعين^(١٠٠) . ولكن المرأة اليهودية الجديرة بالتكريم والإخلاص ، كانت تلقى بعد زواجها كل ما هي خليقة به منهما رغم ما كان يحيط بها من إجحاف مادي وقانوني ، وقد نقل يهوذا بن موسى بن تيبون Tibbon عن حكيم مسلم قوله : « لا يكرم النساء إلا الكريم ، ولا يحقرهن إلا الحقير »^(١٠١) .

وكانت صلات الأب بأبنائه أقرب إلى الكمال من الصلات الزوجية . فقد كان اليهودي بما عرف عن الرجل الساذج العادي من كبرياء ، يفخر بأبنائه وبقدرة على إنجاب الأبناء . وكان يقسم أغلظ أيمانه بأن يضع يده على خصيتي من يتلقى منه البهمن ، ومن هنا اشتقت كلمة testimony الأوربية(*) ، ومعناها الشهادة أو البيّنة أو الشاهد نفسه . وكان كل رجل يؤثر بأن يكون له طفلان على الأقل ، وكان له في العادة أكثر من اثنين . وكان الطفل يلقي الإجلال الذي يليق بزاير قدم من السماء ، ومن ملكك تجسد ؛ وكان الأب يلقي من التبجيل ما يكاد يجعله رسولا من عند الله ، فكان الولد يقف في حضرة أبيه حتى يأمره بالجلوس ، ويطيعه طاعة جزعة قلقلة تتناسب مع كبرياء الشباب . وكان الولد أثناء الاحتفال بالختان يكرس إلى يهوه بمقتضى عهد أبراهام ، وكانت كل أسرة تشعر بأن تعد واحداً من أبنائها على الأقل ليتولى المناصب الدينية . وكان الولد ، إذا بلغ الثالثة عشرة من عمره ، يدخل ميدان الرجولة ، ويفرض عليه كل ما تفرضه الشريعة على الرجال ، ويحدث ذلك في حفل رهيب يثبت فيه هذا ويؤكد .

(*) من كلمة Testes ومعناها الخصيتان . (المترجم)

وكان الدين يخضع رهبته وقداسته على كل مرحلة من مراحل نموه ، ويخفف .
بذلك من واجبات الآباء .

٤ - الدين

كذلك كان الدين رقابة روحية في كل ناحية من نواحي القانون الأخلاقي . لا ريب إنه كانت في الشريعة ثغرات ، وأن الحيل القانونية كانت تتلمس لكي تعاد إلى الشعب حرية التطبيق التي لا غنى عنها لكل شعب مغامر . ولكن يلوح أن الرجل اليهودي في العصور الوسطى كان يقبل الشريعة بوجه عام ويتخذها درعاً لا يقيه اللعنة الأبدية فحسب ، بل يقيه فوق ذلك وبصفة أظهر للعيان تفكك جماعته وانحلالها . نعم إنها كانت تضيق عليه في جميع مناحي الحياة ، ولكنه كان يعظمها لأنها موطن نشأته ومدرسة تربيته والوسيلة التي لا بد منها لحياته .

وكان كل بيت في بلاد اليهود كنيساً ، وكل مدرسة معبداً ، وكل أب كوهناً . فصلوات الكنيس وطقوسه كان لها مشيلات موجزة في البيت . وكان الصوم والأعياد الدينية يحتفل بها فيه احتفالات تعليمية تربط الماضي بالحاضر والأحياء بالأموات وبمن لم يولدوا بعد . وكان من عادة الأب في مساء يوم الجمعة أى ليلة السبت من كل أسبوع أن يجمع حوله زوجته ، وأولاده ، وخدمه ، ويباركهم فرداً فرداً ، ويؤمهم في الصلاة ، وفي القراءة من الكتب الدينية ، والأغاني المقدسة . وكانت تعلق على باب كل حجرة كبيرة من حجرات البيت أنبوبة (مزوزا) محتوية على ملف من الرق كتبت عليه فقرتان من سفر تثنية الاشتراع (الآيات ٤ - ٩ من الأصحاح السادس ، ١٣ - ٢١ من الأصحاح الحادى عشر) تذكر اليهودي أن إلهه « واحد يجب عليه أن يحبه من كل قلبه وروحه وبكل قوته » . وكان يجاء بالولد إلى الكنيس من سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطبع

الدين في نفسه في أكثر السنين. تأثيراً في تكوينه .

ولم يكن الكنيس معبداً دينياً فحسب ، بل كان فوق ذلك المركز الاجتماعي للعشيرة اليهودية ؛ والمعنى الحرفي للفظ سناجوج ، ولاكيزيا ، وسينود ، وكلية هو مجتمع ، ولقد كان الكنيس قبل المسيحية مدرسة ولا يزال يسمى شوله Schule عند اليهود : الإشكنازيين ، ثم أخذ على عاتقه في عهد التشتب عدداً كبيراً من الواجبات العجيبة المختلفة ، فكان من عادة بعضها أن ينشر في كل سبت ما يصدره بيت الدين من قرارات خلال الأسبوع المنصرم ، وأيضاً الضرائب ، وأن يعلن عن الأمتعة المفقودة ، وأن ينظر في شكاوى بعض الأفراد من البعض الآخر ، وأن يذيع أخبار الأملاك قبل مواعده حتى يستطيع من له حقوق في هذه الأملاك أن يعترض عليه . وكان الكنيس يوزع الصدقات العامة ، وكان في بلاد آسية مسكناً لأبناء السبيل . وكان مبناه على الدوام أجل المباني في الحى اليهودى ، وكان في بعض الأحيان وبخاصة في أسبانيا وإيطاليا آية من آيات العماره ، مزداناً أعظم زينة وأجملها ، وكثيراً ما كان ولاه الأمور المسيحيون يحرمون على اليهود إقامة معابد تطاول أعلى كنيسة مسيحية في المدينة ، وأمر البابا هونوريوس الثالث في عام ١٢٢١ بهدم معبد بهذا الوصف في بورج Bourges (١٠٢) .

وكان في أشبيلية في القرن الرابع عشر ثلاثة وعشرون كنيساً ، وفي طليطلة وقرطبة ما لا يكاد يقل عن هذا العدد ، منها واحد شيد في قرطبة عام ١٣١٥. تحتفظ به الحكومة الأسبانية على أنه أثر قومي .

وكان بكل كنيس مدرسة (بيت المدرس Beth ha midrash) بالإضافة إلى المدارس الخاصة والمعلمين الخصوصيين ، وأكبر الظن أن نسبة من كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين يهود العصور الوسطى كانت أكبر منها بين المسيحيين (١٠٤) وإن كانت أقل منها بين المسلمين . وكانت أجور المدرسين تؤديها الجماعات اليهودية عامة أو يؤديها الآباء ، ولكنهم كلهم كانوا خاضعين لرقابة

الجماعة المشتركة . وكان الأولاد يخرجون إلى المدارس مبكرين - قبل مطلع الفجر في الشتاء ؛ ثم يعودون إلى بيوتهم بعد بضع ساعات لتناول الفطور ، ثم يرجعون إلى المدرسة حيث يبقون حتى الساعة الحادية عشرة ، ثم يأتون إلى المنزل للغداء ، ويعودون إلى المدرسة ظهراً ، ثم يستريحون بين الساعة الثانية والثالثة ، ثم يذهبون مرة أخرى إلى المدرسة ويبقون فيها إلى المساء ، ثم يطلق سراحهم أخيراً ليعودوا إلى بيوتهم ليتعشوا ، ويصلوا ، ويناموا ، وكذلك كانت حياة الغلام اليهودى حياة جديدة شاقة (١٠٥) .

وأول ما كان يدرسه الغلام اليهودى هو اللغة العبرية وأسفار موسى الخمسة ؛ فإذا بلغ العاشرة من عمره بدأ يدرس المشنا ، وفي الثالثة عشرة يأخذ في دراسة الأجزاء الرئيسية من التلمود ، ومن شاء منهم أن يكون من العلماء واصل دراسة المشنا والجمارا من الثالثة عشرة إلى العشرين من عمره أو ما بعدها . وكان الطالب يتعلم عن طريق دراسته لموضوعات التلمود المختلفة مقداراً قليلاً من العلوم المختلفة تبلغ عشرة أو تزيد ، ولكنه لا يكاد يدرس شيئاً من تاريخ اليهود (١٠٦) . وكان أكثر ما يتعلمه عن طريق التكرار ، وكانت التلاوة الجماعية قوية عالية إلى حد جعل بعض البيئات تمنع وجود المدارس فيها (١٠٧) . أما التعليم العالى فكان مكانه اليشية أو المجمع للعلمى ، وكان خريجه هذا المجمع يسمى تلميذ حاخام أى عالماً بالشرعة ؛ وكان يعنى عادة من الضرائب المفروضة على سائر أفراد العشيرة ، وكان ينتظر من غير العلماء أن يهبوا واقفين إذا أقبل أو أدبر وإن لم يكن حتماً من الأحبار الرسميين (١٠٨) .

أما الحبر الرسمى فكان معلماً وقاضياً ، وكاهناً . وكان يطلب إليه أن يتزوج ، ولم يكن يتقاضى نظير القيام بواجباته الدينية إلا القليل من الأجر إذا تقاضى شيئاً منه على الإطلاق ؛ وكان العادة يكسب عيشه بعمل من الأعمال التى لا تمت بصلة إلى الدين ؛ وقبلما كان يعظ ، لأن الوعظ كان متروكاً لوعاظ متقلبين (مجديم)

يدرّبون على فنون البلاغة المهرّبة ذات الأصوات المنخضة الطنانة الرقّانة . وكان في مقدور كل فرد من المصلّين أن يؤم الجماعة ، ويقرأ فقرات من الكتاب المقدس ، ويعظ ، ولكن هذا الشرف كان يختص به في العادة أحد اليهود البارزين أو الذين لهم يد طولى في الصدقات والأعمال الخيرية . وكانت الصلاة عند اليهود المتمسّكين بالدين عملاً شديداً التعقيد ، لا تؤدّى على الوجه الصحيح إلا إذا غطى المصلّي رأسه دليلاً على الخشوع ، وربط على ذراعيه وجهته علماً صغيرة ، تحتوى فقرات من سفر الخروج (الآيات ١ - ١٦ من الأصحاح الثالث عشر) وتثنية الاشتراع (الآيات ٤ - ٩ من الأصحاح السادس ، و ١٣ - ٢١ من الأصحاح الحادى عشر) ، وثبت في أطراف ثيابه أهداباً نقش عليها أهم وصايا الرب . وكان رجال الدين يفسرون هذه الإجراءات الشكلية بأنها أمور لا بد منها لتذكّر اليهود بوحدانية الله ، ووجوده ، وشرائعه . أما السذج من اليهود فقد أصبحوا يحسبونها تماًم بحرية ذات قوى معجزة خارقة للطبيعة . وكانت الصلاة تحمّ بقراءة من ملف الشريعة الموضوع في تابوت صغير فوق المذبح .

وكان اليهود في المنفى لا يوافقون على إدخال الموسيقى في الشعائر الدينية ، ويرون أنها قلما تتفق مع حزنهم على وطنهم الضائع ، ولكن الواقع أن بين الموسيقى والدين من الصلات القوية مثل ما بين الشعر والحب . ذلك أن التعبير المتحضّر عن أقوى العواطف وأكثرها عمقاً يتطلب أشدّ الفنون إثارة للانفعالات النفسية ، ولقد عادت الموسيقى إلى الكنيس عن طريق الشعر ؛ ذلك أن البيتانيم Paitanim أو « الشعراء الجدد » العبرانيين شرعوا يكتبون أشعاراً دينية مثقّلة بالزخرف الصناعى كالأبيات المتجانسة أولى حروفها أو التي إذا جمعت الحروف الأولى منها كونت اسماً خاصاً أو جملة بعينها ، ولكنها يرفع من قدرها رنين اللغة العبرية وفخامة نغماتها وامتلاؤها بالحماسة الدينية التي أضحت عند اليهودى وطنية وديناً معاً . ولا تزال ترانيم العزربن قلابر (من القرن الثامن) الفجة القوية .

تُجَدُّ لها مكاناً في طقوس بعض المعابد اليهودية . ولقد ظهرت أشعار مثلها عند
يهود أسبانيا وإيطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا ، منها واحدة يترنم بها كثيرون
من اليهود يوم عيد الكفارة :

إذا أقبلت ملكوتك تشققت التلال عن أناشيد .

وضحكك الجزائر متللة لأنها تنتسب إلى الله .

وتغنى كل من فيها من المصلين بأعلى أصواتهم يشنون عليك .

حتى إذا سمعها أبعد الشعوب نادى بك ملكاً متوجاً عليها (١٠٩) .

ولما أن أدخلت هذه القصائد المقدسة (البيوطيم) في الصلوات التي تقام
في المعابد ، كان ينشدها مرتل القديس ، وبذلك عادت الموسيقى إلى الشعائر
الدينية . يضاف إلى هذا أن تلاوة الكتاب المقدس والأدعية كان ينشدها في
كثير من المعابد رئيس فرقة المرتلين أو ينشدها المرتلون إنشاداً ترتجل معظم
نغماته ارتجالاً ، ولكنها تتبع في بعض الأحيان نماذج النغمات البسيطة الموضوعة
للترانيم المسيحية (١١٠) . من ذلك أن النغمات المعقدة للأغنية العبرانية الذائعة
الصيت المعروفة باسم كل نيدري Kol Nidre (جميع الإيمان) (١١١) ، قد
أخذت من مدرسة دير سانت جول St. Gail الغنائية بسويسرا في وقت
ما قبل بداية القرن الحادى عشر .

على أن الكنيس اليهودى لم يحل في قلب اليهودى محل الهيكل بكل معاني
الحلول ، بل ظل أمله في أن يقدم القربان ليهوه في يوم من الأيام أمام قدس
الأقداس على تل صهيون ، يلهب خياله ، ويتركه عرضة لخداع « المسيح
الكذاب » في مختلف الأوقات . من ذلك ما حدث في عام ٢٠ حين أعلن شيريم
Sereme وهو رجل سورى ، أنه هو المنقذ المنتظر ، وسيّر حملة لانتزاع فلسطين من
المسلمين . وغادر اليهود مواطنهم في بابل وأسبانيا ليشتبكوا في هذه المغامرة ،
ولكن القائم بها أسر ، وعرضه الخليفة يزيد الثانى على الجاهليين على أنه مهرج
دجال ، ثم أمر به فقتل . وبعد بضع سنين من ذلك الوقت تزعم عوبديا بن

عيسى بن إسحق الأصفهاني ثورة أخرى مثلها امتشق فيها عشرة آلاف يهودى الحسام ، واستبسلوا في الحرب بقيادته ، ولكنهم هزموا ، وقتل ابن عيسى في المعركة وعوقب جميع يهود إصفهان بلامتميز بينهم لانضمامهم إليه . ولما أثارت الحملة الصليبية الأولى ثائرة أوربا حسبت الجماعات اليهودية أن انتصار المسيحيين سيعيد فلسطين إلى اليهود^(١١٢) ، ولكنهم أفاقوا من أحلامهم على سلسلة من المذابح المدبرة . وفي عام ١١٦٠ أثار دافيد الروى يهود العراق إذ نادى فيهم أنه هو المسيح المنتظر وأنه سيعود بهم إلى أورشليم ويرد إليهم حريتهم ؛ لكن حماه خشى أن يحقق الهلاك باليهود بسبب هذه الأفكار فما كان منه إلا أن ذبحه وهونأثم . ثم ظهر مسيح آخر في جنوبي جزيرة العرب عام ١٢٢٥ وأثار اليهود إثارة حمقاء . وكتب ابن ميمون « رسالة إلى الجنوب » ذائعة الصيت فند فيها مزاعم هذا الداعى ، وذكر يهود العرب بما أعقب هذه المحاولات الطائشة في ماضى الأيام من هلاك ودمار^(١١٣) ، ولكنه رغم هذا ارتضى الأمل في المسيح المنتظر ، على أنه دعامة لا بد منها للروح اليهودية في تشنتهم ، وجعل هذا الأمل إحدى العقائد الثلاث عشرة الأساسية في الديانة اليهودية^(١١٤) .

الفصل الرابع

كراهية اليهود

ترى ما هو منشأ العداء القائم بين غير اليهود واليهود ؟
لقد كانت الأسباب الرئيسية الباعثة على هذا العداء أسباباً اقتصادية ،
ولكن الخلافات الدينية كانت على الدوام سبباً في زيادة المنافسات الاقتصادية
وستاراً لها ؛ فالمسلمون المؤمنون برسالة محمد يغضبهم من اليهود عدم إيمانهم
بهذه الرسالة ، والمسيحيون الذين يؤمنون بالوهمية المسيح يؤلمهم أن يجحدوا
شعبه نفسه لا يؤمن بهذه الألوهية . ولم يكن كثيرون من المسيحيين الصالحين
يرون أن مما يخالف تعاليم دينهم أو يخالف التعاليم الإنسانية بوجه عام . أن
يلقوا على شعب بأسره ، خلال القرون الطوال ، تبعة أعمال فئة قليلة العدد
من يهود أورشليم في آخر أيام المسيح . ويحدثنا إنجيل لوقا أن جماعات من
اليهود رحبت بدخول المسيح أورشليم (الآية ٣٧ من الأصحاح ٢٩) وكيف
حمل صليبه بيلاطس : « تبعه جمهور كبير من الشعب والنساء اللائي كن يطمعن
وينحن عليه » (الآية ٢٧ من الأصحاح ٢٣) ، وكيف أن كل الجموع
الذين « كانوا مجتمعين لهذا المنظر لما أبصروا ما كان رجعوا وهم يقرعون
صدورهم » (الآية ٤٨ من الأصحاح ٢٣) ، ولكن هذه الشواهد القاطعة
بعطف اليهود على عيسى كانت تنمحي . ذكرها حين تتلى على المسيحيين
قصة الآلام المريرة كل أسبوع مقدس من فوق ألف منبر ومنبر ، فكانت
نيران الحقد تضطرم في قلوب المسيحيين ، وكان بنو إسرائيل في تلك الأيام
يجبسون أنفسهم في أحيائهم وبيوتهم خشية أن تثور عواطف السذج من الناس
فتؤدي إلى المذابح .

ونشأت حول هذا السبب الرئيسي من أسباب سوء التفاهم عشرات المئات .

من أسباب الريبة والعداء : وتحمل رجال المصارف اليهود أكبر آثار العداء الناشئ من أسعار فائدة القروض ، وهي أسعار ترتفع كلما قلت ضماناتها . ولما أن نمت الشئون الاقتصادية المسيحية ، وغزا التجار ورجال المصارف من غير اليهود ميادين كان اليهود هم المسيطرين عليها من قبل ، أثارت المنافسة الاقتصادية الأحقاد في الصدور ، وأخذ بعض المرابين المسيحيين يبذرون بذور الحقد على السامية^(١١٥) . وكان اليهود الذين يشغلون مناصب رسمية وبخاصة في المصالح المالية للحكومات المسيحية هدفاً طبيعياً لمن يكرهون الضرائب واليهود كليهما : وتأصلت هذه الأحقاد الاقتصادية والدينية في الصدور فأصبح كل ما هو يهودى بغضاً لبعض المسيحيين ، وكل ما هو مسيحى بغضاً لبعض اليهود ، فأخذ المسيحيون يعيرون على اليهود عزلتهم ، ولم يغفروا لهم هذه العزلة التي كانت رد فعل لتمييز غيرهم عليهم . وما كان يوجه إليهم من اعتداء في بعض الأحيان ، وبدت ملامح اليهود ، ولغتهم ، وآدابهم ، وأطعمتهم ، وشعائرهم ، بدت هذه كلها في أعين المسيحيين غريبة كريهة . ثم إن اليهود كانوا يطعمون حين يصوم المسيحيون ، ويصوم أولئك حين يفطر هؤلاء ، وظل يوم راحتهم وصلواتهم يوم السبت كما كان في قديم الأيام ، على حين أن يوم الراحة والصلوات عند المسيحيين قد تبدل فأصبح يوم الأحد ، وكان اليهود يحتفلون بنجاتهم السعيدة من مصر في عيد فصح قريب : قريباً يراه المسيحيون غير لائق من يوم الجمعة الذي يحزنون فيه لموت المسيح . ولم تكن الشريعة اليهودية تبيح لليهود أن يأكلوا طعاماً مسته يد غير يهودية ، أو يشربوا خمرأ عصرته ، أو يستعملوا آنية لمستها^(١١٦) ، أو أن يتزوجوا إلا من يهوديات^(١١٧) . وكان المسيحي يفسر هذه القواعد القديمة — التي وضعت قبل نشأة المسيحية بزمان طويل — بأن اليهود يرون أن كل شيء مسيحى نجس ، ويرد على هذا بأن الإسرائيل نفسه لم يكن في أغلب الأحيان يمتاز بنظافة جسمه أو أناقة ثيابه . ونشأت من عزلة هؤلاء وأولئك بعضهم عن بعض أقاصيص

سخيفة محزنة انتشرت بين كلا الطرفين . وكان الرومان قبل ذلك الوقت يهتمون المسيحيين بأنهم يلجئون أطفال الوثنيين ليقدموا دماءهم في السر قرباناً لإله المسيحيين ، ثم أخذ المسيحيون في القرن اثناني عشر يهتمون اليهود باختطاف أطفال المسيحيين ليقدموهم قرباناً إلى يهوه ، أو ليتخذوا دماءهم دواء ، أو يستعملوه في صنع الخبز الفطير لعيد الفصح . واتهم اليهود بأنهم يسممون الآبار التي يشرب منها المسيحيون ويسرقون الرقاق المقدس ليتشبهوه ويخرجوا منه دم المسيح^(١١٨) . ولما أن تباهى عدد قليل من تجار اليهود برأسمهم وأظهروا هذا الثراء بارتداء الملابس الغالية الثمن اتهم الشعب اليهودي على بكرة أبيه بأنه يستنزف أموال المسيحيين جملة ويضعها في أيدي اليهود . واتهمت اليهوديات بأنهن ساحرات ، وقيل إن كثيرين من اليهود من حزب الشيطان^(١١٩) . ورد اليهود على هذه الأقاصيص بأخرى مثلها عن المسيحيين ، وبقصص مهينة عن مولد المسيح وشبابه . وكان التلمود ينصح بأن تشمل الصدقات اليهودية غير اليهود^(١٢٠) ، وكان بحيا Bahya يثني على الرهينة المسيحية ، وكتب ابن ميمون يقول إن تعاليم المسيح والنبي محمد تنزع بالإنسانية إلى الكمال^(١٢١) ، ولكن اليهودى العادى لم يكن يستطيع فهم هذه المجاملات الفلسفية ، وبادل أعداءه حقداً بمحمد .

وكانت هناك فترات صفاء بين أوقات الجحون السالفة الذكر ، فكثيراً ما كان اليهود يختلطون بالمسيحيين اختلاط الأصدقاء متجاهلين قوانين الدولة والكنيسة التي تحرم هذا الاختلاط ، وكانت أحيانا يتزاوجون وبخاصة في أسبانيا وجنوب أوروبا . وكان العلماء المسيحيون واليهود يتعاونون فيما بينهم ، ميكائيل اسكت Michael Scot مع أناتولى Anatoli ، ودانتى مع غمونيلى^(١٢٢) ، وكان المسيحيون يقدمون الهبات للمعابد اليهودية ، وفي مدينة وورمز Worms كانت هناك حديقة يهودية كبرى يتفق عليها من هبة وهبتها امرأة مسيحية^(١٢٣) . وبُذِل يوم السوق في ليون من السبت إلى الأحد تيسيراً لليهود ، ووجدت الحكومات غير

الدينية أن اليهود عنصر نافع في الأعمال التجارية والمالية فأولتهم حمايتها في بعض الأوقات ؛ وإذا كانت دولة من الدول قد قيدت حركات اليهود أو أخرجتهم من بلادها فقد كان سبب ذلك في بعض الأحيان أنها لم يعد في مقدورها أن تحبهم من التعصب والعدوان^(١٢٤) .

وكان موقف الكنيسة من هذه الأحداث يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ؛ ففي إيطاليا كانت تحمي اليهود بوصفهم « حراس الشريعة » الواردة في العهد القديم وبوصفهم شهداء أحياء على صحة الكتاب المقدس من الوجهة التاريخية وعلى « غضب الله » ؛ لكن مجالس الكنيسة كانت من حين إلى حين تعمل على زيادة متاعب الحياة اليهودية ، وكثيرا ما كان يصدر عنها ذلك بحسن نية ، وقلم كانت تعتمد في عملها هذا على ما لها من سلطان عام ؛ من ذلك أن قانون ثيودوسيوس Thodosian Code (٤٣٩) ، ومجلس كليرمنت Clermont (٥٣٥) ، ومجلس طليطلة (٥٨٩) كلها حرمت تعيين اليهود في المناصب التي من حق شاغلها أن يوقع عقوبة على المسيحيين ؛ وأمر مجلس أورليان Orleans (٥٣٨) جميع اليهود ألا يخرجوا من بيوتهم طوال الأسبوع المقدس ، ولعل ذلك الأمر كان يقصد به حمايتهم ، وحرّم استخدامهم في المناصب العامة . وحرّم مجلس لاتران Lateran الثالث (١١٧٩) على القابلات أو المرضعات المسيحيات أن يخدمن اليهود ، وتدد مجلس بزيير Beziers (١٢٤٦) باستخدام المسيحيين أطباء من اليهود ؛ وردّ مجلس أفينيون Avignon (١٢٠٩) على قوانين الطهارة اليهودية بتحذير « اليهود والعاهرات » من لمس الخبز أو الفاكهة المعروضة للبيع ؛ وأعاد القوانين الكنسية الصادرة بتحريم استئجار اليهود الخدم المسيحيين ، وحلر المؤمنين من تبادل الخدمات مع اليهود ، وأمر بتجنّبهم لنجاستهم^(١٢٥) . وأعلنت بعض المجالس إلغاء كل زواج بين المسيحيين واليهود ؛ وأحرق شماس في عام ١٢٢٢ على القائمة الخشبية لأنه اعتنق الدين

اليهودى وتزوج يهودية^(١٢٦) . وحُرمت أرملة يهودية فى عام ١٢٣٤ من باليتها بحجة أن زوجها اعتنق الدين المسيحى قبل وفاته وأن هذا يلغى زواجهما^(١٢٧) . وأصدر مجلس لاتران الرابع فى عام ١٢١٥ قراراً يحتم « على اليهود والمسلمين - ذكوراً كانوا أو إناثاً - فى كل ولاية مسيحية وفى جميع الأوقات أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم فى أعين الجمهور بلبس أثواب خاصة لأن المسيحيين يخطئون أحياناً فيتصلون بنساء اليهود والمسلمين ، ويتصل اليهود والمسلمون بالنساء المسيحيات » . ولهذا يجب على اليهود والمسلمين متى جاوزوا الثانية عشرة من العمر أن يميزوا ملابسهم بلون خاص - ويكون ذلك بالنسبة للرجال فى غطاء الرأس أو الحبة ، وبالنسبة للنساء فى أقنعتهم . وكان من أسباب صدور هذه الأوامر أنها ردت على قوانين قديمة مماثلة لها أصدرها المسلمون ضد اليهود أو المسيحيين . وكان من نوع الشارة المميزة تعيينه محلياً بحكومات الولايات أو المجالس الإقليمية للكنيسة المسيحية . وكانت فى العادة تتخذ صورة عجلة أو دائرة من النسيج الأصفر ، طول قطرها نحو ثلاث بوصات تحاط فى مكان ظاهر فوق الملابس . ونفذ هذا القرار فى إنجلترا عام ١٢٧٩ ؛ أما فى أسبانيا وإيطاليا وألمانيا فلم ينفذ إلا فى أوقات متباعدة قبل القرن الخامس عشر حين أخذ نيقولا القوزاوى Nickolas of Cusa وسان جيوفيتى داكهسترانو San Giovanni de Capistrano يدعوان إلى التشدد فى تنفيذه بأكمله . وكان من أثر تلك الدعوة أن هدد يهود قشتالة فى عام ١٢١٩ بمغادرة البلاد جملة إذا نفذ هذا القانون ؛ ووافق ولاية الأمور الدينيون على إلغائه ، وكثيراً ما كان الأطباء والعلماء ، ورجال المال ، والرحالة اليهود يعفون منه ، ثم أخذ العمل به بضعف قبل القرن السادس عشر وامتنع نهائياً حين قامت الثورة الفرنسية .

ويمكن القول بوجه عام إن البابوات كانوا أكثر رجال الدين تسامحاً فى العالم المسيحى . مثال ذلك أن جريجورى الأول ، نهى عن إرغام اليهود على

اعتناق الدين المسيحي رغم تحمسه الشديد لنشر هذا الدين ، وحافظ على ما لهم من حق المواطنة الرومانية في البلاد الخاضعة لحكمه (١٢٨) ؛ ولما أن استولى الأساقفة في طرشونة Terracina وبالرم على معابد اليهود لكي ينتفع بها المسيحيون أرغمهم جريجورى على أن يردوها إليهم كاملة (١٢٩) ، وكتب إلى أسقف نابلي يقول : « لا تسمح بأن يضيق على اليهود في أداء صلاتهم ، ودع لهم الحرية الكاملة في مراعاة أعيادهم وأيامهم المقدسة والاحتفال بها ، كما كانوا هم وآباؤهم يفعلون من زمن بعيد » (١٣٠) . وحث جريجورى السابع الحكام المسيحيين على إطاعة قرارات مجلس الكنيسة التي تحرم استخدام اليهود في المناصب ؛ ولما قدم لإنجنوس الثالث إلى باريس عام ١١٤٥ ، وسار في موكب حافل إلى الكنيسة الكبرى التي كانت وقتئذ في الحى اليهودى ، بعث اليهود إليه بوفد يهدى إليه التوراة أو ملف الشريعة ، فباركهم وعادوا إلى بيوتهم مغتربين ، وطعم البابا حمل عيد الفصح مع الملك (١٣١) . وكان البابا إسكندر الثالث على وئام مع اليهود واستخدم واحداً منهم في إدارة شؤنه المالية (١٣٢) ؛ وتزعم إنوسنت الثالث مجلس لاتران الرابع فيما طلبه من أن يكون لليهود شارة خاصة ، ووضع هو المبدأ القائل بأن اليهود على بكرة أبيهم قد فرضت عليهم العبودية الأبدية لأنهم صلبوا عيسى (١٣٣) ، ثم كرر في ساعة كان فيها أرق مزاجاً الأوامر البابوية التي تحرم إرغام اليهود على ترك دينهم وقال : « لا يحق لمسيحي أن يؤذى اليهود في أجسامهم . . . أو يسلبهم أملاكهم . . . أو يتسبب في إقلاقهم أثناء الاحتفال بأعيادهم . . . أو يبتز منهم المال بتهديدهم بإحراق موتاهم » (١٣٤) . وأعفى جريجورى التاسع منشئ محكمة التفتيش (*) اليهود من إجراءاتها أو اختصاصها إلا إذا حاولوا إتهديد المسيحيين ، أو ارتدوا إلى الدين اليهودى بعد أن تنصروا (١٣٥) ،

(*) أوديوان التحقيق Inquisition كما يسميها بعض المترجمين . (المترجم)

وولد إنوسنت الرابع (١٢٤٧) القصة القائلة بأن من شعائر اليهود ذبح أطفال المسيحيين وقال :

لقد ابتدع بعض القساوسة ، والأمراء ، والنبلاء وكبار الأشراف ... أساليب تتنافى مع الدين ضد اليهود خداعاً منهم وتضليلاً ، فحرموهم بلا حق من أملاكهم قوة واقتداراً ، واستولوا عليها لأنفسهم ، واتهموهم زوراً وبهتاناً بأنهم يقتسمون فيما بينهم في يوم عيد الفصح اليهودى ، قلب غلام مذبح . . . والحق أنهم في حقدهم يعزون إلى اليهود كل حادث قتل أيا كان المكان الذى يقع فيه . وبسبب هذه التهم المختلفة وأمثالها تمتلئ قلوبهم غلا على اليهود ، فينبون أموالهم . . . ويضطهدونهم بتجويعهم ، وسجنهم ، وتعذيبهم ، وإيلائهم بغير تلك الوسائل ، ويقضون عليهم أحياناً بالإعدام ، وبذلك أصبحت حال اليهود أسوأ مما كان عليه آباؤهم تحت حكم الفراعنة ، وإن كانوا يعيشون الآن تحت حكم أمراء مسيحيين . وهم لهذا يضطرون إلى مغادرة البلاد التى عاش فيها آباؤهم من أقدم العهود التى يذكرها الإنسان . وإذا كان يسرنا ألا يلحقهم أذى ، فلما نأمرهم أن تعاملوهم معاملة ودية رقيقة ، فإذا وصل إلى علمكم نبأ اعتداء ظالم وقع عليهم ، فردوا عنهم ما لحقهم من أذى ، ولا تسمحوا بأن يصيبهم مثل هذا الظلم فى المستقبل (١٣٧) .

غير أن هذه الدعوة النبيلة لم تلق إلا أذناً صماء ، واضطر جريجورى الماشر فى عام ١٢٧٢ أن يكرر ما نجاء فيها من تنديد بقصة قتل أطفال المسيحيين استحابة لبعض الشعائر الدينية اليهودية ، وأراد أن يزيد أقواله قوة وتأثيراً . فقرر ألا تقبل شهادة مسيحي على يهوى إلا إذا عزها يهودى . وإن ما أصدره البابوت بعد هذا العهد حتى عام ١٧٦٣ من أوامر بمداثلة لهذا الأمر ليشهد بما كانت تمتلئ به قلوب البابوات من شفقة وإنسانية كما تشهد بأن هذا الشر لم تجث جذوره . وما يدل على أن البابوات كانوا مخلصين فى دعوتهم ما كان يستمتع به اليهود

في الدويلات البابوية من طمأنينة إذا قيسست حالهم بحال بني دينهم في غير هذه الدويلات ، ونجاتهم النسبية من الاضطهاد . ذلك أنهم لم يطرّدوا قط من رومة أو من أفنيون البابوية مثل ما طردوا في أوقات مختلفة من كثير من البلاد ؛ وفي ذلك يقول مؤرخ يهودى عالم : « لولا الكنيسة الكاثوليكية لما بقى لليهود وجود في أوروبا بعد العصور الوسطى » (١٣٩) .

وكان اضطهاد اليهود بقوة في أوروبا أثناء العصور الوسطى متقطعاً ؛ فقد جرى الأباطرة البيزنطيون مائتى عام على خطة العسف التي جرى عليها جستنيان ضد اليهود ، وطردهم هرقل من أورشليم عقاباً لهم على ما قدموا للفرس من معونة ، وبذل كل ما في وسعه لإبادتهم ؛ وحاول ليو الإسورى Leo the Isaurian أن ينفذ الإشاعة القائلة بأنه يهودى بقرار أصدره عام ٧٢٣ يخير فيه اليهود البيزنطيين بين اعتناق الدين المسيحى أو النفى ؛ فن اليهود من خضع لهذا القرار ومنهم من أخرجوا أنفسهم في معابدهم مفضلين هذا على الخضوع له . وواصل باسيل الأول Basil I (٨٦٧-٨٨٦) الحملة القاضية بإرغام اليهود على التعميد ؛ وطالب قسطنطين السابع (٩١٢-٩٥٩) اليهود بأن يقسموا أمام المحاكم المسيحية ميميناً مذلة ظلت باقية في أوروبا حتى القرن التاسع عشر (١٤١) .

ولما دعا البابا إربان Urban الثانى إلى الحرب الصليبية الأولى في عام ١٠٩٥ ظن بعض المسيحيين أنه يحسن بهم أن يقتلوا يهود أوروبا قبل أن يخرجوا لقتال الأتراك في أورشليم ؛ فلما قبل جندفرى البويونى Godfrey of Bouillon قيادة الحملة أعلن أنه سيثأر لدماء المسيح من اليهود ولن يترك واحداً منهم حياً ؛ وجهر رفاقه بعزمهم على أن يقتلوا كل من لا يعتنق المسيحية من اليهود . وقام أحد الرهبان يثير حماسة المسيحيين أكثر من هذا فأعلن أن نقشاً على الضريح المقدس في أورشليم يجعل تعذيب جميع اليهود فريضة أخلاقياً على جميع المسيحيين (١٤٢) . وكانت خطة الصليبيين أن يزحفوا جنوباً بمحاذاة نهر الرين حيث توجد أغنى

مواطن اليهود في أوروبا الشمالية ، وكان يهود ألمانيا قد اضطلوا بدور رئيسي في إنماء تجارة نهر الرين وانهجوا خطة جديدة من الصلاح وضبط النفس أكسبتهم احترام المسيحيين عامتهم ورجال دينهم على السواء . وكان الأسقف رودجر الأسپيرى Rüdiger of Speyer ذا صلة وثيقة بيهود أبرشيته ، وقطع لهم عهداً يضمن لهم استقلالهم وسلامتهم ، وأصدر الإمبراطور هنري الرابع في عام ١٠٩٥ عهداً مماثلاً لهذا العهد لجميع اليهود المقيمين في مملكته (١٤٣) ؛ لذلك وقعت أنباء الحرب الصليبية ، والطريق الذي قررت اتباعه ، وتهديدات زعمائها ، وقع الصاعقة على تلك الجماعات اليهودية الآمنة المسالمة ، فتملكهم الرعب حتى شل تفكيرهم . ودعا أعيانهم إلى الصوم والصلاة عدة أيام .

ولما وصل الصليبيون إلى أسبير جروا أحد عشر يهودياً إلى إحدى الكنائس وأمروهم أن يقبلوا التعميد ، فلما أبوا قتلوه عن آخرهم (٣ مايو سنة ١٠٩٦) ؛ ولجأ غيرهم من يهود المدينة إلى الأسقف جوهنسن Johannsen . فلم يكتف هذا الأسقف بمحبتهم . بل أمر بقتل عدد من الصليبيين الذين اشتركوا في مقتل الكنيسة . ولما اقترب بعض الصليبيين من تريير Trier استغاث من فيها من اليهود بالأسقف إجلبرت Egilbert . فعرض عليهم أن يحميهم على شريطة أن يعملوا ، ورضى معظم اليهود بهذا الشرط ، ولكن بعض النساء قتلن أطفالهن وألقين بأنفسهن في نهر الموزل Moselle (أول يولية سنة ١٠٩٦) . وفي مينز نجأ روثارد Ruthord كبير الأساقفة ١٣٠٠ يهودي في سرايبه ؛ ولكن الصليبيين اقتحموها عليهم وقتلوا منهم ١٠١٤ ، واستطاع الأسقف أن ينقذ عدداً قليلاً منهم بإخفائهم في الكنيسة الكبرى (٢٧ مايو سنة ١٠٩٦) ؛ وقبل التعميد أربعة من يهود مينز ، ولكنهم انتحروا بعده بقليل . ولما اقترب الصليبيون من كولوني Cologne . نجأ المسيحيون اليهود في منازلهم ، وأحرق الغوغاء الحبي اليهودي . وقتلوا من وقع في أيديهم من اليهود القلائل ، فإكان من الأسقف هرمان

Hermann إلا أن نقل اليهود سرّاً من مخابهم عند المسيحيين إلى منازل المسيحيين في الريف وعرض بذلك حياته هو لأشد الأخطار . وكشف الحجاج الصليبيون هذه الحيلة ، وصادوا فريستهم في القرى وقتلوا كل من عثروا عليه من اليهود (يونية سنة ١٠٩٦) وكان عدد من قتلوا في إحدى القرى مائتي يهودي ، وحاصر الغوغاء اليهود في أربع قرى أخرى ، فقتل اليهود بعضهم بعضاً ، مفضلين هلباً على التعميد ، وذبحت الأمهات من ولدن من الأطفال في أثناء هذه الاعتداءات وقت مولدهم . وفي وورمز أخذ الأسقف أبرانشز Aiebranches من استطاع أن يأخذهم من اليهود إلى قصره وأنقذ حياتهم ، أما من لم يستطع أخذهم فقد هاجمهم الصليبيون هجوماً خالياً من كل رحمة ، فقتلوا الكثيرين منهم ، ثم نهبوا بيوت اليهود وأحرقوها ، وفيها انتحروا كثيرون من اليهود مفضلين الموت على ترك دينهم . ثم حاصرت جماعة من الغوغاء مسكن الأسقف بعد سبعة أيام ، وأبلغ الأسقف اليهود أنه لم يعد في وسعه أن يصد أولئك الغوغاء ، وأشار عليهم بقبول التعميد ، وطلب إليه اليهود أن يتركوا وشأنهم لحظة قصيرة ، فلما عاد الأسقف وجدهم جميعاً إلا قليلاً منهم قد قتل بعضهم بعضاً ، ثم اقتحم المحاصرون الدار وقتلوا الباقين أحياء ، وبلغ مجموع من قتل في مذبحه وورمز (٢٠ أغسطس سنة ١٠٩٦) نحو ثمانمائة من اليهود . وحدثت مذابح مثلها في ميز Meiz ورنجسبرج Regensburg وبراهة Prague (١٤٤) .

وأنذرت الحرب الصليبية الثانية بأنها ستفوق الحرب الأولى من هذه الناحية ، فقد أشار بطرس المبجل Peter The Venerable ، القديس رئيس دير كلوني Cluny على لويس السابع ملك فرنسا أن يبدأ بمهاجمة اليهود . الفرنسيين ، وقال له : « لست أطالبك بأن تقتل أولئك الجلائق الملاعين . . . لأن الله لا يريد محوهم من الوجود ، ولكنهم يجب أن يقاسوا أشد ألوان العذاب كما قاساه قاتل قاتل أخيه ، ثم يبقوا ليلاقوا هوأناً أقسى من العذاب ، وعيشاً أوفر من الموت » (١٤٥) .

واحتج سوجر Suger رئيس دير سانت دنيس St. Denis على هذا الفهم الخاطئ للمسيحية ، واكتفى لويس التاسع ، بفرض ضرائب باهظة على أغنياء اليهود ؛ غير أن اليهود الألمان لم يخرجوا من هذه الحن بالمصادرة وحدها ، فقد خرج راهب فرنسي يدعى رودلف من دير به غير إذن ، وأخذ يدعو إلى ذبح اليهود في ألمانيا . وفي كولوني قُتل شعبون « التقي » وبترت أطرافه ، وفي اسبير عذبت امرأة على العذراء لكي يقنعوها باعتراف المسيحية . وبذل الرؤساء الدينيون مرة أخرى كل ما في وسعهم لحماية اليهود ، فأعطاهم الأسقف آرنلد أسقف كواوني قصراً حصيناً يجتمعون فيه وأجاز لهم أن يتسلحوا ؛ وامتنع الصليبيون عن مهاجمة الحصن ، ولكنهم قتلوا كل من في أيديهم من اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية . وأدخل هنري كبير أساقفة مينز في بيته يهودا كان الغوغاء يطاردونهم ، ولكن الغوغاء اقتحموا البيت وقتلوه أمام عيذه . واستغاث كبير الأساقفة بالقدّيس برنارد St. Bernard أعظم المسيحيين سلطاناً في أيامه ، وأجاب برنارد بأن ندّد برودلف تنديداً شديداً وطلب أن يوضع حد لأعمال العنف الموجهة إلى اليهود . ولما واصل رودلف حملته عليهم جاء برنارد بنفسه إلى ألمانيا وأرغم الراهب على العودة إلى الدير . ولما أن وجدت جثة أحد المسيحيين بعد ذلك بقليل مشوهة في ورزبرج Wurzburg ، اتهم المسيحيون اليهود بأنهم هم القاعلون ، وهاجمهم رغم احتجاج الأسقف أمبيكو Embicho وقتلوا عشرين منهم ، وغنى المسيحيون بكثيرين غيرهم أصابهم جروح في هذا العدوان (١١٤٧) ، ودفن الأسقف القتلى في حديقته (١٤٦) . وعادت إلى فرنسا فكرة بدء الحرب الصليبية في بلاد المسيحيين قبل انتقالها إلى الشرق ، وذبح اليهود في كارنتان Carentan ، ورامرو Rameru ، وسلي Suliy . وفي بوهيميا ذبح الصليبيون ١٥٠ يهودياً ؛ ولما أن انتهت موجة الذعر بذل رجال الدين المسيحيون المحليون كل ما في وسعهم لمساعدة من بقوا أحياء من اليهود ؛ وأجيز لمن قبلوا التعميد مرغمين أن يعودوا إلى الدين

اليهودى ، دون أن توقع عليهم عقوبات الردة القاسية (١٤٧) .

وكانت هذه المذابح إبدانا بسلسلة من الهجمات الطويلة العنيفة لا تزال باقية إلى هذه الأيام . من ذلك أن حادثة قتل وقعت في بادن Baden عام ١٢٣٥ ولم يعرف مرتكبها اتهم بها اليهود ، فأدى ذلك إلى مذبحه منهم ؛ وفي عام ١٢٤٣ حرق جميع اليهود سكان بلتز Beltz القريبة من برلين وهم أحياء بحجة أن بعضهم قد دنسوا خبزاً للتقدمة مقدساً (١٤٨) . وفي عام ١٢٨٣ أثبت في ميز فكرة ذبح أطفال المسيحيين في بعض الشعائر اليهودية ، وقتل عشرة من اليهود ونهبت البيوت اليهودية على الرغم مما بذله ورثر كبير الأساقفة من جهود . وفي عام ١٢٨٥ أهاجت مثل هذه الشائعة أهل ميونخ Munich ، ولجأ ١٨٠ يهودياً إلى كنيس لهم ، فأشعل فيه الغوغاء النار ، واحترق المائة والثمانون بأجمعهم . وبعد عام من ذلك الوقت قتل أربعون يهوديا في أبرويزل Oberwesel بحجة أنهم امتصوا دماء مسيحي ؛ وفي عام ١٢٩٨ حرق كل يهودى في روتنجن Rottingen حتى قضى نحبه بحجة أن بعضهم قد دنس الخبز المقدس . ونظم رندفلشخ Rindfleisch وهو بارون متمسك بدينه جماعة من المسيحيين الذين أقسموا أن يقتلوا جميع اليهود وأمدهم بالسلاح . وأبادوا جميع الجالية اليهودية في ورزبرج ، وذبحوا ٦٩٨ يهوديا في نورمبرج Nuremberg ؛ ثم انتشرت موجة الاضطهاد فلم يمحض إلا نصف عام حتى محى ١٤٠ كنيسا يهودياً (١٤٩) . وملاً اليأس بعد هذه الاعتداءات المتكررة قلوب يهود ألمانيا ، وكانوا قد أعادوا تنظيم جماعاتهم مراراً وتكراراً ، فغادرت أسر يهودية كثيرة ميمز ، وورمز ، واسپير ، وغيرها من المدن الألمانية وهاجرت إلى فلسطين لتعيش في بلاد المسلمين . وإذا كانت بولندا ولتوانيا تطلبان الهجرة إليها ، ولم تكن قد حدثت فيهما مذابح حتى ذلك الوقت ، فقد بدأت هجرة بطيئة من يهود بلاد الرين إلى بلاد الصقلية في شرق أوروبا .

وأضحى اليهود في إنجلترا تجاراً ورجال مال بعد أن حرم عليهم تملك الأرض والانضمام إلى نقابات الصناعات . ومنهم من أثروا من الربا وأصبحوا على بكرة أبيهم موضع الكراهية لأكله . وقد استعان الأشراف ملاك الأرض وأتباعهم على التسلح للحروب الصليبية بالمال المقترض من اليهود ، ورهنوا لهم في نظير هذا المال ربع أرضهم ، واستشاط الزارع المسيحي غيظاً لرويته المرابين يثرون من كدحه . وحدث في عام ١١٤٤ أن وجد الشاب وليم من أهل نردج Norwich قتيلاً ، واتهم اليهود بمقتله لاستعمال دمه ، وهوجم الحى اليهودى في المدينة ونهب وأحرق (١٥٠) . وحى الملك هنرى الثانى اليهود ، وحذا حذوه هنرى الثالث ، ولكنه جمع منهم ٤٢٢٠٠٠ جنيه ضرائب وقروضاً أخرى على رؤوس أموالهم في سبع سنين . وحدثت في الاحتفال بتتويج رتنرد الأول في إنجلترا (١١٩٠) مشاحنة تافهة شجعها الأشراف الذين يريدون أن يتخلصوا مما عليهم من ديون لليهود (١٥١) ، فتطورت إلى ملبحة امتدت إلى لنكولن Lincoln ، واستامفورد Stamford ، ولان Linn . وقتل الغوغاء ٣٥٠ منهم في مدينة يورك في العام نفسه وكان يقودهم رتشرده ملابستيا Richard de Melabestia ، وكان مستغرقاً في الدين لليهود . ثم قام مائة وخمسون من يهود يورك يزعهم الحبر نوم طوب Tomi Tob بقتل أنفسهم (١٥٣) . وفي عام ١٢١١ غادر ثلثائة من أحبار اليهود إنجلترا وفرنسا ليبدءوا حياة جديدة في فلسطين ، وبعد سبع سنين من ذلك العام هاجر كثيرون من اليهود حين نفذ هنرى الثالث أمر الشارة اليهودية . وفي عام ١٢٥٥ راجت شائعة في أنحاء لنكولن تقول إن غلاماً يدعى هو Hugh قد أغرى بدخول الحى اليهودى ، ثم جلد ، وصلب ، وطعن بحربة ، بحضور جمع من اليهود المبتهجين . وعلى أثر هذه الشائعة هاجمت عصابات مسلحة مقر اليهود ، وقبضت على الكوهن الذى قيل إنه كان على رأس الاحتفال ، وشدوه إلى ذيل جواد ، وجروه في الشوارع ، ثم شنقوه . ثم قبض على واحد وتسعين

يهودياً وشنت عليهم ثمانية عشر ، ونجا كثير من المسجونين بفضل تدخل جماعة من الرهبان الدمنيكيين البواسل (*) (١٥٤) .

وأفلتت الجماهير من أيدي ولاية الأمور في أثناء الحرب الأهلية التي نشرت. الاضطراب في إنجلترا بين عامي ١٢٥٧ ، ١٢٦٧ ، وكادت المذابح أن تمحو من الوجود يهود لندن ، وكنتربري Canterbury ، ونورثمبتن Northampton ، وونشستر Winchester ، وورستر Worcester ، ولنكولن ، وكيمبردج ، فهبت بيوتهم ودمرت ، وأحرقت العقود ، والسفانج ، وأصبح من بقوا أحياء من اليهود لا يملكون شروى نقي (١٥٥) . وكان ملوك الإنجليز وقتئذ يقرضون المال من أصحاب المصارف المسيحيين. في فلورنس وكاهورس Cahors ، وأصبحوا في غير حاجة إلى اليهود ، ومن ثم وجدوا أن من الصعب عليهم حمايتهم . ولهذا أمر إدوارد الأول من كان باقياً في إنجلترا من اليهود وكانوا حوالي ١٦٠٠٠ يهودي أن يغادروا البلاد قبل أول نوفمبر من ذلك العام ، وأن يتركوا وراءهم جميع أملاكهم الثابتة وما يمكن استرداده من الديون . وغرق الكثيرون منهم في القناة الإنجليزية التي أرادوا أن يعبروها في قوارب صغيرة ، وسرق ملاحو السفن متاعهم وأموالهم ، فلما وصل بعضهم إلى فرنسا أبلغتهم الحكومة الفرنسية أن عليهم أن يغادروا البلاد قبل بداية الصوم الكبير من عام ١٢٩١ (١٥٦) .

وفي فرنسا أيضاً تبدلت الحالة النفسية بالنسبة لليهود حين قامت الحروب.

(*) ولا تزال بكنيسة لنكولن آثار مزار أقيم فيها في الماضي « ليهو الصغير » مصحوبة بالمباركة الآتية : « إن في القصة حوادث كثيرة تلقى الشك على مصتها ، وإن وجود قصص مثالا في إنجلترا وغيرها من البلاد ليدل على أن منشأها هو الحق النقاش من التعصب على اليهود في العصور الوسطى ، والخرافة المنتشرة وقتئذ ، والتي لا يصدقها أحد قط في هذه الأيام ، بأن قتل الأطفال كان من الشرائع الدينية في عيد الفصح اليهودي . وقد قامت الكنيسة منذ القرن الثالث عشر بمحاولات لحماية اليهود من كراهية الفوغاء ومن هذه التهم بنوع خاص » .

الدينية على الأتراك في آسية ، والملاحدة الألبجنسيين Albigensian في
لنجويدك Languedoc . فقام الأساقفة يلقون الخطب الدينية المثيرة للنفوس ؛
وكان من الشعائر المعتادة في بزير أيام أسبوع الآلام أن يهاجم الغوغاء الحى
اليهودى ؛ وأخيراً دعا أحد رجال الدين المسيحيين في عام ١١٦٠ بالكف
عن هذه المواعظ الدينية ، ولكنه طلب إلى الجالية اليهودية أن تؤدى ضريبة
خاصة في أحد السعف من كل عام (١٥٧) . وفي طلوше (طولوز) أرغم
اليهود على أن يبعثوا بممثل لهم إلى الكنيسة في يوم الجمعة الحزينة من كل
عام ليتلقى صفقة على أذنه لتسكون بمثابة تذكرة لهم خفيفة بخطيئتهم
الأبدية (١٥٨) . وفي عام ١١٧١ أحرق عدد من اليهود في بلوا Blois بحجة
استخدامهم دماً مسيحياً في شعائر عيد الفصح اليهودى (١٥٩) . ورأى الملك
فليب أغسطس الفرصة سانحة ليبنز منهم المال محتجاً بالدين ، فأمر بأن
يسجن جميع من في مملكته من اليهود لأنهم يسممون آبار المسيحيين (١٦٠) ،
ثم أمر بإطلاق سراحهم بعد أن افتدوا أنفسهم بمال كثير (١١٨٠) ،
غير أنه طردهم من البلاد بعد عام واحد ، وصادر جميع أملاكهم الثابتة ،
وأهدى معابدهم للمسيحيين . وفي عام ١١٩٠ أمر بقتل ثمانين يهودياً
في أورنج Orange لأن ولاية الأمور في المدينة شفقوا أحد عماله لقتله أحد
اليهود (١٦١) ، ثم استدعى اليهود إلى فرنسا عام ١١٩٨ ونظم أعمالهم
المصرفية تنظيمًا يضمن به لنفسه أرباحاً طائلة (١٦٢) . وفي عام ١٢٣٦ دخل
الصليبيون المسيحيون الأحياء اليهودية في أنجو Anjou وپواتو Poitou -
وبخاصة ما كان منها في بوردو Bordeaux وأنجوليم Angoulême -
وأمرؤا بأن يعمد اليهود جميعاً ، فلما أبوا داسوا بحوافر خيولهم ثلاثة آلاف
منهم حتى قضوا نجهم (١٦٣) . وندد البابا جريجورى التاسع بهذه المذبحة ،
ولكنه لم ينج اليهود من الموت . وأشار القديس لويس على رعاياه ألا يجادلوا
اليهود في أمور الدين ، وقال لجوانفيل Joinville إن من واجب كل شخص
من غير رجال الدين : « إذا سمع إنساناً يذكر الدين المسيحى بما لا يليق

أن يدافع عنه بالسيف لا باللفظ ، ينفذه في بطن الآخر إلى أبعد مدى ينفذه فيه (١٦٤) . وفي عام ١٢٥٤ نفى اليهود من فرنسا ، وصادر أملاكهم ومعابدهم ، ثم عاد فسمح بدخولهم إليها ، ورد إليهم معابدهم ، وبينما كانوا يعيدون بناء جماعاتهم إذ أمر فليب الجميل Philip the Fair (١٣٠٦) بسجنهم ، وصادر ما كان لهم من ديون ، وجميع ما كان لهم من متاع لم يستثن إلا ما كان عليهم من الثياب ، ثم طردهم جميعاً من فرنسا وكانوا يبلغون مائة ألف ، ولم يسمح لهم بأكثر مما يكفهم من الطعام يوماً واحداً . وقد بلغ ربح الملك من عمله هذا قدرأ أغراه بأن يهدى معبداً يهودياً إلى سائق عربته (١٦٥) .

وهكذا تجمعت طائفة متقاربة من الحوادث الدموية دامت نحو مائتي عام تكونت منها صورة ذات وجه واحد . ولم يقع على اليهود في بروفانس Provence ، وإيطاليا ، وصقلية ، والإمبراطورية البيزنطية بعد القرن التاسع إلا حوادث اضطهاد صغرى ، واستطاعوا وقاية أنفسهم منها بالالتجاء إلى أسبانيا المسيحية . وكانت فترات الطمأنينة حتى في إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا طويلة ، وكان اليهود يكثررون مرة أخرى ويثرى بعضهم بعد كل مأساة تنزل بهم . غير أن قصصهم كانت تنقل إليها ما كان لهذه الفترات المحزنة من ذكريات مؤرّة ، وكانت أيام السلام مليئة بخوفهم من خطر المذابح الذي لا ينفك يهددهم ، وكان على كل يهودى أن يحفظ عن ظهر قلب الدعاء الواجب عليه أن يتلوه في ساعة الاستشهاد (١٦٦) . وكانت حمية السعى إلى جمع المال ترتفع حرارتها بقدر ما كان يحيق بكسبه من أخطار ، وكان لا يسو الشارة الصفراء يقابلون في الطرقات بسخرية الساخرين على الدوام ، كما كان يحيق بهذه الأقلية المنعزلة العديمة الحول والطول تحقير يحز في نفوسها ويدل من كبرياء أفرادها ويقطع ما بينها وبين العناصر الأخرى من مودة ، ويترك في أعين يهود الشمال تلك النظرة المعروفة بأحزان اليهود Judenschmerz التي تذكرهم بعشرات المئات من الإهانات والاعتداءات ألا ما أكثر من صلبوا انتقاماً لحادث صلب وحيد !

الباب السابع عشر

عقل اليهودى وقلبه

٥٠٠ — ١٣٠٠

الفصل الأول

الأدب

لقد ظلت روح اليهودى يتنازعها عاملان هما اعتزامه أن يشق طريقه فى عالم معاد له وشغفه بثمار العقل . فالتاجر اليهودى عالم فقدته العلم ؛ يحسد الرجل الذى نجا من حمى الثراء ، والذى شغف فى هدوء واطمئنان بحب العلم وضرب بسهم فى آفاق الحكمة ، ولكنه لا يحسده فحسب بل يكرمه كذلك . وشاهد ذلك أن التجار ورجال المصارف الذاهبين إلى أسواق ترويس Troyes ، كانوا يقفون فى طريقهم ليستمعوا إلى راى العظم وهو يشرح التلمود^(١) . وبفضل هذه الروح ظل يهود العصور الوسطى وهم فى غمار المشاغل التجارية ، والفقر المذل ، والازدراء القاتل ، ظلوا ينتجون النحويين ، وفقهاء الدين ، والمتصوفة ، والشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ، ولم يضارعهم فى آدابهم الواسعة وراثتهم العقلية إلا المسلمون فيما بين ١١٥٠ و ١٢٠٠^(٢) . وكان مما يسرهم أسباب هذا النبوع أنهم يعيشون بين المسلمين أو على اتصال بهم ، وأن كثيرين منهم كانوا يعرفون اللغة العربية ، فكان عالم الثقافة الإسلامية الثرى بأجمعه فى العصور الوسطى مفتوحاً أمامهم يغترفون من بحره الطامى فى العلوم والطب ، والفلسفة ، وبفضل وساطتهم أناروا

عقل العالم الغربي المسيحي بما بثوا فيه من تفكير المسلمين .

وكان اليهود في بلاد الإسلام يستخدمون اللغة العربية في حديثهم ونثرهم المكتوب ، أما شعراؤهم فقد استمسكوا في شعرهم باللغة العبرية ولكنهم استخدموا فيه الأوزان العربية والصور الشعرية ، وفي البلاد المسيحية كان اليهود يتحدثون بلغة الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها ، ويكتبون في آدابهم ، ويعبدون يهوه بلسانهم القديم . وأخذ يهود أسبانيا بعد ابن ميمون يكتبون أدبهم باللغة العبرية بدل العربية بعد فرارهم من اضطهاد الموحدين . وقد استطاع اليهود بفضل جهود فقهاء لغتهم وإخلاصهم أن يحياوا اللغة العبرية من جديد ، وكان قد تعلم عليهم فهم نصوص العهد القديم لعدم وجود الحركات المستقلة وعلامات الترقيم في اللغة العبرية ، ولكن علماءهم استطاعوا بعد دراسة دامت ثلاثة قرون أن يضعوا النص المسورقي Masoretic (الذي قدسته التقاليد) وذلك بإضافة علامات للحركات ، وإشارات للنبر ، وعلامات للترقيم ، وفواصل للشعر ، وشروح في الهوامش ، وبفضل هذا العمل أصبح في مقدور كل يهودي بعد ذلك الوقت أن يقرأ كتبه الدينية :

واضطرتهم هذه الدراسات إلى وضع النحو العبري والمعجمات العبرية . ولدت شعر مناشة بن سروق (٩١٠ - ٩٧٠) وعلمه نظر حسدای بن شبروط ، فاستدعاه الوزير العظيم إلى قرطبة وشجعه على وضع قاموس لألفاظ الكتاب المقدس العبرية . ووضع يهوذا بن داود جيوج (حوالي عام ١٠٠٠ م) النحو العبري على أساس علمي ، في ثلاثة كتب باللغة العربية في لغة الكتاب المقدس . وبزه في هذا العمل تلميذه يونا بن جناح (٩٩٥ - ١٠٥٠) السرقسطي حين وضع بالعربية كتابه في النقد الذي تقدم به النحو العبري والمعجمات العبرية خطوات واسعة . ووضع يهوذا بن فريش علم فقه اللغات السامية المقارن بدراسته للغات العبرية ، والآرامية ، والعربية ، وتقدم أبراهام الفاسي (حوالي عام ٩٨٠) اليهودي

القرائى خطوة أخرى على هذا العمل بوضعه معجماً أرجع فيه جميع ألفاظ كتاب العهد القديم إلى أصولها وربتها على الحروف الأبجدية . وبز تانان بن يحيل من علماء رومة (المتوفى عام ١١٦٠) سائر علماء المعاجم اليهود بوضعه معجماً للتلمود . وفى نربونة ظل يوسف قمحى وولده موسى وداود (١١٦٠ - ١٢٣٥) يعملون عدة أجيال فى هذه الميادين ؛ وظل محلول أو موهر Michlol داود قرونأ عدة المرجع المعترف به فى النحو العبرى ، وطالما أعان مترجمى الملك جيمس للكتاب المقدس (٤) . تلك كلها أسماء اخترناها من بين ألف اسم من أدباء اليهود .

وأفاد الشعر اليهودى من هذه الدراسات الواسعة فتحرر من الصيغ العربية ، وأنشأ أشكاله وموضوعاته الخاصة به ، وأنتج فى أسبانيا وحدها ثلاثة رجال يضارعون أى ثلاثة غيرهم من الأدباء المسلمين أو المسيحيين فى عصرهم . وأول هؤلاء الثلاثة هوسليمان بن جبيرول المعروف فى العالم المسيحى باسم الفيلسوف أفسبرون Avlcebron . وقد هيأته مأساته الشخصية لأن يكون هو المعبر عن مشاعر إسرائيل . وكان مولد هذا « للشاعر بين الفلاسفة والفيلسوف بين الشعراء » على حد قول هينى فى مائة حوالى عام ١٠٢١ . وتوفى أبواه وهو صغير السن فتشأ فى جو من الفقر نزع به إلى التفكير المكتئب . وأعجب بشعره يقويتايل ابن حسان وهو رجل كان يشغل منصباً رفيعاً فى دولة — مدينة سرقسطة الإسلامية . وفى هذه المدينة وجد ابن جبيرول الحماية والثناء إلى حين ، وأخذ يتغنى بمباهج الحياة . ولكن بعض أعداء الأمير قتلوا يقويتايل فاضطر ابن جبيرول إلى الفرار من المدينة وظل عدة سنين يهيم على وجهه فى بلاد الأندلس الإسلامية ، فقيراً عليلًا ، هزلاً إلى حد « يسهل معه على ذبابة أن تحملنى » . وأولاده صمويل بن نجدلا ، وهو شاعر مثله ، حمايته وأواه فى غرناطة وفيها كتب سليمان كتبه الفلسفية وخص الحكمة بشعره :

وكيف أنخلى عن الفلسفة ؟

لقد عقدت معها عهداً .

فهى أوى وأنا أعز أبنائها ،

لقد طوقت عنقى بجواهرها . . . :

وستظل روحى تصبوا إلى

مراقبها السماوية ، ما دمت حيا . . .

ولن يقر لى قرار حتى أكشف منبعها^(٥) :

وربما كان كبرياؤه قد أدى إلى الشقاق بينه وبين صمويل ، فعاد ،

وهو لا يزال شاباً فى أخريات العقد الثالث من عمره ، إلى الفقر والتجوال ،

حتى أذلت النكبات نفسه ، فهجر الفلسفة إلى الدين :

رباه ، ما الإنسان ؟ إنه جيفة دنسة تطوؤها الأقدام .

إنه مخلوق كربه ، يفيض مكرراً وخداعاً ،

إنه زهرة ذواية ، تدبل إذا ممسها الحر^(٦) .

وينجو شعره فى بعض الأحيان منحى عظمة المزامير المكتتبة الحزينة :

أنشر علينا السلام يا الله ،

وأسيغ علينا نعمتك السرمدية :

ولا تجعلنا ممن يحل عليهم غضبك ،

يا من نسكن إليه .

وسواء كنا نطوف بالأرض جيفة وذهاباً .

أو نقيم مكبلين بالأغلال فى المنفى الموحش .

فسنظل نجهر أينما ذهبنا قائلين .

هاهنا مجدك يا رباه^(٧) .

وخبر كتبه كلها هو كيتير ملحوت (التاج المسمى) الذى ينادى فيه

بعظمة الله كما كانت قصائده الأولى تنادى بعظمته هو :

أفر منك إليك لأجد
مكاناً ألبأ إليه : وفي ظلك
أختبئ من غضبك
إلى أن تهدأ سورتك ،
وأتعلق بأسباب رحمتك
حتى تستمع إلى وترى لي ،
ولن أفلك قبضتي
حتى تهبط على نعمتك (٨) .

وقد اجتمع في أسرة ابن عزرا بغرناطة ما كان للثقافة اليهودية في أسبانيا الإسلامية من ثراء متعدد المناحي : وكان يعقوب ابن عزرا يشغل منصباً رفيعاً تحت رئاسة شمويل بن نجدلا في بلاط الملك : وكان بيته ندوة للآداب والفلسفة ونيح ثلاثة من أولاده الأربعة الذين نشأوا في هذا الجو العلمي ؛ فكان إسحق شاعراً ، وعالماً طبيعياً ، ومتبحراً في التلمود ؛ وكان موسى ابن عزرا (١٠٧٠ - ١١٣٩) عالماً وفيلسوفاً ، وكان أعظم شعراء اليهود قبل هلوى . وقد انتهت سعادة شبابه حين أحب بنت أخ له حسناء زوجهها أبوها إسحق أخوه الأكبر بأخيه الأصغر أبراهام . فإكان من موسى إلا أن هاجر من غرناطة ، وهام على وجهه في بلاد نائية يغذى بالشعر عواطفه المكبوتة البائسة : « ألا فعيشي ، وإن كانت شفتاك يسيل منهما الشهد يمتصه غيري ، وتنفسى بالند يستنشقه سوى . وسأظل وفياً لك حتى تستعيد الأرض الباردة وديعتها ، وإن لم تكوني أنت وفية لي . إن قلبي ليطرب لغناء العندليب ، وإن كان المغني يعلو على وينأى عني » (٩) . ووجهه قيثارته آخر الأمر ، كما وجهها ابن جبيرول ، إلى الأغاني الدينية ، وأخذ ينشد مزامير من الاستسلام الصوفي .

وكان أبراهام بن مابر بن عزرا - الذي يبعده بروننج Browning

المعبر عن فلسفة العصر الفكتورى - يمت بصلة القرابة البعيدة لموسى بن عزرا ، ولكنه كان من أصدقائه المقربين . وقد ولد في طليطلة عام ١٠٩٣ ، وعرف في شبابه الفقر والجوع ، ولكنه كان شديد التعطش إلى العلم في كل ميادينه . وأخذ هو أيضاً ينتقل من مدينة إلى مدينة ، ومن مهنة إلى مهنة ، ولازمه سوء الحظ في كل مهنة وكل مدينة ، وقال في هذا بسخرية اليهودى المريرة : « لو انجرت في الشمع لما غربت الشمس ، ولو بعث أكفان الموتى لعاش الناس إلى أبد الدهر » . وسافر إلى إيران بجنائز مصر والعراق ، ولعله قد ذهب أيضاً إلى الهند ، ثم عاد إلى إيطاليا ، ومنها إلى فرنسا ، وانجلترا . وبينما كان عائداً إلى أسبانيا في الخامسة والسبعين من عمره إذ وافته منيته ، وكان لا يزال فقيراً ولكنه ذو شهرة واسعة بين اليهود أجمعين لبلاغة شعره ونثره . وكانت مؤلفاته لا تقل تنوعاً عن البلاد التي طاف بها - ألف في العلوم الرياضية ، والفلكية ، وفي الفلسفة ، والدين ، وكانت قصائده تختلف من الحب إلى الصداقة ، ومن مناجاة الله إلى مناجاة الطبيعة ، والفصول ، ومن الحديث عن الشطرنج إلى التغنى بجمال النجوم . وقد صاغ في صور شعرية أفكاراً لم يكن يخلو منها مكان ما في عصر الإيمان ، واستبق نيومن Newman جهله التريمة العبرية :

يا إله الأرض والسماء ، منك الروح والجسد !
لقد وهبت الإنسان بعظيم حكمتك ما في الإنسان من ضياء قدسى . . .
إن أياى بن يديك ، وأنت تعرف الخير لى
وتهينى بقوتك خير عون لى حيث أخشى الوقوف
وستبرك يحجب عن العيون آثامى ورحمتك درعى الواقى
ولست تريد جزاء على نعمك وأفضالك (١٠)

وخير ما يشهر به عند معاصريه هو تعليقه على كل كتاب من كتب العهد

القديم . وقد دافع عن صدق الكتب العبرية المقدسة ، وأنها موحى بها من عند الله ، ولكنه فسر العبارات الممجدة للخالق تفسيراً مجازياً . وكان أول من قال أن سيفر لإشعيا لم يكتبه نبي واحد بل كتبه اثنان من الأنبياء ، وبعده أسبنوزا واضع أساس النقد العقلي للكتاب المقدس (١١) .

وكان أعظم شعراء عصره على بكرة أبيهم يهودا هليفي (١٠٨٦ - ١١٤٧) . وقد ولد في طليطلة بعد عام من استيلاء الفغنوس السادس ملك قشتالة عليها . فنشأ فيها آمناً في كنف أعظم الملوك المسيحيين استنارة وتسامحاً في أيامه . وأعجب ابن عزرا بإحدى قصائده الأولى فدعاه إلى الإقامة معه في غرناطة ، حيث استضافه موسى وإسحق ابني عزرا في منزلها . وأخذ شعره ينتشر ونكاته تذيع في جميع الأوساط اليهودية في أسبانيا . وكان ينعكس على شعره مزاجه المرح ، وشبابه الموفق السعيد ؛ وأخذ يتغنى بالحب ، بكل ما عرف من الشعراء الجوالين المسلمين أو البروفنساليين ، وبكل ما في نشيد الأنشاد من قوة ورنين : وقد حوت « حديقته بهجته » مقطوعة من الشعر الملهب حاسة تعد أمراً للفقرات في هذه الطرفة الغزلية الرائعة :

ادن منها أيها الحبيب ، ليم تتواني عن أن تطعم بين حدائقها ؟
اثن إلى مخدع الحب لتقطف سوسنها .

إن تفاحتي صدرها المحجوبتين ليفوح شذا عطرهما ،
وهي نخبي لك في قلائدها ثماراً شبيهة تتلألأ كالنور
ولولا قناعها ، لاستحت منها نجوم السماء (١٢)

وترك هليفي ضيافة ابني عزرا وسخاءهما وذهب إلى أليسانة وواصل الدرس عدة سنين في الجمع العلمي اليهودي بهذه المدينة ؛ فدرس الطب ، وأصبح من الأطباء غير الناهين ؛ ثم أسس معهداً للغة العبرية في طليطلة وأخذ يحاضر فيه عن الكتاب المقدس . ثم تزوج وأنجب أربعة أبناء . فلما تقدمت به السن طغى

شعوره بما حل باليهود من نوائب على ما كان يرفل فيه من نعيم ، فأخذ يتغنى بشعبه ، وبأقرانه ، ودينه ، وكان يتوق كما يتوق غيره من اليهود لأن يختم حياته في فلسطين :

أى مدينة الدنيا (أورشليم) يا ذات الجمال والجلال والكبرياء !
ليت لى جناحى نسر أطير بهما إليك حتى أبلل بدمعى ثراك !
إن قلبى فى الشرق ، وإن كنت مقيما فى الغرب (١٣) .

ولم يكن يهود أسبانيا المنعمون فيها يرون فى هذه الأشعار أكثر من ألفاظ مقفاة موزونة ، ولكن هلىفى كان مخلصاً فى أقواله . فقد استودع أسرته فى أيد أمينة عام ١١٤١ ، وبدأ رحلة شاقة إلى أورشليم . وأتت الرياح بمالا تشهى سفينته فحولتها عن طريقها ودفعها إلى الإسكندرية حيث استقبلته الجالية اليهودية ، ورجته ألا يجازف بالذهاب إلى أورشليم وكانت وقتئذ فى أيدي الصليبيين . وبعد أن أقام فى الإسكندرية وقتاً ما غادرها إلى دمياط ومنها إلى صور ، ثم انتقل منها لسبب لا نعلمه إلى دمشق حيث اختفى ذكره من التاريخ . وتقول إحدى الأقاصيص أنه ذهب إلى أورشليم ، فلما وقعت عينه عليها أول ما وقعت خراً راکعاً ، وقبل الأرض ، فدأسته حوافز جواد يركبه أعرابى وقضت على حياته (١٤) . ولكننا لا نعرف هل وصل حقاً إلى مدينة أحلامه ؛ وكل الذى نعلمه علم اليقين أنه كتب فى دمشق « أغنية لصهيون » ولعله كتبها فى آخر سنة من حياته ، وكان جوت الشاعر الألمانى بعدها من أعظم القصائد فى أدب العالم كله (١٥) :

ألا ترغبين يا صهيون فى أن تبعى بتحياتك من صخورك المقدسة
إلى شعبك الأسير الذى يحملك لأنه البقية الباقية من أبنائك ؟ ...

ألا ما أجش صوتى وأنا أندب أحزانك ولكنى حين أبصر حريتك فى

أوهام أحلامي تنساب من صوتي النغاث حلوة شجية كنغاث القيثارة المعلقة
على شاطئ "نهر بابل" . . . ألا ليتني أستطيع أن أصب روحى حيث صبت
روح الله في أبنائك القديسين في الأزمان السابقة ! لقد كنت منزل الملوك
وعرش الله ، ولست أدري كيف يحتل العبيد الآن العرش الذى جلس عليه
أبنائك من قبل ؟

* * *

منذا الذى يرشدنى للبحث عن الأماكن التى أطل منها الملائكة بجلاهم
على رسلك وأنبياك في الأزمان القاصية ؟

ومنذا الذى يهب لى جناحين أطير بهما لأضع حطام قلبى بين خرائبك
وأستريح من تجوالى ؟

سأولتى وجهى نحو أرضك وأمسك بحجارتك أعتز بها كما يعتز الناس
بالذهب الثمين . . .

إن هواءك يبعث الحياة فى نفسى ، وذرات ترابك هى المسك الشذى ،
وأنت هارك تفيض بالعسل المصفى

وما أعظم بهجتى إذا استطعت أن أجيء إلى معابدك المخربة عارياً حافى
القدمين ! حيث احتفظ بالتأبوت ، وحيث سكن الملائكة المكرمون فى
الخافي المظلمة . . .

يا صهيون يا ذات الجمال الذى ليس بعده جمال ، لقد اجتمع فيك الحب
والبهاء ، إن أرواح أبنائك تتجه فى حنان نحوك ، وكانت أفراحك بهجتها
ومسراتها ، وما هى ذى الآن تبكى فى متفاها البعيد أسى وحسرة على خرائبك ،
وتتوق لرؤية مرتفعاتك المقدسة ، وتسجد فى صلواتها خاشعة نحو أبوابك ، إن

الرب ليحب أن يختارك لتكوني مسكنه الأبدى ، وطوبى لمن اختاره الرب
وأنعم عليه بالراحة في داخل أبهائك ؛
وما أسعد من يرقبك وهو يقترب منك حتى يرى أضواءك المحيطة
تنتشر ، ومن يطلع عليه فجرك الوضاء كاملاً صافياً من سماء المشرق ؛
وأسعد من هذا وذاك من يشهد بعينه المتهلئين نعيم أبنائك المحررين ،
ويرى شبابك يتجلد كعهدنا به في قديم الزمان (١٦) .

الفصل الثاني

مغامرات التلمود

لقد بلغ رخاء يهود العصر الذهبي في أسبانيا مبلغاً يمنعهم أن يكونوا شديدي التمسك بالدين كما كان شعراؤهم في سنى الاضمحلال ؛ فقد كانوا يقرضون شعراً مطرباً ، حسيماً ، رقيقاً ؛ وينطقون بفلسفة توفى في ثقة بين الكتاب المقدس والتفكير اليوناني . ولقد ظل اليهود يزدادون رخاء حتى بعد أن طردهم الموحدون المتشددون في دينهم من بلاد الأندلس الإسلامية إلى أسبانيا المسيحية ؛ وازدهرت الجامع العلمية اليهودية في ظل التسامح المسيحي في طليطلة وبرشلونة خلال القرن الثالث عشر . لكن اليهود لم يكن حظهم في فرنسا وألمانيا كما كان حظ يهود أسبانيا ؛ فقد كانوا يزدحمون في أحيائهم الضيقة وهم وجلون ، ويبدلون خير مواهبهم في دراسة التلمود ؛ ولم يكونوا يهتمون بتبرير عقائدهم للعالم غير المتدين ؛ ولم يشكوا قط في أصوله ، بل انهمكوا في دراسة الشريعة .

وأضحى الجمع العلمي الذى أنشأه جرشوم في مئزر من أوسع المدارس نفوذاً في ذلك العصر ، اجتمع فيه مئات من طلاب العلم واشتركوا مع جرشوم في نشر نصوص التلمود وتوضيحها بعد أن ظاوا يكدهون في هذا العمل جيلين من الزمان . وقام بمثل هذا العمل في فرنسا الحاخام شلومو بن يصبحق (١٠٤٠ - ١١٠٥) ، ويسميه بنو ملته راشي تدليلاً له وقد أدخلوا هذا الاسم من الحروف الأولى من لقبه واسمه . وقد ولد راشي في تروى من أعمال شمبانيا ، وتعلم في المدارس اليهودية في ورمز ، ومئزر ، واسپير ، ثم عاد إلى تروى وأخذ يعول أسرته ببيع الخمر ، ولكنه خص الكتاب المقدس والتلمود بكل ساعة من ساعات فراغه . وقد أنشأ مجعاً علمياً في تروى مع أنه لم يكن حاخاماً رسمياً ، وظل يعلم فيه أربعين

سنة ، ووضع بالتدريج شروحا للعهد القديم والمشنا ، والجمارا ولم يحاول ، كما حاول بعض العلماء الأسبان ، أن يجد في النصوص الدينية آراء فلسفية ، بل كل ما فعله أن فسر هذه النصوص تفسيرا اغترفه من بحر عامه الصافي الخضم ، بلغ من تقدير بني دينه أن طبع هذا التفسير مع التلمود نفسه . وقد أكسبته طهارة حياته مضافة إلى تواضعه احترام شعبه فرفعه إلى مقام القديسين ، وأخذت الجماعات اليهودية في جميع أنحاء أوربا يرسلون إليه يستفتونه في المسائل الدينية والشرعية ، وجعلوا لأجوبته الصفة القانونية . وأحزنه في شيخوخته مذابح الحملة الصليبية الأولى . وواصل عمله بعد وفاته أحفاده شمويل ، ويعقوب ، وإسحق أبناء ملير ، وكان يعقوب أول « التوسافيت » ، وظل علماء التلمود الفرنسيون والألمان خمسة أجيال من بعد وفاته يراجعون ويعدلون شروحه بما يضيفون إليها من توسافوت أو « إضافات » .

وما كاد التلمود يتم حتى أصدر جستنيان قراراً بتحريمه (٥٥٣) لأنه « خليط من الصغائر ، والخرافات ، والمظالم ، والإهانات ، والسباب ، والكفر ، والتجديف » (١٧) . ويلوح أن الكنيسة قد نسيت بعدئذ وجود التلمود ، ذلك أنه قلما كان يوجد من رجال الكنيسة اللاتينية من يستطيع قراءة اللغة العبرية أو الآرامية اللتين كتب بهما ، وظل اليهود سبعة عشر عاما كاملة يقرءون ويدرسون مجلداته العزيزة عليهم بكامل حريتهم - يقرءونه بجد يخيل إلينا معه أنهم قد نسوا معه الكتاب المقدس . لكن حدث في عام ١٢٣٩ أن رفع نقولاس دونين Nicholas Donin ، وهو يهودى اعتنق المسيحية ، إلى البابا جريجورى التاسع معروضا بتهمة فيه التلمود بأنه يحتوى على إهانات فاضحة للمسيح والعدراء ، وتحريض على الغش والخداع في معاملة المسيحيين . وما من شك في أن بعض هذه التهم صحيح ، لأن جامعى الكتاب في جدهم المتواصل فد عظموا التناثيم والأموراثم تعظيما جعلهم يضمنون إلى الأجزاء الشعبية من الجمارا وفي أجزاء

متفرقة منها ملاحظات يرد بها الأحبار الغضاب على نقد المسيحيين للدين اليهودي^(١٨) . ولكن دونين ، وقد صار أكثر مسيحية من البابا نفسه ، أضاف من عنده عدة تهم أخرى ، لا يمكن إثباتها : منها أن التلمود يحيز غش المسيحي ، ويحبذ قتله ، مهما بلغ من صلاحه ؛ وأن أحبار اليهود يحيزون لهم أن ينكثوا عهودهم التي أقسموا على الوفاء بها ، وأن يقتلوا كل مسيحي يدرس الشريعة اليهودية . فما كان من جريجورى إلا أن أمر بأن يرسل إلى الرهبان الدومنيك أو الفرنسيس كل ما يمكن العثور عليه من نسخ التلمود في فرنسا ، وإنجلترا ، وأسبانيا ، ثم أمر أولئك الرهبان بأن يفحصوا تلك الكتب بدقة وعناية ، فإذا تبينوا أن هذه التهم صحيحة فليحرقوها . ولم نعر فيها وصل إلينا من المعلومات المسجلة على ما حدث بعد هذا الأمر ، ولكننا نعرف أن لويس التاسع أمر يهود فرنسا بأن يسلموا كل ما لديهم من نسخ التلمود وإلا كان جزاؤهم الإعدام ، ثم استدعى أربعة من أحبارهم إلى باريس ليدافعوا عن الكتاب في نقاش علني أمام الملك ، والملكة بلانش Blanche ، ودونين ، واثنين من الفلاسفة المدرسين — وليم الأوفرنى William of Auvergne ، وألبرتس مجنس Albertus Magnus^(١٩) . ودام البحث ثلاثة أيام أمر بعدها الملك أن تحرق جميع نسخ التلمود (١٢٤٠) ، وشفع ولتر كرنوتس Walter Cornutus كبير أساقفة سان Sens لليهود فأمر الملك بإعادة كثير من نسخ التلمود إلى أصحابها ، فلما مات كبير الأساقفة بعد ذلك بقليل اعتقد بعض الرهبان أن موته هو حكم الله على لين الملك . واقتنع الملك برأيهم هذا فأمر بمصادرة جميع نسخ التلمود ، فجاء بها إلى باريس محملة على أربع وعشرين عربة وألقيت في النار (١٢٤٢) . ثم صدر أمر بابوى في عام ١٢٤٨ يحرم تملك التلمود في فرنسا ، وضعفت بعد ذلك دراسة التلمود والآداب العبرية في جميع أنحاء فرنسا عدا پرفاتس .

وحدث مثل هذا النقاش في برشاونة عام ١٢٦٣ ؛ ذلك أن ريمند الپنيافورتي

Rayond of Penafort وهو راهب دومنيكي يشرف على محكمة التفتيش. في أرغونة وقشتالة أخذ على عاتقه أن ينصر يهود هاتين المقاطعتين . وأراد أن يعد واعظيه لهذا الغرض فنظم دراسات في اللغة العبرية في معاهد اللاهوت بأسبانيا المسيحية ، وساعده في هذا يهودى متنصر يدعى پول المسيحي Paul the Christian ؛ وأمدا فيما بينهما ريمند بكثير من المعلومات عن الدينين المسيحي واليهودى فنظم الراهب نقاشاً بين پول والحاخام موسى بن نحمان الجيرونى أمام جيمس الأول ملك أرغونة . وجاء ابن نحمان إلى النقاش على كره منه ، لأنه كان يخشى النصر بقدر ما كان يخشى الهزيمة . ودام الجدل أربعة أيام كان الملك فى أثناءها مبهجاً ، ويبدو أن الطرفين قد حافظا على آداب المناظرة . وفى عام ١٢٦٤ أمرت لجنة دينية بجمع كل ما فى أرغونة من نسخ التلمود ، ومحت كل ما فيها من فقرات تطعن فى الدين المسيحي ثم ردت الكتب إلى أصحابها (٢٠) ؛ وتحدث ابن نحمان عن الدين المسيحي فى تقريره الذى كتبه للمعابد اليهودية فى أرغونة يصف فيه المناظرة بعبارات خيل إلى ريمند أن فيها طعنًا شديدًا على هذا الدين (٢١) ؛ فاحتج الراهب لدى الملك على هذا العمل ، ولكن جيمس لم يحرك ساكنًا إلا عام ١٢٦٦ حين خضع لإلحاح البابا فنفى ابن نحمان من أسبانيا . وتوفى ذلك الحبر فى فلسطين بعد عام من نفيه .

الفصل الثالث

العلوم عند اليهود

تكاد العلوم الطبيعية والفلسفة عند اليهود أن تنحصر كلها في بلاد الإسلام ؛ ذلك أن المقيمين في البلاد المسيحية في العصور الوسطى كانوا بمعزل عن جيرانهم معرضين للاحتقار وإن كانوا متأثرين بأولئك الجيران ، ولهذا لجأوا إلى التصوف والخرافات وأخذوا يمتنون أنفسهم بمجىء مسيح ينقذهم مما هم فيه . وتلك كلها ظروف هي أسوأ ظروف يمكن أن ينشأ فيها العلم . غير أن الدين اليهودي كان يشجع على دراسة الفلك ، لأن تحديد أيام الأعياد تحديداً دقيقاً إنما يعتمد على هذه الدراسة . وبفضل هذه الدراسة استبدل علماء الهيئة اليهود في بابل في القرن السادس التقديرات الفلكية بالأرصاد المباشرة للقبة السماوية . وقد حسبوا السنة على أساس الحركة الظاهرية للشمس ، والشهور على أوجه القمر ؛ وسموا الشهور بأسماء بابلية ، وجعلوا بعض الشهور « كاملة » عدة كل منها ثلاثون يوماً ، وبعضها « ناقصة » عدة كل منها تسعة وعشرون ، ثم وفقوا بين التقويمين القمري والشمسي بإضافة شهر ثالث عشر إلى كل سنة ثالثة ، وسادسة ، وثامنة ، وحادية عشرة ، ورابعة عشرة ، وسابعة عشرة ، وتسعة عشرة في كل دورة مؤلفة من تسعة عشر عاماً . وكان يهود في الشرق يؤرخون الحوادث على أساس التقويم السلوقي الذي يبدأ في عام ٣١٢ ق . م . أما في أوربا فقد اتخذوا في القرن التاسع « التاريخ اليهودي » الحالى المعروف باسم « سنة العالم Anno mundi » والذي يبدأ بتاريخ خلق الدنيا كما يظنون في عام ٣٧٦١ ق . م . وبهذا كله أصبح التقويم اليهودي لا يقل سخفاً وقسوة عن تقويمنا نحن (*) .

(*) يريد التقويم المسيحي . (المترجم)

وكان من أوائل علماء الهيئة اليهود في بلاد الإسلام العالم ما شاء الله (المتوفى حوالى عام ٨١٥) . وقد ترجم جيرار القريمونى Gerard of Cremona كتابه فى الفلك من العربية إلى اللاتينية واستقبل أحسن استقبال . العالم المسيحى : ورسائله فى الأثمان هى أقدم مؤلف علمى موجود الآن باللغة العربية : وكانت أعظم رسالة فى العلوم الرياضية فى ذلك العصر (٢٣) هى رسالة أبراهام بن حيا البرشلونى (١٠٦٥ - ١١٣٦) فى الجبر ، والهندسة ، وحساب المثلثات وهى المعروفة باسم هيورها مشيحه . وقد ألف أيضاً موسوعة مفقودة فى علوم الرياضة ، والهيئة ، والبصريات ، والموسيقى ، كما ألف فى التقويم أقدم رسالة باللغة العبرية باقية إلى الآن . ولم يجد أبراهام ابن عزرا ، فى الجيل التالى ، تعارضاً بين كتابة الشعر ، والتبحر فى التحليل التركيبى . وكان أبراهام هذا وذاك أول من كتب من اليهود رسائل علمية باللغة العبرية لا العربية . وبفضل هذه الكتب ، وفيض من الكتب الأخرى التى ترجمت من العربية إلى العبرية غزت العلوم والفلسفة الإسلامية المجتمعات اليهودية فى أوروبا ووسعت نطاق حياتها الذهنية إلى ما وراء المعارف الدينية الخالصة .

وأفاد يهود ذلك العهد إلى حد ما من علوم المسلمين الطبيعية ، وإن كانوا قد عادوا أيضاً إلى تقاليدهم القديمة الخاصة بفن العلاج ، فكتبوا عدة رسائل قيمة فى الطب ، وأصبحوا هم أعظم الأطباء إجلالا فى أوروبا المسيحية . ولقد ذاعت شهرة إسحق لإسرائيلى (٨٥٥ - ٩٥٥ ؟) فى طب العيون بمصر ذيوماً عين بسببه الطبيب الخاص للأغالبة فى القيروان . وكانت مؤلفاته الطبية ، بعد أن ترجمت من العربية إلى العبرية واللاتينية ، تعد أهم المراجع الطبية فى أوروبا بأجمعها ، وكانت تستعمل كتباً للدراسة فى سالرنو . وباريس ، ونقل عنها بيرتن Burton ، بعد حياة دامت سبعائة عام ، فيما كتبه عن تفسريح السوداء (١٦٢١) . وتصف الروايات المتواترة إسحق بأنه لم يكن يأبه بالمال ، وبأنه هازب عنيد فى

عزوبته ، وبأنه عاش مائة عام كاملة . وأكبر الظن أنه كان من معاصريه .
آساف ها يهودى ، وهو المؤلف الخامل الذكر لخطوط كشف منذ وقت .
قريب ، ويعد أقدم مؤلف طبي باللغة العبرية باق إلى الآن من الزمن القديم ،
ويشتهر هذا الكتاب بما جاء فيه من أن الدم يجرى من الشرايين إلى الأوردة ؛
ولو أنه طافت بعقله وظيفه القلب لاستبق بذلك هارفى Harvey (٢٣) إلى .
كشف الدورة الدموية بأكملها :

١٤ وسيطر على فن الطب فى مصر بعد قدوم ابن ميمون إليها (١١٦٥) .
الأطباء اليهود والمؤلفات اليهودية : فكتب أبو الفداء عن علماء القاهرة أهم
رسالة فى الرمد فى القرن الثانى عشر ، وألف الكوهين العطار (١٢٧٥ ؟)
كتاباً فى الأقرباذين لا يزال يستعمل حتى الآن فى العالم الإسلامى . وكان
الأطباء اليهود فى جنوبى إيطاليا وفى صقلية إحدى المسالك التى انتقل بها الطب
العربى إلى سالرنو . ذلك أن شبائى بن أبراهام (٩١٣ - ٩٧٠) المعروف
باسم ونولو والمولود فى أترانتو وقع أسيراً فى يد المسلمين ، فدرس الطب
العربى فى بالرم ، ثم عاد لممارسة مهنته فى إيطاليا . ودرس بنثنوتس
جراسس ، أحد يهود أورشليم ، فى سالرنو ، وأخذ يعلم فيها وفى منبلييه
وكتب رسالة فى طب العيون (١٢٥٠ ؟) كان العالم الإسلامى والعالم
المسيحى على السواء يريانها أهم رسالة فى أمراض العين . وقد اختيرت هذه
الرسالة بعد ٢٢٤ عاماً من نشرها أول كتاب يطبع فى موضوعها .

وكانت مدارس الأحبار اليهود وبخاصة فى جنوبى فرنسا تدرس منهاجاً فى
الطب ، وكان من بين الأغراض التى تبتغىها من هذه الدراسة أن تمكن رجال
الدين من كسب المال من غير طريق الدين . وقد ساعد الأطباء اليهود الذين
تدربوا فى منبلييه على إقامة مدرسة منبلييه الطبية الشهيرة ؛ ولما عين يهودى مديراً
للكلية فى عام ١٣٠٠ جر ذلك على الشعب اليهودى حقد الأطباء فى جامعة

باريس ، واضطرت جامعة منبيليه أن تغلق أبوابها في وجه اليهود (١٣٠١) .
ونفى الأطباء العبرانيون فيمن نفي من اليهود من فرنسا في عام ١٣٠٦ .
غير أن الطب المسيحي كان في ذلك الوقت قد حدث به انقلاب عظيم
بتأثير الأطباء اليهود والمسامين وما ضربوه لغيرهم من مثل طيبة . ذلك أن
الأطباء الساميين كانوا قد نبذوا من زمن بعيد النظرية التي تقول إن المرض
ينشأ من حلول الشياطين بالجسم ، وكان نجاح تشخيصهم للمرض تشخيصا
قائما على العقل وعلاجهم إياه قد أضعف إيمان الناس بقوة مخلقات الأولياء
والصالحين وغيرها من وسائل العلاج المبينة على خوارق الطبيعة .

وكان من أصعب الأشياء على الرهبان والقساوسة الذين تضم أديرتهم
وكنائسهم تلك المخلقات والتي تجتذب إليها الحجاج أن يرضوا بهذا الانقلاب ،
فحرمت الكنيسة استقبال الأطباء اليهود في داخل بيوت المسيحيين ، فقد
كانت ترتاب في أن طب هؤلاء الناس أقوى من عقيدتهم ، وكانت تخشى
تأثيرهم في العقول المريضة . وفي عام ١٢٤٦ حرم مجلس بزيير على المسيحيين
استخدام أطباء يهود ؛ وفي عام ١٢٦٧ حرم مجلس فيينا على الأطباء اليهود
أن يعالجوا مسيحيين ؛ غير أن هذه الأوامر وأمثالها لم تمنع بعض كبار
المسيحيين من الانتفاع بمهارة اليهود ؛ مثال ذلك أن البابا بنيفاس Boniface
الثامن حين مرض بعينه استدعى لعلاجيه إسحق بن مردخاي (٢٤) ؛ وكان
ريمند للي Raymond Lully يشكو من أن بكل دير طبيا يهوديا ، وهال
مبعوث بابوي أن يجد أن هذه هي الحال أيضا في كثير من أديرة النساء ؛
وكذلك ظل ملوك أسبانيا المسيحيون يستمتعون بعناية الأطباء اليهود حتى أيام
فرديناند وإزبلا ؛ وكتب ششت بنفنيست Sheshet Benveniste البرشلوني
طبيب جيمس الأول ملك أرغونة (١٢٣١ - ١٢٧٦) أهم رسالة في أمراض
النساء في زمانه ؛ ولم يفقد اليهود زعامتهم الطبية في البلاد المسيحية إلا بعد أن
استخدمت الجامعات المسيحية في القرن الثالث عشر الأساليب الطبية القائمة
على العقل .

ولم يفد علم الجغرافية إلا قليلا من الشعب اليهودى ، وكان من حقه أن يفيد منه لسعة انتشاره وكثرة تنقله . بيد أن اثنين من اليهود كانا أعظم الرحالة فى القرن الثانى عشر . وهذان هما پتاجيا الراتسبونى Petschya of Ratisben وبنيمين التطيل ، وقد كتبوا قصصاً عبرية قيمة عن رحلاتهما فى أوروبا والشرق الأدنى . فقد غادر بنيمين سرقسطة فى عام ١١٦٠ ، وطاف على مهل بـبرشلونة ، ومرسيلية ، وجنوا ، وبيزا ، ورومة ، وسالرنو ، وبرنديزى ، وأنرنتو ، وكورفو ، والقسطنطينية ، والجزائر الإيبجية ، وأنطاكية ، وكل مدينة هامة فى فلسطين ، وبعلبك ، ودمشق ، وبغداد ، وبلاد الفرس . ثم عاد بطريق البحر مجتازاً المحيط الهندى ، والبحر الأحمر إلى مصر . وصفلية ، وإيطاليا ومنها برآ إلى أسبانيا . ووصل إلى موطنه فى عام ١١٧٣ حيث مات بعد قليل . وكان أكثر ما يهتم به هو الجماعات اليهودية ولكنه وصف المظاهر الجغرافية لكل بلد مر به والخصائص الجنسية لسكانه وصفاً يمتاز بكثير من الدقة والموضوعية . وقصته أقل طرافة ومتعة من قصص ماركو پولو التى كتبها بعد مائة عام من ذلك الوقت ، ولكنها فى أغلب الظن أقرب منها إلى الحقيقة . وقد ترجمت هذه الرحلة إلى جميع اللغات الأوروبية تقريباً ، ولا تزال إلى يومنا هذا من الكتب المحببة إلى اليهود (٢٥).

الفصل الرابع

نشأة الفلسفة اليهودية

حياة العقل مزيج من قوتين أولاهما ضرورة الإيمان ليستطيع الإنسان الحياة . والأخرى ضرورة الاستدلال ليستطيع التقدم . وتكون إرادة الإيمان هي المسيطرة على العقل في عهود الفقر والقوضى لأن الشجاعة في تلك العصور هي كل ما يحتاجه الناس ، أما في عهود الثراء فإن القوى الذهنية تبرز إلى الأمام لتفرض على الناس الرقي والتقدم ، وعلى هذا فإن الحضارة في انتقالها من الفقر إلى الثراء تنزع إلى خلق النزاع بين العقل والإيمان ، « والصراع بين العلم والدين » . وفي هذا الصراع تعمل الفلسفة عادة على التوفيق بين الازدواج وإيجاد سلام وسط لأن وظيفتها هي أن ترى الحياة في كليتها ، ونتيجة ذلك أن يحتقرها العلم ويرتاب فيها الدين . وفي عصر الإيمان حين تجعل الصعاب الحياة شاقة لا تحتمل بغير أمل ، تميل الفلسفة إلى الدين ، وتستخدّم العقل في الدفاع عن الإيمان ، وتصبح ديناً متذكراً . وإذا نظرنا إلى الأديان الثلاثة التي اقتسمت فيما بينها حضارة البيض في العصور الوسطى رأينا ذلك القول أقل انطباقاً على المسلمين أكثر الناس ثراء ، ورأينا أكثر انطباقاً على المسيحيين وهم أقل من المسلمين ثراء ، وأشد ما يكون انطباقاً على اليهود أقل أصحاب الأديان الثلاثة ثراء . وأكثر ما ابتعدت الفلسفة اليهودية عن الدين عند اليهود الأثرياء في بلاد الأندلس الإسلامية .

وللفلسفة الإسلامية في العصور الوسطى مصدران هما الدين العبراني ، والتفكير الإسلامي . وكانت كثرة المفكرين اليهود ترى أن الدين والفلسفة متشابهان في محتوياتهما ونتيجتهما ، وأن كل ما يختلفان فيه هو الوسيلة والصورة : فالذي يعلمه الدين بوصفه عقيدة موحى بها من عند الله تعالى الفلسفة على أنه حقيقة يثبتها

العقل ؛ وقد قام معظم المفكرين اليهود من سعديا إلى ابن ميمون بهذه المحاولة في بيئة إسلامية ، وأخذوا معلوماتهم عن الفلسفة اليونانية من التراجم العربية ، ومن شروح المسلمين ؛ وكتبوا بالعربية لليهود والمسلمين على السواء . وكما أن الأشعري وجه سلاح العقل ضد المعتزلة ، وأنقذ بذلك العقيدة السنية في الإسلام ، كذلك فعل سعديا الذي غادر مصر إلى بابل في نفس العام (٩١٥) حين تحول الأشعري من الشك إلى اليقين ، وأنقذ الدين العبراني بطول جداله ومهارته فيه ، ولم يستخدم سعديا أساليب **المنكلمين** المسلمين فحسب ، بل استخدم كذلك دقائق مناقشاتهم نفسها^(٣٦) .

وكان لانتصار سعديا من الأثر في الدين اليهودي ببلاد المشرق ، ما كان لانتصار الغزالي في الإسلام ببلاد الشرق ، فقد عمل هذا الانتصار ، مضافاً إلى الاضطراب السياسي والاضمحلال الاقتصادي ، على خنق روح الفلسفة العبرانية في الشرق . وكمثل القصة في أفريقية وأسبانيا ، ففي القيروان وجد إسحق إسرائيلي بن مشاغله في الطب والكتابة متسعاً من الوقت يؤلف فيه كتباً فلسفية ذات تأثير كبير . فقد وضع رسالة في التعاريف أفاد منها منطق المدرسين مصطلحات جمّة ، وعرّفت رسالته في العناصر التفكير العبراني بكتاب أرسطو في الطبيعة ، وأحل كتابه في النفس والروح نظرية مأخوذة من الأفلاطونية الحديثة عن الفيض الإلهي التقدمي من الله إلى العالم المادي ، أحل هذه النظرية محل قصة الخلق كما وردت في سفر التكوين ؛ وكان هذا من مصادر القسبة اليهودية .

وكان أثر ابن جبرول فيلسوفاً أكبر من أثره شاعراً . ولقد كان من الطرف التاريخية أن المدرسين كانوا ينقلون أقواله في حالة من الإجلال والتقدير ويسمونهم أفسبرون ويحسبونه مسلماً أو مسيحياً . ولم يعرف الناس أن ابن جبرول وأفسبرون رجل واحد إلا حين كشف ذلك سلومون منك Salmon Munk في عام ١٨٤٦^(٣٧) . وكاد ابن جبرول نفسه أن يهين^{*} . تقول الناس لهذا الخلط إذ حاول

أن يكتب الفلاسفة بعبارات بعيدة كل البعد عن الدين اليهودى . فقد أخذ كل مقتبساته في مجموعة أمثاله المسماه مختار اللآلى من مصادر غير يهودية إذا استثنينا عدداً قليلاً من هذه المقتبسات ، وإن كانت القصص الشعبية اليهودية تحتوى على ثروة كبيرة من الحكم القوية التى تعد من جوامع الكلم . ومن هذه اللآلى « لؤلؤة كنفوشية إلى أبعد حد : « كيف يستطيع الإنسان أن يثار من عدوه ؟ بزيادة صفاته الطيبة » (٢٨) . وتكاد هذه الحكمة أن تكون خلاصة رسالته في إصلاح الصفات الخلقية التى ألفها ابن جبرول كما يلوح وهو في سن الرابعة والعشرين حين تكون الفلاسفة موضوعاً غير لائق بالإنسان . وقد اشتق الشاعر الشاب بأساليب في الاشتقاق اصطناعية جميع الفضائل والذائل من الخواص الخمس ، فأدى به هذا إلى نتائج غاية في السخف . ولكن الذى يمتاز به هذا الكتاب هو أنه حاول أن يضع في عصر الإيمان قانوناً للأخلاق لا يعتمد على العقيدة الدينية (٢٩) .

وبهذه الجراءة عينها امتنع جبرول عن أن يقتبس في أهم كتبه كلها وهو كتاب « مقور حاييم » من الكتاب المقدس ، أو التلمود ، أو القرآن . وكان هذا البعد عن القومية هو الذى جعل الكتاب بغيضاً لأحبار اليهود ، كما جعله في ترجمته اللاتينية المسماة « منبع الحياة Fons Vitae » عظيم الأثر في العالم المسيحى . وقد قبل ابن جبرول في هذا الكتاب أصول الأفلاطونية الحديثة التى تسرى في الفلسفة الإسلامية كلها ، ولكنه فرض على هذه الأصول الفلسفية مبدأ الاختيار الذى يؤكد عمل الإرادة عند الله والإنسان . ويقول ابن جبرول في كتابه « إن علينا أن نفترض وجود الله بوصفه الهىولى الأول ، والجوهر الأول ، والإرادة الأولى إذا شئنا أن نفهم وجود الحركة في أى شئ على الإطلاق ، ولكننا لا نستطيع قط معرفة صفات الله . ولم يخلق الله الكون في زمان معين ، بل هو ينساب في فيض متصل متدرج من ذات الله . وكل شئ في الكون : ما عدا

الله وحده يتكون من مادة وصورة ، وهما تظهران مجتمعتين على الدوام ، ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى إلا في الفكر وحده (٣٠). وقد رفض أحبار اليهود هذه الآراء الكونية الشبيهة بآراء ابن سينا ، وقالوا إنها هي المادية المقتنعة ، ولكن الكسندر الهاليسي Alexander of Hales ، والقديس بوناڤنتور St. Bonaventure ودنز اسكوتس Duns Scotus قبلوا فكرة كونية المادة تحت سيطرة الله وأولية الإرادة . وقال وليم الأوفروني عن ابن جبرول إنه « أنبل الفلاسفة أجمعين » ، وظنه مسيحياً صالحاً .

أما يهودا هليفي فقد رفض كل تفكير فلسفي وقال عنه إنه من عبث العقل ، وكان يخشى كما يخشى الغزالي أن تقوض الفلسفة دعائم الدين ؛ وليس هذا لأنها تشك في عقائده ، أو لأنها فوق ذلك تتجاهله ، أو أنها تفسر الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً فحسب ، بل لأنها فوق هذا وأكثر منه تستبدل الجدل بالخشوع والإيمان . وقد قاوم هذا الشاعر غزو أفلاطون وأرسطو للدين اليهودي ، وتسرب الآراء الإسلامية إلى اليهود ، وهجمات اليهود القرائن المتواصلة على التلمود ، نقول قاوم الشاعر هذا كله بتأليف كتاب في الفلسفة يعد أمتع كتب العصور الوسطى الفلسفية بأجمعها ، ونعني به كتاب الخزري (١١٤٠ ؟) الذي عرض فيه آراءه في صورة قصة شبيهة بالمسرحيات تدور حول اعتناق ملك الخزر للدين اليهودي . وكان من حسن حظ هليفي أن الكتاب قد استخدمت فيه الحروف العبرية وإن كان قد كتب باللغة العربية ، وبذلك لم يقرؤه غير اليهود المتعلمين ؛ ذلك أن القصة تجمع أمام الملك أسقفاً . ومثلاً ، وكوهنا ؛ ثم تتخلص من الإسلام والمسيحية بعد قليل . فحين يقتبس المسلم والمسيحي من كتاب اليهود المقدس ويقرآن أنه كلام الله يصرفهما الملك ويستبق الكوهن اليهودي ، ويصبح معظم الكتاب حديثاً للكوهن يعام فيه ملكاً مطواعاً مختنئاً أصول الدين اليهودي وشعائره . ويقول التلميذ الملكي لمعلمه : « لم يجد جديد منذ نزل دينكم اللهم

إلا تفاصيل عن الجنة والنار» (٣١). ويشجع هذا القول الكوهن فيقول إن اللغة العبرية لغة الله ، وإن الله لم يتحدث بنفسه إلا لليهود ، وإن أنبياء اليهود وحدهم هم الملهمون من عند الله ويسخر هليئي من الفلاسفة الذين ينادون بتفوق العقل ويخضعون الله والسموات لقياسهم المنطقي ومقولاتهم ، مع أن العقل البشرى لا يعدو أن يكون جزءاً من عالم المخلوقات المعقد وهو جزء هش متناه في الصغر . . والعاقل (وليس حتماً أن يكون متعلماً) هو الذى يقر بضعف العقل وعجزه عن إدراك الشئون غير الدنيوية ، ويستمسك بالعقيدة التى جاء بها الكتاب المقدس ، ويؤمن ويصلى ببساطة الطفل (٣٢) .

ولكن افتتان الناس بالعقل قد بقى على الرغم من هليئي ، وظلت آراء أرسطو تغزو الدين اليهودى . فلقد كان أبراهام بن داود (١١١٠ - ١١٨٠) مستمسكاً بدينه استمسكاً هليئياً ، يدافع عن التلمود ضد اليهود القرائين ويقص بكبرياء وفخار تاريخ الملوك اليهود فى الدولة الثانية ، ولكنه كان يتطلع ، كما تطلع العدد الذى يخطئه الحصر من المسيحيين ، والمسلمين ، واليهود فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، إلى استخدام الفلسفة لإثبات أصول دينه . وقد ولد كما ولد هليئى فى طليطلة ، وكان يكسب عيشه من مهنة الطب . وقد رد على هليئى فى كتابه العربى كتاب العقيدة الرفيعة بمثل ما رده أكويناس فيما بعد على أعداء الفلسفة المسيحيين ، فقال إن الدفاع السلمى عن الدين ضد غير المؤمنين يتطلب الحاجة المنطقية ، ولا يمكن أن يعتمد هذا الدفاع على الإيمان بهذا الدين ، وقد فعل ابن داود ما فعله ابن رشد بعده بزمان قليل (١١٢٦ - ١١٩٨) ، وما فعله ابن ميمون بعده بجيل من الزمان (١١٣٥ - ١٢٠٤) ؛ والقديس توماس أكويناس بعده بمائة عام (١٢٢٤ - ١٢٧٤) ، فبذل كل ما وسعه من جد للتوفيق بين دين آبائه وبين فلسفة أرسطو . ولو أن الفيلسوف اليونانى شهد ذلك لسره أن يتلقى هذه التحية الثلاثية ، أو أن يعرف أن الفلسفة اليهودية لم تعرفه

إلا من ملخصات الفارابي وابن سينا اللذين لم يعرفاه إلا عن طريق الترجمة المشوهة والأفلاطونية الحديثة المزورة . وكان ابن داود أكثر من القديس توماس إخلاصاً لمصدرهما الأرسطاطيلى المشترك فقال كما قال ابن رشد إن النفس الكلية وحدها ، لا النفس الفردية ، هي الخالدة (٣٣) . وهنا كان يحق له ليفي أن يشكو من أن أرسطو قد انتصر على التلمود ، فلقد بدأت الفلسفة اليهودية ، كما بدأت فلسفة العصور الوسطى بوجه عام ، بالأفلاطونية الحديثة وبالتقوى ، وها هي ذى تبلغ ذروتها بفلسفة أرسطو وبالشك . وسيبدأ ابن ميمون فلسفته من هذا الموقف الأرسطاطيلى الذى وقفه ابن داود ، ويواجهه في شجاعة ومهارة جميع مشكلات العقل في صراعه مع الدين .

الفصل الخامس

ابن ميمون ١١٣٥ - ١٢٠٤

ولد أعظم عظماء اليهود في العصور الوسطى بمدينة قرطبة لأب من أكابر العلماء الممتازين هو الطبيب والقاضي ميمون بن يوسف . وسمى الغلام موسى ، وكان من الأقوال الماثورة بين اليهود قولهم : « لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلى موسى » . وقد عرف بين الناس باسم موسى بن ميمون أو باسم أقصر من هذا وهو ميموني . ولما أن أصبح من أجبار اليهود الذائعي الصيت جمعت الحروف الأولى من لقبه واسمه فصارت رميم ، وعبر العالم المسيحي عن أبوته بتسميته ميمونيدس Maimonides . وتقول إحدى القصص التي يغلب على الظن أنها من الخرافات الدائعة إن الغلام أظهر عدم الميل للدرس ، وإن أباه الذي خاب فيه رجائه سماه « ابن الجزار » وبعثه ليعيش مع معلمه السابق الخاخام يوسف ابن مجاشن^(٣٤) . ومن هذه البداية الفقيرة برع موسى الثاني في آداب الدين وآداب الكتاب المقدس ، والطب ، والعلوم الرياضية ، والهيئة ، والفلسفة . وكان ثاني اثنين هما أعلم أهل زمانه ؛ ولم يكن يضارعه في علمه إلا ابن رشد . ومن أغرب الأشياء أن هذين المفكرين البارزين اللذين ولدا في مدينة واحدة ولم يكن بين مولدهما إلا تسع سنين لم يجتمع أحدهما بالآخر كما يلوح ، ويبدو أن ابن ميمون لم يقرأ لابن رشد إلا حين بلغ هو سن الشيخوخة وبعد أن ألف كتبه^(٣٥) .

واستولى البربر على قرطبة في عام ١١٤٨ وهدموا الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية ، وخيروا المسيحيين واليهود بين الإسلام والنفي ؛ فغادر ابن ميمون أسبانيا في عام ١١٥٩ هو وزوجته وأبناؤه ، وأقاموا في فاس تسع سنين مدعين أنهم مسلمون^(٣٦) ، لأن المسيحيين واليهود لم يكن يسمح لهم بالإقامة هناك أيضاً .

وبرر ابن ميمون تظاهره بالإسلام بين اليهود المهددين بالخطر في مراکش.
بقوله إنهم لم يكن يطلب إليهم أن يؤدوا شعائر هذا الدين أداء عملياً بل كل.
ما كان يطلب إليهم أن يتلوا صيغة لا يؤمنون بها ، وإن المسلمين أنفسهم.
يعرفون أنهم غير مخلصين في النطق بها وإنما يفعلون ذلك ليخادعوا جماعة من
المتعصبين^(٣٧) . لكن كبير أحبار اليهود في فاس لم يوافقه على هذا القول ،
وكان جزاؤه أن قتل في ١١٦٥ . وخشى ابن ميمون أن يلتقي هذا المصير
نفسه فسافر إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى الإسكندرية (١١٦٥) ومصر
القديمة حيث عاش حتى وافته منبته . وسرعان ما عرف المصريون أنه من أعظم
أطباء زمانه ، فاختر طبيباً خاصاً لنور الدين على أكبر أبناء صلاح الدين ،
وللقاضي الفاضل البيهقي وزير صلاح الدين . واستخدم ابن ميمون
نفوذه في بلاط السلطان لحماية يهود مصر ، ولما فتح صلاح الدين فلسطين
أقنعه ابن ميمون بأن يسمح لليهود بالإقامة فيها من جديد^(٣٨) . وفي عام
١١٧٧ عين ابن ميمون نجيداً أو زعيماً لليهود في القاهرة ، ثم أفهمه أحد
الفقهاء المسلمين (١١٨٧) بأنه مرتد عن الإسلام وطالب بأن توقع عليه
عقوبة القتل التي هي جزاء المرتدين . ولكن الوزير أنقذ ابن ميمون إذ قال
إن الرجل الذي أرغم على اعتناق الإسلام لا يمكن أن يعد مسلماً بحق^(٣٩) .
وفي سني العمل المتواصل التي أقامها بالقاهرة ألف معظم كتبه . ومن
هذه المؤلفات عشرة كتب في الطب باللغة العربية نقل فيها آراء أبقراط ،
وجالينوس ، وديسقوريدس ، والرازي وابن سينا . وقد اختصر في
كتاب الأمثال الطبية كتاب جالينوس إلى ألف وخمسمائة عبارة قصيرة
تشمل كل فرع من فروع الطب ، وترجم هذا الكتاب إلى اللغتين
العبرية واللاتينية ، وكثيراً ما كان ينقل عنه في أوروبا ويصدر ما ينقل
بتلك العبارة : « قال الحبر موسى » . ووضع مقالة في تدبير الصحة
للملك الأفضل على بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ؛
ومقالة أخرى في الجحاح لسلطان حماة الملك المظفر تقي الدين أبي سعيد عمر

ابن نور الدين تحدث فيها عن الجماع من الوجهة الصحية ، وعن عجز القوة الجماعية ، وعن الانتصاب الدائم ، وعن الأدوية المقوية للباه .

وقد أضاف ابن ميمون إلى هذه الرسائل عدة مقالات كل منها في موضوع واحد منها مقالة في السموم والتحرز من الأدوية القتالة(*) ، ومقالة في الربو(**) ، وأخرى في البواسير ، ورابعة في السوداء — ومقالة جامعة في شرح العقار . وتحتوى هذه الكتب الطبية ، كما تحتوى سائر الكتب ، على أقوال لا تتفق مع عقائد هذا الزمان السريعة التبدل — المعصومة من الخطأ — كقوله إنه إذا كانت الحصية اليمنى أكبر من اليسرى كان المولود الأول ذكراً^(١) ؛ ولكنها تمتاز برغبة صادقة في مساعدة المرضى ، ببحثها الذى يمتاز بالتسامح والمجاملة في الآراء المتعارضة ، وبما يسرى فيها من طابع الحكمة والاعتدال في النصيح ووصف الدواء . ولم يكن ابن ميمون يصف العقاقير إذا ما أغنى عنها تنظيم الغذاء^(٢) . وقد حذر الناس من كثرة الطعام بقوله إن المعدة يجب ألا تنتفخ كأنها خراج^(٣) . وكان يظن أن الخمر تفيد الصحة إذا شربت باعتدال^(٤) ، ونصح بدرس الفلسفة لأنها تدرب على الاتزان العقلى والخلقى وعلى الهدوء وهما الصفتان اللتان تؤديان إلى صحة الجسم وطول العمر^(٥) .

وبدأ ابن ميمون في الثالثة والعشرين من عمره شرحاً للمشنا، وظل يكدرح في هذا العمل عشر سنين بين مشاغله التجارية ، والطبية ، والأسفار الخطرة براً وبحراً . ولما نشر هذا الشرح في القاهرة عام ١١٥٨ باسم كتاب السراج رفع ابن ميمون من فوره — وكان لا يزال شاباً لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره — إلى منزلة بين شراح التلمود . لا تسمو عليها إلا منزلة راثنى ، وذلك

(*) تعرف بالمقالة الفاضلة لأنها موجهة إلى القاضى القاضل . (المترجم)

(**) وضعت لمريض نبيل . (المترجم)

بفضل ما يمتاز به من الوضوح ، وغزارة المادة ، وصدق الأحكام : وبعد عشرين سنة من ذلك الوقت نشر أعظم كتبه كلها باللغة العبرية الجديدة وسماه متحدياً مستثيراً *أسنا التوراة* ، وقد رتب فيه في نظام منطقي ، وإيجاز واضح ، كل ما حوته أسفار موسى الخمسة من القوانين وجميع قوانين المشنا والجمارا ما عدا النزر اليسير . ويقول في مقدمة الكتاب : « لقد سميت هذا الكتاب مشنا التوراة (تكرر الشريعة) لأن من يقرأ الشريعة المسطورة (الأسفار الخمسة) لأول مرة ، ثم يقرأ هذه المجموعة ، يعرف الشريعة الشفوية جميعها من غير أن يحتاج في ذلك إلى الرجوع إلى أى كتاب آخر »^(٤٦) ، وقد أخفل فيه بعض ماورد في التلمود من قواعد خاصة بالفعال والطيرة ، والتأثم ، والتنجيم ، فكان بذلك من بين مفكرى العصور الوسطى القلائل الذين لم يؤمنوا بالتنجيم^(٤٧) . وقد قسم الأوامر الواردة في الشريعة والبالغ عددها ٦١٣ أربعة عشر قسماً وضع لكل واحد منها عنواناً وخص كل عنوان « بكتاب » . ولم يكتف بشرح كل قانون بل أخذ على نفسه بيان ضرورته المنطقية أو التاريخية . ولم يترجم إلى الإنجليزية من هذه الكتب الأربعة عشر إلا كتاب واحد ، وهو مجلد ضخـم نستطيع به أن نتبين ضخامة الكتاب الأصلي كله .

ويتضح من هذا الكتاب ومن كتابه الآخر الذى صدر بعده وهو : *درون الحاروس* ، أن ابن ميمون لم يكن من الذين يجهرون بالإلحاد . بل إنه قد حاول جهده لكى يرجع المعجزات الواردة في الكتاب المقدس إلى علل طبيعية ، ولكنه كان يدعو إلى الاعتقاد بأن كل لفظ في أسفار موسى الخمسة موحى به من الله ، وإلى العقيدة الدينية القائلة بأن الشريعة الشفوية قد نقلها موسى إلى كبار رجال إسرائيل^(٤٨) . ولعله كان يشعر بأن اليهود لا يستطيعون أن يكون اعتقادهم في الكتاب المقدس أقل شأناً من اعتقاد المسيحيين والمسلمين فيه ، ولعله هو أيضاً كان يرى أن لا قيام للنظام الاجتماعى بغير الاعتقاد في قدسية أصل القانون

الأخلاقى . وكان ابن ميمون وطنيا شديداً الحب لوطنه لا يقبل فى عقيدته جدلاً « يجب على جميع بنى إسرائيل أن يتبعوا كل ما ورد فى التلمود البابلى ، وعلينا أن نرغم اليهود فى جميع أنحاء الأرض على أن يستمسكوا بالعادات والأساليب التى قررها حكماء التلمود »^(٤٩) . وكان أكثر حرية إلى حد ما من معظم المسلمين والمسيحيين فى أيامه ، فكان يعتقد أن غير اليهودى المتمسك بأهداب الفضيلة ، المؤمن بوحدانية الله ، يدخل الجنة ، ولكنه لم يكن يقل قسوة على كفرة اليهود من سفر التثنية أو الترمكادا ؛ ويقول إن اليهود الذين يذبّون الشريعة اليهودية يجب أن يقتلوا ؛ و « من رأى أن جميع أفراد العشيرة اليهودية التى بلغت من القحة والجرأة ما يجعلها تخالف أمراً من أوامر الله يجب أن يعلموا »^(٥٠) . وقد استبق أكويانس فى الدفاع عن القتل جزاء للإلحاد بحجة « أن القسوة على من يضلون الناس سعيّاً وراء الزهو والخيلاء إنما هى رحمة بالعالم »^(٥١) ، وارتضى دون عناء عقوبة الإعدام التى يفرضها الكتاب المقدس جزاء للسحر ، والقتل ، ومضاجعة المحارم ، وعبادة الأوثان ، والسرقه بالإكراه ، وخطف الأشخاص ، وعصيان الأبناء للآباء ، وخرق حرمة السبت^(٥٢) . ولعل أحوال اليهود حين هاجروا من مصر القديمة ، وحاولوا أن يؤسسوا لهم دولة من جماعة معدمة لاوطن لها ، تقول لعل أحوال هؤلاء اليهود كانت تبرر وضع هذه القوانين . ولقد كانت حالة اليهود المزعزعة المضطربة فى أوروبا المسيحية أو أفريقية المسلمة كانت تتطلب قانوناً صارماً يخلق فيهم النظام والوحدة ؛ ولكن الآراء المسيحية ، والعادات اليهودية أيضاً فى أغلب الأحيان ، كانت أرحم من القوانين اليهودية فى هذه الأمور (قبل أيام محكمة التفتيش) .

وإن فى نصيحة ابن ميمون التى يسديها إلى يهود زمانه لجانباً من هذه الروح أفضل من الجانب الصارم السالف الذكر : « إذا قال الكفرة لبنى إسرائيل :

أسلمونا أحدكم لنقتله وجب عليهم أن يتحملوا جميعاً آلام القتل ولا يسلموا
إلهم واحداً من أبناء إسرائيل» (٥٣) .

وأظرف من هذه الصورة صورة هذا العالم وهو ينحدر إلى الشيخوخة ،
فقد أيد في هذه السن قول أحبار اليهود إن « اللقيط العالم (بالشرعية) يسبق
الكوهن الأكبر الجاهل » . وهو ينصح العالم بأن يخصص من وقته ثلاث
ساعات في كل يوم لكسب العيش وتسعى لدراسة التوراة . وكان يعتقد أن
البيئة أقوى أثراً من الوراثة ، ولذلك أشار على طالب العلم أن يسعى إلى صحبة
الصالحين المعقلاء من الناس . وينصح طالب العلم ألا يتزوج حتى يكتمل
علمه ، ويتخذ له حرفة ، ويشتري له منزلاً (٥٥) ، وعندئذ يصبح له أن
يتزوج أربع نساء ، ولكنه لا يصبح له أن يباشرهن إلا مرة واحدة
كل شهر .

« نعم إن مباشرة الإنسان لزوجته مسموح به على الدوام ، ولكن من
واجب العالم أن يصطنع القداسة في هذه العلاقة أيضاً ، فعليه ألا يكون على
الدوام مع زوجته كما يفعل الديك ، بل يجب عليه أن يؤدي الواجب الزوجي
في ليلة الجمعة . . . ويجب على الزوج والزوجة وقت المضاجعة ألا يكونا في
حالة سكر ، أو فتور ، أو حزن ، وألا تكون الزوجة نائمة في ذلك
الوقت (٥٦) » .

وهكذا ينشأ آخر الأمر الحكيم الذي :

« يتصف بالتواضع الجلم ، ولا يكشف رأسه أو جسمه . . . ولا يرفع صوته
فوق الحد الواجب إذا تكلم ، حديثه مع الناس جميعاً ظريفاً . . . يتجنب المبالغة
والتصنع في الحديث ، يعدل في حكمه على الناس ، يؤكد فضائل غيره ،
ولا يتحدث عن أحد بسوء (٥٧) » .

ولا يذهب إلى المطاعم إلا عند الضرورة القصوى : « فالرجل الحكيم
لا يأكل إلا في بيته ومن مائدته » (٥٨) . وهو يدرس التوراة في كل يوم حتى

يموت ، ويحذر ألا يخذله أحد بأنه المسيح ، ولكنه لن يفقد إيمانه بأن المسيح الحق سيأتي ويعيد إسرائيل إلى صهيون ، ويقود العالم كله إلى الدين الحق . وإلى الوفرة ، والأخوة ، والسلام : « نفى جميع الأمم أما اليهود فباقون إلى أبد الدهر » (٥٩) .

وغضب أبحار اليهود من مشنا التوراة ، فقاما كان في وسع أحد منهم أن يعفو عما يرى إليه من إحلال كتابه محل التلمود مع ما في هذا من جرأة ، وقد استاء كثيرون من اليهود مما عزي إلى ابن ميمون من القول بأن من يدرس الشريعة أعلى مقاماً ممن يعمل بها . ولكن الكتاب رغم هذا كله قد جعل صاحبه أعظم اليهود جميعاً في عصره ، فارتضاه جميع يهود الشرق مستشاراً لهم وبعثوا إليه بمسائلهم ومشاكلهم ، وخيل إلى الناس في جيل من الزمان أن الجاؤنية قد عادت إلى الوجود : ولكن ابن ميمون لم ينتظر حتى يستمتع بهذا الصيت ، بل شرع من فوره يؤلف كتابه التالي ، فبعد أن قنن الشريعة ووضحها لليهود المؤمنين ، وجه جهوده للعمل على أن يعيد إلى حظيرة الدين اليهودي من أغرتهم الفلسفة أو أغوتهم جماعات الملاحدة من اليهود القرائن في مصر ، وفلسطين ، وشمال أفريقيا ؛ وأصدر إلى العالم اليهودي بعد عشر سنين من الكلد أشهر كتبه كلها وهو : *دلالة الحارمين* (١١٩٠) ، وقد كتبه باللغة العربية بحروف عبرية ثم ترجم إلى اللغة العبرية وسمى : *مودة نبوهميم* ، ثم ترجم كذلك إلى اللاتينية وأثار عاصفة من أشد العواصف الذهنية في القرن الثالث عشر .

ويقول في مقدمة الكتاب إن غرضه الأول من وضعه أن يشرح بعض الألفاظ الواردة في الكتب المتنبئة ، أى في العهد القديم . ذلك أن كثيراً من ألفاظ الكتاب المقدس وفقراته ذات معان متعددة ، حرفية ، ومجازية ، ورمزية . فبما إذا أخذ بمعناه الحرفي كان عقبة كروداً في سبيل المخلصين لدينهم ،

ولكنهم إلى هذا يحرمون العقل أعظم مواهب الإنسان . أولئك ينبغى ألا يحبروا بين الدين بلا عقل أو العقل بلا دين . وإذا كان العقل قد غرسه الله في الإنسان ، فإنه لا يمكن أن يتعارض مع الوحي الإلهي ، فإذا ما حدث هذا التعارض فسبب هذا - في رأى ابن ميمون - أننا نأخذ بمعناها الحرفي بعض العبارات الموائمة للعقلية الخيالية التصويرية التي هي من خصائص السذج غير المتعلمين الذين وجه إليهم الكتاب المقدس . ولقد قال أبحارنا إن من المحال أن نصف خلق الإنسان وصفاً كاملاً ولقد وردت قصة هذا الخلق بعبارات مجازية حتى يستطيع فهمها غير المتعلمين كل بقدر ماله من مواهب ، وما عليه إدراكه من ضعف . أما المتعلمون فيفهمونه فهماً مختلفاً عن فهم هؤلاء^(١١) .

ثم ينتقل ابن ميمون من هذه النقطة الأولى إلى البحث في الذات الإلهية فيستنتج مما في الكون من شواهد التنظيم الحكيم أن عقلاً سامياً يسيطر على هذا الكون ، ولكنه يسخر من الرأى القائل إن الأشياء جميعها قد صنعت من أجل الإنسان^(١٢) ، فالأشياء لم توجد إلا لأن الله ، وهو مصدرها وحياتها ، موجود . : « ولو أمكننا أن نفترض أنه غير موجود لاستتبع هذا أن لا شيء غيره ممكن الوجود » . وإذا كان لابد بهذه الطريقة من وجود الله ، فإن وجوده متلازم مع جوهره : « الشيء الذي يحتوى في ذاته على ضرورة وجوده ، لا يمكن أن يكون لوجوده علة أيا كانت^(*) »^(١٣) . وإذا كان الله عاقلاً ، فلا بد أن يكون غير ذي جسم ، وعلى هذا فكل ما ورد في الكتاب المقدس من عبارات تشير إلى شيء من أعضاء الجسم أو أية صفة من صفاته يجب أن يفسر تفسيراً مجازياً . والحق ، كما يقول ابن ميمون (ولعله يحلو في قوله هذا حلوه المعتزلة) ، أننا لا نستطيع

(*) ولقد صاغ ابن سينا هذه القضايا المنطقية ، وأخذها عنه القديس توماس أكويناس ثم كيفها اسپينوزا حتى توأمت فكرة الميزول الداف الوجود .

معرفة شيء عن الله إلا أنه موجود ، بل إن الصفات غير الجسمية التي نصفه بها - كالعقل ، والقدرة على كل شيء ، والرحمة ، والحب ، والوحدة ، والإرادة - كلها من نوع الجنس فهي إذا وصف بها الله كان لها معنى غير معناها إذا ما وصف بها الإنسان . ولن نستطيع قط أن نعرف معناها بالضبط إذا وصف بها الله ، وليس في وسعنا أن نعرفه ، ولا ينبغي لنا أن نعزو إليه خواص أو صفات أو أن نثبت له شيئاً من أى نوع كان . فإذا قيل في الكتاب المقدس إن الله أو المَلَك « كلم » الأنبياء ، فليس لنا أن نتخيل لفظاً أو صوتاً ، والنبوة هي تنمية الخيلة إلى أقصى درجات النماء ، وهي فيض « الذات الإلهية » عن طريق الحلم أو النشوة الإبصارية ، فالذي يقصه الأنبياء لم يحدث في الواقع وإنما حدث في هذه الرؤيا أو الحلم ، وعياننا أن نفسره في معظم الأحوال تفسيراً مجازياً^(٦٤) » ولقد قال بعض حكمائنا في وضوح إن أيوب لم يكن له قط وجود ، وإنما خلقه الشعراء خلقاً . . . ليكشفوا بهذا عن أهم الحقائق^(٦٥) . وهذا الإلهام النبوي في مقدور أى إنسان إذا نمت مواهبه إلى أقصى حدود النماء ، ذلك بأن العقل البشري إلهام مستمر ، لا يختلف اختلافاً جوهرياً عن بصيرة الأنبياء الواضحة الساطعة .

وبعد فهل خلق الله العالم في زمان معين ، أو أن الكون ذا المادة والحركة ، كما يظنه أرسطو ، أزلي ؟ يقول ابن ميمون إن هذا ما يختار فيه العقل ؛ فليس في وسعنا أن نثبت أزلية العالم أو خلقه ؛ وإذن فلنستمسك بعقيدة آبائنا القائلة بنحاقه^(٦٦) ، ثم ينتقل من هذا إلى تفسير قصة الخلق الواردة في سفر التكوين تفسيراً مجازياً رمزياً : فأدم عنده هو الصورة الفعالة أو الروح ، وحواء هي المادة المنفعلة وهي مصدر كل شر ، والأفعى هي الخيال^(٦٧) . ولكن الشر ليس له وجود ذاتي موجب ، وإنما هو انتفاء الخير ؛ وترجع معظم مصائبنا إلى ما ترتكبه من أخطاء ؛ ومن الشرور ما ليس شراً إلا من وجهة نظر الإنسان أو وجهة النظر الضيقة ؛ وقد تكشف النظرة الكونية في كل شر ما هو خير للكل أو ما هو في

حاجة إليه^(٦٨) . وقد أباح الله للإنسان الإرادة الحرة التي تجعل منه إنساناً بحق ؛ وقد يختار الإنسان الشر أحياناً ؛ والله يعلم مقدماً بهذا الاختيار ، ولكن ليس هو الذى يقرره ويحتمه .

وهل الإنسان مخلد ؟ هنا يستخدم ابن ميمون كل ما وهب من قدرة للتعمية على قرائه ، فهو يتجنب هذا السؤال فى كتاب دلالة الحائرين ، ولا يشير إليه إلا بقوله « إن النفس التى تبقى بعد الموت ليست هى النفس التى تعيش فى الإنسان حين يولد »^(٦٩) . وهذه النفس أو العقل « المنفعل » وظيفة من وظائف الجسم تموت بموته ؛ أما الذى يبقى فهو « العقل المكتسب » أو « العقل الفعال » الذى وجد قبل الجسم ، وليس وظيفة من وظائفه على الإطلاق^(٧٠) . وهذه النظرة نظرة أرسطو وابن رشد تنكر كما يبدو الخلود الفردى . ولقد أنكر ابن ميمون فى سنا التوراة فكرة بعث الجسم ومغفر من تصوير المسلمين للجنة تصويراً جسمانياً أبيقورياً ، وقال إن تصويرها على هذا النحو فى الإسلام واليهودية ليس إلا تمثيلاً لها بما يناسب خيال جمهرة الناس وحاجاتهم^(٧١) . وأضاف فى دلائل الحائرين إلى قوله هذا أن : الموجودات غير الجسمية لا يمكن إحصاؤها إلا حين تكون قوى كائنة فى الجسم^(٧٢) (*) ؛ وينطوى قوله هذا ، كما يبدو ، على أن الروح غير المادية التى تبقى بعد فناء الجسم ليست بذات إدراك فردى . وقد أثارت هذه الإشارات المتشككة كثيراً من الاحتجاجات لأن يعب الأجسام كان قد أصبح من العقائد الأساسية فى الإسلام واليهودية . ولما كتب دلائل الحائرين بالحروف العربية أثار عقول العلماء فى العالم الإسلامى ؛ فقام عبد اللطيف ، وهو عالم من علماء المسلمين ، يسفه لأنه « يهدم أركان جميع الأديان بنفس الوسائل التى ينجل إلى الناس أنه يدعمها بها »^(٧٣) . وكان صلاح الدين وقتله منهمكا فى حرب حياة أو موت من الصليبيين ؛ وكان السلطان من المستمسكين طول حياته بأصول

(*) وقد استند أكويناس من هذا فكرته القائلة إن المادة هى « أصل الانفرادية » !

الدين ، وكان في هذا الوقت ، بوع خاص ، أكثر بغضاً للإلحاد منه في أى وقت آخر لأن الإلحاد في ذلك الوقت يهدد الروح المعنوية الإسلامية ، والمسلمون منهمكون في حرب مقدسة ، بأشد الأخطار . ولهذا أمر في عام ٦٩٩ بإعدام البه و ردى ، وهو صوفى زنديق ، ونشر ابن ميمون في الشهر نفسه مقالة في بعث الموتى عشر فيها مرة أخرى عن تشككه في عقيدة الخلود الجسمى ولكنه أعلن أنه يؤمن بها على أنها من قواعد الدين فحسب .

وسكنت هذه الزوبعة إلى حين ، وانصرف هو إلى عمله الطبى وإلى كتابة فتاوى دينية أو أخلاقية وصنت إياه من العالم اليهودى . ولما عرض عليه شمويل ابن يهوذا بن تبون ، وكان وقتئذ يترجم دولة الحاربي إلى اللغة العبرية ، أنه يرغب في ريارته حدره من أن يظن أنه سيحدثه في أى موضوع علمى ولو مدة ساعة واحدة بالليل أو بالنهار لأن عمله اليومى يجرى على النحو الآتى : ، فأنا أقيم في القسطنطينة أقيم السلطان في القاهرة على بعد مسيرة يومى سبت (*) (ميل واحد ونصف ميل) . وواجباتى نحو نائب السلطان جد ثقيلة ، فعلى أن أزوره في كل يوم في الصباح الباكر ، وإذا ما كان هو ، أو أحد أبنائه ، أو أى فرد فى داخل خريمه ، منحرف المزاج ، فلن أجرو على مغادرة القاهرة بل على أن أقيم معظم النهار فى القصر . . . ولا أعود إلى القسطنطينة إلى ما بعد الظهر . . . وأكون وقتئذ قد أوشكت أن أموت من الجوع . ولكنى أجد غرفة الاستقبال مزدحمة بالناس ، من رجال الدين ، وموظفى الدولة ، والأصدقاء ، والأعداء . . . فأنزل عن دابتي ، وأغسل يدى ، وأرجو مرضاى أن يصبروا على حتى أتناوله بعض المرطبات . . . وتلك هى الوجبة الوحيدة التى أتناولها كل أربع وعشرين ساعة . ثم أستقبل مرضاى . . . وأظل كذلك إلى أن يحل الليل ،

(*) منيرة السبت مسافة يبلغ مقدارها ألفى ذراع وعلى التى يصرح لليهودى أن يمسيها في يوم السبت وتبادل المسافة بين النهاية القصوى للمعسكر والتابوت (الآية الرابعة من الأضاح الثالث من سفر يشوع) . (المترجم) .

وقد أستمِر على ذلك في بعض الأحيان حتى تمضي من الليل ساعتان أو أكثر من ساعتين ، فأصِف لهم الدواء وأنا مستلق على ظهري من فرط التعب ، حتى إذا جن الليل تكون قواي قد سحارت حتى لا أستطيع الكلام . ولهذا لن يستطيع إسرائيل أن يجتمع بي على انفراد إلا في يوم السبت . ففي ذلك اليوم يقبل على جميع المصلين ، أو الكثرة الغالبة منهم على أقل تقدير ، بعد صلاة الصبح ، ليتلقوا على بعض العلم . . . ونظل ندرس معاً حتى الظهر ثم نفترق (٧٤) .

وقد أنهك هذا الجهد قواه قبل الأوان . وقد طلب إليه رتشرّد الأول ملك إنجلترا أن يكون طبيبه الخاص ، ولكن ابن ميمون لم يستطع تلبية طلبه . وأدرك وزير صلاح الدين ما حل به من الضعف فسمح له أن يعتزل منصبه ورتب له معاشاً ، ثم توفي عام ١٢٠٤ في التاسعة والستين من عمره ، ونقلت رفاته إلى فلسطين ولا يزال قبره قائماً في طبرية .

الفصل السادس

الحرب الميمونية

لقد أحسّ العالم الإسلامي والعالم المسيحي بتأثير ابن ميمون كما أحسّ به العالم اليهودي ، فقد أخذ الفلاسفة المسلمون يدرسون **دلائل الحائرين** بإشراف معلمين من اليهود ، وكانت تراجم لاتينية للكتاب تدرس في جامعتي منبلييه وبلدوا ، وكثيراً ما كان ألكسندر الهاليسي ووليم الأوفرني يقتبسان منه في جامعة باريس . واقتنى ألبرنس ماجنس أثر ابن ميمون في كثير من المسائل ، وكثيراً ما كان القديس تومس ينظر في آراء الخبر موسى ليفندها إن لم يكن لغرض آخر . وكان اسبنوزا ينتقد التفسير المجازي للكتاب المقدس الذي يقول به ابن ميمون ويصفه بأنه محاولة غير شريفة للمحافظة على منزلة الكتاب المقدس ، ولعله وهو يفعل هذا كان ينقصه الإدراك السليم للتاريخ ، ولكنه مع ذلك كان يصف الخبر العظيم بأنه « أول من جهر بأن الكتاب المقدس يجب أن يواءم بينه وبين العقل »^(٧٥) ، وقد أخذ عن ابن ميمون بعض آرائه عن النبوءات والمعجزات وصفات الله^(٧٦) .

أما في الدين اليهودي نفسه فقد كان تأثير ابن ميمون تأثيراً انقلابياً ، وقد واصل أبناؤه وحفدته عمله فكانوا مثله علماء ويهوداً : فقد خلفه ابنه أبراهام ابن موسى في منصب النجيد وطبيب البلاط عام ١٢٠٥ ، وخلفه أيضاً حفيده داود بن أبراهام ، وابن حفيده سليمان بن أبراهام في زعامة يهود مصر . واحتفظ هؤلاء الثلاثة كلهم بثقاليدهم في الفلسفة ، وأتى على الناس حين من

الدهر أصبح فيه تطبيق آراء أرسطو على الكتاب المقدس واستخدام المجاز والاستعارة في تفسيره استخداماً يبلغ حد الشعوذة ، ورفض ما جاء فيه من القصص والقول بأنها غير صحيحة من الوجهة التاريخية ، نقول أصبح هذا كله هو الطراز الحديث . فقبل مثلاً إن قصة إبراهيم وسارة ليست إلا خرافة تمثل المادة والصورة ، وإن قواعد الطقوس اليهودية ليس لها إلا غرض رمزي وحقيقة رمزية (٧٧) . وبدا أن صرح الدين اليهودي كله يوشك أن ينهار على رأس أبحار اليهود . وقاوم بعضهم هذه النزعة مقاومة عنيفة : قاومها شمويل الفلستيني ، وأبراهام بن داود البسكويري of Posquière ، ومير بن تادرس هليبي أبو العافية الطليطي ، ودون أستروك اللونلي Don Astruc of Lunell ، وسليمان بن أبراهام من يهود منبلييه ، وجناح بن أبراهام جبروندي الأسباني ، وكثيرون غيرهم . واحتج هؤلاء وأمثالهم على ما سموه « بيع الكتاب المقدس للإغريق » ، وشنوا الغارة على المحاولة التي تهدف إلى إحلال الفلسفة محل التلمود ، ونددوا بتشكك ابن ميمون في عقيدة الخلود ، ورفضوا فكرته عن الإله غير المعروف وقالوا إنها تجديد مجازي لا يحرك أية نفس نحو التقى والصلاح . وانضم أتباع القبلية الصوفية إلى المهاجرين وندسوا قبر ابن ميمون (٧٨) .

وفرقت الحرب الميمونية شمل الجماعات اليهودية في جنوبي فرنسا في الوقت الذي أخذت فيه المسيحية الصادقة تشن حرباً شعواء لا هوادة فيها على الزندقة الألبجنسية . وكما أن المسيحية الصادقة قد أخذت تدافع عن نفسها ضد العقلية ، بتحريم كتب أرسطو وابن رشد في الجامعات ، كذلك خطا الكوهن سليمان ابن أبراهام من يهود منبلييه خطوة لم تكن مألوفاً من قبل فصّب لعنته على كتب ابن ميمون الفلسفية وحرّم من الدين كل اليهود الذين يدرسون العلوم والآداب النجسة ،

أو يفسرون الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً — ولعله قد استبق بعمله هذا هجوم المسيحيين على الجماعات اليهودية بحجة أنها تحمى جماعة العقليين. ورد على هذا أنصار ابن ميمون بزعمه داود قحى ، ويعقوب بن خنير تبون بأن أقنعوا يهود لوندل ، وبزيير ونربوتة في بروفانس ، ويهود سرقسطة في أسبانيا بأن يحرّموا سليمان وأتباعه من الدين . فلما فعلوا هذا خطا سليمان خطوة أجراً من الأولى وأكثر منها إثارة إلى الدهشة : ذلك أنه وشى إلى محكمة التفتيش في منبلييه بكتب ابن ميمون وقال إن فيها آراء خارجة على الدين شديدة الخطر على المسيحية وعلى اليهودية معاً . ووافقه الرهبان على رأيه وأحرقت جميع الكتب الفلسفية التي أمكن الحصول عليها في احتفال عام في منبلييه عام ١٢٣٤ وفي باريس عام ١٢٤٢ ثم أحرقت التلمود نفسه في باريس بعد أربعين يوماً .

وأنارت هذه الحوادث حتى أنصار ابن ميمون ودفعتهم إلى أشد أعمال العنف ، فقبضوا على كبار المشايخين لسليمان في منبلييه ، واتهموهم بالوشاية بأبناء دينهم اليهود ، وحكموا عليهم بقطع ألسنتهم ، ويلوح أن سليمان نفسه قد قتل (٧٩) . وندم الكوهن جناح على اشتراكه في إحراق كتب ابن ميمون فقدم إلى منبلييه ، وكفر عن عمله هذا علناً في كنيسها ، وحجج ثائباً إلى قبر موسى بن ميمون ، ولكن الدون أستروك واصل الحرب باقتراحه أن يصدر الأحبار قراراً يحرم دراسة أى علم من العلوم النجسة . وأيده في هذا ابن نحمان وآشر بن يحيل ، حتى إذا كان عام ١٣٠٥ أصدر سليمان بن أبراهام بن أردوط ، الزعيم القوى المبجل ليهود برشلونه ، قراراً بحرمان كل يهودى يعلم أى علم من العلوم غير الدينية ما عدا الطب ، أو أية فلسفة غير يهودية ، أو يجرؤ على دراسة شيء منها قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره : وكان رد أحرار منبلييه أن حرّموا كل يهودى يمنع

ابنه من دراسة العلوم الطبيعية^(٨٠) . ولم يكن لكلا القرارين أثر في دائرة واسعة ، فقد ظل شبان اليهود في أماكن متفرقة يدرسون الفلسفة ، غير أن ما كان لأردوط وأشر في أسبانيا من نفوذ ، وازدياد الاضطهاد والخوف في جميع أنحاء أوروبا الخاضعة وقتئذ لحاكم التفتيش ، دفعا الجاليات اليهودية إلى ما كانت عليه من عزلة عقلية وعنصرية . وضعفت عندهم دراسة العلوم ، وأضحت العلوم الدينية الخالصة هي المسيطرة على المدارس العبرية ، وتوارت الروح اليهودية بعد أن انفصلت عن العقل وانتابها الفزع الديني والعداء الشامل ، توارت هذه الروح في الصوفية والتقوى الدينية .

الفصل السابع

القبلة

تكتنف بحار الصوفية جزائر العلم والفلسفة أينما كانت ؛ ذلك أن العلم يضيق الآمال ، ولا يستطيع أن يتحمل عباءة راضين إلا من أسعدهم الحظ . وقد بسط يهود العصور الوسطى على الحقيقة ، كما بسط عليها المسلمون والمسيحيون ، ستاراً من آلاف الخرافات ، وصوروا التاريخ تصويراً مسرحياً بما أدخلوه فيه من المعجزات ومن البشائر والنذر ، وملأوا الهواء بالملائكة والشياطين ، ومارسوا فنون السحر وتلاوة الرق والتمايم ، وأخافوا أنفسهم وأبناءهم بالحديث عن الساحرات والأغوال ، وأضاءوا ظلمة النوم وغوضه بما وضعوه من تفسير للأحلام ، وتبينوا في الكتابات القديمة أسراراً خفية باطنية .

والتصوف اليهودي قديم قدم اليهود أنفسهم ، تأثر بالأثينية الزرادشتية القائلة بالظلمة والنور ، وبالأفلاطونية الحديثة وباستبدالها الفيض الإلهي بعملية الخلق ، وما تقول به الفيثاغورية الحديثة من أن للأعداد قوى خفية وأسراراً ، وبالثيوصوفية الغنوسطية (مذهب الاتصال بالله أو الفناء بالذات والبقاء بالله) السائدة في سوريا ومصر ، والكتب المسيحية الأولى الدينية المشكوك في صحتها (الأپوكريفا) ، وبالشعراء والمتصوفة في الهند ومصر ، وبكنيسة العصور الوسطى المسيحية . لكن مصادرها الأساسية كانت كامنة في عقلية اليهود أنفسهم وتقاليدهم . ولقد انتشرت بين اليهود قبل مولد المسيح نفسه ، شروح سرية لقصة الخلق الواردة في سفر التكوين وفي الأصحاحين الأول والعاشر من سفر حزقيال ، وقد حرّمت المشنا شرح هذه الخفايا إلا لعالم منفرد موثوق به . وكان الخيال حرّاً طليقاً يتصور ما كان قبل خلق آدم ، وما سوف يكون بعد فناء

العالم . وكانت نظرية فيلون القائلة بأن الحكمة الإلهية هي أداة الله الخالقة .
للكون مثلاً سامياً لهذه الأفكار الفلسفية . وكان للإسنيين كتابات سرية ،
يحرصون على كتمانها عن سواهم ، وكانت الكتب العبرانية غير المعترف
بصحتها ككتاب الأعياد تنشر بين الناس أقوالاً خفية عن خلق العالم ،
وجعلت أسماء يهوه التي لا يصح النطق بها ذات قوى خفية ، وكانت حروفه
الأربعة - التترجرام - تهمس في الآذان على أن لها معنى خفياً ، وتأثيراً
معجزاً ، لا تنقل إلا العقلاء ذوي الأفهام الناضجة : وكان عقيباً يقول إن
أداة الله في خلق العالم هي التوراة أو أسفار موسى الخمسة ، وإن لكل كلمة
ولكل حرف من هذه الأسفار المقدسة معنى خفياً وقوة خفية : وكان بعض
الجوآنيم البابليين يعزون إلى الحروف العبرية وإلى أسماء الملائكة أمثال هذه
القوى الخفية ، فمن عرف هذه الأسماء استطاع أن يسيطر على جميع قوى
الطبيعة . وكان العلماء يعيثون بضروب السحر الأسود والأبيض - أي
القوى العجيبة التي يحصل عليها بعض الناس عن طريق اتصال الروح
بالملائكة أو الشياطين . وكان لا استحضر الأرواح ومعرفة الحظ بفتح
الكتاب المقدس ، والتعاويد ، والتمايم ، والرقى ، ومعرفة الغيب ،
والقرعة ، كان لهذه كلها شأنها في الحياة المسيحية : وقد شملت كتب
اليهود جميع عجائب التنجيم ، فكانت النجوم في هذه الكتب حروفاً هجائية
وكتابات في السماء خفية لا يستطيع قراءتها إلا المطلعون على أسرارها (٨١) :

وظهر في وقت ما في القرن الأول بعد الميلاد كتاب من هذه الكتب ذات
الأسرار الخفية في بابل يعرف باسم سيفر - أي كتاب الخلق . وكان الأتقياء
المتصوفة من اليهود ومنهم يهودا هليفي يقولون إن واضعه هو إبراهيم أو الله
نفسه . وما جاء فيه أن عملية الخلق قد تمت بواسطة عشرة سفروثات Sefiroth -
أعداد أو أصول هي : روح الله ، وفيوض ثلاثة منها : الهواء ، والماء ، والنار ،

وثلاثة أبعاد مكانية إلى اليسار ، وثلاثة أبعاد إلى اليمين . وهذه الأصول هي التي حددت محتويات العالم ، كما حددت الحروف الهجائية العبرية الثلاثة والعشرون الصور والأشكال التي يستطيع بها العقل البشرى فهم عملية الخلق . وتوالت على الكتاب شروح العلماء من أيام سعديا إلى القرن التاسع عشر .

ونقل أحد أخبار اليهود البابليين حوالي عام ٨٤٠ هذه العقائد الخفية إلى إيطاليا ، ثم انتقلت منها إلى ألمانيا ، وپروڤانس ، وأسبانيا . وأكبر الظن أن ابن جبرول قد تأثر بها في نظريته القائلة بوجود كائنات وسطى بين الله والعالم . واتخذ أبراهام بن داود « التقاليد السرية » وسيلة لإبعاد اليهود عن نزعة ابن ميمون العقلية . وأكبر الظن أن ابنه إسحق الضرير وتلميذه عزرائيل هما مؤلفا سفر هباير أو كتاب الضوء (١١٩٠ ؟) ، وهو شروح صوفية للأصحاح الأول من سفر التكوين . وقد استبدلا في هذا الكتاب فكرة خلق العالم عن طريق الفيض الرباني الواردة في سفر يصيرا بفكرة الضوء ، والحكمة ، والعقل . وعرض هذا التثليث للعقل الإلهي بوصفه ثالوثاً يهودياً^(٨٢) . وعرض العز من يهود ورمز (١١٧٦ — ١٢٣٨) ، وأبراهام بن شمويل أبو العافية (١٢٤٠ — ١٢٩١) هذه العقيدة السرية على أنها دراسة أعمق وأكثر نفعاً من التلمود . وقد استخدمها في وصف الصلة بين الله والنفس البشرية لغة الحب الشهواني والزواج التي كان يستخدمها المتصوفة المسلمون والألمان .

وقبل أن يستهل القرن الثالث عشر كانت كلمة قبلة قد عم استعمالها لوصف العقيدة السرية في جميع مظاهرها ونتائجها . وفي عام ١٢٩٥ نشر موسى بن شمويل عن علماء ليون الكتاب الثالث من الكتب القبلية الهامة المسمى سفر زوهر أو كتاب الجهر وعزا تأليفه إلى شمعون بن يوحاى أحد علماء القرن الثاني ، فقال إن الملائكة قد ألهمت شمعون والسفروت العشرة أن يكشفوا لقرائه المستقرين الأسرار التي كانت من قبل محتفظاً بها إلى أيام المسيح المنتظر .

وقد جمعت في الزوهر كل عناصر القبلة : فكرة الإله الشامل لكل شيء الذي لا يعرف إلا عن طريق الحب ، والحروف الأربعة المكونة لاسم يهوه - التراجوماتون - ، والأوساط الخالقة ، والفيوض الربانية ، والاستعارات الأفلاطونية الخاصة بالعالم الكبير والعالم الصغير ، وتاريخ ظهور المسيح بوكيفية ظهوره ، وأزلية الروح وتنقلها ، والمعاني الصوفية للطقوس الدينية ، والأعداد ، والحروف ، والنقط ، والشرط ، واستعمال الكتابات الجهرية ، والحروف الأولى من العبارات التي إذا جمعت كوت اسماً خاصاً ، وقراءة للكلمات عكساً لا طرداً ، والتفسير الرمزي لنصوص الكتاب المقدس ، والقول بأن تحمل المرأة خطيئة وإن كان فيه تجسيد لسر عملية الخلق . وقد شوه موسى الليونى عمله حين جعل شمعون بن يوحنا يشير إلى خسوف حدث في رومة عام ١٢٦٤ ويقول بعدة آراء لم تكن ، كما يلوح ، معروفة قبل للقرن الثالث عشر ، وقد خدع بذلك كثيرين من الناس ، ولكنه لم يخدع زوجته ، وقد اعترفت أن زوجها موسى كان يرى في شمعون خدعة مالية بارعة^(٨٣) . وأدى نجاح هذا الكتاب إلى ظهور عدة كتب أخرى مضللة ، وجازى بعض القبلين المتأخرين موسى بمثل أعماله فنشروا آراءهم هم معزوة إليه .

وكان للقبلة أثر شامل واسع المدى ، وظل الزوهر وقتاً ما كتاباً يدرسه اليهود كدراساتهم للتلمود ، بل إن بعض القبلين قد هاجموا التلمود ووصفوه بأنه كتاب بالقديم ، مفرط في التقطيع المنطقي ، وتأثر بعض علماء التلمود ، ومنهم ابن نحمان العالم التحرير تأثراً شديداً بالمدرسة القبلية . وانتشر الاعتقاد بصدق القبلة ، وبأنها وحى من عند الله انتشاراً واسعاً بين يهود أوروبا^(٨٤) . وبقدر هذا الانتشار كان أثرها السيئ في مؤلفاتهم العلمية والفلسفية ، وانقضى عصر ابن ميمون الذهبي في صنف الزوهر الوضاء . وتعدى أثر القبلة اليهود إلى المسيحيين فافتن

بها بعض مفكرهم ، فأخذ عنها ريمند للى Raymond Lully (١٢٣٥ ؟ — ١٣١٥) أسرار الأعداد والحروف في كتابه Ars Magna وحسب بيكو دلا ميرندولا Pico della Mirandola (١٤٦٣ — ١٤٩٤) أنه قد وجد في القبلية أدلة قاطعة على ألوهية المسيح^(٨٥) ، واغتنى براسلس Pracelsus ، وكورنليوس Cornelius ، وأجريبا Agrippa ، وروبرت فلد Robert Fludd وهنري مور Henry More وغيرهم من المتصوفة المسيحيين ببحوثها ، وأقر^١ يوهانس روشلين Johonnes Reuchlin (١٤٥٥ — ١٥٢٢) بأنه قد سرق من القبلية بحوثه الدينية ، ولعل بعض الآراء القبلية قد سرت إلى يعقوب بوهم Jakob Böhme (١٥٧٥ — ١٦٢٤) . وإذا كانت نسبة اليهود الذين وجدوا السلوى في الإلهامات الصوفية إلى مجموعهم أكبر من هذه النسبة عند المسلمين أو المسيحيين ، فما ذلك إلا لأن الدنيا قد كثرت عن نابها لليهود ، وأرغمتهم في سبيل الحياة إلى أن يخفوا الحقائق وراء ستار من نسيج الخيال والرغبة ، والباسون السينو الحظ هم وحدهم الذين لا بد لهم أن يعتقدوا أن الله قلب اصطفاهم لنفسه .

الفصل الثامن

العَتَق

لقد وجد يهود العصور الوسطى فى عزلة جماعاتهم ، وفيما تسبغه عليهم شعائريهم وعقائدهم من سلوى ، ملجأ لهم من تمجيد الصوفية ، وزوال خداع عقيدة المسيح المنقلد المنتظر ، ومما كان يفتأ بهم من الاضطهاد حيناً بعد حين ، ومن ملل الحياة الاقتصادية الرتيبة . فكانوا يحتفلون بمظاهر التقى بالأعياد التى تذكرهم بتاريخهم ، وخطوبهم ، ومجدهم التليد ، وعدلوا فى صبر وأناة احتفالاتهم التى كانت من قبل تقسم السنة الزراعية لتوائم حياتهم الحضرية . فكان القراءون المنقرضون يحتفلون بالنسب فى البرد والظلمة حتى لا يخالفوا الشريعة بإيقاد النار أو إضاءة السراج ، ولكن معظم اليهود كانوا يستقدمون أصدقاءهم من المسيحيين أو زائرين ليقفوا لهم النار متقدة والمصابيح مضيئة ، وكان أحبارهم يفضون النظر عن هذه المخالفة ، وكانوا يغتنمون كل فرصة لإقامة المآدب يظهر فيها سخاءهم وأبهةم : فكانت الأسرة تقيم وليمة يوم ختان ابن لها أو بلوغه سن الرشد ، وفى خطبة ابن أو بنت أو زواجهما ، أو زبارة عالم أو صديق مشهور أو حلول عيد ديني . وأصدر رجال الدين أوامر بتحديد نفقات هذه الحفلات فنها من يقيمونها عن أن يدعوا إليها أكثر من عشرين رجلاً ، وعشر نساء ، وخمس بنات ، وجميع أقارب الداعى حتى الطبقة الثالثة . وكانت حفلات الزواج تدوم أحياناً أسبوعاً كاملاً ، لا يسمعون أن يقطعها يوم السبت نفسه . وكان العروسان يتوجان بالورد ، والريحان ، وأغصان الزيتون ، وينثر فى طريقهما النفل والقمح ، وتثر فوفهما حبوب الشعير رمزاً للإخصاب ، وكانت الأغاني والنكات تصاحب كل مرحلة من

مراحل هذا الحادث ، وفي أواخر العصور الوسطى كان مهرج ممتن . يستأجر ليتم للحاضرين سرورهم . وكانت نكات هذا المهرج في بعض الأحيان صادقة إلى حد القسوة . ولكنه يكاد على الدوام أن يعمل بقول هزل الظريف : « إن كل زوجة جميلة » (٨٦)

وبهذه الطريقة كان الجيل المنقضى يحتفل بانقضائه وحلول جيل آخر مكانه ، ويتنهد بمولد أبناء أبنائه ، ويستكن إلى الشيخوخة المتعبة الرحيمة . ونحن نشاهد وجوه أولئك اليهود الشيوخ في صور ريمبرانت Rembrandt : نشاهد ملامحهم الناطقة بتاريخ الشعب والفرد ، ولحاهم تنفث الحكمة ، وعيونهم قد انطبعت فيها الذكريات الحزينة ، ولكنها قد رققها الحب الحنون : وليس في صفات المسلمين والمسيحيين الخلقية ما يفوق الحب المتبادل بين الشباب والشيب عند اليهود ، الحب الذي يتغاضى عن جميع الزلات ، وهداية العقول المحجرة للعقول غير الناضجة ، والكرامة التي تحمل من عاشوا حياتهم كاملة على أن يرفضوا الموت ويروه النهاية الطبيعية للحياة .

واليهودى إذا مات لا يترك لأبنائه متاع الدنيا فحسب ، بل يترك لهم فوق ذلك نصائحه الروحية : « كن أول من يذهب إلى الكنيس » ، ونهاهى ذى وصية العز (١٣٣٧) من أهل مینز يقول : « لا تتكلم في أثناء الصلاة ، وردد الاستجابات ، واعمل الخير بعد الصلاة » .

وهاهى ذى آخر وصايا اليهودى :

غسلونى ، ومشطوا شعرى ، ودرموا أظافرى ، كما كنت أفعل في حياتى ، كى أسير طاهراً إلى مقرى الأبدى كما كنت أسير إلى الكنيس . كل سبت . وضعونى فى الثرى على يد أبى اليمنى ، فإذا ضاق المكان قليلاً فإنى واثق من أنه يحببنى حبا يجعله يفسح لى مكاناً بجانبه (٨٧) .

فإذا ما لفظ الشخص نفسه الأخير أقفل الابن الأكبر للميت أو أكبر أبنائه

أو أقربائه مقاماً فاه وأنغمض عينه ، ثم تغسل جثته وتضمخ بالأدهان العطرة ، وتلف في قماش التيل النقي النظيف . ويكاد كل يهودى أن يكون عضواً في جمعية للدفن ، تأخذ الجثة ، وتعنى بها ، وتقوم بأخر الشعائر الدينية ، وتنصحبها إلى قبرها . وكان حملة بساط الرحمة يسرون في الجنازة حفاة ، وتسير النساء أمام النعش ، ينشدن نشيداً حزيناً ، ويدققن طبلة . وكان ينتظر من كل غريب تمر به الجنازة أن ينضم إليها ويسير فيها إلى المقبرة . وكان تاهوت الميت يوضع عادة بالقرب من توايت الموتى من أقاربه ، حتى لقد كان معنى الدفن عندهم هو « الرقود مع الآباء » و « الاجتماع بالأهل » . ولم يكن المشيعون يستولى عليهم اليأس ، فقد كانوا يقولون إنه وإن مات الأفراد فإن بنى إسرائيل لن يموتوا .

الكتاب الرابع

العصور المظلمة

٥٦٦ — ١٠٩٥

الحوادث التاريخية في الكتاب الرابع

- ٤٨٦ - ٧٥١ : الأسرة المروثنجية في غالة .
 ٤٩٠ - ٥٤٣ : القديس بندكت .
 ٥٢٠ - ٥٦٠ : نشأة المجمع العلمية الأيرلندية .
 ٥٢١ - ٥٩٨ : القديس كولمبا .
 ٥٤٣ - ٦١٥ : القديس كولمبان .
 ٥٦٨ - ٧٧٤ : ملكة المبارد في إيطاليا .
 ٥٦٨ وما بعدها : تأسيس مدينة البندقية .
 ٥٨٢ - ٦٠٢ : موريق إمبراطوراً على الدولة الرومانية الشرقية .
 ٥٩٠ - ٦٠٤ : البابا جريجوري الأول العظيم .
 ٥٩٠ - ٦١٦ : إثلبرت ملك كنت .
 ٥٩٧ : أوغسطين ينشر المسيحية في إنجلترا .
 ٦٠٠ - ١١٠٠ : الترنيمية الجريجورية .
 ٦٠٢ - ٦١٠ : اعتصاب فوقاس .
 ٦١٠ - ٦٤١ : هرقل يجلس على عرش الدولة الشرقية .
 ٦٢٥ - ٦٩٠ : بولس الإبيسكي ، الطيب .
 ٦٢٩ - ٦٣٨ : وجوبرت ملك الفرنجة .
 ٦٤٠ : الصقالبة يدخلون بلاد البلقان .
 جوالى ٦٥٠ : بيولف ؛ كيدمون ، الشاعر .
 ٦٥١ : تأسيس أولتل ديه (فندق الله) في باريس .
 ٦٧٣ - ٧٣٥ : بيد الموقر ، المؤرخ .
 ٦٨٠ - ٧٥٤ : بنيفاس ، رسول إل ألمانيا .
 ٦٨٧ - ٧١٤ : بين الأصغر يحكم الفرنجة .
 ٦٩٧ : الدوج الأول في البندقية .
 ٧١٣ - ٧١٦ : أناستيوس الثاني إمبراطور الدولة الشرقية .
 ٧١٧ - ٧٤١ : ليو الثالث الإسورى ، إمبراطور الشرق .
 ٧٢٦ وما بعدها : حركة محطى الصور في بيزنطية .
 ٧٣٥ : مدرسة يورك .
 ٧٣٥ - ٨٠٤ : الكوين ، المربي .
 ٧٥١ - ٧٦٨ : بين القصير يحكم الفرنجة .
 ٧٥١ - ٩٨٧ : أسرة كروننجه من الملوك الفرنجة .
 ٧٥٦ : هبة بين تدهت قوة البابوات الزمنية .
 ٧٦٨ - ٨١٤ : شارلمان ملك الفرنجة .

- ٧٧٢ - ٨٠٤ : حروب شارلمان ضد السكسون .
 ٧٧٤ : شارلمان يقسم تاج لمباردية .
 ٧٧٤ - ١٢٠٠ : الطراز المجرى الرومانى .
 ٧٧٦ - ٨٥٦ : رابانوس موروس ، المربي .
 ٧٧٨ : شارلمان فى أسبانيا ؛ رولان فى ونشغال .
 ٧٨٠ - ٧٩٠ : إيريقى وصية على العرش فى القسطنطينية .
 ٧٨٧ : الدنمركيون يبدؤون غاراتهم على إنجلترا .
 ٧٩٥ : الدنمركيون يبدؤون غاراتهم على أيرلندا .
 ٧٩٧ - ٨٠٢ : لميريقى « إمبراطور » الشرق .
 ٨٠٠ : البابا ليو الثالث يتوج شارلمان إمبراطوراً على الدولة الرومانية .
 ٨٠٢ : بلغاريا تحت حكم خان كروم .
 ٨١٣ - ٨٢٠ : ليو الخامس إمبراطور الشرق الأرمنى .
 ٨١٤ - ٨٤٠ : لويس الأول ملك الفرنجة التتقى .
 ٨١٥ - ٨٧٧ : جون اسكوتس أرجينا ، الفيلسوف .
 حوالى ٨٢٠ : الفريجيون يدخلون روسيا .
 ٨٢٩ : إيجبرت يؤسس الحكومة السباعية الإنجليزية السكونية ويصبح ملكاً على إنجلترا .
 ٨٢٩ - ٨٤٢ : ثيوفيلوس الأول إمبراطور الشرق .
 ٨٤١ - ٩٢٤ : غارات الشماليين على فرنسا .
 ٨٤٣ : تجزئة فردون ؛ لدفيج يصبح أول ملوك ألمانيا .
 ٨٤٥ - ٨٨٢ : هنكار أسقف ريمس .
 ٨٤٨ وما بعدها : مدرسة سلرنو الطبية .
 حوالى ٨٥٠ : كتاب « كل ؛ ليو السالونيكى ، العالم الرياضى .
 ٨٥٢ - ٨٨٨ : يوديس الخان والقديس البلغارى .
 ٨٥٧ - ٨٩١ : فوتيوس بطريرك القسطنطينية .
 ٨٥٨ - ٨٦٧ : البابا فقولاس الأول .
 ٨٥٩ : روريك أمير روسيا العظيم .
 ٨٦٠ - ٩٣٣ : هرلد هارفاجر أول ملوك النرويج .
 ٨٦٢ : الفنجاريون فى نوفجروود .
 ٨٦٣ : بعثة سيريل ومثودىوس إلى المورافيين .
 ٨٦٧ - ٨٨٦ : باسيل الأول يؤسس أسرة مقدونية .
 ٨٧١ - ٩٠١ : ألفرد الأكبر .
 ٨٧٢ : الشماليون يستعمرون أيسلندا .
 ٨٧٥ - ٨٧٧ : شارل الأصلى ، إمبراطور الغرب .
 ٨٨٦ : الشماليون يحاصرون باريس .
 ٨٨٦ - ٩١٢ : ليو السادس الحكيم ، إمبراطور الغرب .

- ٨٨٧ وما بعدها : السجل الإنجليزى - السكسونى
 ٨٨٨ : أدو ملك فرنسا .
 ٨٩٣ - ٩٢٧ : سميون إمبراطور البلغار .
 ٨٩٩ - ٩٤٣ : المجر يمشون فى أوروبا فساداً .
 ٩٠٥ : ساذكو الأول يؤسس ملكة نبرة .
 ٩١٠ : تأسيس دير كلوف .
 ٩١١ : كنراد الأول ملك ألمانيا ، رولو دوق تورمندا .
 ٩١٢ - ٩٥٠ : قنسطنتين السابع يورفيرو جنتيوس .
 حوالى ٩١٧ : الديوان اليونانى .
 ٩١٩ - ٩٣٦ : هنرى الأول الصياد ملك ألمانيا .
 ٩٣٥ - ٩٨٨ : القديس دنستان .
 ٩٢٨ - ٩٣٥ : فنسلاس الأول ملك بوهيميا .
 ٩٣٠ : تأسيس الألفنج الأيسلندى .
 ٩٣٤ - ٩٦٠ : هاكون الصالح ملك النرويج .
 ٩٣٦ - ٩٧٣ : أثنو الأول ملك ألمانيا .
 ٩٥٠ : أوج الحضارة الأيرلندية فى المصور الوسطى .
 ٩٥٥ : أثنو يهزم المجر على وادى لك .
 ٩٦١ : دير القديس لافرا على جبل أنوس .
 ٩٦٢ : أثنو الأول إمبراطوراً على الغرب .
 ٩٦٣ : أثنو يخلع البابا يوحنا الثامن عشر .
 ٩٦٣ - ٩٦٩ : نففور فوتاس إمبراطور الشرق .
 ٩٦٥ - ٩٩٥ : هاكون « الإيرل العظيم » ملك النرويج .
 ٩٦٨ : هرسيوزا ، المؤلف المسرحى .
 ٩٧٣ - ٩٨٣ : أثنو الثانى إمبراطور ألمانيا .
 ٩٧٥ - ١٠٣٥ : ساذكو العظيم ملك نبرة .
 ٩٧٦ : معجم سريداس .
 ٩٧٦ - ١٠١٤ : بريان يورمها ملك منستر .
 ٩٧٦ - ١٠٢٦ : باسيل الثانى إمبراطور الشرق .
 ٩٧٦ - ١٠٧١ : كنيسة القديس مرقس فى الليندية .
 ٩٨٠ - ١٠١٥ : فلاديمير الأول ملك كييف .
 ٩٨٣ - ١٠٠٢ : أثنو الثالث إمبراطور ألمانيا .
 ٩٨٧ - ٩٩٦ : هيوكايت يؤسس الأسرة الكاپيتية من ملوك فرنسا .
 ٩٨٩ : الروسيا تعتنق المسيحية .
 ٩٩٢ - ١٠٢٥ : بولسلاف الأول أول ملوك بولندة .
 ٩٩٤ وما بعدها : الإصلاح الكلوفى للأديرة .

- ٩٩٧ - ١٠٣٨ : القديس أسقف ملك المجر .
 ٩٩٩ - ١٠٠٣ : البابا سلفستر الثاني (جروبرت) .
 ١٠٠٠ : ليف إركسون في « فنلندة » .
 ١٠٠٢ - ١٠٢٤ : هنري الثاني إمبراطور ألمانيا .
 ١٠٠٧ - ١٠٢٨ : فلبرت أسقف شارتر .
 ١٠٠٩ - ١٢٠٠ : الطراز الرومانسي الألماني .
 ١٠١٣ : سوين الذميرقي يفتح إنجلترا .
 ١٠١٤ : بريان بورمها يهزم الشماليين في كلنتارف .
 ١٠١٥ - ١٠٣٠ : القديس أولاف ملك النرويج .
 ١٠١٦ - ١٠٣٥ : كنوت ملك إنجلترا .
 ١٠١٨ - ١٠٨٠ : ميخائيل بسلوس ، المؤرخ .
 ١٠٢٢ - ١٠٨٧ : قسطنطين الأفريقي ، المترجم .
 ١٠٢٤ - ١٠٣٩ : كنراد الثاني إمبراطور ألمانيا .
 ١٠٢٨ - ١٠٥٠ : زوني وثيودورا يحكمان الدولة الشرقية .
 ١٠٣٣ - ١١٠٩ : القديس أنسلم .
 ١٠٣٤ - ١٠٤٠ : دثكان الأول ملك اسكتلندة .
 ١٠٣٥ - ١٠٤٧ : مجنوس الصالح ملك النرويج .
 ١٠٣٩ - ١٠٥٦ : هنري الثالث إمبراطور ألمانيا .
 ١٠٤٠ - ١٠٥٢ : ماكبت المفتصب ملك اسكتلندة .
 ١٠٤٠ - ١٠٩٩ : رندريجو ديار الديله .
 ١٠٤٣ - ١٠٦٦ : إدورد المعترف ملك إنجلترا .
 ١٠٤٦ - ١٠٧١ : كنيسة القديس أمبروز في ميلان .
 ١٠٤٨ وما بعدها : دير جومبيج .
 ١٠٤٩ - ١٠٥٤ : البابا ليون التاسع .
 ١٠٥٢ : وفاة إيرل جدون ، السيامي .
 ١٠٥٤ : انفصال الكنيسة اليونانية عن الكنيسة الرومانية .
 ١٠٥٥ - ١٠٥٦ : ثيودورا إمبراطورة على الشرق .
 ١٠٥٦ - ١١٠٦ : هنري الرابع إمبراطور ألمانيا .
 ١٠٥٧ - ١٠٥٩ : إسحق كمينيوس إمبراطور الشرق .
 ١٠٥٧ - ١٠٧٢ : بطرس دميان أسقف أستيا .
 ١٠٥٨ : ملكم الثالث ملك اسكتلندة يخلع مكبت .
 ١٠٥٩ - ١٠٦١ : البابا نقولاس الثاني ، تأسيس مجمع الكرادلة .
 ١٠٦٠ : ربرت جوسكارده دوق أپوليا .
 ١٠٦١ - ١٠٩١ : فتح النورمان لصقلية .

- ١٠٦٣ : الأمير هارولد يفتح ويلز .
١٠٦٣ وما بعدها : كنيسة بيذا الكبرى .
١٠٦٦ : هارولد ملك إنجلترا ؛ واقعة هاستنغس ، فتح النورمان لإنجلترا .
١٠٧٣ - ١٠٨٥ : البابا جريجوري السابع هلدبراند ،
١٠٧٥ : المرسوم المناهض لتولية غير رجال الدين ، حرمان هنري الرابع .
١٠٧٧ : هنري الرابع في كنوسا .
١٠٨٦ - ١١١٨ : ألكسيوس الأول إمبراطور الشرق .
١٠٨٥ : تهب دهرت جوسكارد لرومة ،

الباب الثامن عشر

العالم البيزنطى

١٠٩٥ — ٥٦٥

الفضل الأول

هرقل

إذا حولنا الآن نظرتنا من الجانب الشرقى للنزاع الدائم بين الشرق والغرب ، شعرنا من فورنا بالعطف على دولة عظيمة تنتابها محنتان فى وقت واحد : تمزقها الانقسامات فى الداخل ، وبهاجمها الأعداء من جميع الجهات فى الخارج . فقد كان الآقار والصقالبة يعبرون نهر الدانوب ويستولون على أراضي الإمبراطورية وبلدانها ؛ وكان الفرنس يستعدون لاجتياح آسية الغربية ؛ وخسر القوط الغربيون أسبانيا ، واستولى اللمبارد بعد ثلاث سنين من موت جستنيان على نصف إيطاليا (٥٦٨) . وفشا الطاعون فى جميع أنحاء الإمبراطورية فى عام ٥٤٢ وعاد إليها مرة أخرى فى عام ٥٦٦ ؛ وعمتها المجاعة فى عام ٥٦٩ ؛ وعطلت الحروب ، والهمجية ، والفقر ، وسائل الاتصال ، ووقفت فى سبيل التجارة ، وقضت على الآداب والفنون .

وكان خلفاء جستنيان أباطرة أولى قوة وكفاية ، ولكن المشاكل التى واجهتهم لم يكن فى وسع أحد أن يتغلب عليها إلا رجال من طراز نابليون يتلو بعضهم

بعضاً مدى قرن كامل دون انقطاع . وقاتل جيتين الثاني (٥٦٥ — ٥٧٨) ،
الفرس الساعين إلى التوسع قتال الأبطال ، ولم تكد الآلة تضمن على
تيبيريوس الثاني بكل ما لديها من الفضائل ، ولكنها اختصرته بعد حكم
عادل قصير . وهاجم موريق الآفار الغزاة بشجاعة ومهارة ، ولكنه لم يلق
من الأمة إلا قليلاً من التأييد ، فقد كان آلاف من أبنائها يدخلون الأديرة .
فراراً من الخدمة العسكرية ، ولما أن نهى موريق الأديرة عن قبول أعضاء
جدد فيها إلا بعد زوال الخطر عن الدولة نادى الرهبان بسقوطه . وتزعج
فوقاس الذى عمر مائة عام ثورة قام بها الجيش والعامّة على الأشراف .
والحكومة (٦٠٢) ، وذبح أبناء موريق الخمسة أمام عينيه ، وأبى
الإمبراطور الشيخ على مربية أصغر أبنائه أن تنجيه من القتل بأن تستبدل
ابنها هى به ، فلما قطع رأسه علقت الرؤوس الستة لتتمتع بها عين الشعب ،
وألقيت جثثهم فى البحر . وذبحت الإمبراطورة قسطنطينة ، وبناتها
الثلاث ، وكثير من الأشراف ، وكان مقتلهم مصحوباً فى العادة بضروب
من التعذيب ، بعد محاكمة أو بغير محاكمة ، فسملت أعينهم ، واقتلعت
السننم من أفواههم ، وبترت أطرافهم ، وارتكبت الفظائع التى تكررت
فيما بعد أثناء الثورة الفرنسية .

وأفاد كسرى الثانى من هذا الاضطراب ، وجدد الحرب القديمة حرب .
الفرس واليونان ، وعقد فوقاس الصلح مع العرب ، ونقل الجيش البيزنطى كله
إلى آسيا ، ولكن الفرس هزموه فى كل واقعة التقوا به فيها ، واستولى الآفار
على جميع الأراضى الزراعية خلف القسطنطينية إلا قليلاً منها ، دون أن
يلقوا مقاومة ، واستغاث أشراف العاصمة بهرقل إمبراطور أفريقية اليونانى ،
ودعوه لينقل الإمبراطورية وينجى أملاكهم . لكنه اعتلج محتجاً بكبر سنه .
وأرسل إليهم ابنه . وجهاز هرقل الأصغر عمارة بحرية ، جاء بها إلى البسفور .

وخلع فوقاس ، و عرض جثة المنتصب المبتورة الأطراف أمام الشعب ،
ونودى به إمبراطوراً (٦١٠) . .

وكان هرقل خليفاً باسمه ولقبه ، فقد شرع يعزيمه سميّه هرقل الأسطوري
بعيد تنظيم الدولة المخططة ، وقضى عشر سنين يعمل لإحياء روح الشعب
المعنوية ، ويعيد قوة الجيش ، وينظم موارد الخزانة ، ووهب الأرض
للزراع على شريطة أن يؤدي أكبر أبناء الأسرة الخدمة العسكرية . وفي
هذه الأثناء استولى الفرس على أورشليم (٦١٤) ، وتقدموا إلى خلقدون
(٦١٥) ، ولم ينقذ عاصمة الدولة وأوروبا إلا الأسطول البيزنطى . ولم يمض
بعد ذلك إلا قليل حتى زحفت جحافل الآفار على القرن الذهبى ، وأغاروا
على أرباض العاصمة ، وقبضوا على آلاف من اليونان واتخذوهم أرقاء .
وكانت نتيجة خسارة الأراضي الحصبة الواقعة خلف القسطنطينية مضافة إلى
خسارة مصر أن انقطعت واردات الحبوب عن المدينة ، وأرغمت الحكومة
على قطع إعانات الغذاء عن الأهلىن (٦١٨) ، وفكر هرقل فى يأس أن
ينقل جيشه إلى قرطاجنة ، وأن يحاول منه الاسترجاع مصر . ولكن الأهلىن
والقساوسة منعه من المسير ، ورضى البطريق سرجيوس أن يقرضه ثروة
الكنيسة اليونانية بفائدة ، ليمول بها حرباً مقدسة يستعيد بها أورشليم (٣) .
ولهذا تصالح هرقل مع الآفار ثم زحف آخر الأمر لقتال الفرس .

وكانت الحروب التى أعقبت هذا الزحف آيات فى التفكير والتنفيذ . فقد
واصل هرقل الحرب على أعدائه ست سنوات ، هزم فيها كسرى عدة مرار ،
وحاصر فى أثناء غيابه جيش من الفرس ، وجحافل من الآفار ، والباغار والصبقالبة
مدينة القسطنطينية (٦٢٦) ، فسير هرقل جيشاً هزم الفرس فى خلقدون ،
ومزقت حامية العاصمة وعامتها بتحريض البطريق جحافل البرابرة . ودق هرقل
أبواب طيسفون ، وسقط كسرى الثانى ، وطلبت فارس الصلح ، وردت

كل ما كان كبرى قد استولى عليه من الإمبراطورية اليونانية ، وعاد هرقل ظافراً إلى القسطنطينية بعد أن غاب عنها سبع سنين .

ولم يكن هرقل خليفاً بمصيره الذى جعله العار فى سن الشيخوخة . فبينما هو يبدل ما بقى لديه من نشاط فى إصلاح شئون الإدارة بعد أن هزم المرض قواه إذ انقضت قبائل العرب على بلاد الشام (٦٣٤) ، وهزمت جيشاً يونانياً منهوك القوى ، واستولت على بيت المقدس (٦٣٨) ، ثم استولت على مصر بينما كان الإمبراطور يعانى سكرات الموت (٦٤١) . وكانت فارس وبزنطية قد جرت كلتاها الحراب على الأخرى بحروبها العوان . وواصل العرب انتصاراتهم فى أيام قنسطانس Constans الثانى (٦٤٢ - ٦٦٨) ، وظن قنسطانس أن لا نجاة للإمبراطورية ، فقصى آخر سنى حياته فى الغرب ثم قتل فى سرقوسة . وكان ابنه قسطنطين الرابع يجنونوتس Pognonotus أقدر منه أو أسعد حظاً . ولما أن حاول المسلمون مرة أخرى فى خلال السنين الخمس الحاسمة (٦٧٣ - ٦٧٨) أن يستولوا على القسطنطينية أنقذت أوروبا « النار الإغريقية » التى ورد ذكرها وقتل لأول مرة . وكان هذا السلاح الجديد ، الذى يعزى اختراعه إلى كلسنيوس Calcinus السورى من نوع قاذفات اللهب المستخدمة فى هذه الأيام ، فهو مزيج حارق من النفط ، والجير الحى ، والكبريت ، والزفت ، يلقى على سفن العدو أو جيوشه فى سهام ملتهبة ، أو يصب عليها من أنابيب ، أو يقلف فى صورة كرات من الحديد مغطاة بالكثبان ونسالات المغموسة فى الزيت ، أو يوضع فى قوارب صغيرة وتشعل وتوجه إلى العدو . وأفلحت الحكومة البيزنطية فى الاحتفاظ بسر هذا المزيج مدى قرنين من الزمان ، وكان إفشاؤه يعد خيانة للوطن وإثمًا دينياً ، غير أن المسلمين كشفوا آخر الأمر هذا السر ، واستخدموا « النار الإسلامية » فى حرب الصليبيين . وظل هذا السلاح أكثر ما يتحدث عنه الناس فى العصور الوسطى فى العالم كله إلى أن اخترع البارود .

وهاجم المسلمون العاصمة اليونانية مرة أخرى في عام ٧١٧ ، فعبر جيش من العرب والفرس عدته ثمانون ألف مقاتل بقيادة مسلمة مضيق البسفور عند أبيدوس وحاصر القسطنطينية من خلفها . ثم جهز العرب في الوقت نفسه عمارة بحرية مؤلفة من ألف وثمانمائة سفينة ، كانت على ما نظن من السفن الصغيرة ، ودخلت هذه العمارة البحرية البسفور ، وكانت تظلل المضيق ، على حد قول أحد الإخباريين ، كأنها غابة متحركة . وكان من حسن حظ اليونان وقتئذ أن يجلس على عرش الإمبراطورية في هذه الأزمة ، بدل ثيودوسيوس Theodosius الثالث الضعيف العاجز ، قائد محنك هو ليو الإسورى « Leo The Isaurian » ، وشرع ينظم وسائل الدفاع ، فوزع قطع الأسطول البيزنطى بمهارة وحنكة ، وتأكد من أن كل سفينة قد زودت بكفايتها من النار الإغريقية ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى اشتعلت النار في كل سفينة من سفن العرب ، فلم تكد تبقى على واحدة منها . ثم هجم الجيش اليونانى على المحاصرين ، وانتصر عليهم نصراً حاسماً ارتد المسلمون على أثره إلى بلاد الشام .

الفصل الثاني

محطمو الصور والتماثيل الدينية

يستمد ليو الثالث لقبه من إقليم إسوريا Isauris في قلبقية ؛ ويقول ثيوفان Theophanes إنه ولد في هذا الإقليم من أبوين أرمنيين ؛ ثم انتقل والده من هناك إلى تراقية ، وأخذ يربي الضأن ، وأرسل منها خمسمائة رأس مصحوبة بابنه ليو هدية منه إلى الإمبراطور جستنيان الثاني . وأصبح ليو فيما بعد جندياً في حرس القصر ، ثم قائداً لفيلق الأناضول ، ثم اختاره الجيش إمبراطوراً ، والجيش كما لا يخفى لا يرد له اختيار ؛ وكان ليو رجلاً طموحاً ، قوى الإرادة ، مثابراً ، صبوراً ؛ وكان قبل اختياره للجلوس على العرش قد هزم عدة مرار جيوشاً إسلامية تفوق جيوشه ؛ كما كان بعد ذلك سياسياً محنكاً ، وهب الإمبراطورية الاستقرار الناشئ من التطبيق العادل للقوانين العادلة ، وأصلح نظام الضرائب ، وخفّض من أعباء رقيق الأرض ، ووسع نطاق الملكية الزراعية ، ووزع الأراضي على الفلاحين ، وعمر الأقاليم المهجورة ، وأعاد النظر في القوانين ، ووضعها على أساس إنشائي حكيم ، ولم يكن يعيبه إلا سلطانه الأوتوقراطي .

ولعله قد تشبعت نفسه وهو في صباه بأسية بفكرة رواقية متزمنة عن الدين سرت إليه من المسلمين ، واليهود ، والمنايين ، واليعاقبة ، ومن تعاليم القديس بولس ، وكالها تدمع كوف جمهرة المسيحيين على عبادة الصور والتماثيل ، والحرص الشديد على المراسم والطقوس ، والاعتقاد بالخرافات . ولقد نهى العهد القديم في صراحة تامة (الآية الخامسة عشرة من الأصحاح الرابع من سفر التثنية) المؤمنين على أن يضعوا : « تماثلاً منحوتاً صورة مثال ما شبه ذكر أو أنثى شبه هيبة ما مما على الأرض الخ » . وكانت الكنيسة في أول أمرها تكره الصور والتماثيل

وتعدها بقايا من الوثنية ، وتنظر بعين المقت إلى فن النحت الوثني الذي يهدف إلى تمثيل الآلهة . ولكن انتصار المسيحية في عهد قسطنطين ، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر في القسطنطينية والشرق الهلنستي ، كل هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الأفكار الوثنية . ولما أن تضاعف عدد القديسين المعبودين ، نشأت الحاجة إلى معرفتهم وتذكرهم ؛ فظهرت لهم ولهم العذراء كثير من الصور . ولم يعظم الناس الصور التي يزعمون أنها تمثل المسيح فحسب ، بل عظموا معها خشبة الصليب - حتى لقد أصبح الصليب في نظر ذوي العقول الساذجة طلسمًا ذا قوة سحرية عجيبة . وأطلق الشعب العنان لقطرته فحول الآثار ، والصور ، والتماثيل المقدسة ، إلى معبودات ، يسجد الناس لها ، ويةـبلونها ، ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها ، ويتوجونها بالأزهار ، ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفي . وفي البلاد التي تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص ، كنت ترى الصور المقدسة ، في كل مكان - في الكنائس ، والأديرة ، والمنازل ، والخوانيت - ، وحتى أثاث المنازل ، والحلى ، والملابس نفسها لم تخل منها . وأخلت المدن التي تهدها أخطار الوباء ، أو المجاعة ، أو الحرب تعتمد على قوة ما لديها من الآثار التنزية أو على من فيها من الأواباء والقديسين بدل أن تعتمد على الجهود البشرية للنجاة من هذه الكوارث ، وكم من مرة نادى آباء الكنيسة ، ونادت مجالسها ، بأن الصور ليست آلهة ، بل هي تذكر بها فحسب^(٤) ، ولكن الشعب لم يكن يأبه بهذه التفرقة .

وغضب ليو الثالث من هذا الإفراط في التدن من جانب الشعب . وخيل إليه أن الوثنية أخذت تغزو المسيحية وتتغلب عليها من جديد بهذه الوسيلة ، وحز في نفسه ما كان يوجهه المسلمون ، واليهود ، والشيع المسيحية المنشقة من المطاعن للخرافات السائدة عند جماهير المسيحيين المتسكين بدينهم . وأراد أن يضعف من سلطان الأساقفة على الشعب والحكومة ، ويضمن تأييد النساطرة ، واليعاقبة ،

فمعد مجلساً من الأساقفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، وأذاع بموافقتهم في عام ٧٧٦ مرسوماً يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس ، وحرم تصوير المسيح والعذراء ، وأمر بأن يغطي بالجلص ما على جدران الكنائس من صور . وأيد بعض كبار رجال الدين هذا المرسوم ، ولكن للرهبان وصغار القساوسة احتجاجاً عليه ، وثار عليه الشعب ، وهاجم المصلون الجنود الذين حاولوا تنفيذ القانون بالقوة ، لأنهم قد روعهم وأثار غضبهم هذا التدنيس المتعمد لأعز رموز دينهم . ونادت قوات الثوار في بلاد اليونان وخلقيدية بإمبراطور آخر ، وسيرت أسطولا ليستولى على العاصمة . ودمر ليو هذا الأسطول ، وزبح زعماء معارضيه في السجون ، وفي إيطاليا ، التي لم تمنح منها في يوم من الأيام أساليب العبادات الوثنية ، أجمع الشعب كله تقريباً على معارضة المرسوم ، وطردت مدائن البندقية ، ورافنا ، ورومة عمال الإمبراطورية ، واجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابا جريجوري الثاني وضرب اللعنة على محطى الصور والتماثيل المقدسة دون أن يذكر اسم الإمبراطور . وانضم بطريق القسطنطينية إلى الثائرين ، وحاول بانضمامه إليهم أن يعيد إلى الكنيسة الشرقية استقلالها عن الدولة ، فما كان من ليو إلا أن خلعه من منصبه (٧٣٠) ، ولكنه لم يعتد عليه ، وبلغ من رافة الإمبراطور في تنفيذ المرسوم أن ظلت معظم الكنائس إلى يوم وفاته في عام ٧٤١ محتفظ بمظلماتها وفسيفسائها سليمة .

وسار ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) على نهجه ولقبه المؤرخون المعادون له بذلك اللقب الظريف « كبرونيموس Copronymus » (المشتق من الدبال) . وجمع الإمبراطور الجديد مجلساً من أساقفة الشرق في القسطنطينية (٧٥٤) ، حرم عبادة الصور والتماثيل ، ووصفها بأنها عمل « بمقوت » ، وقال إن « الشيطان قد أعاد عبادة الأوثان إلى سابق عهدها عن طريق عبادتها » . ولمن « الفنان الجاهل الذي يشكل بيديه النجستين ما لا يصح أن يؤمن

به الناس إلا بتلوهم» (٥) ، وأمر بأن يحجى أو يدمر كل ما فى الكنائس من صور وتماثيل . ونفذ قسطنطين هذا القرار بلا كياسة أو اعتدال ، فسجن من قاومه من الرهبان أو سلط عليهم ألوان العذاب ، فسملت الأعين ، واقطعت اللسنة ، وجدعت الأنوف مرة أخرى ، وعذب البطريق وقطع رأسه (٧٦٧) . وفعل قسطنطين الخامس ما فعله هنرى الثامن فيما بعد ، فأغلق أديرة الرهبان والراهبات ، وصادر أموالها ، وحول مبانيها إلى أغراض غير دينية ، ووزع أرضها على محاسبيه . وجمع عامل الإمبراطورية فى إفسوس ، بموافقة الإمبراطور ، رهبان الولاية وراهباتها ، وأرغم الرهبان على أن يتزوجوا الراهبات وإلا قتلهم جميعاً (٦) . وظل هذا الاضطهاد يجرى فى مجراه خمس سنين (٧٦٣ - ٧٧١) .

وأرغم قسطنطين ابنه ليو الرابع (٧٧٥ - ٧٨٠) على أن يقسم بالجرى على خطة تحطيم الصور والتماثيل السالفة الذكر . وفعل ليو ما مكنته من فعله بنيتة الضميمة ؛ ولما حضرته الوفاة اختار ابنه قسطنطين السادس البالغ من العمر عشر سنين إمبراطوراً (٧٨٠ - ٧٩٧) ، ورشح أرملته إيريني بوصية على العرش حتى يبلغ ولده القاصر سن الرشد . وحكمت إيريني الإمبراطورية بمهارة وقوة مجردة من الضمير . وكانت تعطف على مشاعر الشعب الدينية وعلى بنات جنسها ، فأنهت فى هدوء عهد تنفيذ المرسوم الخاص بتحطيم الصور والأصنام ، وسمحت للرهبان أن يعودوا إلى أديرتهم ومنابرهم ، ودعت رجال الدين فى العالم المسيحى إلى مجمع نيقية الثانى (٧٨٧) ، حيث أعاد ٣٥٠ من الأساقفة ، بزعامة مندوب البابا ، تعظيم الصور المقدسة - لا عبادتها - وقالوا إنها تعبير مشروع عن التقى والإيمان المسيحيين .

وبلغ قسطنطين السادس سن الرشد فى عام ٧٩٠ ، ولما رأى أن أمه لا ترغب فى أن تخلى له عن سلطانها خلعها ونقاها من البلاد وسرعان ما ندم هذا الشاب الظريف على فعلته ، فأعادها إلى بلاطه ، وأشركها معه فى حكم

الإمبراطورية (٧٩٢) ؛ فلما كان عام ٧٩٧ عملت على سجنه وفقه عينيه ، ثم حكمت الدولة بعدئذ بوصفها « إمبراطوراً » لا إمبراطورة . وظلت خمس سنين تصرف شئون الإمبراطورية بحكمة ودهاء ، فخفضت الضرائب ، ووزعت الهبات على الفقراء ، وأنشأت المؤسسات الخيرية ، وجلت العاصمة . وأحبها الشعب ورحب بها ، ولكن الجيش قد ساءه أن تحكمه امرأة أقدر من معظم الرجال . وخرج عليها في عام ٨٠٢ محطمو الصور والتماثيل ، وخلعوها ، ونادوا بنقفور وزير ماليتها إمبراطوراً . واستسلمت لإبريني لمصيرها في هدوء ، ولم تطلب إلى الإمبراطور أكثر من ملجأ أمين يليق بمقامها ، فوعدها أن يجيب طلبها ، ولكنه نفاها إلى لسبوس ، وتركها تكسب قوتها القليل بالاشتغال بالخياطة حتى ماتت بعد تسعة أشهر من ذلك الوقت ، لا تكاد تجد درهماً أو صديقاً . وعفا رجال الدين عن جرائمها لتقواها ، ورفعها الكنيسة إلى مقام القديسين .

الفصل الثالث

نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية

٨٠٢ - ١٠٥٧

إذا أردنا أن نلقى نظرة شاملة على الحضارة البيزنطية نقدرها بها تقديرًا صادقًا نطلب منا ذلك أن نلم بتاريخ كثير من الأباطرة وبعض الإمبراطورات - ولسنا نقصد بذلك ما دبروه ودبرته من دسائس القصور ، والثورات ، والاغتيالات ، بل نقصد سياستهم ، وتشريعاتهم ، وجوهرهم الطويلة لحماية الإمبراطورية المتناقصة الرقعة من هجمات المسلمين في الجنوب ، والصقالبة والبلغار في الشمال . وتمثل هذه الصورة من بعض نواحيها البطولة الصادقة : فقد حافظت الإمبراطورية خلال صروف تاريخها ، وتقلباته ، ومن ظهر على عرشها ومن اختفى عنه من أشخاص ، على القسط الأكبر من التراث اليوناني : احتفظت بالنظام الاقتصادي ثابتاً متصلاً ، وظلت الحضارة قائمة كأن من ورائها دافعاً قوياً غير منقطع من الجهود القديمة لبركليز وأغسطس ، ودقلديانوس وقسطنطين . هذا من ناحية ، أما من الناحية الأخرى فهي صورة مؤسسية لقواديرقون إلى السلطة الإمبراطورية على أشلاء منافسهم ، ثم لا يلبثون أن يقتلوا مثلهم ، ولما ظهر الأبهة والترف ، والعيون المسمولة ، والأنوف المجدوعة ، والبخور والتقى والغدر ، ومن أباطرة وبطارقة لاضميرهم يناضلون ليقروا هل تحكّم الإمبراطورية القوة أو الأساطير ، السيف أو الكلام . وهكذا نمرّ بنقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١) وحروبه مع هارون الرشيد ، وميخائيل الأول (٨١١ - ٨١٣) وقد ثل عرشه وجز شعره لأن البلغار هزموه ، وليو الخامس الأرمني (٨١٣ - ٨٢٠) الذي حرم مرة أخرى عبادة الصور والتماثيل والذي اغتيل وهو ينشد ترنيمة للكنيسة ، وميخائيل

الثاني (٨٢٠ - ٨٢٩) الأمي « المتلجلج » الذي عشق راهبة وحمل مجلس الشيوخ على أن يتوسل إليه أن يتزوجها^(٧) ، وثيوفيلس (٨٢٩ - ٨٤٢) المشرع المصلح ، والملك البناء ، والإداري الحى الضمير الذى أحيا سنة اضطهاد مخطمى التماثيل وقضى عليه الزحار ، وأرملته ثيودورا التى حكمت البلاد نيابة عنه حكما قديراً (٨٤٢ - ٨٥٦) وأنهت عهد الاضطهاد ، وميخائيل الثالث « السكير » (٨٤٢ - ٨٦٧) الذى أسلم الإمبراطورية بعجزه اللطيف إلى أمه أولانم إلى قيصر بارداس Caesar Bardas عمه المثقف القدير بعد وفاتها . ثم تظهر على المسرح على حين غفلة شخصية فذة لم تكن منتظرة تخرج على كل سابقة عدا سابقة العنف ، وتؤسس الأسرة المقدونية القوية .

فقد ولد باسيل المقدوني (٨٦٢ ؟) بالقرب من هدر يانوبل Hadriaopole من أسرة أرمنية من الزراع . وأسرته البلغار وهو صغير وقضى شبابه بينهم وراء الدانوب فى البلاد التى كانت وقتئذ معروفة باسم مقدونية . ثم فرمنهم وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، واتخذ سبيله إلى القسطنطينية ، واستأجره أحد رجال السياسة ليكون سائسا لخيوله لأنه أعجب بقوة جسمه وضخامة رأسه . وصحب سيده فى بعثة إلى بلاد اليونان ، وهناك استلقت نظر الأرملة دانييلس Danielis وحصل على بعض ثروتها . ولما رجع إلى العاصمة روض جوادا جموحا يملكه ميخائيل الثالث ، فأدخله الإمبراطور فى خدمته ، وظل يرتقى فيها حتى صار رئيس التشريعات وإن لم يكن يعرف القراءة والكتابة . وكان باسيل على الدوام قديرا فيما يوكل إليه من الأعمال ، سريع الاستجابة لها ، فلما أن طلب ميخائيل زوجا لعشيقتة ، طلق باسيل زوجته القروية ، وأرسلها إلى تراقية مع بائنة طيبة ، وتزوج يودوسيا Eudocia التى ظلت فى خدمة الإمبراطور . وهكذا حبا ميخائيل باسيل بعشيقتة ، ولكن المقدوني ظن أنه يستحق العرش جزاء له على فعلته ، فأقنع ميخائيل بأن بارداس يأتمر به ليخلعه ، ثم قتل بارداس بيديه الضخمتين (٨٦٦) ، وكان

ميخائيل قد اعتاد من زمن طويل أن يملك دون أن يحكم فجعل باسيل إمبراطوراً وترك له جميع شئون الحكم . ولما هدده ميخائيل بعزاه ، دبر باسيل اغتياله وأشرف على هذا الاغتيال بنفسه ، وانفرد هو بالإمبراطورية (٨٦٧) . وهكذا كانت المناصب مفتحة الأبواب لدوى الكفاية حتى في عهد الملكيات الوراثية المطلقة ، وهكذا أنشأ ابن الفلاح الأعمى غير المثقف بتدليله وجرائمه أطول الأسر الحاكمة البيزنطية عهداً ، وبدأ حكماً دام تسع عشرة سنة امتاز بالإدارة الحازمة ، والقوانين الصالحة ، والقضاء العادل ، والخزانة الغاصة بالمال ، وبناء الكنائس والقصور الجديدة في المدينة التي استولى عليها . ولم يكن أحد يجرؤ على معارضته ؛ ولما أن مات بسبب حادث وقع له أثناء الصيد ، انتقل الملك من بعده بهدوء غير معهود إلى ولده .

وكان ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢) مكلاماً في أبيه من نقص : كان متعلماً ، كثير القراءة ، ميالاً لعدم الحركة ، دمث الأخلاق ، ويقول الثرثارون المغتابون إنه كان ابن ميخائيل لا ابن باسيل ، ولعل يودوسيا نفسها لم تكن متأكدة من أبوته . ولم يكسب لنفسه لقب « الحكيم » بشعره ولا برسالته في الدين ، والإدارة ، والحرب ، بل كسبه بإعادته تنظيم شئون الحكم الإقليمي والكنسى ، وصياغة القوانين البيزنطية ، وتنظيمه الدقيق للصناعة . ومع أنه كان تلميذاً للطريق العالم فوتيوس Photius معجبا به ، وكان هو نفسه خاشعاً تقياً ، فقد هز مشاعر رجال الدين ، وسلى الشعب ، بأربع زيجات ، ماتت منها الأوليان دون أن تنجبا أبناء ، وأصر ليو على أن يكون له واد لأن هذا هو السبيل الوحيدة لوقاية الدولة من حرب الوراثة ، وحرمت المبادئ الأخلاقية الدينية للكنيسة الزواج الثالث ، وأصر ليو على رأيه ، وتوَّجت زوى Zoe زوجته الرابعة لإصراره بولده .

وسمى قسطنطين السابع (٩١٢ - ٩٥٨) البرفروچنتس - المولود

الأرجون » - أى فى الشقة المبطنة بالبرفيرى المخصصة لأن تستخدمها الإمبراطورات الحاملات . وقد ورث عن أبيه ذوقه الأدبى ، ولكنه لم يرث عنه كفايته الإدارية . وألف لأبنته كتابين فى فن الحكم : أحدهما فى ولايات الدولة وثانيهما كتاب فى الامتيازات يصف فيه ما يطلب إلى الإمبراطور من المراسم وآداب اللياقة . وأشرف على جمع مؤلفات فى الزراعة ، والطب ، والطب البيطرى ، وعلم الحيوان ، ووضع « تاريخا للعالم مستمدا من المؤرخين » يجمع مختارات من كتب المؤرخين والإخباريين ، وازدهرت الآداب البيزنطية بفضل تشجيعه ومناصرته ، ولكنه كان ازدهار على طريقتهما المصقولة الهزيلة .

وربما كان رومانوس الثانى (٩٥٨ - ٩٦٣) كغيره من الأطفال يقرأ كتب أبيه . وقد تزوج بفتاة يونانية تدعى ثيوفانو Theophano ؛ وظن أنها دس السم لحميها وعجلت موت رومانوس ؛ وقبل أن يموت زوجها البالغ من العمر أربعاً وعشرين سنة أغوت إلى أحضانها القائد الزاهد نقفور الثانى فوقاس ، واغتصب القائد العرش وغضت هى النظر عن ذلك الاغتصاب . وكان نقفور قد أخرج المسلمين من حلب وإقريطش (كريت) (٩٦١) ؛ ثم أخرجهم من قبرص فى عام ٩٦٥ ، ومن أنطاكية فى عام ٩٦٨ ؛ وكانت هذه الانتصارات هى التى زلزلت أركان الخلافة العباسية . وطلب نقفور إلى البطريق أن يعد كل من يقتلون من الجنود فى حرب المسلمين بكل ما يوعد به الشهداء من جزاء وتكريم ؛ ولكن البابا لم يجبه إلى طلبه بحجة أن جميع الجنود قد دنسوا من قبل بما أراقوه من الدماء ؛ ولو أنه فعل لكان محتملا أن تبدأ الحروب الصليبية قبل بدايتها الحقيقية بمائة عام . وفقد نقفور مطامعه وآوى إلى قصره ليعيش فيه معيشة المتعبدين الزاهدين . وتضايقت ثيوفانو من هذه الحياة الشبيهة بحياة الأديرة فانخلدت لها خليلاً القائد تزميسيس Tzimisces . وقتل هذا القائد نقفور (٩٦٩) واستولى

بعد قتله على العرش وغضبت النظر عن هذا الجرم ، ولكن القاتل ندم على فعلته ، ونبد خليلته ، ونفاها من البلاد ، وخرج هو ليكفر عن جرائمه بانتصارات وقتية غير حاسمة على المسلمين والصقالبة .

وكان الإمبراطور الذى خلفه على العرش من أقوى الشخصيات فى تاريخ بيزنطية . وقد ولد باسيل الثانى لرومانوس وثيوفانو فى عام ٩٥٨ ، وكان إمبراطوراً بالاشتراك مع نقفور فوقاس وتزيمبسيس ؛ ثم بدأ (٩٧٦) وهو فى الثامنة عشرة من عمره حكماً منفرداً دام خمسين عاماً . واكتنفته فى بداية حكمه المتاعب من كل جانب : فأخذ كبير وزرائه ياتمر به ليغتصب عرشه ، وأمد سادة الإقطاع الذين اعتزم أن يفرض عليهم الضرائب المتأمرين عليه بالمال ، وخرج عليه بارداس اسكلروس Badas Sclerus قائد جيش الشرق ، فأحمد بارداس فوقاس ثورته ، ثم عمل هذا القائد المنتصر على أن يختاره جنوده إمبراطوراً ؛ وكان المسلمون وقتئذ يستردون معظم ما استولى عليه منهم تزيمبسيس فى بلاد الشام ، وبلغت قوة البلغار أوجها ، وأخذوا يعتدون على بلاد الإمبراطورية من الشرق والغرب . وقلم باسيل أظفار الفتنة ، واسترد أرمينية من المسلمين ، وحطم قوة البلغار بعد حرب طاحنة دامت ثلاثين عاماً . وبعد أن تم له النصر على البلغار فى عام ١٠١٤ وسمل عيون ١٥٠٠٠ أسير ، ولم يترك إلا عيناً واحدة لكل مائة واحد منهم ليقود هذه الجموع المنكودة فى عودتها إلى صمويل قيصر البلغار ؛ وأطلق عليه اليونان اسم قاتل البلغار (بلغاراكوتونوس Bulgaroctonus) ولعل ذلك كان منهم رهبة له لا إعجاباً به . ووجد بين هذه الحروب وقتاً يشن فيه حرباً شعواء على الذين أثروا على حساب الفقراء . فحاول بما سنه من القوانين فى عام ٩٩٦ أن يجزئ بعض الضياع الكبيرة ويشجع انتشار الفلاحين الأحرار . وكان يوشك أن يقود حملة بحرية على المسلمين فى صقلية حين وافته المنية فجاءة وهو فى الثامنة والستين من عمره . ولم تبلغ الإمبراطورية منذ أيام هرقل ما بلغت فى

في أيامه من السعة ، ولم يكن لها منذ عهد جستنيان مثل ما كان لها في عهده من القوة .

ودب الضعف مرة أخرى في جسم الإمبراطورية في عهد أخيه الشيخ قسطنطين الثامن (١٠٢٥ - ١٠٢٨) . ولم يكن لقسطنطين هذا من الأبناء إلا ثلاث بنات ، فأقنع رمانوس أرجيروس Romanus Argyros أن يتزوج زوى Zoe كبراهن ، وكانت سنّها وقتئذ تقرب من الخمسين . وحقكت زوى بمساعدة أختها ثيودورا الدولة بوصفها نائبة عن الإمبراطور طوال عهد رومانوس الثالث (١٠٢٨ - ١٠٣٤) ، وميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤٢) ، وميخائيل الخامس (١٠٤٢) ، وقسطنطين التاسع (١٠٤٢ - ١٠٥٥) ، ولم تشهد الإمبراطورية قبل أيامها حكمًا أصلح من حكمها . فقد شنت الأختان حرباً شعواء على الفساد في الدولة والكنيسة ، وأرغمتا الموظفين على أن يردوا ما اغتصبوه من الأموال ، ومن هؤلاء واحد كان رئيس وزراء رد إلى الدولة ٥٣٠٠ رطل من الذهب (٢٢٦,٠٠٠ ريال أمريكي) كان قد خبأها في حوض ماء ، ولما أن مات البطريق ألكسيس Alexis ، وُجد في حجراته مخبأً يحتوي مائة ألف رطل من الفضة (٢٧,٠٠٠,٠٠٠ ريال أمريكي)^(٩) . ووقف بيع المناصب الحكومية فترة قصيرة ، وجلست الأختان زوى وثيودورا قاضيتين في أعلى محكمة في الدولة ، ووزعتا العدالة الصارمة بالقسطاس المستقيم . ولم يكن أحد يضارع زوى في نزاهتها ، من ذلك أنها لما تزوجت قسطنطين التاسع وهى الثانية والستين من عمرها ، وكانت تعرف أن براعتها في تزيين نفسها بالأصباغ لا تكاد تحتفظ لها إلا بالشيء القليل من جمالها الظاهري ، سمحت لزوجها الجديد أن يأتي بعشيقته اسكلربنا لتعيش معه في القصر الإمبراطوري . واختار الإمبراطور حجراته بين حجراتهما ، ولم تكن زوى تزوره قط إلا بعد أن تتأكد أنه بمفرده^(١٠) . ولما ماتت زوى (١٠٥٠) آوت ثيودورا إلى دير للراهبات ،

وحكم قسطنطين التاسع بعد ذلك خمس سنين راعى فيها الحكمة وسلامة الذوق ، فاختار لمعاونته رجالا من ذوى الكفاية والثقافة ، وأعاد تجميل كنيسة أبيا صوفيا ، وشاد المستشفيات والملاجئ للفقراء ، وناصر الآداب والفنون . ولما مات (١٠٥٥) تزعم أنصار الأسرة المقدونية ثورة شعبية أخرجت العذراء ثيودورا من مأواها في الدير ، وتوجتها على الرغم منها إمبراطورة . وحكمت مع وزرائها الدولة حكماً صالحاً حازماً على الرغم من أنها كانت وقتئذ في الرابعة والسبعين من عمرها ؛ ولكنها ماتت في عام ١٠٥٦ مينة مفاجئة ، وضربت الفوضى على أثر موتها أطنابها في البلاد ، فنأدى الإشراف بميخائيل السادس إمبراطوراً ، ولكن الجيش فضل عليه القائد إسحق كمينوس ، وكانت معركة واحدة كافية لحسم النزاع ، فترهب ميخائيل ، ودخل كمينوس العاصمة في عام ١٠٥٧ إمبراطوراً . وهكذا قضى على الأسرة المقدونية بعد حكم دام مائة وتسعين عاماً ، كان قوامه العنف ، والحرب ، والزنى ، والتقى ، والإدارة الممتازة .

واعتزل إسحق كمينوس الملك بعد عامين ، ورشح خلفاً له قسطنطين دوكاس Constantine Ducas ، وآوى هو إلى دير ؛ ولما تولى قسطنطين (١٠٦٧) حكمت أرملته يودوسيا الدولة أربع سنين بوصفها إمبراطورة بالنيابة ، ولكن مطالب الحرب كانت محتاج إلى قائد أعظم منها قوة ، وأشد حزمًا ، ولهذا تزوجت رومانوس الرابع وتوجته إمبراطوراً . وهزم الأتراك رومانوس عند ملازكرت (١٠٧١) ، فعاد إلى القسطنطينية يجلله العار ؛ ثم خلع ، وسجن ، وسملت عيناه ، وترك ليموت من جروحه التي لم يعن بها أحد . ولما جلس على العرش كمينوس الأول (١٠٨١) ابن أخى إسحق كمينوس نبيل إلى العالم أن الإمبراطورية البيزنطية موشكة على الانهيار ، فقد استولى الأتراك على بيت المقدس (١٠٧٦) وأخذوا يزحفون على آسية الصغرى ، وكانت قبائل البتزيناك Patzinak والكومان Cuman تقترب من القسطنطينية من الشمال ، والنورمان يهاجمون

الحصون البيزنطية الأمامية في البحر الأدرياتي . وكان الجيش والحكومة يفت في عضدهما الخيانة ، والعجز ، والفساد ، والجن . وواجه ألكسيوس ذلك الموقف بشجاعة ودهاء ، فوجّه عملاءه إلى إيطاليا الخاضعة للنورمان ليثيروا فيها الفتن ، ومنح البندقية ميزات تجارية على أن تعينه بأسطولها على النورمان ، وصادر كنوز الكنيسة ليعيد بها إنشاء الجيش ، ونزل إلى ميدان القتال بنفسه ، وانتصر في عدة معارك بفضل مهارته في الفنون الحربية لا بما سفكه من الدماء ، ووجد بين هذه المشاغل الخارجية وقتاً استطاع أن يعيد فيه تنظيم الدولة ووسائل الدفاع عنها ، ووهب بهذا كله الإمبراطورية المتداعية حياة دامت مائة عام أخرى . فلما كان عام ١٠٩٥ لجأ إلى حيلة دبلوماسية بارعة كان لها أثر بعيد . ذلك أنه استغاث بالغرب لمساعدة الشرق المسيحي ؛ وعرض في مجلس پياسنزا أن تعود الكنيسة اليونانية واللاتينية إلى الاتحاد نظير اتحاد أوربا ضد المسلمين ؛ وكانت هذه الاستغاثة هي وغيرها من العوامل التي أطلقت أولى تلك الحروب المسرحية المعروفة بالحروب الصليبية ، والتي قدر لها أن تنقذ بيزنطية ثم تقضي آخر الأمر عليها .

الفصل الرابع

الحياة في بيزنطية (٥٦٦ - ١٠٩٥)

وصلت الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى في بداية القرن الحادى عشر إلى ما كانت عليه من القوة والثروة والثقافة في أوج مجدها أيام جستنيان ، وذلك بفضل ما كان للأسرتين الإسورية والمقدونية من قوة حربية وحكمة سياسية ، فانزعت من المسلمين آسية الصغرى ، وبلاد الشام الشمالية ، وقبرص ، وروُدس ، وخلقيدية ، وإقريطش (كرت) ؛ وعاد جنوبى إيطاليا فأصبح بلاد اليونان الكبرى Magna Grecia تحكمه القسطنطينية ، واستردت بلاد البلقان من البلغار والصقالبة ، وسيطرت التجارة والصناعة البيزنطيتان مرة أخرى على أسواق بلاد البحر المتوسط ، وانتصر المذهب المسيحى اليونانى فى البلقان والروسيا ، وأخذ الفن والأدب اليونانيان يستمتعان بنهضة مقدونية جديدة ، وبلغ إيراد الدولة فى القرن الثالث عشر ما يوازى ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار من نقود هذه الأيام (١١) .

وكانت القسطنطينية نفسها فى أوج عزها ، تفوق رومة القديمة والإسكندرية ، وتضارع بغداد وقرطبة المعاصرتين لها فى التجارة والثروة ، والترف والجمال ، والرفقة والفن . وكان معظم سكانها البالغ عددهم نحو مليون من الأنفس (١٢) من الآسيويين والصقالبة - الأرمن ، والكيلوكيين ، والسوريين ، واليهود ، والبلغار ، واليونان أنصاف الصقالبة ، يمتزج بهم ويلونهم تجار وجنود من الإسكندريين ، والروس ، والطلبيان ، والمسلمين ، وتغشيه طبقة رقيقة من الأشراف اليونان . وكان فى داخل الإطار الخارجى المكون نصفه من الذهب ونصفه من الوحل ، والذى تدور فيه الحياة المنتجة الخصبية فى العاصمة البيزنطية

ألف نوع ونوع من المنازل - ذات السقوف الهرمية والسطوح أو القباب - ذات شرفات ، وبوائق ، وحدائق أو عرائش ، وأسواق خاصة بحاصلات العالم كله ، وألف شارع وشارع ضيق موحد تحف به المساكن والحوانيت ، وكثير من الشوارع الواسعة تكتنفها القصور الفخمة ، والأروقة الظليلة ، مليئة بالتماثيل تتخللها أقواس النصر ، وتتصل المدينة بالريف من خلال أبواب محروسة في أسوار حصينة ، وقصور ملكية معقدة كقصر ثيوفيلس ذى الثلاثة الأجنحة ، وقصر باسيل الأول الحديد ، وقصر نففور فوقاس الرينى المؤدى بدرج من الرخام إلى رصيف تقوم عليه التماثيل على شاطئ البحر مرمرية ، وكنائس « بعدد ما فى السنة من أيام » كما يقول أحد الرحالة ، بعضها تحف فنية غاية فى الإبداع ، ومذابح تضم آمن ما فى العالم المسيحى من مخلفات وأكثرها تعظيماً وإجلالاً ، وأدبرة لا يستحى من فيها من فخامة مظهرها ، تضطرب من داخلها بالقدسيين ذوى الكبرياء ، وكنيسة أياصوفيا التى نجد زينتها على الدوام ، تتلأأ فيها الشموع والمصابيح ، مثقلة بالبخور ، رائعة المناظر المهيبة ، تتردد فى جنباتها الترانيم الرنانة التى لا تترك شكاً فى النفوس .

وكان فى داخل قصور الأشراف وكبار التجار بالمدينة ، وببوت الريف المقامة فى مؤخرتها على شاطئ البحر ، كل ما يستطيع ذلك العصر أن يصل إليه من مظاهر الترف والزينة التى لا تحرمها العادات والتقاليد السامية : رخام من كل صنف ولون ، وصور على الجدران وفسيفساء ، وتماثيل وخزف جميل ، وسجف تنزلق على عصي من الفضة ، وأقمشة مضرورة على الجدران ، وطنافس ، وحرائر ، وأبواب مطعمة بالفضة والعاج ، وصحاف من الفضة والذهب ، فى هذه البيئة يتحرك المجتمع البيزنطى ، رجال ونساء حسان الوجه والقوام ، عليهم أثواب من الفراء والحريز الجميل اللون الموشى بالخرمات ، لا يتقصن فى رشاقتهن ، ومغامراتهن الحبية ، ودسائسهن عن أهل باريس وفرساي فى عهد آل بوريون . ولم تعرف

النساء قبل ذلك العهد مساحيق أبهى أو عطوراً أذكى أو جواهر أثنى أو تصفيفاً للشعر أجمل مما عرفته نساء ذلك العصر . وكانت النار تبقى متقدة في القصور الإمبراطورية طوال أيام العام لتطبخ عليها العطور التي يتطلبها تعطير الملكات والأميرات^(١٣) . ولم تكن الحياة في أى وقت من الأوقات السابقة أكثر زينة وأشد تكلفاً ، وأكثر حفلات ، واستقبالات ، ومناظر ، وألعاباً ، واستمساكاً بالمراسم ، وأشد مراعاة لآداب اللياقة منها في ذلك الوقت . وكان الأرستقراط المتأصلون في أرستقراطيتهم إذا خرجوا إلى مضمار السباق ، أو وجدوا في بلاط الإمبراطور ، يتباهون بأثوابهم الجميلة ، وإذا ساروا في الطرق العامة اندفعوا بعرباتهم الفخمة لا يبالون بالراجلين الفقراء فكسبوا بذلك عداوتهم ؛ وقد بلغوا من الأبهة ما استحقوا من أجله لعنة رجال الدين الذين كانوا يخدمون الله في آنية وعلى مذابح من الرخام ، والمرمر ، والفضة ، والذهب . ويقول روبرت الكلارى Robert of Clari إن القسطنطينية في ذلك الوقت كانت تحتوى على « ثلثي ثروة العالم كله » ، « وحتى العامة أنفسهم » كما يقول بنيمين التطل « من السكان اليونان وكانهم كلهم أبناء ملوك »^(١٤) .

ووصفها أحد كتاب القرن الثاني عشر فقال : « إذا كانت القسطنطينية تفوق سائر المدن في ثرائها ، فإنها تفوق هذه المدن أيضاً في رذائلها »^(١٥) . ذلك أن جميع رذائل المدن الكبرى قد وجدت لها مكاناً فيها بين أغنيائها وفقرائها على السواء . فالقسوة الوحشية والتقوى كانتا تتبادلان الاستحواذ على نفوس الأباطرة ، وفي نفوس العامة كان يمكن التوفيق بين الحاجة الشديدة إلى الدين ومفاسد السياسة والحرب أو عنفهما ، وظل إخصاء الأطفال لانتخاذهم خصيئناً في بيوت الحریم وأعمال الإدارة ، واغتيال المطالبين بالعرش أو الدين يخشى أن يكونوا مطالبين به أو سمل عيونهم ، ظلت هذه الجرائم تسير سيرها خلال حكم الأسر المختلفة ، وخلال التغيرات الرتيبة المملة التي لا تنقطع . وكانت جماهر

الشعب التي أفسدت نظامها وسخرتها الانقسامات العنصرية ، والطائفية ،
والدينية ، كانت هذه الجماهير متقلبة لا يقر لها قرار ، متعطشة للدماء ،
تضطرب وتثور من آن إلى آن ، ترشوها الدولة بوجبات الطعام
المكونة من الخبز والزيت والخمر بلا ثمن ؛ ويسلها سباق الخيل ،
ومصارعة الوحوش ، والرقص على الحبال ، والتمثيلات الصامتة الفاحشة
البلدية في الملاهي ، والمراكب الإمبراطورية أو الكنسية في الشوارع . وكانت
قاعات الميسر لا يخلو منها مكان ، وتكاد بيوت العاهرات توجد في كل شارع ،
بل كانت في بعض الأحيان « تلاصق أبواب الكنائس »^(١٧) . واشتهرت
نساء بزنطية بدعارتهم وورعهم ، كما اشتهر رجالها بحدة الذكاء والطموح
والتجرد من الضمير . وكانت كل الطبقات من سكانها تؤمن بالسحر ،
والنجم ، والتنبؤ بالغيب ، والعرافة ، والانصال بالشياطين ، والتأم ذات
القوة المعجزة . وكانت الفضائل الرومانية القديمة قد اختفت حتى قبل
اختفاء اللغة اللاتينية . وقضى على الصفات الرومانية واليونانية سيل من
الشرقيين فقدوا هم أيضاً مبادئهم الأخلاقية ، ولم يستعوضوا عنها إلا بالألفاظ
الجوفاء . ومع هذا فإن الكتلة الغالبة من الرجال والنساء في هذا المجتمع
المتطرف في دينه وشهواته كانوا مواطنين وموَّدين وآباء محترمين يسكنون
بعدد هو الشباب إلى حياة الأسر وما فيها من متع وأحزان ، ويؤدون الأعمال
الدنيوية وهم كارهون . وهؤلاء الأباطرة الذين كانوا يسملون عيون منافسيهم
يغدقون الصدقات على المستشفيات وملاجئ الأيتام ، والعجزة ، ونزل
المسافرين المجانية^(١٨) . وكانت طبقة الأشراف ، التي ينحدر إلى الناس أن
الترف والراحة ديدنها وشغلها الشاغل كل يوم ، تضم مئات من الرجال
يتمبلون على أعمال الإدارة والسياسة بغيرة يختلط بها الطمع في الكسب
والإنشاء ، واستطاعوا بطريقة ما ، وبالرغم مما يتعرضون له من الانقلابات
وما يحاك حولهم من الدسائس ، أن ينقلوا الدولة من كل كارثة قلم بها ، وأن

يقيموا فيها نظاماً اقتصادياً أغدق عليها من الرخاء أكثر ما شهدته العالم المسيحي في العصور الوسطى .

وكانت البيروقراطية التي أنشأها دقلديانوس وقسطنطين قد صارت في مدى سبعة قرون أداة قوية فعالة في إدارة شئون الحكم ؛ وصلت إلى كل إقليم من أقاليم الدولة . وكان هرقل قد استعاض عن تقسيم الدولة القديم إلى ولايات تقسيمها إلى وحدات عسكرية على رأسها حاكم عسكري (استراتيجوس Strategos) ، وكان هذا التقسيم وسيلة من مائة وسيلة عدلت بها الأنظمة البيزنطية لمواجهة الغزو الإسلامي . واحتفظت الوحدات الجديدة بقسط كبير من الحكم الذاتي وعمها الرخاء تحت إشراف الإدارة المركزية ، فقد حباها هذا النوع من الحكم استمراراً في النظام دون أن يلقى على كاهلها العبء المباشر للنزاع والعنف اللذين كانت تضطرب بهما العاصمة ؛ فبينما كانت العاصمة يحكمها الإمبراطور والبطريق ، والغوغاء ، كانت الوحدات العسكرية يحكمها القانون البيزنطي . وبينما كانت البلاد الإسلامية توحد بين القانون والدين ، وبينما كان غرب أوروبا يتعثر في فوضى عدد كبير من قوانين القبائل الممجية ، كان العالم البيزنطي يعرض بالنواجذ على تراث جستينيان ويوسع نطاقه ؛ فكانت قوانين جستين الثاني Justin II وهرقل « الجديدة » ، والقوانين « المختارة » التي سنّها ليو الثالث ، والمراسيم الملكية التي نشرها ليو السادس ، وقوانين هذا الإمبراطور الجديدة الأخرى ، كانت كل هذه قد كتبت مجموعات قوانين جستينيان كي تتفق مع الحاجات المتغيرة لقرون خمسة . ووهبت كتب القوانين العسكرية ، والكنسية ، والبحرية ، والتجارية ، والريفية ، الأحكام القضائية في الجيش والكنيسة ، والأسواق والثغور ، والضيايع ، والبحار ، نظاماً وثقة بين الناس ، وجعلتها خليفة بأن يعتمد عليها ؛ وكانت مدرسة القانون في القسطنطينية في القرن الحادي عشر المركز الثقافي للشئون غير الدينية في العالم المسيحي . وهكذا احتفظ البيزنطيون بأعظم ما وهبته لهم رومة - ألا وهو

القانون الرومانى — خلال ألف عام من الأخطار والتغيرات ، حتى إذا ما بعث بعثاً جديداً فى بولونيا Bologna فى القرن الثانى عشر أحدث انقلاباً عظيماً فى القانون المدنى لأوروبا اللاتينية والقانون الكنسى للكنيسة الرومانية . وكان القانون البحرى البيزنطى الذى سنه ليون الثالث والمستمدة من الأنظمة البحرية لرودس القديمة أول مجموعة من القوانين التجارية فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى ؛ وقد أصبح فى القرن الحادى عشر مصدراً لقوانين أخرى من نوعه فى جمهوريتى ترانى Trani وأملفى Amalfi الإيطاليتين ، ومن هذا الطريق سرى إلى التراث القانونى فى عالمنا الحاضر .

أما القانون الرينى فكان محاولة صادقة جديدة بالثناء للوقوف فى وجه الإقطاع وإنشاء طبقة من الفلاحين الأحرار . فقد وهب هذا القانون قطعاً صغيرة من الأرض إلى الجنود المتقاعدين ؛ وكانت أرض واسعة من أملاك الدولة يزرعها الجنود على أن يكون عملهم فيها نوعاً من الخدمة العسكرية ، وكانت مساحات واسعة تزرعها الطوائف الخارجة على الدين المنقولة من آسية إلى تراقية وبلاد اليونان . وكانت أقاليم أوسع رقعة من هذه وتلك تستقر فيها جماعات البرابرة ، ترغمهم على ذلك الحكومة أو تبسط حمايتها عليهم لأنها ترى أن وجودهم فى داخل الإمبراطورية أقل خطورة من وجودهم فى خارجها ؛ وعلى هذا النحو استقر القوط فى تراقية وإليريا ، واللومبارد فى پانونيا ، والصقلية فى تراقية ومقدونية وبلاد اليونان ؛ ولم يستهل القرن الحادى عشر حتى كان الجنس الصقلية هو الجنس الغالب فى الهلپونيز ، وحتى كثر عدد الصقلية فى أتكيا ويسياليا . وتعاونت الدولة والكنيسة على إنقاص عدد الأرقاء ؛ فحرمت الشرائع الإمبراطورية بيع الأرقاء الذين يتضمون إلى الجيش أو رجال الدين أو يتزوجون من شخص حر . وكان عمل العبيد فى القسطنطينية مقصوراً فى الواقع على العمل فى المنازل ، أما فى غيرها من المدن فكانت تجارة الرقيق رائجة .

بيد أن من قوانين التاريخ الصادقة الأكيدة التي لا تكاد تمّ ق عن قانون نيوتن في الجاذبية أن الملكيات الزراعية الكبيرة كلما تقاربت واتسعت رقعتها اجتذبت إليها الملكيات الصغيرة ، وأنها بعد فترات من الزمن تجمع هذه الملكيات الصغيرة إلى ضياع كبيرة عن طريق الشراء أو غيره من الطرق ؛ ثم لا يلبث هذا التركيز على مر الزمن أن يتفجر ، فتوزع الأرض مرة أخرى عن طريق الضرائب أو الثورة ، ثم تبدأ عملية التركيز من جديد . ولقد كانت معظم الأراضي الزراعية في بلاد الشرق البيزنطية ضياعاً واسعة يمتلكها كبار الملاك المعروفون باسم الديناطوى dynatoi أى « الرجال الأقوياء » ، أو الكنائس ، أو الأديرة ، أو المستشفيات التي يتفق عليها من أرضين أوصى بها إليها الأتقياء الصالحون من الناس . وكانت هذه الأراضي يفلحها رقيق الأرض ، أو فلاحون أحرار من الوجهة القانونية ، ولكنهم مكبلون بالأغلال من الناحية الاقتصادية . وكان ملاك الأرض تحيط بهم يطانة من الموالى ، والجراس ، وعبيد المنازل ، ويحيون حياة الترف المنعم في بيوت الريف أو قصور المدن . وترى ما في حياة أولئك الملاك من خير . وشرف قصة السيدة دانييلس Danielis محسنة باسيل الأول . ذلك أنها حين جاءت لزيارته في القسطنطينية كان ثلثائة من العبيد يتناوبون على حمل هودجها الذي جاءت فيه من بتراس Pairas . وحملت معها لمحبوبها الإمبراطورى هدايا أتمن مما بعث به ملك من الملوك إلى الإمبراطور البيزنطى : منها أربعائة شاب ، ومائة خصى ، ومائة عذراء . ومنها أربعائة قطعة من النسيج المنقوش نقشاً فنياً ، ومائة قطعة أخرى من التيل الرفيع (تبلغ كل منها من الرقة درجة تسمح لها بأن توضع في عقلة غاب) ، ومجموعة من صحاف المائدة مصنوعة من الفضة والذهب . وقد تخلت هذه السيدة في أثناء حياتها عن كثير من ثروتها ، فلما دنت منيتها أوصت بما بقى لديها منها إلى ابن باسيل ، ووجد لبوالسادس أنه قد وُهب ثمانين بيتاً ومزرعة في الريف ، وأكداساً من النقود

والجواهر والصحاف والأثاث الثمين ، والمنسوجات الغالية ، وما لا يحصى من الماشية ، وآلافاً من العبيد^(١٩) .

ولم يكن الأباطرة يسرون كل السرور بهذه الهدايا اليونانية ؛ ذلك بأن هذا الثراء المجتمع من لحوم ملايين الناس ودمائهم كان يكسب أصحابه سلطاناً ، وأنهم إذا اجتمعوا كانوا خطراً شديداً على أى ملك أو إمبراطور . ولهذا كان الأباطرة يعملون بدافع مصالحهم الشخصية وحب الإنسانية على وقف تركيز الثروة على هذا النحو . من ذلك أن شتاء ٩٢٧-٩٢٨ القارس قد أعقبه قحط ووباء ، فباع الفلاحون أرضهم إلى كبار الملاك بأثمان منخفضة إلى أقصى حد ، ومنهم من تخلى عنها نظير لقمة العيش . ولهذا أصدر رومانوس نائب الإمبراطور « مرسوماً جديداً » يندد فيه بالملاك ويصفهم بأنهم « أظهروا أنهم أشد قسوة من القحط والوباء » ، وطالبهم بأن يردوا كل الأملاك التى ابتاعوها من أصحابها بأقل من نصف « الثمن المجزى » ، وأجاز لكل من باع أرضه أن يشتري فى خلال ثلاث سنين ما باعه منها بالثمن الذى باعه به ، ولكن هذا المرسوم لم تكن له نتيجة تستحق الذكر ؛ وظل تركيز الملكية يجرى فى مجراه ، وزاد الطين بلة أن كثيرين من الفلاحين اضطرتهم الضرائب الباهظة إلى بيع أراضيهم والهجرة إلى المدن - إلى القسطنطينية إن استطاعوا - وإلى المعيشة من الإعانات الحكومية . ووجدد باسيل الثانى النضال بين الأباطرة والأعيان ، فأصدر فى عام ٩٩٦ مرسوماً يبيع للبائع أن يستعيد فى أى وقت ما باعه من الأرض بالثمن الذى باعه به ، وألغى عقود الأراضى التى استولى عليها الملاك بطريقة تخالف قانون عام ٩٣٤ ، وأمر بأن تعود هذه الأراضى من فورها إلى ملاكها السابقين ومن غير ثمن . واستطاعت كثرة الملاك أن تحتال على التملص من هذه القوانين ، ونشأ من ذلك فى الشرق البيزنطى فى أزمنة غير متصلة ، قبل بداية القرن الحادى عشر ، نظام معدل من أنظمة الإنقطاع : لكن جهود الأباطرة لم تذهب

كلها أدرج الرياح ، ذلك أن من بقوا من الزارع الأحرار مدفوعين بغريزة التملك قد غطوا الأرض بالمزارع ، والبساتين ، والكروم ، والمناحل ، والمراعى ، ونشأت في ضياع كبار الملاك الزراعة العلمية إلى أقصى ما وصلت إليه في العصور الوسطى ، وكان تقدم الزراعة البيزنطية بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر يضارع تقدم الصناعة في تلك البلاد .

واصبغت الإمبراطورية الشرقية في ذلك العصر بصبغة حضرية نصف صناعية تختلف كل الاختلاف عن الصبغة الريفية الغالبة على أوروبا اللاتينية الواقعة في شمال جبال الألب ، فكان عمال المناجم وصناع المعادن يعملون بجد في الكشف عن مناجم الرصاص ، والحديد ، والنحاس ، والذهب واستغلالها . وكانت القسطنطينية ومائة مدينة غيرها - أزمير ، وطرسوس ، وإفسوس ، ودورزو ، وراجوسا ، وهراس ، وكورنثة ، وطيبة ، وسلانيك ، وهديانوبل ، وهرقلية ، وسليميريا - تتردد فيها أصوات دابغى الجلود ، وصانعى الأحذية ، والسروج ، والأسلحة والصياغ ، وصناع الحلى ، وطارقى المعادن ، والنجارين ، والحفارين على الخشب ، وصانعى العجلات ، والخبازين ، والصباغين ، والنساجين ، والفخريين ، وصانعى الفسيفساء ، والنقاشين . وكانت القسطنطينية ، وبغداد ، وقرطبة ، في القرن التاسع مراكز للصناعة والتبادل التجارى تكاد تضارع في سرعة حركتها وجنونها أية حاضرة من الحواضر في هذه الأيام . وظلت العاصمة اليونانية ، بالرغم من المنافسة الفارسية تزعم العالم الأبيض في إنتاج المنسوجات الرفيعة والحريرية ، ويلبها في هذا أرجوس ، وكورنثة ، وطيبة . ونظمت صناعة التسيج أحسن تنظيم ، وكانت تستخدم كثيراً من العبيد ، أما غيرها من الصناعات فكانت تستخدم صناعات أحراراً . وكان صعاليك القسطنطينية وسلانيك يحسون

بسوء حالهم ، وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها . وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يولفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد ، محبة للكسب ، متصدقة ، مجدة ، ذكية ، محافظة أشد المحافظة . وانتظمت الصناعات الكبرى بصناعاتها ، وفنائنها ، ومديريها ، وتجارها ، ومحاميها ، ورجال مالها في جماعات نقابية — سستاماتا Sytemata — تحدرت من الجماعات القديمة المعروفة بالكوليجيا والأرتيس ، وتشبه الوحدات الاقتصادية الكبيرة في الدول الحديثة ذات الصناعات الجماعية . وكانت كل جماعة نقابية منها تحتكر عملاً من الأعمال يتفق مع تكوينها ، ولكنها كانت مقيدة أشد التقييد بأنظمة خاصة بمشترياتها ، وبأثمانها ، وأساليب صناعاتها ، وشروط البيع ، وكان مفتشون حكوميون يراقبون أعمالها وحساباتها ، وكانت القوانين في بعض الأحيان تحدد أقصى الأجور . أما الصناعات الصغرى فكانت تُترك للصناع الأحرار وللنشاط الفردي . وقد أفادت الصناعة البيزنطية من هذا نظاماً ، ورخاء ، واتصالاً ، ولكن نظامها حال دون الابتكار والاختراع ، ومال بها إلى الجمود وركود الحياة^(٢٠) .

وكانت الحكومة تشجع التجارة بتعصيدها ، وبمراقبة الأهوسة ، والموائى وتنظيم التأمينات والقروض بضمان السفن ، وتشن حرباً شعواء على القرصنة ، وكانت العملة البيزنطية أكثر عملات أوروبا ثباتاً . وكان للحكومة البيزنطية إشراف واسع شامل متغلغل في جميع الأعمال التجارية — فكانت تحرم تصدير بعض المواد والسلع ، وتحتكر تجارة الحبوب والحرير ، وتفرض عوائد على الصادرات والواردات ، وضرائب على المبيعات^(٢١) . وكادت هي تدعو غيرها من الدول إلى أن تحل محلها في سيادتها التجارية القديمة على بحريجة والبحر الأسود بسماحتها إلى التجار الأجانب — الأرمن ، والسوريين ، والمصريين ، والألمانيين والبيزيين ، والبنادقة ، والجنوئين ، واليهود ، والروس ، والقطلانيين — بنقل

معظم بضائعها هي ، وبإنشاء وكالات شبه مستقلة في العاصمة أو بالقرب منها : وكان الربا مباحاً ، ولكن القانون كان يحدد سعر الفائدة بأثنى عشر أو عشرة ، أو ثمانية عشر في المائة ، أو بأقل من ذلك في بعض الأحيان . وكان رجال المصارف كثيرون العدد ، ولعل المراهبين في القسطنطينية لا المراهبين الطليان هم الذين أوجدوا نظام السفناتج القابلة للتحويل^(٢٢) ، ووضعوا أوسع نظام للائتمان عرفه العالم المسيحي قبل القرن الثالث عشر .

الفصل الخامس

الهضة البيزنطية

ونشأ من كدح الشعب وحذقه ، ومن أموال الأغنياء الزائدة على حاجتهم ، لإحياء عجيب للآداب والفنون في القرنين التاسع والعاشر . ذلك أن الدولة وإن ظلت إلى آخر أيام حياتها تسمى نفسها الدولة الرومانية ، فإن ما فيها من العناصر اللاتينية إلا القليل منها كان قد اختفى كله تقريباً ما عدا القانون الروماني . فأضحت اللغة اليونانية في الشرق البيزنطى من أيام هرقل هى لغة الحكومة ، والآداب ، والشعائر الدينية ، ولغة الحديث اليومى . وأصبح التعليم كله يونانياً ، وكان كل حر من الذكور ، وكثير من النساء ، بل وكثير من الأرقاء ، يتلقى قدرأ ما من التعليم ؛ وأحيا قيصر بارداس Caesar Baradas (٨٦٣) جامعة القسطنطينية التى تركت لتضمحل وتموت ، كما تركت الآداب بوجه عام ، خلال ما حدث من الأزمات في عهد هرقل ، وذاعت شهرة هذه الجامعة بما كانت تدرسه من المناهج في فقه اللغة ، والفلسفة ، وعلوم الدين ، والهيئة ، والرياضة ، والأحياء ، والموسيقى ، والآداب ؛ وحتى ليبانيوس الوثنى ولوشيان الكافر كانا متعنعين . وكان التعليم في العادة من غير أجر للطلاب ذوى المؤهلات ، وكانت الدولة تتكفل بمرتبات المدرسين . وكثرت في البلاد دور الكتب العامة والخاصة ، وظلت تحتفظ بروائع المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة التى جر عليها النسيان ذيوله في الغرب المضطرب .

وكان انتقال التراث اليونانى في هذا النطاق الواسع منها للعقول ومقيداً لها معاً . فقد كان من جهة مقبواً للتفكير وموسعاً لمداه ، ومشجعاً على الخروج من

أساليب البلاغة الوعظية الرتيبة القديمة ، والجلد الدينى . ولكن ثراه نفسه كان عائقاً له من الابتكار ، لأن الابتكار أيسر على الجاهل منه على المتعلم . وكان أهم ما تهدف إليه الآداب البيزنطية أن توائم النساء المثقفات ذوات الفراغ ، والرجال المثقفين الذين لا يعملون . وكانت هذه الآداب هلنستية لا يونانية ، ولهذا كانت تطفو على ظاهر الحياة البشرية ولا تتعمق إلى قلبها . وقد اقتصر التفكير بتأثير العادات التي كسبها في مراحلها الأولى على دائرة المتمسكين بالدين القويم ، وكان محطمو الصور والتمائيل الدينية أتى من القساوسة وإن كان رجال الكنيسة في ذلك العهد شديدي التسامح إلى حد عجيب .

وشهدت الإسكندرية عصر آخر من عصور النهضة العلمية شبيها بعصرها القديم أخذ فيه العلماء يحللون اللغة ، ويبحثون ويلخصون في علم العروض ، ويؤلفون الكتب الجملة ، والتواريخ العالمية ، ويجمعون المعاجم والموسوعات والدواوين . ففيه (٩١٧) جمع قسطنطين كفالاس Constantine Cephalas الديرمان اليونانى . وفيه (٩٧٦) جمع سويداس معجمه الكبير الغزير المادة . وألف ثيوفانيس (حوالى ٨١٤) وليو الشماس (المولود في عام ٩٥٠) تاريخين قيمين لأيامهما والأيام القرية منها ، وألف بولس الإيجينى Paul of Aegina (٨١٥ — ٨٩٠) وسوعة في الطب جمعت بين نظريات المسلمين وتجاربهم وبين ما خلفه للعالم جالينوس وأرباسيوس Oribasius ، وتحدث بلغة تكاد تشبه لغة هذه الأيام عن جراحات لسرطان القلب ، وعن البواسير ، وعن قنطرة المثانة ، واستخراج الحصاة منها ، والإخصاء ، ويقول بولس إن الإخصاء كان يحدث بطحن خصيتي الأطفال في حمام حار (٢٣) .

وكان أعظم العلماء البيزنطيين في هذه القرون الثلاثة معلماً خامل الذكر معدماً يدعى ليوسلانيكى (حوالى ٨٥٠) ، لم تأبه القسطنطينية لوجوده حتى دعاه أحد الخلفاء إلى بغداد . ذلك أن أحد تلاميذه أسره المسلمون في حرب من

الحروب وأصبح عبداً لأحد عظماء المسلمين ، وسرعان ما دهش هذا العظيم من علم هذا الشاب بالهندسة . وعرف المأمون خبره فأغراه بالاشتراك في نقاش مسائل هندسية في قصره . وأعجب الخليفة بعلمه ، واستمع بشغف عظيم إلى ما قاله عن معلمه ، وأرسل من فوره يدعو ليو إلى بغداد وإلى الثراء والجاه . واستشار ليو في ذلك موظفاً بيزنطياً ، ثم استشار هذا الموظف الإمبراطور ، ثيوفيلس ، فأسرع هذا إلى تعيين ليو أستاذاً . وكان ليو ملماً بكثير من العلوم فكان يؤلف في الرياضة والهيئة ، والتنجيم ، والطب ، والفلسفة ويعلمها . وعرض عليه المأمون عدة مسائل في الهندسة والهيئة وسُرَّ من إجابته عنها سروراً جعله يعرض على ثيوفيلس صلحاً أبدياً وألقى رطل من الذهب إذ أعاده ليو إلى أجل قصير . ورفض ثيوفيلس هذا العرض وعين ليو كبيراً لأساقفة سسلانيك لكي يبعده عن تناول يد المأمون (٢٤) .

وكان ليو ، وفوتئوس Photius ، وپسلوس Psellus كواكب ذلك العصر المنيرة . فأما فوتئوس (٨٢٠ ؟ - ٨٩١) أعلم أهل زمانه فقد ارتقى في خلال ستة أيام من رجل عادي إلى بطريق ، فكان بذلك من رجال التاريخ الديني ، وأما ميخائيل بسلوس (١٠١٨ ؟ - ١٠٨٠) فكان من رجال هذا العالم ومن حاشية الإمبراطور ، مستشاراً للملوك والملكات ، وكان فلتير عصره إلا أنه كان دمث الأخلاق مستمسكاً بالدين ، في وسعه أن يبهز الناس في كل موضوع ؛ ولكنه كان يرسو على قرار مكين بعد كل نقاش ديني وكل ثورة في القصر . ولم يكن يسمح بحبه الكتب أن يطغى على حبه الحياة ؛ وكان يعلم الفلسفة في جامعة القسطنطينية ، ومنح فيها لقب أمير الفلاسفة ؛ ثم دخل ديراً ، فلما وجد حياة الأديرة أهلاً من أن تطاق عاد إلى الدنيا ، وكان رئيساً للوزراء من ١٠٧١ إلى ١٠٧٨ ؛ ووجد من وقته متسعاً للكتابة في السياسة ، والعلوم ، والنحو ، واللاهوت ، وفقه القانون ، والموسيقى والتاريخ . ويسجل كتابه المعروف

باسم كرونوغرافيا Chronographia أو سجل الزمان الدسائس والخصائى التى، حدثت فى مائة عام (٩٧٦ - ١٠٧٨) بصراحة ، وحاسة وكبرياء (يقال عن قسطنطين التاسع إنه كان « رهين إشارة بسلوس »^(٢٥)) . وهى . ذى فقرة من وصفه للثورة التى أعادت ثيودورا إلى العرش فى عام ١٠٥٥ . نضربها مثلاً لما قلناه :

وكان كل (جندى فى الجمع) مسلحاً : فكان واحد منهم يحمل بلطة قصيرة اليد ، وآخر يحمل بلطة حرية ، وثالث يحمل قوساً ، ورابع يحمل حرباً . وكان بعض الغوغاء يحملون حجارة ثقيلة ، وأخذوا جميعاً يهرولون ، اضطراب عظيم . . . إلى مسكن ثيودورا . . . ولكنها لجأت إلى كنيسة صغيرة ، وأصمت أذنيها عن سماع صياحهم . وترك الغوغاء النصيح ولبأوا معها إلى العنف ، فاستل بعضهم خناجرهم ، وألقوا بأجسادهم على ثيودورا كأنهم يريدون أن يقتلوا ، ثم اختطفوها بقوة من مأواها المقدس ، وألبسوها ثياباً فخمة ، وأركبوا جواداً ، وأحاطوا بها ، وقادوها إلى كنيسة أيا صوفيا ، حيث قدم لها جميع السكان عظامهم وسوقتهم فروض الطاعة والولاء ، ونادوا كلهم بها ملكة عليهم^(٢٦) .

وتكاد رسائل بسلوس الشخصية تبلغ من السحر والبلاغة ما بلغته رسائل شيشرون ، وكانت خطبه ، وأشعاره ، وكتبه حديث الناس فى زمانه ، وكانت ملحه الخبيثة ونكاته القاتلة حافزاً مثيراً وسط علم معاصريه الخيم الثقيل . وإذا ما وازناه هو وفوتيوس وثيوفانيس بأبناء الكوين Alcuin ، وبرابانى Rābani وأبناء جربرت Gerbert الذين كانوا يعيشون فى الغرب فى أيامه ، بدا هؤلاء وكأنهم ضعاف مهاجرون من الهمجية إلى بلاد العقل .

وكان الفن أبرز نواحي النهضة البيزنطية . ذلك أن حركة تحطيم الصور والتمائيل الدينية قد حرمت فى خلال الفترة الواقعة بين ٧٢٦ و ٨٤٢ تمثيل الكائنات المقدسة بالنحت الجسّم أو بالصور وإن كانت فى الثانية أقل صرامة

منها في الأولى.. ولكنها عوضت الفنان عن هذا التحريم بأن حررتة من الاقتصاد الممل على الموضوعات الكنسية ، ونهته إلى ملاحظة الحياة الدنيوية وتصويرها وتزيينها. فقد اتخذ موضوعات لفنه بدل الآلهة الأسرة الإمبراطورية ، والأشراف المناصرين لها ، والحادثات التاريخية ، ووحوش الغاب ، ونبات الحقول وفاكهتها ، وما يجري في البيوت من حوادث تافهة . وأنشأ باسيل الأول في قصره النيا Nea أو الكنيسة الجديدة ، « وزينها كلها » على حد قول كاتب معاصره بالآلئ الجميلة ، والذهب ، والفضة البراقة ، والفسيفساء ، والحزير ، والرخام مما لا تحصى أنواعه (٢٧) .

ومن أعمال القرن التاسع كثير من النقوش التي أزيح عنها الستار حديثاً. في كنيسة أياصوفيا . وقد أعيد بناء قبتها الوسطى في عام ٩٧٥ بعد أن دمرها زلزال ثم وضعت فيها الصورة العظيمة المصنوعة من الفسيفساء والتي تمثل المسيح جالساً على قوس قزح ، ثم وضعت فيها نقوش أخرى بالفسيفساء. في عام ١٠٢٨ . وكانت هذه الكنيسة الضخمة تنبعث فيها الحياة الدائمة ، كما تنبعث في الكائنات الحية ، بموت أجزائها وتجديدها . واشتهرت أبوابها البرنزية التي وضعت فيها عام ٨٣٨ يجالها الممتاز شهرة جعلت ذوى الشأن يأمرؤن بأن تصنع في القسطنطينية أبواب مثلها لدير مونتي كازينو Monie Casino ، وكنيسة أملى ، وباسلقا سان پولو القائمة في خارج أسوار رومة . ولا يزال الباب الأخير ذو المصراعين المصنوع في القسطنطينية عام ١٠٧٠ قائماً حتى الآن يشهد بعظمة الفن البيزنطى .

وكان القصر الملكى أو « القصر المقدس » الذى كانت النيا مُصللاً مجموعة متزايدة من الحجرات ، وأبهاء الاستقبال ، والكنائس والحمامات ، والأجنحة المنعزلة ، والحداق ، والدهاليز ذات العمد ، والأبهاء . وقلماً جلس إمبراطور على العرش إلا أضاف إليه شيئاً جديداً. وخلع ثيوفياس على هذه المجموعة مسحة شرقية جديدة بأن أضاف إليها حجرة للعرش تعرف باسم التريكونكوس Triconchos

وهو اسم مشتق من المحاريب الشبيهة بالأصداف والتي تكون ثلاثة من جوانبها . وذلك طراز أخذ من بلاد الشام وأدخل عليه بعض التحسين . وقد شاد في الجهة الشمالية من هذه الحجرة قاعة اللؤلؤة وفي الجهة الجنوبية منها عدة من البلياقا Bellaka أو حجرات الشمس ، والكاملات وهي حجرات ذوات سقف من الذهب ، وعمد من الرخام الأخضر ، وفسيفساء غاية في الرونق تمثل على أرضية من الذهب رجالاً ونساء يجمعون الفاكهة . وهذا النقش نفسه قد فاقه نقش آخر على جدران بناء مجاور له يمثل بالفسيفساء الزرقاء أشجاراً بارزة من ورائها سماء من الفسيفساء الذهبية ، وتفوقه كذلك أرض بهو التوافق الذي تحسبه مربجاً مليئاً بالأزهار . وأطلق ثيوفيلس العنان للدوق الغريب الشاذ وافتتاحه بالعظمة إلى أقصى حدود الافتتان في قصره بمجنوناً Magnaura ، فقد كانت تشرف على العرش شجرة ذهبية تجثم على غصونها وعلى العرش نفسه طيور من الذهب ، وترقد على جانبي المقعد الملكي حيوانات خرافية مجنحة ذهبية ، وعلى الأرض آساد أقدامها تحت قدميه ، فإذا ما مثل بين يديه سفير أجنبي قامت الحيوانات الخرافية ، ووقفت الآساد الذهبية ، وهزت أذيالها ، وزارت ، وغنت الطيور أغاني آلية (٢٨) . وكانت هذه السخافات كلها صور مطابقة من مثيلاتها التي كانت في قصر هارون الرشيد ببغداد .

وكان المال الذي يتفق في تزوين القسطنطينية يجمع من الضرائب المفروضة على التجارة ومن الوحدات العسكرية في الدولة . ولكن ما بقي من هذا المال كان يكفي لتزوين عواصم الولايات زينة أقل من زينة العاصمة الكبرى . فقد قامت الأديرة ، بعد أن عاد إليها الثراء ، فخمة كثيرة العدد ، وعاد إليها ثراؤها : ففي القرن العاشر أنشئ دير لفرا Lavra . ودير إاثرون Ivion في آثوس Athos وفي القرن الحادي عشر أقيم دير دافني Daphni للراهبات بالقرب من اليوسيس Eleusis . وتعد فسيفسائه التي لا تكاد تنفترق عن الفسيفساء اليونانية والد مائة القديمة أجهل مثل للطراز البيزنطي

الأوسط . واشتركت بلاد الكرج ، وأرمينية ، وآسية الصغرى في هذه الحركة ، وأمست مراكز أمامية للفن البيزنطى . واستثارت المباني العامة في أنطاكية إعجاب المسلمين ، وأنشئت في بيت المقدس كنيسة الضريح المقدس ، ولما عيى على انتصارات هرقل لإقليميل ، وفى مصر شاد الأقباط المسيحيون قبل الفتح العربى وبعده كنائس ذات قباب متواضعة في حجمها ولكنها مزدانة بأجل زينة فنية بكل ما وصل إلى أهلها من مصر الفرعونية ، والبطليموسية ، والرومانية ، والبيزنطية من حلق في أشغال المعادن ، والعاج ، والخشب ، والنسيج لم ينتقص منه شيء . وأخرج اضطهاد محطى الصور والتماثيل آلاف الرهبان من الشام ، وآسية الصغرى ، والقسطنطينية إلى جنوبى إيطاليا حيث بسط عليهم البابوات حمايتهم ، وبفضل هؤلاء اللاجئين ، والتجار الشرقيين ازدهر الطراز المعمارى والزخرفى البيزنطى في بارى ، وأترنتو ، وبنفتو ، ونابلى ، ورومة نفسها . وظلت راقنا يونانية في فنها ، وأخرجت في القرن السابع الفسيفساء الضخمة التى نشاهدها في سانت أبولينارس St. Appolinaris في كلاس Classe . وظلت سلايك بزنطية . وزينت كنيسة أياصوفيا بصور مقبضة للقديسين من الفسيفساء نحيلة كالقديسين الذين صورهم الجريكو El Greco .

وأخرجت النهضة البيزنطية في جميع هذه الأراضى والمدن ، كما أخرجت في العاصمة نفسها ، سيلا من الروائع الفنية في الفسيفساء والنقش الدقيق ، والفخار ، والميناء ، والزجاج ، والخشب ، والعاج ، والبرنز ، والحديد ، والجواهر ، والأقمشة المنسوجة ، والمصبوغة ، والمنقوشة ، بمهارة يفخر بها العالم كله . وكان الفنانون البيزنطيون يصنعون أكوابا من الزجاج الأزرق ، نقشت عليها تحت سطحها ، أغصان وأوراق أشجار ، وطيور ، وصور آدمية ، وآنية زجاجية ، ذات رقاب مطلية بالميناء عليها زخارف عربية الطراز وأزهار ، وأشكال أخرى من الزجاج بلغت من الدقة حدا جعلها هى خير ما أهله الأباطرة البيزنطيون إلى

رؤساء الدول الأجنبية . وكان أعظم قيمة من هذه الهدايا السابقة ثمين الثياب والشيلان ، والحبريات ، والجلبب اللماشية(*) التى تبرز مفاخر فن النسيج البيزنطى . وكانت « عباءة شارلمان » فى كنيسة منز والحريز الرقيق الذى وجد بأخن Aachen فى تابوت ذلك الملك من هذا الطراز . وكان مصدر نصف الفخامة التى تحيط بالإمبراطور البيزنطى ، وكثير من الرهبة التى ترفع من مقام البطريق ، وبعض الآبهة التى تكسو المُنخَلَّص « والعذراء والشهداء فى شعائر الكنيسة ؛ كان مصدر هذا كله هو الثياب الفخمة التى أنفقت فيها حياة عدد من الصناع ، وازدانت بفن القرون الطوال ، وخير ما أخرجه البر والبحر من أصباغ . واحتفظ صائغو الحلى الذهبية وقاطعو الجواهر بذرورة مجدهم الفنى حتى القرن الثالث عشر ، ولا تزال كنوز كنيسة القديس مرقس باليندقية مليئة بثمار فنهم . ومن مخلفات ذلك العصر الفسيفساء الواقعية النزعة المدهشة الصنع التى وجدت فى كنيسة القديس اوقا والحفوظة فى كلية الدراسات العليا Collège de Hautes Etudes فى باريس ؛ ورأس المسيح المتوهج المنقوش فى فسيفساء ديسز فى كنيسة أياصوفيا ؛ والفسيفساء الكبيرة الحجم التى تغطى أربعين ياردة مربعة ، والتى استخرجت فى اسطنبول عام ١٩٣٥ من خرائب قصر الأباطرة المقدونيين (٢٩) . ولما خفّت حدة محطى الأصنام ، وفى الأماكن التى لم تصل إليها حركتهم ، غدت الكنيسة تقوى الناس بالصور المنقوشة على الخشب بالطلاء المائى الفردى ، والتى تكتنفها أحيانا أطر منقوشة بالمينا أو الجواهر . وليس فى تاريخ العالم كله صور دقيقة تفوق صورة « رؤيا حزقيال » التى يحتويها مجلد من عظام جريجورى نزيانزين محفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس (٣٠) ، أو الصور الإيضاحية الأربعمئة التى يحتويها مخطوط « المناجاة » (Monologus) المحفوظ فى الفاتكان (حوالى

(*) نزع من الجلبب يلبسها شماسه الكنيسة الكاثوليكية وأساقفتها أحيانا والاسم مشتق من مقاطعة دماشيا على البحر الأدريائى . (المترجم)

عام ١٠٠٠) ؛ أو صور داود في كتاب التراتيل المحفوظ بباريس (حوالى عام ٩٠٠). نعم إن هذه الصور لا تراعى فن المنظور ، ولا تعنى بإبراز الأشكال بطريق الضوء والظل ، ولكنها تعوض هذا بالتلوين القوي البراق ، وبالخيال الحى ، وبالعلم الحديث بأصول التشريح البشرى والحيوانى ، وبالعدد الجلم الموثلف من الوحش والطير ، والنبات والزهر ، تتخلل القديسين والأرباب ، وبالفساق ، والعقود والإيوانات - فيها طيور تنقر الفاكهة ، ودبة ترقص ، ووعول وعجول تتشابك قرونها فى النضال ، وفهد يرفع ساقه الخبيثة ليمثل بها الحرف الأول من جملة دينه^(٣١) .

ولقد عرف صانعو الفخار البيزنطيون من زمن بعيد فن التطعيم بالميناء ، وذلك بأن يضمعوا على الطين المحروق والقاعد المعدنى أكسيداً معدنياً إذا أدخل النار امتزج بالقاعد وأكسبه بريقاً ووقاية . وكان هذا الفن قد وصل من الشرق إلى بلاد اليونان القديمة ، حيث اختفى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم عاد إلى الظهور فى القرن الثالث بعده . وكانت هذه الفترة البيزنطية الوسطى غنية بأعمال الميناء من رصائع للصور ، ومن صور للقديسين ، وصلبان ، ومن علب لحفظ الخلفات ، وأكواب ، وكؤوس للقرابين ، وجلود كتب ، وزينات للسروج وغيرها من العدد . وقد أخذت بيزنطية من فارس الساسانية منذ ذلك العهد البعيد وهو القرن السادس ، فن الميناء المقسم : وذلك بأن تصب العجينة الملونة فى السطح المقسم إلى مساحات محاطة بأسلاك رفيعة أو قطع رقيقة من المعدن ، وهذه الحواجز الملتحمة بقاعدة معدنية تكون النقش الزخرفى . ومن أعظم الأمثلة لفن الميناء المقسم وأوسعها شهرة علة لحفظ الخلفات صنعت (حوالى عام ٩٤٥) لقسطنطين بربروجنتس محفوظة الآن فى لمبورج Lemberg وهى بيزنطية بنوع خاص فى دقة صنعها وفى أمانة صانعها ، وفى نقوشها الزخرفية الوفيرة . وليس ثمة فن من الفنون تغلب عليه الصبغة الدينية أكثر مما تغلب على الفن

البيزنطى وليس أدل على هذا من أن مجلساً للكنائس عقد فى عام ٧٨٧ قد وضع القانون القائل بأن : على المصورين أن ينفذوا ، وعلى رجال الدين أن يقرروا ، الموضوعات ويشرفوا على عمليات تنفيذها « (٣٢) . ومن ثم ، كانت النزعة الجدية المكتنبة لهذا الفن ، وضيق دائرة موضوعاته ، والتكرار الممل فى أساليبه وأنماطه ، وندرة مغامراته فى عالم الواقعية ، والفكاهة ، والحياة الشعبية ؛ ولم يكن لهذا الفن نظير فى تنميته ولآلائه ، ولكنه لم يبلغ فى يوم من الأيام ما بلغه الفن القوطى الناضج من تنوع وقوة ، ومن نزعة دنيوية شائنة . ومن أجل هذا النقص عينه تزيد دهشتنا من انتصاراته وتأثيره ، فقد كان العالم المسيحى على بكرة أبيه من كيف إلى فارس يقر له بالزعامة ، ويتملقه بتقليده ؛ وحتى الصين نفسها كانت بين الفينة والفينة تنحنى له لإجلالاً وتكريماً . ولقد كان فى أشكاله السورية نصيب مع الفن الفارسى فى تكوين موضوعات الفن الإسلامى فى العمارة ، والفسيفساء ، والزخرف . وشكلت البندقية فناً على صورة فن القسطنطينية ، كما حدا الفن فى كنيسة القديس مرقس حذو كنيسة الرسل فى تلك المدينة ؛ وظهر فن العمارة البيزنطية فى فرنسا ، ثم اتخذ طريقه نحو الشمال حتى بلغ آخن . وكانت المخطوطات المزخرفة فى كل مكان شاهداً على ما للفن البيزنطى من أثر فيه ، وأخذ البلغار عن بيزنطية دينها وزخارفها ؛ ولما اعتنق فلاديمير مذهب الكنيسة المسيحية اليونانية فتح بذلك أكثر من عشرين سبيل واسعة دخل منها الفن البيزنطى إلى الحياة الروسية .

وظلت الحضارة البيزنطية من القرن الخامس إلى القرن الثانى عشر هـ السائدة فى أوروبا المسيحية فى النظم الإدارية والدبلوماسية ، وجباية الأموال ، وفى الأخلاق ، والثقافة ، والفن . وأكبر الظن أنه لم يوجد قبل أيامها مجتمع يماثلها فى فخامة زينتها ، كما لم يوجد قبل أيامها دين به من المظاهر الفخمة مثل ما فى دينها . وكانت هذه الحضارة ، كما كانت كل حضارة أخرى ، تعتمد على كدح رقيق الأرض والعبيد ، وكان ما فى محاربتها وقصورها من ذهب وورحام هو

عرق العمال الذين يكدحون في الأرض قد تبدل وتجسم : وكانت ثقافتها ، ككل ثقافة سواها في زمانها ، قاسية ؛ وكان في وسع الرجل الذي يخز راكمأ أمام صورة العذراء أن يذبح أطفال موريق أمام عيني أبيهم . وكان في هذه الثقافة شيء من الضحالة ، وكان عليها طلاء من الرقة الأرستقراطية يغطي بناء ضخماً من الخرافات الشعبية ، ومن التعصب ، ومن الجهل يتصف به غير الأميين ، وكان نصف(*) هذه الثقافة يوجه إلى تأييد ذلك الجهل ، ولم يكن يسمح لعلم أو فن أن ينمو أو فلسفة أن تنشأ إذا كانت تتعارض مع هذا الجهل ، وظلت الحضارة اليونانية مدى ألف عام لا تضيف شيئاً جديداً إلى علم الإنسان بالعالم . فليس ثمة كتاب في الأدب البيزنطي أثار خيال بني الإنسان ، أو خلده على مدى الزمان . ذلك أن العقل اليوناني في العصر الوسيط قد أثقله عبء التراث العظيم الذي انحدر إليه من الأيام الخالية ، وسجن في المتاهة الدينية التي فقدت فيها بلاد اليونان المختصرة مسيحية المسيح ، فعجز عن أن ينهض فينظر نظرة واقعية ناضجة إلى الإنسان وإلى العالم . وسبب هذا أنه مزق المسيحية شيعا لاختلافه على حرف واحد من حروف الهجاء أو على كلمة واحدة ، وحطم الإمبراطورية الرومانية الشرقية لأنه رأى في كل خروج على الدين خيانة للدولة .

لكننا لا نزال يدهشنا أن هذه الحضارة قد عمرت ذلك الزمن الطويل ، ترى ما هي الموارد الخفية ، وما هي القوة الحيوية الكامنة ، التي أمكنتها من أن تبقى حية بعد أن انتصر عليها الفرس في آسية ، وبعد أن انتزع منها المسلمون بلاد الشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسبانيا ؟ لعل العقيدة الدينية التي أضعفت الدفاع عن الدولة باعتماد أهلها على مخلفات القديسين ومعجزاتهم قد بثت بعض النظام والتأديب في شعب ديدنه الصبر ، وإن انتابته في فترات نوبات من

(*) طلب جيش « الوحدة » العسكرية الشرقية في عام ٦٦٩ أن يكون للإمبراطورية ثلاثة أباطرة في وقت واحد ليتفق بهذا مع الثالث الديني (٣٧)

الاضطراب ، وأحاطت الأباطرة والدولة بهالة من القداسة يرهبا التبديل .
وقد أكسبتها البيروقراطية الخالدة هيئتها الجامعة استمراراً واستقراراً لم تنل
منهما جميع الحروب والثورات ، وحافظت على السلام في الداخل ، ونظمت
اقتصادياتها ، وجببت الضرائب التي أمكنت الإمبراطورية من أن توسع
رقعتها مرة أخرى حتى كادت تبلغ ما بلغته أيام جستنيان . وأكبر الظن أن
موارد الخلافة الإسلامية كانت أقل من موارد الدولة البيزنطية وإن كانت
أملاك الخلفاء أوسع رقعة من أملاك الأباطرة ، ولقد كان ضعف نظام
الحكومة الإسلامية ، وقصور وسائل الاتصال ودولاب الإدارة عن الوفاء
بم حاجات الدولة ، سبباً في تفككها بعد ثلاثة قرون من قيامها ، على حين
أن الإمبراطورية البيزنطية عاشت ألف عام .

وقد قامت الحضارة البيزنطية بثلاث مهام حيوية : أولها أنها ظلت
ألف عام حصناً حصيناً وفي أوروبا هجمات الفرس والدولة الإسلامية في
المشرق ، وثانيها أنها احتفظت في أمانة بالنصوص التي أعيد فيها تسجيل
آداب اليونان الأقدمين وعلومهم وفلسفتهم ، وأسلمتها كاملة إلى أوروبا
حيث بقيت حتى نهبا الصليبيون في عام ١٢٠٤ . وجاء الرهبان القارون
من وجه محطى الصور والتماثيل المقدسة بالمخطوطات اليونانية إلى جنوبي
إيطاليا ، وأعادوا إلى هذه البلاد علمها القديم بالآداب اليونانية ؛ وغادر
الأساتذة اليونان مدينة القسطنطينية فراراً من المسلمين والصليبيين على
السواء ، واستقروا أحياناً في إيطاليا ، وكانوا هم الحاملين لبذور الآداب
القديمة ؛ وهكذا أخذت إيطاليا عاماً بعد عام تستكشف بلاد اليونان من
جديد ، وظل الناس يغترقون من ينبوع الحضارة الذهنية حتى ثملوا .
وثالثها وآخرها أن بيزنطية هي التي أخرجت البلغار والصقالبة من دياجير
المهمجة إلى المسيحية ، وصمت قوة الجسم الصقلي التي لا حد لها إلى روح
أوروبا وحياتها ومبائرها .

الفصل السادس

البلقان (٥٥٨ - ١٠٥٧)

على بعد بضعة أميال لا أكثر في شمال القسطنطينية بحر مضطرب من خلائق يحتقرون الآداب ويحبون الحرب بنصف قلوبهم . ولم تكد موجة الهون تراجع حتى أقبلت من التركستان خلائق أخرى جديدة تمت إليهم بصلة الدم يدعون الآفار مخترقين جنوبي روسيا (٥٥٨) واسترقوا جموعا من الصقالبة ، وأغاروا على ألمانيا حتى نهر الإلب (٥٦٢) ، ودفعوا اللمارد أمامهم إلى إيطاليا (٥٦٨) ، وعاثوا في بلاد البلقان فساداً حتى كاد ينمحي منها سكانها الذين ينطقون باللغة اللاتينية . وبسط الآفار سلطانهم في وقت ما على البلاد الممتدة من البحر البلطى إلى البحر الأسود ، وحاصروا القسطنطينية في عام ٦٢٦ وكادوا يستولون عليها ، وكان عجزهم عن ذلك بداية اضمحلالهم ، فغلبهم شارلمان على أمرهم في عام ٨٠٥ ، وما لبثوا أن امتصهم البلغار والصقالبة شيئاً فشيئاً .

وكان البلغار ، وهم في أصلهم خليط من الدم الهوني ، والأجرى Ugrian والتركى ، يكونون قبل ذلك الوقت جزءاً من إمبراطورية الهون في روسيا ، وأقام فرع منهم بعد موت أتلا Atilla مملكة لهم - « بلغاريا القديمة » - على ضفاف نهر الفلجا Volga حول مدينة قازان الحالية . وأثرت عاصمتهم بلغار Bolgar من التجارة النهرية ، وظلت مزدهرة حتى خربها التتار في القرن الثالث عشر . وهاجر فرع آخر منهم في القرن الخامس نحو الجنوب الغربي إلى وادى الدن Don ، وعبرت إحدى قبائل هذا الفرع ، وهى قبيلة طليوتجر Uigurs ، نهر الدانوب (٦٧٩) ، وأسست مملكة بلغارية ثانية في موثيزيا

Moesia واسترقوا من فيها من الصقالبة ، وأخذوا عنهم لغتهم وأنظمتهم ، وامتصهم آخر الأمر العنصر الصقلي . وبلغت الدولة الجديدة أوجها في عهد الخاقان أو الخان (الرئيس) كروم Krum (٨٠٢) ، وهو رجل جمع إلى شجاعة الهمج دهاء المتحضرين . وغزا الخاقان مقدونية — لإحدى ولايات الدولة الرومانية الشرقية — ونهب ١١٠٠ رطل من الذهب ، وأحرق مدينة سرديقا Sardica المسماة الآن صوفيا عاصمة بلغاريا الحالية . وكان له الإمبراطور نففور الصاع صاعين وأحرق بلسكا Pliska عاصمة كروم (٨١١) ؛ ولكن كروم أوقع الجيش اليوناني في كمين نصبه له في أحد ممرات الجبال ، وقتل نففور ، واتخذ من بحجمة الإمبراطور قدحاً لشرابه . ثم حاصر القسطنطينية في عام ٨١٣ ، وأحرق أرباضها ، وضرب تراقية ، وفعل بها ما فعلته الجيوش التي غزتها في عام ١٩١٣ . وبينما هو يعدّ العدة لهجوم آخر إذ انفجر أحد أوعيته الدموية وقضى على حياته . وعقد ابنه أمورتاج Omurtag الصلح مع اليونان وأسلموه بمقتضاه نصف تراقية ، واعتنق البلغار المسيحية في عهد الخان بوريس Boris (٨٥٢ — ٨٨٨) . وآوى بوريس نفسه بعد حكم طويل إلى أحد الأديرة ، ثم خرج منه بعد أربع سنين ليخلع ابنه الأكبر فلاديمير ، ويُجلس على العرش ابناً آخر أصغر من أخيه يدعى سميون Simeon (٨٩٣ — ٩٢٧) ؛ وعاش بوريس حتى عام ٩٠٧ ، وأصبح هو أول قديس قومي لبلغاريا . وكان سميون من أعظم ملوك زمانه ، فقد وسّع رقعة أملاكه حتى شملت بلاد الصرب والبحر الأدرياي ، ولقب نفسه « إمبراطوراً وحاكماً مطلقاً لجميع البلغار واليونان » ، وشن الحرب عدة مرار على بيزنطية ، لكنه حاول أن يدخل الحضارة إلى بلاده بتراجم الآداب اليونانية ، وأن يجمّل عاصمته في أقاليم الدانوب بروائع الفن اليوناني . ويصف أحد معاصريه مدينة برسلاف Breslav بأنها « من أعجب ما تقع عليه العين » ، مليئة « بالقصور والكنائس الشاحخة » الكثيرة الزخرف ؛ ولقد كانت في القرن الثالث عشر أكبر مدينة

في بلاد البلقان كلها ؛ ولا تزال خربات قليلة باقية منها . وأضعفت المنازعات الداخلية بلغاريا بعد موت سميون . وحول ملاحدة بجوميل Bogomil نصف الفلاحين خلائق مسالمين شيوخين ؛ واستردت بلاد الصرب استقلالها في عام ٩٣١ ؛ وأعاد الإمبراطور يوحنا تريميسيس بلغاريا الشرقية إلى أحضان الإمبراطورية اليونانية في عام ٩٧٢ ؛ وفتح باسيل الثاني بلغاريا الغربية في عام ١٠١٤ ، وبذلك أضحت بلغاريا (١٠١٨ - ١١٨٦) مرة أخرى ولاية تابعة لبيزنطية .

وفي أثناء هذه الأحداث أقبل على الإمبراطورية القلقة زائرون من أقوام همج جدد يدعون المجر . والراجح أن المجر كانوا ، كما كان البلغار ، من تلك القبائل التي يطلق عليها ذلك الاسم غير الدقيق الأجرى Ugri أو الإيجور Igurs (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة Ogre المرادفة لكلمة غول) ، والتي كانت تضرب في البلاد المصاوبة لحدود الصين الغربية . وكان هؤلاء أيضاً قد سرى إليهم دم هوني وتركى كثير لطول اختلاطهم بهذين العنصرين . وكانوا يتكلمون لغة وثيقة الصلة بلغتي الفين (أهل فنلندة) والسمويد Somoyeds . وقد هاجروا في القرن التاسع الميلادي من سهوب الأورال وبحر الخزر (قزوین) إلى الأراضي المجاورة لنهرى الدن والدنيپر Dneiper والبحر الأسود ، حيث كانوا يعيشون بفلح الأرض في الصيف ، وصيد السمك في الشتاء ، واقتناص الصقالبه وبيعهم عبيداً إلى اليونان في جميع فصول العام . وبعد أن أقاموا في أوكرانيا ستين عاماً أو نحوها تحركوا مرة أخرى في اتجاه الغرب . وكانت أوروبا وقتئذ في الدرك الأسفل من حياتها ؛ فلم تكن فيها حكومة قوية غرب القسطنطينية ، ولم يقف في وجههم جيش قوى . لهذا اجتاحت المجر بسررايا Bessarabia وملدافيا Moldavia (البغدان) في عام ٨٨٩ ، وشرعوا في عام ٨٩٥ في فتوحهم الدائمة لبلاد هنغاريا (المجر) بقيادة زعيمهم أرباد Arpad . وفي عام ٨٩٩ عبرت بجوعهم جبال الألب وانقضت على إيطاليا ، وأحرقوا بافيا Pavia وكنائسها الثلاث . والأربعين

جميعها ، وذبخوا أهلها ، وظلوا عاماً كاملاً يعيشون في شبه الجزيرة فساداً ، ثم فتحوا بانونيا Pannonia ، وأغاروا على بافاريا Bavaria (٩٠٠ - ٩٠٧) ، وحربوا كارنثيا Carinthia (٩٠١) ، واستولوا على مورافيا Moravia (٩٠٦) ، ونهبوا سكسونيا ، وثورنجيا Thuringia ، وسوابيا Swabia (٩١٣) ، وألمانيا الجنوبية ، والألساس Alsace (٩١٧) ، وانقضوا فجأة على الألمان المقيمين على ضفاف نهر الك Lech . أحد روافد الدانوب (٩٢٤) . وارتجفت لذلك قلوب الأوربيين وتوجهوا إلى خالفهم بالدعاء والصلاة ، لأن هؤلاء المغيرين كانوا لا يزالون أقواماً وثنيين ، ولاح أن العالم المسيحي مقضى عليه لا محالة . ولكن المجر هُزموا عند جوثا Gotha في عام ٩٣٣ ، ووقف زحفهم على أثر هذه الهزيمة ، ثم غزوا إيطاليا مرة أخرى في عام ٩٤٣ ، ونهبوا برغنديا في عام ٩٥٥ . وانتهى الأمر في ذلك العام نفسه بأن هزمهم جيوش ألمانيا المتحدة بقيادة أوتو الأول في معركة حاسمة في لكفلد Lechfeld أو وادي الك بالقرب من مدينة أوجزبرج Augsburg ، واستطاعت أوروبا عقب هذه الهزيمة أن تتنفس الصعداء . بين خرباتها بعد أن حاربت في قرن واحد (٨٤١ - ٩٥٥) النورمان في الشمال ، والمسلمين في الجنوب ، والمجر في الشرق .

وبعد أن خضع المجر أصبحت أوروبا أكثر أمناً مما كانت لاعتناقهم الدين المسيحي (٩٧٥) . ذلك أن الأمير جيزا Geza خشى اندماج بلاد هنغاريا في الإمبراطورية البيزنطية التي عادت وقتئذ توسع رقعتها ، ولهذا اختار المذهب المسيحي اللاتيني لكي يسالمة الغرب ، وزاد على ذلك بأن زوج ابنة استيفن من جزيلا Gisela ابنة هنري الثاني دوق بافاريا . وأسس استيفن الأول (٩٩٧ - ١٠٣٨) شعباً لهنغاريا وراعياً وأعظم ملوكها ؛ فقد نظم شئون المجر على غرار النظام الإقطاعي الألماني ، وقوى الأساس الديني الذي أقام عليه المجتمع الجديد بأن قبل مملكة هنغاريا وتاجها من البابا سلفستر Sylvester الثاني (١٠٠٠) .

وهرع الرهبان البندكتيون إلى بلادهم ، وأنشأوا الأديرة والقرى وأدخلوا فيها فنون الغرب الزراعية والصناعية ؛ وبهذا انتقلت هنغاريا بعد حروب دامت مائة عام من ظلمات المحمية إلى نور الحضارة ؛ ولما أن أهدت الملكة جزيلا صليبا إلى صديق لها ألماني كان هذا الصليب آية رائعة من فن الصياغة الذهبية .

وكان أقدم موطن معروف للصقلية إقليم من روسيا كثير المناقع تحيط به كييف ، ومهيلف Mohilev ، وبرست لتوفسك Brest Litovsk ، وكانوا من عنصر هندي أوروبي يتكلمون لغات ذات صلة باللغتين الألمانية والفارسية . وكانت أقوام من البدو تحتاج بلادهم من آن إلى آن ، وكثيراً ما كانوا يُسترقون ، وكانوا على الدوام يعانون مرارة الفقر والظلم ، ولهذا طبعوا على الصبر وجعلتهم الصعاب وخشونة العيش الدائمة صلابا أشداء ، وفاقت خصوبة نسائهم نسبة الوفيات العالية بينهم المسببة من المجاعات ، والأمراض والحروب ، التي لم ينطق لها سعي . وكانوا يسكنون كهوفاً أو أكواخاً من الطين ، ويعيشون من صيد الحيوان ، ورعيه ، وصيد السمك ، وتربية النحل ؛ وكانوا يبيعون العسل ، والشمع ، والجلود ، ثم استسلموا آخر آخر الأمر لحياة الزراعة والاستقرار . وكانوا هم أنفسهم يطاردون ويدفعون إلى المناقع والغابات التي يتعلم الوصول إليها ، ثم يؤمرون بوحشية ، ويباعون بلا رحمة ؛ ولهذا تخلقوا بأخلاق زمانهم ، فكانوا يستبدلون السلع بالرجال ؛ وإذا كانوا يعيشون في أقاليم باردة رطبة ، فقد اعتادوا أن يدفئوا أجسامهم بالمشروبات الكحولية القوية ؛ ومن أجل هذا وجدوا أن المسيحية خير لهم من الإسلام الذي يحرم الخمر^(٣٤) . وكانت أبرز عيوبهم هي السكر ، والقدارة ، والقسوة ، وحب السلب والنهب . وكان الادخار ، والحذر ، وسعة الخيال تتذبذب فهم بين الفضيلة والرذيلة ؛ ولكنهم كانوا إلى ذلك طيبى القلوب ، أسخياء ، حسنى العشرة ، مولعين بالألعاب ، والرقص والموسيقى ، والغناء . وكان زعمائهم كثيرى الأزواج ، أما الفقراء فكانوا يقتصرون على واحدة ، وكانت النساء

— اللاتي يشترين بالمال أو يؤسرن في الحروب ليتخذن زوجات — وفيات مطيعات على غير ما كان ينتظر منهن^(٣٥) . وكانت الأسر الخاضعة لسلطان الأب تنتظم انتظاما غير وثيق العرى في عشائر ثم تنتظم العشائر في قبائل . ولربما كان للشعائر أملاك مشتركة في مراحل الرعى الأولى^(٣٦) ، ولكن قيام الزراعة — التي تثمر فيها الدرجات المختلفة من النشاط ، والكفاية في التربة المختلفة الخصوبة : ثماراً غير متساوية — أدى إلى نشأة الملكية عند الأفراد أو الأسر وكثيراً ما كان الصقالية يتفرون بسبب الهجرة أو الحروب الداخلية ، ولهذا نشأت بينهم عدة لغات صقلبية : البولندية والونديشية Wendish ، والتشكية ، والسلوفاكية في الغرب ، والسلوفينية والصربيكرواتية Serbo-Croat ، والبغارية في الجنوب ، والروسية الكبرى ، والروسية البيضاء ، والروسية الصغرى (الروينية والأكرانية Rurhenian & Ukrainian) في الغرب . على أن الذين يتكلمون أية لغة من هذه اللغات قد ظلوا يفهمون كل واحدة منها ؛ وكانت جامعة اللغة والعادات بين الصقالية ، مضافة إلى سعة بلادهم ، وكثرة مواردهم ، وحيويتهم . الناشئة من قسوة الظروف المحيطة بهم ، والانتقاء الصارم ، والطعام البسيط الخشن ، كانت هذه كلها سبباً في ازدياد قوة الصقالية الآخذة في الانتشار .

ولما أن زحفت القبائل الألمانية جنوباً وغرباً في هجرتها إلى إيطاليا وغالة خلفت وراءها رقعة من الأرض قليلة السكان في شمال ألمانيا ووسطها . وانجذب الصقالية نحو هذا الفراغ ، ودفعهم إليه دفعاً الهون الغزاة ، فانتشروا غرباً وعبروا نهر القستيولا Vistula ، ونهر الإلب نفسه ؛ وكانوا في هذه الأرض هم الوند Wend ، والبولنديين ، والتشك ، والفلاخ Vlache ، والسلوفاك الذين نعرفهم فيما بعد . وحدث في أواخر القرن الثالث تيار جارف من الهجرة الصقلبية غمر ريف اليونان ، وأغلقت المدن بابها دونه ، ولكن دما صقلبياً غزيراً امتزج بالدم الحلبي . وجاءت حوالي عام ٦٤٠ قبيلتان صقليبتان ذواتي قربى هما الصربي Srbi ،

والكروباتي Chrobati ، واستوطنتا بانونيا وإليركم Illyricum من جديد . واعتنق الصرب المذهب اليوناني المسيحي ، واعتنق الكروات المذهب الروماني . وأضعف هذا الانقسام الديني ، الذي عاق الوحدة الجنسية واللغوية ، الأمة أمام جيرانها ، ولهذا أخذت بلاد الصرب تتأرجح بين الاستقلال تارة ، والخضوع لبزنطية أو بلغاريا تارة أخرى ، إلى أن كان عام ٩٨٩ فهزم صمويل قيصر البلغار يوحنا فلاديمير الصربي ، وأسرته ، ثم زوجه بابنته كسارا Kossara وسمح له بالعودة إلى عاصمته زيتا Zita ، على أن يكون فيها أميراً من قبل فلاديمير . ذلك هو موضوع أقدم الروايات القصصية الصربية فلاديمير وكسارا التي ألقت في القرن الثالث عشر . واحتفظت المدن الساحلية في دلماشيا القديمة - زارا ، واسپالاتو Spalato ، وراجوسا Ragusa بلغتها وثقافتها اللاتينيتين ، أما بقية بلاد الصرب فأصبحت صقلبية . وحرر الأمير فواسلاف صربياً في عام ١٠٤٢ ولكنها عادت فاعترفت بسيادة بزنطية في القرن الثاني عشر .

ولما أن بلغت هذه الهجرة الصقلبية الرائعة العجبية تمامها في أواخر القرن الثامن أمست أوروبا الوسطى ، وبلاد البلقان ، والروسيا بأجمعها بجزراً صقلبياً تصطدم أمواجه بحلود القسطنطينية ، وبلاد اليونان ، وألمانيا .

الفصل السابع

مولد الروسيا (٥٠٩ - ١٠٥٤)

لم يكن الصقالية إلا آخر الأقوام الكثيرين الذين كانوا يمرحون ويطربون في تربة الروسيا الخصبة ، وسهوبها الرحبة ، وأنهارها الكثيرة الصالحة للملاحة ، ويأسون لمناقعها العفنة ، وغاباتها المانعة ، وافتقارها إلى المعامل الطبيعية التي تصد الأعداء الغازين ، وصيفها الحار ، وشتائها البارد . فلقد أنشأ اليونان منذ القرن السابع قبل الميلاد لا بعد على أقل سواحلها جدياً أى على شاطئ البحر الأسود الغربى والشمالى نحو عشرين بلدة - ألبيا Albia ، وتانيس Tanais ، وثيودوسيا Theodocia ، وپنتيكبيوم Panticapium (كرتش Kerch) . واقتتلوا مع السكوديين الضاربين وراء هذه البلاد أو ناصروهم . وسرت إلى هؤلاء الأقوام - وأكبر الظن أنهم من أصل إيرانى - بعض عناصر الحضارة الفارسية واليونانية ، بل لأنهم قد خرج من بينهم فيلسوف - أناخارسيس Anacharsis ٦٠٠ ق . م - قدم إلى أثينة وتناقش مع صولون .

ثم أقبلت في القرن الثانى قبل الميلاد قبيلة إيرانية أخرى هى قبيلة السرماتيين ، هزمت السكوديين وسكنت ديارهم ، واضمحات المستعمرات اليونانية في هذا الاضطراب . ودخل البلاد القوط من الغرب . القرن الثانى بعد الميلاد ، وأنشأوا مملكة القوط الشرقيين ، ثم قضى الهون على هذه المملكة حوالى عام ٣٧٥ ؛ ولم تكد سهول روسيا الجنوبية تشهد بعد هذا الغزو أية حضارة ، بل شهدت هجرات متتابعة من أقوام بدو - هم البلغار ، والآفار ، والصقالية ، والخزر ، والحجر ، والپتزيناك Patzinaks ، والكومان Cumans ، والمغول . وكان الخزر من أصل تركى زحفوا في القرن السابع مخرقين جبال القفقاس إلى جنوبى الروسيا ، وأنشأوا

ملكاً منظماً امتد من نهر الدنيبر إلى بحر قزوين (بحر الخزر) ، وشيدوا عاصمة لهم هي مدينة إنيل III على مصب نهر الفلجا Volga بالقرب من أسترخان الحاضرة ، واعتنق ملكهم هو والطبقات العليا منهم الدين اليهودي . وكانت تحيط بهم الدولتان المسيحية والإسلامية ، ولكنهم فضلوا في أكبر الظن أن يغضبوا الدولتين بدرجة واحدة عن أن يغضبوا واحدة منهما غضباً يعرضهم للخطر ، وأطلقوا في الوقت عينه الحرية الكاملة لأصحاب العقائد المختلفة ، فكانت لهم سبع محاكم توزع العدالة بين الناس - اثنتان للمسلمين ، واثنتان للمسيحيين ، واثنتان لليهود ، وواحدة للكفرة الوثنيين . وكان يسمح باستئناف أحكام المحاكم الخمس الأخيرة إلى المحكمتين الإسلاميتين ، إذ كانوا يرون أنهما أكثر عدالة من المحاكم الأخرى^(٣٧) . واجتمع التجار على اختلاف أديانهم في مدن الخزر تشجعهم على ذلك هذه السياسة المستنيرة ، فنشأت هناك من ذلك تجارة متعشة بين البحر البلطي وبحر قزوين ، وأصبحت إنيل في القرن الثامن من أعظم مدن العالم التجارية . وهاجم الأتراك البدو خزاريا Khazaria في القرن التاسع ، وعجزت الحكومة عن أن تحمي مسالكها التجارية من اللصوصية والقرصنة ، وذابت مملكة الخزر في القرن العاشر وعادت إلى الفوضى العنصرية التي نشأت منها .

وجاءت من جبال الكربات في القرن السادس هجرة من القبائل الصقلية إلى هذا الخليج الضارب في روسيا الجنوبية والوسطى . واستقرت هذه القبائل في وادي الدنيبر والدن ، ثم انتشرت انتشاراً أرق إلى بحيرة إلمن Ilmen في الشمال ، وظل أفرادها عدة قرون يتضاعفون ، وهم في كل عام يقطعون الغابات ويجففون المستنقعات ، ويقتلون الوحوش البرية ، وينشئون بلاداً أكرانيا . وانتشروا فوق السهول بفضل حركة من الإخصاب البشري لا يضارعهم فيها إلا الهنود والصينيون . ولقد كان هؤلاء الأقوام طوال التاريخ المعروف لا يقر لهم قرار - يهاجرون إلى بلاد القفقاس والتركستان ، وإلى أقاليم أورال وسيبيريا ، ولا تزال

عملية الاستعمار هذه في مجراها في هذه الأيام ؛ ولا يزال البحر الصقلي العجاج يدخل كل عام في خلجان عنصرية جديدة .

وأقبلت على العالم الصقلي في بداية القرن التاسع غارة بدت وقتئذ أنها لا يؤبه بها . ذلك أن أهل الشمال الإسكنديناويين كان في وسعهم أن يوفروا بعض الرجال وبعض النشاط يقتطعونها من هجاتهم على اسكتلندة ، وأيسلندة ، وأيرلندة ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وأسبانيا ؛ وأن يوجهوا إلى روسيا الشمالية عصابات مؤلفة من مائة أو مائتين من الرجال ، ينهبون بها الجماعات الضاربة حول البحر البلطى ، والفنلنديين ، والصقالبة ، ثم يعودون يجر الحقايب بالغنائم . وشاء هؤلاء الفيرنج چار Vaerinjar أو الفرنجيون Varangians (« أتباع » الزعيم) أن يجمعوا تلصصهم بالقانون والنظام فأقاموا مراكز محصنة في طرقهم ، ثم استقروا بالتدريج وكانوا أقلية إسكنديناوية من التجار المسلحين بين زراع خاضعين لهم . واستأجرتهم بعض المدن ليكونوا حماة للأمن والنظام الاجتماعى . ويبدو أن أولئك الحراس قد أحالوا أجورهم جزية ، وأضحوا سادة من استخدموهم^(٢٨) ؛ ولم يكده ينتصف القرن التاسع حتى أضحوا هم حكام نفجورود « الحصن الحديد » ، وبسطوا ملكهم حتى وصلوا إلى كيف في الجنوب . وارتبطت الطرق والحلات التى كانوا يسيطرون عليها برباط غير وثيق فتألفت منها دولة تجارية وسياسية ، سميت روس Ros أو Rus وهى كلمة لا يزال اشتقاقها مثاراً للجدل الشديد . وربطت الأنهار العظيمة التى تتحرق البلاد البحرين الأبيض في الشمال والأسود في الجنوب بالقنوات والطرق البرية القصيرة ، وأغرقت الفرنجيين بأن يوسعوا تجارتهم ويبسطوا سلطانهم نحو الجنوب . وسرعان ما أخذ هؤلاء التجار المحاربون البواسل يبيعون بضائعهم أو خدماتهم في القسطنطينية نفسها . ثم حدث ما يناقض هذا ، حدث أنه لما أضحى التجارة على أنهار الدنيبر ، والفولخوف Volkhov ، ودوينا الغربى أكثر انتظاماً مما كانت قبل ، أقبل

التجار المسلمون من بغداد وبيزنطية ، وأخذوا يستبدلون الفراء ، والكهرمان ، وعسل النحل ، وشمعه ، والرقيق ، بالتوابل ، والحمور ، والحرير ، والجواهر ، وهذا منشأ ما نجده من النقود الإسلامية والبيزنطية الكثيرة العدد على ضفاف تلك الأنهار وفي اسكنديناوة نفسها . ولما حالت سيطرة المسلمين على البحر المتوسط الشرقى دون وصول الحاصلات الأوربية مجتازة المسالك الفرنسية والإيطالية إلى ثغور البلاد الواقعة في شرق هذا البحر ، وازدهرت في مقابل هذا في روسيا مدائن نفجورود ، واسمولنسك Smolensk ، وشرنيجوف Shernigov ، وكيف ، ورستوف Rostov بفضل التجارة الاسكنديناوية ، والصقلبية ، والإسلامية ، والبيزنطية .

وخلع السجل القريم الروسى (القرن الثانى عشر) على هذا التسرب الاسكنديناوى شخصية تاريخية بقصته عن « الأمراء الثلاثة » : وخلاصتها أن السكان الفنلنديين والصقلابة في نفجورود وما حولها أخذوا يتقاتلون فيما بينهم بعد أن طردوا ساداتهم الفرنجيين ، وبلغ من هذا التناحر أن دعوا الفرنجيين أن يرسلوا لهم حاكماً أو قائداً (٨٦٢) ، فجاءهم ، كما تروى القصة ، ثلاثة إخوة - روريك Rurik ، وسنيوس Sinues ، وتروفور Truvor - وأنشأوا الدولة الروسية . وقد تكون هذه القصة صادقة رغم تشكك المتأخرين فيها ، وقد تكون طلاء وطنياً لفتح نفجورود على يد الاسكنديناويين . ويضيف السجل بعد ذلك أن روريك أرسل اثنين من أعوانه هما أسكولد Ascold ودير Dir ليستوليا على القسطنطينية ، وأن هذين الشماليين وقفاً في طريقهما ليستوليا على كيف ، ثم أعلنوا استقلالهما عن روريك والخزر جميعاً .

وبلغت كيف في عام ٨٦٠ من القوة مبلغاً أمكنها أن تسير عمارة بحرية من ألف سفينة تهاجم القسطنطينية ، وأخفقت الحملة في مهمتها ، ولكن كيف بقيت كما كانت مركزاً لروسيا التجارى والسياسى ، وجمعت تحت سلطانها بلاداً

واسعة ممتدة خلفها . وفي وسعنا أن نقول بحق إن حكامها الأولين - أسكولد Ascoled ، وأولج Oleg ، وإيجور Igor لاروريك حاكم نفجورود - هم الذين أنشأوا الدولة الروسية . ووسع أولج ، وإيجور ، وألجا Oelga - الأميرة القديرة أرملة أولج - وابنها المحارب اسقياتسلاف Sivatoslav (٩٦٢ - ٩٧٢) مملكة كييف حتى انضوت تحت لواها القبائل الصقلية كلها تقريباً ، ومدائن پولوتسك Polotsk ، واسمولنسك ، وشرنجنوف ، ورستوف . وحاولت الإمارة الناشئة بين عامي ٨٦٠ ، ١٠٤٣ ست مرات أن تستولى على القسطنطينية . ألا ما أقدم زحف الروس على البسفور ، وتعطش الروس إلى مخرج أمين إلى البحر المتوسط .

واعتنقت روس ، كما سميت الإمارة الجديدة نفسها ، تحت حكم فلاديمير الخامس (٩٧٢ - ١٠١٥) «دوق كييف الأكبر» ، الدين المسيحي (٩٨٩) . وتزوج فلاديمير أخت الإمبراطور باسيل الثاني ، وظلت روسيا من ذلك الوقت إلى عام ١٩١٧ ابنة للدولة البيزنطية في دينها ، وحروفها الهجائية ، وعملتها ، وفنها . وشرح القساوسة اليونان لفلاديمير منشأ الملوك وحقهم الإلهيين ، وما لهذه العقيدة من نفع في تثبيت النظام الاجتماعي واستقرار الملكية المطلقة^(٣٩) . وبلغت دولة كييف أوج عزها في عهد يروسلاف Yaroslav (١٠٣٦ - ١٠٥٤) بن فلاديمير ، واعترفت بسلطانها اعترافاً غير أكيد كل البلاد الممتدة من بحيرة Ladoga والبحر البلطي إلى بحر قزوين ، وجبال القفقاس ، والبحر الأسود ، وكانت الضرائب تنجي إليها من هذه البلاد . وامتنعت في جسمها الغزاة الاسكنديناويين وغلب على هؤلاء الدم الصقلبي واللغة الصقلية . وكان نظامها الاجتماعي أرستقراطياً صريحاً ، فكان الأمراء يعهدون بمهام الإدارة والدفاع إلى طبقة عليا من النبلاء ، وطائفة أخرى مثلهم ولكنها أقل منهم مقاماً يعرفون بالديتسكي dietski أو الأوتروكي Otroki أى الخدم أو الأتباع . وبلى هؤلاء في المنزلة طبقة

التجار ، وأهل المدن ، ثم الزراع نصف العبيد ، ثم العبيد أنفسهم . وأقر كتاب القانون المعروف باسم الرسكايا بإرقدا Raskaya Pravda أوالحق الروسى ، الثأر الشخصى والمبارزة القانونية ، وتبرئة المتهم بناء على إيمان الشهود ؛ ولكنه أوجد نظام المحاكمة على أيدى اثنى عشر محلفين من المواطنين^(١٠) . وأنشأ فلاديمير مدرسة للأولاد فى كيف ، وأنشأ باروسلاف مدرسة أخرى فى نفجورود . وكانت كيف وهى ملتقى السفن النهرية الآتية من أنهار يلخوف ، ودقينا ، ودنيبر الأدنى تجبى الضرائب على جميع المتاجر المارة بها ، وسرعان ما بلغت من الثراء درجة أمكنها من أن تشيد أربعمئة كنيسة ، وكنديائية كبيرة - تضارع أياصوفيا - على الطراز البيزنطى . وجيء بالتمنانين اليونان ليزينوا هذه المباني بالفسيفساء ، والمظلمات وغيرها من ضروب الزينة البيزنطية ؛ ودخلت فيها الموسيقى اليونانية لتمهد السبيل إلى نصرة الأغانى الروسية الجماعية . وأخذت روسيا ترفع نفسها على مهل من غمار الأوحال والتراب ، وتبنى القصور لأمرائها ، وتقيم القباب فوق أكواخ الطين ، وتستعين بقوة أبنائها وجلدهم عل بناء جزائر صغرى من الحضارة فى بحر لم يخرج بعد من ظلمات الهمجية .

الباب التاسع عشر

اضمحلال الغرب

٥٦٦ - ١٠٦٦ م

بينما كان الإسلام يشق طريقه في أنحاء العالم ، وبينما كانت بيزنطية تفيق من الضربات التي بدت قاصمة لظهرها ، كانت أوروبا تكافح للخروج من دياجير «العصور المظلمة» . وهذا تعبير غير دقيق في وسع كل إنسان أن يعرفه كما يهوى ؛ أما نحن فسنقصره تعسفاً منا على أوروبا غير البيزنطية في الفترة الواقعة بين موت بويثيوس Boethius عام ٥٢٤ ومولد أبيلار Abelard في عام ١٠٧٩ . وظلت الحضارة البيزنطية مزدهرة خلال هذه الفترة رغم ما خسرت الدولة من أملاكها ومهابتها ؛ أما أوروبا الغربية فكانت في القرن السادس الميلادي مسرحاً لفوضى الفتوح ، والانحلال ، والعودة إلى الهمجية . نعم إن قسطاً كبيراً من الثقافة اليونانية والرومانية القديمة قد بقي فيها ، وإن كان معظمه صامتاً محبوباً في عدد قليل من الأديرة والأسر ، ولكن مصادر الأسس الجسمية والنفسية التي يقوم عليها النظام الاجتماعي كانت قد اضطربت اضطراباً لا تعود معه هذه الأسس إلى الاستقرار إلا بعد قرون طوال . ذلك أن الولع بالآداب ، والإخلاص للفن ، ووحدة الثقافة واتصالها ، وتجاوب العقول بعضها مع بعض نجواً يشحذها ويخصبها ، كل هذه الأسس قد انهارت أمام ضربات الحرب وويلاتها ، وأخطار طرق النقل ، والأساليب الاقتصادية في البيئات الفقيرة ، ونشأة اللغات القومية ، واختفاء اللغة اللاتينية من بلاد الشرق واللغة اليونانية من الغرب . وعجلت في القرنين التاسع والعاشر سيطرة المسلمون على البحر المتوسط ، وغارات النورمان ،

والبحر ، والمسلمين على السواحل الأوربية نزعاً التخصيص في أساليب الحياة .
ووسائل الدفاع وبدائية الفكر والكلام . وكانت ألمانيا وأوروبا الشرقية ملتقى.
تيارات متعارضة من الموجات ، واسكنديناوة معشياً للقراصنة ، وبريطانيا .
تجتاحتها قبائل الإنجليز ، والسكسون ، والجات ، والدنمركيين ؛ وغالة يهاجمها
الفرنجة ، والنورمان ، والبرغنديون ، والقوط ؛ وأسبانيا يتنازعها القوط
الغربيون والمسلمون ؛ وكانت إيطاليا قد حطمتها الحروب الطوال التي
دارت رحاها بين القوط والبيزنطيين ؛ وظلت البلاد التي وهبت نصف
العالم الأمن والنظام تعاني خمسة قرون طوال مساوئ الانحلال في الأخلاق
والاقتصاد ، وأنظمة الحكم .

ومع هذا فإن شارلمان ، وألفرد Alfred ، وأتو الأول قد وهبوا فرنسا ،
وإنجلترا وألمانيا فترات من النظام ، وكانوا حافزاً على السير إلى الأمام ؛
وأحييت إرجينا Erigena موات الفلسفة ، وجدد ألكوين Alcuin وغيره ،
نشاط التعليم ، وأدخل جربرت Gerbert علوم المسلمين إلى بلاد المسيحية ؛
وأصلح ليو التاسع وجريجورى السابع نظم الكنيسة وبعث فيها القوة ، ونشأ
في فن العمارة طراز الزخرف الروماني ؛ وبدأت أوروبا في القرن الحادى
عشر رقيها البطيء إلى ما وصلت إليه في القرنين الثانى عشر والثالث عشر
أى إلى أعظم ما بلغت في العصور الوسطى بأجمعها .

الفضل الأول

إيطاليا

١ - اللمبارد : ٥٦٨ - ٧٧٤

انطفأ سراج الحكم البيزنطى فى إيطاليا الشمالية بعد ثلاث سنين من موت جستنيان على أثر غارات اللمبارد على تلك البلاد .

ويظن پولس الشماس - وهو واحد منهم - أن اللمبارد أو اللنجوباردى Longobardi قد سمو بهذا الاسم لطول لحام^(١) ، وهم أنفسهم يعتقدون أن موطنهم الأصلى كان فى اسكنديناوة^(٢) ، ولهذا فإن دانتي ، وهو من نسلهم^(٣) ، يوجه الخطاب إليهم بهذا الوصف^(٤) . ونراهم على ضفاف نهر الإلب الأدى فى القرن الأول الميلادى ، وعلى ضفاف الدنواب فى القرن السادس ، ويستخدمهم نارسيس Narses فى حروبه الإيطالية التى دارت رحاها عام ٥٥٢ ، ثم يعيدهم إلى بانونيا بعد أن يحرز النصر . ثم يشتد ضغط الآفار على اللمبارد من الشمال والشرق ، فيتحرك مائة وثلاثون ألفاً منهم فى عناء - رجالهم ونساؤهم وأطفالهم ، ومتاعهم - ويعبرون جبال الألب إلى « لمبارديا » سهول البو الخصبية . ولعل نارسيس كان يستطيع وقف سيرهم ، ولكنه كان قد خلع وجلله العار قبل عام من ذلك الوقت ؛ كذلك كانت بيزنطية مشغولة عنهم بالآفار والقرص ، ولم يكن لديها من المال ما تنفقه فى أعمال البطولة التى يفيد منها غيرها . ولهذا فإنه لم يحل عام ٥٧٣ حتى استولى اللمبارد على فيرونا ، وميلان ، وفلورنس ، وپافيا - وقد أصبحت هذه المدينة الأخيرة عاصمة ملكهم ؛ وفى عام ٦٠١ استولوا على بلوا ، وفى ٦٠٣

على كرمونا Cremona ومنتوا Mantua ؛ وفي ٦٤٠ على جنوا ، وانتزع ليوتبراند Liutprand أعظم ملوكهم (٧١٢ — ٧٤٤) رافنا في شرق إيطاليا ، واسبوليتو Spoleto في وسطها ، وبنفتو في جنوبها ، وكان يطمح إلى جمع كلمة إيطاليا كلها تحت سلطانه . غير أن البابا جريجورى الثالث لم يكن يرضى أن تصبح البابوية أبرشية لمباردية ؛ فاستغاث بالبنادقة الذين لم يخضعوا للمبارد ، وأعاد هؤلاء رافنا إلى بيزنطية . ولم ير ليوتبراند بُدًّا من أن يقنع بحكم شمالي إيطاليا ووسطها أصلح حكم مرّ عليهما منذ أيام ثيودريك القوطي ، وكان هو مثل ثيودريك يجهل القراءة والكتابة^(٥) .

وأنشأ اللمبارد حضارة بخطت في مدارج الرقي . وكانوا يختارون ملكهم ؛ وكان هذا يستشير في شئون الحكم مجلساً من الأعيان ، ويعرض شرائعه عادة على جمعية شعبية مؤلفة من جميع الذكور الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية . ونشر ملوكهم راثاري Rathari (٦٤٣) كتاب قوانين جمعت بين البدائية والتقدمية : فكانت تبيح أداء الدية المالية جزاء للقتل ؛ وأرادت أن تحمي النعماء من الأغنياء ، وكانت تسخر من السحر والشعوذة ، وتبيح حرية العبادة للكاتوليك ، والأريوسيين . ، والوثنيين على السواء^(٦) . وامتص الدم الإيطالي الغزاة الألمان عن طريق الزواج ، واتخذوا اللسان اللاتيني لغة لهم ، وترك اللمبارد آثارهم في أماكن متفرقة : في العيون الزرقاء ، والشعر الأشقر ، وفي قليل من الكلمات التيوتونية في اللغة الإيطالية . ولما أن خبت حدة الفتوح واستقر القانون ، عادت التجارة — وهى العمل الطبيعي في وادي نهر الپو — سيرتها الأولى ؛ ولم يكد ينتهى عصر اللمبارد حتى أثرت مدائن شمالي إيطاليا وقويت واستعدت لتلقى الفنون ونخوض الحروب عندما بلغت ذروتها في العصور الوسطى . أما الأدب فكانت سوقه راكدة ، فلم يبق الدهر من أدب ذلك العصر وتلك الدولة إلا كتاباً واحداً .

هذا شأن — هو كتاب تاريخ اللمبارد لبولس الشماس (حول عام ٧٤٨) ؛

وهو كتاب ممل ، مشوه الترتيب ، ليس فيه مثقال ذرة من الفلسفة . ولكن لمبارديا طبعت اسمها على فن العمارة وشئون المال ؛ وكانت حِرف البناء قد احتفظت بشيء مما أخذته عن بيزنطية من تنظيم وحذق قديمين . وكان لإحدى الجماعات ، وهى جماعة سادة كومو ، السبق فى صياغة طراز « لمباردى » فى العمارة جمعت من أصول متعددة ، وازدهر فيما بعد حتى أصبح هو الطراز الرومانسى .

ولم يمض جيل واحد على حكم ليوتبراند حتى تحطمت المملكة اللمباردية على صخرة البابوية . ثم استولى الملك أيستلف Aistulf على رافنا فى عام ٧٥١ ، وأنهى بذلك تبعيتها لبيزنطية ، وإذ كانت دوقية رومة قبل ذلك الوقت تابعة من الوجهة القانونية للولى المقيم فى رافنا فإن أيستلف طالب بحقه فى ضم رومة إلى مملكته الآخذة فى الاتساع . واستغاث البابا استيفن الثانى بقسطنطين كرونيوموس فبعث الإمبراطور اليونانى بمذكرة غير ذات خطر إلى أيستلف ؛ فما كان من استيفن إلا أن استغاث ببيبين القصير Pepin the Short ملك الفرنجة . وكان لهذه الاستغاثة نتائج ذات شأن لم نقف عند حد . ولاح لببين الأمل فى بناء إمبراطورية له فعبه جبال الألب ، ونكل بإيستلف ، وجعل لمبارديا إقطاعية للفرنجة ، وأعطى جميع إيطاليا الوسطى للبابوية . وظل البابوات يقرون بالسيادة الرسمية لأباطرة لشرق ؛ أما إيطاليا الشمالية فقد قضى فيها على سلطان بيزنطية قضاء نهائيا . وقد حاول ديسيدريوس Desiderius الملك اللمباردى التابع أن يسترد استقلال لمبارديا وفتوحها ؛ ولكن البابا هدربان الأول استدعى لمعونته فرنجيا جديدا ، وانقض شالمان على بافيا ، وأرسل ديسيدريوس إلى أحد لأدبرة وقضى على مملكة اللمبارد وجعلها ولاية تابعة للفرنجة .

٢ - النورمان في إيطاليا (١٠٣٦-١٠٨٥)

وتركت إيطاليا الآن تعاني الانقسام والحكم الأجنبي مدى ألف عام ،
لن نغنى بتسجيل تفاصيل حوادثها . وحسبنا أن نقول إن النورمان شرعوا
في ١٠٣٦ يفتحون إيطاليا الجنوبية وينزعونها من الدولة البيزنطية . ذلك أنه
كان من عادة أشرف نورمانديا أن يوزعوا أراضيهم على أبنائهم بالتساوي
كما يفعل الفرنسيون في هذه الأيام ، وكانت نتيجة هذا القانون في نورمانديا
أن تجزأت أملاك الأسر في العصور الوسطى إلى ملكيات صغيرة على حين
أن نتيجته في فرنسا هي وجود أسر صغيرة . ولم يكن النورمان راغبين
في حياة الفقر المهادنة ، وكانوا إلى هذا لا يزالون يذكرون ما طبع عليه
آباؤهم أهل الشمال من حب المغامرة والسلب والنهب ، ولهذا أجرة بعض
شداد النورمان أنفسهم إلى أدواق إيطاليا الجنوبية المتنافسين المتنازعين ،
وأظهروا ضروباً من البسالة في حروبهم إلى جانب بثقتهم ، وسلونهم
ونابلي ، وكهوا ، وإلى جانب أعدائهم ، وأعطوا مدينة أفرسا Aversa
جزاء لهم على أعمالهم . وترامى إلى مسامع غيرهم من شباب النورمان المتحمسين أن
الأراضي تكسب بضربة أو ضربتين من سواعدهم ، فغادروا نورمانديا إلى
إيطاليا . وسرعان ما أصبح من فيها من النورمان كثرة تستطيع أن تقاتل
لحسابها ، ولم يحل عام ١٠٥٣ حتى أنشأ أجراهم ربرت جوسكارد Robert
Quiscard (أى العاقل أو الماكر) مملكة نورماندية في إيطاليا الجنوبية . وكان
ربرت هذا يتصف بكل الصفات التي تحملها الأساطير على الأبطال . كان
أطول من جميع جنوده ، وكان قوى الساعدين ، صلب الرأى ، جميل
الحيا ، أشقر الشعر ، أصهب اللحية ، فخم الثياب ، سخى اليد ينثر الذهب
نثراً ، قاسياً في بعض الأحيان ، وباسلاً على النوام .

ولم يكن روبرت يعترف بغير قانون القوة والحداع ، فاجتاح كلبريا Calabria واستولى على بنفنتو ، وكاد يمشى إليها على جثة البابا ليو التاسع (١٠٥٤) ، وعقد حلفاً مع نقولا الثانى ، تعهد فيه أن يكون خاضعاً له وأن يؤدى له الجزية ، وأقطعه نقولا فى نظير ذلك كلبريا ، وأپوليا Apulia وصقلية (١٠٥٩) . وترك روبرت أخاه الأصغر روجر ليفتح صقلية ، واستولى هو على بارى Bari (١٠٧١) وطرد البيزنطيين من أپوليا . واغتاظ إذ وجد البحر الأدريائى يعترض طريقه فأمل أن يعبره ليستولى على القسطنطينية ، ويصبح أقوى ملوك أوربا جميعاً . وأنشأ من فوره عمارة بحرية ، هزم بها الأسطول البيزنطى فى واقعة بحرية بالقرب من درزو (١٠٨١) ؛ واستغاثت بيزنطية بانبندقية ، فخفت هذه المدينة لنجدتها لأنها لم تشأ إلا أن تكون ملكة البحر الأدريائى ؛ وأوقعت سفائنها الماهرة فى ضروب القتال هزيمة منكرة بعمارة جوسكارد البحرية فى عام ١٠٨٢ على بعد قليل من موضع نصره الذى ناله منذ وقت قصير . ولكن روبرت استطاع بنشاطه الشبيه بنشاط يوليوس قيصر نقل جيشه إلى دورزو Durazzo وهزم عندها جيوش الكسيوس الأول الإمبراطور اليونانى ، واخترق إپيروس وتساليا حتى كاد يصل إلى سلانيك . وبينما هو يوشك أن يحقق حلمه إذ تلقى دعوة حارة من البابا جريجورى السابع يستغيث به لينقذه من الإمبراطور هنرى الرابع . فما كان من روبرت إلا أن ترك جيشه فى تساليا ، وعاد مسرعاً إلى إيطاليا ، وحشد جيشاً من النورمان ، والطيان ، والمسلمين أنقذه به البابا ، وانتزع رومة من الألمان ، وأخذ ثورة قام بها الشعب على جيشه ، وترك هذا الجيش الحائن يحرق المدينة وينهبها ويخربها تخريباً لا يجاريه فيه تخريب الوندال أنفسهم لهذه المدينة (١٠٨٤) وعاد فى هذه الأثناء ابنه بوهمند Bohemond ليعترف بأن جيشه الذى كان فى بلاد اليونان قد مزقه ألكسيوس شرمزق . وأنشأ القرصان القديم أسطولا ثالثاً هزم به أسطول البندقية بالقرب من جزيرة كورفو Corfu (١٠٨٤) ، واستولى على جزيرة

كفلونيا Cephalonia الأيونية ، ثم مات فيها ، بعدوى سرت إليه أوبالسم ،
فى سن السبعين (١٠٨٥) . وكان هو أول القادة اللصوص فى إيطاليا
(الكندتيرى Conedottieri) .

٣ — البندقية : (٤٥١ — ١٠٩٥)

وبينا كانت هذه الأحداث تجرى فى مجراها إذ ولدت دولة جديدة فى
الطرف الشمالى من شبه الجزيرة ، قدر لها أن تزدد قوة وعظمة حين كانت
الفوضى تضرب بجرانها على الجزء الأكبر من إيطاليا . وتفصيل ذلك أن
سكان أكويليا Aquileia ، وبدوا ، وبلونو Belluno ، وفلترى Feltre
وغيرها من المدن فروا فى أثناء غارات القبائل الهمجية فى القرن الخامس
والسادس — وبخاصة فى أثناء غارة اللبارد فى عام ٥٦٨ — لينجوا بأنفسهم
من الهلاك وينضموا إلى صيادى السمك المقيمين فى الجزائر الصغيرة التى كونها
نهر الپياف Piave والأديج Adige فى الطرف الشمالى من البحر الأدريائى .
وبقى بعض هؤلاء اللاجئين فى هذه الجزائر بعد انتهاء الأزمة ، وأنشأوا فيها
محلات : هرقلية ، وملامكو Melamocco وجرادو Grado ، وليدو
Lido . . . وريثو ألتو Rivo Alto (النهر العميق) . وقد أضحت هذه
المحلة الأخيرة التى سميت فيها بعد رياتو Rialto عاصمة حكومتهم المتحدة
(٨١١) . وكانت قبيلة من الفنىي Veneti قد احتلت شمالى إيطاليا قبل عهد
يوليوس قيصر بزمان طويل ؛ وأطلق اسم فنيزيا Venezia فى القرن الثالث
عشر على المدينة الغدة التى نشأت حيث كان يقيم اللاجئين .

وكانت الحياة فيها شاقة فى بادئ الأمر ، فكان من الصعب الحصول على
الماء العذب ، لأن قيمته لم تكن تقل عن قيمة الخمر . وأرغمت الظروف البنادقة
— أهل فنيزيا — لأن يصبحوا أهل سفن وتجارة لاضطرارهم إلى استبدال
القمح وغيره من السلع بما يحصلون عليه من البحر من سمك وملح ؛ وما لبثت

تجارة أوروبا الشمالية والوسطى أن أخذت تنساب تدريجاً عن طريق الثغور البندقية . وأقر اتحاد المدن البندقية الحديد بسيادة بزنطية عليه ليحمى نفسه من الألمان والمبارد ، ولكن مركز هذه الجزائر المنيع في مياهها الضحلة وتعدل الهجوم عليها برأ أو بحراً لهذا السبب ، مضافاً إلى جد أهلها وجلدهم ، وازدياد الثراء الناتج من انتشار تجارتها ، كل هذا قد وهب الدولة الصغيرة سيادة واستقلالاً غير منقطعين مدى ألف عام .

وظل اثنا عشر تريبوناً - يبدو أن كل واحد منهم كان يشرف على شئون جزيرة من الجزائر الاثنتي عشرة الكبيرة - يصرفون شئون الحكم حتى عام ٦٩٧ حين أحسست هذه العشائر بحاجتها إلى سلطة عليا موحدة ، فاختارت أول دوج أو دوق أو زعيم doge, dux يتولى شئون الحكم حتى ينزله الموت أو تنزله الثورة عن عرشه . ودافع الدوج أجنلو بدور Agnello Badoer (٨٠٩ - ٨٢٧) عن المدينة ضد الفرنجة دفاعاً أظهر فيه من ضروب المهارة ما جعل الأذواق فيما بعد يُختارون من سلالته حتى عام ٩٤٢ . وثارت البندقية لنفسها في عهد أرسلو Orsello الثاني (٩٩١ - ١٠٠٨) من غارات القراصنة الدلاشيين بأن هاجمت معاقلم واستولت على دلاشيا ، وبسطت سيادتها على البحر الأدرياي . وشرع البنادقة في عام ٩٩٨ يحتفلون في عيد الصعود من كل عام بهذا النصر البحري وبهذه السيادة الاحتفال الرمزي المعروف عندهم باسم اسبوزاليزيا (sposalisia) : فكان الدوج يقذف في البحر من سفينة مزينة زينة بهجة بخاتم مدشن ، وينادى باللغة اللاتينية : « إنا نزوجك أيها البحر ، دليلاً على سلطاننا الحق الدائم » (٧) . وسرّ بزنطية أن تقبل البندقية حليفاً لها مستقلاً ، وكافأتها على صداقتها النافعة بامتيازات تجارية في القسطنطينية وغيرها وصلت تجارة البندقية بفضلها إلى البحر الأسود بل تعدته إلى بلاد الإسلام نفسها .

وحدث في عام ١٠٣٣ أن قضت أرستقراطية التجار على انتقال السلطة إلى

الأدواق عن طريق الوراثة ، وعادت إلى مبدأ الانتخاب على يد جمعية من المواطنين ، وأرغمت الدوج على أن يحكم بعدئذ بالاشتراك مع مجلس من الشيوخ . وكانت البندقية في ذلك الحين قد أصبحت تلقب « بالذهبية » (فنيسيا أوربا Venetia Aurea) ، واشتهر أهلها بثيابهم المترفة ، وبانتشار التعليم بينهم ، وبإخلاصهم لوطنهم وكبريائهم . وكانوا أقواماً نشطين راغبين في الكسب ، ماهرين ، دهاة ، شجعاناً ، ميلين للنزاع ، أتقياء ، لا يحرصون على مبدأ .، يديعون العبيد المسيحيين للمسلمين^(٨) ، وينفقون بعض مكاسبهم في بناء الأضرحة للقديسين . وكان في حوانيت رباتو صناع ورثوا من إيطاليا الرومانية حذق أهلها الصناعات ، وكانت تجارة محلية نشيطة تسير في قنواتها ، هادئة ساكنة إلا من صيحات بحارة قواربها الأنيقة اللفظ ، وكانت موانئ الجزائر تجملها السفن المغامرة تحمل منتجات أوروبا وبلاد الشرق . وكانت قروض الرأسماليين تمويل رحلات التجار البحرية . وتعود على أصحاب هذه الأموال بربح لا يقل عن عشرين في المائة في الأحوال العادية^(٩) . واتسعت الهوة بين الأغنياء (المجورى) والفقراء (المينورى) حين ازداد ثراء الأثرياء ، ولم ينقص فقر الفقراء إلا قليلاً . ولم يكن أحد يظهر الرأفة بالسذج البسطاء ، فكان الكسب والثراء من نصيب الأسرع ، والظفر من نصيب الأقوى . فكان الفقراء يمشون على الأرض العارية ، وتنساب فضلات بيوتهم في الشوارع إلى القنوات ؛ أما الأثرياء فقد شادوا القصور الفخمة ، وسعوا لكسب رضا الله والناس بإقامة أفخم كنيسة كبرى في العالم اللاتيني ، وتبدلت واجهة قصر الدوج ، التي شيدت أول مرة في عام ٨١٤ و احترقت في عام ٩٧٦ ، وتغير شكلها مراراً عدة قبل أن تستقر على شكلها الحاضر الذي هو مزيج رشيق من الزخرف الإسلامي والصورة التي هي من مميزات عصر النهضة .

وحدث في عام ٨٢٨ أن سرق بعض تجار البنادقة من إحدى كنائس

الإسكندرية ما يظن أنه مخلفات القديس مرقس . واتخذت البندقية ذلك القديس شفيعاً لها وحامياً ونهبت نصف العالم لتوارى عظامه . وبدئ بإنشاء كنيسة القديس مرقس الأولى . عام ٨٣٠ تم دمرتها النار في عام ٩٧٦ . تدميراً رأى معه أرسيلو Orseolo الثاني أن يبدأ كنيسة جديدة أوسع منها رقعة . واستدعى لهذا الغرض فنانين من بيزنطة أقاموها على نمط كنيسة الرسول المقدس في القسطنطينية — ذات سبع قباب فوق بناء صليبي . وظل العمل فيها جارياً نحو قرن من الزمان ؛ وتم البناء الرئيسى بشكله الحاضر تقريباً في عام ١٠٧١ ، ودشن في عام ١٠٩٥ . ولما فقدت مخلفات القديس مرقس حين شبت النار في الكنيسة عام ٩٧٦ ، وهدد فقدها . قداسها ، اتفق على أن يجمع المصلون في الكنيسة في يوم تدشينها ويدعوا الله أن توجد هذه المخلفات ، وتقول إحدى الروايات المأثورة العزيزة على البنادقة الصالحين إن إحدى الأعمدة خر لدعواتهم ، وسقط على الأرض ، وكشف عن عظام القديس (١٠) . وتهدم البناء وأصلح مراراً ، وقلما مرت عشر سنين دون أن تشهد فيه تغييراً أو تحسيناً . وليست كنيسة القديس بطرس التي نعرفها الآن بنت تاريخ واحد أو عصر واحد ، بل إنها سجل من الحجارة والجوهر لألف عام ؛ فقد أضيفت في القرن الثاني عشر واجهة من الرخام إلى جدرانها المقامة من الآجر ، وجيء بأعمدة مختلفة الأنواع من أكثر من عشر مدائن ، وقام الفنانون البيزنطيون الذين اتخذوا البندقية وطناً لهم بعمل فسيفساء الكنيسة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ؛ وأخذت أربعة جياد برنزية من القسطنطينية . حين استولى البنادقة عليها في عام ١٢٠٤ ، ووضعت فوق البوابة الرئيسية . وأضاف الفنانون القوط في القرن الرابع عشر أبراجاً ، وشبابيك مفرغة ، وستاراً للضريح المقدس ؛ وغطى مصورو عصر النهضة في القرن السابع عشر نصف الفسيفساء بصور للجدران غير ذات شأن كبير . واحتفظ البناء العجيب في خلال هذا التغيير كله وهذه القرون الطوال بمميزاته ووحدته —

فكان على الدوام بزنطياً وعربياً ، منمقاً وشاذاً غير مألوف : فهو من خارجها شديد البريق ذو أقواس ، وأكتاف ، وأبراج مستدقة ، وأبواب ، والتفافات لولبية ، ورخام متعدد الألوان مغلف بالمعادن ، وطنف منحوتة ، وقياب بصلية الشكل . وهو من الداخل يحوى متاهة من العمدة الملونة ، ومثلثات مطلية بين العقود ، ومظلمات قائمة ، وخمسة آلاف ياردة موبعة من الفسيفساء ، وأرضية مرصعة باليشب والعقيق وغيرهما من الحجارة الكريمة ، وحظاراً زخرفياً خلف المذبح صنع عام ٩٧٦ في القسطنطينية من المعادن الغالية والميناء ذات الحزوز ، مثقلة بألفين وأربعمائة قطعة من الجواهر ، ومقاماً خلف المذبح الرئيسى منذ عام ١١٠٥ . وقد عدت الرغبة بالحاجة في الزخرف طورها في كنيسة القديس مرقس كما عدته في كنيسة أياصوفيا ، فرأت أن تكرم الله بالرخام والحلى ، وأن تروع الإنسان ، وتؤدبه ، وتشجعه ، وتواسيه بمائة مشهد ومشهد من الملحمة المسيحية من بداية الخلق إلى نهاية العالم . وكانت كنيسة القديس مرقس أسمى وأخص ما عبر به عن أنفسهم أقوام لاتين استحوذ عليهم الفن الشرقى حتى ملك عليهم مشاعرهم .

٤ - الحضارة الإيطالية (٥٦٦ - ١٠٩٥)

ظلت إيطاليا الشرقية والجنوبية بزنطية في ثقافتها ، على حين أن بقية شبه الجزيرة قد نشأت فيها من تراث الرومان حضارة جديدة - عناصرها لغة جديدة ، ودين جديد ، وفن جديد . فذلك أن هذا التراث لم يفن كله رغم ما حل بالبلاد من غزو ، وفوضى ، وفقر . فأما اللغة الإيطالية فكانت هي اللاتينية الحسنة التي كانت تتكلم بها الجماهير في العهد القديم ، وقد استحال على مهل حتى أضحت أكثر اللغات رخامة . وأما المسيحية الإيطالية فكانت مؤلفة من وثنية خيالية جذابة ، وشرك عاطفى من القديسين الحماة المحليين ، وأساطير صريحة من

الخرافات والمعجزات . وكان الفن الإيطالى يرى أن الفن القوطى فن همجى ويستمسك بطراز الباسلفا ، (البناء الرومانى المستطيل الشكل) ، ثم عاد آخر الأمر فى عصر النهضة إلى الشكل الأوغسطى . ولم يزدهر نظام الإقطاع فى إيطاليا مطلقاً ؛ فالمدن لم تفقد قط سلطانها وتفوقها على الريف ؛ وكانت الصناعة والتجارة ، لا الزراعة ، هما اللتين مهدتا السبيل إلى الثراء .

ولم تكن رومة فى عهد من العهود مدينة تجارية ، ولذلك ظلت آخذة فى الضعف ؛ فقد اندثر مجلس شيوخها فى حروب القوط ، وأضحت نظم بلدياتها القديمة بعد سبعائة عام من نشأتها أدوات جوفاء وأحلاماً تناقض روح الزمان ، ولم يكن فى وسع عايتها المؤلفين من خليط من الأجناس ، والذين يعيشون عيشة قلرة يخفف من قذارتها بعض الشيء الإباحية الجنسية والصدقات البابوية ، لم يكن فى وسع هؤلاء العامة أن يعبروا عن عواطفهم السياسية إلا بالثورات المتكررة على السادة الأجانب أو البابوات البغيضين . وكانت الأسر الأرستقراطية القديمة لا شغل لها إلا التنافس للسيطرة على البابوية أو التنازع مع البابوية للسيطرة على رومة . وبينما كان التريبونون — محامو الشعب — والقناصل وأعضاء مجالس الشيوخ هم الذين ينفذون القانون بالعصى والخراب ، أضحى النظام الاجتماعى يقوم الآن على أساس مزعزع من قرارات المجالس الكنسية ومواعظ الأساقفة ، ووكلائهم ، والمثل المريبة يضر بها آلاف الرهبان المختلفى الأئم ، وهم طائفة قلما كانت غير متعطلة ، ولم تكن على الدوام عازبة . وكانت الكنيسة قد شنت الغارة على الاختلاط الجنسي فى الحمامات العامة ، وهجر الناس الأبهة العظمى وحمامات السباحة الساخنة ، وزال من الوجود فن الطهارة الوثنى . وخربت قنوات الشرب الإمبراطورية من جراء الإهمال أو الحروب فأخذ الناس يشربون مياه التبير^(١١) ، وعطلت حلبة مكسيموس Circus Maximus والكليسيوم Collosseum . ذواتا الذكريات الدموية ، وأخذت السوق العامة تعود فى القر

السابع مراعى للبقر كما بدأت ، وغطى الوحل أرض الكتبتول ، وهدمت الهياكل القديمة والمباني العامة ليؤخذ من أنقاضها ما تحتاجه الكنائس المسيحية والقصور من مواد ، وعانت رومة من أبنائها أكثر مما عانت من الوندال والقوط (١٢) ، وملاك القول أن رومة يوليوس قيصر قد ماتت ، وأن رومة ليو العاشر لم تكن قد ولدت بعد .

وتشتت محتويات دور الكتب القديمة وتلفت ، وكادت الحياة الذهنية أن تنحصر في الكنيسة . وهوى العلم تحت أقدام الخرافات التي تهب الفقر خيالا ورواء ، وظل الطب وحده يرفع رأسه عالياً تحتفظ منه الأديرة بما ورثته عن جالينوس . ولعل مدرسة طبية علمانية قد نشأت من دير للبندكتيين في سلرنو في القرن التاسع الميلادي ، فكانت هي التي سدت الثغرة القائمة بين طب الأقدمين وطب العصور الوسطى ، كما سدت إيطاليا الجنوبية الهلنستية الثغرة التي قامت بين ثقافة هذه العصور وثقافة اليونان : وكانت سلرنو مصحة منذ أكثر من ألف عام ؛ وقد وصفت الرواية المحلية الماثورة كلية أبقرات التي كانت بها ، فقالت إنها تتألف من عشرة معلمين أطباء منهم واحد يوناني وآخر مسلم ، وثالث يهودي (١٣) . وجاء قسطنطين « الأفريقي » وهو مواطن يوناني درس الطب في مدارس المسلمين بأفريقية وبغداد — إلى مونتى كسينو Monte Cassino (التي أصبح فيها راهباً) ، وإلى سلرنو القريبة منها ، جاء إليهما ببضاعة عجيبة مثيرة من المعارف الطبية الإسلامية : وأسهمت تراجمه للكتب اليونانية والعربية في الطب وغيره من الميادين في إحياء العلم بإيطاليا ، حتى كانت مدرسة سلرنو حين وفاته حاملة لواء العلوم الطبية في بلاد الغرب المسيحية .

وكان أهم ما أثمرته الفنون في هذا العصر هو ابتداء الطراز الرومانسى Romanesque في العمارة (٧٧٤ — ١٢٠٠) . ذلك أن البنائين الإيطاليين وارتئوا التقاليد الرومانية في الصلابة والبقاء زادوا سمك جدران الباسليكا ، وأنشأوا

في الكنائس جناحاً متقاطعاً مع الصحن ، وأضافوا دعائم من أبراج أو عمد متلاصقة ، وأقاموا العقود التي يرتكز عليها السقف على عمد أو أكتاف متجمعة . وكان العقد الرومانسي الخالص يتكون من نصف دائرة بسيطة ، وهو شكل ذو مهابة عظيمة ، يصلح لحسر فوق فرجة أكثر مما يصلح لتحمل ثقل . وكان الدهليز في الطراز الرومانسي الأول — والصحن والدهليز في الطراز الرومانسي المتأخر — تعلوه عقود أى يتكون سقفه من بناء ذى أقواس . وكان البناء من الخارج خالياً في العادة من الزخرف ومبنيًا من الآجر المكشوف . وكان داخل البناء يتحاشى الزخرف الكثير الذي يميز الطراز البيزنطي وإن كان يزدان بقسط غير كبير من القسيفساء ، والمظلمات ، والنقوش المنجوتة . وفيما عدا هذا كان الطراز الرومانسي رومانيا ، همه الثبات والمتانة لا الارتفاع القوطي والرشاقة القوطية ؛ يهدف إلى إخضاع الروح للتواضع المهدى لها لا لرفعها إلى نشوة عليا تعصف بها .

وأخرجت إيطاليا في هذه الفترة آيتين من روائع الفن الرومانسي : إحداهما كنيسة أمبرجيو Ambrogio المتواضعة في ميلان ، والثانية الكتدرائية الضخمة في پيزا . وقد أعاد الرهبان البندكتيون في عام ٧٨٩ البناء الذي منع أمبروز أحد الأباطرة من دخول بابه ، ثم تهدم بعد ذلك مرة أخرى . ثم غير جيّدو Guido كبير الأساقفة طرازه بين عامي ١٠٤٦ و ١٠٧١ تغييراً شاملاً فبدله من باسقا ذات عمد إلى كنيسة ذات عقود . وكان سقف دهليزها وصحنها قبل أيامه من الخشب ، فأقام لهما هو سقفاً معقوداً من الآجر والحجارة يرتكز على عقود مستديرة خارجة من أكتاف متراكبة . وكانت زوايا التقاطع الناشئة في السقف المعقود من تقاطع العقود المبنية نفوذها « أضلاع » من الآجر ، وذلك أول مثل من السقف المعقود « المضلع » في أوربا كلها .

ويخيل إلى الرائي أن واجهة كنيسة أمبرجيو تختلف كل الاختلاف عن

واجهة كتدرائية بيزا الكثيرة التعقيد ، ولكن عناصر الطراز فيهما واحدة . وقد أقيمت هذه الكنيسة الكبرى بعد المعركة الحاسمة التي انتصر فيها أسطول بيزا على أسطول العرب بالقرب من بالرم (١٠٦٣) ؛ إذ طلبت المدينة إلى المهندسين بوشو Buschetto (اليوناني ؟) ورينالدو Rinaldo أن يخلدا ذكرى المعركة ، ويقربا بعض أسلاب النصر إلى العلاء ، بأن يقيا معبداً تحسدها عليه إيطاليا على بكرة أبيها . وقد شيد البناء كله تقريباً من الرخام . وأقيمت فوق المداخل الغربية أربع أكتاف لبوأك مفتوحة تقوم في عرض الواجهة متكررة تكراراً يتجاوز الحد ؛ وجعل لهذه المداخل فيما بعد (١٦٠٦) أبواب فخمة من البرنز . وكان في الداخل طائفة كبيرة من العمد الرشيقة - وهي غنائم مختلفة الأصول - تقسم الكنيسة إلى صحن ودهازين ؛ وتقوم فوق ملتقى جناح الكنيسة وصحنها قبة إهليلجية غير جميلة الشكل . وكانت هذه أولى الكتدرايات الكبرى في إيطاليا ، ولا تزال حتى اليوم من أروع الصروح التي أقامها الإنسان في العصور الوسطى .

الفصل الثاني

أسبانيا المسيحية (٧١١ - ١٠٩٥)

ليس تاريخ أسبانيا المسيحية في هذه الفترة إلا حرباً صليبية طويلة الأمد. منشأها تصميمها المتزايد على إخراج المسلمين منها . وكان هؤلاء المسلمون قوماً أغنياء أقوياء ، يمتلكون معظم الأراضي الخصبة ، وتسيطر عليهم خير الحكومات ؛ أما المسيحيون فكانوا فقراء ضعفاء ، وتربة بلادهم ضئيلة ، وتفصلهم سلاسل الجبال عن سائر بلاد أوروبا ، وتقسمهم إلى ممالك صغيرة ، وتشجع النعرة القومية الإقليمية ، والتطاحن بين الإخوة ، حتى لقد أريق من دماء المسيحيين على أيدي أهلها المسيحيين ذوى العواطف الثائرة أكثر مما أريق منها على أيدي المسلمين .

وكانت غارات المسلمين عليها في عام ٧١١ قد دفعت من لم يغلبوا من القوط ، والسويبي Suevi ، والبرابرة الذين اعتنقوا الدين المسيحي ، والكلت من سكان شبه الجزيرة ، دفعت هؤلاء إلى جبال الكتنتريان في الشمال الغربى من أسبانيا وطاردهم المسلمون في هذه الجبال ولكن قوة صغيرة بقيادة جوت پلايو Got Pelayo هزمتهم عند كفافانجا Covadonga (٧١٨) ، ومن ثم نادى ذلك القائد بنفسه ملكاً على أستورياس ، وأسس الملكية الأسبانية . واستطاع ألفنسو الأول (٧٣٩ - ٧٥٧) على أثر هزيمة المسلمين في تور أن يمد الحدود الأستورية إلى جليقية Galicia ولوزيتانيا وبسكاي Biscaya . وضم حفيده ألفنسو الثانى (٧٩١ - ٨٤٢) ولاية ليون ، واتخذ أويديو حاضرة لمملكته .

وفى عهد هذا الملك وقعت حادثة كانت من أهم الحوادث في تاريخ أسبانيا . ذلك أن أحد الرعاة سار بهداية نجم من النجوم - كما تقول الرواية - حتى

وجد في الجبال تابوتاً من الرخام يعتقد الكثيرون أنه يحتوى على بقايا «الرسول يوحنا» أخى المسيح . وأقيم ضريح في المكان الذى وجد فيه . التابوت ، ثم شيدت في مكان هذا الضريح كنيسة فخمة فيما بعد ، وأضحى سنثياجو ده كبهستيل Sontoagio de Compostela — «يوحنا» قديس ميدان النجم» كعبة يحج إليها المسيحيون لا يفوقها في قداسها إلا بيت المقدس ورومة ؛ وكان لهذه العظام أكبر الأثر في إثارة الروح المعنوية عند الأسبان ، وجمع الأموال اللازمة لقتال المسلمين . وصار القديس يوحنا شفيع أسبانيا وحاميا ، وأذاع اسم سنثياجو في قارات ثلاث . وهكذا تصنع العقائد التاريخ وخاصة حين تكون هذه العقائد خاطئة ؛ والأخطاء هي التي يموت من أجلها الناس أشرف ميتة .

ولم يشرق استوريا ، وفي جنوب جبال البرانس مباشرة تقع نبرة Navarre وكان معظم أهلها من سلسلة البشكنس ، وهم في أغلب الظن خليط من كلت أسبانيا وبربر أفريقية . وقد أفاد هؤلاء من منعة جبالهم فنجحوا في حماية استقلالهم من المسلمين ، والفرنجية ، والأسبان ، حتى أسس سانكو الأول جراسيا Sancha Garacia مملكة نبرة واتخذ بميلونا عاصمة لها . وكسب سانكو لنفسه لقب «العظيم» (٩٩٤ - ١٠٣٥) باستيلائه على ليون ، وقشتالة ، وأرغونة ؛ وأتى على أسبانيا المسيحية حين من الدهر أوشكت فيه أن تتحد ، ولكن سانكو أفسد قبيل وفاته ما عمله طول حياته بأن قسم مملكته بين أولاده الأربعة . ومن تاريخ هذا التقسيم تبدأ حياة مملكة أرغونة ؛ واستطاعت هذه المملكة أن تدفع المسلمين في الجنوب ، وأن تضم إليها بالسلم نبرة في الشمال (١٠٧٦) ، فلم يحل عام ١٠٩٥ حتى شملت رقعتها جزءاً كبيراً من وسط أسبانيا الشمال . وفتح شارلمان في عام ٧٨٨ مقاطعة قطلونيا - في شمال أسبانيا الشرقي حول برشلونة ، وظل يحكمها أدواق فرنسيون جعلوا هذا الإقليم «حدوداً أسبانية» ، وكانت لغته القطلانية مزيجاً لطيفاً من فرنسية بروفنسال ولغة قشتالة . وبدأت ليون الواقعة في الشمال

الغربي تاريخها « سانكو السمين Sancho the Fat » الذي بلغ من البدانة درجة لم يكن يستطيع معها السير إلا متكئاً على تابع له . ولما خلعه الأشراف لحاً إلى قرطبة حيث شفاه حسداى بن شبروط الطبيب اليهودى الشهير من شحمه ، ثم عاد سانكو إلى ليون يميز كما يميز دن كيشوت . واسترد عرشه (٩٥٩) (١٤) . وسميت قشتالة بهذا الاسم نسبة إلى قلعتها (كاستل Castle) . وكانت تواجه الأندلس الإسلامية وتقضى حياتها تنأهب للحرب . وفي عام ٩٣٠ رفض فرسانها أن يظلوا طامعين للملك أسترياس أوليون وأقاموا دولة مستقلة اتخذوا برغوس Burgos عاصمة لها . وضم فرنندو الأول (١٠٣٥ - ١٠٦٥) ليون وجليقية إلى قشتالة . وأرغم أميرى طليطلة وأشبيلية على أن يعطوه جزية سنوية ، ثم فعل ما فعله سانكو العظيم فأفسد جهوده بتقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة ؛ وقد واصل هؤلاء بكل ما وهبوا من حماسة ما طيع عليه ملوك أسبانيا المسيحيون من تطاحن وحروب يقتل فيها الإخوة بعضهم بعضاً .

وأبقى الفقر الزراعى والتمزق السياسى أسبانيا المسيحية متأخرة أشد التأخر عن منافسيها المسلمين فى الجنوب ومنافسيها الفرنجة فى الشمال فى نعيم الحضارة وفنونها . ولم تكن الوحدة حتى فى داخل كل مملكة من ممالكها الصغيرة إلا سحابة صيف لا تكاد تبدو حتى تنفث ؛ فكان التبلد يتجاهلون الملوك إلا فى أوقات الحرب ، ويحكمون من عندهم من رقيق الأرض والعبيد حكم سادة الإقطاع ؛ وكان رجال الكنيسة يؤلفون طبقة ثانية من الأشراف ؛ فكان الأساقفة هم أيضاً يمتلكون رقيق الأرض والعبيد ، ويتولون قيادة جندهم فى الحرب ، ويتجاهلون البابوات فى العادة ، ويحكمون المسيحيين الأسبان حكماً يكاد يجعل منهم كنيسة مستقلة . واجتمع نبلاء ليون وأساقفتها عام ١٠٢٠ فى مجالس قومية وأخذوا يشرعون لمملكة ليون كما تشرع مجالس النواب . وأصدر مجلس ليون مرسوماً يمنح تلك المدينة الحكم الذاتى ، فجعلها بذلك أول مدينة تحكم نفسها

في أوروبا أثناء العصور الوسطى وصدرت مراسيم مماثلة لهذا المرسوم تمنح غيرها من المدن الأسبانية هذا الحكم الذاتي نفسه ، وأكبر الظن أن الغرض من إصدارها هو إثارة حماسها وكسب أموالها في الحروب القائمة مع المسلمين ، وبذلك قامت ديمقراطية حضرية محدودة في وسط النظام الإقطاعي الأسباني ، وتحت سلطان الملكية الأسبانية .

ويشهد تاريخ ردرينجو (راي) دياز (Roderigo Diaz) بما كانت عليه أسبانيا المسيحية في القرن الحادي عشر من بسلة ، وفروسية ، وفوضى . ودرينجو هذا يعرف عندنا باللقب الذي حباه به المسلمون وهو السبر أي الرجل النبيل أو الشريف أكثر مما يعرف بلقبه المسيحي وهو الكمبيدور El Campeador أي المهاجم أو البطل . وكان مولده في بيشار Bivar بالقرب من برغوس Burgos حوالي عام ١٠٤٠ ، ونشأ نشأة المغامرين المحاربين ، يقاتل أينما وجد سبب للقتال يدرّ المال . ولم يكد يبلغ سن الثلاثين حتى صار موضع إعجاب أهل قشتالة لمهارته وجراته في القتال ، وموضع ريتهم لاستعداده أن يحارب المسلمين في صف المسيحيين أو يحارب المسيحيين في صف المسلمين ، ويبدو أن هذا وذاك كانا عنده سواء . وأرسله ألفونسو السادس ملك قشتالة أياً في بالجزية المستحقة له من المعتمد ابن عباد الشاعر أم أشبيلية ، ولكنه اتهم عند عودته بأنه احتفظ ببعض هذه الجزية لنفسه . فنفى من قشتالة (١٠٨١) وانضم إلى قطاع الطرق ، ونظم جيشاً صغيراً من الجنود المغامرين ، وباع خدماته إلى من يشترىها من الحكام المسيحيين والمسلمين . فقد ظل ثماً سنين في خدمة أمير سرقسطة ووسع رقعة أملاك المسلمين على حساب أرغونة . وفي عام ١٠٨٩ قاد سبعة آلاف من الرجال معظمهم من المسلمين ، واستولى على بلنسية وأرغونها على أداء جزية شهرية ، مقدارها عشرة آلاف دينار ذهبي . وفي عام ١٠٩٠ قبض على كونت برشلونة ، ولم يطلقه إلا بعد أن اقتدى بثمانين ألف دينار . ولما وجد بعد رجوعه من تلك

الحملة أن بلنسية قد أغلقت أبوابها دونه حاصرها عاماً كاملاً ، فلما استسلمت له (١٠٩٤) ، نكث بكل الشروط التي ألقت بمقتضاها سلاحها ، وحرق قاضي قضاتها حياً ، ووزع أملاك سكانها على أتباعه ، وكاد يحرق زوجة قاضي القضاة وبناته لولا احتجاج أهل المدينة وجنوده على هذا العمل^(١٥) . وكان السيد حين يقدم على هذه الأعمال وأمثالها إنما يسلك السبيل التي يسلكها أبناء زمانه ، ولكنه كفر عن سيئاته بأن حكم بلنسية حكماً حازماً عادلاً ، وجعلها حصناً منيعاً في وجه جيوش المرابطين المسلمين . وحكمت زوجته يمينه jimena (١٠٩٩) المدينة بعد موته ثلاث سنين . وقد أحاله أعقابه المعجبون به ، بما حاكوه حوله من أقاصيص ، فارساً لا تحركه إلا رغبة مقدسة في إعادة أسبانيا إلى المسيح ، ويعظم الناس رفاته في برغوس تعظيمهم للقديسين^(١٦) .

ولم تستطع أسبانيا المسيحية ، وهي على هذه الحال من الانقسام ، أن تسترد البلاد من المسلمين إلا لأن أسبانيا الإسلامية قد فاقتها آخر الأمر في التمزق والفوضى ؛ وكان ستموط خلافة قرطبة عام ١٠٣٦ فرصة ثمينة اغتنمها ألفonso السادس ملك قشتالة (الأذفنش) ، فاستولى على طليطلة بمعونة المعتمد ملك أشبيلية (١٠٨٥) واتخذها عاصمة للملكة وعامل المسلمين المغلوبين بما جبل عليه المسلمون من كرم ، وشجع انتشار الثقافة الإسلامية في أسبانيا المسيحية .

الفصل الثالث

فرنسا (٦١٤ - ١٠٦٠)

مجيء الكارولنجيين : ٦١٤ ، ٧٦٨

لما جلس كلوتير Clotaire الثانى على عرش الفرنجة لاح أن مركز الأسرة المرونجية وطيد ؛ ذلك أنه لم يحكم ملك قبله من ملوك هذه الأسرة دولة تضارع دولته فى الاتساع والوحدة ؛ ولكن كلوتير كان مديناً بقوته إلى أشرف أستراسيا وبرغندية ؛ وقد كافأهم على تأييدهم له بأن زاد من استقلالهم ووسع أملاكهم ، وبأن اختار واحداً منهم هو پيپين Pepin الأول الأكبر ليكون « ناظراً للقصر » . وكان ناظر القصر فى بادئ الأمر هو المشرف على القصر الملكى وناظراً على المزارع الملكية ؛ وزادت مهام منصبه حين عكف الملوك المرونجيون على الدعارة والدسائس ؛ وأخذ يشرف شيئاً فشيئاً على شئون المحاكم ، والجيش ، والمال . وحده الملك داجوبرت Dagobert (٦٢٨ - ٦٣٩) ابن كلوتير من سلطان ناظر القصر والأشراف وقتما « فوزع العدالة بين الأغنياء والفقراء على السواء » كما يقول فرديجار Fredegart الإخبارى ، « وكان قليل النوم والطعام ، ولم يكن همه إلا أن يخرج الناس من مجلسه ممتلئة قلوبهم غبطة وإعجاباً » (١٧) . غير أن فرديجار يضيف إلى ذلك قوله : « وكانت له ثلاث ملكات وعدد كبير من الخطايا » كما كان « عبداً لشهواته » (١٨) . وعادت السلطة فى عهد خلفائه — الملوك الذين لا يفعلون شيئاً — إلى ناظر القصر : وهزم پيپين الثانى الأصغر منافسيه فى واقعة تسترى Testry (٦٨٧) ، واستبدل بـ « ناظر القصر » لقب دوق الفرنجة وكبيرهم ، وحكم غالة جميعها ما عدا أكين

Aquitaine . وحكم شارل مارتل Charles Martel (المطرقة) ، الذى كان بالاسم ناظراً للقصر ودوق أستراسيا ، غالة كلها تحت سلطان كلوتير الرابع (٧١٧ — ٧١٩) . وهو الذى صد بعزيمته غارات الغاليين مستعيناً بالفريزيين والسكسون ، وهو الذى صد المسلمين عند تور وردهم عن أوربا . وأعان بنيفاس Boniface وغيره من المبشرين على تنصير ألمانيا ، ولكنه حين اشتدت حاجته إلى المال صادر أراضي الكنيسة ، وباع مناصب الأساقفة لقواد الجليش ، وأسكن جيوشه في الأديرة : وقطع عنق راهب بروتستنتى^(١٩) ، وحُكِمَ عليه في مائة منشور وخطبة منبرية بأن مأواه الجحيم .

وأرسل ابنه پيپين الثالث ناظر قصر كلدريك الثالث بعثة إلى البابا زخرياس يسأله هل يأثم إذا خلع الإمعة المروفتنجى وأصبح هو ملكاً بالاسم كما هو ملك بالفعل . وكان زخرياس وقتئذ في حاجة إلى تأييد الفرنجة ضد مطامع اللمبارد فبعث إليه بجواب مطمئن يقول فيه إنه لا يأثم . فلما تلقى پيپين الرد عقد جمعية من الأشراف والمطارنة في سواسون Soissons اختير فيها بإجماع الآراء ملكاً على الفرنجة (٧٥١) ، ثم قص شعر آخر الملوك المروفتنجيين البلاء وأرسله إلى دير . وجاء البابا استيفن الثاني في عام ٧٥٤ إلى دير القديس دنيس St. Denis في أرباض باريس ، ومسح پيپين « ملكاً بنعمة الله » . وهكذا انتهت الأسرة المروفتنجية (٤٨٦ — ٧٥١) وبدأت الأسرة الكارولنجية (٧٥١ — ٩٨٧) .

وكان پيپين الثالث « القصير » حاكماً صبوراً بعيد النظر ، تقياً ، عملياً ، محباً للسلام ، لا يغلب في الحرب ، متمسكاً بالأخلاق الفاضلة إلى حد لم يسبقه إليه ملك آخر في غالة في تلك القرون . وكان پيپين هو الذى مهد لشارلمان سبيل كل ما أتاه من جليل الأعمال ، وفي خلال حكمهما الذى دام ثلاثاً وستين سنة (٧٥١ — ٨١٤) تحولت بلدهما نهائياً من غالة إلى فرنسا . وأدرك پيپين ما في الحكم بغير معونة الدين من صعاب ، فأعاد إلى الكنيسة أملاكها ، وامتنازاتها

وحصانتها ، وجاء إلى فرنسا بالخلفاء المفدسة ، وحملها على كتفيه في موكب فخم ، وأنقذ البابوية من الملوك اللامبارد ، ومنحها سلطات زمنية واسعة في عهده المعروف باسم « عطية پيپين » (٧٥٦) ، وقنع بأن ينال في نظير هذا لقب « التبيل الرومانى » وتحذيراً من البابا للفرنجة بالألا يختاروا ملكاً إلا من سلالته . وتوفى پيپين في عنفوان قوته عام ٧٦٨ بعد أن أوصى بمملكة الفرنجة لولديه كارلومان Carloman الثانى وشارل الذى أصبح فيما بعد شارلمان على أن يحكماها معاً .

٣ - شارلمان : ٧٦٨ - ٨١٤

ولد أعظم ملوك العصور الوسطى عام ٧٤٢ في مكان غير معروف . وكان يجرى في عروقه الدم الألماني وينطق باللسان الألماني ، ويشترك مع قومه في بعض الصفات - قوة الجسم ، والبسالة ورباطة الجأش ، والافتخار بالأصل ، والبساطة الخشنة التى تفصلها مئات السنين عن رقة الفرنسيين الحضرية المصقولة . وكان قليل العلم بالكتب وما فيها ، لم يقرأ منها إلا عدداً قليلاً ، لكن ما قرأه منها كان من خيارها ، وحاول في شيخوخته أن يتعلم الكتابة ولكنه لم يفلح في ذلك كل الفلاح ، غير أنه مع هذا كان يستطيع التحدث باللغة التيوتونية القديمة واللاتينية الأدبية ، وكان يفهم اللغة اليونانية (٢٠) .

ولما مات كارلون الثانى في عام ٧٧١ انفرد شارل بالحكم وهو في التاسعة والعشرين من عمره . وبعد سنتين من انفراده به بعث إليه البابا هديران الثانى بدعوة عاجلة ليساعده على دسديرىوس Desiderius اللامباردى الذى كان وقتئذ يغزو الولايات البابوية . ولجى شارلمان الدعوة وحاصر باثيا واستولى عليها ، ولبس تاج لمباردى ، وأيد عطية پيپين ، وارتضى أن يكون حامى الكنيسة في جميع سلطاتها الزمنية . ولما عاد إلى عاصمته في آخن بدأ سلسلة من الحروب عدتها ثلاث وخمسون - قادها كلها تقريباً بنفسه - يهدف بها إلى تأمين

دولته بفتح بافاريا وسكسونية وجعلهما مسيحيين ، والقضاء على الآثار
المشاغبين المتعبن ، وحماية إيطاليا من غارات المسلمين ، وتقوية حصون
فرنسا حتى تستطيع الوقوف في وجه مسلمى أسبانيا الذين ييغون بسط سلاطنتهم
عليها . وكان السكسون المقيعون عند الحدود الشرقية لبلاده وثنين ، أحرقوا
كنيسة مسيحية وأغاروا مراراً على غالة ؛ وكانت هذه الأسباب كافية في
رأى شارلمان لأن يوجه إليهم ثمانى عشرة حملة (٧٧٢ - ٨٠٤) ، قاتل فيها
الطرفان بمنتهى الوحشية . فلما هزم السكسون خيرهم شارلمان بين التعميد
والموت وأمر بضرب رقاب ٤٥٠٠ منهم في يوم واحد (٢١) ، وسار بعد
فعلته هذه إلى ثيونفيل ليحتفل بميلاد المسيح .

وبينا كان شارلمان في پادر بورن Paderborn إذ استغاث به ابن العربى
حاكم برشلونة المسلم فى عام ٧٧٧ لينصره على خليفة قرطبة . فما كان
منه إلا أن سار على رأس جيش عبر به جبال البرانس ، وحاصر مدينة
يمهلونا المسيحية ، وعامل البشكنس مسيحيى أسبانيا الشمالية الذين لا يحصى
عديدهم معاملة الأعداء ، وواصل زحفه حتى وصل إلى سرقسطة نفسها .
غير أن الفتن الإسلامية التى وعد ابن العربى بإثارتها على الخليفة والتى
كانت جزءاً من الخطة الحربية المدبرة لم يظهر لها أثر ، ورأى شارلمان أن
جيوشه بمفردها لا تستطيع مقاومة جيوش قرطبة ، وتراى إليه أن السكسون
ثائرون عليه وأنهم يزحفون وهم غضاب على كولونى Cologce ؛ فرأى من
حسن السياسية أن يعود بجيشه إلى بلاده ، واخترق بهم فى صف طويل
رفيع ممرات جبال البرانس . وبينما كان يعبر أحد هذه الممرات عند رُنْسْقال
Roncesvalles من أعمال نبرة إذ انقضت على مؤخرة الفرنجة قوة من
البشكنس ، ولم تكد تبقى على أحد منها (٧٧٨) ؛ وهناك مات هرودلان
Hruodland النبيل الذى أصبح بعد ثلاثة قرون بطل القصيدة الفرنسية الدائمة
الصيت أغنية رولانده Chançon de Roland . وسير شارلمان فى عام ٧٩٥
جيشاً آخر عبر جبال البرانس ، واستولى به على شريط ضيق فى شمالى أسبانيا

الشرق وضمه إلى فرنسا Francia . واستسلمت له برشلونة ، وأقرت
أستراسيا ونبرة بسيادة الفرنجة عليهما (٨٠٦) . وكان شارلمان في هذه
الأيام قد أخضع السكسون لسلطانه (٧٨٥) ، وصد الصقالبه الزاحفين
على بلاده (٧٨٩) ، وهزم الآفار وشتت شملهم (٧٩٠ — ٨٠٥) ، ثم
أخذ في السنة الرابعة والثلاثين من حكمه والثالثة والسعين من عمره إلى السلام .
والحق أنه كان على الدوام يحب شئون الإدارة والحكم أكثر مما
يجب الحرب ، ولم ينزل إلى ميدان القتال إلا ليفرض على أوروبا الغربية ،
التي مزقتها منذ قرون طوال منازعات القبائل والعقائد ، شيئاً من وحدة
الحكم والعقيدة .

وكان في أثناء هذا الحكم قد أخضع لسلطانه جميع الشعوب الضاربة
بين نهر القستولا Vistula والمحيط الأطلنطي ، وبين البحر البلطي وجبال
البرانس ، وإيطاليا كلها تقريباً ، والجزء الأكبر من بلاد البلقان . ترى
كيف استطاع رجل واحد أن يحكم هذه المملكة المتباينة المترامية الأطراف ؟
الجواب أنه قد وهب من قوة الجسم والأعصاب ما يستطيع به أن يأخذ على
عاتقه مئات التبعات ، والأخطار ، والأزمات ، وأن يتحمل ما هو أصعب
على النفس من هذا كله وهو ائثار أبنائه به ليقتلوه . وكان في دمائه دم
أو تعاليم بيبين الثالث الحذر الحكيم ، وشارل مارتل الذي لا يرحم
ولا يلين ، وكان هو نفسه إلى حد ما مطرقة مثل مارتل . وقد وسع
أُملاكهما وحافظ عليهما بما وضعه لهما من نظام عسكري قوى الدعائم ،
وسندها بما أفاء عليهما من ظل الدين وشعائره . وكان في وسعه أن يضع
لنفسه الأهداف الكبار ، وأن يهيئ الوسائل ويبتغي الغايات . وكان في
مقدوره أن يقود الجيوش ، ويقنع الجمعيات ، ويشرح صدور الأعيان ،
ويسيطر على رجال الدين ، ويكبح جماح الحريم .

وقد جعل الخدمة العسكرية شرطاً لامتلاك أكثر من الكفاف من
الأُملاك ، وبهذا أقام الروح العسكرية المعنوية على أساس الدفاع عن الأرض

وتوسيع رقعتها ، وأوجب على كل حر إذا دُعِيَ لحمل السلاح أن يمثل كامل العدة أمام الكونت الحلى ، وكان كل عامل نبيل مشغولا أمامه عن كفاية وحداته . وكان بناء الدولة يقوم على هذه القوة المنظمة بؤيدها كل عامل نفساني تخلعه عليها قداسة صاحب الجلالة الذى باركه رجال الدين ، وفخامة الاحتفالات الإمبراطورية ، والطاعة التقليدية للحكم القائم الموطد الدعائم . وكانت تجتمع حول الملك حاشية من النبلاء الإداريين ورجال الدين - رئيس خدم البيت ، وقاضى القضاة وقضاة حاشية القصر ، ومائة من العلماء ، والخدم ، والكتبة . وكان مما قوى إحساس الشعب باشتراكه فى الحكم ما كان يعقده كل نصف عام من اجتماعات يحضرها الملوك المسلحون ، يجتمعون كلما تطلبت اجتماعهم الشئون الحربية أو غيرها فى مدن ورمز ، وفلنسين ، وآخن ، وجنيف ، وبادربورن . . . وكانت هذه الاجتماعات تعقد عادة فى الهواء الطلق . وكان الملك يعرض على جماعات قليلة من الأعيان أو الأساقفة ما عنده من الاقتراحات التشريعية ؛ فكانت تبحثها وتعيدها إليه مشفوعة باقتراحاتها ثم يضع هو القوانين ويعرضها على المجتمعين ليوافقوا عليها بصياحتهم ؛ وكان يحدث فى بعض الأحوال النادرة أن ترفضها الجمعية بالأين أو القبايع الجماعى . وقد نقل إلينا هنكار Hincmar كبير أساقفة ريمس صورة دقيقة لشارلمان فى أحد هذه الاجتماعات ، فقال إنه كان « يسلم على أكابر الحاضرين ، ويتحدث إلى من لم يكن يراهم إلا قليلا ، ويظهر اهتماما ظريفا بالكبار ، ويلهو مع الصغار » . وكان يطلب إلى أسقف كل إقليم ورئيسه الإدارى أن يباغ الملك فى هذه الاجتماعات عن كل حادثة هامة وقعت فى إقليمه منذ الاجتماع السابق ، ويضيف هنكار إلى أقواله السابقة أن « الملك كان يرغب فى أن يعرف هل الأهليون فى أى ركن من أركان مملكته قلقون مستاعون ، وما سبب قلقهم واستيائهم » (٢٢) . وكان عمال الملك يواصلون نظام الاستعلامات الرومانية القديمة فيستدعون إليهم كبار المواطنين ويطلبون إليهم أن « يعطوا بيانات صحيحة »

معززة بالآيمان عما فى الإقليم الذى يزورونه من أملاك تفرض عليها
الضرائب ، وعن حالة النظام فى هذا الإقليم وعما يقع فيه من الجرائم أو من
فيه من المجرمين . وكانت شهادة جماعة الباحثين الذين يقسمون الآيمان
تستخدم فى أرض الفرنجة فى القرن العاشر للفصل فى كثير من المشاكل المحلية
الخاصة بالأملاك العقارية أو الجرائم . وقد نشأ من هذه الجماعات ، بعد
تطورها على يد النورمان والإنجليز ، نظام المحلفين القائم فى هذه الأيام .

وكانت الدولة مقسمة إلى مقاطعات يحكم كل مقاطعة فى الشئون الروحية
أسقف أو كبير أساقفة ، وفى الشئون الدنيوية قومس Comes (رفيق
للملك) أو كونت . وكانت جمعية محلية من الملاك تجتمع مرتين أو ثلاث
مرات كل سنة فى عاصمة كل مقاطعة لتبدي رأيا فى حكومة الإقليم وتكون
بمثابة محكمة استئناف فيه . وكان للمقاطعات الواقعة على الحدود المعرضة
للخطر حكام من طراز خاص يسمونهم جراف graf أو مار جريف
margrave ، أو مرخرزوج Markherzog ، فكان رولان المرسستالى
Roland of Marcesvalics مثلاً حاكم مقاطعة برتن Breton . وكانت كل
الإدارات المحلية خاضعة لسلطان « مبعوثى السيد » missi dominici — الذين
يرسلهم شارلمان يحملون رغباته للموظفين المحليين ، ويطلعون على أعمالهم ،
وأحكامهم ، وحساباتهم . ويمنعون الرشا ، والاغتصاب ، والمحاباة ،
واستغلال النفوذ ، ويتلقون الشكاوى ، ويردون المظالم ، ويحمون
« الكنيسة ، والفقراء ، والذين تحت الوصاية ، والشعب أجمع » من سوء
استعمال السلطة أو الاستبداد ، وأن يعرفوا الملك بأحوال مملكته . وكان
العهد الذى عين بمقتضاه هؤلاء المبعوثون بمثابة عهد أعظم للشعب وضع قبل
أن يوضع العهد الأعظم Magna Carta لحماية أشراف إنجلترا بأربعة قرون .
ومما يدل على أن هذا العهد كان يقصد به ما جاء فيه ما حدث لدوق إستريا
Istria ، إذ اتهمه المبعوثون بارتكاب عدة مظالم ، واغتصاب الأموال ، فأرغمه

الملك على أن يرد ما اختلسه ، وأن يعرض كل مظلوم عما وقع عليه من ظلم ، ويعترف علناً بجرائمه ، ويقدم الضمانات التي تمنعه من تكرارها . وإذا ما غضضنا النظر عن حروب شارلمان كان هو أعدل الحكام الذين عرفهم أوروبا منذ عهد ثيودريك القوطي . وأكثرهم استنارة .

وتعد القوانين الستة والخمسون الباقية من تشريعات شارلمان من أكثر المجموعات القانونية طرافة في العصور الوسطى . فهي لا تكون مجموعة منتظمة ، بل هي توسع للقوانين « الممجية » الأقدم منها عهداً وتطبيقاً على الظروف والمطالب الجديدة . ولقد كانت في بعض تفاصيلها أقل استنارة من قوانين ليوتبراند للمباردي : فقد أبت على عادات الكفارة عن الجرائم الكبرى ، والتحكيم الإلهي ، والمحاكمة بالاقتتال ، والعقاب ببستر الأعضاء^(٢٤) ، وحكمت بالإعدام على من يرتد إلى الوثنية ، أو من يأكل اللحم في أيام الصوم الكبير — وإن كان يسمح لرجال الدين أن يخففوا هذه العقوبة الأخيرة^(٢٥) . ولم تكن هذه كلها قوانين ، بل منها ما كان فتاوى ، ومنها ما كان أسئلة موجهة من شارلمان إلى موظفيه ، ومنها ما هو نصائح أخلاقية . وقد جاء في إحدى المواد : « يجب على كل إنسان أن يعمل بكل ما لديه من قوة وكفاية لخدمة الله واتباع أوامره ، لأن الإمبراطور لا يستطيع أن يراقب كل إنسان في أخلاقه الخاصة »^(٢٦) . وحاولت بعض المواد أن تقيم العلاقات الجنسية والزوجية بين أفراد الشعب على قواعد أكثر نظاماً مما كانت قبل ، على أن الناس لم يطيعوا هذه النصائح كلها ، ولكن القوانين والنصائح في مجموعها تم عن جهود صادقة لتحويل الممجية إلى حضارة .

وشرع شارلمان للزراعة ، والصناعة ، والشئون المالية ، والتعليم ، والدين ، كما شرع لشئون الحكم والأخلاق . وكان حكمه في فترة انحطت فيها الحالة الاقتصادية جنوبي فرنسا وإيطاليا إلى الحضيض من جراء سيطرة المسلمين على

البحر المتوسط . وفي هذا يقول ابن خلدون إن المسيحيين لم يكن في وسعهم أن يسيروا لوحا فوق البحر (٢٧) ، وكانت العلاقات التجارية بأجمعها بين غرب أوروبا وأفريقية وشرق البحر المتوسط غاية في الاضطراب . وكان اليهود وحدهم هم الذين يربطون النصفين المتعادين من البلاد التي كانت أيام حكم رومة عالما اقتصاديا موحدا . وبقيت التجارة قائمة في أوروبا الخاضعة لحكم الصقلية وبيزنطية ، وفي شمالها التبتوني . كذلك كانت القناة الإنجليزية وكان بحر الشمال بموجان بالتاجر ، ولكن هذه التجارة الأخيرة أيضاً اضطربت أحوالها قبل موت شارلمان ، وقد أوقعتها في هذا الاضطراب غارات أهل الشمال وقرصنتهم .

وكاد أهل الشمال يغلقون ثغور فرنسا الشمالية ، والمسلمون يغلقون ثغورها الجنوبية ، حتى أضحت لهذا السبب جزيرة منفصلة عن العالم ، وبلداً زراعياً ، واضمحلت فيها طبقة التجار الوسطى ، فلم تبق هناك طبقة تنافس كبار الملاك في الريف ؛ وكان مما ساعد على قيام نظام الاقطاع في فرنسا هبات شارلمان للأراضي وانتصار الإسلام .

وبذل شارلمان جهوداً جبارة لحماية الفلاحين الأحرار من نظام رقيق الأرض الآخذ في الانتشار . ولكن قوة الأشراف والظروف القاهرة المحيطة به أحبطت جهوده . وحتى الاسترقاق نفسه اتسع نطاقه وقتاً ما نتيجة لحروب الكارولنجيين ضد القبائل الوثنية . وكانت أهم موارد الملك مزارعه الخاصة التي كانت مساحتها تتسع من حين إلى حين نتيجة المصادرة ، والهبات ، وعودة بعض الأراضي إلى الملك ممن يموتون بغير ورثة ، واستصلاح الأراضي البور . وقد أصدر للعناية بهذه الأراضي قانوناً زاعياً مفصلاً أعظم تفصيل يشهد بعنايته التامة في بحث جميع موارد الدولة ومصرفاتها . وكانت الغابات والأراضي البور ، والطرق العامة ، والموانئ وجميع ما في الأرض من معادن ملكاً للدولة (٢٨) . وشجع ما بقي في البلاد من تجارة بكافة السبل ؛ فبسطت الدولة حمايتها على الأسواق ، ووُضع

نظام دقيق للموازين والمقاييس والأثمان ، وخُففت المكوس . ومُنعت المضاربات على المحاصيل قبل حصادها ؛ وأنشئت الطرق والجسور أو أُصلحت ، وأنشئ جسر عظيم على نهر الرين عند مينز ، وطهرت المسالك المائية لتبقى مفتوحة على الدوام ، واختطت قناة تصل الرين بالدانوب حتى يتصل بحر الشمال بالبحر الأسود . وحافظت الدولة على ثبات النقد ، ولكن قلة الذهب في فرنسا وانحلال التجارة أدت إلى استبدال الجنيه الفضي بجنيه شارلمان المعروف باسم السوليدس Solidus .

وامتدت جهود الملك وعتابته إلى كل ناحية من نواحي الحياة ، فأسمى الرياح الأربع بأسمائها التي تعرف بها الآن ؛ ووضع نظاماً لإعانة الفقراء ، وفرض على النبلاء ورجال الدين ما يلزمه من المال لهذا المشروع ، ثم حرم التسول وجعله جريمة يعاقب عليها القانون (٢٩) . وهاله انتشار الأمية في أيامه حين لا يكاد أحد يعرف القراءة والكتابة . غير رجال الدين ، كما هاله انعدام التعليم بين الطبقات الدنيا من هذه الطائفة ، فاستدعى علماء من الأجانب لإعادة مدارس فرنسا إلى سابق عهدها ؛ فأغرى بولس الشماس على أن يأتي إليه من منى كسينو ، وألكوين من يورك (٧٨٢) ، ليعلم في المدرسة التي أنشأها شارلمان في القصر الملكي بآخن . وكان ألكوين هذا (٧٣٥ - ٨٠٤) رجلاً سكسونياً ، ولد بالقرب من مدينة يورك ، وتعلم في مدرسة الكتدرائية وهي المدرسة التي أنشأها الأسقف لإجبرت في تلك المدينة ؛ وقد كانت بريطانيا وأيرلندة في القرن الثامن متقدمتين من الناحية الثقافية عن فرنسا . ولما بعث أفا Offa ملك مرسية Mercia ألكوين في بعثة إلى شارلمان ألح شارلمان على ألكوين أن يبقى عنده ، وسر ألكوين أن يخرج من إنجلترا حين كان الدنمقيون يتلفون أرضها ، ويدنسون الأديرة بما يرتكبونه فيها من الزنى (٣٠) ، فأثر البقاء ؛ وبعث إلى إنجلترا وغيرها من البلاد في طلب الكتب والمعلمين ، وسرعان ما أضحت مدرسة القصر مركزاً نشيطاً من

مراكز الدرس ، ومراجعة المخطوطات ونسخها ، كما أوضحت مركزاً لإصلاح نظم التربية لإصلاحاً عم جميع المملكة . وكان من بين طلابها شارلمان نفسه ، وزوجته ليوتجارد Liutgard ، وأولاده وابنته جزيلا Gisela ، وأمين سره اجنهارد Eginhard ، وإحدى الراهبات ، وكثيرون غيرهم . وكان أكثرهم شغفاً بالتعليم ؛ فكان يحرص على العلم حرصه على تملك البلاد ؛ يدرس البلاغة وعلوم الكلام ، والهيئة ؛ ويقول اجنهارد إنه بذل جهوداً جبارة ليتعلم الكتابة « وكان من عادته أن يحتفظ بالألواح تحت وسادته . حتى يستطيع في أوقات فراغه أن يمرن يده على رسم الحروف ؛ ولكن جهوده هذه لم تلق إلا قليلاً من النجاح لأنه بدأ هذه الجهود في آخر سني حياته » (٣١) . ودرس اللاتينية بنهم شديد ، ولكنه ظل يتحدث بالألمانية مع أفراد حاشيته ؛ وقد وضع كتاباً في نحو اللغة الألمانية وجمع نماذج من الشعر الألماني القديم .

ولما ألح الكوين على شارلمان . بعد أن قضى في مدرسة القصر ثمانى سنين ، أن ينقله إلى بيئة أكثر منها هدوءاً ، عينه الملك على كره منه رئيساً لدير تور (٧٩٦) ؛ وهناك حشد ألكوين الرهبان لينقلوا نسخاً من الترجمة اللاتينية المتداولة للتوراة والإنجيل التي قام بها جيروم أحد آباء الكنيسة اللاتين ، ومن الكتب اللاتينية القديمة ، بحيث تكون أكثر دقة من النسخ المتداولة وقتئذ . وحذت الأديرة الأخرى حذو هذا الدير . وبفضل هذه الجهود كانت كثير من أحسن ما وصل إلينا من النصوص القديمة من مخطوطات هذه الأديرة في القرن التاسع الميلادي ؛ وقد احتفظ لنا رهبان العصر الكارولنجي بما لدينا من الشعر اللاتيني كله تقريباً عدا شعر كاتلس Catullus ، وتيبلس Tibullus . وبروبرتيوس Propertius ، وبما لدينا من النثر اللاتيني كله تقريباً ما عدا كتابات فارو Varro ، وتاسيتس Tacitus . وأبوليوس Apuleius (٣٢) . وكانت كثير من المخطوطات الكارولنجية جميلة الزخرفة يزينها فن الرهبان وصبرهم الطويل ؛

وكان من آثار هذه الكتب المزخرفة التي أخرجتها مدرسة القصر أناجيل « فينا » التي كان أباطرة ألمانيا المتأخرون يقسمون عليها إيمان تنويجهم .

وأصدر شارلمان في عام ٧٨٧ إلى جميع أساقفة فرنسا ورؤساء أديرتها « توجيهات لدراسة الآداب » ، يلوم فيها رجال الدين على ما يستخدمونه من « اللغة الغظة » و « الألسنة غير المهذبة » ويحث كل كنيسة ودير على إنشاء مدارس يتعلم فيها رجال الدين وغير رجال الدين على السواء القراءة والكتابة . ثم أصدر توجيهات أخرى في عام ٧٨٩ يدعو فيها مديري هذه المدارس أن « يحرصوا على ألا يفرقوا بين أبناء رقيق الأرض وأبناء الأحرار ، حتى يمكنهم أن يأتوا ويجلسوا على المقاعد نفسها ليدرسوا النحو ، والموسيقى ، والحساب » . وفي عام ٨٠٥ صدرت تعليمات أخرى تهيئ لهذه المدارس تعليم الطب ، وتعليمات غيرها تندد بالخرافات الطبية . ومما يدلنا على أن أوامره لم تذهب أدراج الرياح كثرة ما أنشئ في فرنسا وألمانيا الغربية من مدارس في الكنائس والأديرة ، فلقد أنشأ ثيودلف Theodulf أسقف أورليان مدارس في كل أبرشية من أسقفية ، رحب فيها بجميع الأطفال على السواء ، وحرم على القساوسة الذين يتولون التدريس أن يتناولوا أجوراً^(٣٣) ، وذلك أول مثل للتعليم العام المجاني في التاريخ كله . ونشأت مدارس هامة ، متصلة كلها تقريبا بالأديرة ، في خلال القرن التاسع في تور ، وأوكسير Auxer ، وباثيا ، وسانت جول ، St. Gall ، وفلدا Fulda ، وغنت Ghent وغيرها من المدن . وأراد شارلمان أن يوفر حاجة هذه المدارس إلى المعلمين ، فاستقدم العلماء من أيرلندا ، وبريطانيا ، وإيطاليا . ومن هذه المدارس نشأت في المستقبل الجامعات الأوروبية .

على أننا يجب ألا نغالي في تقدير القيمة العقلية لذلك العهد . فلقد كان هذا البحث المدرسي أشبه بيقظة الأطفال منه بالنضوج الثقافي الذي كان قائما وقتئذ في القسطنطينية ، وبغداد ، وقرطبة ، فلم يثمر هذا البحث كتاباً كبيراً من

أى نوع كان . وكتابات الكوين الشكلية عملة ، مقبضة ، خائقة ، وليس فيها ما يننى عنه تهمة التحديق والتباهى بالعلم ، وتدل على أنه إنسان لطيف يستطيع أن يوفق بين السعادة والتقى ؛ وليس فيها ما يدل على هذا ويننى ذلك إلا بعض وسائله وأبيات من شعره . ولقد أنشأ كثير من الناس أشعاراً فى أثناء هذه النهضة العلمية القصيرة الأجل ، منها قصائد ثيودلف التى فيها قدر كاف من الجمال على طريقها الضميمة الخاصة بها . غير أن الأثر الأدبى الخالد الوحيد الذى خلفه ذلك العهد هو الترجمة المختصرة البسيطة لشارلمان التى كتبها اجنهارد . وهى تحلو حذو كتاب سوتنيوس Seutonius هياة القياصرة Lives of the Caesars ، بل إن الكتاب الأول ليقطف بعض فقرات من الثانى يصف بها شارلمان . على أننا يجب أن نغفر كل شيء للمؤلف الذى يصف نفسه فى تواضع جم بأنه « همجى » ، لا يعرف إلا قليلا من لسان الرومان « (٢٤) » ، وما من شك رغم هذا الاعتراف فى أنه رجل عظيم المواهب ، لأن شارلمان عينه أستاذاً لقصره ، وخازناً لبيت ماله ، واتخذ صديقاً مقرباً له ، واختاره ليشر فى كثير من العمار فى حكمه الإنسانى العظيم ، ولعله قد اختاره لتخطيطها .

وشيدت قصور للإمبراطور فى أنجلهم Ingelheim ونجمجين Nijmegen ، وأقام فى آخن عاصمته الهبة القصر والكنيسة الصغيرة اللبائعى الصيت اللذين تعرضا لأكثر من ألف من الأخطار وظلا قائمين حتى دمرتهما قنابل الحرب العالمية الثانية . وقد أقام المهندسون المجهولون تلك الكنيسة على نمط كنيسة سان فيتال San Vitale برافنا وهى التى أقيمت على غرار الكنائس البيزنطية والسورية ؛ فكانت النتيجة أن وجدت كنيسة شرقية جانحة فى الغرب . وقد أقيمت فوق البناء المثلث قبة مستديرة ، وقسم البناء من الداخل عدة أقسام بطابقين من عمد مستديرة « وزينت بمصاييح من الذهب والفضة ، وحظار ، وأبواب من البرنز المصمت ، وأعمدة وبوارق جىء بها من رومة ورافنا » (٢٥) ، وبنقش فسيفسائى « ذائع الصيت فى القبة .

وكان شارلمان سخيا غاية السخاء على الكنيسة ، ولكنه مع هذا جعل نفسه سيدها ، واتخذ من عقائدها ورجالها أدوات لتعليم الناس وحكمهم . وكانت كثرة رسائله متعلقة بشئون الدين ، فكان يقذف الفاسدين من موظفيه والقساوسة الدنيويين بعبارات مقتبسة من الكتاب المقدس ؛ وإن ما في أقواله من القوة لينفي عنه مظنة أن تقواه كانت خدعة سياسية . فقد كان يبعث بالمال إلى المسيحيين المنكوبين في البلاد الأجنبية ، وكان يصر في مفاوضاته مع الحكام المسلمين على أن يراعوا العدالة في معاملة رعاياهم المسيحيين (٣٦) . وكان للأساقفة شأن كبير في مجالسه ، وجمعياته ، ونظامه الإداري ، ولكنه كان ينظر إليهم ، رغم احترامه الشديد لهم ، على أنهم عماله بأمر الله ، ولم يكن يتردد في أن يصدر أوامره لهم ، حتى في المسائل المتعلقة بالعقائد أو الأخلاق . ولقد ندد بعبادة الصور والتماثيل حين كان البابوات يدافعون عنها ، وطلب إلى كل قس أن يبعث إليه بوصف مكتوب لطريقة التعميد في أبرشيته ، ولم تكن توجيهاته للبابوات أقل من هداياه لهم ، وقضى على ما يحدث في الأديرة من تمرد ، ووضع نظاماً للرقابة الصارمة على أديرة النساء بمنع « الدعارة ، والسكر ، والشره » بين الراهبات . سأل القساوسة في أمر وجهه لهم عام ٨١١ عما يقصدون بقولهم إنهم ينبذون العالم على حين « أننا نرى » بعضهم يكدحون يوماً بعد يوم بجميع الوسائل ، ليزيدوا أملاكهم ، فتارة يتخذون التهديد بالنار الأبدية وسيلة يستخدمونها لأغراضهم الخاصة ، وتارة يعدون الناس بالنعيم السرمدي لهذه الأغراض نفسها ، وطوراً يسلبون السذج أموالهم باسم الله أو اسم أحد القديسين ، ويلحقون بذلك أعظم الضرر بورثتهم الشرعيين . على أنه رغم هذا قد أبقي لرجال الدين محاكمهم الخاصة ، وأمر بأن يؤذى إلى الكنيسة عشر غلة الأرض ، وجعل لرجال الدين الإشراف على شئون الزواج ، والوصايا ، وأوصى هو نفسه بثاني ضياعه لأسقفيات

ملكته (٢٧) ، ولكنه كان يطلب إلى الأساقفة بين الفينة والفينة أن يقدموا « هبات » قيمة لتساعد على الوفاء بنفقات الحكومة .

وقد أثمر هذا التعاون الوثيق بين الكنيسة والدولة فكرة من أجل " الأفكار في تاريخ الحكم : ألا وهي استحالة دولة شارلمان إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي تستند إلى كل ما كان لرومة الإمبراطورية والبابوية من هيبة ، وقداسة ، واستقرار . ولقد كان البابوات من زمن طويل يستنكرون خضوع أقاليمهم إلى بيزنطية التي لا تصد عنها غارة ولا تقر فيها أمناً ، وكانوا يشاهدون خضوع البطارقة المتزايد إلى إمبراطور القسطنطينية ويخشون أن تضع حريتهم هم أيضاً . ولستأ نعرف من الذي لاحت له فكرة تتويج شارلمان إمبراطوراً رومانياً على يد البابا أو من الذي وضع خطة هذا التتويج ، وكل ما نعرفه أن الكوين ، وثيودلف وغيرهما من الملففين حوله قد تناقشوا في إمكانه ، ولعلمهم هم الذين خطوا فيه الخطوة الأولى ، أو لعل مستشاري البابا هم الذين فكروا في هذا الأمر . وقامت في سبيل تنفيذه صعاب شديدة : فقد كان إمبراطور الروم يلقب وقتئذ بلقب الإمبراطور الروماني ، وكان أحق الناس من الوجهة التاريخية بذلك اللقب ، ولم يكن للكنيسة حق معترف به في حمل الألقاب أو نقلها من شخص إلى آخر ، ولربما كان منح اللقب لشخص منافس لبيزنطية سبباً في إشعال نار حرب عاجلة عوان بين المسيحيين في الشرق وإخوانهم في الغرب ، حرب تترك أوربا المحرقة غنيمة سهلة للفتوح الإسلامية . غير أن الأمر قد يسره بعض التيسير أن إيريني جلست على عرش أباطرة الروم (٧٩٧) ؛ فقد قال البعض وقتئذ إنه لم يعد هناك إمبراطور روماني ، وإن الباب أصبح مفتوحاً لكل من يطالب باللقب ، فإذا ما نفذت هذه الخطة الجريئة قام مرة أخرى إمبراطور روماني في الغرب ، تقوى به المسيحية اللاتينية وتتوحد ، فتستطيع مقاومة انشقاق بيزنطية وتهديد المسلمين ، ولعل ما في اللقب الإمبراطوري من رهبة وسحر يمكن

أوروبا المسيحية من أن تعود أدرجها خلال القرون المظلمة وترث حضارة العالم القديم وثقافته وتشر المسيحية في ربوعه .

وحدث في السادس والعشرين من ديسمبر عام ٧٩٥ أن اختير ليو الثالث بابا ، ولم يكن شعب رومة يحبه ، وكان يتهمه بعدة فعال خبيثة ، ثم هاجمه العامة في الخامس والعشرين من إبريل عام ٧٩٩ ، وأساءوا معاملته ، وسجنوه في دير . لكنه هرب من سجنه ، وفر إلى شارلمان في بادربورن وطلب إليه أن يحميه . وأحسن الملك استقباله ، وأعادته إلى رومة مع حرس مسلح ، وأمر البابا ومتميه أن يمثلوا أمامه في تلك المدينة في العام المقبل . ودخل شارلمان العاصمة القديمة بموكب فخيم في الرابع والعشرين من نوفمبر عام ٨٠٠ ، واجتمعت في أول ديسمبر جمعية من الفرنجة والزومان ، واتفقت على إسقاط التهم الموجهة إلى ليو إذا ما أقسم يمينا مغلظة على أنه لم يرتكبها . وأقسم ليو اليمين وتبأت السبيل إلى إقامة احتفال فخيم بعيد الميلاد . فلما أقبل ذلك اليوم ركع شارلمان للصلاة أمام مذبح القديس بطرس بالعبادة اليونانية القصيرة والصندين ، وهما اللباس الذي كان يرتديه كبراء الرومان ، ثم أخرج ليو على حين غفلة تاجاً مطعماً بالجواهر ووضع على رأس الملك . ولعل المصلين كانوا قد علموا من قبل أن يفعلوا ما توجه عليهم الشعائر القديمة التي يقوم بها كبراء الشعب الروماني لتأييد هذا التتويج ، فنادوا ثلاث مرات : « ليحي شارل الأفخم ، الذي توجه الله لإمبراطوراً عظيماً للرومان لينشري بينهم السلام » . ومسح رأس الملك بالزيت المقدس ، وحيا البابا شارلمان ونادى به إمبراطوراً وأغسطس ، وتقدم إليه بمراسم الولاء التي ظلت محتفظاً بها للإمبراطور الشرقي منذ عام ٤٧٦ .

وإذا جاز لنا أن نصدق اجنهارد ، فلن شارلمان قد قال له إنه ما كان ليدخل الكنيسة لو أنه عرف أن ليوينوى تتويجه إمبراطوراً . ولربما كان قد عرف الخطة بوجه عام ، ولكنه لم يرض عن السرعة التي تمت بها والظروف المحيطة

بها وقت إتمامها ، ولعله لم يكن يسره أن يتلقى التاج من بابا ، فيفتح بقبوله منه باباً للنزاع الذي دام قروناً طويلاً بين البابا والإمبراطور ، وأيهما أعظم مكانة وأقوى سلطاناً : المعطى أو آخذ العطية ، ولعله فكر أيضاً فيما سوف يجره ذلك من نزاع مع بيزنطية في المستقبل . ثم أرسل شارلمان عدة رسائل وبعوث إلى القسطنطينية يريد بها أن يأسوا الحرج الذي أحدثته هذه الفعلة ، وظل زمناً طويلاً لا ينتفع بلقبه الجديد ، حتى كان عام ٨٠٢ فعرض الزواج على إيريني ليكون ذلك وسيلة يجعل بها لقيهما المشكوك فيهما شرعيين (٣٩) ، ولكن سقوط إيريني عن عرشها أفسد هذه الخطة اللطيفة . وأراد بعد ذلك أن يقلل من بخطر هجوم بيزنطية عليه فوضع خطة لعقد اتفاق ودى مع هارون الرشيد ، وقد أبد هارون ما نشأ بينهما من حسن التفاهم بأن أرسل إليه عدداً من القيلة ومفاتيح الأماكن المقدسة في بيت المقدس . ورد الإمبراطور الشرقي على ذلك بأن شجع أمير قرطبة على عدم الولاء لبغداد ، وانتهى الأمر في عام ٨١٢ حين اعترف إمبراطور الروم بشارلمان إمبراطوراً نظير اعترافه بأن البندقية وإيطاليا الجنوبية من أملاك بيزنطية ،

وكان لتتويج شارلمان نتائج دامت ألف عام ، فقد قوى البابوية والأساقفة إذ جعل السلطة المدنية مستمدة من الهبة الكنسية ، وأتاحت حوادث عام ٨٠٠ لجريجورى السابع وإنوسنت الثالث أن يقيما على أساسها كنيسة أقوى من الكنيسة السابقة ، وقوت شارلمان على البارونات الغضاب وغيرهم لأنها جعلته ولياً لله في أرضه ، وأيدت أعظم التأييد نظرية حق الملوك الإلهي في الحكم ، ووسعت الهوة بين الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية ، لأن أولاهما لم تكن ترغب في الخضوع إلى كنيسة رومانية متحالفة مع إمبراطورية منافسة لبيزنطية . ولقد كان استمرار شارلمان في اتخاذ آخن لا رومة عاصمة له شاهداً على انتقال السلطة السياسية من بلاد البحر المتوسط إلى أوروبا الشمالية ، ومن الشعوب اللاتينية إلى التوتون . وأهم من هذا كله أن تتويج شارلمان أقام الإمبراطورية

الرومانية المقدسة عملياً وإن لم يقمها من الوجهة النظرية . وكان شارلمان ومستشاروه يرون أن سلطته الجديدة إحياء للسلطة الإمبراطورية القديمة ، على أن الصيغة الجديدة الخاصة بهذا النظام لم يعترف بها إلا في عهد أوتو Otto الأول ، كما أنها لم تصبح « مقدسة » إلا حين ضم فردريك باربرسا Frederik Barbarossa لفظة مقدس sacrum إلى اللقابة في عام ١١٥٥ . وجملة القول أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت — على الرغم من تهديدها للعقول وللمواطنين — فكرة نبيلة ، وحلماً من أحلام الأمن والسلام ، وعودة للنظام والحضارة إلى عالم أنقذ من براثن الحمجية ، والعنف ، والجهل .

وأصبحت المراسم الإمبراطورية تكتنف الإمبراطور في المهام الرسمية ؛ فكان عليه أن يلبس أثواباً مزركشة ، ذات مشبك ذهبي ، وحذاءين مرصعين بالجواهر ، وتاجاً من الذهب والجوهر ، وكان على زائريه أن يسجدوا أمامه ليقبلوا قدمه أو ركبته ؛ هذا ما أخذه شارلمان عن بيزنطية وما أخذته بيزنطية عن طيسفون . غير أن إجنهارد يؤكد لنا أن ثيابه — إذ استثنينا ما ذكرناه عنها آنفاً — لم تكن تختلف إلا قليلاً عن ثياب الفرنجة العادية : كانت تتألف من قميص من القيل ، وسروال قصير لا شيء تحته ، ومن فوق القميص والسروال القصير قباء من الصوف ربما كانت له أهداب من الحرير ، وجوزب طويل مربوط بشرطين يغطي ساقيه ، وحذاءين من الجلد في قدميه ؛ وكان يضيف إليها في الشتاء معطفاً ضيقاً من جلود ثعلب الماء (*) أو الفئك (**) ، وكان يحتفظ بسيف إلى جانبه لا يغارقه أبداً . وكان طول قامته ست أقدام وأربع بوصات ، وكانت بنته تتناسب مع هذا الطول . وكان أشقر الشعر ، شقذ العينين (†) ، أشم الأنف ،

(*) أو سمور الماء . وهو حيوان يعيش في البر والبحر معاً وله من أصابع رجليه جلدة تعاونه على السباحة (عن معجم الدكتور شرف) .

(**) أو ثعلب الصحراء marten (عن معجم الدكتور شرف) .

(†) يقال رجل شقذ إذا كان شديد البصر سريع الإصابة بالعين . (عن الثغراء) . المترجم

له شاربان وليست له لحية « جليلا مهيب الطلعة على الدوام » (٤٠) . وكان معتدلاً في طعامه وشرابه ، يمتنع السكر أشد المقت ، جيد الصحة على الدوام مهما تعرض لتقلبات الجو ومهما قاسى من الصعاب . وكثيراً ما كان يخرج للصيد ، أو يمارس ضروب الرياضة العنيفة على ظهور الخيل ؛ وكان سباحاً ماهراً ، يحب الاستحمام في عيون آخن الدفينة . وقلماً كان يدعو الناس إلى الولائم ، لأنه كان يفضل الاستماع إلى الموسيقى أو قراءة كتاب في أثناء الطعام . وكان يعرف قيمة الوقت كما يعرفها كل عظيم : وكان يستقبل زائريه ويستمع إلى قضاياهم في الصباح وهو يرتدى ثيابه أو يلبس حذاءيه .

وكان من وراء مهابته وجلاله عاطفة قوية وهمة عالية ، ولكنه كان يسخر عاطفته وهمته لتحقيق أغراضه ويوجههما بذكائه وثاقب بصره . ولم تستنفد حروبه التي تربى على نصف المائة قوته وحيويته . وكان إلى هذا كله شديد العناية بالعلوم والقوانين ، والآداب ، وعلوم الدين لا تفتر حماسته لها على مر السنين ؛ وكان يسوؤه أن يبقى جزء من الأرض لم يستول عليه أو أى فرع من فروع العلم لم يضرب فيه بسهم . وكان شريف النفس من بعض الوجوه ، وكان يزدري الخرافات ، ويحرّم أعمال المتنبيين أو العرافين ، ولكنه صدّق كثيراً من الأعاجيب الأسطورية ، وبالغ في مقدرة الشرائع على إصلاح أخلاق الناس وعقولهم . ولقد كان لهذه السداجة النفسية بعض المحاسن : فقد كان في تفكيره وحديثه صراحة ونُبْل قلماً نراها في رجال الحكم .

وكان يسعه أن يكون قاسياً إذا تطلبت سياسة الدولة القسوة ، وأشد ما كانت قسوته فيما بدله من جهود لنشر الدين المسيحى ؛ ولكنه مع هذا كان عظيم الرأفة ، كثير الإحسان ، وفيأخلصاً لأصدقائه ، ولقد بكى بالدمع عند وفاة أولاده ، وبنته ، والبابا هدریان . ويرسم لنا ثيودلف في قصيدة له عنوانها « حكم سارل » صورة لطيفة للإمبراطور في بيته ، فيقول إنه إذا قدم من أعماله

أحاط به أبنائه ، فوخلع عنه ابنه شارل عباة ، ويأخذ ابنه لويس سيفه ،
وتعانقه بناته الست ، ويأتين له بالخبز ، والخمر ، والتفاح ، والأزهار ،
ويدخل الأسقف ليبارك طعام الملك ، ويقرب منه الكوين ليبحث معه
ما لديه من الرسائل ؛ ويهرول إجنهارد الضليل الجسم هنا وهناك كآء نملة ،
ويأتيه بكتب ضخمة^(١١) . وقد بلغ من حبه لبناته أن أقنعهم بعدم الزواج ،
وقال إنه لا يطيق فراقهن ؛ ومن أجل هذا أخذن يواسين أنفسهن بالارتقاء
في أحضان العشاق وجئن بعدة أبناء غير شرعيين^(١٢) . وقد قابل شارلمان
هذه الأعمال منهن بنفس سمحة ، لأنه هو نفسه قد جرى على سنة أسلافه ،
فأخذ له أربع أزواج واحدة بعد الأخرى ، وأربع عشيقات أو حظايا . ذلك
أن حيويته الموفورة جعلته شديد الإحساس بمقتات النساء ، وكانت نسائه
يوثرن أن يكون للواحدة منهن نصيب منه على أن يكون لها رجل آخر
بمفردها . وقد ولدت له نسائه نحو ثمانية عشر من الأبناء والبنات منهم
أربعة شرعيون^(١٣) . وغض من في حاشيته ومن في رومة من رجال الدين
أبصارهم عن تحلل رجل مسيحي مثله من قيود الأخلاق المسيحية .

وكان شارلمان وقتئذ على رأس دولة أعظم من الإمبراطورية البيزنطية
لا يعلو عليها في عالم الرجل الأبيض إلا دولة الخلفاء العباسيين ؛ ولكن
كل توسع في حدود الإمبراطوريات أو العلوم يخلق مشاكل جديدة . فلقد
حاولت أوروبا الغربية أن تحمي نفسها من الألمان بإدماجهم في حضارتها ؛
غير أن ألمانيا كان عليها في هذا الوقت أن تحمي نفسها من أهل الشمال ومن
الصفالبة ؛ وكان الملاحون من أهل الشمال قد أنشأوا لهم مملكة في چتلنده
Jutland قبل عام ٨٠٠ م وأخلوا يغفرون على سواحل فريزيا Frisia .
وأسرع إليهم شارل من رومة ، وأنشأ الأساطيل والقلاع عند الشواطئ
والأنهار ، وأقام حاميات في الأماكن المعرضة للأخطار ؛ ولما أغار ملك
چتلنده على فريزيا عام ٨١٠ صدّه عنها ، ولكن شسارلمان هاله
أن يشهد من قصره في تربونة بعد قليل من ذلك الوقت ، إذا جاز لنا أن

تصدق أخبار راهب سانت جول ، سفين القراصنة الدنمركيين في خليج ليون . ولعله قد تنبأ ، كما تنبأ دقلديانوس من قبل ، بأن إمبراطوريته الواسعة في حاجة إلى الدفاع السريع عنها في عدة مواضع في وقت واحد ، فقسمها في عام ٨٠٦ بين أولاده الثلاثة - بيپين ، ولويس ، وشارل . ولكن بيپين توفي في عام ٨١٠ ، وشارل في عام ٨١١ ، ولم يبق من هؤلاء الأبناء إلا لويس ، وكان منهيكا في العبادة انهما كانا بدا معه أنه غير خليق بأن يحكم عالما مليئا بالاضطراب والغدر . غير أن لويس رغم هذا قد رفع باحتمال منهيبي في عام ٨١٣ من ملك إلى إمبراطور ونطق الملك الشيخ قائلا : « حمداً لك يا إلهي إذا أنعمت عليّ . » بأن أرى بعيني ولدي يجلس على عرشي . (١٤) .

وبعد أربع سنين من ذلك الوقت أصيب الملك الشيخ وهو يقضى الشتاء في آخن بحمى شديدة نتج عنها التهاب البلورة ، وحاول أن يداوى نفسه بالاعتصار على السوائل ، ولكنه توفي بعد سبعة أيام من بداية المرض بعد أن حكم سبعا وأربعين سنة وعاش اثنين وسبعين (٨١٤) ، ودفن تحت قبة كاتدرائية آخن ، مرتدياً أثوابه الإمبراطورية . وما لبث العالم كله أن أمماه كارولس ماجنوس Carolus Magnus أو كارل در جروس Karl der Grosse أو شارلمان Charlemagne (أى شارل العظيم) ، ولما حل عام ١١٦٥ ومحا الزمان جميع ذكريات عشيقاته ضمته الكنيسة إلى أحسن إليها الإحسان كله في زمرة الصالحين المنعمين .

٣ - اضمحلال الكارولنجيين

كانت النهضة الكارولنجية فترة من فترات البطولة المتعددة في العصور المظلمة ، ولولا ما انصف به خلفاء شارلمان من عجز وماشجريينهم من نزاع لكان من المستطاع أن تقضى هذه الفترات قبل مجيء أبلار بثلاثة قرون على ظلمات تلك

العصور ، وعلى فوضى بارونات الإقطاع ، وعلى النزاع الذى قام بين الكنيسة والدولة ومزقها شر ممزق ، وعلى غارات النورمان ، والمجر ، والمسلمين التى أدى إليها هذا النزاع الأخرق . لكن رجلا بمفرده ، وحياة بمفردها لم يكفيا لإقامة حضارة جديدة . يضاف إلى هذا أن تلك النهضة القصيرة الأجل كانت نهضة كنسية ضيقة أشد الضيق ، فلم يكن للمواطن العادى فيها نصيب ، وما أقل من كان يعنى بها من النبلاء ، وما أقل من كان منهم يشغل نفسه بتعلم القراءة . وما من شك فى أن شارل نفسه ملوم إلى حد ما على انهيار دولته . فلقد أفاء على رجال الدين من الثراء ما جعل سلطان الأساقفة ، بعد أن رفعت يده القوية عنهم ، يرجح سلطان الإمبراطور ؛ ولقد اضطرت أسباب حربية وإدارية أن يمنح المحاكم والبارونات فى الأقاليم قدراً من الاستقلال شديد الخطورة . ثم إنه جعل مالية الحكومة الإمبراطورية ذات الأعباء الجسام تعتمد على ولاء هؤلاء الأشراف الغلاظ واستقامتهم ، وعلى ما تدره أراضيهم ومناجمهم من إيرادات غير كبير ، ولم يكن فى وسعه أن يعمل ما عمله أباطرة الروم فينشئ "بيروقراطية من الموظفين المدنيين مسئولين أمام السلطة المركزية دون غيرها ، وقادرين على النهوض بأعباء الحكم مهما تكن شخصية الإمبراطور وأتباعه ، فلم يكف يعضى على وفاته جبل واحد حتى أقبل رسل الإمبراطور الذين بسطوا سلطانه فى الولايات أو تجاهل الولاة وجودهم ، وألقى الأعيان المحليون عن كاملهم سلطان الحكومة المركزية . وهلاك القول أن حكم شارلمان كان عملاً جليلاً من أعمال العباقرة يمثل الرقى السياسى فى عصر وفى رقعة من الأرض يعمها الاضمحلال الاقتصادى .

وإن الألقاب التى أطلقها المعاصرون لخلفائه عليهم لتكنفى وحدها لأن نقص علينا قصتهم : لويس التقي Louis the Pious ، وشارل الأصغر Charles the Bald ، ولويس المتلعثم Louis the Stammerer وشارل البدين Charles

the Fat ، وشارل الساذج Charles the Simple . فأما لويس « التقي » (*) (٨١٤ — ٨٤٠) فكان كأبيه طويل القامة ، بهي الطلعة ، وكان متواضعاً ، رقيق الحاشية ، خبيراً كريماً ، مفرطاً في اللين لإفراط بولبوس قيصر . وكان قد تربى على أيدي القساوسة فجعلته هذه التربية شديد الاهتمام بالمبادئ الأخلاقية التي كان يزاولها شارلمان باعتدال . من ذلك أنه لم تكن له إلا زوج واحدة ولم يكن له قط حظايا ، وأنه طرد من حاشيته عشيقات أبيه وعشاق أخواته ، ولما احتجت أخواته على عمله هذا حبسهن في أديرة الراهبات . وأرغم القساوسة على أن يعملوا بأقوالهم ، وأمر الرهبان أن يحيا الحياة التي توجبها عليهم قواعد البندكتين ، وحاول أن يقضى على المظالم والاستغلال أينما وجدا ، وأن يصلح ما كان فاسداً من قبل . وقد أعجب الناس به لانحيازه إلى الضعفاء على الأقوياء في جميع الأحوال .

وأحسن لويس أن عادات الفرنجة توجب عليه تقسيم دولته فقسمها إلى ممالك يحكمها أبناؤه — بيبين ، ولوثير Lothaire ، واويس « الألمانى » (وسنسميه لدقج فيما بعد) . وقد رزق له يس من يوديت Juidith زوجته الثانية ابناً رابعاً يعرف في التاريخ باسم شارل الأصلع ؛ وكان لويس يحبه حباً لا يكاد يقل عن افتتان الأجداد بأحفادهم ، ويريد أن يعطيه قسطاً من إمبراطوريته بعد أن يلغى التقسيم الذي عمله في عام ٨١٧ ؛ لكن أولاده الثلاثة الكبار عارضوا في هذا وشنوا على أبيهم حرباً داخلية دامت ثمانية أعوام . وأيدت كثرة النبلاء ورجال الدين هذه الفتنة ، ثم خرجت عليه القلة التي ظلت موالية له عند ما تأزمت الأحوال في رُنفلد Rothfeld (القرية من كلمار Colmar) والتي عرفت فيما بعد باسم لوجنفلد Lügenfeld أى ميدان الأكاذيب . فلما رأى ذلك لويس أمر من بقى من أنصاره أن يتركوه وشأنه وأن يهتموا بحماية أنفسهم ، ثم استسلم لأبنائه

(*) وكلمة Pious الإنجليزية (ومثلها تقي العربية) ترجمة خاطئة فأيدها طول الزمن لكلمة pius اللاتينية التي تعنى موقر ، أمين رحيم ، لطيف ، وكثيراً من المعاني الأخرى .

(٨٣٣) ، فلما تم لهم ذلك سجنوا يوديث وجزوا شعرها ، وأودعوا شارل الصغير في دير ، وأمروا أباهم أن ينزل عن العرش وأن يكفر علاناً عما فعل . وجيء بلويس إلى كنيسة بسواسون يحيط به ثلاثون أسقفا ، وأرغم في حضرة لوثير ابنه وخلفه على أن يخلع ملابسه حتى وسطه ، وأن يسجد على قطعة من نسيج الشعر ويقرأ جهرة اعترافاً بجريمته . ثم لبس مسوح الندم الرمادية اللون ، وقضى سنة في أحد الأديرة . وحكمت فرنسا من تلك اللحظة أسقفية موحدة قامت بين الأسرة الكارولنجية المتفككة .

واشماز الشعب من سوء معاملة لوثير لأبيه لويس ، واستجاب كثيرون من النبلاء وبعض رجال الدين لنداء يوديث حين طالبت بإلغاء قرار الخلع ، ودب النزاع بين الإخوة الثلاثة ، وأطلق پيپين ولدفع أباهما ، وأجلساه على عرشه ، وأعاد يوديث وشارل إلى أحضانه (٨٣٤) . ولم يثار لويس لنفسه ، بل عفا عن كل من أساءوا إليه . ولما مات پيپين (٨٣٨) قسمت الدولة تقسيماً جديداً لم يرض عنه لدفع ، وهجم على سكسونيا ، ونزل الإمبراطور الشيخ مرة أخرى إلى ميدان القتال ، وصعد المهاجمين ، ولكنه مرض من تعرضه لتقلبات الجو وهو عائد من الميدان ، وتوفي بالقرب من إنجلهايم Ingelheim (٨٤٠) . وكان من آخر الألفاظ التي نطق بها رسالة يصنف بها عن لدفع ، ويدعو لوثير ، وقد أصبح إمبراطوراً ، أن يحمي يوديث وشارل .

وحاول لوثير أن ينزل شارل ولدفع منزلة الأنباع ، ولكنهما هزماه عند فنتناي Fontenay (٨٤١) ، وأقسما عند استراسبرج بين الولاء المتبادلة المشهورة بأنها أقدم وثيقة كتبت باللغة الفرنسية . لكنهما وقعا مع لوثير في عام ٨٤٣ معاهدة فردون ، وقسموا فيما بينهم إمبراطورية شارلمان أقساماً ثلاثة تنطبق بوجه التقريب على إيطاليا ، وألمانيا ، وفرنسا الحالية . فاخص لدفع بالأراضي المحصورة بين نهري الرين والإلب ، واخص شارل بالجزء الأكبر من فرنسا وبولايات

الحدود الأسبانية ، وأعطى لوثير إيطاليا والأراضي المحصورة بين الرين شرقاً ، والشلد Scheld ، والساءون Saône والرون غرباً . وسميت هذه الأراضي الغير المتجانسة ، والممتدة من هولندا إلى بروكسانس باسم لوثير - فكانت أرض لوثير ، أو لوثيرنجيا Lutheringia . أو لوثيرنجار Lutharingar ، أو لورين Lorraine . ولم تكن ذات وحدة جنسية أو لغوية ، فكان لا بد أن تصبح ميداناً للقتال بين ألمانيا وفرنسا ، وكثيراً ما استبدلت سيداً بسيد فيما تقلب عليها من نصر وهزيمة أريقَت فيهما الدماء أنهاراً .

وفي خلال هذه الحروب الداخلية الكثيرة الأكلاف ، والتي أضعفت الحكومة ، وأنقصت السكان ، والثروة ، والروح المعنوية في أوروبا الغربية ، غزت القبائل الإسكندنافية في سعيها إلى التوسع وبسط السلطان بلاد فرنسا فاكسحتها بموجة همجية واصلت وأتمت الخراب والدمار اللذين جاءا في أعقاب الهجرات الألمانية قبل ذلك الوقت بثلاثة قرون . فبينما كان أهل السويد يتسربون إلى روسيا والرومانيون يضعون أقدامهم في أيرلندا ، والدنمركيون يفتحون إنجلترا ، كان خليط من أهل اسكنديناوة ، في وسعنا أن نسميهم الشماليين أو أهل الشمال ، يغفرون على مدائن فرنسا القائمة على شواطئ البحار أو ضفاف الأنهار . واستحالت هذه الغارات بعد موت لويس التقي حملات قوية . تقوم بها أساطيل مؤلفة من أكثر من مائة سفينة ، يسيرها ملاحون محاربون . وقامت فرنسا في القرنين التاسع والعاشر سبعة وأربعين من هذه الهجمات الشمالية ، ونهب المغفرون في عام ٨٤٠ مدينة رون Rouen ، وبدأوا مائة عام من الهجمات على نورماندى ، وفي عام ٨٤٣ دخلوا مدينة نانت Nantes وذبحوا أسقفها وهو قائم للصلاة أمام مذبحه ، وفي عام ٨٤٤ صعدوا في نهر الجارون Garonne إلى طلوثة Toulouse . وفي عام ٨٤٥ صعدوا في نهر السين إلى باريس ، ولكنهم تركوا المدينة وشأنها بعد أن أخذوا جزية مقدارها سبعة آلاف رطل من الفضة .

وبينا كان المسلمون يهاجمون رومة استولى أهل الشمال على فريزيا في عام ٨٤٦ وأحرقوا دوردرخت Dordrecht ، ونهبوا ليموج Limoges . ثم حاصروا بوردو Bordeaux في عام ٨٤٧ ، ولكنهم ردوا عنها . وأعادوا الكرة عليها في عام ٨٤٨ ، واستولوا عليها في هذه المرة ، ونهبوها ، وقتلوا أهلها ، وأحرقوها عن آخرها . وفي العام الذي تلاه وجهوا مثل هذه الضربات إلى بوفييه Beauvais وبايو Bayeux ، وسانت لو St. Lu ، ومو Meaux ، وإيفرو Evreux ، وتور Tours وفي وسعنا أن نصور ما حل بهذه البلاد من رعب إذا قلنا إن تور نُهبت في أعوام ٨٥٣ ، و ٨٥٦ ، و ٨٦٢ ، و ٨٧٢ ، و ٨٨٦ ، و ٩٠٣ ، و ٩١٩^(٤٥) ، وإن باريس نُهبت . عامي ٨٥٦ ، و ٨٦١ ، وأحرق في عام ٨٦٥ . وجهاز الأساقفة في أورليان وشارتر Chartres جيشين صدوا بهما المغيرين (٨٥٥) ، ولكن القراصنة الدنمركيين خربوا أورليان في عام ٨٥٦ . وفي عام ٨٥٩ اخترق أسطول شمالي مضيق جبل طارق ودخل البحر المتوسط ، ونهب المدن الواقعة على ضفاف الرون من مصبه حتى مدينة فالنيس Valence شمالا ، ثم عبر خليج جنوا ، ونهب پيزا وغيرها من المدن الإيطالية . ولما قاومتهم قلاع النبلاء الحصينة في أماكن متفرقة في طريقهم نهبوا أو أتلفوا كنور الكنائس والأديرة غير المحمية ، وكثيراً ما أحرقوها بما فيها من مكتبات ، ولم ينج القساوسة والرهبان من القتل في بعض الأحيان . وكان الناس في تلك الأيام الحالكة يدعون ربهم في صلواتهم قائلين : « اللهم أنقذنا من شر أهل الشمال »^(٤٦) ! وكأنما كان المسلمون على موعد مع الشماليين فاستولوا على قورسقة وسردينية في عام ٨١٠ ، ونهبوا ساحل الرقييرا الفرنسي في عام ٨٢٠ ، وخربوا أرل Arles في ٨٤٢ ، واستولوا على ساحل فرنسا الواقع على البحر المتوسط وبقي في أيديهم حتى عام ٩٧٢ .

تري ماذا كان يفعل الملوك والأشراف خلال هذه الأعوام الخمسين

المليئة بالتدمير والتخريب ؟ فأما الأشراف فقد كان لديهم من المشاغل ما يكفيهم ، ولم يكونوا يرغبون في أن يخفوا لمساعدة أقاليمهم ، ولم يستجيبوا إلا لاستجابات ضعيفة لما وجه إليهم من نداء للعمل الإجماعي . وأما الملوك فكانوا في شغل شاغل بحروبهم في سبيل التملك أو الاستيلاء على تاج الإمبراطورية ، وكانوا أحياناً يشجعون الشماليين في غاراتهم على سواحل منافسيهم . وحدث في عام ٨٥٩ أن اتهم هنكار كبير أساقفة ريمس شارل الأصلاح علناً بالإهمال في الدفاع عن فرنسا . وخلف شارل فيما بين ٨٧٧ و٨٨٨ ملوك أكثر منه ضعفاً — لويس الثالث ، وكارلومان ، وشارل البدين . وتعاونت أحداث الزمان والمنايا فتوحدت مملكة شارلمان مرة أخرى تحت حكم شارل البدين ، وأتيحت للإمبراطورية المختصرة فرصة أخرى للدفاع عن حياتها . ولكن أهل الشمال استولوا على نهجمجين Nijmegen وأحرقوها في عام ٨٨٠ ، وانخلدوا من كورتراي Courtrai وغنت قلاعاً لهم حصينة ، وفي عام ٨٨٦ أحرقوا لياج Liège ، وكولوني ، وبن Bonn وبروم Prüm ، وآخن ؛ وفي عام ٨٨٢ استولوا على تريير Trier ، وقتلوا كبير أساقفتها الذي قاد المدافعين عنها ؛ وفي السنة نفسها استولوا على ريمس ، وأرغوا هنكار على أن يقاتل ويموت . وفي عام ٨٨٣ استولوا على أمين Amiens ، ولكنهم انسحبوا منها بعد أن أخذوا اثني عشر ألف رطل من الفضة من كارلومان . وفي عام ٨٨٥ استولوا على رون ، وساروا في النهر صعداً إلى باريس في سبعمائة سفينة عليها ثلاثون ألف رجل . وقاد حاكم المدينة الكونت أودو Odo أو أود Eudes ، وأسقفها جزلان Gozlin المدافعين عنها ، وقاوموا المغيرين مقاومة باسلة . وظلت باريس مضروباً عليها الحصار ثلاثة عشر شهراً هاجم المدافعون عنها المحاصرين اثنتي عشرة مرة ؛ وانتهى الأمر بأن أدى شارل البدين إلى الشماليين ٧٠٠٠ رطل من الفضة بدل أن يخف لإنقاذ المدينة ، وأذن لهم فوق ذلك أن يسيروا في نهر السين صعداً ويقضوا الشتاء في برغندية التي نهبها نهباً .

ترفضه نفوسهم : ثم خلع شارل وتوفى عام ٨٨٨ ، واختير أودو ملكاً على فرنسا ، وصارت باريس بعد أن ثبتت قيمتها من الوجهة الحربية الفنية مقر الحكومة .

وحمل شارل الساذج الذى خلف أودو على العرش (٨٩٥ - ٩٢٣) إقليم السين والساون من المغيرين ، ولكنه لم يرفع يده ضد غارات الشماليين على بقية فرنسا ، ثم لم يكتف بهذا بل أسلم إلى رولف Rolf أورولو Rollo أحد زعماء النورمان فى عام ٩١١ إقليم رون ، وليزيو Lisieux ، وإفرو Evreux . وكان النورمان قد استولوا عليها من قبل . ووافق النورمان على أن يؤدوا عنها لملك ما يؤديه أمراء الإقطاع عن أملاكهم ، ولكنهم كانوا يسخرون منه وهم يقومون بمراسم الولاء التقليدية . وارتضى ليو أن يُعمد ، وحذا رجاله حذوه ، ثم استقروا على مهل وأصبحوا زراعاً ومتحضرين . وهكذا بدأت نورمانديا بأن كانت ولاية فى فرنسا فتحتها أهل الشمال .

ولقد وجد الملك الساذج حلاً لمشكلة باريس إن لم يكن لغيرها من المشاكل ؛ ذلك أن النورمان أنفسهم سيصدون بعد ذلك الوقت من يحاولون دخول السين من المغيرين . أما فى غير هذا الجزء من فرنسا فلم تنقطع غارات الشماليين ، فهبت تشارتر فى عام ٩١١ ، وأنجير Angers فى عام ٩١٩ ، ونهبت أكتين Aquitaine ، وأوفرني فى عام ٩٢٣ ، كما نهبت آرتوا وإقليم بوفيه فى ٩٢٤ . وفى هذا الوقت نفسه تقريباً دخل الحبر برغندي فى عام ٩١٧ بعد أن خربوا جنوبي ألمانيا ، واجتازوا الحدود الفرنسية ، ثم اجتازوها راجعين دون أن يلقوا مقاومة ، ونهبوا الأديرة القريبة من ريمس وسان Sens وأحرقوها (٩٣٧) ، واخترقوا كأرجال الجراد الفتاك أكتين (٩٥١) وأحرقوا ضواحي كورتراي ، وليون ، وريمس (٩٥٤) ، ونهبوا برغندي على مهل . وأوشك صرح النظام الاجتماعى فى فرنسا أن ينهار تحت هذه الضربات المتكررة التى كالتها له الشماليون والهون . وفى ذلك يقول أحد المجامع الدينية المقدسة فى عام ٩٠٩ :

لقد أقفرت المدن من السكان ، وخربت الأديرة وأحرقت ، وأضحت
البلاد في عزلة . . . وكما كان الناس الأولون يعيشون بغير قانون . . .
فكذلك يفعل الآن كل إنسان ما يبدو حسناً في نظره غير آبه بالشرائع البشرية
والدينية . . . فالأقوياء يظلمون الضعفاء ، والعالم ملء بالعنف والقسوة
على الفقراء ، وأمالك الكنائس تنهب . . . ويلتهم الناس بعضهم بعضاً
كما يفعل السمك في البحر (٤٧) .

وكان آخر الملوك الكارولنجهين - لويس الرابع ، ولوثير الرابع ، ولويس
الخامس ملوكاً حسنى النية ، ولكنهم لم يكن لهم من القوة ما لا بد منه لإقامة
نظام دائم من ذلك الخراب الشامل . ولما مات لويس الخامس ولم يكن له
أبناء (٩٨٧) ، بحث أعيان فرنسا ورجال الدين فيها عن زعيم لهم من أسرة
أخرى غير الكارولنجهين ، حتى وجدوا هذا الزعيم المنشود من نسل مركيز
من نوستريا Neustria يحمل ذلك الاسم العظيم الدلالة وهو ربرت القوى
Robert the Strong (المتوفى عام ٩٦٦) . وكان أودومنقذ باريس ابن
هذا المركيز ، وكان هيو الأكبر Hugh the Great أحد أجداده (المتوفى
عام ٩٥٦) قد حصل بالشراء أو الحرب على الإقليم المحصور بين نورمانديا ،
والسين ، والوار كله تقريباً وكان فيه أميراً إقطاعياً ، واجتمع له فيه من
الثروة والسلطان ما لم يجتمع للملوك . وورث هيو كابت Hugh Capet ابن
هيو هذا جميع تلك الثروة وذاك السلطان ، وورث ، كما يلوح ، العزيمة التي
كسبتهما . وعرض أدلبرو Adaibero كبير الأساقفة ، بإرشاد العالم الداهية
جربرت ، أن يكون هيو كابت ملكاً على فرنسا . فاختير لهذا المنصب
بالإجماع (٩٨٧) وبدأت بذلك الأسرة الكابيتية التي حكمت ابناً أو ابناً أو حكام
فروعها مملكة فرنسا إلى عهد الثورة الكبرى .

٤ - الآداب والفنون ٨١٤ - ١٠٦٦

لعلنا قد غالبنا في وصف ما أحدثته غارات الشماليين والمجر من أضرار ،
ذلك أن حشدها كلها في حيز قليل توخياً للإيجاز يجعل صورة الحياة في تلك
الآوقات قائمة فوق ما تستحق ، مع أنها لم تكن تخلو بلا ريب من فترات ساد
فيها الأمن والسلام ، فقد ظلت الأديرة تشاد خلال هذا القرن التاسع
الرهيب ، وكثيراً ما كانت مراكز للصناعة الناشطة ، وازدادت مدينة رون
قوة بفضل تجارتها مع بريطانيا رغم ما أصيبت به من غارات وحرائق ،
وسيطرت كولوني ومينز على التجارة المارة بنهر الرين ، ونشأت في فلاندرز
مراكز غنية صناعية وتجارية بمدن غنت ، وإيبرس Ypres ، وليل Lile ،
ودويه ، وآراس Arras ، وتورناي Tournai ، ودينان Dinant ،
وكبريه ، وليميج ، وفلنسين .

وأصيبت مكتبات الأديرة بنحسائر فادحة في كنوزها القديمة من جراء
هذه الغارات ، وما من شك في أن كثيراً من الكنائس التي أنشئت فيها
مدارس عملاً بقرار شارلمان قد دمرت ، وإن كانت مكاتب قد بقيت
في الأديرة أو الكنائس القائمة في فلدا ، ولورسن Lorson ، وريشنو
Reichenau ، ومينز ، وترير ، وكولوني ، وليميج ، ولأون Laon ،
وريمس ، وكوربي Corbie ، وفليري Fleury ، وسانت دنيس ،
بوتور ، وبيو Bobbio ، ومونتي كسينو ، وسانت جول . . . واشتهر
دير البندكتيين في سانت جول بمن كان فيه من الكتاب ، كما اشتهر
بمعرضته وكتبها ، وفيه كتب نكتر بلبولوس Notker Balbulus -
الألكن - (٨٤٠ - ٩١٢) ترانيم بديعة ممتازة وسجل راهب سانت جول ،
وفيه ترجم نكتر لبيثو Notker Labeo - الغليظ الشفة - (٩٥٠ -
١٠٢٣) كتب بوثيوس ، وأرمسطو وغيرها من الكتب القديمة

إلى اللغة الألمانية ؛ وأعانت هذه التراجم - وهي من أول ما كتب بالنثر الألماني - على تثبيت تراكيب اللغة الجديدة وقواعدها .

وحتى فى فرنسا الجريئة كانت مدارس الأدبيرة تضىء حلقة هذه العصور المظلمة . فقد افتتح ريمى الأوكسيرى Remy of Auxerre مدرسة عامة فى باريس عام ٩٠٠ ؛ وأنشئت فى القرن العاشر مدارس أخرى فى أوكسير وكوربي ، وريمس ، ولييج . وأسس الأسقف فلبير Fulbert (٩٦٠ - ١٠٢٨) بمدينة تشارتر حوالى ١٠٠٦ مدرسة أصبحت أشهر مدارس فرنسا كلها قبل أيام أبلار ؛ ففيها وضع سقراط المجل - كما كان تلاميذه يسمونه - قواعد تدريس العلوم ، والطب ، والآداب القديمة ، بالإضافة إلى علوم الدين ، والكتاب المقدس ، والطقوس الدينية . وكان فلبير هذا رجلاً كريم الطبع ، عظيم الإخلاص ، صبوراً صبر أولى العزم من الرسل ، محسناً متصدقاً إلى أقصى حد . ولقد تخرج فى مدرسته - قبل ختام القرن الحادى عشر - علماء أمثال جون السلزبورى John of Salisbury ، ووليم الكنشى William of Conches ، وبرنجار الثورى Berengar of Tours ، وجلبرت ده لاپريه Gilbert de la Porrée . وفى هذه الأثناء وصلت مدرسة القصر التى أنشأها شارلمان أوج مجدها فى كيبينى Compiègne تارة وفى لأون تارة أخرى بفضل ما حباها به شارل الأصغر من عون وتشجيع .

فقد استدعى شارل إلى مدرسة القصر فى عام ٨٤٣ علماء أيرلنديين وإنجليز فى مختلف العلوم ، كان من بينهم عالم من أعظم العقول المبتكرة وأعظمها جرأة فى العصور الوسطى ، رجل يبعث وجوده فى ذلك الوقت الشك فى صواب استبقاء اسم « العصور المظلمة » حتى على القرن التاسع نفسه ، بله غيره من القرون .

ويكشف اسمه عن أصله كشفاً مضاعفاً ، فهو جوهان أسكوتس إريوجينا Johannes Scotus Eriugina أى جون الأيرلندى المولود فى إرين Erin .
وسنسميه نحن إرجينا Erigena وكفى . ويبدو أنه لم يكن من رجال الدين ،
ولكنه كان رجلاً متبحراً فى العلوم ، يجيد اللغة اليونانية ، مغرمًا بأفلاطون
والآداب القديمة ، حلوا الفكاهة إلى حد ما . ومحدثنا إحدى القصص —
التي يبدو من سياقها كله أنها من مخترعات الأدباء — أن شارل الأضلع ،
كان يطعم معه فى يوم من الأيام فسأله : ما الفارق بين الأبله والأيرلندى
quid distat inter sottum et Scottum ؟ فأجابه جون — كما تروى
القصة — : « المنضدة » (١٨) . ولكن شارل رغم هذا كان يحبه حبا جما ،
وكان يشهد محاضراته ، وأكبر الظن أنه كان يستظرف إلحاده . ويفسر
جون العشاء الرباني فى كتابه عن القربان المقدس بأنه عمل رمزى ،
ويتضمن هذا ارتيابه فى وجود المسيح بحق فى الخبز والخمر المقدسين .
ولما أخذ الراهب الألماني جتسشولك Gottschalk ينادى بمبدأ الحرية المطلقة
وينكر تبعاً لذلك مبدأ حرية الإرادة فى الإنسان ، طلب هنكار كبير
الأساقفة إلى إرجينا أن يرد عليه كتابة . فأجابه هذا إلى ما طلب وكتب
رسالته المسماة *الحرية الإلهية* De Divina praedestinatione (حوالى عام
٨٥١) . وقد بدأها بإطراء الفلسفة لإطراء عظيمها فقال : « من يشأ أن
يبحث جاداً عن علل الأشياء جميعها ويحاول كشفها ، يجد جميع الوسائل
الموصلة إلى العقيدة الصالحة الكاملة فى العلم والتدريب اللذين يطلق عليهما
اليونان اسم الفلسفة » . وينكر الكتاب فى واقع الأمر مبدأ الحرية ، ويقول
الإرادة حرة عند الله وعند الإنسان ، وإن الله لا يعرف الشيء ، ولو
عرفه لكان هو سببه . وكان رد إرجينا أكثر إلحاداً من أقوال جتسشولك ،
وأبكره مجلسان من مجالس الكنيسة فى عامى ٨٥٥ و ٨٥٩ ، وأودع
جتسشولك فى دير قضى فيه بقية حياته ، أما إرجينا فقد حماه الملك .

وكان ميخائيل الألكن إمبراطور بيزنطية قد بعث إلى لويس التقي في عام ٨٢٤ مخطوطا يونانيا لكتاب يسمى الحكومة الكسنتونية السماوية . ويعتقد المسيحيون المتدينون أن مؤلفه هو ديونيشيوس « الأريوباغي » Disnysius the "Areopagite" . وأحال لويس التقي المخطوط إلى دبر سانت دنيس ، ولكن أحداً ممن فيه لم يستطع ترجمة لغته اليونانية ، فقام لإرجينا بهذه المهمة لإجابة لطلب الملك . وتأثر بالترجمة أعظم التأثر ، وأعاد الكتاب إلى المسيحية غير الرسمية الصورة التي ترسمها الأفلاطونية الجديدة للكون المتولد أو المنبعث من الله في مراحل مختلفة أو درجات من الكمال آخذة في النقصان ، والذي يعود ببطء وبلدجات متفاوتة إلى الله مرة أخرى .

وأصبحت هذه هي الفكرة الرئيسية التي يدور حولها أعظم مؤلفات جون التفسير الطبيعي (٨٦٧) . ففي هذا الكتاب نجد بين كثير من السخف ، وقبل أبلار بقرنين من الزمان ، إخضاعاً جريئاً لعالم الدين والوحى إلى العقل ، ومحاولة للتوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية ، وفيه يقرّ جون بصحة الكتاب المقدس ، ولكنه يقول إنه لما كان معناه في كثير من أجزائه غامضاً ، فإن الواجب يقضى بتفسيره حسبما يلميه العقل - ويكون ذلك عادة بفهم نصوصه على أنها رموز أو استعارات . ويقول لإرجينا في هذا : « إن السلطان يُستمد أحياناً من العقل ولكن العقل لا يُستمد أبداً من السلطان ، ذلك بأن كل سلطان لا يرضى عنه العقل السليم يبدو ضعيفاً ، ولكن العقل السليم لا يحتاج إلى تأييد السلطان أيا كان نوعه لأنه يستند إلى قوته »^(٤٩) . « ويجب ألا نحتج بآراء آباء الكنيسة ... إلا إذا كان لا بد لنا من الاحتجاج بآرائهم لتقوية حججنا أمام الناس الذين لا يحسنون الاستدلال ، ولهذا يخضعون للسلطان للعقل »^(٥٠) . فها هو ذا عصر العقل يتحرك في أرحام عصر الإيمان .

ويعرف جون الطبيعة بأنها : « اسم عام يطلق على جميع الأشياء التي

تكون وغير التي تكون ، أى على جميع الأجسام ، والعمليات ، والمبادئ ، والعلل ، والأفكار . وهو يقسم الطبيعة إلى أربعة أنواع من الكائنات :

(١) ذاك الذى يَخْلُق ولكنه لا يَخْلُق - أى الله . (٢) ذلك الذى يَخْلُق وَيَخْلُق - أى العلل الأولى ، والمبادئ ، والنماذج الأولى ، والأفكار الأفلاطونية ، والكلمة ، وهى التى يتكون من عملياتها عالم الأشياء المفردة ، (٣) ذلك الذى يَخْلُق ولا يَخْلُق - أى عالم الأشياء المفردة السالفة الذكر ، (٤) ذلك الذى لا يَخْلُق ولا يَخْلُق - أى الله بوصفه الغاية النهائية التى تستوعب كل شئ . فالله هو كل شئ كائن بحق ، لأنه يَكُون الأشياء جميعها ويتكوّن من الأشياء جميعها . وليس ثمة عملية خلق فى وقت بذاته ، لأن هذا القول يتضمن تغيراً فى الله . « فإذا سمعنا أن الله قد أوجد كل شئ ، فيجب ألا نفهم من هذا القول إلا أن الله حال فى كل شئ - أى يوجد بوصفه جوهر كل الأشياء » (٥١) . « والله نفسه لا يدركه عقل من العقول ، وليس الجوهر المكنون لكل شئ والذى خلقه الله مما يمكن إدراكه ، وكل الذى نراه هو الأعراض لا الجواهر » (٥٢) - أى صور الأشياء التى تدركها الحواس والعقول لاحقاً ثمها التى لا تعرف ولا يمكن معرفتها - كما يقول كانت Kant فيما بعد . وليست الخصائص المحسوسة فى الأشياء متأصلة فى الأشياء نفسها ، وإنما تتكوّن من الأشكال التى تدركها بها . « فإذا قبل لنا إن الله يرغب ، ويحب ، ويختار ، ويرى ، ويسمع ... فيجب ألا نفكر إلا فى أن حقيقته وقوته اللتين لا يستطيع وصفهما يُعبّر عنهما بمعان تتفق معنا فى طبيعتها » - أى موائمة لطبيعتنا ، « حتى لا يجد المسيحي الحق التى ما يقوله عن الخالق ، فلا يقول شيئاً عنه ليعلم به النفوس الساذجة » (٥٣) . ولمثل هذا الغرض لا الشئ سواء نستطيع أن نتحدث عن الله كأنه ذكر أو أنثى ، وليس « هو » هذا ولا ذاك (٥٤) . فإذا فهمنا لفظ « الأب » بمعنى المادة الخالقة أو جوهر الأشياء جميعها ، و « الابن »

على أنه الحكمة الإلهية التي تتكون أو تحكم بمقتضاها الأشياء كلها ، والروح على أنه الحياة أو حيوية الخلق ، إذا فهما هذه الثلاثة على هذا النحو جاز لنا أن نفكر في الله على أنه ثالث . وليست الجنة والنار مكانين ، بل هما أحوال النفس ، فالنار هي الشقاء المنبعث من الخطيئة ، والجنة هي السعادة المنبعثة من الفضيلة والنشوة المنبعثة من الرؤيا الإلهية (إدراك الألوهية) التي تتكشف من الأشياء جميعها للنفس الثقية (٥٥) . وليست جنة عدن مكاناً على الأرض ، بل هي حالة كهذه من حالات النفس (٥٦) . والأشياء جميعها خالدة : فللحيوانات أيضاً ، كما للآدميين ، نفوس تعود بعد الموت إلى الله أو إلى الروح الخالق الذي انبعث منه (٥٧) . والتاريخ كله إن هو إلا فيض من عملية الخلق إلى الخارج عن طريق الانبعاث ، وموجة مديدة لا تغلب نحو الداخل تجذب الأشياء جميعها في آخر الأمر إلى الله :

لقد وجدت فلسفات شر من هذه الفلسفة وفي عصور النور ، ولكن الكنيسة حسبها تموج بالإلحاد والزندقة . ولهذا طلب نقولاس الأول إلى شارل الأصلع في عام ٨٦٥ إما أن يبعث بجون إلى رومة ليحاكم أو أن يفصله من مدرسة القصر . « حتى لا يستمر في تسميم الذين يسعون لطلب الخبز » (٥٨) . ولسنا نعرف نتيجة هذا الطلب ، غير أن إنجليزياً من أهل مالزبرى Malsbury يروى « أن جوهان اسكوتس جاء إلى إنجلترا وإلى ديرنا ، كما تقول الأخبار ، وأن الأولاد الذين يعلمهم كانوا يَشْكُونُهُ بِأَقْلَامِهِمُ الْحَدِيدِيَّةِ » ، وأنه مات من أثر هذا العمل . وأكبر الظن أن هذه النصبة حلم من أحلام تلاميذ كان يتمنى تحقيقه . ولقد تأثر بارجينا فلاسفة من أمثال جربرت ، وأبلار ، وجلبرت ده لاپوريه على غير علم منهم ، غير أنه بوجه عام قد نسي في غمار القوضى الضاربة أطنابها في ذلك العصر المظلم . ولما أن رفع ستار النسيان عن كتابه في القرن الثالث عشر حكم مجلس سنس Sens بتحريمه (١٢٢٥) وأمر البابا هونوريوس Honorius الثالث

بأن ترسل نسخه "جميعها إلى رومة وأن تحرق فيها .

ووقف الفن الفرنسى فى هذه الأوقات المضطربة جامداً لا يتحرك ، فقد ظل الفرنسيون يشيدون كنائسهم على نظام الباسلقا رغم ما ضربه لهم شارلمان من أمثلة . وفى عام ٩٩٦ أصبح أحد الرهبان والمهندسين الإيطاليين ويدعى وليم من أبناء فلبيانو Volpiano رئيساً لدير فيكامب Fécamp النورمانى . وقد جاء معه من إيطاليا بكثير من أساليب الطراز النورمانى والرومانسى ، ويبدو أن أحد تلاميذه هو الذى بنى دير جوميج Jumiéges الكنسى (١٠٤٥ - ١٠٦٧) ، وفى عام ١٠٤٢ دخل إيطالى آخر يدعى لانفرانك Lanfranc الدير النورمانى فى بك Bec ، وسرعان ما جعله مركزاً علمياً نشطاً ، يهرع إليه طلاب بلغوا من الكثرة ما اضطروا القائمين عليه إلى إضافة أبنية جديدة له . وقد خطط لانفرانك هذه الأبنية ، ولعله قد استعان على تخطيطها بمن هم أكثر منه خبرة بهذا العمل . ولم يبق حجر واحد من حجارة هذا البناء ، ولكن دير الرجال فى جائن Abbaye aux Hommes at Gaen (١٠٧٧ - ١٠٨١) لا يزال قائماً إلى اليوم يشهد بقوة الطراز الرومانسى الذى تطور فى نورماندى على أيدي لانفرانك ومن جاء بعده .

وشيدت فى القرن الحادى عشر كنائس جديدة فى جميع أنحاء فرنسا وفلاندرز ، زيناها الفنانون بصور الجدران وبنقوش الفسيفساء والتماثيل . وكان شارلمان قد أمر بأن يطلى داخل الكنائس ويلون ليستفيد من ذلك المؤمنون ؛ وزينت قصور آخن وأنجلهم بالمظلمات ، وما من شك فى أن كثيراً من الكنائس قد حذت حذو هذه القصور . وقد دمرت آخر قطع من مظلمات آخن فى عام ١٩٤٤ ، ولكن نقوشاً شبيهة بما كان على جدرانها لا تزال باقية فى كنيسة سان جرمان St. Germain فى أوكسير . ولا تختلف هذه النقوش فى شكلها عن النقوش التى تزدان بها مخطوطات ذلك العصر ولا عن طرازها أو حجمها .

وقد كتب رهبان مدينة تور في عهد شارل الأصلع نسخة ضخمة ملونة من الكتاب المقدس وأهدوها إلى الملك ؛ ولا تزال هذه النسخة محفوظة في قسم المخطوطات اللاتينية بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١ . وأجل من هذا المخطوط لإيجل « لوثر » الذي كتبه في ذلك الوقت رهبان تور أيضاً . كذلك أخرج رهبان ريمس في هذا القرن التاسع كتاب تراتيل « أوترخت Utrecht » الذائعة الصيت — ويتألف هذا المخطوط من ١٠٨ ورقة من الجلد الرقيق ويحتوى على مزامير داود وعقيدة الرسل مزدانة بكثير من صور الحيوانات على اختلاف أنواعها وبعدد لا يحصى من الأدوات وصور المهن والأعمال . وتصطبغ هذه الصور الحية بصبغة من الواقعية الشديدة بدلت فن التصوير الدقيق الذي كان من قبل جامداً مستمسكاً بالتقاليد .

٥ - نشأة الأدواق : ٩٨٧ - ١٠٦٦

وبرزت فرنسا التي كان يحكمها هيو كابت (٩٨٧ - ٩٩٦) فأصبحت وقتئذ أمة منفصلة عن غيرها ، ولم تعد تعترف بسيادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة عليها ، ولم تعد قط إلى أوروبا الغربية الوحدة التي يوهبها إياها شارلمان اللهم إلا فترة قصيرة في أيام نابليون وهتلر . ولكن فرنسا التي كانت في أيام هيو كابت لم تكن فرنسا القائمة في أيامنا هذه ؛ فقد كانت أكتين وبرغنديه دوقيتين مستقلتين بالفعل ، وظلت لورين بعدئذ سبعة قرون جزءاً من ألمانيا . وكانت فرنسا في ذلك الوقت موطناً لأجناس مختلفة ولغات متعددة : فكانت فرنسا الشمالية فلمنكية أكثر منها فرنسية ، وكان في دمها عنصر ألماني كبير ، وكان سكان نورماندى من الشماليين ، وكانت بريطانيا كلتية غير ذات صلة بيسائر البلاد ، يسيطر عليها لاجثون من بريطانيا ، أما پروفانس فكانت في جنس أهلها ولغتهم « ولاية » رومانية غالبية . كذلك كانت فرنسا المجاورة

لجبال البرانس قوطية ، وقطالونيا الخاضعة من الوجهة الرسمية للملكية الفرنسية قوطية أيضا كما يدل على ذلك اسمها « قطالونيا » . وكان نهر اللوار يقسم فرنسا الى إقليمين ، مختلفين في الثقافات واللغات . وكان العمل الذي اضطلعت به الملكية الفرنسية هو مزج هذه الأجناس واللغات المختلفة ، لينشئوا من أكثر من عشرة شعوب أمة موحدة ، ولقد تطلب هذا العمل ثمانمائة عام .

وأراد هيوكابت أن يهيئ الظروف لورثة للعرش منظمة ، فتزوج ابنه ربرت ملكا معه في السنة الأولى من حكمه . ويُعد « ربرت الثاني » (٩٩٦ — ١٠٣١) من الملوك الأوساط غير المبرزين (٦٠) ، ولعل سبب اشتهاره بهذه المكانة الوسطى أنه كان يتجنب مجد الحروب . مثال ذلك أنه لما قام النزاع بينه وبين هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا بشأن الحدود عقد اجتماعاً معه وتبادل وإياه الهدايا ، ووصل معه إلى اتفاق سلمى . وكان ربرت رعوفاً بالضعفاء والفقراء يحميهم . قدر استطاعته من الأقوياء غير ذوى الضمير ، ومثله في هذا كمثل لويس التاسع ، وهنرى الرابع ، ولويس السادس عشر . وقد أغضب الكنيسة بزواجه من برثا Bertha ابنة عمه (٩٩٨) ، وصبر على الحرمان وعلى سخرية الذين كانوا يعدونها ساحرة ، ولكنه انفصل عنها آخر الأمر وعاش بعدئذ بائساً حزينا إلى آخر أيام حياته . ويحدثنا المؤرخون أن الناس حزنوا عليه أشد الحزن عند مماته (٦١) ، وشبت نار حرب للورثة بين ولديه ، انتصر فيها هنرى الأول (١٠٣١ — ١٠٦٠) أكبرهما ، ولكنه لم ينل النصر إلا بمعونة ربرت دوق نورماندى . ولما انتهى هذا الصراع الطويل (١٠٣١ — ١٠٣٩) كانت المملكة قد وصلت إلى درجة من الفقر فى المال والرجال لم تقو معها على منع تقطع أوصالها بفعل النبلاء الأقوياء المستقلين .

وانقسمت فرنسا حوالى عام ١٠٠٠ م ، بفعل كبار الملاك الذين كانوا يضمون إليهم تدريجياً ما يحيط بهم من الأراضى ، إلى سبع إمارات كبرى يحكم كلا منها كونت أو دوق . وهذه الأقسام هى أكتين ، وطلوثة ، وبرغندي ، وأنجو ،

وشمبانيا ، وفلاندرز ، ونورمندي . وكان هؤلاء الأذواق أو الكونتات في جميع الجالات تقريباً ورثة زعماء أو قواد منحهم الملوك المروفتنجيون أو الكارولنجيون ضياعاً جزاء لهم على خدماتهم الحربية أو الإدارية . وكان الملك قد أصبح يعتمد على هؤلاء الكبراء في تجهيش الجيوش وحماية ولايات الحدود ؛ ولم يكن بعد عام ٨٨٨ يسن القوانين للمملكة جميعها ، أو يجبي منها الضرائب ؛ بل كان الأذواق والكونتات يسنون القوانين ، ويجبون الضرائب ، ويشنون الحروب ، ويفصلون في القضايا ويعاقبون ، ويكادون . يكونون سادة مستقلين في ضياعهم ، لا يدينون للملك إلا بولاء اسمي ، ولا يؤدون له إلا خدمة عسكرية ذات نطاق محدود . واقتصرت سلطة الملك في وضع القوانين ، والفصل في القضايا ، وفي الشئون المالية ، على ضياعه الملكة الخاصة ، وهي التي سميت فيما بعد جزيرة فرنسا Ile de France وتشمل لإقليمي الساعون والسين الأوسط الممتدين من أورليان إلى بوفيه ومن تشارتر إلى ريمس .

وتقدمت نورمندي دون سائر الدوقيات المستقلة استقلالاً نسبياً بأن نمت نمواً سريعاً إلى أقصى حدود السرعة في قوتها وسلطانها ، فلم يمض عليها قرن واحد بعد تسليمها لأهل الشمال حتى أصبحت أكثر ولايات فرنسا مغامرة ومخاطرة — ولعل السبب في ذلك هو قربها من البحر وموقعها بين إنجلترا وباريس . وكان أهل الشمال وقتئذ مسيحيين متحمسين للمسيحية ، لهم أديرة ومدارس أديرة ، وكانوا يتناسلون باستهتار ما لبث أن دفع شباب النورمنديين إلى إنشاء ممالك جديدة من الولايات القديمة . ذلك أن بحارة الشمال كانوا حكاماً أقوياء لا يبالون بالمبادئ الأخلاقية ولا يرحون في الوصول إلى أغراضهم ضميراً ، ولكنهم قادرون على أن يحكموا بيد من حديد شعباً مشاكساً ، مضطرباً ، مكوّناً من الغالين والفرنجة ، والشمالين . ولم يكن ربرت الأول (١٠٢٨ — ١٠٣٥) قد أصبح بعد دوقاً لنورمندي حين وقعت عينه في عام ١٠٢٦ على هارلت Harlette ابنة

جباغ في فاليز Falaise : فلما رآها أضحت عشيقته العزيزة جبرياً على إحدى السنن الدنمرقية القديمة ، وسرعان ما أنجبت له ولداً يعرف عند معاصريه باسم ولیم النغل William the Bastard وعندنا نحن باسم ولیم الفانج William the Conqueror . ولما اشتد على ربرت وخز ضميره لكثرة ما ارتكب من الذنوب غادر نورمنديّة في عام ١٠٣٥ ليحج حجة التوبة إلى أورشليم ، واستدعى قبل سفره أكابر الأعيان ورجال الدين وقال لهم :

« أقسم بدينى أنى ان أترككم دون أن أولى عليكم سيّداً ، إن لى أبنا نغلا سيكبر بفضل الله ، وإنى لقوى الرجاء فى أن يكون من أحسن الناس صفات ، ورجائى أن تقبلوه سيّداً عليكم ، وليس يهكم قط أنه لم يولد من زواج شرعى فهذا لن يؤثر فى قدرته على الحكم . . . أو فى توزيع العدالة بين الناس . وهأنذا أعيته وارثاً لعرشى ، وأخلع عليه من هذه اللحظة دوقية نورمنديّة بأكملها » (١٧) .

وتوفى ربرت فى طريقه إلى أورشليم ، وحكم الأشراف وقتاً ما بالنيابة عن ابنه . ولما شبت فتنة فى البلاد تحاول خلعه أخذها بوحشية ممزوجة بالكرامة ، فقد كان رجلاً يجمع بين الدهاء والبسالة ، بعيد النظر فى وضعه خطط المستقبل ، ملاكاً لأصدقائه ، وشيطاناً على أعدائه . وكان يسمع تهكم الناس على مولده ويقبل هذا إتهام بصدر رحب ، وكان من حين إلى حين يعضى بعض ما يكتب باسم ولیم النغل Guiielmus Nothus ، ولكنه حين حاصر ألسون Alencon وعلق المحاصرون الجلود على جدرانهم إشارة إلى حرفة جده قطع أيدى من وقع فى يديه من الأسرى وآرجلهم ، وفقاً أعينهم ، وقلد المدينة من مجانيقه بهذه الأعضاء . وأعجبت نورمنديّة بوحشيته وحكمه الصارم ، وعمها الرخاء . فقد حد ولیم من استغلال الأشراف للفلاحين ، وأرضى أولئك الأشراف بالعطايا السنية ، وكان يعنى عناية الانتقياء الصالحين بواجباته الدينية ، وجلل أباه العار بإخلاصه لزوجته إخلاصاً لم يسبق

له مثيل ، وقد أولع بحب ماثلده Matilda الجميلة ابنة بلدوين Baldwin
كونت فلاندرز ، ولم يؤثر فيه أن لها ولدين وزوجا لا يزال على قيد الحياة
وإن كان منفصلا عنها . غير أنها ردت وليم وكالت له الإهانات وقالت
« إنها تفضل أن تكون راهبة محجبة على أن تزوج بنغل » (٦٣) ، ولكنه لم
يزجج عن حبها ، ونالها آخر الأمر وتزوجها رغم تشهير رجال الدين ، وثرثب
على ذلك أن جرّده الأسقف بالجر Malger والأب لانفرانك رئيس الدير
لأنهما ذما هذا الزواج ، وحرق في سورة غضبه جزءاً من دير بك . ثم
أقنع لانفرانك البابا نقولاس الثاني بأن يصادق على الزواج ، وأراد وليم أن
يكفر عما فرط منه فبنى في جائن دير الرجال النورمندي الدائع الصيت ،
وبفضل هذا الزواج ارتبط وليم بكونت فلاندرز ، وكان قد وقع قبل ذلك
الوقت في عام ١٠٤٨ اتفاقاً مع ملك فرنسا . وبعد أن حى جناحيه بهاتين
الوسيلتين وزينهما شرع وهوى التاسعة والثلاثين من عمره في فتح إنجلترا .

الباب العشرون

نهضة الشمال

٥٦٦ - ١٠٦٦

الفضل الأول

إنجلترا (٥٧٧ - ١٠٦٦)

١ - ألفرد والدنمركيون (٥٧٧ - ١٠١٦)

لم يلق فتح الإنجليز والسكسون والبحوث لإنجلترا بعد واقعة دورهام Deorham (٥٧٧) إلا مقاومة يسيرة ، وما لبث الغزاة أن اقتسموا البلاد فيما بينهم ، فأقام البحوث مملكة في كنت Kent ، وأسس الإنجليز ثلاث ممالك في مرسية ، ونورثمبرلاند ، وأنجلية الشرقية East Anglia ؛ وأنشأ السكسون ثلاث ممالك أخرى في وسكس Wessex ، وإسكس Essex ، وسكس Sussex أى في سكسونيا الغربية ، والشرقية ، والجنوبية . وكانت هذه الممالك السبع الصغيرة وممالك أخرى أصغر منها هي التي تكون فيها « تاريخ إنجلترا » حتى جمع أجبرت Egbert ملك سكس معظمها بالقوة أو بالاحتل في مملكة واحدة تحت حكمه .

وقبل أن ينشئ ملك السكسون هذه المملكة الجديدة - مملكة الإنجليز -

بدأت غزوات الدنمركيين التي اجتاحت البلاد من بحر إلى بحر وهددت المسيحية الناشئة فيها بإحلال وثنية همجية جاهلة محلها ، وفي ذلك يقول السجل الإنجليزى. السكسونى : « جاءت فى عام ٧٨٧ ثلاث سفن إلى سواحل سكسونيا الغربية ... وقتلت الأهلين — وكانت هذه أولى سفن الدنمركيين التي جاءت. تطلب أرض شعب الإنجليز » . وأغارَت على نورثمبرلند Northumberland فى عام ٧٩٣ حملة دنمركية أخرى ، وخربت دير لندسفارن Lindisfarne الشهير وذبحت رهبانه . وفى عام ٧٩٤ دخل الدنمركيون نهر وير Wear ، ونهبوا ويرموث Wearmouth وچرو Jarrow حيث كان يكدح بك Bec العالم قبل خمسين سنة من ذلك الوقت . وفى عام ٨٣٨ هاجم المغيرون أنجليا الشرقية East Anglia وكنت Kent ؛ وفى عام ٨٣٩ رابط أسطول للقراصنة مؤلف من ٣٥٠ سفينة فى نهر التاميز ، بينما كان بحارته ينهبون كنتربرى Canterbury ولندن . وفى عام ٨٦٧ — فتحت قوة من الدنمركيين والسويدين مقاطعة نورثمبرلند ، وقتلت آلافاً من « الإنجليز » ، وخربت أديرتها ، وأتلفت ما فيها من دور الكتب أو شنتها . وخيمنت الفاقة والجهالة على مدينة يورك وما حولها ، وهى البلدة التى حبت شارلمان بالكونين ، ولم يحل عام ٨٧١ حتى كان معظم إنجلترا الممتد فى شمال نهر التاميز خاضعاً للمغيرين . واتجه جيش دنمركى بقيادة جثرم Guthrum نحو الجنوب فى ذلك العام نفسه ليهاجم ردنچ Reading عاصمة وسكس ؛ والتقى إثلرد Ethelred مليكها وأخوه الأصغر ألفرد بالدنمركيين عند آشدون Ashdown وهزموا المغيرين ؛ ولكن إثلرد جرح جرحاً مميتاً فى معركة ثانية عند مَرتن Merton وولى الإنجليز الأديار .

وجلس ألفرد على عرش سكسونيا وهوفى الثانية والعشرين من عمره (٨٧١) ويصفه أسر Asser بأنه كان وقتئذ أميًّا illiteratus ؛ وقد يكون معنى هذا اللفظ أنه يجهل القراءة والكتابة أو أنه لا يعرف اللاتينية ! ويبدو أنه كان مصاباً (١٨ - ج ٣ - محلد ٤)

بالصرع ، وأنه أصيب بنوبة من نوبات الداء في يوم زفافه ، ولكنه كانت صياداً قوياً ، وسيم الطلعة ، رشيقاً ، يفوق إخوته في الحكمة والمهارة الحربية ، فلما مضى شهر على تنويجه ، زحف بجيشه الصغير على الدنمركيين الذين كانوا عند Wilton ولكنه هزم فيها هزيمة منكرة اضطرتة إلى شراء الصلح من عدوه لينقل بذلك عرشه ، غير أنه انتصر في معركة حاسمة عند إثندون Ethandun (إدنجتون Edington الحالية) في عام ٨٧٨ اجتاز بعدها نصف الجيش الدنمركي القناة الإنجليزية ليغير على فرنسا المستضعفة ، أما بقية الجيش فقد وافق بمقتضى معاهدة ودمور Wedmore . على ألا يتجاوز رجاله شمالي إنجلترا الشرق في البلاد التي سميت فيما بعد دين لور Danelaw .

ويقول أسير وهو كاتب لا يوثق كل الثقة بأقواله إن ألفرد زحف بجيشه على أنجليا الشرقية « يقصد منها » ، وفتح البلاد ، ونادى بنفسه ملكاً عليها . وعلى مرسية بالإضافة إلى وسكس ، ولعله كان يقصد بهذا الزحف أن يوحد إنجلترا لكي يقاوم بها الدنمركيين . فلما تم له ذلك وجه عنايته — كأنه شارلمان صغير — إلى شئون الحكم وإعادة تنظيم البلاد . فنظم الجيش تنظيمًا جديدًا ، وأنشأ عمارة بحرية ، ووضع قانوناً موحداً للمالكة الثلاث ، وأصلح نظام القضاء ، وسن من القوانين ما يكفل حماية الفقراء ، وأنشأ مدناً وبلدات جديدة ، وأعاد بناء القديمة ، وشاد « بالحجارة والخشب أبهاء وغرفاً ملكية » ، لموظفي حكومته الآخذين في الازدياد (٢) . وقد خصص جزءاً من ثمانية أجزاء من إيراد الدولة لإعانة الفقراء ، وجزءاً آخر مثله للتعليم . وأنشأ في ردينج عاصمة ملكه مدرسة في قصره ، وجاد بالمال بسخاء على أعمال التعليم والدين التي تقوم بها الكنائس والأديرة . وكان يحزنه ويقض مضجعه أن يعود بداكرته إلى أيام صباه حين كانت « الكنائس خاصة بالكنوز والكتب . . . قبل أن تخرب وتحرق ، بفعل الدنمركيين ، أما الآن : « فقد انحط التعليم بين الإنجليز انحطاطاً كانت نتيجته .

أن عدداً قليلاً جداً منهم . . . هم الذين يستطيعون فهم طقوس دينهم باللغة الإنجليزية ، أو ترجمة شيء منها إلى اللاتينية»^(٣) . وقد بعث إلى البلاد الخارجية في طلب العلماء — بعث في طلب الأسقف أسر Asser من ويلز ، وإرجينا Erigena من فرنسا ، وكثيرين غيرهم — ليأتوا ويعلموا شعبه ويعلموه هو نفسه . وكان يؤسف أنه لم يجد من قبل إلا قليلاً من الوقت ينحصره للقراءة ، ولقد فقد أقبال الآن على الدراسات الدينية والعلمية إقبال الرهبان . وقد ظل يلاقى صعوبة في القراءة ، ولكنه كان « يأمر رجالاً يقرأون له ليلاً ونهاراً » . أن يكون هو أول من أدرك ما للغات القومية من خطر متزايد قبل أن يدركه أحد وكاد غيره من الأوربيين ، فعمل على أن تترجم بعض الكتب الأساسية الهامة إلى اللغة الإنجليزية ، وجد هو نفسه في ترجمة كتاب *سلاوى الفلاسفة* The Consolation of Philosophy لبوئتيوس Boetius ، وكتاب

العنايم بالسرعى Pastoral Care لجريجورى ، وكتاب التاريخ العام Universal History لأوروسىوس Orosius وتاريخ إنجلترا الكهنسى Ecclesiastical History of England لبيد Bede ، وعمل ما عمله شارلمان فجمع أغاني شعبه ، وعلمها أولاده ، وشارك المغنين في بلاطه في إنشادها .

ووصلت غزوة دنمرقية جديدة إلى كنت في عام ٨٩٤ ؛ وبعث دنمرقيو والدين لوالى الغزاة بالممدد ؛ وعقد الوطنيون أهل ويلز والكلت ، الذين لم يكن الإنجليز والسكسون قد تغلبوا عليهم بعد ، تحلفاً مع الدنمركيين . وانقض إدورد ابن ألفرد على معسكر القراصنة ودمره ، وشتت أسطول ألفرد الجليد شمل الأسطول الدنمرقي (٨٩٩) وتوفى الملك بعد عامين من هذه الواقعة ، ولم تكن سنة قد تجاوزت الثانية والخمسين . وليس في وسعنا أن نوازنه برجل جبار مثل شارلمان لأن الرقعة التي كانت مسرحاً لمغامراته رقعة ضيقة ، ولكنه ضرب

للأمة الإنجليزية بصفاته الأخلاقية — تقواه ، واستقامته الخالية من التباهي ، واعتداله ، وجلده ، وإخلاصه لشعبه ، وشغفه بالاستزادة من التعليم — ضرب لها بهذه الصفات مثلاً ، وبعث فيها روحاً ، تلقتها بأعظم الشكر ونسيئتها بعد قليل . وقد أعجب به فلتير إعجاباً لعله كان مسرفاً فيه إذ قال : « لست أظن أنه كان في العالم كله رجل أجدر باحترام الخلف من ألفرد الأكبر »^(١) .

وواصل الإسكنديناويون هجومهم على إنجلترا في أواخر القرن العاشر ، فأغارت قوة من الفيكنج (القراصنة النرويجيين) بقيادة أولاف تريچفسون Olaf Tryggvesson على سواحل إنجلترا في عام ٩٩١ . وعجز الإنجليز بقيادة الملك إثلرد (٩٧٨ — ١٠١٣) (الملقب بردللس Redeless أى غير المتصح لأنه أبى أن يعمل بمشورة أعيان البلاد) فنفع الغزاة برشا سخية متتابعة ١٠ر٠٠٠ ، ١٦ر٠٠٠ ، ٢٤ر٠٠٠ ، ٣٦ر٠٠٠ ، ٤٨ر٠٠٠ رطل من الفضة جمعتها دينجلد Danegeld الخرب الوقح من أول ضريبة عامة فرضت على إنجلترا . وسعى إثلرد لكسب المعونة الأجنبية فشرع يناوض نورمندي في عقد حلف معه ، وتزوج إلهما Emma ابنة رتشارد الأول دوق نورمندي ، ونشأت من هذا الزواج أحداث خطيرة . وادعى إثلرد أن الدنمركيين يأتمرون به ليقتلوه ، ويقضوا على برلمان الأمة الويتنأجور Witenagemor فأمر بقتل كافة من في الجزيرة من الدنمركيين أينما وجدوا (١٠٠٢) . ولسنا نعلم إلى أى حد نفذ هذا الأمر بمخافه ، وأكبر الظن أن جميع من كانوا في إنجلترا من الذكور القادرين على حمل السلاح قد قتلوا هم وبعض النساء ، وكان من بين من قتلن منهن أخت سوين Sweyn ملك الدنمركة ، وأقسم سوين أن يثأر لمقتلها ، فغزا إنجلترا في عام ١٠٠٣ ، وأعاد الكرة عليها بجمع قواه في عام ١٠١٣ . وتخلى نبلاء إثلرد عنه ، ففر إلى نورمندي ، وأصبح ابن ملك إنجلترا وسيدها . غير أن إثلرد عاد إلى الكفاح بعد موت سوين (١٠١٠) . وتخلى عنه الأعيان مرة أخرى ، وعقدوا الصلح مع كنوت

Cnut بن سوين (١٠١٥) . ومات إثلرد في لندن وهي محاصرة ، وحارب إدمند ذو الجانب الحديدى Edmund Ironside ببسالة ولكن كنوت تغلب عليه عند أسندون Assandun (١٠١٦) . وارتضت إنجلترا بأجمعها كنوت ملكا عليها ، وتم بذلك للدنمركيين فتح إنجلترا .

٣- الحضارة الإنجليزية - السكسونية ٥٧٧ - ١٠٦٦

لم يكن هذا الفتح أكثر من فتح سياسى ، فقد كانت أنظمة الإنجليز والسكسون ، ولغتهم ، وأساليب حياتهم قد تعمقت أصولها في إنجلترا خلال القرون الستة الماضية تعمقا لا يستطيع معه فهم نظام الحكم في البلاد أو لغة الإنجليز أو أخلاقهم إلا بدراسة هذه الأصول . ولقد تبدلت في أثناء الفترات الخالية من الأحداث ، بين حرب وحرب ، وبين جريمة وجريمة ، أساليب الحرث والزرع والتجارة ، وبعثت الآداب بعثا جديدا ، وأقيم صرح النظام والقانون على مهل .

وليس في التاريخ أساس لذلك القول الخداع وهو أن إنجلترا الإنجليزية السكسونية كانت جنة تنعم فيها عشائر الفلاحين الأحرار بالحياة القروية الديمقراطية . ذلك أن زعماء الجيش الإنجليزي السكسونى قد استولوا على الأرض الزراعية ، فلم يحل القرن السابع الميلادى حتى كان عدد قليل من الأسر يمتلك ثلثى تلك الأراضى^(٥) ، ولم يحل القرن الحادى عشر حتى كانت معظم البلدان ضمن أملاك الملك الخاصة أو أحد النبلاء أو الأساقفة . وفي أثناء الغزو الدنمركى نزل كثير من الفلاحين عن أملاكهم في نظير حمايتهم ، ولم يحل عام ١٠٠٠ بعد الميلاد حتى كان معظمهم يؤدون إيجارا من محصولهم أو من كدحهم إلى أحد السادة الملاك^(٦) . وكانت هناك « اجتماعات للمدينة » و « اجتماعات للشعب » . « واجتماعات المائة » . وهى اجتماعات كانت بمثابة جمعيات أو محاكم للمناقشة . ونحن لم يكن يسمح بحضورها إلا للملاك الأراضى . وأخذت ههنا

يضعف سلطانها وتقل مرات اجتماعها بعد القرن الثامن ، ويخل محل معظمها : محاكم النبلاء في ضياعهم . وكانت معظم السلطة الحكومية بإنجلترا في يد ألويتناجوت Witenagemot القوي — « مجلس العقلاء » — وهو جمعية صغيرة إلى حد ما تتألف من النبلاء ، والأساقفة ، وكبار وزراء التاج ، وبغير موافقة هذا البرلمان الأبله لم يكن ملك إنجليزي يختار أو يبقى على عرشه ، أو يضيف قباطا إلى مزارعه الخاصة التي كان يستمد منها إيراده المستديم ، ولم يكن في وسعه أن يسن قانونا ، أو يصدر حكما قضائيا ، أو يشن حربا ، أو يعقد صلحا إلا بموافقة (٧) . وكان أعظم سند للملكية ضد هذه الهيئة الأرستقراطية هو ما كان بينها وبين الكنيسة من حلف غير رسمي . ذلك أن الدولة الإنجليزية قبل الفتح النورمندی وبعده كانت تعتمد على رجال الدين في كل ما يتصل بالتعليم العام ، والنظام الاجتماعي ، والوحدة القومية ، وبالإدارة السياسية نفسها . وكان القديس دنستان رئيس دير جلاستنبري Glastonbury كبير مستشاري الملكين إدمند Edmund (٩٤٠ — ٩٤٦) وإدرد Edred (٩٤٦ — ٩٥٥) ، وقد حى الطبقتين الوسطى والدنيا من النبلاء ، وكان جريئا في نقد الملوك والأمراء ، ولذلك نفاه الملك إدوج Edgar (٩٥٥ — ٩٥٩) من البلاد ، ثم أعاده إدجر Edgar (٩٥٩ — ٩٧٥) إليها ، وهو الذي وضع التاج على رأس إدورد الشهيد Edward the Martyr (٩٧٥ — ٩٧٨) ، وشاد كنيسة القديس بطرس في جلاستنبري ، وشجع الفنون والتعليم ، وتوفي وهو كبير أساقفة كنتربري في عام ٩٨٨ . وكان أهل إنجلترا يجلونه ويعلمونه أعظم قديسيهم قبل تومس آبكت Thomas à Becket .

ونشأت الشرائع ببطء في هذه الحكومة المفككة . وقد وجدت في القانون الألماني القديم ، بعد أن عدل لفظه وظروفه ، كفايتها . وبقيت في هذا القانون عادات تبرئة المتهم بشهادة شهود يقسمون بأنه بريء ، كما بقيت فيه الدية .

والتحكيم الإلهي ، ولكن عادة المحاكمة بالاقتتال لم تكن معروفة فيه ، وكانت الدية في القانون الإنجيلي (الإنجليزى) تختلف اختلافا له دلالة . فكانت دية الملك ثلاثين ألف ثرمزا Thrimsas (نحو ١٣٠٠٠ دولار أمريكى) ، ودية الأسقف ١٥٠٠٠ ، ودية النبيل أو رجل الدين ألفين ، ودية الفلاح الحر ٢٦٦ . وكان القانون الإنجليسكسونى يقضى بأن يغرم الإنسان شلناً أو شلنين إذا تسبب في جرح إنسان بجرحا يبلغ طوله بوصة واحدة ، وثلاثين شلناً إذا قطع جزءاً من أذن ، على أننا يجب أن نضيف هنا أن الشلن الواحد كان يكفى لابتئاع خروف . وكان قانون إثلبرت يعاقب الزانى بأن يؤدى إلى زوج من زنى بها غرامة ويبتاع له زوجة أخرى (٨) . وكل من قاوم أمر محكمة من المحاكم نودى به « خارجاً على القانون » فتصادر أملاكه لصالح الملك ، ويباح دمه . ولم يكن يسمح بالدية في بعض الحالات ، وكانت توقع بدلانها عقوبات صارمة : الاسترقاق ، والجلد ، والإخصاء ، وبتر اليدين أو القدمين ، أو الشفة العليا ، أو جدد الأنف ، أو صلصم الأذن ، أو إعدام المذنب بشنقه ، أو قطع رأسه ، أو حرقه ، أو رجمه ، أو إغراقه في الماء ، أو إلقائه في هوة سحيقة (٩) .

وكان النظام الاقتصادى شبيهاً بالقانون في بدائيته ، وكان أقل تقدماً منه في بريطانيا الرومانية . وكانت جهود كثيرة قد بذلت في تقطيع الغابات وتجهيف المناقع ، ولكن إنجلترا كانت لا تزال في القرن التاسع تشغل نصفها الغابات ، والمروج ، والمناقع ، وكانت الحيوانات البرية — الدببة ، والحلايف ، والذئاب — لا تزال تجوس خلال الغابات . وكان أكثر من يفلح الضياع هم الأسرى أو الأرقاء . وكان الاسترقاق في بعض الحالات مآل المدينين أو المجرمين ، وكان في وسع الأزواج أو الآباء أن يبيعوا أزواجهم أو أبناءهم إذا اضطرتهم الحاجة إلى بيعهم ، وكان جميع أبناء الأمة أرقاء واركاب آباؤهم من الأحرار . وكان في مقدور السيد أن يقتل عبده متى أراد ، وأن يضاجع أمته ثم يبيعها وهى حامل منه .

ولم يكن من حق العبد أن يرفع قضية إلى محكمة ، وإذا قتله غريب ذهبته ديتة القليلة إلى مالكة ، وإذا أبقى ثم قبض عليه كان يستطاع جلدته حتى يموت^(١٠) وكانت أهم تجارة في برستل Bristol هي تجارة الرقيق . وكان سكان البلاد كلهم إلا القليلين منهم قرويين ، فكانت البلدان كغورا ، والمدن بالذات غير كبيرة^(*) فكانت لندن ، وإكستر ، ويورك ، وتشستر ، وبرستل ، وجلوسستر ، وأكسفورد ، ونروج Norwich ، وورستر ، وونشستر كانت هذه كلها بلدانا صغيرة ولكنها نمت نمواً سريعاً بعد زمن ألفرد ، ولما أن جاء الأسقف مليتس في عام ٦٠١ ليعظ في لندن لم يجد إلا عددًا قليلاً من السكان الوثنيين^(١١) ، في البلدة التي كانت إحدى الحواضر في أيام الرومان ، ثم عادت إلى النماء في القرن الثامن بفضل مركزها الحربي المشرف على نهر التاميز ، حتى أصبحت في عهد كنوت عاصمة البلاد القومية .

وكانت الصناعة تعمل عادة للسوق المحلية ، غير أن صناعات النسيج والتطريز كانتا أكثر تقدماً من سائر الصناعات ، وكانتا تصدران منتجاتهما إلى بلاد القارة الأوروبية . وكانت وسائل النقل صعبة غير آمنة ، والتجارة الأجنبية ضئيلة الشأن . وبقيت الماشية تستعمل أداة للتبادل حتى القرن الثامن ، ولكن بعض الملوك سكوا في ذلك القرن نقوداً فضية ، منها شلنات ومنها جنيهاً ، وكانت أربعة شلنات في إنجلترا في القرن العاشر تكفي لشراء بقرة وتكفي ستة لشراء ثور^(١٢) . وكانت الأجور منخفضة بهذه النسبة نفسها ، وكان الفقراء يسكنون في أكواخ خشبية ذات سقف من القش ، ويعيشون على الخضر ، أما خبز القمح واللحم فكانا طعام الأغنياء أو حفلات أيام الآحاد . وكان الأغنياء يزينون قصورهم

(١٠) وقد احتفظت من النام الإنجليزية بمقاطع أنجليسكونية في بدايتها — tun

(town) بلدة . (home) وطن ، Wick (house) منزل أو نور ، Thorp (قرية) ،

barb ()

الساذجة الخشنة بستائر مصورة ، ويدلثون أجسامهم بالفراء ، ويحملون أثوابهم بالتطريز ، ويزينون أنفسهم بالخواهر .

ولم تكن العادات والأخلاق ظريفة متأنقة كما أصبحت في بعض العصور المتأخرة من تاريخ إنجلترا ، فنحن نسمع الشيء الكثير عن الخشونة والفظاظة ، والوحشية ، والكذب ، والغدر ، والسرقه وغيرها من العادات المنأصلة ، ويعترف القراصنة النورمان الذين أغاروا على إنجلترا في عام ١٠٦٦ ، ومنهم من لم يكونوا أبناء شرعيين ، بأنهم دهشوا من انحطاط المستوى الخلقى والثقافى عند ضحاياهم . وكان جو إنجلترا الرطب يغرى الإنجليز — السكسون بالإفراط فى الطعام والشراب ، وكانت « حفلة الجمعة » عندهم من مستلزمات المجتمعات والأعياد . ويصف القديس بنيفاس الإنجليز فى القرن الثامن وصفاً بهيجاً لا يخلو من المغالاة فيقول « إن المسيحيين والوثنيين على السواء يأبون أن تكون لهم زوجات شرعيات ، ولا يزالون يعيشون عيشة الدعارة والزنى كما تعيش الخيل الصاهلة والحمر الناهقة » (١٣) ، وكتب فى عام ٧٥٦ إلى الملك إثلبولد Ethelbald يقول :

« لو أن احتقارك للزواج المشروع كان يهدف إلى الطهارة لكان أمراً محموداً ، أما وأنتم منغمسون فى الترف ، وترتكبون الزنى مع الراهبات أنفسهن ، فإن ذلك الاحتقار أمر مرذول يسربلكم العار . . . ولقد سمعنا أن نبلاء مرسية كلهم تقريباً يحدون حدودكم ، فيهجرون أزواجهم الشرعيات ، ويرتكبون الفحشاء مع الزانيات والراهبات . . . خذوا حذرکم من هذا . . . إذا كانت أمة الإنجليز . . . تحقر الزواج المشروع ، وتسارع إلى الزنى ، فلا بد أن يودى هذا الاتصال إلى وجود شعب دنىء يحقر الله ، وستجر الخراب والدمار على البلاد بهذا التهلك وهذه الأخلاق المرذولة » .

وكان من حق الزوج فى القرون الأولى من حكم الإنجليز — السكسون أن يطلق زوجته متى شاء وأن يتزوج غيرها . وقد ندد بمجمع هرتفورد Hertford

الدينى (٦٧٣) بهذه العادة ، وعمل نفوذ الكنيسة بالتدريج على تثبيت قواعد العلاقة الزوجية ، فارتفعت مكانة النساء ارتفاعاً عظيماً وإن لم يمنع هذا استرقاقهن فى بعض الأحيان . ولم يكن النساء يتلقين إلا القليل من التعليم فى الكتب ، ولكن لم يجدن فى ذلك ما يحول بينهن وبين تأثيرهن فى الرجال واجتلابهم لهن . فكان الملوك يصبرون كثيراً على مغازلة النساء المتشامحات ، ويستشيرون زوجاتهم فى السياسة العامة (١٥) . وقد ظلت إيثلفلد ابنة ألفرد ، وهى ملكة ونائبة عن الملك ، جيلاً من الزمان تحكم مرسية حكماً حازماً صالحاً ، أنشأت فيه المدن ، وأحكمت وضع الخطط الحربية ، وانزعت من الدتمرقيين دربى ، وليستر ، ويورك . ويقول عنها وليم من أهل مالزبرى إنها عانت مشقة كبيرة حين وضعت أول طفل لها ، فأبت بعد ذلك عناق زوجها ، وقالت إنه لا يليق بابنة ملك أن تستسلم للمتعة وقتية تؤدى بعد حين إلى تلك العواقب المتعبة (١٦) . وكانت تعيش فى مرسية وقتئذ (حوالى ١٠٤٠) جدجيفا Godgifa زوجة إيرل ليوفريك Earl Leofric . ودارت حول اسمها جديفا Godiva الذى اشتهرت به فيما بعد كثير من القصص الممتعة الجذابة ، وأقيم لها تمثال فى كوفنترى Coventry (*) .

وعانى التعليم ، كما عانى كل شيء سواه ، الأمرين من جراء الفتح الإنجليزى — السكسونى ، ثم أخذ ينهض من كبوته على مهل بعد أن اعتنق الفاتحون الدين المسيحى . فقد افتتح بندكت بسكوب Benedict Biscop مدرسة فى ديرويرزموث Wearsmouth حوالى عام ٦٦٠ ، كان بيد Bede من جريجيا ؛ وأنشأ لإجبرت مدرسة ومكتبة فى كنيسة يورك (٧٣٥) ، صارت أهم مركز للتعليم الثانوى فى إنجلترا ، وأضحت إنجلترا فى النصف الثانى من

(=) وقد ورد فى هذه القصة أن ليوفريك رضى أن يعنى المدينة من ضريبة باعظة إذا خرجت حى إلى الشوارع راكبة وعارية . والعالم كله يعرف بقية القصة .

القرن الثامن بفضل هاتين المدرستين وغيرهما من المدارس حاملة لواء التعليم في أوربا الواقعة شمال جبال الألب .

ويتجلى لإخلاص معلمى الأديرة وظرفهم في شخصية بيد الموقر The Venerable Bede أعظم علماء زمانه (٦٧٣ - ٧٣٥) وقد لخص هو سيرته تلخيصاً متواضعاً فقال :

بيد خادم المسيح ، قس دير الرسولين المباركين ، بطرس وبولس ، القائم في ويرزموث وچرو . وإذ كنت قد ولدت في إقليم ذلك الدير فقد أدخلني أهلى فيه وأنا في السابعة من عمرى لأرى على يدي رئيسه المبجل بندكت بسكوب ، ولقد قضيت حياتي كلها بعد ذلك الوقت في هذا الدير ، وبذلت كل ما أستطيع من جهد لدراسة الكتاب المقدس ، والحفاظ على السنن المتبعة وترتيل الأناشيد اليومية في الكنيسة ، وكنت أستمتع على الدوام بتلقى العلم أوبالتدريس أوبالكتابة . . . حتى عينت شماساً في التاسعة عشرة من عمرى ، ثم أصبحت قساً في سن الثلاثين . . . وبقيت من هذه السن إلى التاسعة والخمسين عاكفاً على دراسة الكتاب المقدس والأعمال الآتية . . . (١٧) .

وكلها باللغة اللاتينية ، وتشمل تعليقات على الكتاب المقدس ، ومواعظ ، وثبتا بالحوادث العالمية وتواريخها ، ورسائل في النحو ، والرياضيات ، والعلوم ، والدين ، وأهم من هذه كلها كتابه في التاريخ الكنسى للأمم الإنجليزية (٧٣١) . ويختلف هذا الكتاب الأخير عن معظم تواريخ الأديرة في أنه ليس سجلاً فحاً للحوادث ، وربما كان في الجزء الأخير منه مثلاً فوق ما يجب بأخبار المعجزات ، وأن صاحبه على الدوام سريع التصديق لما لا يصح تصديقه ، مدفوعاً إلى هذا بسداجته البرينة الطاهرة ، شأن العقل الحبيس من سن السابعة ، ولكنه رغم هذا كله قصة واضحة خلابة ، تسمو في أجزاء متفرقة منها إلى البلاغة

البسيطة ، كما نرى ذلك في وصفه للفتح الأنجليسكسوني^(١٨). وكان بيد رجلا مفكراً حى الضمير ، يعنى أشد العناية بتواريخ الحوادث ، وهو فى العادة دقيق فيما يورده منها ؛ يعين المراجع التى يعتمد عليها ، ويسعى للحصول على الشواهد من مصادرها الأولى ، ويقتبس مما يستطيع الوصول إليه من الوثائق الصحيحة . ومن أقواله فى هذا المعنى : « استأريد أن يقرأ أبنائى أكذوبة واحدة »^(١٩) ، ونرجو أن يكون قصده بأبنائه تلاميذه الستمائة الذين علمهم . وقد توفى بعد ست سنين من كتابة سيرته الذاتية السالفة الذكر ، والتى جمع فى سطورها الختامية كل ما حوته تقوى العصور الوسطى من رقة وإيمان :

« وأتوسل إليك يا يسوع الرحيم أن تمن بفضلك على من عطف عليه . فأسقيته من كلمات علمك العذبة بأن يقبل فى يوم من الأيام عليك يا ينبوع الحكمة بأجمعها ويقف على الدوام أمام وجهك » .

ويذكر بيد الناس فى زمانه كانوا يتحدثون فى إنجلترا بخمس لغات : الإنجليزية ، والبريطانية (الكلتية) ، والأيرلندية ، والبكتية (الاسكتلندية) ، واللاتينية . فأما الإنجليزية فكانت لغة الإنجليز (Angles) ، ولكنها لم تكن تختلف عن اللغة السكسونية إلا قليلا ، وكان يفهما الفرنجة ، والنرويجيون ، والدنمركيون ، فقد كان هؤلاء الأقوام الخمسة يتكلمون لهجات مختلفة من اللغة الألمانية ، وقد نشأت الإنجليزية من اللغة الألمانية نفسها . وكان ثمة أدب أنجليسكسونى جدير بالاعتبار من القرن السابع ، وليس لنا مصدر نعتمد عليه فى تقدير معظمه إلا قطع متفرقة منه لأن جزءه الأكبر قد اندثر بعد أن أدخلت اللاتينية فى إنجلترا الحروف اللاتينية (واستبدلتها بحروف شمالى أوروبا التى كانوا يكتبون بها من قبل) ، وبعد أن دمرت الفتوح الدنمركية كثيراً من دور الكتب ، وحين غمرت الفتوح النورمندية اللغة الإنجليزية بفيض من اللغة الفرنسية . يضاف إلى هذا أن كثيراً من القصائد الأنجليسكسونية كانت قصائد

وثنية ، وكان يتناقلها جيلا بعد جيل شعراء مغنون مستهترون بعض الاستهتار في حياتهم وحديثهم ، وكان يحرم على الرهبان والقساوسة أن يستمعوا إليهم . ومع هذا فأكبر الظن أن راهباً من رهبان القرن الثامن هو الذى كتب أقدم قطعة بقيت لنا من الأدب الأنجلايسكونى - وهى شرح منظوم لسيفر التكوين ليس فيه من الإلهام كما فى الأصل وقد وضع بين أبيات القصيدة ترجمة لقصة ألمانية تروى خروج آدم من الجنة . وهنا تسرى فى الشعر الحياة ، ومن أكبر أسبابها أن الشيطان يصور فى صورة الثائر المنفعل المتحدى ، ولعل ملتن Milon قد وجد هنا لحة بنى عليها وصفه للشيطان فى قصيدته . ومن القصائد الأنجلايسكونية ما هو مرثى ، فقصيدته « الجائل » مثلاً تتحدث عن الأيام السعيدة الخالية فى قصور الأشراف ، أما الآن وقد مات النبيل « فقد أقفرت هذه الأرض الثابتة كلها » وأصبح « أكثر ما يثير الأشجان أن نتذكر أسباب السعادة » (٢٠) ؛ وليس ثمة تعبير عن هذه الفكرة أجمل من هذا التعبير لا نستثنى من ذلك شعر دانتي نفسه . وأكثر ما تتغنى به هذه القصائد القديمة هو الحرب وهى حين تفعل هذا ممتعة قوية . و« أنشودة واقعة ملدون Maldon » (حوالى ١٠٠٠) لا ترى فى هزيمة الإنجليز شيئاً غير البطولة ، والمحارب القديم برهتود Byrhtod ، وهو واقف أمام جسد سيده القتيل « يبت الشعاعة » فى قلوب السكسون حين أحرق العدو بهم بعبارات كمبارات مالورى Malory وتسبها فى الزمن :

كلما تقصت قوانا زادت أفكارنا صلابة ، وقلوبنا حدة ، وتضاعفت أمزجتنا . وهاهو ذا أميرنا مسجى على الأرض ، لقد قطعوه وأماتوه ! ألا فائتحل الأحزان والأشجان أبد الدهر بالرجل الذى يغادر وطيس القتال ! لقد تقدمت بي السنون ، ولكننى لن أبرح هذا المكان ؛ إني أريد أن أرقد إلى جانب مولاي ، إلى جانب الرجل الذى أعزه (٢١) .

ونظن أن بيولف Belowulf أطول القصائد الأنجلايسكونية وأنبها قد ،

أنشئت في القرن السابع أو الثامن ، واحتفظ بها لنا مخطوط يرجع تاريخه إلى عام ١٠٠٠ يوجد الآن في المتحف البريطاني . ويبدو أن أبياتها البالغ عددها ٣١٨٣ بيتاً هي القصيدة بأكملها . والشعر غير مقفى ولكنه موزون متجانسة أوائل ألفاظه ، مصوغ في لهجة سكسونيا الغربية لا نستطيع أن نفهمها في هذه الأيام . والقصة نفسها كأنها عبث الأطفال ، وخلاصتها أن بيولف أمير القيط (القوط ؟) في جنوبي السويد يعبر البحر ليطلق سراح هرثجار Hrothgar ملك الدنمرقة من التين جرنندل Grendel ؛ وبعد أن يغلب جرنندل وأم جرنندل نفسها ، يعود بطريق البحر إلى قيطلاند Geatland ويحكمها حكماً عادلاً مدة خمسين عاماً . ويظهر وقتئذ تين ثالث يقذف بالذهب وبعث فساداً في أرض القيط ، فيهاجمه بيولف ، ويصاب في هذا الهجوم بجرح مميت ، فيخف صديقه وجلاف Wiglaf إلى معونته ويتعاونان على قتل التين . ويموت بيولف من أثر جرحه ، وتحرق جثته على كومة الحريق . وليست القصة من السذاجة كما تبدو لنا من روايتنا هذه ؛ فالتين الذي تحدث عنه آداب العصور الوسطى يمثل الحيوان البري الذي يكن في الغابات المحيطة بمدن أوربا ، وفي وسعنا أن نعزو عن خيال الناس الذين صور لهم الفزع هذه الوحوش في تلك الصورة الخرافية ، ولقد نسجوا حولها كثيراً من الأقاصيص يعبرون بها عن شكرهم للرجال الذين تغلبوا على هذه الوحوش حتى أمنت القرى والنجوع شرهم .

وبعض فقرات القصيدة مسيحية الصبغة لا تنسجم مع بقية أجزائها ، كما أنما أراد ناشر رحيم من الرهبان أن يحفظ هذه القصيدة الوثنية الرائعة بأن يضع في أجزاء منفرقة منها سطرأ يشعر بالتقى والصلاح . غير أن جو القصيدة وحوادثها جو وثني خالص وحوادث وثنية خالصة . ولقد كان الحب ، والحياة ، والمعارك الحربية على الأرض هي التي يعنى بها أولئك « النساء الحسان والرجال البواسل » ، ولم يكونوا يعنون بجنة هادئة وراء القبور . ويقول المؤلف في بداية القصيدة بعد

أن يدفن سلد Scyld الملك الدغرقى كما يدفن قراصنة الشمال فى قارب يدفع إلى البحر وهو خال من الملاحين : « لا يستطيع الناس أن يقولوا وهم واثقون من الذى تلقى هذا العبء » . غير أن جو القصيدة ليس بالجو الوثئى المرح ، بل تسرى فيها من أوطا إلى آخرها روح نكدية ، وأكثر من هذا أن تلك الروح نفسها لا تبرح الحفلة التى أقيمت فى بهو هرثجار . وفى وسعنا أن نلمح فى ثنايا أبيات القصيدة المتدفقة وما فيها من طرب وتحسر أين العازف على القيثارة :

ثم جلس بيولف على مقعد بجوار البئر . . . وأخذ يتحدث عن جرحه ، وعما يحس به من آلام شديدة أشرف من جرائها على الموت ، وأدرك أن منيته قد دنت . . . ثم طاف حول كومة الدفن رجال أبطال أقران حرب ، يريدون أن يعبروا عن أحزانهم ، وأن يرثوا الملك ، وأن ينشدوا ويتحدثوا عن الرجل ، فأخذوا يشيدون بكل ما أوتوا من قوة يبطلونه فى أثناء حياته ، ويمتدحون أعماله الباسلة الحبيدة . . . ويقولون إنه كان أعظم ملوك العالم رافة ورحمة ، وأرقهم فى معاملة شعبه ، وأحرصهم على كسب الثناء . . . ومن أجل هذا كان خليفاً بالإنسان أن يبنى على سيده وصديقه . . . وأن يحبه بكل قلبه ، إذا ما حان أجله ، وفارقت روحه جسده ، وغادر هذا العالم .

وأكبر الظن أن بيولف أقدم ما بقى لدينا من القصائد فى أدب بريطانيا ، ولكن كيدمون Coedmon (المتوفى سنة ٦٨٠) هو أقدم الأسماء فى هذا الأدب . ولستأ نعرفه إلا من فقرة طريفة فى كتاب بيد ، فقد جاء فى كتاب التاريخ الكنسى^(٢٣) أنه كان فى دبر هوتبي Whitby أخ ساذج يجد فى الغناء من الصعوبة ما يحمله على الهرب إلى مكان يختبئ فيه كلما جاء دوره فى الغناء . ونحيل إليه ذات ليلة وهو نائم مستقر فى مرقده أن ملكاً قد جاءه وقال له : « غن لى شيئاً يا كيدمون ! » فقال الراهب إنه لا يستطيع الغناء ، فأمره الملك أن يغنى ، وحاول كيدمون الغناء ، ولشد ما دهش من نجاحه ، ولما استيقظ فى

الصباح تذكر الأغنية ، وأعاد غناءها ، ولهذا أخذ يحاول قرض الشعر ونظم سفرى التكوين ، والخروج ، والأناجيل شعرا. « صاغه » كما يقول. بيد « بالفاظ عذبة تأخذ بمجامع القلوب » . ولم يبق من هذه الأشعار كلها إلا أبيات قليلة ترجمها بيد إلى اللغة اللاتينية . وبعد عام من ذلك الوقت حاول سينولف Cynewulf (ولد حوالى عام ٧٥٠) وهو شاعر مغن. فى بلاط نورثمبرلند أن يخرج هذه الرواية إلى حيز الوجود بأن ينظم عدة قصص دينية مختلفة — « المسيح » و « أندرياس Andreas » و « يوليانا » ، ولكن هذه القصص تبدو ، إذا ما قورنت بقصة بيولف المعاصر لها ، ميتة لا حياة فيها لكثرة ما بها من الصناعة والمحسنات اللفظية .

ويجىء النثر الأدبى فى جميع الآداب بعد الشعر فى الترتيب الزمنى ، لأن العقل ينضج قبل أن تتفتح أزهار الخيال ، مع أن الناس ينطقون بالنثر قروناً وهم لا يعرفون « قبل أن يتسع لهم وقتهم أو يمكنهم غرورهم من أن يصوغوه فنا من الفنون . وأوضح شخصية فى نثر إنجلترا الأدبى هى شخصية ألفرد ، فتراجعه ومقدماته يضى عليها الإخلاص والبساطة. كثيراً من البلاغة ، وهو الذى بذل من الجهد فى نشر « ملف الأسقف Bishop's Roll » الذى كان محفوظاً عند قساوسة كنيسة ونشستر ، فاستحال على يديه أقوى وأوضح أقسام السجل الأنجليكسكونى أول كتاب قيم فى النثر الإنجليزى . وليس بعيد أن يكون معلمه أسرار Asser هو الذى كتب الجزء الأكبر من حياة ألفرد ، أو لعل هذه السيرة قد جمعت فيما بعد (حوالى عام ٩٧٤) ، ومهما يكن من شأنها فهى مثل من أقدم الأمثلة على استعداد الإنجليز لاستبدال اللغة الإنجليزية باللغة اللاتينية فى الكتب التاريخية والدينية ، على حين أن « القارة » الأوربية التى كانت لا تزال تستحى من أن تكتب مثل هذه المؤلفات الكريمة باللغة « العامية » .

ولقد وجد الناس بين مشاغل الشعر والحرب من النشاط والوقت ما يمكنهم

من تصوير المعاني ، وتجميل الأشياء ذات النفع المادى . فقد أنشأ ألفرد مدرسة للفن فى أثلى Alhelney ، واستقدم إليها من جميع الأنحاء رهباناً يحدقون الفنون والصناعات ، « ولم ينقطع فى أثناء حروبها الكثيرة » كما يقول أسر عن أن يعلم عماله فى صناعة الذهب وصناعاته فى جميع الحرف (٢٥) . ولم يقنع دنستان Dunstan بأن يكون من رجال الحكم والقديسين ، فأخذ يمارس يجد صناعات الحديد والذهب ، وكان إلى هذا موسيقياً بارعاً ، صنع لكنيسة جلستبرى أرغناً ذا مزامير . وقامت فى البلاد الصناعات الفنية الدقيقة فى الخشب ، والمعادن ، والميناء المقسمة ، واشترك قاطعو الجواهر مع الحفارين فى صنع الصلبان المنحوتة والمطعمة بالجواهر فى رثول Ruthwell وبيو كاسل Bewcastle (حوالى عام ٧٠٠) ؛ وصب تمثال من الشبه للملك كدولو Cadwalllo (المتوفى سنة ٦٧٧) ممتظ صهوة جواد بالقرب من لدجيت Ludgate . وكانت النساء ينسجن أغشية الفراش ، والأقشة التى تزدان بها الجدران ، والمطرزات ، من الخيوط البالغة غاية الدقة (٣٦) . وزخرف رهبان ونشستر بالرسوم ذات الألوان الزاهية كتاب أدعية فى القرن العاشر . وشادت ونشستر نفسها ويورك كنائس من الحجر منذ عام ٦٣٥ ؛ وجاء بندكت بسكوب بالطراز اللباردى إلى إنجلترا من الكنيسة التى أقامها فى ويززموث عام ٦٧٤ ؛ وأعدت كنتربرى فى عام ٩٥٠ بناء الكنيسة التى بقيت فيها من أيام الرومان . وينقل لنا بيد أن كنيسة بندكت بسكوب قد ازدانت بالنقوش المصنوعة فى إيطاليا ، « وأن كل من دخلها ، وإن كان جاهلاً لا يعرف شيئاً من العلوم والمعارف ، لا يسهه أينما ولى وجهه إلا أن يتأمل مناظر المسيح وقديسيه التى لا يبلى جمالها . . . وأن يذكر وهو يرى أمام عينيه صورة يوم الحساب أن من واجبه محاسبة نفسه حساباً عسيراً » (٣٧) . وقصارى القول أن القرن السابع قد شهد نهضة فى البناء فى بريطانيا ؛ ذلك أن الأنجليسكسون كانوا قد أتموا فتوحهم ، والدنمركيون لم يبدؤوها ، وأصبح البنائون الذين كانوا من قبل يننون

(١٩ - ٣ ج ، مجلد ٤)

بالخشب يجدون لديهم الموارد والعزائم التي تمكنهم من تشييد الأضرحة والمعابد بالحجارة . ولكننا يجب ألا ننكر أن يندكت قد استقدم من غالة البنائين ، وصانعي الزجاج ، وصائغي الذهب ؛ وأن الأسقف ولفرد Wilfrid قد جاء بالمثلثين والنقاشين من إيطاليا لزخرفة كنيسة التي شادها في هكسهام Hexham في القرن السابع ؛ وأن إنجيل لندسفارن Lindisfarne (حوالى عام ٧٣٠) ذا الزخرف الجميل كان من عمل رهبان أيرلنديين دفعهم فرط زهدهم أو تحمسهم للتبشير إلى تلك الجزيرة القفرة القريبة من ساحل نورثمبرلاند . وقضى مجيء الدنمركيين على هذه النهضة القصيرة الأجل ، ولم يواصل فن العمارة الإنجليزية الصعود إلى ما بلغه بعدئذ من العظمة والجلال حتى استقر سلطان الملك كنوت في إنجلترا على أساس مكين .

٣ - بين فتحين ١٠١٦ - ١٠٦٦

لم يكن الملك كنوت فائحاً وكفى ، بل كان إلى هذا حاكماً قديراً . ولسنا ننكر أنه لو ث بداية حكمه بأعمال القسوة : فقد طرد من البلاد أبناء إدمند إيرنسيد Edmund Ironside وأمر بذبح أخى إدمند لينمع بذلك عودة الملوك الأنجليسكسون إلى العرش . لكنه لما رأى أن أرملة إثلرد وأبنائه لا يزالون أحياء في رون Rouen ، تغلب على كثير من المشاكل بأن خطب إما Emma لنفسه (١٠١٧) . وكانت هى وقتئذ فى الثالثة والثلاثين من عمرها ، وقبلت الخطبة وحصل كنوت بضربة واحدة على زوجة ، وحلف مع دوق نورمندي أخى إما ، وعلى عرش مكين أمين . وأصبح عرشه من تلك اللحظة نعمة على إنجلترا وبركة . فقد كبح جماح الأعيان المشاكسين الذين حطموا روح إنجلترا وفرقوا وحدتها ، ووقى البلاد شر الغزاة فى المستقبل ، ووهبها اثني عشر عاماً من السلم غير المنقطعة . واعتنق الملك الدين المسيحى ، وشاد كثيراً من الكنائس ، وأقام نصباً تذكارية .

في أسندون Assandun إحياء للذكرى الأنجليسكسون والدمعريين الذين حاربوا في ذلك المكان ، وحج بنفسه إلى قبر إدمند ، ووعد بأن يتبع قوانين إنجلترا وأنظمتها القائمة فيها ، ووفى بوعده فيما عدا حالتين اثنتين : فقد أصر على أن تكون حكومة المقاطعات التي أفسدها الأعيان الأنوقراطيون تحت سيطرة عملائه هو ، واستبدل بكبير الأساقفة وزيراً من غير رجال الدين ليكون كبير مستشاري التاج ، وأنشأ طائفة من العمال الإداريين والموظفين المدنيين كان لهم الفضل في جعل حكومة البلاد ثابتة مستمرة ، وكان عماله كلهم تقريباً ، بعد سنى حكمه الأولى المزعزعة ، من الإنجليز . وقد جمع بين تاجى الدمعركة وإنجلترا ، ثم أصبح في عام ١٠٢٨ ملكاً على النرويج ، ولكنه كان يحكم مملكته الثلاثية من مدينة ونشستر .

وكان الغزو الدمعري حلقة في سلسلة الغزوات الأجنبية الطويلة وفي الامتزاج العنصرى اللذين انتهيا بالفتح النورمندى وأنتجا آخر الأمر الشعب الإنجليزى . فقد امتزجت دماء الكلث والغالين ، والإنجليز والسكسون والجلوت ، والدمعريين والنورمان ، بالزواج أو بغيره من الوسائل ، فخلقت من البريطانيين أهل البلاد في زمن الرومان ، وهم الذين ليست لهم ميزة ولا قدرة على الابتكار ، خلقت منهم قراصنة عهد الملكة إلزبت الصخابين ، وفاتحى العالم الصامتين في القرون التالية . ولقد جاء الدمعريون إلى إنجلترا ، كما جاء إليها الألمان وأهل الشمال ، بحب للبحر يكاد يبلغ درجة الوجد والهيام ، واستعداد لقبول دعوة البحر الغادرة إلى المغامرة والاتجار في أقاصى البلاد . أما من الجهة الثقافية فقد كانت غزوات الدمعريين كارثة على البلاد ، وقف في أثناءها فن البناء فلم يخط خطوة إلى الأمام ، واضمحل فن زخرفة الكتب فيما بين عامى ٧٥٠ ، ٩٥٠ ، كما وقفت النهضة العلمية والأدبية التي شجعها ألفرد ، وفعلت غزوات الشماليين ما فعلته في غالة نفسها فأخلت تقضى على أعمال شلرلمان المجيدة .

وإن أجل كنوت طال لأنه أن يصلح الأضرار التي أنزلها مواطنوه بالبلاد ، ، ولكن شئون الحرب والحكم تبلى الناس سراعاً ، فلما مات كنوت عام ١٠٣٥ ولما يتجاوز سن الأربعين ، وخلعت النرويج نير الدنمركيين على الفور ، واضطر هارثكنوت Harthacnut بن كنوت الذي عينه قبل موته ولياً لعهد أن يكرس كل جهوده لحماية الدنمركة من غزو النرويجيين ، وحكم ابن آخر من أبنائه يدعى هرلد هيرفوت Herald Harefoot إنجلترا خمس سنين ، ثم مات ، وحكمها هارثكنوت عامين توفي بعدها سنة ١٠٤٢ ، واستدعى من نورمنديا قبل وفاته ابن لاثرل وإما الباقي على قيد الحياة ، واعترف بهذا الأخ الأنجليسكسوني غير الشقيق وارثاً لعرش إنجلترا .

ولكن إدورد المعترف Edward the Confessor (١٠٤٢ - ١٠٦٦) كان غريباً عن البلاد بقدر ما كان أي دنمركي آخر غريباً عنها . فقد نقله أبوه إلى نورمنديا وهو في العاشرة من عمره ، وقضى ثلاثين عاماً في بلاط النورمنديين ، وتربى على أيدي أعيانهم وقساوستهم ونشأوه على التقى والصراحة . وجاء الملك الجدد إلى إنجلترا بلغته وعاداته الفرنسية وأصدقائه الفرنسيين ، وأصبح هؤلاء الأصدقاء من كبار موظفي الدولة وروسائها الدينيين ، وتلقوا هبات ملكية ، وشادوا في إنجلترا قصوراً نورمندية منيعة ، ولم يخفوا ازدراءهم للغة الإنجليزية وأساليب الحياة الإنجليزية ، وبدءوا الفتح النورمندي قبل ولیم الفاتح بجبل من الزمان .

ولم يكن يستطيع أن ينافسهم في التأثير في الملك الرقيق المطواع إلا رجل واحد هو إيرل جلدون Earl Godwin حاكم وسكس ومستشار الدولة الأول في عهد كنوت وهرلد وهارثكنوت . وكان إيرل جلدون واسع الثراء حكماً ، داهية في الدبلوماسية صبوراً عليها ، فصيح اللسان ، قوى الحججة ، بارعاً في الأعمال الإدارية ، فكان بذلك أول الساسة العظام من غير رجال الدين في التاريخ

الإنجليزى . وقد زفعت تجاربه فى شئون الحكم منزلة فوق منزلة الملك نفسه . وأصبحت ابنته إديث Edith زوجة إدورد ، ولولا أن إدورد لم يكن له خلف لكان من المحتمل أن يصبح جدون جد ملك من الملوك . ولما أن تزوج تسج Tostig ابن جدون يوديث Judith ابنة كونت فلاندرز ، وأصبح سوين Soweyn ملكا على الدنمرقة أنشأ إيرل جدون هذه الصلات الزوجية حلفاً ثلاثياً جعله أقوى رجل فى أوربا الشمالية كلها لا نستثنى من ذلك التعميم مليكه نفسه . لكن أصدقاء إدورد النورمنديين أثاروا فى نفسه عوامل الغيرة ، فمزى جدون ، وفرّ الإيرل إلى فلاندرز ، كما خرج ابنه هرولد Harold إلى أيرلندة وحشد فيها جيشا ليقاتل به إدورد المعترف (١٠٥١) . ولم يكن أعيان الإنجليز راضين عن سيادة النورمنديين عليهم ، فطلبوا إلى جدون أن يعود ، ووعدوه بتأييد جنودهم له . وغزا هرولد إنجلترا ، وهزم جيوش الملك ، ونهب ساحل إنجلترا الجنوبي الغربى وعاث فى أرضه فساداً ، ثم انضم إلى والده وزحفاً معاً إلى أعلى نهر التاميز ، وثار الشعب فى لندن على حكامه واستقبل الغزاه بالترحاب ، وفرّ الموظفون ورجال الدين النورمنديون ، واجتمع وتناجور (مجلس) من أعيان الإنجليز وأساقفتهم ، واستقبل جدون استقبال الظافرين ، واسترد جدون سلطانه السيامى وما صودر من أملاكه (١٠٥٢) ، ولكنه مات بعد عام واحد بعد أن أنهكه الاضطراب والنصر .

وعُيِّن هرولد إيرل وسكس ، وخلف أباه فى بعض ما كان له من سلطان . وكان وقتئذ فى الحادية والثلاثين من عمره ، طويل القامة ، بهى الطلعة ، قوى البنية ، شهماً ، مقداماً جريئاً ، قاسياً فى الحرب ، كريماً فى السلم ، شى خلة جريئة خاطفة على ويلز انتهت بضمها إلى إنجلترا ، وقدم رأس جروفيد Gruffydd زعيم ويلز هدية إلى الملك المسرور المروع (١٠٦٣) . وفى فترة هادئة من حياته العاضفة جاد بالمال الكثير لبناء كنيسة ولنام Waltham (١٠٦٠) ، وإعانة

الكلية التي نشأت من مدرسة هذه الكنيسة ، واتجهت أنظار إنجلترا كلها إلى هذا الشاب الذي لا يفترق في شيء عن أبطال الروايات .

وأهم ما حدث في عهد إدورد من الناحية المعمارية هو الشروع في بناء دير وستمنستر (١٠٥٥) : وكان الملك قد ألف الطراز المعماري النورمندي أثناء حياته في رُون Rouen ، فلما أن أمر ببناء الدير الذي أصبح فيما بعد مزاراً مقدساً ومقبرة لعباقرة إنجلترا ، أمر أو أجاز أن يقام على الطراز النورمندي الرومانسي على نسق كنيسة الدير العظيمة التي بدى في تشييدها قبل ذلك الوقت بخمسة سنين لا أكثر في جومييج Jumièges ، وكان هذا أيضاً فتحاً نورمندياً قبل أيام ولیم . وكان بناء دير وستمنستر إيداناً ببداية نهضة معمارية أوجدت في إنجلترا أجمل المباني الرومانسية في أوروبا بأجمعها .

وفي مقبرة وستمنستر دفن إدورد في بداية سنة ١٠٦٦ ذات الأحداث . الجسام . واجتمع الويتنأجور في السادس من يناير واختار هرولد ملكاً على إنجلترا . وما كاد التاج يوضع على رأسه حتى جاءت الأخبار بأن ولیم دوق نورمندي يطالب بالعرش ويستعد للحرب . وكانت حجة ولیم أن إدورد قد وعده في عام ١٠٥١ أن يوصى له بتاج إنجلترا جزاء له على إيوائه وحمايته في نورمندي ثلاثين عاماً . ويخجل إلينا أن هذا الوعد قد بذل حقاً (٢٨) ؛ ولكن إدورد إما أن يكون قد نسيه ، وإما أنه ندم على ما بذله ، فأوصى قبل وفاته بقليل أن يخلفه هرولد على عرش إنجلترا . وسواء كان هذا أو ذاك فإن هذا الوعد لم تكن له قيمة إلا إذا أقره الويتان Witan ؛ ولكن هرولد - كما يقول ولیم - قد قبل منه مرتبة الفروسية أثناء زيارة له في رون (في تازيخ لا نعرفه الآن) ، فأصبح بذلك « رجل » ولیم يدين له بالطاعة حسب قانون الإقطاع ، وأنه وعد بأن يعترف به وارثاً لعرش إدورد ويؤيده في المطالبة به . واعترف هرولد بهذا الوعد (٢٩) ولكن قسّمه أما كان لم يكن من شأنه في هذه المرة أيضاً أن يقيد الأمة الإنجليزية بشيء .

فاختاره ممثلو تلك الأمة بكامل حريتهم ملكاً عليهم ، واعتزم هرولد أن يدافع عن ذلك الاختيار . ولجأ وليم إلى البابا ، وحكم الكسندر الثاني بناء على مشورة هلدبراند Hildebrand بأن هرولد مغتصب ، وحرمه هو ومناصريه من الكنيسة المسيحية ، وأعلن أن وليم صاحب الحق الشرعي في عرش إنجلترا ، وبارك غزوة وليم المرتقب ، وبعث إليه يعلم مدشن وخاتم يحتوي على شعرة من رأس القديس بطرس في داخل ماسة (٣٠) . وقد ستر هلدبراند أن يجعل هذه الحادثة سابقة لتصرف البابوات في عروش الملوك وفي خلعهم ، وطبق هذه السابقة بالفعل بعد عشرين من ذلك الوقت على هنري الرابع ملك ألمانيا ، ولم تكن شبة ضعوبة في استخدامها مع الملك جون عام ١٢١٣ . وانضم لانفرانك رئيس ديربك إلى وليم في دعوة أهل نورمندي - أو على الأصح أهل جميع الأقطار - لشن حرب مقدسة على الملك المحروم .

ولاقى هرولد في كهولته الخيرة جزاء ما ارتكبه في شبابه من آثام . ذلك أن أخاه تستج الذي نفاه الويتان من زمن بعيد لم يستدعه هرولد من منفاه بعد أن آل الأمر إليه ، ولهذا انضم تستج إلى وليم ، وحشد جيشاً في شمال البلاد ، وأقنع هارلد هاردرادا Harald Hardrada ملك النرويج بأن ينضم إليه ، ووعدته في نظير ذلك بعرش إنجلترا . وبينما كانت عمارة وليم البحرية المولفة من ١٤٠٠ سفينة تطلع من نورمندي إذ أغارت تستج وهاردرادا على نورثمبرلند . واستسلمت لهما مدينة بورك ، وتوج فيها هاردرادا ملكاً على إنجلترا ، وأسرع إليه هرولد بمن معه من الجند وهزم الغزاة من الشمال عند جسر استامفورد Stamford Bridge (في ٢٥ سبتمبر) ، وقتل في هذه الواقعة تستج وهاردرادا ، ثم اتجه هرولد نحو الجنوب ومعه قوة قليلة يعجز لفلتها عن الوقوف في وجه جيش وليم ، وأشار عليه جميع ناصحيه بالريث . ولكن وليم كان يحرق إنجلترا الجنوبية ويخربها تخريباً ، وكان هرولد يحس بأن من واجبه أن يحمي الأرض التي خربها هو من قبل والتي أصبح

يحبها اليوم . والتقى الجيشان عند سنلاك Senlac بالقرب من هيسننجس Hastings (١٤ أكتوبر) ونشبت بينهما معركة دامت تسع ساعات . واخترق أحد السهام عين هرولد فأعماه الدم ، ووقع على الأرض ، ومزق فرسان النورمنديين جسمه تمزيقاً ، فقطع أحدهم رأسه ، وآخر ساقه ، ونثر ثالث أجشاء هرولد في ميدان القتال . ولما رأى الإنجليز قائدهم يخر صريعاً ولوا الأدبار ، وأعقبت هذه المزيمة مذبحه وفوضى بلغ من هولهما أن الرهبان الذين كلفوا فيما بعد بالبحث عن جثة هرولد لم يعثروا عليها إلا بعد أن جاءوا إلى الميدان بإديث سوانزneck Edith Swansneck التي كانت عشيقته ، فتبينت جثة عشيقها المبتورة الأطراف ، ودفنت قطعها في كنيسة ولتنام التي بناها في حياته . ثم توج وليم الأول ملكاً على إنجلترا في يوم عيد الميلاد من عام ١٠٦٦ .

الفصل الثاني

ويلز ٥٢٥ - ١٠٦٦

فتح فرنطينس Frontinus وأجر كولا Agricola بلاد ويلز وضماها إلى رومة في عام ٧٨ م . ولما انسحب الرومان من بريطانيا استردت ويلز حريتها ، وخضعت على كره منها لحكم ملوكها . واحتل غربي ويلز مستعمرون أيرلنديون في القرن الخامس ، ثم جاء إليها فيما بعد آلاف من البريطانيين فارين من الأنجليسكسون الذين فتحوا جزيرتهم . ووقف زحف الأنجليسكسون أمام الحواجز القائمة عند حدود ويلز وأطلقوا على الشعب الذي لم يخضعوه اسم ويلهاس Wealhas - « الأجانب » . ووجد الأيرلنديون والبريطانيون في ويلز سلالة كلتية من جنسهم ، وسرعان ما امتزجت الطوائف الثلاثة وأضحت سمرو Cymru « أبناء وطن واحد » . وصار هذا هو اسمهم كما صار لفظ سمرو Cymru اسم بلادهم . وكان هؤلاء الأقوام يقيمون نظامهم الاجتماعي كله على أساس الأسرة والعشيرة شأنهم في هذا شأن معظم الشعوب الكلتية - البريطانيين ، والكورنيين Cornish (سكان كورنول الحالية) ، والأيرلنديين ، والجيليين Gaels سكان شمالي إسكتلندة ، وقد بلغ من حرصهم على هذا النظام أن أصبحوا يأنفون وجود دولة تضمهم ، ويرتابون أشد الارتباب في كل شخص أو شعب يجرى في عروقه الدم الأجنبي . ولم يكن سخاؤهم وإكرامهم للضيف أقل قوة من نزعتهم القبلية ، كما لم تكن شجاعتهم تقل عن عدم خضوعهم للنظام ، ولا حياتهم الشاقة وجو بلادهم القارس يقلان عن حبهم للموسيقى والغناء والوفاء للأصدقاء ، ولا فقرهم عن عاطفتهم القوية وخيالهم الواسع اللذين جعلتا من كل فتاة أميرة ومن نصف الرجال ملوكا .

ولم يكن يعلو على منزلة الشعراء المنشدين إلا الملوك أنفسهم . ولم يكن هؤلاء

الشعراء هم عرافى شعبهم ومؤرخيه ومستشارى ملوكه فحسب ، بل كانوا إلى ذلك شعراءه . وقد خلد الزمان اسمى اثنين من هؤلاء الشعراء هما تليزن Talesin وأنورين Aneurin ، وقد عاش كلاهما فى القرن السادس الميلادى . وكان هناك مئات غيرها ، وعبرت القصص التى نسجوا بردها القناة الإنجليزية إلى بريطانيا ، ووصلت فى صورة مصقولة إلى فرنسا . وكون هؤلاء المنشدون طبقة من الشعراء الدينين ، لم يكن يسمح لأحد أن ينتمى إليها إلا بعد مران صارم دقيق فى معارفه . وكان كل من يريد الدخول فى زميرتهم يسمى ما بينوجى Mabinog ، وكانت الموضوعات التى يدرسها تسمى ما بينوجى Mobinogi ، ولهذا أطلق اسم ما بينوجيون Mabinogion على ما بقى من قصصهم^(٣١) . ولا ترجع هذه القصص فى صورتها الحالية إلى ما قبل القرن الرابع عشر ، ولكن أغلب الظن أنها ترجع إلى ذلك الوقت الذى لم تكن فيه المسيحية قد دخلت بلاد ويلز . وهى قصص بدائية ساذجة ذات نزعة وثنية تشهد بأن الأهلين كانوا من عباد الطبيعة ، مليئة بالحيوانات الغريبة والحادثات المدهشة ، يسودها جو نكد من النوى ، والهزيمة ، والموت ، ولكنها ذات مزاج رقيق بعيد كل البعد عن الشهوانية والعنف اللذين نشهدهما فى قصص الإدا Eddas الأيسلندية Icelandic ، والساجا Sagas خرافات أهل الشمال ، والنيبيلنجنيلد Nibelungelied . وقد نشأ فى عزلة جبال ويلز أدب خيالى يفيض بالولاء للأمة ، والإخلاص فيما بعد لعيسى ومريم . وكان لهذا الأدب شأن فى نشأة الفروسية ، والقصص العجيبة التى تتحدث عن الملك آرثر Arthur وفرسانه العشاق البواسل الذين أقسبوا أن « يقضوا على الوثنيين وقيموا دين المسيح » .

ودخلت المسيحية ويلز فى القرن السادس ، وما لبثت بعد دخولها أن افتتحت المدارس فى الأديرة والكنائس . وقد جاء الأسقف العالم أسر الذى كان أمين من الملك ألفرد وكاتب سيرته من مدينة سانت دافد وكنيسته فى مقاطعة ممبروك

Pembrokeshire . وتحملت هذه المزارات والمستقرات المسيحية الهجمات الأولى للقراصنة النورمنديين حتى طردهم الملك رودرى الأكبر Rhodri (٨٤٤ — ٨٧٨) وأنشأ في الجزيرة أسرة ملكية قوية . ووحد الملك هيول لصالح Hywel The Good (٩١٠ — ٩٥٠) ويلز كلها ووضع لها قانوناً موحداً منظماً . ولاقى جرفيد آب ليولين Gruffydd ab Llywelyn (١٣٠٩ — ١٠٦٣) من النجاح أكثر مما كان يجب أن يلقاه ؛ فلما أن هزم مرسية Mercia أقرب المقاطعات الإنجليزية إلى ويلز ، أعلن عليه هرولد ، الذى أصبح فيما بعد ملكاً على إنجلترا ، حرباً دفاعية لصد عدوانه ، وفتح بلاد ويلز ، وضمها إلى بريطانيا (١٠٦٣) .

الفصل الثالث

الحضارة الأيرلندية ٤٦١ - ١٠٦٦

كانت أيرلندة في الفترة الواقعة بين موت القديس باترك والقرن الحادى عشر مقسمة إلى سبع ممالك ، منها ثلاث في ألبستر Ulster ، أما الباقية فهي كنوت Connought ، ولينستر Leinster ، ومنستر Munster ، وميث Meath . وكانت هذه الممالك تحارب بعضها بعضاً في أغلب الأوقات لأنها لم تستطع الانتقال إلى آفاق من الحياة أوسع من آفاقها الضيقة ، ولكننا نسمع من بداية القرن الثالث الميلادى عن غارات يشنها الأيرلنديون على السواحل البريطانية الغربية ، وعن محلات أيرلندية في هذه السواحل . ويسمى الإخباريون هؤلاء المغيرين بالاسكتلنديين Scots - ويبدو أن هذا اللفظ لفظ أيرلندى معناه 'الجوالون' ، وإذا ذكر هذا اللفظ متصلاً بهذه الفترة من الزمن فعناه الأيرلنديون . ولم تنقطع الحروب في أثنائها ، وظلت النساء حتى عام ٥٩٠ يُطلبن إلى الاشتراك في القتال ، والرهبان والقساوسة يدعون إليه إلى جانب غيرهم ممن هم أكثر اعتياداً له ، وكان ثمة قانون يماثل في جوهره قوانين « البرابرة » الذين يسكنون القارة الأوروبية ، ويشرف على تنفيذ البريهون Brehons - وهم قضاة من رجال القانون ملبسون أحسن تدريب ، كانوا منذ القرن الرابع يعلمون في مدارس الحقوق . ويؤلفون رسائل قانونية باللغة الجيلية Gaelic (٣٣) .

ونجت أيرلندة كما نجت اسكتلندة من الفتح الرومانية ، ولهذا فلما لم تتح لها نعمة الاستمتاع بالقانون الرومانى وبالحكومة المنظمة ، فلم يفلح قانونها يوماً من الأيام في استبدال الأحكام القضائية بعادات الثأر والانتقام ، أو التأديب بالانفعال . وظلت الحكومة قائمة على الأساس القبلى ، ولم تفلح قط في

تحقيق الوحدة القومية أو النظرة القومية الشاملة .

وكانت الأسرة هي الوحدة التي يقوم عليها المجتمع وشئونه الاقتصادية ، ويتألف من عدة أسر بطن ، ومن عدة بطون عمارة ، ومن عدة عمائر قبيلة . وكان المفروض أن جميع أفراد القبيلة أبناء رجل واحد ، وأخذت كثير من الأسر تضيف اسم القبيلة التي تنتمي إليها U أو O (حفيد) ، للدلالة على نسبها ، فأسرة أونيل مثلاً تقول إنها تنسب إلى نبال جلندبه . Mial Olundubh ملك أيرلندة في عام ٩١٦ . واتخذت أسر أخرى لنفسها اسم أبيها ولم تضيف إليه إلا لفظ ماك Mac أى ابن . وكانت معظم الأراضي في القرن السابع ملكاً مشتركاً للبطون أو العائـل (٣٤) ، وكانت الأملاك الفردية الخاصة مقصورة على الأدوات والبضائع المنزلية (٣٥) ، ولكن الملكية الفردية انتشرت في البلاد قبل أن يحل القرن العاشر الميلادي ، وسرعان ما نشأت طبقة أرستقراطية صغيرة العدد ، تلك أفرادها ضياعاً واسعة ، كما نشأ عدد لا حصر له من الزراع الأحرار ، وطبقة صغيرة من مستأجري الأرض ، وطبقة أخرى من العبيد أصغر عدداً من أولئك المستأجرين (٣٦) . وظل الأيرلنديون في القرون الثلاثة التي أعقبت دخول المسيحية في البلاد (٤٦١ - ٥٧٠) متأخرين عن الإنجليز من الناحيتين المادية والسياسية ، أما من الناحية الثقافية فقد كانوا في أغلب الظن أرقى جميع الشعوب التي تسكن في شمال جبال البرانس والألب .

ويرجع هذا الاختلاف العجيب بين الناحيتين المادية والسياسية من جهة والناحية الثقافية من جهة أخرى إلى أسباب كثيرة : تدفق العلماء الغالين والبريطانيين الفارين من الغارات الألمانية في القرن الخامس ، وازدياد الصلات التجارية بالبريطانيين والغالين ، ونجاة أيرلندة قبل القرن التاسع من الهجمات الأجنبية . وقد افتتح فيها الرهبان ، والقساوسة : والراهبات مدارس كثيرة مختلفة الأنواع والدرجات ، منها مدرسة في كلونارد Clonard أنشئت في

عام ٥٢٠ كانت تضم ٣٠٠٠ طالب (إذا أخذنا بأقوال المؤرخين المشايخين لوطنهم (٣٧) ؛ ومدارس أخرى في كلنما كنويس Clonmacnois (٥٤٤) ، وكلنفرت Clonfert (٥٥٠) ، وبنجور Bangor (٥٦٠) . وكان عدد غير قليل من هذه المدارس يعد للطلاب مناهج تستمر اثني عشر عاماً تؤدي إلى درجة الدكتوراه في الفلسفة ، وتشمل دراسات للكتاب المقدس ، وأصول الدين ، والآداب اللاتينية واليونانية القديمة ، ونحو اللغة الجيلية وآدابها ، وعلوم الرياضة والهيئة ، والتاريخ والموسيقى ، والطب والقانون (٣٨) . وكان ينفق على فقراء الطلبة ممن لا يستطيع آباؤهم أن يعولهم من الأموال العامة ، لأن كثرة الطلبة كانت تعد نفسها لخدمة الدين ، ولهذا لم يكن الأيرلنديون يضمنون بأى بذل في سبيل إعداد الطلاب لهذه المهنة . وظلت هذه المدارس تدرس اللغة اليونانية بعد أن كاد العلم بهذه اللغة يختفي من أوروبا الغربية بزمان طويل . وقد درس ألكوين في مدرسة كلنما كنويس ، وفي أيرلندة تعلم جون اسكوتس إرجينا John Scotus Erigena اللسان اليوناني الذي جعله موضع إعجاب شارل الأصغر في فرنسا .

وكان مزاج هذا العصر وآدابه يساعدان على نشأة الأقاصيص والروايات الغرامية ، لكن بعض العقول كانت تتجه إلى العلوم الطبيعية في أماكن متفرقة من البلاد ، نذكر من أصحاب هذه العقول دنجال Dungall العالم الفلكي ، وفرجيل Fergil العالم في الهندسة النظرية الذي علم قومه أن الأرض كروية ، ودكويل Dieuil العالم الجغرافي الذي أعلن كشف أيسلندة على أيدي الرهبان الأيرلنديين في عام ٧٩٥ ؛ والذي أوضح شدة الضوء في منتصف ليالي الصيف الأيرلندي بقوله إن في وسع الإنسان أن يجد وقتئذ من الضوء ما يمكنه من تنقية البراغيث من قيضه (٣٩) . وكان النحويون كثيرون العدد ، ويكفي سبباً لهذه الكثرة أن علم العروض في أيرلندة كان في ذلك الوقت أكثر تعقيداً منه في أى مكان آخر . كذلك كان الشعراء كثيرين ، وكانت لهم في المجتمع منزلة عالية ،

يؤكدوا في العادة يجمعون إلى قرض الشعر وكتابة التواريخ وظائف التدريس والحاماة ويجمعون في مدارس للشعر حول شاعر نابه ، ولهذا ورثوا كثيراً مما كان للكهنة الدرويد Druid قبل دخول المسيحية في البلاد من سلطات وامتيازات خاصة . وظلت مدارس الشعراء هذه مزدهرة من القرن السادس إلى القرن السابع عشر دون انقطاع ، وكانت تعتمد في العادة على ما تهيئه لها الكنيسة أو الدولة من أرضين^(٤٠) . وازدان القرن العاشر بأربعة شعراء قوميين مشهورين : فلان ماك لونين Flann Mac Lonain ، وكنت Kenneth ، وأهارتجان O'Hartigan ، وإيوكيد أفلين Eochaid Flainn ، وماك لياج Mac Liag الذي اتخذ الملك بريان بورو Brain Boru شاعر بلاطه .

وانخذت قصص أيرلندة في ذلك العصر صورة أدبية ، وكان جزء كبير من مادة هذه القصص متداولاً قبل أيام بتريك ، ولكن الناس كانوا يتناقلونها شفويًا ثم صيغت وكتب . قالب من النثر الموزون ، والشعر الغنائي ، وما من شك في أن شعراء ذلك العصر هم الذين وضعوها في قالبها الأدبي ، وإن لم تصل إلينا مخطوطة إلا بعد القرن الحادى عشر . ومن هذه القصص طائفة متصلة الحلقات تخلد ذكرى آباء الشعب الأيرلندى الأسطوريين . فمنها طائفة « فينية Fenian » أو « أسيانية Ossianic » تقص في شعر حماسي مثير مغامرات البطل الخرافى فن ماك — كهيل Finn Mac Cumhail وأبنائه وحفدته الفيانا Fianna أو الفنين Finians . وتعزو الروايات المتداولة معظم هذه القصائد إلى أسيان Ossian بن فن Finn ، الذى عاش ، كما تقول الروايات ، ثلاثمائة عام ومات أيام القديس بتريك ، بعد أن وهب القديس قسطاً من عقله الوثنى . وتدور طائفة حماسية من القصص حول كوشولين Cuchulain الملك الأيرلندى ، الذى نشهده في مائة منظر داعر من مغامرات الحرب والحب . وأجمل قصة في هذه المجموعة تروى قصة ديردر Deirdre ابنة فلم Felim كبير شعراء الملك كونور Conor

ومضمونها أن قسا درويدياً يتنبأ لها ساعة مولدها بأنها ستسبب كثيراً من
النكبات لبلادها ألستر ، ويرفع الشعب عقيرته قائلا : « فلتدبح » ،
ولكن الملك كونور يحجبها من غضب الشعب ، ويريبها ، ويعتزم الزواج بها .
وتزداد الفتاة جمالا على مر الأيام ، ثم تبصر ذات صباح الفتى ناأويز Naoise
الوسيم يلعب الكرة مع غيره من الشبان ، وتلتقط الفتاة كرة ألقيت خطأ
وتعيدها إليه ، و « ضغط على يدي وهو مبتهج » . وتوثر هذه الحادثة في
عواطفها الناضجة فترجو خادمتها الخاصة قائلة : « أى مربيتي الرقيقة ،
إذا كنت تحبين لي الحياة ، فاحملني رسالة إليه ، وقولي له أن يأتي
ليتحدث إليّ سرّاً في هذه الليلة » . ويقبل ناأويز ويغترف من حبها حتى
يسكر ، ثم يأتي إليها هو وأخواه لينل Ainnie وأردان Ardan في الليلة
الثانية وينقلانها برضاها بطريق البحر إلى اسكتلندة . ويقع أحد ملوك
اسكتلندة أسير هواها ، فيخفيها الإخوة الثلاثة في شعاب الجبال ، ثم يبعث
الملك كونور بعد حين رسالة يقول فيها إنه يعفو عنهم جميعاً إذا عادوا
إلى إيرين Erin . ويوافق ناأويز على طلب الملك مندفعاً إلى ذلك بحبنته إلى
وطنه ومبارح صباه ، وإن كانت دبردر تحذره عاقبة هذه العودة وتلذذه
بأن الملك سيفدر به . وما كادوا يصلون إلى أيرلندة حتى هاجمهم جنود
كونور ، ويقا تل الإخوة قتال الأبطال ، ولكنهم يخرون جميعاً صرعى ،
ويطير لب دبردر من شدة الحزن ، فتلقى بنفسها على الأرض وتمتص دماء
حبيبها ، وتنشد هذه الأغنية الحزينة :

بينما كان أعيان البا Aiba (اسكتلندة) ذات يوم يقصفون

ويعرحون

إذ طبع ناأويز في السر قبيلة

على وجنة ابنة لورد دنترون Duntrone ،

ثم بعث إليها بظبية وثابة ،

ظبية من ظباء الغاب ونحت قدمها خشف ،
ثم أقبل عليها زائراً
وهو عائد من جيش إنفرنس Inverness ،
فلما سمعت هذا ، اكتوى قلبي بنار الغيرة ،
ودفعت زورقي الصغير فوق الموج
ولم أبال هل قدر لي أن أحيأ أو أموت .
ونزلاً إلى الماء في إثري

إينل وأردان ، اللذان لم ينطقا قط بغير الحق ،
وجاءا بي مرة أخرى إلى البر ،
وهما فتيان يغلبان مائة من الأبطال ،
وقطع لي نأويز عهداً صادقاً
وأقسم بسلاحه ثلاث أيمان مغلظة
ألا يمسّ وجهي مرة أخرى
حتى يذهب من عندي إلى جيش الموتى
يا ويلها ، لو أنها سمعت في هذه الليلة
أن نأويز مسجى في التراب
إذن لزرقت الدمع مدراراً
ولبكيت معها سبع مرات .

وتختتم أقدم صيغة من صيغ قصة « ديردر ذات الأشجان » بخاتمة قوية
في سداجتها : « وكانت بالقرب منها صخرة كبيرة ، وضربت برأسها الحجر
فتحطمت جحمتها ولاقت حتفها » (٤١) .

وكان الشعر والموسيقى وثيق الصلة في أيرلندة ، شأهما في غيرها من البلاد
في حياة العصور الوسطى . فكانت الفتيات يغنين وهن ينسجن أو يغزلان
(٢٠ - ٢١ - مجلد ٤)

أو يجلبن الأبقار ؛ وكان الرجال يغنون وهم يفلحون الأرض أو يسبرون إلى ميدان القتال ؛ والمبشرون يعزفون على القيثارة ليجمعوا حولهم مستمعهم ، وكانت أحب الآلات الموسيقية هي القيثارة ، وكانت تتألف عادة من ستين وترأ ، يعزف عليها بالأنامل ، وكانت التيمبان timpan كماناً ذات سبعة أوتار تضرب بالريشة أو القوس ، وكانت آلات موسيقى القرب تعلق في الكثف وتنفخ بالفم ؛ ووصف جيرالدوس كمبرنسس Giraldus Cambrensis (١١٨٥) العازفين الأيرلنديين على القيثارة بأنهم أحسن من سماع من العازفين ، وهو إطرأ عظيم القيمة لصدوره من ويلز المحبة للموسيقى .

وليس أبجل ما أثمره الفن الأيرلندي في ذلك العصر كأس أرداع Ardagh الدائمة الصيت (حوالى عام ١٠٠٠) التي اجتمعت فيها ٣٥٤ قطعة من الفضة ، والذهب ، والكهرمان ، والبلور ، والميناء المقسمة ، والزجاج ؛ بل إن أبجل منها « كتاب كلز Book of Kells وهو يحتوى الأناجيل الأربعة مخطوطة في القرن التاسع على الرق بأيدي رهبان أيرانديين في بلدة كلز من أعمال ميث Mcath أو في جزيرة أيونا Iona ، وهو الآن من أعظم ما تمتلكه كلية ترنتى Trinity College بدبلن . وجاء طراز تزوين الكتب البيزنطى والإسلامى إلى أيرلندة عن طريق الاتصال البطىء بين الرهبان بعضهم ببعض مخترقين الحدود ، وبلغ فيها درجة الكمال في فترة قصيرة من الوقت . ولم يكن لصور الإنسان والحيوان في تزوين الكتب بأيرلندة إلا شأن ضئيل ، مثله في هذا كمثل هذا الفن عند المسلمين ، فقد كانوا يرون أن إنساناً أو حيواناً مهما بلغ لا يساوى نصف الحرف الأول . وكانت الروح السارية في هذا الفن هي أن يؤخذ حرف من الحروف أو شكل زخرفى واحد ، ويمد فوق أرضيه زرقاء أو ذهبية اللون بشكل فكه مبهج حتى يكاد يغطى الصفحة بتمامها في نسيج متشابك أشبه بالمتاهة . وليس في المخطوطات المسيحية المزخرفة ما يفوق كتاب كلز هذا ، ويصفه

جيرلد Girld من كتاب ويلز - وهو الذى لا يتفك يظهر غيرته من أيرلندة - بأنه من عمل الملائكة المتخفين فى أبواب البشر^(٤٢) .

ولاذ كان هذا العصر الذهبى فى أيرلندة نتيجة لسلامتها من الغزوات الألمانية التى أرجعت سائر أوربا مئات السنين إلى الوراء ، فقد قضت عليه غزوات الشماليين التى قضت فى فرنسا وإنجلترا خلال القرنين التاسع والعاشر على كل ما أحرزه هذان البلدان بفضل ما بذله شارلمان وألفرد من جهود جبارة . ولعله قد ترمى إلى أهل الترويج والدنمرة - وكانوا لا يزالون وثنيين - أن الأديرة الأيرلندية غنية بالذهب ، والفضة ، والحلى ، وأن انقسام البلاد السياسى يجعلها عاجزة عن مقاومة أعدائها متحدة . وحدثت غزوة تجريبية فى عام ٧٩٥ ولكنها لم تسب للبلاد خسارة تذكر ، غير أنها أيدت ما كان يشاع عن عدم مقدرة هذه الفريسة على صد الغزاة ؛ ثم أعقبها غزوات أخرى أكبر منها فى عام ٨٢٣ نهب فيها الغزاة كورك Cork وكلوين Cloyne ، وخربوا دبرى. بنجور Bangor وموثل Moville وذبحوا رجال الدين . ولم تكد تخلو سنة واحدة بعد ذلك العام الأخير من غزوة أو غزوات ؛ استطاعت جيوش صغيرة بإسلة أن تصد فيها الغزاة فى بعض الأحيان ، ولكنهم كانوا يعيدون الكرة وينهبون الأديرة أينما حلوا . واستقرت جماعات من الغزاة الشماليين قرب شاطئ البحر ، وأنشأوا مدائن دبلن ، وليرك Limerick ، ووترفورد Waterford وفرضوا الجزية على نصف الجزيرة الشمالى . واتخذ ملوكهم ثورجست Thorgest أرماغ Armagh مدينة القديس پتريك عاصمة للملكة الوثنى ، وتوَجَّ زوجه الوثنية على مذبح كنيسة القديس كيران St. Kieran فى كلونما كنيوس^(٤٣) . وحارب ملوك أيرلندة متفرقين غزاة بلادهم ، ولكنهم كانوا فى الوقت عينه يحارب بعضهم بعضاً . فقد قبض ملاخى Melachi ميث على ثورجست وأماته غرقاً (٨٤٥) ، ولكن أولاف الأبيض Olof the White أبجد الأماء النرويجيين أسس فى عام ٨٥١

مملكة دبلن التي ظلت تابعة لأهل الشمال حتى القرن الثاني عشر . وقضت هذه الغزوات المتتابة على عصر العلم والشعر ، وأحلت محله عصر الحروب الطاحنة ، وكان الجنود المسيحيون والوثنيون في خلاله ينهبون الأديرة ويحرقونها ، ويتلفون المخطوطات القديمة ويشقتون ما تجمع من التحف الفنية خلال القرون الطوال ، « ولم يمارس شاعر ، أو فيلسوف ، أو موسيقي فنه المعتاد في تلك البلاد » كما يقول مؤرخ أيرلندي قديم^(٤٤) .

وظلت الحال كذلك حتى ظهر آخر الأمر رجل كان له من القوة ما أمكنه أن يجمع شتات هذه الممالك ويؤلف منها أمة موحدة . كان بريان بورمها أو بورو Brian Borumha or Boru (٩٤١ — ١٠١٤) أخاً لماهون ملك منستر King Mahon of Munster ، وزعيم عمارة دلجاس Drilgas . وحارب الأخوان جيشاً دنمركياً بالقرب من تيريري Tipperary (٩٦٨) ومزقه شر ممزق ، ولم يرحموا فلوله المنهزمة ، ثم استولوا على لمرك ، وقتلوا كل من عثرا عليه فيها من الشماليين . ولكن اثنين من صغار الملوك — ملوى ملك دزمند Molloy of Desmond ودوناغان ملك هاي كاربري Donavan of Hy Carbery — خشياً أن يستولى الأخوان الزاحفان على مملكتيهما فعقدوا حلفاً مع المهاجرين الدنمركيين ، واختطفوا ماهون وقتلوه (٩٧٦) . وأوقع بريان ، وقد أصبح الآن ملكاً ، هزيمة ثلثية بالدنمركيين ، وقتل ملوى . وصمم على توحيد أيرلندة كلها ، ولم يتردد في اتباع أية وسيلة توصله إلى هذه الغاية ، فتحالف مع الدنمركيين مالمكي دبلن ، وهزم بمعونتهم ملك ميث ، ونودي به ملكاً على أيرلندة كلها (١٠١٣) . ولما استمتع بالسلم بعد حروب دامت أربعين عاماً ، أخذ يعيد بناء الكنائس والأديرة ، ويصلح الجسور والطرق ، وينشئ المدارس والكليات ، ويفر النظام ويقضى على الجرائم . ولقد وصف الخلف ذو الخيال الواسع ما ساد البلاد من أمن بفضل هذه « السلم المالمكية » قصة كثيراً ما نراها في غير هذه المناسبة ،

فقالوا إنه كان في مقدور الفتاة المثقلة بالحلى والجواهر أن تطوف في أنحاء البلاد بمفردها دون أن يتعرض لها أى أحد بأذى . وحشد أهل الشمال بأيرلندة في هذه الأثناء جيشاً آخر ، زحفوا به على الملك الطاعن في السن ، والتقى بهم الملك الإيرلندى عند كلنتارف Clontarf القريبة من دبلن في يوم الجمعة الحزينة في الثالث والعشرين من إبريل عام ١٠١٤ وهزمهم ، ولكن ابنه مروغ Murrough قتل في أثناء المعركة ثم ذبح بريان نفسه في خيمته .

وحلت السلم - وهى الترف الذى لا يستمتع به إلا المحظوظون - في البلاد المنكوبة إلى حين ، وانتعشت الفنون والآداب من جديد في القرن الحادى عشر ، وظهر في خلاله كتاب لينستر the Book of Leinster وكتاب الترانيم وهما لا يكادان يقلان في جمال زخرفتهما عن كتاب كلز نفسه . وكان للمؤرخين والعلماء شأن كبير في مدارس الأديرة ، غير أن الروح الأيرلندية الشكسة لم تكن قد روضت بعد ، فقد عادت الأمة ، فانقسمت إلى ممالك متعادية ، وأنهكت قواها في الحروب الداخلية ، ورأت حفنة من المغامرين من أهل ويلز وإنجلترا في عام ١١٧٢ أن من السهل عليها أن تفتح « جزيرة الدكاترة والقدسين » - وإن لم تجد من السهل عليها أن تحكمها .

الفصل الرابع

اسكتلندة ٣٢٥ - ١٠٦٦

هاجرت في أواخر القرن الخامس قبيلة من الاسكتي Scotti الجليين من شمالى أيرلندة إلى الجزء الجنوبي الغربى من اسكتلندة ، وأطلقوا اسمهم على جزء من شبه الجزيرة ذى المناظر الجميلة الخلابة الواقع فى شمال نهر التويد Tweed ثم على شبه الجزيرة كلها . وأخذت ثلاث قبائل أخرى تنازعها على امتلاك « كالدونية Caledonia » القديمة هذه : البكت Picts وهى قبيلة كلتية استقرت فوق خليج فورث The Firth of Forth ، والبريطانيون وهم الذين فروا أمام غزاة بريطانيا الأنجليسكسون واستقروا بين نهر درونت Derwent وخليج كليد Firth of Clyde ، والآنجلز Angles أو الإنجلز الضاربون بين نهر تين Tyne وخليج فورث . ومن هؤلاء كلهم تألفت الأمة الأسكتلندية : وهى أمة إنجليزية فى لغتها ، مسيحية فى دينها ، نارية فى مزاجها كالأيرلنديين ، عملية كالإنجلز ، ماهرة ، قوية الخيال ككل كلتى .

وكان الاسكتلنديون كالأيرلنديين يستنكفون أن يتخلوا عن نظامهم القائم على صلة القرى ، ولا يرغبون فى أن يستبدلوا الدولة بالقبيلة . ولم يكن يضارع النزاع بين الطبقات فى شدته إلا ولاؤهم للقبيلة ، وفخرهم بولائهم لها ، وشدة مقاومتهم لأعدائهم الأجانب . وعجزت رومة عن فتح بلادهم ، بل إن سور هديران الذى أقيم بين سلواى Solway والتين (١٢٠ م) ، وسورانطونينس Antoninus Pius ، الذى يبعد ستين ميلا نحو الشمال بين خليجى فورث وكليد (١٤٠) ، وحروب سبتيموس سيفرس Septimius Severus (٢٠٨) أو ثيودوسيوس Theodosius (٣٦٨) ، بل إن هذه كلها لم تجد نفعا فى القضاء

على الغزوات المتكررة التي كان يشنها الهكت الجلياع من حين إلى حين على البريطانيين . وفي عام ٦١٧ استولى السكسون بقيادة إدون ملك نورث برية على معقل الهكت الجلي الجلي الحصين وأطلقوا عليه اسم إد (و) نبرج Ed (w) inburgh (إدنبره) ، وفي عام ٨٤٤ ضم كنهث ماك ألين Kenneth Mac-Alpin الهكت والاسكتلنديين تحت سلطانه ؛ وفي ٩٥٤ استردت القبائل إدنبره ، واتخذتها عاصمة لها ؛ وفي ١٠١٨ استولى ملكولم الثاني على لوثيران Lofhian (الإقليم الواقع شمال نهر التويد) ، وضمها إلى مملكة الهكت والاسكتلنديين . وبدأ أن الكلت قد ضمنوا لأنفسهم السيادة على البلاد ؛ ولكن غزو الدنمركيين لإنجلترا دفع آلافاً من « الإنجليز » إلى جنوبي اسكتلندة ، وتدفق بذلك عنصر أنجليسكسوني قوى إلى دماء الأسكتلنديين .

وجمع دنكان الأول Duncan I (١٠٣٤ - ١٠٤٠) هذه الشعوب الأربعة كلها - الهكت ، والاسكت Scotts ، والكلت البريطانيين ، والأنجليسكسون - وكون منها مملكة واحدة هي مملكة اسكتلندة . ولما هزم الإنجليز دنكان عند درهام Durham مهدت هذه الهزيمة السبيل لقائده مكبث Macbeth ، فطالب لنفسه بعرش البلاد لأن زوجته جروتش Gruoch كانت جفيدة كنهث الثالث . واغتال مكبث دنكان (١٠٤٠) ، وحكم البلاد سبعة عشر عاماً قتله بعدها ملكولم الثالث ابن دنكان . واغتيل من الملوك السبعة عشر الذين حكموا اسكتلندة بين عامي ٨٤٤ و ١٠٥٧ اثنا عشر لأن ذلك العصر كان مليئاً بأعمال العنف والنزاع المرير طلباً للغذاء والماء ، والحرية والسلطان . ولم تجد اسكتلندة في تلك السنين المليئة بالأحداث الجسام متسعاً من الوقت تمارس فيه ترف الحضارة ونعمها ؛ فقد اغتصب المغيرون الشماليون جزائر أوركني Orkney ، وفارو Faroes ، وشتلندة Shetland ، وهريده Hebrides ؛ وقضت إنجلترا حياتها كلها مهددة بغارات قراصنة الشمال (الفيكينج Vikings) الشداد الذين كانوا يسيطرون سلطانهم وينشرون بني جنسهم في أنحاء العالم الغربي .

الفصل الخامس

أهل الشمال The Northmen : ٨٠٠ — ١٠٦٦

١ — قصص الملوك The Kings' Saga

يلوح أن أهل الشمال كانوا من التيوتون الذين انتقل أسلافهم إلى بلاد السويد والنرويج بعد أن اخترقوا الدنمرقة وعبروا مضيق أسكجراك Skaggerak وكتجات Kattegat ، وحلوا في البلدين محل الكلت الذين حلوا من قبل محل شعب شبيه باللايلانديين والإسكيمو^(١٥) . وأطلق زعيم قديم يدعى دان مكلائي Dan Mikillati اسمه على الدنمرقة — ومعناها منعق دان أوولايته ، وتركت قبيلة أسويونس Suiones ، إحدى القبائل القديمة التي وصفها تاسيتس Tacitus بأنها كانت تسيطر على شبه الجزيرة العظيمة ، تركت هذه القبيلة اسمها في اسم بلاد السويد Sweden (اسفريج Sverige) ، وفي اسم كثير من الملوك الذين يسمون اسوين Sweyn ، وليس معنى لفظ النرويج (نورج Norge) إلا الطريق الشمالى . وأصبح لفظ اسكاني Scane وهو الاسم الذى أطلقه بلني Pliny الأكبر على بلاد السويد اسكانديا Scandia في اللغة اللاتينية ، ونشأ منه لفظ إسكنديناو Scandinavia الذى يشمل الآن ثلاث أمم وثيقة الصلة في دماغها ذات لغات يفهم المتحدثون بها بعضهم بعضاً . وزادت خصوبة النساء أو زاد خيال الرجال في الأقطار الثلاثة على خصوبة التربة ، فعمد الشبان أو غير الراضين عن مصيرهم إلى زوارقهم ، وأخذوا يحومون حول السواحل يطلبون الطعام ، أو العبيد ، أو الأزواج ، أو الذهب ، ولم يكونوا لجوعهم يرعون قانوناً أو حدوداً للأقاليم ، فاجتاح أهل

النرويج اسكتلندة ، وأيرلندة ، وأيسلندة وجربلندة ؛ وأهل السويد
الروسيا ؛ والدنمركيون إنجلترا وفرنسا .

ولايسعنا لقصر أجل الحياة البشرية أن نذكر في هذه العجالة آلهة تلك
البلاد وملوكها بالتفصيل ؛ وحسبنا أن نقول هنا إن جورم Gorm
(٨٦٠ - ٩٣٥) وهب دنمركة وحدثها ؛ وإن ابنه هارلد بلوتوث (صاحب
السن الزرقاء) Harald Bluetooth (٩٤٥ - ٩٨٥) جعل المسيحية دينها ؛
وإن سوين فورك بيرد ذا اللحية المتشعبة Sweyn Forkbeard (٩٨٥ -
١٠١٤) فتح إنجلترا ورفع دنمركة مدى جيل من الزمان إلى منزلة من دول
أوربا الكبرى . وجعل الملك أولاف اسكتكوننج Olaf Skoticonung
(٩٩٤ - ١٠٢٢) المسيحية دين السويد ، ومدينة أبسالا Uppsala عاصمة
ملكه . وكانت بلاد النرويج في عام ٨٠٠ مؤلفة من إحدى وثلاثين إمارة ،
تفصلها بعضها عن بعض الجبال ، والأنهار ، والخلجان الطويلة الضيقة
العميقة (الفيوردات) ، ويحكم كلا منها زعيم من المحاربين ، وظلت
كذلك حتى عام ٨٥٠ حين زحف هلفدان الأسود Halfdan the Black
أحد دولاء الزعماء من عاصمته ترندهم Trondheim وأخضع لحكمه
معظم الزعماء الآخرين ، وصار أول ملوك النرويج . وخرج على
ولده هارلد هارفاجر Harald Haarfager (٨٦٠ - ٩٣٣) الزعماء
المتمردون ، ورفضت جيذا Gyda التي خطبها لنفسه الزواج به إلا بعد
أن يفتح جميع بلاد النرويج ، وأقسم ألا يقص شعره أو يمشطه حتى
يتم هذا الفتح ، وأمه بالفعل في عشر سنين ، وتزوج بعدها
بجيذا وبأربع نساء غيرها . ثم قص شعره وسمى باسمه المميز له -
« صاحب الشعر الأشقر » (٤٦) . وحكم هاكون الصالح Haakon the
Good (٩٣٥ - ٩٦١) أحد أبنائه الكثيرين بلاد النرويج حكماً صالحاً دام
سبعاً وعشرين سنة ، قال فيها أحد قراصنة البلاد إن « السلم طالت حتى أصبحت
أخشى أن توافيني منيتي في شيخوختي وأنا على فراشي في عقر داري » (٤٧) .

وحكم هاكون آخر - الإيرل الأكبر The Great Earl النرويج حكماً حازماً دام ثلاثين عاماً (٩٦٥ - ٩٩٥) ؛ ولكنه أغضب الزراع الأحرار في شيخوخته باتخاذهم محظيات له ثم إعادتهن بعد أسبوع أو أسبوعين ، فاستقدم أولئك الزاع الأحرار أولاف ترجفسون Olfat Tryggvesson ونادوا به ملكاً عليهم .

وكان أولاف بن ترجف حفيد أحد أبناء هارالد ذا الشعر الأشقر . وكان « رجلاً شديداً المرح والمجون » - كما يقول سنورى الأيسلندى Snori of Iceland - طروباً ، أنيساً ، محباً للاجتماع بالناس ، جواداً كريماً ، متأنقاً في لباسه . . . بديناً ، قويا ، أجمل الناس خلقاً وأعظم براعة في الرياضة البدنية من كل من سمعنا به من أهل الشمال » (٤٨) . وكان في مقدوره أن يتنقل على المجاذيف خارج سفينته والرجال يجذفون ؛ ويلعب بثلاثة خناجر حادة الأطراف ، ويقذف بمحربتين في وقت واحد ، و « يستطيع أن يحسن القطع بكلتا يديه بدرجة واحدة » (٤٩) . وكان كثير المنازعات والمغامرات ؛ وقد اعتنق المسيحية وهو في الجزائر البريطانية ، وأصبح أعظم دعاة قسوة ؛ فلما جلس على عرش النرويج (٩٩٥) هدم المعابد الوثنية ، وشاد الكنائس المسيحية ، وظل يعيش مع عدد من الزوجات . وقاوم الزراع الأحرار الدين الجديد أشد مقاومة ، وأصرروا على أن يقرب أولاف القربان إلى ثور Thor كما تقضى بذلك الشعائر القديمة ، وأجابههم أولاف إلى ما طلبوا ولكنه عرض أن يقرب إلى ثور خير قربان يرتضيه وهو الزراع الأحرار أنفسهم ؛ فلم يكن منهم لزاء ذلك إلا أن اعتنقوا الدين المسيحي . ولما استملك واحد منهم يدعى راند Rand بدينه الوثني ، أمر أولاف بشد وثاقه ودفع ثعباناً في حلقه بأن كوى ذيل الثعبان بالنار ، فاندفع الثعبان إلى بطن راند وجنبه ، وقضى على حياته (٥٠) . وخطب أولاف لنفسه سجيرد Sigrid ملكة السويد ، فوافقت على الخطبة ، ولكنها أبت أن تتخلى عن دينها الوثني ، فإ

كان من أولاف إلا أن ضربها بقفازه في وجهها وقال لها : « وما الذى يرغمنى على أن أنخذك زوجة وأنت عجوز شطاء ، سليطة كافرة ؟ » . فردت عليه سجنريد بقولها : « سيكون فعلك هذا سبباً فى موتك يوماً من الأيام » . وبعد سنتين من هذه الحادثة شن ملكا السويد والدمرقة ، وإيرل لارك النرويجي Eric Earl of Norway الحرب على أولاف ، وهزمه فى معركة حربية حامية الوطيس بالقرب من روجن Rügen ، وأتى أولاف وهو بكامل عدته وسلاحه إلى اليم ، ولم يظهر له أى أثر بعد (١٠٠٠) ، وقسمت بلاد النرويج على أثر ذلك بين الحليفين المنتصرين .

وأعاد أولاف آخر يدعى القديس بلاد النرويج إلى وحدتها (١٠١٦) ، كما أعاد النظام ، وعدل فى قضائه ، وأتم تحويل البلاد إلى الدين المسيحى . ويصفه اسنورى Sonri بقوله إنه « كان رجلاً صالحاً دمث الأخلاق إلى حد بعيد ، لا يتكلم إلا قليلاً ، سخياً ، واكمته شره فى جمع المال » مدمن بعض الإدمان على الاستمتاع بالسراى^(٥١) . ومن أعماله أنه قطع لسان أحد الزراع الأحرار لأنه فضل الوثنية على المسيحية ، وسمل عينى زارع آخر^(٥٢) . واثمر الزراع به مع كنوت ملك الدمرقة وإنجلترا ، فسراً عليه خمسين سفينة . وطرده أولاف من النرويج (١٠٢٨) ، ولكن أولاف عاد إليها بجيش ، وحارب لاسترجاع عرشه عند استكل ساند Stickleland ، فهزم ومات متأثراً بجراحه (١٠٣٠) . وشاد من جاء بعده من النرويجيين كنيسة فى موضع المعركة تخليداً لذكوره ، واتخذوه القديس الشفيع للنرويج . واسترد ابنه ماجنس الصالح Magnus the Good (١٠٣٥ - ١٠٤٧) مملكته ، ووهبها قوانين غادلة وحكماً صالحاً . وحكم حفيده هارلد الصارم Harald the Stern (١٠٤٧ - ١٠٦٦) حكماً عادلاً خالياً من الرحمة دام حتى استولى وليم النورمندى على إنجلترا .

وحدث فى عام ٨٦٠ أن أعاد جماعة من الشماليين قدموا من النرويج

أو الدغمة كشف جزيرة آيسلندة ، ولم يسوهم كثيراً أن يجدوها شديدة الشبه ببلادهم في ضبابها وفيورداتها . وهاجرت جماعات من النرويجيين إلى الجزيرة . في عام ٨٧٤ فراراً مما كانوا يعانونه من استبداد هارلد هارفاجر ، ولم يحل عام ٩٣٤ حتى بلغ سكانها من الكثرة درجة لم تزد عليها في جميع تاريخها حتى الحرب العالمية الثانية . وكان لكل ولاية من ولاياتها الأربع ثنجهة thing أو جمعيتها ، ثم أنشئ في عام ٩٣٠ ثنجهها العام أو برلمانها الموحد . وكان من أقدم الهيئات في تاريخ الحكم النيابي ، وبفضله كانت آيسلندة في ذلك الوقت هي الجمهورية الوحيدة الكاملة الحرية في العالم كله . ولكن ذلك العنفوان وتلك النزعة الاستقلالية اللذين كانا سبباً في الهجرة إلى الجزيرة ، وقيام هذا المجلس النيابي فيها ، أضعف من سلطان الحكومة العامة والقوانين المشتركة ، فكان من أثر ذلك أن أصبح الأفراد الأقوياء الذين ثبتت أقدامهم في ضياعهم الواسعة أصحاب الأمر والنهي في أراضيهم ، وما لبثوا أن جددوا في آيسلندة المنازعات التي جعلت بلاد النرويج شوكة في جانب ملوكها . وجعل الثنج العام (Allthing) المسيحية الدين الرسمي للبلاد في عام ١٠٠٠ ، ولكن الملك أولاف القديس ساءه أشد الاستياء ما سمعه من أن أهل آيسلندة لا يزالون يأكلون لحم الخيل ويثدنون أطفالهم . ولعل طول ليالي الشتاء وشدة بردها كانا السبب في نشأة أدب قوامه أساطير وأقاصيص لعلها تفوق من حيث الكم والكيف مثيلاتها من القصص والأساطير التي تروى في أرض الشمالين .

وبعد ستة عشر عاماً من إعادة كشف آيسلندة شاهد أحد ربانة السفن النرويجيين ويدعى جنبجورن ألفسون Gunnbjorn Ulfsson سواحل جرينلندة . وأنشأ فيها ثور وولد Thorwald وولده إرك الأحمر مستعمرة نرويجية عام ٩٨٥ . ثم كشف بجرن هرچلفسن Bjerne Herjulfsson لبرادور Labrador في عام ٩٨٦ ، وفي عام ١٠٠٠ نزل ليف Leif بن إرك الأحمر إلى القارة الأمريكية .

ولسنا نعرف أكان الموضوع الذى نزل فيه هو لبرادور ، أم نيوفوندلند . Newfoundland ، أم رأس كد Cod ، وقضى ليف إركسن Lief Ericsson الشتاء فى « فنلند Vinland » (أرض الخمر) ثم عاد بعدئذ إلى جرينلندة ، وفى عام ١٠٠٢ قضى أخوه ثورودل هو وثلاثون رجلاً عاماً كاملاً فى فنلندة . وتروى حاشية لا يتأخر تاريخها عن عام ١٣٩٥ فى « قصة أولاف ترجفسون » التى كتبها اسنرى استرلوسون Snorri Sturluson (١١٧٩ - ١٢٤١) قصة خمس رحلات مختلفة شها أهل الشمال على قارة أمريكا بين عامى ٩٨٥ و ١٠١١ . وقد جاء كرسنر كولمبس Christopher Columbus ، كما يقول هو نفسه ، إلى أيسلندة ، ودرس ما يتردد على لسان أهلها من أقوال عن الدنيا الجديدة (٥٣).

٣ - الحضارة الفيكينجية (حضارة القراصنة الشماليين) (*)

كان النظام الاجتماعى يقوم بين أهل الشمال ، كما يقوم بين سائر الشعوب القديمة ، على التأديب العائلى ، والتعاون الاقتصادى ، والإيمان الدينى . وقد جاء فى فقرة من بيولف أن « لاشيء يقضى على وشائج القرى عند صاحب البصرة » (٥٤) . وكان غير المرغوب فيهم من الأطفال يعرضون للموت ، ولكن الطفل إذا ما قبله أبواه تلقى على يديهم مزيجاً من التأديب والحب ؛ ولم يكن عندهم أسماء أسر ، بل كان كل ولد يكتبى بأن يضيف إلى اسمه اسم أبيه : أولاف هراالدسون ، ماجنس أولافسون ، هاكون ماجنسون . وكان أهل اسكنديناوة

(٥) لفظ فيكينج مشتق من لفظ فيك فى لغة أهل الشمال الأقدمين ومعناه شرم أو فيورد . ويظهر لفظ فيك هذا المعنى نفسه فى نارفيك Narvik ، وشلزويج Schleswig ، وريكجافيك Reykjavik ، وبرويك Barwick ، وويكلو Wicklow وغيرها . ومعنى لفظ فيكنجر Vikingr أحد الذين أغاروا على البلاد الملاصقة للفيوردات ، وسمنى « الحضارة الفيكينجية » فى هذا الفصل ثقافة الشعوب الاسكنديناوية فى « عصر الفيكينج » بين عامى ٧٠٠ و ١١٠٠ من التاريخ الميلادى .

تقبل دخول المسيحية إلى البلاد بزمان طويل ، إذا أرادوا أن يسموا طفلاً صبوا عليه ماء رهزاً لدخوله في حظيرة الأسرة .

وكان التعليم عندهم ذا صبغة عملية : فكانت البنات يتعلمن الفنون في المنزل ، وكان منها عصر الجمعة ؛ أما الأولاد فكانوا يتعلمون السباحة ، والمشي على مزالق الجليد ، وأشغال الخشب والمعادن ، والمصارعة ، والتجديف ، والانزلاق ، ولعبة الكرة والصولجان hockey (والاسم مشتق من الكلمة الدنمرقية hock ومعناها الخطاف) ، والقنص ، والرمي بالأقواس والسهام ، والضرب بالسيوف ، والطعن بالحراب ، وكان القفز من ضروب الرياضة المحببة ، وكان في وسع بعض الترويجيين أن يقفزوا بكامل سلاحهم ودروعهم إلى أعلى من طول قامتهم ، وأن يسبحوا في الماء عدة أميال ؛ ومنهم من كان يسبق أسرع جواد^(٥٥) . وكان كثيرون من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة ، وبعضهم يتعلمون الطب أو القوانين . وكان الذكور والنساء على السواء مولعين بالغناء ، ومن هؤلاء وأولئك من كانوا يعزفون على الآلات الموسيقية وهي عادة القيثارة . ونقرأ في إلدرا أدا Elder Adda أن الملك جنار Gunnar كان يستطيع العزف على القيثارة بأصابع قدميه ، ويستطيع بها أن يسحر الأفاعي .

وظل أغنياؤهم متعددي الزوجات حتى القرن الثالث عشر ، وكان الآباء هم الذين يرتبون شئون الزواج ، وكثيراً ما كان ذلك عن طريق الثراء ؛ غير أن أحرار النساء كن يستطعن إلغاء هذا الترتيب^(٥٦) ، فإذا تزوجت الفتاة بغير إرادة والديها عد زوجها خارجاً على القانون ، وأباح القانون لأهلها أن يقتلوه . وكان في وسع الرجل أن يطلق زوجته متى شاء ، فإذا لم يستطع أن يبرر الطلاق بأسباب قوية كان في مقدور أهلها أيضاً أن يقتلوه . وكان من حق الزوج والزوجة أن يطلقا أحدهما الآخر إذا ما لبس الرجل ثياب النساء أو لبست المرأة ثياب الرجل — كأن تلبس المرأة سراويل قصيرة ، أو يلبس الرجل قميصاً مفتوحاً عند صدره . وكان

من حق الرجل أن يقتل دون أن يلقي عقاباً — أى دون أن يشتر خصاماً
دموياً — أى رجل يضبطه فى علاقة غير شريفة بزوجه^(٥٧) . وكان النساء
يكدهن ولكنهن بقى لديهن من الأثاقة ما يكفى لأن يقتل الرجال بعضهم
بعضاً من أجلهن ، وكان الرجال ذوو السلطان فى الحياة العامة أذلاء كما هى
العادة فى بيوتهن : ويمكن القول بوجه عام إن مكانة المرأة فى اسكنديناوة
الرونية كانت أعلى منها فى اسكنديناوة المسيحية^(٥٨) . فلم تكن فيها أم الخطيئة
بل كانت أم الرجال الأقوياء البواسل ، وكان لها حق الثلث — وحق النصف
بعد عشرين عاماً من زواجها — فى كل ما يكسبه زوجها من مال ؛ وكان
يستشيرها فى أعماله المالية ، وكانت تختلط فى بيتها مع الرجال بكامل حريتها .

وكان العمل مما يشرف صاحبه ، وكان لجميع الطبقات منه نصيب ؛
وكان صيد السمك من الصناعات الكبرى ، وصيد الحيوان من ضرورات
الحياة لا من أسباب متعتها . ألا فليتصور القارىء ما استلزمه من كدح وقوة
إرادة تقطيع غابات السويد وتذليل تربة منحدرات تلال النرويج المتجمدة
وفلحها ؛ وليست حقول القمح فى منسوتا Minnesota إلا وليدة التربة
الأمريكية ذلها صبر النرويجيين . وكانت الضياع الكبيرة قليلة العدد ،
حتى لقد فاقت اسكنديناوة غيرها من البلاد فى كثرة عدد ملاكها
من الزراع الأحرار . وكان هناك نوع من التأمين غير المكتوب يقلل من
وقوع الكوارث على أولئك الزراع : فإذا حرق بيت زارع عاونه جيرانه
على بنائه من جديد ، وإذا نفقت مواشيه بسبب المرض من « فعل الله »
منحوه ما يعادل نصف ما خسره . وكان كل شمالى تقريباً ذا حرفة ،
وكان بارعاً بنوع خاص فى النجارة ، غير أن الرجل الشمالى كان متأخراً فى
استخدام الحديد الذى لم يدخل بلادهم إلا فى القرن الثامن ، فلما دخلها صنعوا
منه أنواعاً مختلفة من العدد ، والأسلحة ، والزخارف ، صنعوها قوية جميلة من
البرنز ، والفضة ، والذهب^(٥٩) ؛ وكثيراً ما كانت المدرع والسيوف المزخرفة

الجميلة النقش ، والأقراط ، والدبابيس ، والسروج جميلة يتباهون بها . وكان بناءو السفن الشماليون يبنون الزوارق والسفن الحربية ؛ ولم تكن هذه أكبر من سفن الأقدمين ، ولكن يبدو أنها كانت أصلب منها ، فكانت مستوية النواع لزيدها ثباتاً ، محمّدة في جوفها لتدمر من العدو ؛ وكان غاطسها يتراوح بين أربع أقدام وست ، وطولها بين ستين قدماً ومائة وثمانين ، يدفعها الشراع حيناً والمجاذيف في معظم الأحيان - ويبلغ عددها في الجانب الواحد من جانبيها عشرة مجاذيف أو ستة عشر ، أو ستين مجذافاً . وهذه السفن الساذجة هي التي حملت الرواد ، والتجار ، والقراصنة ، والمحاربين من أهل الشمال في أنهار روسيا منحدرية فيها إلى بحر الخرز والبحر الأسود ، وعبرت بهم المحيط الأطلنطي إلى أيسلندة ولبرادور .

وكان الفيكنج يقسمون أنفسهم طبقات : الحارل Jarl والإيرل ، وطبقة البندى bondi أو الملاك الفلاحين ، وطبقة العبيد ؛ وكانوا يلقنون أبناءهم في صراحة (كما يفعل الخراس في جمهورية أفلاطون) أن انهاء كل إنسان إلى طبقته أمر قرّره الآلهة لا يجوز على تبديله إلا غير المؤمنين^(٦٠) . وكان الملوك يختارون ممن يجرى في عروقهم الدم الملكي ، وولاة الأقاليم من طبقة الحارل . وهذا القبول الصريح للملكية والأرستقراطية ، وهما من المستلزمات الطبيعية للحرب والزراعة ، كان يسير معه جنباً إلى جنب نظام ديمقراطي عجيب يجعل من ملاك الأراضي مشترعين وقضاة في جميعات محلية يعقدها أصحاب البيوت ، وجمعيات قروية تعقد في الولايات ، وجمعية قومية عامة أو برلمان . لقد كانت هذه الحكومة حكومة قوانين لا حكومة رجال فحسب ، العنف فيها من الأمور الشاذة الزائدة ، والأحكام القضائية هي القاعدة العامة . نعم إن قصص تلك البلاد مليئة بحوادث الانتقام وما ينشأ عنه من خصام وإراقة للدماء ، ولكن الافتداء حتى في عصر الفيكنج ، عصر الدم والحديد ، قد أخذ يحل محل الانتقام الفردي ، ولم يكن منهم من قانونه الوحيد هو النصر أو الهزيمة إلا قراصنة البحار . وكان

العقاب الصارم يستخدم لحمل أولئك الرجال ، الذين غلظت طباعهم لطول كفاحهم مع الظروف الطبيعية ، على الخضوع للسلم والنظام . فكان الزانى يعاقب بالإعدام شقاً أو تطؤه الخيل حتى يموت ، وكان جزاء الحريق العمد هو إحراق مرتكبه وهو مصلوب ، ومن يقتل أحد أبويه يعلق من قدميه إلى جانب ذئب حى معلق بنفس الطريقة ، والثائر على الحكومة يشد إلى جوادين يسيران فى اتجاهين متضادين حتى يمزق جسمه ، أو يربط خلف ثور برى يجره حتى يقضى نحبه (٦١) . ولعل فى هذا العقاب الوحشى دليلاً على أن القانون لم يحل بعد تحمل الانتقام الشخصى ، وكل ما فى الأمر أنه جعله من حق المجتمع نفسه . وحتى القرصنة نفسها قد تخلت عن مكانها للقانون ، فاستقر اللصوص وأصبحوا تجاراً واستبدلوا الدهاء بالقوة ، وجدير بالذكر أن كثيراً من مواد قانون أوربا البحرى مأخوذة من قانون أهل الشمال منقولة عن حلف المدن الهانسية Hanseatic League (٦٢) . وقد كتبت قوانين الترويج فى عهد مجنس الصالح (١٠٣٥ - ١٠٤٧) على رق سمي بسبب لونه « الإوزة الشبها » ؛ ولا يزال هذا الرق باقياً إلى الآن ، ويحتوى على أوامر مستنيرة للإشراف على الموازين والمقاييس ، ومراقبة رجال الشرطة للأسواق والثغور ، ومعونة الدولة للمرضى والمعوزين (٦٣) .

وقد عاون الدين القانون والأسرة على جعل أولئك الحيوانات مواطنين صالحين . ولم تكن الآلهة التيوتونية مجرد أساطير لأهل الشمال ، بل كانت أرباباً حقيقيين تهاب وتحب ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بالآدميين بآلاف المعجزات وحوادث الغرام . ذلك أن النفوس البدائية فى دهشتها ورعبها قد تحولت جميع قوى الطبيعة ومجسماتها الكبرى إلى أرباب شخصية ، يتطلب أقوامهم أن يسترضى على الدوام استرضاء لا يقل أحياناً عن التضحية بالآدميين أنفسهم . وكان مجمع الآلهة مزدحماً بهم : كان فيه اثنا عشر إلهاً ذكراً ، واثنتا عشرة إلهة أنثى ، وكثير من مختلف المردة (الجوتون Jotun) وأرباب الأقدار (نورن Norn) ، (٢١ - ٣ - مجلد ٤)

ورسل الآلهة والساقون (الفلكيرى Valkyries) ، وبينهم عدد من العرافات ، وصغار العفاريت ، والساحرات . فأما الآلهة فلم يكونوا أكثر من آدميين مكبرين ، يولدون مثلهم ، ويجوعون ، وينامون ، ويمرضون ، وينفعلون ، ويحزنون ويموتون ؛ ولا يفوقون الآدميين إلا في أحجامهم ، وطول أعمارهم ، وعظيم قواهم . ومن هؤلاء أودين Odin (وودن Woden الإلماني) أبو الآلهة كلهم ، الذي كان يسكن بجوار بحر آزوف (آزاق Azov) في أيام قيصر ؛ وهناك أنشأ أسجارد Asgard أو حديقة الأرباب لأسرته ومستشاريه واشتدت لديه الرغبة في تملك الأرضين ففتح بلاد أوربا الشمالية . على أنه لم يسلم من التحدى ولم يكن قادراً على كل شيء ؛ فقد عنفه لوكي Loki أشد التعنيف^(٦٤) ، وتجاهله ثور Thor ولم يعبأ به . فأخذ يلزع الأرض في طلب الحكمة ، واشترى بأحد عينيه جرعة من ينبوع الحكمة . ثم اخترع الحروف الهجائية ، وعلم خلقه الكتابة ، والشعر ، والفنون ، ووضع لهم القوانين . وقبل أن تنتهي حياته على ظهر الأرض عقد جمعية من السويديين والقوط ، وجرح نفسه في تسعة أماكن من جسمه ، فمات ورجع إلى أسجارد ليعيش فيها إلماً .

وكان ثور في أيسلندة أعظم من أودين ، فقد كان فيها إله الرعد ، والحرب ، والعمل ، والقانون ، وكانت السحب السوداء حاجبيه السوداءين ، وكان الرعد صوته ، والبرق مطرقة يلقى بها من السماء . وكان للشعراء الشماليين معه كثير من المزامح ، كما يمزح اليونان مع هيفستوس Hephaestus وهرقل ، ولعلهم قد أخذوا منذ ذلك الوقت . البعيد بتشككون في آلهتهم تشكك هومر في آلهته ، وكانوا يتمثلونه في جميع أنواع المآزق والأعمال الشاقة المضنية ؛ ومع هذا فقد بلغ من حبه الأيسلنديين له أن واحداً من كل خمسة منهم تقريباً كان يغتصب اسمه . ثورلف Thorolf ؛ ثورولد Thorwald ، ثورشتين Thorstein . . .

وكان بلدور Baldur بن أودين عظيماً في القنص وأقل مقاماً من أودين وثور

فما يلقاه من العبادة : كان « ذا بهاء في صورته وغلامه . . . » وكان أرق الآلهة ، وأكثرهم حكمة ، وأفصحهم لساناً (٦٥) ، وكادت هذه الصفات تغري المبشرين الأولين بأن يقولوا إنه هو المسيح عينه ؛ ويقال إنه رأى حلماً مزعجاً ينبئه باقتراب منيته ، ولما قص هذا الحلم على الآلهة طلبت الإلهة فرجا Frigg إلى جميع أنواع الجماد ، والحيوان ، والنبات ، أن تقسم أغلظ الأيمان ألا يمسه أحدها بسوء ؛ فكان جسده الفخم المحيد بعد هذا القسم يطرد جميع الأجسام المؤذية ، وكان الآلهة يسلمون أنفسهم بأن يقدفوه بالحجارة والسهم ، والفؤوس والسيوف ؛ فكانت هذه الأسلحة كلها ترتد عنه ، ولا تترك في جسده أثراً . غير أن فرجا قد فاتها أن تأخذ عهداً على « شجيرة صغيرة تدعى المقاس » (*) ألا تمسه بسوء لأنها ظنتها أضعف من أن تؤذي إنساناً ما . فما كان من لُكي الوقيح المحب للوقية بين الآلهة إلا أن قطع منها عسلوجاً ، وأقنع إلهاً كفيفاً أن يلقيه على بلدور ، ونفذ العسلوج في جسده ففضى عليه ، ثم ماتت زوجته Nep من فرط حزنها عليه ، وحرقت جثتها مع بلدور وجواده المطهم على كومة واحدة (٦٦) .

وكان الفلكبرى - الذين يختارون القتل - هم الذين يحق لهم أن يحدوا أجل كل نفس . وكان الذين يموتون ميتة دنيئة يلقون في ممالك هل Hel ، إلهة الموتى ؛ أما الذين يموتون في ميدان القتال فيأخذهم الفلكبرى إلى فلها Valhalla - « هو الصفوة » ، حيث يصبحون أبناء أدوين فيعودون مرة أخرى ذوى قوة وجمال ، يقضون نهارهم في حروب البسالة وليلهم في شرب الجمعة . ثم أتى حين من الدهر (كما تقول الأساطير الشمالية المتأخرة) أعلنت فيه الحوتون شياطين الاضطراب والدمار الزهية - الحرب على الآلهة ، وقابلتها قتالاً هلكت فيه هذه وتلك عن آخرها . وفي هذا العصر ، عصر غسق الآلهة ، تهتم الكون كله : ولم يقتصر هذا الدمار على الشمس ، والكواكب ، والنجوم ،

(*) وتسمى أيضاً الدبق والدابوق Mistletoe . (المترجم)

بل شمل في النهاية القلهلا نفسها وجميع من فيها من المحاربين والأرباب ، ولم يبق إلا الأمل وحده - الأمل في أن مر الوقت البطيء سوف تنشأ منه أرض جديدة ، وسماء جديدة ، وعدالة خير من العدالة السابقة ، وآلهة أعظم من أودين وثور. ولعل هذه القصة العظيمة ترمز إلى انتصار المسيحية ، وإلى الضربات الشديدة التي كالمها المليكاف أولاف Olafs من أجل المسيح ، أو لعل شعراء الفيكنج قد أخذوا يشكون في آلهتهم ويوارونهم التراب .

تلك أساطير عجيبة لا تفوقها في جمالها وفتنتها إلا أساطير اليونان . وكانت أقدم صورة وصلت إلينا منها هي صورتها في تلك القصائد العجيبة التي سميت خطأ باسم الإيدا Edda (*). وخلاصة قصتها أن راهباً كشف في عام ١٦٤٣ في مكتبة كينهاجن الملكية مخطوطاً يحتوي عدداً من القصائد الأيسلندية القديمة ، ووقع هذا الراهب في خطأ مزدوج فسماها إيدا سيمند الحكيم The Edda of Saemund the Wise (حوالي عام ١٠٥٦ - ١١٣٣). وهو عالم أيسلندي من رجال الدين . والباحثون الآن يجمعون على أن هذه القصائد قد كتبها في النرويج وأيسلندة ، وجرينلندة كتاب غير معروفين في أوقات غير معروفة بين القرنين الثامن والثاني عشر ، وأن سيمند ربما يكون قد جمعها ولكنه لم يؤلفها ، وأن الإيدا لم يكن اسمها . ولكن الزمن يقر الأخطاء كما يقر السرقات ، وبوفق بين هذه الأخطاء بأن يسمى القصائد الإداء الشعرية أو الإيدا الكبرى . وهي في معظمها أغان قصصية عن الأبطال أو الآلهة الاسكنديناويين أو الألمان ، وفيها نلتقي لأول مرة بسيجورد الفالسنجي Sigurd the Volsung وغيره من الأبطال

(*) وقد وردت هذه الكلمة أول ماوردت في جلاذة ترجع إلى القرن العاشر وتنفى في هذه الجلاذة جدة الأم . وكان من عجائب الأيام أن أصبح معناها علم العروض النرويجي وإن استعملها بهذا المعنى استرلى استرلسون حين كتب بهذا العنوان (١٢٢٢) رسالة عن الأساطير النرويجية ومن فن الشعر ، وهذه الرسالة هي المعروفة لدينا باسم الإيدا النثرية أو الصغرى .

الذكور والإناث والأوغاد الذين قدر لهم أن يتخذوا صورة أوضح من صورتهم هنا في القولاسنجاسا Volungasaga والنيلينجننايد Nibelungenlied. وأعظم قصائد الإدا قوة هي قصيدة الفولسبا Voluspa التي تصف فيها البنية فولثا في صورة فخمة قائمة خلق العالم ، وآخرته المنتظرة ثم بعثه في آخر الأمر . وتختلف عن هذه القصيدة في الأسلوب « أغنية الواحد الأعلى » التي يصوغ فيها أودين ، بعد أن يمر بمختلف الظروف ويلتقي بجميع أنواع الناس ، ما تمليه عليه حكمته من أمثال ليست كلها من الأمثال الخليفة بالآلهة :

لقد طرقت أماكن كثيرة مبكراً فوق ما يجب أو بعد فوات الأوان ، قبل أن تعدّ الجعة أو بعد أن استنفدها الشاربون (٦٧) . . . خير أنواع السكر هو الذي يستعيد كل إنسان بعده قواه العقلية (٦٨) . يجب ألا يثق الإنسان بأقوال فتاة ولا بأقوال امرأة ، لأن الخطيئة قد غرست في صدورهن (٦٩) ، . . . هذا ما حدث لي حين حاولت إغواء تلك الغادة الفطنة ؛ . . . ولم أكسب من هذه الغادة شيئاً (٧٠) . . . النهار يمدح في المساء ، والسيف بعد أن يجرب ، والمرأة بعد أن تحرق جثتها (٧١) . . . كثيراً ما يعاقب الإنسان على الألفاظ التي يتحدث بها إلى غيره (٧٢) . . . واللسان هو سم الرأس (٧٣) . تجنب النزاع مع من هو شر منك واو اقتصر نزاعك معه على ثلاثة ألفاظ ، وكثيراً ما يستسلم خير الرجلين إذا ما ضر به شرهما (٧٤) . . . يجب أن يكون الإنسان حكيماً في اعتدال وألا يسرف الحكمة . . . لا تدع إنساناً يعرف مصيره قبل حلوله ، لأن عقله يأمن بذلك من المشاغل . . . إن ذا العقل قلماً يتهيج قابه (٧٥) (*) . . . خير البيوت بيتك ولو كان صغيراً (٧٦) . . . وخير المناظر منظر مصطلي الإنسان ومنظر الشمس (٧٨) . وأكبر الظن أن قصائد الإدا الكبرى قد ظلت يتناقلها الناس شفويًا حتى

(*) شبه هذا المعنى قول الشاعر العربي :

« ذو العقل يشق في النعم بعقله وأخو الجهالة بالشقاوة ينعم » (الترجيم)

القرن الثاني عشر ، ثم دونت في ذلك القرن . وكانت الحروف الهجائية في عصر الفيكينج هي حروف أوربا الشمالية كما كانت هي حروف ألمانيا وإنجلترا الأنجليسكسونية . وكانت هذه الرموز (ومعناها الحرفي « الأسرار الخفية ») الأربع والعشرون تكون أبجدية أساسها بوجه عام هو الحروف اليونانية واللاتينية المطبعية الماثلة . وكان في وسع الأدب في ذلك العصر أن يستغنى عن الحروف ، ذلك أن الشعراء والمغنين كانوا يؤلفون قصائدهم ، ويحفظونها عن ظهر قلب ، ويتلوونها ، ويتناقلها عنهم الناس شفويا ، وكانوا في هذه القصائد يتغنون بالآلهة التيوتونية و « عصر الأبطال » (من القرن الرابع إلى القرن السادس) الذي بسطت فيه الشعوب الألمانية سلطانها على أوربا . وقد احتفظ استرلسون وغيره من الكتاب بقطع صغيرة من هذه الأغاني ، وبكثير من أسماء الشعراء . وأشهر هؤلاء كلهم هو سيجفات ثوردارسون Sigvat Thordarsson الذي كان شاعراً ومستشاراً صريحاً في بلاط سانت أولاف . وكان شاعر آخر يدعى إچيل اسكللاجرمسون Egil Skallagrímsson (٩٠٠ — ٩٨٣) ، أشهر رجال زمانه في أيسلندا — كان محارباً شجاعاً ، وشريفاً فردي النزعة ، وشاعراً جياش العاطفة . وقد فقد في كبر سنه أصغر أولاده إذ مات غريقاً ، وكاد يقضى عليه الحزن لولا أن أفنعت ابنته . بأن يستعوض عن ذلك بكتابة قصيدة . فعمل بإشارتها وكتب قصيدته المعروفة باسم « ثكل الابن » Sonartorrek التي يندد فيها بالآلهة ويتحداهم ويتهمهم بموت ولده . وهو يأسف لأنه لا يستطيع أن يعثر على أودين ليقاتله كما قاتل غيره من الأعداء . ثم يهدأ مزاجه حين يفكر أن الآلهة لم تسلط عليه الأحزان وكفى بل وهبته فوق ذلك ملكة الشعر ، ثم يرضى بحظه فيعزم أن يعيش ويعود إلى منزلته العالية في مجالس بلاده (٧٩)

وما من شك في أن آداب ذلك العصر تغالى في وصف ما كان يسود مجتمع الفيكينج من عنف ، شأنها في ذلك شأن الصحافة والتاريخ اللذين يندعان القارئ

بالتحدث عما هو شاذ غير عادى ويحملان سير الحياة البشرية السوى . لكننا لا ننكر أن الظروف القاسية التي كانت تعيش فيها اسكندبناوة في الزمن القديم اضطرت الأهلين إلى أن يخوضوا معركة حامية في سبيل العيش لا يبقى فيها إلا أصلهم عوداً ، ومن أجل هذا نشأ عندهم من عادات النزاع القديم والأخذ بالثأر والقرصنة غير المقيدة في البحار المفتوحة ، نشأ من هذه العادات قانون أخلاق على غرار قانون نيتشه يدين بالشجاعة التي لا ترعى مبدأ ولا ضميراً . قال فيكنج لصاحبه : « قل لى أى دين تؤمن به ؟ » فأجابه بقوله « لى أو من بقوى » . وأراد جولد هارلد Gold Harald أن يكون له عرش الزويج ، ورأى أن يناله بالقوة ، لكن صديقه هاكون نصحه بقوله : « فكتر فى أمرك واعرف هل تستطيع أن تبذل من قوة الرجولة ما يحقق مطمعك ، لأن نيل هذه الغاية يتطلب من صاحبها أن يكون جريئاً ، ثابتاً ، لا يحجم عن فعل الخير أو الشر إذا كان فيه ما يوصله إلى مطلبه » (٨١) . ومن هؤلاء الناس من كانوا يجلبون في القتال لذة تكاد تنسيهم آلام جراحهم ، ومنهم من كان يعترهم وجد ونشوة في القتال تعرف عندهم باسم برسر كس جانجر berserksgangr أى « طريقة برسر ك » . وكان السركيون - أو أصحاب قصص الدببة - مقاتلين يندفعون إلى قلب المعركة دون أن يكون على أجسامهم قصصان من الزرد ، ثم يحاربون ويصرخون كالحيوانات المفترسة ، ويعضون بأسنانهم على دروعهم وهم غضاب ثائرون ، فإذا انقضت المعركة فقدوا وعيهم وخارت قواهم (٨٢) . وكانت الفلها محرمة على غير الشجعان ، ومن يمت في القتال من أجل جماعته تغفر له جميع خطايا .

وهكذا تعود « رجال القيوردات » شظف العيش والألعاب العنيفة ، ثم ساروا في سفائنهم ذات المجاذيف يفتحون لهم ممالك في روسيا ، وبمرانيا Pomerania ، وفريزيا ، ونورمندي ، وإنجلترا ، وأيرلندة ، وأيسلندة ،

وجرينلندة ، وإيطاليا ، وصقلية . ولم تكن هذه المغامرات غارات تقوم بها جموع من الجند كجهاد المسلمين أو طوفان الحجر ، بل كانت بمثابة اندفاع حفنة متهورة من الرجال يرون كل ضعف جرمياً ، وكل قوة عملاً صالحاً ، يشتهون الأرض ، والنساء ، والثراء ، والسلطان ، ويشعرون أن من حقوقهم المقدسة أن يكون لهم نصيب من ثمار الأرض . ولقد بدأوا حياتهم قراصنة واختتموها ساسة وحكاماً . فنهزم رولو Rollo الذي وهب نورماندياً نظاماً مبدعاً خلاقاً ، ومنهم وليم الفاتح الذي وهب لإنجلترا هذا النظام نفسه ، وروجر الثاني منشئه في صقلية . ولقد مزجوا دمهم الشمالي بالحديد بدماء الشعوب التي أضعفتها الحياة الريفية الرثية فبعثوا فيها قوة ونشاطاً ، ألا إن التاريخ قلما يفنى من لا يستحق الفناء ، وإن احتراق نفايات الزرع ليخصب تربة الأرض ويجعلها أصلح مما كانت للزرع الجديد .

الفصل السادس

ألمانيا : ٥٦٦ - ١١٠٦

١ - تنظيم السلطة

لقد كانت غارات الشماليين المرحلة الأخيرة في غارات البرابرة التي تدفقت من ألمانيا قبل الوقت الذي نتحدث عنه بخمسة قرون ، وقطعت أوصال الدولة الرومانية ، وقسمتها إلى أمم أوروبا الغربية ، وخلق بنا أن نسأل الآن عن مصير الألمان الذين بقوا في ألمانيا نفسها .

لقد أدى خروج تلك القبائل العظيمة - القوط ، والوندال ، والبرغنديين ، والفرنجة ، واللبارد - إلى نقص سكان ألمانيا إلى حين ، فتحرك الوند Wend الصقالبة غرباً من ولايات البحر البلطي ليملاؤا ذلك الفراغ ، وأصبح نهر الإلب قبل أن يحل القرن السادس الحد الجنسي ، كما هو الآن الحد السياسي ، بين العالم الصقلبي والعالم الغربي . فقد كان في غرب الإلب والسال Saale من بقي من القبائل الألمانية : السكسون في شمال ألمانيا الوسطى ، والفرنجة الشرقيون في حوض الرين الأدنى ، والثورنيجيون بين هولاء وأولئك ، والباقاريون Bavarians (الذين كانوا يسمون الماركونيين من قبل) في حوض الدانوب الأوسط ، والسوابيون Swabians (الذين كانوا يسمون السوفييين) على ضفاف نهر الرين والدانوب الأعلى وفيما بينهما ، وعلى طول جبال جورا Jura الشرقية والألب الشمالية . ولم تكن في أوروبا بلاد تسمى ألمانيا ، بل كل ما كان فيها قبائل ألمانية ، وقد وهبها شارلمان وقتاً ما وحدة مشيؤها الفتح ، ومستلزمات النظام المشترك ، ولكن انهيار الإمبراطورية الكارولنجية فكك هذه الروابط ، وظل الوعي القبلي والنزعة المحلية

يمنعان كل عامل يؤدي إلى المركزية حتى أيام بسمارك ، ويضعفان قوة ذلك الشعب الذي يعاني الأمرين من جراء انحصاره بين أعدائه من جهة وبين جبال الألب والبحر من جهة أخرى :

وأقامت معاهدة فردون (٨٤٣) في واقع الأمر لويس أولدفنج Ludwgi حفيد شارلمان أول ملك على ألمانيا ، وأضافت معاهدة مرسن Mersn (٨٧٠) إلى أملاكه بلاداً جديدة ، وحددت ألمانيا بأنها الأرض المحصورة بين نهري الرين والإلب ، تضاف إليها أجزاء من اللورين Lorraine ، وأسقفيات مينز ، وورمز ، واسبير Speyer . وكان لويس حاكماً وسياسياً من الطراز الأول ، غير أنه كان له ثلاثة أولاد ، قسمت مملكته بينهم جميعاً بعد وفاته ، وضربت الفوضى أطرافها في أنحاء البلاد عشر سنين أغار فيها الشماليون على مدائن الرين ، واختير بعدها آرنلف Arnulf ، وهو ابن غير شرعي لكارلومان Carloman ابن لويس ، ملكاً على « فرنسا الشرقية Fast Francia » (٨٨٧) ورد الغزاة على أعقابهم . ولكن لويس « الطفل » (٨٩٩ - ٩١١) الذي خلفه على العرش كان أصغر وأضعف من أن يصد المجر الذين اجتاحتوا بافاريا (٩٠٠) وكارنثيا (٩٠١) ، وسكسونيا (٩٠٦) ، وثورنجا (٩٠٨) ، وألمانيا Alemannia (٩٠٩) ؛ وعجزت الحكومة المركزية عن حماية هذه الولايات ، فكان على كل واحدة منها أن تدافع عن نفسها . وجهز أدواق الولايات ما يحتاجونه من الجيوش بأن أقطعوا أتباعهم الأرض نظير قيامهم بالخدمة العسكرية ، ونال الأدواق بفضل الجيوش المؤلفة على هذا النحو استقلالهم الفعلي عن التاج ، وأنشؤا ألمانيا الإقطاعية . ولما مات لويس رفع الأعيان وكبار رجال الدين كراد الأول دوق فرنكونيا (٩١١ - ٩١٨) على عرش البلاد ، وكانوا قد نجحوا في أن يكون لهم حق اختيار الملك . وأهلك كراد قواه في النزاع مع

هنرى دوق سكسونيا ، ولكنه بلغ من الحصافة أن أوصى باختيار هنرى ليخلفه على العرش . وصد هنرى الأول ، المسمى « بالصائد » لشغفه بصيد الطير ، قبائل الزند الصقلية إلى نهر الأودر Oder وحصن ألمانيا لتقوى على صد الحير ، وهزمهم فى عام ٩٣٣ ومهد بجهوده السبيل إلى أعمال ابنه الحجيذة .

وكان أتو الأول الأكبر (٩٣٦ — ٩٧٣) شارلمان ألمانيا . ولم تكن سنة حين جلس على العرش قد تجاوزت الرابعة والعشرين ، ولكنه كان فى هذه السن الصغيرة مليكا بحق فى مظهره ونخزه ، وأحس بما للمراسم والرموز من عظيم الشأن فأقنع أدواق لورين ، وفرنكونيا ، وسوابيا ، وبافاريا ، بأن يؤلفوا حاشيته فى حفل تتويجه الفخم فى آخن على يد هيلدبرت Hildebert كبير الأساقفة ، ولكن الأدواق ثاروا فيما بعد على سلطته المطردة النماء ، وأغروا هنرى أخاه الأصغر بأن يشترك معهم فى مؤامرة تعمل لخلعه . وكشف أتو هذه المؤامرة ، وقضى عليها ، وعفا عن هنرى ، ثم ائتمر هنرى به مرة أخرى ، وعفا عنه للمرة الثانية ، وأقطع الملك الداهية دوقيات جديدة لأصدقائه وأقاربه ، وأخضع الأدواق لسلطانه شيئاً فشيئاً . ولم يرث من جاء بعده من الملوك ما كان له من دهاء وعزيمة ماضية فاحترقت ألمانيا فى العصور الوسطى بنار النزاع بين الإقطاع ، والملكية . وانحار الأساقفة الألمان إلى جانب الملك فى هذا النزاع ، فأصبحوا بذلك مساعديه ومستشاريه فى الشؤون الإدارية ، بل كان منهم فى بعض الأحيان قواد جنده . وكان الملك يعين الأساقفة ورؤساء الأساقفة كما كان يعين غيرهم من موظفى الحكومة ، فأصبحت الكنيسة الألمانية بهذه الوسيلة نظاماً قومياً بحثاً لارتبط بالبابوية إلا بأوهن الروابط . واتخذ أتو الدين المسيحى قوة لتوحيد البلاد فصر به القبائل الألمانية وخلق منها دولة قوية .

وهاجم أتو الوند استجابة لرغبة أساقفته ، وحاول أن يرغمهم بالسيف على اعتناق المسيحية . وأرغم ملك الدنمركة ودوق بولنדה وبوهيميا على أن يعترفوا به سيدهم الإقطاعي . وكان يطمح في أن يتولى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ولهذا رحب بالدعوة التي وجهتها إليه أدليد الحسناء أرملة لوثير ملك إيطاليا لينقذها مما لحق بها من الإهانة على يدى برنجار الثانى المليك الجديد . وخطأتو بمهارته بين السياسة والغرام ؛ فغزا إيطاليا ، وتزوج بأدليد ، وسمح لبرنجار أن يحتفظ بمملكته على أن تكون إقطاعاً له من التاج الألمانى (٩٥١) . وأبى الأشراف الإيطاليون أن يعترفوا بألمانى إمبراطوراً لأن هذا يستلزم أن يكون هذا الإمبراطور سيّداً لإيطاليا ، وبدأ وقتئذ بين الطرفين نزاع دام ثلاثة قرون . وخرج على كنراد وهو غائب عن ألمانيا ابنه لودلف وزوج ابنته كنراد ، فعاد أتو إلى ألمانيا لكيلا ينشأ عن محاولته أن يكون إمبراطوراً ألا يظل ملكاً . ولما أن غزا ألمانيا مرة أخرى (٩٥٤) رحب بهم لودلف وكنراد وأمدهم بمن يرشدهم في غزوهم ، وقطع أتو دابر الفتنة ، وعفا عن لودلف ، وأعاد تنظيم جيشه ، وأوقع بالهجر عند لخفلد Lechfeld القريبة من أجزبرج Augsburg هزيمة منكرة (٩٥٥) ، أفاءت على ألمانيا فترة طويلة من الأمن والسلام . وصرف أتو بعدئذ جهوده إلى شئون البلاد الداخلية — فأعاد النظام إلى نصابه ، وقضى على الجرائم ، وأعاد ألمانيا المتحدة إلى الوجود ، وجعلها أعظم الدول رخاء في تلك الأيام .

وسنحت له الفرصة مرة أخرى لإنشاء الإمبراطورية حين استعانه البابا يوحنا الثانى عشر على برنجار (٩٥٩) . فغزا أتو إيطاليا على رأس قوة كبيرة ، ودخل رومة من غير قتال ، ووجه يوحنا الثانى عشر إمبراطوراً رومانياً على الغرب في عام ٩٦٢ . ثم ندم البابا على فعلته ، وأخذ يشكو من أن أتو لم يوف بما وعده به من

إعادة إكسر خسية(*) برافا إلى البابوية . واتخذ أتو الخطوة المتطرفة الجريئة فزحف على رومة ، وعقد مجلساً دينياً من الأساقفة ، وأقنعه بوجوب خلع يوحنا وتنصيب رجل من غير رجال الدين بابا مكانه باسم ليو الثامن (٩٦٣) . واقتصرت أملاك البابا وقتئذ على دوقية رومة وإقليم سابينيا ، واندجحت بقية إيطاليا الوسطى والشمالية في إمبراطورية رمانية مقدسة أضحت إقطاعية من إقطاعيات التاج الألماني . وكان ملوك ألمانيا يتخذون من هذه الحوادث حجة يبنون عليها لإدعاءهم أن إيطاليا جزء من ميراثهم ، أما البابوات فكانوا يتذرعون بها للقول بأن أحداً لا يستطيع أن يكون إمبراطوراً رومانياً في الغرب إلا إذا توجه البابا .

ولما أحس أتو بقرب منيته أراد أن يبقى ما عسى أن يعقب موته من القوضى ، فحمل البابا يوحنا الثالث عشر على أن يتوج ابنه أتو الثاني إمبراطوراً معه (٩٦٧) ، وزوج ابنه هذا بثيوفانو ابنة رومانوس Romanus الثاني إمبراطور بيزنطية (٩٧٢) ، وتحقق بذلك إلى وقت قصير ما كان يحلم به شارلمان من توحيد الإمبراطوريتين بطريق الزواج ؛ ثم توفي أتو ولما يتجاوز الستين من عمره ، ولكنه قام في هذه السنين القلائل بما لم يقم به ذوو الأعمار الطوال (٩٧٣) ، وحزنت عليه ألمانيا كلها وعدته أعظم ملوكها . وصرف أتو الثاني (٩٧٣-٩٨٣) جهوده في ضم إيطاليا الجنوبية إلى دولته ومات في هذه المحاولة منهوك القوى قبل الأوان . وكان أتو الثالث (٩٨٣-١٠٠٢) وقتئذ طفلاً في الثالثة من عمره ، فحكمت البلاد أمه وجدته أدليد نائبتين عنه مدة ثمان سنين ، وأدخلت ثيوفانو في أثناء نفوذها الذي دام ثمانية عشر عاماً بعض مظاهر الرقة البيزنطية إلى البلاط الألماني ، وبثت روح النهضة التي بدأها أتو في الآداب والفنون .

(*) الإكسر خسية Exarchate مقاطعة يحكمها إكسر خس Exarch . والإكسر خس اسم كان يطلق قديماً على نائب الإمبراطور في إيطاليا ؛ ومنصبه شبيه بمنصب الأسقف ، ومعناه لغة القائد . (المترجم)

ولما بلغ أتو السادسة عشرة من عمره (٩٩٦) م. شرع يحكم البلاد بنفسه . وأثر فيه جربرت وغيره من رجال الدين ، فعرض أن يتخذ روما عاصمة للملكة ، ويجمع البلاد المسيحية كلها تحت سيادة الإمبراطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود ويشترك في حكمها الإمبراطور والبابا . وفسر أعيان رومة ولباردية وسوقتها هذا العمل بأنه مؤامرة ترمي إلى إقامة حكم بيزنطى ألماني في إيطاليا ، ولهذا وقفوا في وجه أتو ، وأقاموا في البلاد «جمهورية رومانية» وقلم أتو أظفار الفتنة ، وأعدم كرسنتيوس Crescentius زعيمها ، ثم عين جربرت بابا في عام ٩٩٩ ؛ ولكن حياة أتو التي لم تزد على اثنتين وعشرين سنة ، وبابوية جربرت التي دامت أربع سنين ، كانتا أقصر من أن تمكناه من تنفيذ سياسته بخدايرها ، يضاف إلى هذا أن أتو ، وهو نصف قديس ولكنه رجل إلى حد ما ، قد وقع في حب استفانيا Stephania أرملة كرسنتيوس ، ورضيت أن تكون عشيقته وسجينته ، ولما أحس الملك الشاب أن الموت يسرى في عروقه أخذ يبكى ويندم ، حتى قضى نحبه في فيتربو Viterbo ولما يتجاوز الثانية والعشرين من عمره (٨٣) .

وبدل هنرى الثانى (١٠٠٢ - ١٠٢٤) آخر ملوك ألمانيا السكسون جهده ليعيد إلى الملك قوته في إيطاليا وألمانيا ، حيث قوى حكم الغلامين الصغيرين سلطان الأدواق وجراً عليهما الدول المجاورة لهما . وبدأ بكنزاد الثانى (١٠٢٤-١٠٣٩) حكم الأسرة الفرنكونية أو السالية من الأباطرة . وقد أعاد السلام إلى إيطاليا وضم إلى ألمانيا مملكة برغنديّة أو آريس Arles . ودفعته حاجته إلى المال إلى أن يبيع مناصب الأساقفة بأثمان عالية أنه عليها ضميره ، فأقسم ألا يعود إلى بيع المناصب الدينية بالمال و«كاد يفلح في أن يبر بقسمه» (٨٤) . وبلغت الإمبراطورية في عهد ابنه هنرى الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦) ذروة مجدها . وقد عرض في «يوم الغفران» من عام ١٠٤٣ في كنستانس Constance أن يعفو عن كل من أساء إليه ، وحض رعاياه أن يطهروا صدورهم من كل حقد ورغبة في الانتقام . وقد أفلح

بفضل مواظبه وقدوته الحسنة — وبفضل سلطانه فى أغلب الظن — فى أن يقضى على كثير من منازعات الأدواق ، وتعاون مع « الهدنة الإلهية » فى نشر ظل عهد ذهبي قصير الأجل على أوروبا الوسطى . وقد ناصر العلوم ، وأنشأ المدارس ، وأتم كنائس اسبير ، ومينز ، وورمز . ولكنه لم يكن قديساً يعمل للسلام الدائم ، فقد ظل يحارب المجر حتى اعترفت له بالسيادة الإقطاعية عليها ، وخلع ثلاثة من المتنافسين على البابوية ، وعين اثنين من البابوات واحداً بعد الآخر ، ولم يكن فى أوروبا كلها من يماثله فى سلطانه ، ولكنه أندفع بسلطانه فى آخر الأمر إلى الحد الأقصى فأثار بذلك مقاومة الأساقفة والأدواق جميعاً . غير أنه مات قبل أن تهب العاصفة ، وخلف هنرى الرابع بابوية معادية ، ومملكة مضطربة .

وكان هنرى فى الرابعة من عمره حين توج ملكاً فى آخن وفى السادسة حين توفى أبوه وحكمت أمه واثنان من الأساقفة بالنيابة عنه حتى عام ١٠٦٥ حين أعلن أن الغلام وهو فى الخامسة عشرة قد بلغ سن الرشد ، فوجد نفسه وقد آلت إليه سلطة إمبراطورية كفيلة بلا ريب بأن تذهب بعقل أى شاب ، وأصبح بطبيعة الحال يؤمن بالسلطة المطلقة ، ويسعى لأن يحكم البلاد على هذا الأساس . وسرعان ما وجد نفسه فى خصام أو حرب مع هذا أو ذاك من النبلاء الذين كادوا لعجزه أن يقطعوا أوصال دولته . ذلك أن السكسون قد أغضبهم الضرائب المفروضة عليهم ، وأبوا أن يردوا أراضى التاج التى يدعيها لنفسه ، وظل يحاربهم حرباً منقطعة دامت خمسة عشر عاماً (١٠٧٢ — ١٠٨٨) ، ولما أن هزمهم فى عام ١٠٧٥ أرغم قوتهم الكبرى ومن فيها من أشم النبلاء أنوفاً وكبار الأساقفة الحرييين أن يمشوا حفاة مجردين من السلاح بين صفيين من جنده ، ويقدموا مراسم الاستسلام عند قدميه . وفى تلك السنة نفسها أصدر البابا جريجورى السابع مرسوماً يعارض به حق غير رجال الدين فى تعيين الأساقفة أو رؤساء الأديرة ، واستمسك هنرى بالسوابق المتبعة منذ مائة عام ، ولم يشك مطلقاً فى أن تعيين هؤلاء وأولئك من

حقه ، وظل عشر سنين يحارب جريجورى حربا دبلوماسية وعسكرية ، لم تنته إلا بموته ، وكانت من أشد الحروب هولا في تاريخ العصور الوسطى . وانتهز نبلاء ألمانيا المتمردون المشاكسون هذا النزاع ليزيدوا سلطتهم الإقطاعية ، وعاد السكسون الذين استسلم الملك إلى ثورتهم . وانضم أبناء هنرى إلى معارضيه وظل النزاع قائماً حتى نادى مجلس ميتر هنرى الخامس ملكاً في عام ١٠٩٨ ، وأسر الابن أباه وأرغمه على النزول عن العرش (١١٠٥) ، ثم فر الأب وأخذ يحشد جيشاً جديداً ، لكنه مات في لياج في السنة السابعة والخمسين من عمره (١١٠٦) ، ولم يجد البابا باسكال Paschi الثاني من حقه أن يمنح رجلاً محروماً مات دون أن يتوب دفنة مسيحية ، ولكن أهل لياج تحملوا البابا والملك وشيعوا جنازة هنرى الرابع في موكب ملكى فخم وواروه التراب في كنيستهم الكبرى .

٢ - الحضارة الألمانية ٥٦٦ - ١١٠٦

واستطاعت جهود الرجال والنساء الذين يفلحون الأرض وينشئون الأطفال أن تفتح ألمانيا وتهيئها للحضارة . لقد كانت الغابات فيها ضخمة كثيفة إلى أقصى حد ، تأوى إليها الوحوش الكاسرة ، وتعوق الاتصال والوحدة ، وقام أبطال مجهولون بتقطيع أشجار الغابات ، ولعلهم أسرفوا في هذا التقطيع ، ودام الكفاح في سكسونيا بين الأهليين وبين الأشجار التي تنمو بطبيعتها كلما قطعت ، والمناطق التي تنشر الأوبئة - دام هذا الكفاح ألف عام ولم يكتب النصر فيه للإنسان إلا في القرن الثالث عشر . وتوالت الأجيال جيلاً بعد جيل والزراع المجدون البواسل يطاردون الوحوش ، وينقصون من أطراف البراري القاحلة ، ويلتلون الأرض بالفأس والمحراث ، ويغرسون أشجار الفاكهة ، ويربون قطعان الماشية ، ويعنون بالكربوم ، ويخففون من آلام وحدتهم بالحب والصلاة ، والأزهار والموسيقى والجمعة . وكان المعدنون يستخرجون من الأرض الملح ، والحديد ،

والنحاس ، والرصاص ، والحرف اليدوية القائمة في الضياع ، والأديرة ، والمنازل ، تقرر الحلق الروماني إلى الألماني ، والتجارة تنمو ويطرد نشاطها في النهار وتنساب إلى البحرين الأسود والبلطى : وكسب السكان المعركة العظيمة آخر الأمر ؛ نعم إن الهمجية ظلت كامنة في شرائع البلاد وفي دماء الأهلين ، ولكن الثغرة التي كانت قائمة بين فوضى القرن الخامس القبلية ونهضة القرن العاشر التي بعثها أتو اجتيزت آخر الأمر ، وصارت ألمانيا فيما بين ٩٥٥ و ١٠٧٥ أكثر بلاد أوروبا رخاء ، لا يضارعها في هذه الناحية إلا شمالي إيطاليا التي أخذت القانون والنظام عن الملوك الألمان . وواصلت المدن الرومانية القديمة أمثال تريير ، ومينز ، وكولوني تقدمها ، ونشأت مدن جديدة حول مراكز الأساقفة في اسبير ، ومجدبرج ، وورمز ؛ وبدأنا حوالي عام ١٠٥٠ نسمع عن مدينة نورمبرج .

وكانت الكنيسة مربية ألمانيا والقائمة على إدارة شئونها في ذلك العصر ؛ فقد افتتحت مدارس — أو بالأحرى كليات في أديرة فلدا ، ومجرنسي Tegernse ، ريخنو Reichenan ، وجندرسهايم Gandersheim ، وهيلدسهايم Hildesheim ، ولورسخ Lorsch . ولما عين ربانوس موروس Rabanus Maurus (٧٧٦ ؟ — ٨٥٦) رئيساً لدير فلدا العظيم في بروسيا بعد أن أتم دراسته تحت رعاية الكوين في تور ، رفع مكانة مدرسة هذا الدير وأذاع شهرتها في جميع أنحاء أوروبا حتى أضحت اما رؤوماً للعلماء ولاثنين وعشرين معهداً تنتسب إليها . وقد وسع منهاجها حتى شمل كثيراً من العلوم الطبيعية ، وندد بالخرافات التي كانت تعزو الحوادث الطبيعية للقوى السحرية الخفية^(٨٥) . ونمت دار الكتب في فلدا حتى أضحت من كبريات المكتبات العامة في أوروبا ؛ وهي التي أخرجت لنا سوتونيوس Suetonius وناستوس ، وأمينانوس مارسلنوس Ammianus Marcellinus . وثمة رواية غير موثوق بصحتها تعزو إلى ربانوس أنشودة « جئت يا خالق الأرواح Veni Creator Spiritus » التي تنشد وقت (٢٢ - ج ٣ - مجلد ٤)

تدشين البابوات والأساقفة والملوك^(٨٦) ، وافتتح سانت برونو St. Bruno ، الذى كان دوق لورين وكبير أساقفة كولونى ثم أصبح مستشاراً لإمبراطوريا لأتو الأكبر ، مدرسة فى القصر الملكى ليدرب فيها طبقة من الموظفين الإداريين ، واستقدم العلماء وجاء بالكتب من بيزنطية وإيطاليا وكان هو نفسه يعلم فيها اللغة اليونانية والفلسفة .

ولم تكن اللغة الألمانية قد نشأت لها آداب فى ذلك الوقت ، وكان القائمون بالكتابة كلهم تقريباً من رجال الدين ، وكانت لغة الكتابة هى الألمانية . وكان أعظم شعراء العصر الألمان هو ولفريد استرابو Walafrid Strabo (٨٠٩ — ٨٤٩) وهو راهب سوابى فى ريخنو . وكان وقتاً ما مريباً لشارل الأصغر فى قصر لويس التى بآخن . وقد وجد له فى يوديث الحسنة الطموحة زوجة لويس نصيرة مستنيرة . ولما عاد إلى ريخنو ليتولى رئاسة ديرها صرف جهوده كلها فى الدين ، والشعر ، وفلاحة البساتين ، وقد وصف لنا فى قصيدة له ممتعة فى العناية بالحرائر De cultura hortorum كل عشب وزهرة من الأعشاب والأزهار التى كان يربها ويشغف بها .

وكان أعظم من ينافسه فى الأدب الألمانى فى تلك القرون راهبة تدعى هرسويدا Hroswitha ، وهى واحدة من كثيرات من النساء اللاتى امتزجن فى ذلك العصر بثقافتهم ورقمتن . وقد ولدت حوالى عام ٩٣٥ ، ثم دخلت دير البندكتيين فى جندرسهايم Gandersheim . وما من شك فى أن مستوى التعليم فى ذلك الدير كان أرقى مما نتوقع ، ذلك أن هرسويدا قد درست شعراء رومة الوثنية ، وعرفت كيف تكتب باللغة اللاتينية بأسلوب سلس واضح ، وكتبت بالشعر اللاتينى السداسى الأوتاد تراجم لبعض القديسين ، كما أنشأت ملحمة أصغر من هذه التراجم عن أتو الأكبر . ولكن كتبها التى سجلت ذكرها هم ستة مسرحيات نثرية من نوع المسلاة حلت فيها حلو ترنس Terence .

وتقول هي إن الغرض الذى كانت ترمى إليه من كتابتها هو « أن تجعل الهبة الصغيرة التى حباها بها الله ، تخرج بدافع الإخلاص صوتاً ضئيلاً تحمد به الله » (٨٧) . وتقول إنه يحزنها ما فى المسالى اللاتينية من بذاءة وثنية ، ولأنها تحب أن تعرض على القراء بدلاً منها مسالى مسيحية ، ولكن مسرحياتها نفسها تلدور حول حب دنس لا يكاد يخفى ما ينطوى عليه من شهوة جثمانية . وخير مسرحياتها القصيرة هى مسرحية أبراهام ، وفيها يغادر ناسك مسيحي صومعته ليعنى بابنة أخ له يتيمة . ثم تفر الفتاة مع شخص أغواها لا يلبث أن يهجرها ، فتصبح من العاهرات . ويقتنى أبراهام أثرها ، ويدخل عليها حجرتها متخفياً . وتقبله ، فتعرفه ، وترتد عنه فى خجل ، ويدور بينهما حوار شعري رقيق يقنعها به أن تقلع عن حياة الرذيلة وتعود معه إلى بيتها . ولسنا نعرف هل مثلت هذه المسرحيات القصيرة أو لم تمثل ، ذلك أن المسرحيات الحديثة لم تكن صدى لمسرحيات ترنس وأمثالها ، بل نشأت من حفلات الكنيسة « وطقة وسها الخفية » بعد أن امتزجت بها « مساحرة » الممثلين الجاثلين الصامته .

ولم تكن الكنيسة موطناً للشعر ، والتمثيل ، وكتابة التاريخ فحسب ، بل إنها فوق ذلك أمدت الفن بالموضوعات والمال . فقد تأثر الرهبان الألمان بالمثل البيزنطية والكارولنجية ، وشجعهم مناصرة الأميرات الألمانيات فأخرجوا فى ذلك العصر عشرات العشرات من المخطوطات المزخرفة ذات الجمال الممتاز . ويكاد برنولد Bernwald الذى كان أسقف هلدسهايم من ٩٩٣ إلى ١٠٢٢ أن يكون فى حد ذاته خلاصة لثقافة ذلك العصر : فقد كان مصوراً ، وخطاطاً ، وصانعاً للمعادن والفسيفساء ، وحاكماً إدارياً ، وقديساً . وقد جعل المدينة التى يعيش فيها مركزاً للفنون بمن جمع فيها من الفنانين على اختلاف أنواعهم ومواهبهم . وبفضل معونتهم ، وبده الصنائع أخرج صلباناً محلاة بالجواهر ، ومائلات من الذهب ، والفضة منقوشة عليها صور للحيوان والنبات ، وكأساً من كوثوس القربان

مطعمة بجواهر قديمة تمثل واحدة منها ربات الجمال الثلاث عاريات كعادتهن (٨٨) ، وكانت الأبواب الدائعة الصيت التي صنعها فنانوه لكنيسة أولى الأبواب المعدنية في العصور الوسطى التي صبت صباً بدل أن تصنع من ألواح مستوية ملصقة على الخشب . أما فن العمارة المحلية فلم يكن قد بدت فيه شواهد على تلك الأشكال الجميلة التي ازدهرت بها المدن الألمانية في عصر النهضة ، غير أن مباني الكنائس قد أخذت في ذلك الوقت تنتقل بالتدريج من الخشب إلى الحجارة ، واستوردت من لمبارديا الآراء الرومانسية الخاصة بالأجنحة ، وأمكنة المرتلين ، والصحن ، والأبراج ، وبدأت وقتئذ كنائس هيلدسهايم ، ولورسوخ ، وومز ، ومينز ، وترير واسبير ، وكولون . وكان النقاد الأجانب يشكون مما يتصف به هذا الفن الرينى - الرومانسى من سقوف خشبية مستوية ، وإفراط في الزخارف الخارجية ، ولكن هذه الكنائس تعبر أصدق تعبير عما في الخلق الألماني من قوة وصلابة وعن روح ذلك العصر الذى يكافح أشد الكفاح ليرقى إلى مدارج الحضارة .

الباب الحادى والعشرون

صراع المسيحية (٥٢٩ - ١٠٨٥)

الفصل الأول

النديس بنديكت حوالى ٤٨٠ - ٥٤٣

شهد عام ٥٢٩ إغلاق مدارس أثينة الفلسفية كما شهد افتتاح مونتي كسينو Monte Cassino أشهر الأديرة فى المسيحية اللاتينية . وقد ولد منشؤه بندكت النرسياى Benedict of Nursia فى بلدة اسپليتو Spoleto ويبدو أن أبويه كانا من طبقة الأشراف الرومانية الآخذة فى الانقراض . ولما أرسل إلى رومة ليتعلم ، هاله مارآه فيها من الفساد الجانى ، أو أنه كما يقول البعض أحب ولم يفلح فى حبه ، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره فر إلى مكان سحيق على بعد خمسة أميال من سيباكو Subiaco فى التلال السبينية ، واتخذ له صومعة فى كهف أسفل هاوية وعاش فيها بضع سنين فى عزلة الرهبان . وتحدثنا محاورات البابا جريجورى الأول كيف كافح بندكت كفاح الأبطال لينسى المرأة :

« التى بعث الشيطان ذكرها إلى قلبه ، وألهم بهذه الذكرى نار الشهوة نفس عبد الله . . . حتى كادت تغلبه لذة الحب ، وفكر فى أن يهجر البرية ثم لطف الله به فعاد عقله فجأة إلى صوابه ، وأبصر كثيراً من شجيرات العوسج والحسك تنمو بالقرب منه ، فخلع ثيابه وألقى بنفسه فى وسطها وأخذ يتمرغ فيها

مدة طويلة ، فلما وقف على قدميه كان جلده قد تمزق وأصبح في حال يرثى لها ، وهكذا دأوى بجراح نفسه بجراح قلبه » ٥

وبعد أن عاش في هذه البرية الموحشة بضع سنين واشتهر بين الناس بزهوه وثباته على تقواه ، ألح عليه رهبان أحد الأديرة القريبة منه أن يكون رئيساً لديرم ؛ ولما أنذرهم بأن حكمه سيكون صارماً ، لم يزداهم ذلك إلا إصراراً على رأيهم ، فلم ير بدا من إجابتهم إلى طلبهم والانتقال معهم إلى ديرهم . ولما قضى معهم أشهراً قليلة أخذهم فيها بأشد النظم دسوا له السم في النبيذ ، فعاد إلى حياة العزلة ، ولكن بعض الشبان الأتقياء المخلصين جاءوا ليعيشوا بجواره ، ويطلبوا هدايته ، وجاء بعض الآباء بأبنائهم ، ومنهم من كانوا من أهل رومة نفسها ، ليتلقوا عليه العلم ، فام يحل عام ٥٢٠ حتى قام حول كهفه اثنا عشر ديراً صغيراً بكل منها اثنا عشر راهباً . ولما رأى كثيرون من هؤلاء الرهبان القلائل أن حكمه صارم لا يطيقونه ، انتقل مع أشد أتباعه حماسة إلى مونتى كسينو وهو تل يرتفع ١٧١٥ قدماً عن سطح البحر ، ويطل على بلدة كسينوم Cassinum القديمة التي تبعد عن كهوا أربعين ميلاً جهة الشمال الغربى . وهناك هدم معبداً وثنياً ، وأنشأ في مكانه (حوالى ٥٢٩) ديراً ووضع أساس الحكم البندكتى الذى اهتمت به فيما بعد معظم الأديرة في بلاد الغرب .

وكان رهبان إيطاليا وفرنسا قد أخطأوا حين حذوا حذو نساك الشرق وعزلتهم ، لأن مناخ أوروبا الغربية ونشاط أهلها يجعلان هذا النوع من الحياة شاقاً عليهم مثبلاً لعزيمتهم ، فأدى ذلك إلى نكوص كثيرين منهم على أعقابهم ، فلما جاء بندكت لم يحرم التنسك ولم ينتقد النساك ، ولكنه رأى من الحكمة أن يجعل التنسك جماعياً لا فردياً ، خالفاً من التنافس والتظاهر ، يضع في كل خطوة من خطواته إلى رئيس أحد الأديرة ، ويقف عند الحد الذى إذا تعداه أضر بصحة الجسم أو بالعقل .

ولم يكن يطلب ، حتى ذلك الوقت ، إلى من يدخلون الأديرة ليعيشوا فيها أن يقسموا أى قسم . فأحس بندكت أن الواجب يقضى على الطالب أن يقوم على خدمة راهب حديث العهد ، ليتعلم منه بالتجربة ما يطلب إليه من حياة التقشف ، فإذا ما أتم هذه التجربة لا قبلها أقسم الإيمان . وعليه بعد ذلك إذا شاء أن يتعهد كتابة بالبقاء في الدير على الدوام ، وإصلاح أخلاقه ، وطاعة رؤسائه ، ثم يضع الراهب الحديد هذا القسم الكتابي بنفسه على المذبح ، بعد أن يوقعه ويشهد عليه في احتفال رهيب . ولم يكن من حق الراهب بعد هذا الحفل أن يغادر الدير إلا بإذن رئيسه وكان الرهبان هم الذين يختارون رئيس ديرهم ، وكان عليه أن يستشيرهم في جميع الشئون الخطيرة ، ولكنه هو وحده الذى يتخذ القرار الأخير ، وكان عليهم أن يطيعوه طاعة عمياء وهم صامتون : ولم يكن لهم أن يتكلموا إلا إذا اقتضت ذلك الضرورة ، وألا يمزحوا أو يضحكوا بصوت عال ، وأن يمشوا وهم مطرقون بأبصارهم إلى الأرض . ولم يكن من حقهم أن يمتلكوا شيئاً « سواء كان كتاباً ، أو لوحاً ، أو قلماً - أو شيئاً على الإطلاق . . . بل يجب أن تكون كل الأشياء ملكاً مشاعاً » (٣) . وكان عليهم أن يغفلوا أو ينسوا كل ما شاهدوه من قبل من أحوال الملكية أو الاسترقاق . وكان من واجب رئيس الدير :

ألا يميز بين الأفراد في الدير . . . فلا يفضل الحر المولد عن جاء من بين الأرقاء ، إلا إذا كان لهذه التفرقة سبب معقول ، إذ لا فضل لأحدنا على الآخر عند الله سواء كنا عبيداً أو أحراراً : . . لأن الله لا يعظم الأشخاص (٤) .

ويجب على من في الدير أن يتصدقوا على كل من يطلب الصدقة ، وأن يستضيفوا كل من يطلب الضيافة بقدر ما تتسع له موارد الدير ، وأن « يستقبلوا كل من يأتون من الضيوف كأنهم هم المسيح نفسه » (٥) ، ومن واجب كل راهب أن يعمل - في الحقول أو الحوائث ، وفي المطبخ ،

وحول البيت ، وينسخ المخطوطات . . . ولم يكن الرهبان يأكلون شيئاً حتى منتصف النهار ، وفي أيام الصوم الكبير لا يأكلون إلا حين تغرب الشمس ، وكانوا في الفترة الواقعة بين منتصف سبتمبر وعيد الفصح يقتصرون على وجبة واحدة في اليوم ، وفي أشهر الصيف تباح لهم وجبتان لأن النهار وقتئذ طويل . وكان النبيذ مباحاً أما لحم كل حيوان ذى أربع فكان محرماً عليهم . وكانت أوقات العمل أو النوم تقطعها دعوة إلى الصلاة الجماعية . وتأثر بندكت بالمثل الشرقية فقسم اليوم إلى « ساعات كنسية » — أى ساعات للصلوات كما قررها قانون الكنيسة أو قررتها قواعدهم . فكان على الرهبان أن يستيقظوا في الساعة الثانية صباحاً ، ويذهبوا إلى المعبد القائم في الدبر ، ويرتلوا ، أو ينشلوا « تسيحة الليل » وهي قراءة من الكتاب المقدس ، وأدعية ، ومزامير ، فإذا طلع الفجر اجتمعوا « لصلاة السحر » أو « تسيحة الصباح » . وفي الساعة السادسة يجتمعون للصلاة القائمة — صلاة الساعة الأولى ، وفي التاسعة يجتمعون للصلاة الثالثة ، وفي منتصف النهار يصلون الصلاة « السادسة » ، وفي الساعة الثالثة يجتمعون للصلاة التاسعة ، وفي الغروب يصلون صلاة المساء ، وقبل الذهاب إلى الفراش يصلون صلاة النوم وهي الصلاة الختامية ، وكان وقت النوم هو بداية الليل ، وكان الرهبان يستغنون عن الضوء الاصطناعي وينامون بملابسهم العادية وقلما كانوا يستحمون^(٦) .

وأضاف بندكت إلى هذه الأنظمة الصريحة بعض الإرشادات العامة التي يتبعها الرجل الكامل المسيحية :

١ — يجب أولاً أن يحب الإنسان الله بكامل قلبه ، وكامل روحه ، وكامل قوته ؛

٢ — وعليه أن يحب جاره كما يحب نفسه (٣) وعليه ألا يقتل
و ألا يزنى . . . أو يسرق . . . أو يطمع . . . أو يشهد زوراً . . . (٨) وعليه أن يعظم الناس جميعاً . . . (١١) وأن يظهر جسمه . . . (١٣) وأن

يجب الصوم . . . (١٤) وأن يعين الفقراء . . . (١٥) وأن يكسو العرايا . . . (١٦) وأن يزور المرضى . . . (٣٠) وألا يتسبب في الأذى وأن يصبر عليه . . . (٣١) وأن يحب أعداءه . . . (٣٣) وألا يكون مولعاً بكثرة الكلام . . . (٦١) وألا يرغب في أن يسمى قديساً . . . ولكن عليه أن يكون من القديسين . . . (٧١) وإذا اختلف مع أحد فعليه أن يصفاه قبل أن تغرب الشمس . . . (٧٢) وألا يقنط من رحمة الله (٧) . . .

وكان دير البندكتيين ملجأً يواسى المنكوبين في عصور الحرب والفوضى ، والشك والتجوال ، يلجأ إليه الفلاحون المعدمون أو المنكوبون ، والطلاب الذين يتوقون إلى مأوى هادئ ، والرجال المتعبون من نزاع العالم وضجيجيه ، ويقول لهم : « تخلوا عن كبرياتكم وحريتكم ، تجلوا هنا الأمن والسلام » . فلا عجب والحالة هذه إذا نشأت مائة دير مثله للبندكتيين في جميع أنحاء أوروبا ، كل منها مستقل عن غيره من الأديرة ، لا يخضع إلا للبابا وحده ، وهي بمثابة جزائر شيوعية في بحر من الفردية عجاج . وكانت القواعد والنظم البندكتية من أثبت وأبقى ما ابتدعته العقول في العصور الوسطى . وكان دير كسينو نفسه رمزاً لهذا البقاء ، فقد نهبه اللومبارد الهمج في عام ٥٨٩ ؛ فلما انسحب اللومبارد عاد إليه الرهبان ، ثم دمره المسلمون في عام ٨٨٤ ؛ فأعاد الرهبان بناءه ؛ ونهبه الجنود الفرنسيون في عام ١٧٩٩ ، وهدمته قنابل الحرب العالمية الثانية وقذائفها ، حتى سوته بالأرض في عام ١٩٤٤ . وهاهو ذا اليوم (١٩٤٨) يعيد بناءه مرة أخرى رهبان القديس بندكت بأيديهم ، فهو كالشجرة الطيبة إذا قطعت نمت وأزهرت من جديد .

الفصل الثاني

جريجورى الأكبر ٥٤٠ - ٦٠٤

بينما كان بندكت ورهبانه يعملون ويصلون آمنين مسالمين فى موثى كسينو ، كانت الحرب القوطية (٥٣٦ - ٥٥٣) تجتاح إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها وتترك الفوضى والفاقة أينما حلت . واضطربت الحال الاقتصادية فى المدن وحلت بها الفوضى وتدهورت النظم السياسية ، ولم يبق فى رومة نفسها سلطة مدنية عدا سلطة مبعوثى الإمبراطورية ، يؤيدهم تأييداً ضعيفاً جنود بعيلون عنهم لا يتقاضون مرتباتهم . ولما انهارت السلطات الدنيوية على هذا النحو بدا لكل ذى عينين وللأباطرة أنفسهم أن لا حياة للدولة إلا ببقاء النظام الكنسى ، ولهذا أصدر جستنيان فى عام ٥٥٤ مرسوماً يطلب فيه أن « يختار الأساقفة والرجال المشهورون فى كل ولاية الأشخاص اللاتقين الصالحين لتصريف شئون الحكومة المحلية »^(٨) ولكن جثة جستنيان لم تكد تبرد فى مثواها الأخير حتى أخضعت غزوات اللمبارد (٥٦٨) شمالي إيطاليا مرة أخرى إلى الهمجية وإلى المذهب الأريوسى وهددت صرح الكنيسة كله وزعامتها فى إيطاليا بأشد الأخطار . وخلقت هذه الأزمة رجلاً ، وكان التاريخ مرة أخرى شاهداً بما للبعيرية من أثر عظيم :

ولد جريجورى فى رومة قبل موت بندكت بثلاث سنين ، وهو ينتمى إلى أسرة عريقة من أعضاء مجلس الشيوخ . وقد قضى صباه فى قصر جميل على سفح تل كاثيليا Caelian . ولما توفى أبوه ورث عنه ثروة طائلة ، وارتقى بسرعة فى سلم المناصب السياسية فكان فى الثلاثة والثلاثين من عمره عمدة لرومة ، ولكنه لم يجد

فى نفسه ميلا للشئون السياسية ، ولهذا فإنه حين أتم السنة التى يحق له فيها أن يتولى منصبه ، وأيقن ، كما يبدوا من أحوال إيطاليا ، ومما كان يردده الناس على اللوام ، أن آخره العالم قد اقتربت^(٩) ، أنفق معظم ثروته فى إنشاء سبعة أديرة ، ووزع ما بقى منها صدقات للفقراء ، وتخلّى عن جميع مظاهر طبقته ، وحول قصره إلى دير للقديس أندر St. Andrew وصار أول راهب فيه ، وأخذ نفسه بأشد أنواع الزهد صرامة ، ولم يطعم فى معظم أيامه إلا الخضر والفاكهة ، وأكثر من الصيام إلى حد أنه لما أقبل يوم سبت النور الذى يحتم فيه الصيام خجل إلى من يراه أن صوم يوم واحد بعده سيقضى عليه لا محالة : غير أنه كان يذكر بالخير الثلاث السنين التى قضاهما فى الدير ويقول إنها أسعد سنّى حياته :

ثم انتزع من هذا الهدوء ليكون « شماساً سابغاً » فى خدمة البابا بتدكت الأول ، ثم أرسله البابا بلاجيوس Pelagius الثانى سفيراً له فى البلاط الإمبراطورى بالقسطنطينية . وظل بين الأعياب السياسة وأبهة القصور يعيش معيشة الراهب فى عاداته ، وطعامه وصلواته^(١٠) ، وإن كان مع ذلك قد خبر العالم وما فيه من مكر وخداع خبرة أفاد منها كثيراً . واستدعى مرة أخرى إلى رومة عام ٥٨٦ . وعين رئيساً لدير القديس أندرو ، ثم فشا فى عام ٥٩٠ طاعون دملى مروع قضى على عدد كبير من أهل رومة وكان بلاجيوس من ضحاياه ، وبادر رجال الدين والشعب إلى اختيار جريجورى ليخلفه ، وكان يعز على جريجورى أن يترك ديرَه فكتب إلى إمبراطور الروم يرجوه ألا يوافق على اختياره للمنصب الجديد ، ولكن عمدة المدينة احتجز الرسالة ، وبينما كان جريجورى يعد العدة للهرب ، ألقى القبض عليه ، وحمل بالقوة إلى كنيسة القديس بطرس حيث أقامه جريجورى آخر ، أو هكذا يقولون ، بابا^(١١) . وكان وقتئذ فى الخمسين من عمره ، وقد دب الصلع فى رأسه فى هذه السن المبكرة . وكان كبير الرأس أسمر اللون ، أفنى الأنف ، خفيف شعر اللحية ، أصداه ، قوى

الإحساس ، حلول الحديث ، ماضى العزيمة ، رقيق العاطفة ؛ وكان تقشفه الشديد وتبعاته الكثيرة قد أتلفت صحته ، فكان يشكو عسر هضم ، وحى بطيئة خفيفة ، وداء القرس . وعاش في القصر البابوى كما كان يعيش في الدير - يلبس ثوب الرهبان الخشن ، ويأكل أرخص الأطعمة وأشدها خشونة ، ويشارك مساعديه من الرهبان والقسيسين في حياتهم العامة . ولم يمنعه انهماكه في معظم أوقاته في مشاكل الدين والدولة من أن يوجه كلمة أو يقوم بعمل يشعران بالعطف والحنان . من ذلك أنه أبصر في يوم من الأيام شاعراً جوالاً على باب قصره ومعه أرغن وقرد . فأمر جريجورى الرجل بالدخول ، وقدم له الطعام والشراب^(١٣) . ولم يكن ينفق إيرادات الكنيسة في تشييد صروح جديدة بل أنفقها في الصدقات ، وفي الهبات للمعاهد الدينية في جميع أنحاء العالم المسيحى ، وفي افتداء أسرى الحروب . وكان يوزع على كل أسرة فقيرة في رومة كل شهر قدراً من الحبوب ، والنيذ ، والجبن ، والزيت والسمن ، واللحم ، والثياب ، والمال . وكان عماله يحملون الطعام المطبوخ في كل يوم إلى العجزة والمرضى ؛ وكانت رسائله غاية في الصرامة لرجال الكنيسة المهملين ، ولكبار الحكام السياسيين ، ولكنها كانت تفيض رقة وحناناً للمنكوبين : من فلاح يشتغل في أرض الكنيسة ، إلى أمة تريد أن تدخل الدير ، أو سيدة شريفة يؤثها ضميرها على ما اقترفت من آثام . وعلى هذا النحو كان القس راعياً بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ ، راعياً يعنى بقطيعه ، وكان للبابا الصالح الحق كل الحق في أن يؤلف كتابه المسمى *Liber Pastoralis curae* (٥٩٠) ، وهى كتاب موجز في النصائح يسديها إلى الأساقفة ، صارت فيما بعد من المراجع المسيحية الهامة ، ولم يمنعه مرضه الدائم وشيخوخته المبكرة من أن ينهك قواه في تصريف الشئون الكنسية ، والسياسة البابوية ، والأعمال الزراعية ، والخطط العسكرية ، وتأليف الرسائل الدينية ، والنشوة الصوفية ، والاهتمام الشديد بالآلاف تفاصيل الحياة البشرية . وقد خلع على منصبه السامى.

ما يتصف به الدين من تواضع ، فلقب نفسه في أولى رسائله الباقية لدينا اليوم « خادم خدام الله » servus servorum Dei ، وقد ارتضى أعظم البابوات لأنفسهم هذا اللقب النبيل .

وامتازت إدارته لشئون الكنيسة بالاقتصاد الحكيم ، والإصلاح الصارم الشديد ، وقد بذل جهوداً جبارة في قمع التسرّي والمتاجرة بالرتب الكهنوتية بين رجال الدين ، وأعاد النظام إلى الأديرة اللاتينية ، ونظم علاقتها بالبابا وبرجال الدين من غير الرهبان . وأصلح قانون القداس ولعله كانت له يد في نشأة النشيد « الجريجورى » ، وقع ما كان قائماً في ضياع البابا من استغلال ، وقدم القروض من غير فائدة للزراع المستأجرين ، ولكنه لم يتوان عن جمع إيرادات أملاك الكنيسة بالخزم والسرعة ، وعرض بدهائه على اليهود الذين يعتنقون المسيحية أن يخفض لهم إيجار أملاك الكنيسة ، وقبل للكنيسة الأراضي التي كان يهبها لها الأشراف الذين أقضت مضاجعهم مواعظه عن اقتراب نهاية العالم (١٤) .

وكان في هذه المشاغل كلها يقابل أعظم حكام زمانه ويناقشهم في الشئون السياسية ، يغلبهم في معظم الأحيان ويغلبونه في بعضها ، ولكنه ترك في آخر الأمر سلطان الكنيسة وهيبة البابوية و « ميراث بطرس » (أى الولايات البابوية في إيطاليا الوسطى) ترك هذه كلها أعظم وأوسع رقعة مما كانت قبله . وقد اعترف من الوجهة الرسمية بسيادة إمبراطور الروم ، ولكنه كان يتجاهل هذه السيادة من الوجهة العملية ، مثال ذلك أنه لما أن هدد دوق اسبليتو مدينة رومة - وكان في حرب مع نائب الإمبراطور في رافنا - عقد جريجورى صلحاً مع الدوق دون أن يستشير في ذلك نائب الإمبراطور أو الإمبراطور نفسه ، ولما أن حاصر للمبارد مدينة رومة اشترك جريجورى في تنظيم الدفاع عنها .

غير أنه كان يأسف لكل دقيقة يقضيها في الشئون الدنيوية ، ويعتذر للجماعات المصلين لعجزه عن أن يلتقى عليهم عظات تريح بالهم بين المتاعب الدنيوية التي

تشغل باله هو ، وقد أسعده أن يوجه عنايته فيما أتيح له من سنى الهدوء
القتال إلى نشر الإنجيل في أوربا ، وأخضع لسلطانه أساقفة لمبارديا
المتمردين ، وأعاد المذهب الكاثوليكي السليم إلى أفريقية ، وتلقى تحويل
أسبانيا الأريوسية إلى المذهب الكاثوليكي ، وكسب إنجلترا لهذا المذهب دون
أن يكلفه ذلك أكثر من أربعين راهباً بعث بهم إليها . ولما أبصر وهو
رئيس دير القديس أندرو بعض الأسرى الإنجليز يعرضون للبيع في أحد
أسواق الرقيق في رومة دهش كما يقول بيد Bede ذو النزعة الوطنية :

« من بياض إهابهم ، ووسامة وجوههم ، وجمال شعرهم ، فأخذ
يتأملهم لحظة وجيزة ، ثم سأل ، كما يقولون ، عن الإقليم أو البلد الذى
جاء بهم منه . ولما قيل له إنهم جاءوا من بريطانيا ، وإن هذه هى صور
أهلها ، سأل مرة أخرى هل سكان تلك البلاد مسيحيون . . . فلما أجيب
بأنهم كفرة من عباد الأوثان صاح هذا الرجل الصالح قائلاً . . . وأسفاه !
إني ليحزنتنى أن يكون أولئك الناس الحسان ذوو الوجوه المشرقة من أتباع
ملك الظلام ، وأن تكون لأصحاب هذا المظهر الجميل عقول خالصة من
الجمال الداخلى » . ثم سأل من أجل هذا مرة أخرى عن اسم أولئك الأقوام ،
فقيل له إن اسمهم الإنجليز Angles ، فلما سمع هذا قال : « ألا ما أجدرهم
بهذا الاسم (*) » لأن لهم وجوهاً كوجوه الملائكة ، وخلق بأولئك الرجال
أن يرثوا مع الملائكة ملكوت السموات (١٥) » .

ثم تقول القصة بعدئذ - وهى أطرف من أن تصدق - إن جريجورى استأن
البابا پلاجيوس الثانى أن يذهب على رأس جماعة من المبشرين إلى إنجلترا ،
فلما أذن له البابا بذلك بدأ رحلته ، ولكنه وقف عن مواصلة الرحلة حين سقطت
جرادة على الصفحة التى كان يقرأها فى الكتاب المقدس ؛ فصاح من فوره
لوكتستا Locusta ، « إن معنى هذا loca sta » - أى أقم فى مكانك (١٦) .

(*) يشير إلى ما بين Angles أى الإنجليز و Angels أى الملائكة من تجانس . (المترجم)

وشغلته بعد ذلك بقليل شئون البابوية ولكنه لم ينس إنجلترا ، فلما كان عام ٥٩٦ أرسل إليها بعثة برياسة أوغسطين كبير الرهبان في دير القديس أندرو . فلما وصلت البعثة إلى غالة عاد الرهبان أدراسهم ، إذ روعتهم أقاصيص الفرنجة عن وحشية السكسون ، فقد قيل لهم إن « أولئك الملائكة » وحوش مفترسة ، القتل عندهم أفضل من الأكل ، متعطشون لدماء الآدميين ، وأن أحب الدماء إليهم دماء المسيحيين . وعاد أوغسطين يحمل هذه الأخبار إلى رومة ، ولكن جريجورى أنه على ما فعل وشجعه على العودة ، وأرسله إلى إنجلترا مرة أخرى فآتم بالسلم في عامين اثنين ما فعلته رومة بالحرب في تسعين عاما ، ثم لم يلبث عملها أن عفت آثاره .

ولم يكن جريجورى فيلسوفاً دينياً مثل أوغسطين العظيم ، كما أنه لم يكن من الكتاب أصحاب الأساليب الجيدة مثل جيروم ذى الأسلوب الممتع الجذاب . ولكن كتاباته كان لها أعمق الأثر في عقلية الناس في العصور الوسطى ، وكانت تعبر عن هذه العقلية أصدق تعبير ، ولهذا فإن كتابات أوغسطين وجيروم تبدو إلى جانبها كأنها من أقلام اليونان والرومان الأقدمين . وقد خلف وراءه كتباً في الدين توائم عقلية الجاهل ، حوت من السخف الكثير ما يحير الإنسان فلا يدري هل كان يؤمن بهذا الإدارى العظيم حقاً بما يكتبه ، أو أنه لم يكن يكتب إلا ما يرى أن من الخير للنفس الساذجة الأثيمة أن تؤمن به . وأعظم كتبه إمتاعاً هو ترجمته لحياة بندكت - وهى في واقع الأمر أنشودة ساحرة من التبجيل لا يدعى فيها أنه حرص على تمييز الأوهام من الحقائق تمييز الناقد البصير ، وخير ثرائه الأدبى هو رسائله الثمانمائة ، ففيها يكشف هذا الرجل المتعدد المواهب عن قدرته في مائة من الميادين ، ويرسم دون أن يشعر صورة دقيقة لعقله وزمانه . وقد أحب الشعب محاوراته لأنه يعرض عليهم فيها أعجب القصص عن روى رجال الدين في إيطاليا ، ونبوءاتهم ، ومعجزاتهم ، على أنها حقائق تاريخية . ففيها

يقرأ القارىء عن الحجارة الضخمة يحركها الناس بصلواتهم ، وعن قديس يستطيع أن يتخفى عن أعين الخلق ، وعن سموم تصبح عديمة الضرر بفعل علامة الصليب ، وعن أطعمة تنزل وتنكاثر بفعل المعجزات ؛ وعن مرضى يشفون من أمراضهم وأموات يعودون إلى الحياة . ويتكرر في هذه المحاورات ذكر الخلفات وما لها من قوة ، ولكن أعجب ما فيها ما يذكره عن السلاسل التي قيل إن بطرس وبولس قد قيذا بها ؛ وكان جريجورى يحرص على ذكر هذه السلاسل ويمجدها إلى حد العبادة ، ويهذى برادة منها إلى أصدقائه ؛ وقد كتب مع هدية من هذا النوع إلى صديق مصاب بالرمم : « احرص على أن تضع هذه فوق عينيك باستمرار ، لأن هذه الهدية بعينها قد أتت بكثير من المعجزات » (١٧) . وقصارى القول أن مسيحية الجماهير قد استحوذت على عقل البابا العظيم وقلمه .

وكانت أعظم مخاضراته في ميدان الدين هي كتابه *Magna Moralia* — وهو شرح لسفر أيوب في ستة مجلدات . وهو يروى هذه المسرحية على أنها تاريخ حقيقى في كل سطر من سطره ، ولكنه بالإضافة إلى هذا يبحث في كل سطر عن معنى مجازى أو رمزى ، ويختمها بقوله إنه يجد في سفر أيوب جميع آراء أوغسطين الدينية . ويعتقد أن الكتاب المقدس هو كلمات الله بكل ما لهذا التعبير من معان ، وأنه في حد ذاته نظام كامل من الحكمة والجمال ، وأن على كل إنسان ألا يضيع وقته ويفسد أخلاقه بقراءة الكتب الوثنية اليونانية والرومانية القديمة . على أن بعض آيات الكتاب المقدس في رأيه يكتنفها الغموض ، وأنها كثيراً ما تصاغ في لغة شعبية توضيرية ، ولهذا فهي في حاجة إلى أن تعنى بتفسيرها عقول مدربة ، والكنيسة وهي الأمانة على التقاليد المقدسة هي وحدها التي يحق لها أن تقوم بهذا التفسير والعقل الفردى أداة ضيقة مولعة بالتقسيم ، لم توجد لتعالج الحقائق التي نسمو على الحواس ، وإذا ما حاول العقل أن يدرك ما هو فوق مداركنا ،

خسر كل شيء حتى ما يستطيع فهمه . وليس في مقدور أفهامنا أن نعرف الله ، وكل ما في وسعنا أن نقول إنه ليس كذا وكذا ولكننا لا نستطيع أن نقول ما هو ؛ و « يكاد كل ما يقال عن الله يكون غير خليق به لجورد أنه يمكن أن يقال عنه » (١٩) ولهذا لا يحاول جريجورى محاولة صريحة أن يثبت وجود الله ، ولكنه يقول إن في وسعنا أن نشير إلى وجوده بالتفكير فى النفس البشرية : أليست هى القوة الحية وهادية الجسم ؟ ثم يقول جريجورى : « وكثيراً ما رأى عدد كبير من الناس . . . فى هذه الأيام أرواحاً تفارق أجسامها » (٢٠) . ومأساة الإنسان الكبرى هى أنه قد فسد فطرته بتأثير الخطيئة الأولى ، فالت به إلى الشر ، وهذا التكوين الروحى الفاسد الأساس ينتقل من الوالد إلى الولد بفعل التناسل الجنسى : فإذا ما ترك الإنسان وشأنه أضاف ذنباً إلى ذنب واستحق بذلك العذاب الدائم . وليست النار اسماً على غير مسمى ، بل هى هوة سحيقة تحت الأرض مظلمة لا قرار لها وجدت من يوم أن خلق العالم . وهى نار لا ينطفئ لظاها مجسمة ، ولكن فى مقدورها رغم ذلك أن تظهر الأرواح والأجسام ؛ وهى أبدية ولكنها لا تفنى المذنبين أو تنقص من إحساسهم بالألم ، ويضاف إلى آلامهم فى كل لحظة يقضونها متألين رعبهم مما ينظرونه من آلام مقبلة ، ومن مشاهدة ما يلاقه أحباؤهم المذنبون من هول العذاب ، ويأسهم من النجاة ، أو من السماح لهم بالفناء (٢١) . وأوضح جريجورى بطريقة أقل إرهاباً من هذه الطريقة قول أوغسطين عن المطهر الذى يتم فيه الموتى التكفير عن ذنوبهم التى عفا الله عنها . وهنا يفعل جريجورى ما يفعله أوغسطين فيطمئن أولئك الذين روعهم بتذكيرهم بنعمة الله وفضله ، وشفاعة القديسين وثمار تضحية المسيح بنفسه ، وما للقاء الربانى من قوة خفية عجيبة فى نجاتهم ، وهى قوة فى متناول جميع التائبين المسيحيين .

ولعل تعاليم جريجورى الدينية تنعكس عليها صحته المعتلة كما تنعكس عليها هوى زمانه : فأما صحته المعتلة فقد كتب عنها فى عام ٥٩٩ يقول « قضبت أحد

عشر شهراً قلماً غادرت فيها فراشى ، ينتابنى فيها النقرس والقلق المؤلم . . . إلى حد صرت أرجو معه النجاة منه بالموت ، وكتب فى عام ٦٠٠ مرة أخرى : « أنا الآن ملازم للفراش منذ عامين ، وقد اشتدبى الألم إلى حد أكاد أعجز معه عن مغادرة سريرى مدة ثلاث ساعات أحتفل فيها بالقداس . وأنا أحس فى كل يوم بأننى على حافة القبر وأنى فى كل يوم أرد عنه » . وكتب فى عام ٦٠١ : « لقد مضى زمن طويل لم أغادر فيه الفراش ، وما أعظم اشتياقى إلى الموت » (٢٢) . وجاءه الموت فى عام ٦٠٤ .

لقد كان جريجورى المسيطر على أواخر القرن السادس ، كما كان جستنيان المسيطر على بدايته ، وكان له فى هذه الحقبة أثر فى الدين لا يعلو عنه إلا أثر النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) . ولم يكن جريجورى من رجال العلم ولا من المتبحرين فى الدين . ولكن هذه البساطة هى التى جعلت له فى عقول الناس أثراً أعظم من أثر أوغسطين الذى كان يهتدى بهديه فى تواضع فائن جلداب . أما من حيث الناحية العقلية فقد كان أول من تمثلت فيها عقلية العصور الوسطى أصدق تمثيل (٢٣) ، فبينما كانت يده تدبر شئون إمبراطورية مشتتة ، كان تفكيره منصرفاً إلى فساد الطبيعة البشرية وغواية الشياطين التى لا يخلو منها مكان على ظهر الأرض ، وإلى نهاية العالم القريبة . وكان يخطب خطباً قوية فى تلك العقائد الدينية المرحبة التى ظلت تغشى عقول الناس قروناً عدة ، وكان يؤمن بجميع المعجزات الواردة فى القصص الشعبية الخرافية ، وبكل ما يعزى لمخلفات القديسين ، وصورهم ، وأورادهم من تأثير سحرى ؛ ويعيش فى عالم ملء بالملائكة ، والشياطين ، والسحرة والأشباح ؛ وتجرد عقله من كل معنى يشعر بأن للعالم نظاماً قائماً على أساس العقل ، وكان العلم فى رأيه مستحيل الوجود فى الكون ، وكان الدين الرهيب هو وحده الذى بقى فيه . وقد ارتضت القرون السبعة التى جاءت بعد هذه النظرية ، وحاول الفلاسفة المندسبون جهدهم أن يصوروها بصورة

تتفق مع العقل ، وكانت هي الأساس الموثس الذى بنيت عليه السلطة الرهيبة .
ولكن هذا الرجل بعينه الذى يؤمن بالخرافات ويبادر إلى تصديقها ،
والذى حطمت جسمه تقواه المرعبة الرهيبة ، هذا الرجل كان فى قوة إرادته
وفى قدرته على العمل رومانياً من الطراز القديم ، لا يثنى عن قصده ،
صارماً فى أحكامه ، حازماً ، عملياً ، محباً للنظام وإطاعة القانون ، وضع
للأديرة قانوناً ، كما وهبها بندقية حكماً ، أقام سلطة البابوية الزمنية ،
وحررها من سلطان الإمبراطورية ، وصرف شئونها بحكمة واستقامة جعلنا
الناس يرون فيها ملاذاً يهرعون إليه فى العصور العاصفة المقبلة . وقد اعترف
بفضله وقتلته من جاء بعده من البابوات ولقبه الخلف المعجب به
« جريجورى العظيم » .

الفصل الثالث

الشؤون السياسية للبابوية ٦٠٤ - ٨٦٧

ووجد البابوات الأولون الذين جاءوا بعده أن من أشق الأمور عليهم أن يستمسكوا بكل ما كان يستمسك به من أهداب الفضيلة ، أو يحتفظوا بكل ما كان له من سلطان ؛ بل ارتضت الكثرة الغالبة منهم أن تخضع لسلطان حكام الولايات أو للإمبراطور ، وكثيراً ما لاقوا المهانة وهم يحاولون. أن يقاوموا هذا السلطان . وكان الإمبراطور هرقل Heraclius يتوق إلى توحيد إمبراطوريته التي أنقلها من أعدائه الفرس ، فسعى إلى التوفيق بين الشرق ذى المذهب يعقوبى - القائل بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة ، - وبين الغرب المتمسك بمبادئ الكثلركة الأساسية والقائل بأن للمسيح طبيعتين . ومن أجل هذا أصدر فى عام ٦٣٨ منشوراً يعرض فيه التوفيق بين المذهبين بالاعتقاد بأن للمسيح مشيئة واحدة وطبيعة واحدة . ووافق البابا هونوريوس Honorius الأول على هذا الاقتراح وأضاف إلى ذلك قوله إن مسألة الإرادة الواحدة أو الإرادتين « مسألة أتركها للتحوين لأنها من المسائل القليلة الخطر » (٢٤) . ولكن رجال الدين فى الغرب نددوا بموقفه هذا ؛ ولما أصدر الإمبراطور كنستانس Constans الثانى منشوراً (٦٤٨) يبدى فيه ميله إلى هذا المذهب رفضه البابا مارتن Martin الأول ، فأمر الإمبراطور حاكم رافنا أن يتبض على البابا ويأتى به إلى القسطنطينية ؛ ولما لم يذعن البابا لرغبة الإمبراطور نفي إلى شبه جزيرة القرم ، وبقي بها إلى أن مات فى عام ٦٥٥ . ورفض المجلس المسكونى السادس الذى اجتمع فى القسطنطينية عام ٦٨٠ المذهب الجديد وحكم على البابا هونوريوس بأنه يحجب الخارجين على الدين (٢٥) ، ووافقت الكنيسة الشرقية التي آلمها استيلاء المسلمين على بلاد الشام

ومصر التي تدين بمذهب اليعقوبيين ، على هذا الحكم ، وخفقت راية السلام الدينية لحظة وجيزة في سماء الشرق والغرب جميعاً .

ولكن لإذلال البابوية المتكرر على أيدي أباطرة الشرق ، وما حل بيزنطية من الضعف بسبب اتساع أملاك المسلمين في آسية وأفريقية وأسبانيا ، وسيطرة المسلمين على البحر المتوسط ، وعجز القسطنطينية أوراقتنا عن أن نحصى الولايات البابوية بإيطاليا من هجمات اللمبارد ، كل هذا اضطر البابوية إلى أن تدير ظهرها إلى الإمبراطورية المتداعية وتطلب معونة دولة الفرنجة الآخذة في النماء والقوة . وخشى البابا استيفن الثاني (٧٥٢ - ٧٥٧) أن يستولى اللمبارد على رومة فيحط ذلك من شأن البابوية ويجعلها مجرد أسقفية محلية يسيطر عليها ملوك اللمبارد ، فاستغاث بالإمبراطور قسطنطين الخامس ، ولكن الإمبراطور لم يغيثه ، فولى البابا وجهه شطر الفرنجة ، وأسفرت هذه الحركة عن نتائج سياسة غاية في الخطر . فقد لبي بيپين القصير نداه ، وأخضع اللمبارد ، ونفخ البابوية « بهبة بيپين » التي أغنتها إذ منحها جميع إيطاليا الوسطى (٧٥٦) ، وبفضلها قامت سلطة البابوات الزمنية . وبلغت هذه السياسة البابوية ذروتها حين وضع ليو الثالث التاج على رأس شارلمان ، ولم يعد يعترف لشخص ما أنه إمبراطور على الغرب إلا إذا مسحه أحد البابوات . وهكذا أضحت أسقفية جريغورى الأول التي لا حول لها ولا طول من أعظم الدول في أوروبا . ولما مات شارلمان (٨١٤) ، انقلبت عطية الفرنجة للكنيسة ظهراً لبطن ، فأخضع رجال الدين في فرنسا ملوكها شيئاً فشيئاً لسلطانهم ، وبينما كانت إمبراطورية شارلمان تتدهور كان نفوذ البابوية وسلطانها يتزايدان .

وكان الأساقفة في يادى الأمر أكثر الناس إفادة من ضعف الملوك الفرنسيين والألمان ومنازعهم . ذلك أن رؤساء الأساقفة تحالفوا مع الملوك في ألمانيا ، فنالوا بفضل هذا التحالف أملاكاً واسعة ، وجعل الأساقفة والتساروة على ساطات

إقطاعية كادوا يستقبلون بها عن البابوات . ويلوح أن غضب الأساقفة
الألمان واستياءهم من استبداد رؤسائهم كان هو منشأ « الأحكام البابوية
الكاذبة » ، وهي مجموعة الأحكام التي قوت فيما بعد سلطان البابوية ،
والتي كانت تهدف في بادئ الأمر إلى تقرير حق الأساقفة في أن يستأنفوا
أحكام مطارنتهم إلى البابوات أنفسهم . ولسنا نعرف متى صدرت هذه
الأحكام ولا أين صدرت ، ولكن أغلب الظن أنها جمعت في مدينة متر
عام ٨٤٢ . وكان واضعها قس فرنسي تسمى باسم لزدورس مركاتور
Isidorus Mercator . وكانت هذه المجموعة غاية في البراعة تشمل بالإضافة
إلى طائفة كبيرة من القرارات الموثوق بها الصادرة من المجالس الدينية
أو البابوات ، عدداً من المراسيم والخطابات تعزوها إلى البابوات مبتدئة من
كلمت الأول (٩١ - ١٠٠) إلى ملخيادس Melchiades (٣١١ -
٣١٤) . وكان الغرض الذي تهدف إليه هذه الوثائق أن ما جرت عليه
الكنيسة من تقاليد وعادات قديمة تقضى بالآيخلع أى أسقف من منصبه ،
وآلا يدعى أى مجلس من مجالس الكنيسة إلى الاجتماع ، وآلا يفصل في
أية مسألة من المسائل الكبرى ، إلا بعد موافقة البابا . وتدل هذه الشواهد
على أن البابوات جميعاً ، حتى الأولين منهم ، كانوا يدعون أنهم أصحاب
السلطان العالمى المطلق بوصفهم خلفاء المسيح في الأرض . وكان البابا
سلفستر الأول (٣٢٤ - ٣٣٥) يوصف في هذه الأحكام بأنه قد
أصبحت له بمقتضى « هبة قسطنطين » السلطة الزمنية والدينية
الكاملتين على جميع أوربا الغربية ، وأن « هبة بيبين » بناء على هذا
لم تكن إلا استرداداً أعرج لحق مختلس ، وبدا أن خروج البابا عن سيادة
بزنطية بتتويجه شارلمان لم يكن إلا تقريراً مرتقباً من زمن بعيد لحق يرجع
في أصله إلى مؤسس الإمبراطورية الشرقية نفسه . ومما يؤسف له أن
كثيراً من الوثائق المزورة تنقل نصوصاً من ترجمة القديس جيروم للكتاب المقدس .
ومن المعروف أن جيروم قد ولد بعد ستة وعشرين عاماً من وفاة ملخيادس .

ولقد كان في وسع كل من أوتي قدراً من العلم أن يكشف عن هذا التزوير ، ولكن البحث العلمي كان قد انحط كثيراً خلال القرنين التاسع والعاشر ، وكان مجرد القول بأن كثرة الادعاءات التي تعزوها هذه الأحكام البابوية إلى أساقفة رومة الأولين قد صدرت من هذا البابا أو ذاك من البابوات المتأخرين ، كان هذا القول وحده كافياً لإضعاف حجة النقاد ، ولهذا ظل البابوات ثمانية قرون كاملة يفترضون صحة هذه الوثائق ويستخدمونها لتوطيد أركان سياستهم (*) .

وكان من المصادفات الطيبة أن كان ظهور « الأحكام الكاذبة » قبيل انتخاب شخصية من أعظم الشخصيات شأناً في تاريخ البابوية ، تلك هي شخصية نقولاس Nicholas الأول (٨٥٨ — ٨٦٧) وكان نقولاس قد تلقى تعليماً عالياً فلما في قانون الكنيسة وتقاليدها ، وتدرّب على مهام منصبه السامي بأن كان مساعداً محبوباً لطائفة من البابوات . وكان يضارع جريجوري الأول والثاني العظميين في قوة الإرادة ، ويفوقها في سعة مطامعه ونجاحه الوصول إليها . وقد أقام منطقة على قضيتين يقبلهما وقتئذ جميع المسيحيين : وهما أن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها ، وأن أساقفة رومة ورثوا سلطات بطرس واحداً بعد واحد في تسلسل متصل ، ثم استنتج من هاتين القضيتين استنتاجاً يقبله العقل وهو أن البابا ، ممثل الله على ظهر الأرض ، يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين — حكاماً كانوا أو محكومين — في شئون الدين والأخلاق إن لم تكن في جميع الشئون . ونشر نقولاس بفصاحته هذه الحجة السهلة ، ولم يجرؤ أحد في البلاد المسيحية اللاتينية على معارضتها ، وكل ما كان يرجوه الملوك ورؤساء الأساقفة ألا يحملها حمل الجلد أكثر مما يجب .

لكنه خيب رجاءهم : ذلك أنه لما أراد لوثير الثاني ملك لورين أن يطلق

(*) ولقد كشف لورنزوفلا في عام ١٤٤٠ ، بما لا يترك مجالاً للشك ، عما في هذه الأحكام الكاذبة من تزوير ، ولهذا فإن جميع الطوائف مجمعة في هذه الأيام على أن هذه الوثائق التي كانت مثاراً للجدل ووثائق مزورة (٢٦)

زوجته ثيوثيرجا Theutherga ويتزوج عشيقته ولدرادا حقق الرؤساء الدينيون مملكته رغبته ، فلجأت ثيوثيرجا إلى البابا نقولاس ، وأرسل البابا مبعوثيه إلى منز لينظروا في الأمر . ونفخ لوثير أولئك المبعوثين برشا سخية ليؤيدوا الطلاق ، وحمل كبير أساقفة تريير وكولوني هذا القرار إلى البابا ؛ ولكن نقولاس كشف ما فيه من تدليس ، وأصدر قراراً بحرمان كبيرى الأساقفة ، وأمر لوثير أن يطرد عشيقته ويعيد زوجته إلى عصمته ؛ فعصى لوثير الأمر وزحف على رومة بجيشه . وأقام نقولاس ثمانى وأربعين ساعة صائماً مصلياً ، وخانت لوثير على أثرها شجاعته فخضع لأوامر البابا .

وحدث أن هنكار كبير أساقفة ريمس وأعظم الرؤساء الدينيين في أوريا اللاتينية بعد البابا وحده عزل أسقفاً يدعى راثراد Ratherad من منصبه ، فلجأ الأسقف إل نقولاس (٨٦٣) ، فأعاد البابا النظر في قضيته ، وأمر بإعادة راثراد إلى منصبه ، ولما تردد هنكار في تنفيذ حكم البابا هدده بأن يصدر قرار بالحرمان على جميع أبرشيته ، وهو قرار يقضى بوقف الصلوات في جميع كنائسها . واستشاط هنكار غضباً ، ولكنه خضع . وكان نقولاس يكتب للملوك ولرجال الدين كأنه صاحب السلطان الأعلى ، ولم يجرؤ أحد على معارضته إلا فوتيوس بطريق القسطنطينية . وقد ثبت من التطورات المقبلة أن الأحكام التي أصدرها البابا كانت كلها تقريباً في جانب العدالة ، وأن دفاعه الصارم عن الأخلاق الفاضلة كان هو السراج الواج الذى أثار دياجير الظلام والملجأ الحصين في ذلك العصر المنحل ، وكانت سلطة البابوية عند وفاته معترفاً بها في أقاليم أوسع رقعة من التي كان يعترف بها فيها قبل أن يتولى شئونها .

الفصل الرابع

الكنيسة اليونانية : ٥٦٦ - ٨٩٨

لم يكن في وسع بطارقة الكنيسة الشرقية أن يعترفوا بهذا السلطان الأعلى لأسقف رومة لسبب واضح هو أنهم كانوا من زمن بعيد خاضعين لأباطرة الروم ، وأن هؤلاء الأباطرة لم ينزلوا حتى عام ٨٧١ عن دعوهم بأن لهم السيادة على رومة ومن فيها من البابوات . لقد كان البابوات من حين إلى حين يوجهون النقد إلى الأباطرة ، ويعصون أوامرهم ، بل ويشهرون بهم ؛ ولكن الأباطرة هم الذين كانوا يعينونهم في مناصبهم ، ويخرجونهم منها ، ويدعون المجالس الكنسية إلى الانعقاد ، وينظمون شئون الكنيسة بقوانين تسنها الدولة ، وينشرون آراءهم وتوجيهاتهم الدينية على رجال الدين . ولم يكن ثمة ما يحد من سلطان الأباطرة الديني المطلق في العالم المسيحي الشرقي إلا سلطان الرهبان ، ولسان البطريق ، واليمين التي يقسمها الإمبراطور حين يتوجه البطريق بأن لا يتدخل بدعة ما في الكنيسة .

وكانت أديرة الرهبان والراهبات منتشرة وقتئذ في القسطنطينية - بل في بلاد الشرق اليونانية على بكرة أبيها . وكان عدد هذه الأديرة في القسطنطينية وحدها يفوق عددها في الغرب ، حتى لقد استحوذت نزعة التنسك على بعض أباطرة بزنطية أنفسهم ، فكانوا يعيشون معيشة الزهاد بين ترف القصور ، ويستمعون في كل يوم إلى القداس ، ويتقشفون في طعامهم ، ويندمون على خطاياهم كلما اقترفوها . وكانت تقوى الأباطرة والأثرياء حين يموتون سبباً في اتساع الأديرة وكثرة عددها بما كان يهبه هؤلاء وأولئك لها من الهبات في أثناء حياتهم ويوصون لها به من المال بعد وفاتهم . وكان الرجال والنساء من أعلى

الطبقات إذا ما أخافتهم نذر الموت يسعون لدخول الأديرة ، ويسترضون ربهم بما يهبونها من الأموال التي تعفى بعدئذ من الضرائب ، ومنهم من كانوا يعطون بعض أملاكهم لدير من الأديرة على أن يتقاضوا منه في نظير ذلك مرتباً سنوياً . وكانت أديرة كثيرة تدعى أن بها مخلفات لبعض القديسين الأجلاء ، وكان الناس يعزون إلى الرهبان السيطرة على ما لهذه المخلفات من قدرة على فعل المعجزات ، ويقدمون إليهم المال راجين أن ينالوا من وراء استثماره لديهم أرباحاً طائلة لا يصدقها العقل . وقد شوه عدد قليل من الرهبان دينهم بكسلهم ، وفسقهم ، وتخزيهم ، وشرهم ، وإن كانت كثرتهم قد تمسكت بأهداب الفضيلة والسلام . وكان الرهبان جميعهم ينالون احترام الشعب ، ويستمتعون بالثراء المادى ، بل يستمتعون أيضاً بنفوذ سياسى لم يكن يسع إمبراطوراً ما أن يتجاهله . وكان ثيودور (٧٥٩ - ٨٢٦) رئيس دير استوديون Studion فى القسطنطينية مثلاً أعلى فى التقى والسلطان . وكانت أمه قد وهبته فى طفولته إلى الكنيسة ، فتطعم بجميع الطبايع المسيحية إلى حد جعله يهين والدته أثناء مرضها الأخير باقتراب منيتها ومجدها . وقد وضع لرهبانه قانوناً للعمل ، والصلاة ، والعفاف ، وتنمية مواهبهم العقلية لا يقل شأناً عن قانون القديس بندكت فى الغرب ، ودافع عن استعمال الصور الدينية ، وأنكر أمام الإمبراطور ليو الخامس بمنتهى الجراءة أن من حق السلطة الزمنية أن تتدخل بأية صورة فى الشئون الكنسية . وقد نفى أربع مرات لعناده هذا ولكنه ظل فى منفاه يقاوم محطى الصور الدينية إلى يوم وفاته .

وأخذت الهوة بين المسيحية اللاتينية واليونانية تزداد بسبب ما كان بين المذهبين فى هذه القرون من اختلاف فى اللغة والطقوس والعقائد ، وكان مثلهما فى هذا كمثل جنس من أجناس الكائنات الحية انقسم فى المكان وتنوع على توالى الأيام . فقد كانت الطقوس ، والأثواب الكهنوتية ، والآتية ، والزخارف المقدسة فى الكنيسة اليونانية أشد تعقيداً ، وأكثر زخرفاً ، وأعظم عناية بالناحية الفنية من

مبيلاتهما في الغرب . فكان ذراعا الصليب اليوناني مثلاً متساويتين ، وكان اليونان يصلون وهم وقوف ، أما اللاتين فكانوا يصلون راكعين ، وكان اليونان يعمدون أطفالهم بأن يغمرهم في الماء المقدس ، أما اللاتين فكانوا يرشون الماء عليهم ، وكان الزواج محرماً على القساوسة اللاتين ومباحاً للقساوسة اليونان ، وكان القسيسون اللاتين يخلقون لحاهم ، أما اليونان فكانوا يرسلونها لإرسالاً يخلع عليهم مظهر التفكير ، وتخصص رجال الدين اللاتين في الشؤون السياسية ، أما اليونان فتخصصوا في أمور الدين ، وكانت الزندقة تنشأ على الدوام تقريباً في بلاد الشرق الذي ورث عن اليونان شغفهم بتحديد ما لا حده له ، ولقد نشأت بأرمينية حوالي عام ٦٦٠ من مبادئ الإلحاد الغنوسية التي نادى بها بردسانس Bardesanes في بلاد الشام ، ومن اتجاه الحركة المانوية نحو الغرب على ما يظن ، شيعة من البوليسيين Paulicians اشتق اسمها من اسم القديس بولس ، لا تؤمن بالعهد القديم ، ولا بالعشاء الرباني ، ولا تقول بتعظيم الصور المقدسة ولا بمرمية الصليب . وانتقلت هذه الطوائف وهذه النظريات كما تنتقل بدور النبات من بلاد الشرق الأدنى إلى البلقان ، وإيطاليا ، وفرنسا . وصبرت صبر أولى العزم على أقصى أنواع الاضطهاد ، ولا تزال بقاياها موجودة إلى الآن في طوائف الملخاني Molokhani ، والخليستي Khlysti ، والدخوبور Dukhobors .

وكان الأباطرة أشد من الشعب إثارة للجدل القائم حول طبيعة المسيح الواحدة ، وما من شك في أن الشعب لم يكن هو المسئول عن العبارة التي أدخلت على العقائد النيقية في طيلطة عام ٥٨٩ ، والتي تقول إن الروح القدس ينبعث من الابن كما ينبعث من الأب ، والتي لم تقبلها الكنيسة اليونانية . وزادت الهوة بين الكنيستين . لقد كانت العقيدة النيقية تتحدث عن « الروح القدس الذي ينبعث من الأب » ، ex patre procedit وظل هذا القول كافياً مدى ٢٥٠ عاماً ؛

ثم حدث في عام ٥٨٩ أن غيره مجلس من مجالس الكنيسة عقد في طليطلة فجعله *ex patri illioque procedit* أى المنبعثة من الأب والابن . وارتضت غالة هذه الإضافة ، واعتنقها شارلمان وعض عليها بالنواجذ . واحتج رجال الدين اليونان وقالوا إن الروح القدس لا ينبعث من الابن بل ينبعث عن طريقه . ووقف البابوات بين هؤلاء وأولئك إلى حين ، ولم تدخل هذه العقيدة رسمياً في المذهب اللاتيني إلا في القرن الحادى عشر .

وقام في هذه الأثناء كفاح بين الإرادات أضيف إلى الكفاح بين الآراء ، فقد كان من بين الرهبان الذين فروا من وجه عطشى الأصنام راهب يدعى إجناتيوس Ignatius ابن الإمبراطور ميخائيل الأول . واستدعت الإمبراطورة ثيودورا هذا الراهب في عام ٨٤٠ وعينته بطريقاً . وكان رجلاً تقياً شجاعاً ، شنع على قيصر بارداس Caesar Bardas رئيس الوزراء لأنه طلق زوجته وعاشر أرملة ابنه ، ولما أصر بارداس على معاشرة أرملة ابنه المحرمة عليه طرده إجناتيوس من الكنيسة ، فما كان من بارداس إلا أن نفي إجناتيوس ، ورفع إلى عرش البطريرقية أعظم علماء ذلك العصر وأكثرهم تهدياً (٨٥٥) . كان فوتيوس (٩٨٢٠ - ٨٩١) يتقن علوم اللغة ، والخطابة ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، وكانت محاضراته التى يلقيها في جامعة القسطنطينية قد اجتذبت إليه طائفة من الطلاب المخلصين المتحمسين فتح لإلهم مكتبته وبيته . وكان قبل أن يرقى إلى مقام البطريرقية قد تم موسوعة في مائتين وثمانين باباً استعرض في كل واحد منها أحد الكتب المهمة ونقل نماذج منه . وبفضل هذه الموسوعة الضخمة بقيت لنا فقرات كثيرة من الآداب القديمة ، وارتفع فوتيوس بفضل هذه الثقافة الواسعة فوق نعصب الشعب ، الذى عجز عن أن يفهم السر في بقاءه مرتبطاً برباط الود

والصدقة مع أمير كريت . واستاء رجال الدين في القسطنطينية حين رأوه يرتفع فجأة من بين العلمانيين إلى مقام البطريكية ، وأرسل نقولاس الأول مبعوثيه إلى القسطنطينية لينظروا في الأمر ، وقرر في رسالته إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث وإلى فوتيوس المبدأ القائل بأن أية مسألة خطيرة من المسائل الكنسية لا يصح أن يفصل فيها في أى مكان من غير موافقة البابا . وعقد الإمبراطور مجلساً كنسياً أقر تعيين فوتيوس ، وانضم مبعوثو البابا إلى المويدين ؛ فلما عادوا إلى رومة أنكروا عليهم نقولاس عملهم واتهمهم بأنهم قد خرجوا على التعليمات التي وجهها إليهم ، وأمر الإمبراطور بأن يعيد إجناتيوس إلى منصبه ، فلما تجاهل الإمبراطور هذا الأمر أصدر قراراً بحرمان فوتيوس (٨٦٣) . وهدد بارداس بأنه سوف يبعث جيشاً ليخلع نقولاس ؛ ورد عليه نقولاس رداً بليغاً سخر فيه منه وأشار إلى خضوع الإمبراطور للمغيرين على أملاكه من الصقالبة والمسلمين :

« إنا نحن لم نغز كريت ، ولم نقفر نحن صقلية من أهلها ، ولم نخضع نحن بلاد اليونان ، ولم تحرق الكنائس في ضواحي القسطنطينية ؛ وبيننا يفتح هؤلاء الوثنيون (أملاكك) ويحرقونها ، ويخربونها ، تبعث إلينا أيها المغتر تهددنا بهول جيوشك . إنك تطلق بارباس Barabbas وتقتل المسيح (٢٧) » : ودعا فوتيوس والإمبراطور مجلساً كنسياً آخر إلى الانعقاد ، وأصدر هذا المجلس قراراً بحرمان البابا (٨٦٧) وشنع على « إلحاد » الكنيسة الرومانية ، ومن بينها انبعاث الروح القدس من الأب و الابن ، وحلق القساوسة للحاهم ، وتحريم الزواج على رجال الدين . وأضاف فوتيوس إلى هذا قوله : « ولقد أصبحنا بفضل هذه العادات نرى في الغرب كثيرين من الأطفال لا يعرفون آباءهم » .

وبينا كان الرسل اليونان يحملون هذا الهزل إلى رومة إذ تبدل الموقف فجأة (٨٦٧) يجلس بازيل الأول على عرش الإمبراطورية . وكان بازيل قد قتل قيصر بارداس ، وأشرف على اغتيال ميخائيل الثالث . ونادى فوتيوس أن

الإمبراطور الجديد قاتل سفاح ، ورفض أن يمنحه العشاء الرباني . ورد عليه
بازيل بأن دعا مجلساً كنسياً إلى الانعقاد ، ونفى فوتيوس . وأعاد
إجناثيوس ؛ ولما مات إجناثيوس بعد ذلك بقليل ، استدعى بازيل فوتيوس ؛
وأعاده مجلس كنسى إلى مقام البطريرقية ، ووافق البابا يوحنا السابع على هذا
القرار (وكان نقولاس الأول قد مات) . وبهذا تأجل إلى حين انشقاق
الكنيستين الشرقية والغربية إحداهما عن الأخرى بموت بطريرك هذا الانشقاق .

الفصل الخامس

المسيحية تغزو أوروبا (٥٢٩ - ١٠٥٤)

لم يكن أجل الحوادث في التاريخ الديني لهذه العصور وأعظمها خطراً هو النزاع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية ، بل كان هو ظهور الإسلام وتحديه للمسيحية في الشرق والغرب على السواء . ذلك أنه لم يكد دين المسيح يجنى ثمار انتصاراته على الامبراطورية الوثنية وعلى الشيع المسيحية الملحدة حتى انتزعت منه أعظم ولاياته عزة على الدين واستمساكاً به ، انتزعها منه في يسر مروع دين يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية والمبادئ الأخلاقية المسيحية(*) . نعم إن البطارقة ظلوا في كراسيهم بأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية بفضل تسامح المسلمين ؛ ولكن مجد المسيحية قد زال من تلك الأقاليم ، وكانت المسيحية الباقية فيها مسيحية مارقة قومية . فقد أقامت أرمينية ، والشام ، ومصر سلطات كهنوتية مستقلة تمام الاستقلال عن القسطنطينية ورومة . واحتفظت بلاد اليونان بدينها المسيحي لأن الرهبان قد انتصروا فيها على الفلاسفة ، وكان الدير العظيم دير لاثرا المقدس الذي أقيم على جبل آثوس Mt. Athos في عام ٩٦١ يضارع في عظمته الهارثونون بعد أن استحال كنيسة مسيحية . وكان لا يزال بأفريقية في القرن التاسع الميلادي عدد كبير من المسيحيين ، ولكنهم كانوا يتناقصون تناقصاً سريعاً تحت حكم المسلمين . أما أسبانيا فقد كان الجزء الأكبر منها في عام ٧١١ قد خرج من أيدي المسلمين ، ذلك أن المسيحية ولت وجهها نحو الشمال بعد هزيمتها في آسية وأفريقية وواصلت فتوحها في أوروبا .

(*) في هذا القول كثير من المغالاة فالإسلام لا يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية ولا المبادئ الأخلاقية المسيحية وإن خالفها في بعض مبادئها وحسبنا دليلاً على هذا قول الله سبحانه وتعالى عليه : « وجادلهم بالتي هي أحسن » . (المترجم)

وأوشكت إيطاليا أن تقع في أيدي المسلمين ، ولكنها بعد أن أفلتت منهم انقسمت بين المذهبين المسيحيين اليوناني واللاتيني ، وكاد دير مونتى كسينو يقوم على الحد الفاصل بين المذهبين ، وقد بلغت شهرة هذا الدير غايتها تحت حكم رئيسه دزيدورس (١٠٥٨ — ١٠٨٧) . فقد جاء إليه من القسطنطينية بيايين فخمين من البرنز ، ثم لم يكتف بهذا فجاء إليه أيضاً بصناع ، زينوا داخله بالفسيفساء والميناء ، والزخارف في المعادن والعاج والخشب . وكاد الدير يصبح جامعة علمية تدرس مناهج في النحو والآداب اليونانية والرومانية القديمة ، والآداب المسيحية واللاهوت ، والطب ، والقانون . وأخرج الرهبان مخطوطات مزخرفة غاية في الإبداع على غرار النماذج البيزنطية ، ونسخوا بخطهم الجميل كتب رومة الوثنية القديمة ، ومنها طائفة يرجع الفضل في بقائها حتى الآن إلى عمل هؤلاء الرهبان . وفي رومة لم تشأ الكنيسة في عهد البابا بنيفاس الرابع وخلفائه أن تظل الهياكل الوثنية آخذة في التهدم والانحلال بل شرعت تعيد بقاءها ليستخدمها المسيحيون ويعنوا بها ، فدشن الباثنيون لمريم العذراء ولجميع القديسين (٦٠٩) ، واستحال هيكل يانوس كنيسة للقديس ديونيشيوس ، وهيكل زحل (ساترن) كنيسة المختص . وجدد ليو الرابع (٨٤٧ — ٨٥٥) كنيسة القديس بطرس وزينها ، وبفضل ازدياد سلطان البابوية ، ومجيء الحجاج إلى تلك المباني ، تمت حولها ضاحية من مختلف الأجناس واللغات اشتق اسمها من اسم تل الفاتيكان القديم .

وكانت فرنسا وقتئذ أغنى البلاد التابعة للكنيسة اللاتينية . ذلك أن ملوك الأسرة المرونية لم يكونوا يرتابون في قدرتهم على ابتياع ملكوت السموات بعد أن يستمتعوا بتعدد الزوجات وتقتيل الخصوم ، فأخذوا يهبون الأسقفيات الكثير من الأراضي والأموال . وكانت الكنيسة في فرنسا كما كانت في غيرها من البلدان تتلقى الوصايا من الكبراء التائبين والوارثات العابدات الصالحات ، ولما حرم

شلبريك Chilperic هذه الهبات ألغى جنثرام Gunthram أمر التحريم بعد قليل . وكان من تخريبات التاريخ أن رجال الدين في غالة كانوا كلهم تقريباً من العنصر الغالى الرومانى ، وبهذا كان الفرنجة الذين اعتنقوا الدين المسيحى يخرجون سجداً تحت أقدام من فتحوا هم بلادهم ويردون إليهم بالهبات ما نهبه منهم فى الحروب (٢٨) . وكان رجال الدين أعظم العناصر قدرة فى غالة ، وأحسنهم تعليماً ، وأقلهم فساداً فى الأخلاق ، وكادت معرفة القراءة والكتابة أن تكون محصورة فيهم وحدهم ، وكانت الكثرة الغالبة منهم تجد صداقة مخلصه فى تعليم الشعب الذى كان يعانى الأمرين من شره كبرائه وملوكه ، وفى تقويم أخلاقه ، وإن كانت من بينهم أقلية صغيرة انغمست فى الرذيلة . وكان للأساقفة القسط الأكبر من السلطة الزمنية والدينية فى أبرشياتهم ، وكانت عما كهم الملجأ المفضل للمتقاضين فى الشؤون الدينية وغير الدينية أيضاً . وكانوا أينما وجدوا يبسطون حمايتهم على اليتامى ، والأرامل ، والمعلمين ، والأرقاء ، وكانت الكنائس تنشى المستشفيات فى كثير من الأبرشيات ، ومنها hotel de Dieu — « نزل الله » — الذى افتتح فى باريس عام ٦٥١ . وقد اشتهر سان جرمان St. Germain ، أسقف باريس فى النصف الثانى من القرن السادس فى جميع أنحاء أوربا بما بذله من الجهود فى جمع الأموال — وإنفاق ماله الخاص — لتحرير العبيد . وقوى سيدونيوس أسقف مينز جسر الرين . وهذب فليكس أسقف نانت مجرى اللوار ، وأنشأ ديديه Didier أسقف كاهور Cahor قنوات لنقل مياه الشرب ، وكان سان أجوبار St. Agobard (٧٧٩ — ٨٤٠) كبير أساقفة ليون نموذجاً صالحاً فى التدين ، وعدوا لدوداً للخرافات ، حرم المحاكاة بالمباراة أو التحكيم الإلهى ، كما حرم عبادة الصبور ، وتفسير الزواج على أنها من أعمال السحر ، وكشف عما فى محاكمة الساحرات من أخطاء فكان بهذا « أكثر رؤوس ذلك الوقت صفاء » (٢٩) . وكان هنكار الأرسقراطى كبير أساقفة ريمس (٨٤٥ — ٨٨٢) رئيساً لنحو (٢٤ — ج ٣ — مجلد ٤)

عشرين من المجالس الكنسية ، وقد ألف ستة وستين كتاباً ، وكان رئيس وزراء شارل الأصغر ، وكاد ينشئ حكومة دينية في فرنسا .

وانصفت المسيحية في كل بلد بصفات أهله القومية ، فأصبحت في أيرلندة صوفية ، عاطفية ، فردية النزعة ، انفعالية ؛ أدخلت فيها الجنيات ، والشعر ، وخیال الكلت العجيب الرقيق ؛ وورث القساوسة قوى الدرويد السحرية ، وأساطير الشعراء الغنائيين ، وكان النظام القبلي في البلاد مساعداً على تفكك الكنيسة — حتى كادت كل جهة فيها يكون لها « أسقف » مستقل . وكان الرهبان فيها أكثر عدداً وأعظم نفوذاً من الأساقفة والقساوسة ، وكان أولئك الرهبان يعيشون جماعات قلما تزيد الواحدة منها على اثني عشر راهباً يقيمون في أديرة شبه منزلة ، معظمها مستقلة بشئونها ومنتشرة في أنحاء الجزيرة ، تعترف للبابا برياسة الكنيسة ، ولكنها لا تخضع لإشراف خارجي من أى نوع كان . وكان الرهبان الأسبقون يعيشون في صوامع منفصلة ، ويعمدون إلى التنسك والزهد ، ولا يجتمعون إلا في أوقات الصلاة . وجاء بعدهم جيل آخر — « الطبقة الثانية من القديسين الأيرلنديين » — خرجوا على هذه التقاليد المصرية ، فكانوا يدرسون مجتمعين ويتعلمون اللغة اليونانية ، وينسخون المخطوطات ، وينشئون المدارس لرجال الدين وغير رجال الدين . وتخرج في المدارس الأيرلندية في القرنين السادس والسابع عدد متتابع من جبابرة القديسين الذائع الصيت انتقلوا منها إلى اسكتلندة ، وانجلترا ، وغالة ، وألمانيا ، وإيطاليا ، ليعلموا فيها المسيحية المظلمة ويعيدوا إليها الحياة . وقد كتب أحد الفرنجة في عام ٨٥٠ يقول : « تكاد أيرلندة كلها تهرع جماعات إلى سواحلنا ومعها حشد من الفلاسفة » (٣٠) . وهكذا انعكست الآية واسترِدَّ الدين ، فبعد أن طردت غارات الألمان على غالة وبريطانيا العلماء من هذين البلدين إلى أيرلندة ، أخذ المبشرون الأيرلنديون بلقون بأنفسهم على فاتحن إنجلترا الوثنيين من الإنجليز والسكسون ،

والترويجيين ، والدنمركيين ، وعلى المسيحيين الأميين نصف الهمج في غالة وألمانيا ، يحملون الكتاب المقدس بلحدي يديهم والمخطوطات اليونانية والرومانية القديمة باليد الأخرى ، ولاح وقتاً ما أن الكلت سوف يستردون عن طريق المسيحية ما خسروه من الأراضي بالقوة . وبذلك كانت العصور المظلمة هي التي أشرقت فيها الروح الأيرلندية وتلاذت كما لم تتلاذ من قبل ولا من بعد .

وكان أعظم أولئك المبشرين هو سانت كولمبا St. Columba ، ونحن نعرف الشيء الكثير عنه من سيرته التي كتبها له (حوالى عام ٦٧٩) آدمنان Adamnan أحد خلفائه في أيونا Iona . وقد ولد كولمبا في دنجال Donegal عام ٥٢١ ، وكان يجرى في عروقه دم الملوك ، وكان كما كان بوذا قديساً في وسعه أن يكون ملكاً . وبدأ عليه وهو طالب في مدرسة موڤيل Moville من الورك ما جعل معلمه يلقبه كولمبكيل Columbkill ، أى عماد الكنيسة . وأنشأ مذبحاً في الخامسة والعشرين من عمره عدداً من الكنائس والأديرة أشهرها كلها ما كان منها : درى Derry ، ودرو Durrow ، وكلز Kells . ولكنه لم يكن قديساً فحسب ، بل كان فوق ذلك مكافحاً « قوى البنية ، جهورى الصوت » (٣١) ، سبب له تهوره كثيراً من النزاع ثم إلى الحرب مع الملك دبرمويد Diarmuid ، ودارت بينهما آخر الأمر معركة قتل فيها ، على حد قولهم ، ٥٠٠٠ رجل . وانتصر فيها كولمبا ولكنه رغم انتصاره فر من أيرلنده (٥٦٣) ، وهو مصمم على أن يهذى إلى المسيحية من الأرواح بقدر من قتل في معركة كولدرڤنا Cooldrevna . وأنشأ وقتئذ في جزيرة أيونا القريبة من شاطئ اسكتلندة الغربى ديراً من أعظم أديرة العصور الوسطى وأوسعها شهرة . ومن هذا الدير نشر هو ومريدوه الإنجيل في جزائر هبريده Hebrides ، واسكتلندة ، وشمال إنجلترا . وبعد أن هدى آلافاً من الوثنيين إلى الدين المسيحى وزخرف ثلثمائة « كتاب نبيل » مات هو يصلى عند المذبح في الثامنة والسبعين من عمره .

وشبيه به في روحه واسمه سانت كولمبان St Columban المولود في لينستر Leinster حوالي عام ٥٤٣ . ولسنا نعلم عنه شيئاً حتى نجده وهو في الثانية والثلاثين من عمره يؤسس الأديرة في جبال الفوج بفرنسا . وكان من تعاليمه للمبتدئين من أتباعه في لكسويل Luxeuil :

يجب أن تصوم كل يوم ، وتصلّي كل يوم ، وتعمل كل يوم ، وتقرأ كل يوم ؛ وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد ، وفي مجتمع يتألف من كثير من الإخوان ، حتى يتعلم التواضع من أحدهم والصبر من آخر والصمت من ثالث ودماثة الأخلاق من رابع ويجب أن يأوى إلى الفراش وهو متعب يكاد يغلبه النوم وهو سائر في الطريق (٢٣) .

وكانت العقوبات صارمة ، أكثر ما تكون بالحداد : ستة سباط إذا سعل وهو يبدأ ترنيمته أو نسي أن يدرم أظافره قبل تلاوة القداس ، أو تبسم أثناء الصلاة أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشاء الرباني ؛ وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسي أن يدعو الله قبل الطعام ، وخمسون عقاب التأخر عن الصلاة ، ومائة لمن يشترك في نزاع ، ومائتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة (٢٣) . ولم يكن الناس يجمعون عن دخول الدير رغم هذا الحكم الإرهابي ، فقد كان في دير مكسويل ستون راهباً ، كثيرون منهم ينتمون إلى أسر غنية . وكانوا يعيشون على الخبز ، والخضر ، والماء ؛ ويقطعون الغابات ، ويحرثون الأرض ؛ ويزرعون ويحصدون ، ويصومون وبصلون . وهنا أقام كولمبان نظام « الحمد الذي لا ينقطع iaux perennis » فقد كانت الأوراد بتلوها بلا انقطاع ليلاً ونهاراً طائفة بعد طائفة من الرهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين (٢٤) . وكانت ألف دير ودير شبيهة بدير لكسويل من المعالم البارزة في العصور الوسطى . ولم يكن المزاج الصارم الذي وضع هذه القواعد يحجز آراء غير هذه الآراء ؛ ولهذا ألقي كولمبان ، الذي يحرم النزاع ، نفسه في نزاع متكرر مع الأساقفة الذين .

يتجاهل سلطانهم ، ومع الموظفين الزمانيين الذين لا يقبل تدخلهم في الشؤون الدينية ، ومع البابوات أنفسهم . ذلك أن الأيرلنديين كانوا يحتفلون بعيد الفصح حسب تقويم كانت تسير عليه الكنيسة في بادئ الأمر ولكنها غيرته في عام ٣٤٣ . ونشأ من ذلك نزاع بينها وبين القساوسة الغاليين ، فلجأ هؤلاء إلى جريجورى الأكبر ، ورفض كولبان أوامر البابا وقال : « إن الأيرلنديين أعلم منكم بالفلاك أيها الرومان » ، وأمر جريجورى أن يقر طريقة الأيرلنديين في الحساب وإلا « فسيعد من الخارجين على الدين وتنبذه بازدراء كنائس الغرب » (٣٥) . ثم طرد الأيرلندى المتمرد من غالة (٦٠٩) ، لتشهيره بآثام الملكة برنهلد Brunhild : ووضع بالقوة على ظهر سفينة مقلعة إلى أيرلندة ، ولكن السفينة اضطرت إلى الاندفاع عائدة إلى فرنسا ، وعبر كولبان الأرض المحرمة عليه وأخذ يعظ أهل بافاريا الوثنيين . ولسنا نعتقد أن كولبان كان في حقيقة أمره رهيباً كما يبدو من حكمه وسيرته ، فنحن نسمع أن السناجب كانت تجثم في اطمئنان على كتفيه وتدخل في قلنسوته وتخرج منها (٣٦) . ثم ترك زميلاً له أيرلندياً ليؤسس (٦١٣) دير سانت جول St Gall على بحيرة كنستانس ، وعبر هو ممر سان جوئار Sf Gothard Pass بعد أن عانى في سبيل ذلك الأمرين ، وأسس دير بيبو Bobbio في لمباوديا عام ٦١٣ حيث توفي بعد عامين في صومعته المنعزلة التي كان يعيش فيها معيشة الزهد والتقص .

ويحدثنا ترتليان Tertullian عن وجود مسيحيين في بريطانيا في عام ٢٠٨ ؛ كما يحدثنا بيد Bede عن وفاة سانت أولبان أثناء اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين . وقد شهد الأساقفة البريطانيون مجلس سرديقا Sardica (٣٤٧) ؛ كذلك ذهب جرمانوس Germanus أسقف أوكسير Auxerre إلى بريطانيا في عام ٤٢٩ ليقتضى فيها على الزنادقة البلاجيين (٣٧) . ويؤكد لنا ونيم الملمز بري William of Malmesbury أن الأسقف أباد جيشاً من السكسون بأن جعل الذين هداهم

من البريطانيين يصرخون « حمدا لله » في وجوههم (٢٨). ثم ضعف شأن المسيحية البريطانية بعد أن كانت لها هذه القوة العظيمة ، وأشرفت على الفناء بسبب غارات الأنجليسكسون ؛ فلم تعد تسمع عنها شيئا بعدئذ حتى دخل أتباع كولبا نورثمبرلند في آخر القرن السادس ، وحتى وصل أوغسطين ومعه سبعة آخرون من الرهبان من رومة إلى إنجلترا . وما من شك في أن البابا جريجورى قد علم من قبل أن إثلبرت ملك كنت الوثني تزوج برثا Bertha الأميرة المروفتنجية المسيحية . واستمع إثلبرت في لطف ومجاملة إلى أوغسطين ، وظل غير مقتنع بحديثه ، ولكنه أطلق له حرية الوعظ ، وهيا له ولزملائه الرهبان الطعام والمسكن في كنتربرى . ثم استطاعت الملكة آخر الأمر (٥٩٩) أن تقنع الملك باعتراف الدين الجديد ، وحذا حذوها كثير من رعاياها . وفي عام ٦٠١ بعث جريجورى بصورة الكاهن إلى أوغسطين فأصبح على رأس عدد من أساقفة كنتربرى الأجلاء الممتازين . واصطنع جريجورى اللين مع من بقى في إنجلترا من الوثنيين وأجاز تحويل الهياكل القديمة إلى كنائس ، بأن تحول عادة التضحية بالثيران في يسر ولطف إلى « ذبحها لإنعاشهم لمديح الله » (٢٩) ، وبهذا كان كل ما طرأ على الإنجليز من تغير هو تحولهم من أكل لحم البقر حين يحمدون الله إلى حمد الله حين يأكلون لحم البقر .

وأدخل مبشر إيطالى آخر يدعى پولينوس Panlinus المسيحية إلى نورثمبرلند (٦٢٧) . ذلك أن أزولد Oswald ملك نورثمبرلند دعا رهبان أيونا إلى الحجىء إلى بلاده ليعظوا شعبه ، وأراد أن يعينهم على أداء مهمتهم فنحهم جزيرة لندسفارن Lindisfarne القريبة من ساحل إنجلترا الشرقى . وفيها أنشأ سانت إيدان St. Aidan (٦٣٤) ديرا خلده اسمه بمن تخرج فيه من المبشرين الخلفيين ، وبما أخرجه من المخطوطات المزخرفة ذات الروعة . وهناك ترك سانت كيثرت St. Cuthbert (٦٣٥ ؟ - ٦٨٧) وراءه في دير ملروز Melrose ذكريات طيبة لصبره ، وتقواه ، وفكاهته ، وحسن إدراكه . وبفضل صلاح هؤلاء الرجال

وأمثالهم ، وبفضل ما كانوا ينعمون به من أمن وسلام وسط الحروب الكثيرة ، أقبل عدد كبير من المتنصرين حديثاً والمتنصرات إلى أديرة الرجال والنساء التي قامت وقتئذ في إنجلترا . وقد رفع أولئك الرهبان من كرامة العمل ، بكدهم المتواصل في الغابات والحقول على الرغم من انتكاسهم من حين إلى حين وعودتهم إلى أساليب عامة الناس . فتزعموا هنا ، كما تزعموا في فرنسا وألمانيا ، ركب الحضارة في كفاحه ضد المناقع والآجام ، وكما تزعموه في كفاحه ضد الأمية ، والعنف والدعارة ، والسكر ، والشره . وظن بيد أن من يدخلون الأديرة من الإنجليز قد زاد على الحد الواجب ، وأن لأشراف قد أسرفوا في إنشاء الأديرة ليعفوا أملاكهم من الضرائب ، وأن أراضي الكنيسة المعفاة من الضرائب قد استغرقت من أرض إنجلترا الزراعية فوق ما يجب أن تستغرقه ، وإنذر البلاد بأنه لم يبق من الجنود من يكفون لوقاية إنجلترا من الغزو^(٤٠) . وسرعان ما أثبت الدنمركيون ، ومن بعدهم النورمان حكمة الراهب وبعد نظره في شئون الدنيا .

ووجد النزاع سبيله إلى الأديرة نفسها ، وعكر عليها صفوها ، حين اصطدم الرهبان البندكتيون المقيمون في جنوبي إنجلترا والذين اتبعوا الشعائر الرومانية والتقويم الروماني ، بالرهبان الأيرلنديين والتقويم الأيرلندي والشعائر الأيرلندية في الشمال . وحسم سانت ولفريد St Wilfrid بفصاحته في مجمع هوتبي Whitby المقدس (٦٦٤) هذا النزاع - وهو من الوجهة الفنية التاريخ الصحيح لعيد الفصح - في صالح رومة . وقبل الرهبان الأيرلنديون على كره منهم هذا القرار ، وأضحت الكنيسة الإنجليزية بعد وحدتها وما نالت من الحبوس والهبات سلطة اقتصادية وسياسية ، واضطلعت بدور رئيسي في تحضير الشعب وحكم الدولة .

وجاءت المسيحية إلى ألمانيا هدية من الرهبان الأيرلنديين والإنجليز . ذلك أن وليبرورد Willibrord الراهب النورثمبري الذي تلقى تعليمه في أيرلندا اجتاز هو وأثنا عشر من أعوانه المغامرين بحر الشمال في عام ٦٩٠ ، واتخذ

مقره الدينى فى أوترخت Utrecht ، وظل أربعين عاما يعمل لهداية الفريزيين إلى المسيحية . ولكن أولئك الملاك ذوى النزعة الواقعية رأوا فى وليبرورد يد بيين الأصغر حاميه ونصيره ، ولم يكن يرضيهم أن يقال لهم إن جميع أسلافهم غير المعمدين مثوهم الجحيم . ويروى أن ملكا فريزيا عرف هذا وهو يوشك أن يعمد ، فامتنع عن التعميد وقال إنه يفضل أن يخلد مع آبائه (٤١) .

وواصل رجل أقوى من وليبرورد هذه الحملة فى عام ٧١٦ . ذلك أن نبيلاً إنجليزيا وراهباً بندكتيا يدعى ونفريد (٦٨٠ ؟ - ٧٥٤) منحه البابا جريجورى الثانى اسم بنيفاس ولقبه خافاؤه الصالحون لقب « رسول ألمانيا » . وقد وجد ونفريد هذا بالقرب من فرتزلار Fritzlar فى هس Hesse شجرة بلوط يعبدها الناس على أنها موطن لإله من الآلهة ، فما كان منه إلا أن قطع الشجرة ، ودهش الناس حين رأوا أنه ظل حيا فهرعوا إليه يطلبون التعميد . وأقيمت بعدئذ أديرة عظيمة فى ريخنو Reichenau (٧٢٤) ، وفلدا Fulda (٧٤٤) ، ولورسخ Lorsch (٧٦٣) . وعين بنيفاس كبيراً لأساقفة مينز فى عام ٧٤٨ ؛ فنصب عدداً من الأساقفة ونظم الكنيسة الألمانية فجعلها أداة قوية لتقويم الأخلاق وتوطيد دعائم النظام الاقتصادى والسياسى . ولما أتم رسالته فى هس وثورنجيا ، أراد أن يختم حياته بالاستشهاد فى سبيل الدين ، فدخل فريزيا بعزم أن يتم العمل الذى بدأه وليبرورد ، وبعد أن ظل يكدح فى هذا العمل سنة أو نحوها هاجمه الوثنيون وقتلوه . وبعد عام من مقتله نشر شارلمان الدين المسيحى بين السكسون بالسيف والنار ، ورأى الفريزيون المعاندون أن لا مناص من الخضوع ، وتم بذلك فتح بلاد الذين فتحوا رومة على أيدي المسيحية الرومانية .

وكان آخر انتصارات الدين فى أوروبا هو هداية الصقالبة . وتفصيل ذلك أن رستسلاف Rostislav أمير موراڤيا رأى المسيحية اللاتينية تدخل بلاده وتغفل فى شعائرها لغة البلاد ، فطلب إلى بيزنطية أن ترسل لبلاده مبشرين

يستخدمون اللغة العامية في عظاتهم وصلواتهم ، فبعث إليه الإمبراطور بأخوين هما مثنوديوس Methodius وسيريل Cyril كانا نشأ في سلانيك ، ولذلك كان من السهل عليهما أن يتكلمتا لغة الصقلية . ورحب بهما أهل البلاد ولكنهما وجدا أن الصقلية ليست لهم حروف هجائية يعبرون بها عن لغتهم تعبيراً كاملاً بالكتابة ، وأن العدد القليل الذين يكتبون يستخدمون في كتابة حديثهم الحروف اليونانية واللاتينية . ولهذا ابتكر الحروف الهجائية الصقلية وطريقة كتابتها ، وذلك باستخدام الحروف اليونانية مع التحسينات التي دخلت عليها نتيجة استخدام اليونان إياها حتى القرن التاسع ، فكان حرف B ينطق كما ينطق V ، H ينطق حرف I (وحرف E في الإنجليزية) ، Ch كما ينطق الأسكتلنديون Ch ، وابتكر حروفاً صقلية للأصوات التي لا تعبر عنها الحروف اليونانية . وترجم سيريل هذه الحروف الهجائية الترجمة اليونانية السبعينية للعهد القديم ونصوص الطقوس اليونانية ، وبدأ بهذا العمل لغة مكتوبة جديدة وأدباً جديداً .

ونشأ وقتئذ بين المسيحية اليونانية واللاتينية نزاع تبغى به كلتاها أن تستحوذ على الصقلية ؛ فاستدعى البابا نقولاس الأول سيريل ومثنوديوس إلى رومة ، حيث ترهب سيريل ، ومرض ، ومات (٨٦٩) . أما مثنوديوس فعاد إلى مورافيا كبيراً لأساقفتها من قبل البابا . وأجاز البابا يوحنا الثامن استخدام الطقوس الصقلية ، ثم حرّمها استيفن الخامس ؛ واكتسبت الكنيسة اللاتينية وشعائرها مورافيا ، وبوهيميا ، وسلوفاكيا (وهي التي تتألف منها دولة تشكوسلوفاكيا الحاضرة) ، كما كسبت بعدئذ بلاد المجر وپولندا ، أما بلغاريا ، والصرب ، وروسيا فقد ارتضت الطقوس والحروف الهجائية الصقلية ، وقدمت ولاءها للكنيسة اليونانية ؛ وأخذت ثقافتها عن بيزنطية .

ولقد تأثرت هذه التغيرات الدينية بالاعتبارات السياسية . ذلك أن اعتناق الألمان المسيحية كان يقصد به ضمهم إلى مملكة الفرنجة وربطهم وإياها برباط

وثيق . وقرض الملك هارولد بلوثوث (صاحب الناب الأزرق) الدين المسيحي على الدنمركة (٩٧٤) ، ليكون جزءاً من الثمن الذى طلبه الإمبراطور أتو الثانى للصلح . وانحاز بوريس Boris ملك بلغاريا إلى جانب الكنيسة اليونانية (٨٦٤) بعد أن ظل يداعب البابوية وقتاً ما ، وكان انضمامه إليها لرغبته فى الاحتماء بها من توسع ألمانيا ، وجعل فلاديمير Vladimir الأول روسيا بلاداً مسيحية (٩٨٨) ليستطيع الزواج بأنا Anna أخت بازيل الثانى إمبراطور الروم ، وليحصل على جزء من بلاد القرم بائنة لها (٢) وظلت الكنيسة الروسية قرنين من الزمان تعترف بسلطان بطرق القسطنطينية ، ثم أعلنت استقلالها عنه فى القرن الثالث عشر ، وأضحت الكنيسة الروسية بعد سقوط الامبراطورية الشرقية (١٤٥٣) ذات الشأن الأكبر فى العالم الأرثوذكسى اليونانى .

وكان الجنود المظفرون فى هذا الفتح المسيحي لأوروبا هم الرهبان ، كما كانت الراهبات هن الممرضات فى هذه الحرب الدينية . ذلك أن الرهبان قد عاونوا الزراع على استصلاح الأراضى البوروزراعتها ، وتقطيع أشجار الغابات وتنظيف الأرض من الأعشاب ، وتخفيف المستنقعات ، وإقامة الجسور على الجداول ، وشق الطرق ، ولقد أقاموا فى البلاد مراكز للصناعة ، وأنشأوا المدارس ، ونظموا الصدقات ، ونسخوا المخطوطات وجمعوا مكتبات متواضعة ، وبشوا النظام الأخلاقى وروح الشجاعة والطمأنينة فى نفوس الحائرين الذين انتزعوا من عاداتهم وشعائرهم أو بيوتهم القديمة . وكان بنداكت الأنبايى يكدح ، ويحفر ، ويحصد بين رهبانه ، كما ظل الراهب ثيودلف يسوق المحراث بالقرب من ريمس مدى اثنين وعشرين عاماً ، وقد بلغ من إخلاصه فى هذا العمل أن احتفظ بعد وفاته بهذا المحراث وكان موضعاً للإكبار والإجلال .

وكان الرهبان والراهبات يعودون إلى فطرتهم البشرية بين آونة وأخرى بعد أن يبقوا زمناً طويلاً مثلاً علياً للفضيلة ، والخشوع ، والجد ، وكان لابد من قيام

حملة في كل قرن تقريباً لرفع الرهبان مرة أخرى إلى المستويات العليا غير الفطرية التي شرعوا لأنفسهم قواعدها . كذلك كان بعض الرهبان ينهمكون في نوبات موقوتة من التقى والخشوع ثم يصنبحون غير صالحين لنظام الرهبة . يعد أن يفيقوا من نشوتهم وتضعف حماسهم . ومن الرهبان والراهبات من كانوا نلوراً جيء بهم إلى الأديرة وهم أطفال . سن السابعة أو بعدها ، ومنهم من جيء بهم وهم رُضّع في المهد ؛ وقد ظلت هذه الذنور حرمت لا يحل النكث بها حتى أباحت القرارات البابوية في عام ١١٧٩ التحلل منها إذا بلغ الطفل الرابعة عشرة من عمره (٤٣) . وهال لويس التقى ما رآه من ضعف النظام في الأديرة الفرنسية فدعا في عام ٨١٧ إلى عقد جمعية قومية من رؤساء الأديرة والرهبان في آخن ، وعهد إلى القديس بندكت الأنباي أن يقرر السير في جميع أديرة بلاده على القواعد التي وضعها القديس بندكت النورسياني St Benedict of Nursia . وأخذ بندكت الحديد يواصل العمل بمجد ، ولكن المنية وافته في عام ٨٢١ ، وما لبثت حروب الملوك أن أشاعت الفوضى في دولة الفرنجة ، وخربت غارات النورمان ، والجر ، والمسلمين مئات من الأديرة ، وهام الرهبان على وجههم في العالم غير الديني ، ولما عاد بعضهم إلى أديرتهم بعد أن ارتدت موجة التخريب ، جاءوا معهم إليها بطرائق الحياة في خارجها . يضاف إلى هذا أن السادة الإقطاعيين قد اغتصبوا الأديرة ، وعينوا هم رؤساءها ، واستولوا على إيراداتها ، ولم يحل عام ٩٠٠ حتى تدهورت أديرة الغرب ، كما تدهورت الأنظمة كلها ، إلا القليل الذي لا يستحق الذكر منها ، في أوروبا اللاتينية إلى الدرك الأسفل من حياتها أثناء العصور الوسطى . وليس أدل على هذا الانحطاط من قول سانت أدو رئيس دير كلوني (المتوفى عام ٩٤٢) « إن بعض رجال الدين في الأديرة وفي خارجها يستهترون بابن العذراء استهتاراً يستيحيون منه ارتكاب الفحشاء في سائحاته نفسها ، بل في تلك البيوت التي أنشأها المؤمنون الخاشعون لكي تكون ملاذا للعفة والطهارة في حرمة المسور ،

لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى «(٤٤)». ومن دير كلوني جاءت حركة الإصلاح العظمى للأديرة.

ذلك أن اثني عشر راهباً قد أنشأوا حوالى عام ٩١٠ ديراً فى هذا المكان بين تلال برغنديّة يكاد يكون موضعه على الحدود الفاصلة بين ألمانيا وفرنسا. وفى عام ٩٢٧ أعاد أدو رئيسه النظر فى قواعده لجعلها أشد صرامة من الناحية الأخلاقية وييسرها من ناحية الجهود الجسمية : ففتح التقشف الشديد ، وأوصى بالاستحمام ، ووفر الطعام ، وأجاز شرب الجعة والنبيد ، ولكنه شدد فى الاستمساك بالآيمان القديمة التى يلتزم بها الرهبان الفقير ، والطاعة ، والعفة . وأنشئت أديرة أخرى على غرارها فى أماكن أخرى من فرنسا ، ولكنها لم تكن كالأديرة القديمة لكل منها قانونه الذى لا يقوم على أساس معروف ، ولا يخضع لإلخضوعاً غير وثيق إلى أسقف على أوسيد من الأشرف ، بل كانت الأديرة البندكتية الجديدة المتصلة بدير كلوني يحكمها رؤساء يخضعون لرؤساء دير كلوني وللبابوات . وانتشرت بزعامة مايول Mayeul (٩٥٤ - ٩٩٤) ، وأدويو Odilo (٩٩٤ - ١٠٤٩) ، وهيو Hugh (١٠٤٩ - ١١٠٩) حركة تآخى الأديرة من فرنسا إلى إنجلترا ، وألمانيا ، وبولنّدة ، وهنغاريا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ، وانضمت كثير من الأديرة القديمة « إلى المجمع الكلونى » ، فلم يحل عام ١١٠٠ حتى كان نحو ألفى دير تعترف بأن دير كلوني أبوها وحاكمها . وكانت السلطة المنظمة على هذا النحو ، البعيدة عن تدخل الدولة ورقابة الكنيسة ، سلاحاً جديداً فى يد البابوية تسيطر به على رجال الدين فى خارج الأديرة ، ويسرت فى الوقت نفسه إصلاح نظام الرهبنة على أيدي الرهبان أنفسهم إصلاحاً يتطوى على الجرأة والشجاعة ، فكبحت أيد قوية ما كان فى الأديرة من اضطراب ، وتعطل ، وترف ، وفساد أخلاق ، ومتاجرة بالدين وبالرتب الكهنوتية ، وشهدت إيطاليا ذلك المنظر الغريب منظر راهب فرنسى فى أراضيها ، إذ دعى أدو إلى إيطاليا ليصلح دير مونتى كسينو نفسه «(٤٥)» .

الفصل السادس

البابوية في الحضيض (٨٦٧ - ١٠٤٩)

كانت رومة آخر المدن التي وصل إليها الإصلاح . ذلك أن أهل هذه المدينة كانوا على الدوام مشاكسين صعاب المراس حتى في الوقت الذي كان فيه النسر الإمبراطوري يقبض بمخالبه على الفيلق الضخمة يسيرها أينما شاء . أما في الوقت الذي نتحدث عنه فكل ما كان يعتمد عليه البابوات هو جيش مرابط ضعيف ، ومكانة منصبهم السامية ، ورهبة دينهم ؛ ولهذا وجدوا أنفسهم سجناء في أيدي أرستقراطية تحسدهم على منزلتهم وأهلين يضعف من تقواهم قربهم من عرش بطرس . وكان الرومان أعز نفساً من أن يتأثروا بالملوك كما كانوا أكبر من أن يرهبهم البابوات لطول ما ألفوا صحبتهم واختلاط بهم ؛ فقد كانوا يرون في خلفاء المسيح في الأرض رجالاً مثلهم يمرضون ، ويخطئون ، ويأثمون ، ويغلبون ، فلم تعد البابوية في اعتقادهم حصناً حصيناً للنظام وملجأ عاصماً للنجاة ، بل أضحت طائفة من العمال يجمعون الصدقات من أوروبا لمساكين رومة . وكانت تقاليد الكنيسة تقضى بالألا يختار البابا بغير رضا رجال الدين في رومة وأشرافها وجمهرة سكانها ، وتفرق حكام اسبوليتو ، وبنفتو ، ونابلي ، وتسكانيا ، وأشراف رومة شيعاً وأجزاء كما كانوا في عهدهم القديم ، وكان الحزب صاحب اليد العليا في المدينة يحيث الدسائس لاختيار البابا والسيطرة عليه . وقد عملوا جميعاً على تدهور البابوية في القرن العاشر إلى أحط مستوى وصلت إليه في تاريخها كله .

من ذلك أنه في عام ٨٧٨ دخل لامبير Lambert دوق اسبوليتو مدينة رومة على رأس جيشه ، وقبض على البابا يوحنا السابع ، وحاول أن يرغمه بتجويعه على تأييد ترشيح كارلومان لعرش الإمبراطورية . وفي عام ٨٩٧ أمر البابا استيفن

السادس بأن تخرج جثة البابا فورموسوس Formosus (٨٩١ - ٨٩٦) من قبرها ، وترتدى الملابس الأرجوانية ، وتحاكم أمام مجلس كنسى بتهمة مخالفتها بعض قوانين الكنيسة ، ثم يحكم بإدانتها ، وتجرد من ثيابها الكهنوتية ، وتبر بعض أعضائها وتلقى في نهر التيبر^(٤٦) . وثارت في العام نفسه ثورة سياسية في رومة خلعت على أثرها استيفن من منصبه ، وقتل في السجن خنقاً^(٤٧) . وظل كرسي البابوية عدة سنين بعد ذلك الوقت لا ينال إلا بالرشا أو القتل ، أو رغبات النساء ذوات المقام السامى والخلق الدنى ، وبقيت أسرة ثيوفيلكت Theophylact ، أحد كبار الموظفين في قصر البابا ، ترفع البابوات إلى كراسيهم وتنزلهم عنها كما يحلو لها . واستطاعت ابنته مروزيا Marozia أن تنجح في اختيار عشيقها سرجيوس الثالث لكرسي البابوية (٩٠٤ - ٩١١)^(٤٨) ؛ كما أفلحت زوجته ثيودورا في تنصيب البابا يوحنا العاشر (٩١٤ - ٩٢٨) . وقد اتهم يوحنا هذا بأنه عشيق ثيودورا ، ولكن هذا الاتهام لا يقوم عليه دليل قاطع^(٤٩) ؛ وما من شك في أنه كان زعيماً ممتازاً في الشؤون الزمنية ، لأنه هو الذى عقد الحلف الذى رد زحف المسلمين على رومة في عام ٩١٦ . وظلت مريوزا تستمتع بعدد من العشاق واحداً بعد واحد حتى تزوجت جيلو Guido دوق تسكانيا ، وأخذوا ياتمران نلح يوحنا ، وعملا عن قتل أخيه بطرس أمام عينيه ، ثم زج البابا في السجن حيث مات بعد أشهر قليلة ميتة لا تعلم أسبابها ، ثم رفعت مريوزا في عام ٩٣١ يوحنا الحادى عشر (٩٣١ - ٩٣٥) إلى كرسي البابوية ، وكان الشائع على الألسنة أن يوحنا هذا ابن لها غير شرعى من سرجيوس الثالث^(٥٠) . وفى عام ٩٣٢ سجن ابنها ألبريك Alberic يوحنا هذا في قلعة سانت أنجيلو Sant' Angelo ، ولكنه سمح له أن يصرف من سجنه شئون البابوية الروحية ، وظل ألبريك يحكم رومة اثنتين وعشرين سنة ، كان فيها الطاغية المسيطر على « جمهورية رومانية » . وأوصى وهو على فراش الموت بأن يخلفه من بعده ابنه أكتافيان Octavian

وحمل رجال الدين والشعب على أن يعدوه باختيار أكتافيان بابا بعد موت أجابتوس Agapetus الثانى . وتم له ما أراد ، فأصبح حفيد مروزيا هو البابا يوحنا الثانى عشر ، وامتازت مدة ولايته بضروب من التهنك والدعارة فى قصر لاتيران Lateran^(٥١) .

وعرف أتو الأول إمبراطور ألمانيا عن قرب ما وصلت إليه البابوية من انحطاط بعد أن توجه يوحنا الثانى عشر لإمبراطوراً فى عام ٩٦٢ . فلما عاد إلى رومة فى عام ٩٦٣ بتأييد رجال الدين فيما وراء جبال الألب دعا يوحنا إلى المحاكمة أمام مجلس كنسى . واتهم الكرادلة يوحنا بأنه حصل على رشا نظير تنصيب الأساقفة ، وأنه عين غلاما فى العاشرة من عمره أسقفاً ، وأنه زنى بخليقة أبيه ، وضاجع أرملة ، وابنة أختها ، وأنه حول قصر البابا إلى مأخور للدعارة . ورفض يوحنا أن يحضر أمام المجلس ، أو أن يجيب عن هذه الاتهام ، وخرج للصيد ، فقرر المجلس خلعه ، واختار بالإجماع مرشح أتو لكرسى البابوية ، وكان هذا المرشح الذى أصبح البابا ليو الثامن (٩٦٣ - ٩٦٥) من غير رجال الدين . ولما عاد أتو إلى ألمانيا قبض يوحنا على زعماء الحزب الإمبراطورى فى رومة وبتر أعضائهم ، وعمل على أن يعود إلى كرسى البابوية بقرار من مجلس خاضع لأمره (٩٦٤) ^(٥٢) . ولما مات يوحنا (٩٦٤) اختار الرومان بندكت الخامس لكرسى البابوية ، وأغفلوا شأن ليو . فعاد أتو من ألمانيا ، وخلع بندكت ، وأعاد ليو ، بهذا اعترف ليو رسمياً بحق أتو وخلفائه الأباطرة فى أن يلغوا إذا شاءوا اختيار أى بابا فى المستقبل^(*) . ولما مات ليو عمل أتو على اختيار يوحنا الثالث عشر خليفة له (٩٦٥ - ٩٧٢) . ثم سجن أحد أشراف الرومان بندكت السادس (٩٧٣ - ٩٧٤) ، وقتله خنقاً ، وفر بنيفازيو غرنكون Bonifazio Francone ، وكان قد نصب نفسه بابا شهراً من

(*) تعد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليو الثامن خارجاً على البابوية ، ولا ترى لأعماله أو قراراته قيمة ما . .

الزمان ، إلى القسطنطينية وحمل معه من كنوز البابوية كل ما استطاع أن يحملة . ثم عاد بعد تسع سنين من فراره ، وقتل البابا يوحنا الرابع عشر (٩٨٣ - ٩٨٤) ، وجلس على كرسي البابوية مرة أخرى ، ومات ميتة هادئة في فراشه (٩٨٥) ورفعت الجمهورية الرومانية رأسها من جديد ، وأمست بزمam السلطة ، واختارت كرسنتيوس Crescentius قنصلا . فانقض أتو الثالث على رومة بجيش قوى لا تستطيع مقاومته ، وبتفويض من رجال الدين الألمان ، ليقضى على الفوضى بتنصيب راعى كنيسة الخاصة بابا باسم جريجورى الخامس (٩٩٦ - ٩٩٩) . وقضى الإمبراطور الشاب على الجمهورية ، وعفا عن كرسنتيوس ، وعاد إلى ألمانيا . وما كاد يعود حتى أعاد كرسنتيوس الجمهورية ، وخلع جريجورى (٩٩٧) . فما كان من جريجورى إلا أن أصدر قراراً بحرمائه ، ولكن كرسنتيوس سخر منه ، وعمل على أن يختار يوحنا السادس عشر بابا . فعاد أتو مرة أخرى ، وخلع يوحنا ، وسمل عينيه ، وقطع لسانه ، وجدع أنفه ، وأمر أن يطاف به في شوارع رومة على ظهر حمار ووجهه نحو ذنبه . ثم قطعت رؤوس كرسنتيوس واثني عشر من الزعماء الجمهوريين ، وعلقت أجسادهم على أسوار سانت أنجلو (٩٩٨) (٥٣) . وعاد جريجورى إلى كرسي البابوية ، ونظل جالسا عليه حتى مات مسموماً ، في أغلب الظن ، عام ٩٩٨ . وأجلاس أتو في مكانه رجلا أصبح من أتبه البابوات جميعا .

ولد جربرت Gerbert من أسرة وضيعة بالقرب من أورلاك Aurillac من أعمال أوفرنى Auvergne (حوالى عام ٩٤٠) ، ودخل وهو صغير السن أحد الأديرة . ثم سافر إلى أسبانيا عملا بمشورة رئيس الدير ليدرس علوم الرياضة ، إلى أن كان عام ٩٧٠ فأخذه بوريل Borel كونت يرشلونة معه إلى رومة ، حيث أعجب البابا يوحنا الثالث عشر بعلم الراهب وأوصى به أتو الأول خيراً . وقضى جربرت عاما في التدريس بإيطاليا وكان أتو الثانى من بين طلابه في ذلك الوقت أو بعده . ثم انتقل إلى ريمس ليتلقى علم المنطق في مدرسة كنيستها ، وسرعان ما نراه

رئيساً لتلك المدرسة (٩٧٢ - ٩٨٢) . وكان يعلم طائفة من العلوم غربية في اختلافها تشمل شعراء اليونان والرومان الأقدمين ؛ وكان يكتب باللاتينية كتابة ممتازة ، وله عدة رسائل تكاد تضارع رسائل سيدونيوس Sidonius . وكان يجمع الكتب حينما ذهب ، وينفق ماله بغير حساب في نسخ صور من المخطوطات المحفوظة في دور الكتب المختلفة ، ولعلنا مدينون له بما لدينا من خطب شيشرون^(٥٤) . وكان حامل لواء العالم المسيحي في علوم الرياضة ، وأدخل في البلاد صورة جديدة من الأرقام « العربية » ، وكتب عن المعد والأسطرلاب ، وألف رسالة في الهندسة النظرية ؛ واخترع ساعة آلية ، وأرغنا يديره البخار^(٥٥) . وقد بلغ من مهارته في كثير من العلوم المختلفة أن اشتهر بعد وفاته بأنه كانت له قوى سحرية^(٥٦) .

ولما توفي أدليبرو (٩٨٥) سعى جبريت ليكون كبيراً لأساقفة ريمس ، ولكن هو كابت عين بدله أرنولف Arnulf ، وهو ابن غير شرعى من البيت الكارولنجي . ولما أخذ أرنولف ياتمر بهيو أصدر مجلس كنسى قراراً بخلعه على الرغم من احتجاج البابا ، واختار جبريت رئيساً للأساقفة (٩٩١) . ولكن قاصداً رسولياً أقنع مجمعا دينياً عقد في مواسون Moisson بعد أربع سنين من ذلك الوقت بفصل جبريت من منصبه . فلما كان من العالم المستذل إلا أن هرع إلى بلاط أتو الثالث في ألمانيا ، حيث قوبل بأعظم مظاهر التكرم ، وهياً عقل المليك الشاب لفكرة إعادة الإمبراطورية الرومانية واتخاذ رومة عاصمة لها . وعينه أتو كبيراً لأساقفة رافنا ، ثم عينه بابا في عام ٩٩٩ . وتسمى جبريت باسم سلفستر Sylvester الثاني ، كأنما أراد أن يقول إنه سيصبح سلفسترا ثانياً لقسطنطين ثان يوحّد العالم مرة أخرى ؛ ولو أنه هو وأتو عاشا عشر سنين أخرى لكان من المحتمل أن يحققا حلمهما ، لأن أتو ابن أميرة بيزنطية ، ولكان من المحتمل أيضاً أن يصبح جبريت ملكاً فيلسوفاً . ولكن المثية عاجلت جبريت في السنة الرابعة من جلوسه على

(٢٥ - ج ٣ - مجلد ٤)

عرش البابوية ، وتقول الإشاعة الرومانية إنه مات مسموماً ، سمته استفانيا Stephania عينها التي سمت أتو .

وتدل الآمال التي كانت تخامرهما ، كما تدل الحركات السياسية الدائبة على العمل في العالم حولهما ، على قلة من كان فيه من المسيحيين الذين يعتقدون جادين أن العالم سينتهى في العام المتم للألف بعد الميلاد . فقد حدث في بداية القرن العاشر أن أعلن مجلس كنسي أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل^(٥٧) ، وظلت أقلية ضئيلة في نهاية ذلك القرن تؤمن بهذا القول وتستعد ليوم الحساب ؛ أما الكثرة الغالبة فظلت تسير سيرتها المألوفة ، وتعمل ، وتلعب ، وتأثم ، وتصل ، وتحاول أن تطيل حياتها بعد سن الشيخوخة . ولسنا نجد شواهد على استيلاء الذعر على عقول الناس في عام ١٠٠٠ بل إننا لانجد زيادة في هبات الناس إلى الكنيسة^(٥٨) .

وعادت البابوية سيرتها الأولى من الضعف والانحلال بعد موت جربرت ، فأخذ أعيان تسكيولوم Tusculum متحالفين مع الأباطرة الألمان يشترون مناصب الأساقفة ، ويبيعون البابوية ، وقلما كانوا يحاولون التستر على عملهم هذا . وكان بندكت الثامن (١٠١٢ — ١٠٢٤) الذي رشحوه لهذا المنصب الأخير رجلاً ذكياً قوياً ؛ ولكن بندكت (١٠٣٢ — ١٠٤٥) الذي عين بابا في الثانية عشرة من عمره دنس منصبه بحياة الفحش^(٥٩) ، إلى حد جعل الشعب يثور عليه ويخرجه من رومة . غير أنه عاد مرة أخرى بتأييد تسكيولوم ، فلما أتعبه منصب البابوية باعها إلى جريجورى السادس (١٠٤٥ — ١٠٤٦) بألف (أو ألفي) رطل من الذهب . وأدهش جريجورى رومة بأن كان بابا مثالياً أو أقرب ما يكون إلى المثالية . ويلوح أن الذى دفعه إلى ابتياع منصب البابوية هو رغبته الصادقة في أن يصلح شأنها ويحررها من كانوا يسيطرون عليها . ولم يكن أمراء تسكيولوم راغبين في هذا الإصلاح ، ولهذا أعادوا بندكت العاشر إلى كرسي البابوية ، ولكن حزباً آخر رفع سلفستر الثالث إلى عرشها . واستغاث القساوسة

الإيطاليون بالإمبراطور هنرى الثالث ليَقضى على هذه المهازيل ، فجاء إلى
استري Stuttri القريبة من رومة وعقد فيها مجلساً كنسياً زج سلفستزى
السجن ، وقبل استقالة بندكت ، وخلع جريجورى لاعترافه بأنه ابتاع
منصب البابوية . وأقنع هنرى المجلس بالأسبيل إلى انتشال الكنيسة من هذه
الوهدة إلا بتنصيب بابا أجنبي تحت حماية الإمبراطور ؛ واختير لهذا المنصب
أسقف بامبرج Bamberg ولقب كلمنت الثانى (١٠٤٦-١٠٤٧) ،
ولكنه مات بعد عام واحد من اختياره ؛ كما قضت على خليفته دمسوس
Damasus الثانى (١٠٤٧-١٠٤٨) الملاريا التى كانت وقتئذ تنتشر
باستمرار من مناقع كمانيا التى لم تجف . ثم وجدت البابوية آخر الأمرقى ليو
التاسع (١٠٤٩-١٠٥٤) رجلا يستطيع أن يواجه مشاكلها بشجاعة ، وعلم ،
واستقامة ، وصلاح ، فلما رأت رومة نظيراً له من زمن بعيد .

افصل تسابع

إصلاح الكنيسة (١٠٤٩ - ١٠٥٤)

ثلاث مشاكل داخلية كان يضطرب بها قلب الكنيسة في ذلك الوقت :
وهي المتاجرة بالمناصب في محيط البابوية والأسقفية ، والزواج أو التسرى
بين رجال الدين من غير الرهبان ، ووجود حالات متفرقة من الدعارة بين
الرهبان أنفسهم .

فأما المتاجرة بالمناصب الكنسية وخدماتها فقد كانت هي المظهر الكنسي
لما يعاصره من فساد في الشؤون السياسية . ومن الناس الصالحين من كانوا هم
أنفسهم مصدرأ لهذه المتاجرة ؛ مثال ذلك أن أم جويرت الزوجتى
Guibert of Nogent كانت شديدة الرغبة في أن تهبه للكنيسة ، فقدمت
المال لرؤسائها لكي يجعلوه قساً في إحدى الكنائس وهو في الحادية عشرة من
عمره . وإذا كان الأساقفة في إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا يصرفون
الشؤون الزوجية والزمنية جميعاً ، وكانوا يقطعون أرضين ، وقرى ، ومدناً
في بعض الأحيان ، ليستمدوا منها إيراداتهم ، فقد كان ذوو المطامع من
الناس يقدمون مبالغ طائلة للرؤساء الزميين ليظفروا بهذه المناصب ، وكان
الشرهون من الرؤساء لا يتورعون عن ارتكاب كل مأثم للحصول على هذه
الرشا . وحسبنا أن نذكر أن غلاماً في العاشرة من عمره عين رئيس أساقفة
في نربونة Narbonne نظير مائة ألف صليدي^(٦١) ؛ وأن فيليب الأول
ملك فرنسا كتب إلى رجل أخفق في الحصول على منصب رئيس أساقفة
يواسيه في إخفاقه يقول : « أتركني أجنى المال من منافسك ، ثم حاول
أن تسقطه باتهامه بابتياع منصبه ؛ وسترى بعد ذلك كيف نرضيك »^(٦٢) .
وكان ملوك فرنسا يتبعون السنة التي سنّها شارلمان فيعينون هم بانتظام
أساقفة سان Sens ، وريمس ، وليون ، وتور ، وبورج Bourges ، أما في

غيرها من المدن الفرنسية فكان الدوق أو الكونت هو الذى يعينهم^(٦٣) ، وأصبحت كثير من مناصب الأساقفة ميراثاً لبعض الأسر الشريفة ، تختص به الصغار من أولادها أو غير الشرعيين منهم ؛ وكان أحد البارونات فى ألمانيا يمتلك ثمانى أسقفيات ويورثها أبناءه^(٦٤) . ويزعم أحد الكرادلة الألمان (حوالى عام ١٠٤٨) أن الذين يتتاعون كراسى الأساقفة ومناصب الكنيسة قد باعوا الواجبات الرخامية فى الكنائس ، وألواح القرميد فى سقفها ، ليحصلوا من ثمنها على ما أدوه ثمناً لمناصبهم^(٦٥) . وكان الذين ينالون المناصب بهذه الوسائل من رجال الدنيا لا من رجال الدين ، يعيش الكثيرون منهم عيشة المترفين ، ويشنون الحروب ، ويغضبون أعينهم عن الرشا فى المحاكم الأسقفية^(٦٦) ، ويعينون أقاربهم فى المناصب الكنسية ، ويعبدون المال من دون الله ، ويدينون له وحده بالطاعة والولاء . ويقول البابا إنوسنت الثالث فى وصف أحد رؤساء الأساقفة فى نارين إنه لديه كيسا من المال فى الموضع الذى كان يجب أن يكون فيه قلبه^(٦٧) . وقد أصبح ابتياع الكراسى الأسقفية أمراً مألوفاً يقبله الناس العمليون على أنه أمر عادى لاغضباضة فيه ؛ أما المصلحون فأدخلوا ينادون بأن سمعان المجوسى قد استحوذ على الكنيسة^(٦٨) .

وكانت المشكلة الأخلاقية بين رجال الدين العاديين تتأرجح بين الزواج والتسرى . وكان زواج القساوسة فى القرنين التاسع والعاشر أمراً مألوفاً فى إنجلترا وغالة وشمالي إيطاليا ، وكان البابا هديران الثانى نفسه متزوجاً^(٦٩) ؛ وكتب راثيريوس Retherius أسقف فيرونا (فى القرن العاشر) يقول إن أساقفة أبرشيته كلهم تقريباً متزوجون ، ولم يستهل القرن الحادى عشر حتى كانت العزوبة بين رجال الدين غير الرهبان من الأمور الشاذة النادرة^(٧٠) . ومن الخطأ أن نعد زواج القساوسة مناقضاً للأخلاق الفاضلة ، وإن لم ينق فى كثير من الأحيان مع قوانين الكنيسة ومثلها العليا ، ذلك أن زواجهم كان متفقاً مع عادات ذلك الوقت ومبادئه الأخلاقية ؛ وكان القس المتزوج أسمى منزلة من القس العزب فى مدينة ميلان^(٧١) .

لأن ثانيهما كان يتهم بالتسرى - بل إن الرأي العام كان يتسامح في التسرى نفسه أى في اختلاط رجل غير متزوج بامرأة غير متزوجة اختلاطاً جنسياً منتظماً . ويلوح أن الكثرة الغالبة من القساوسة الأوربيين كانوا يحيون حياة لا غبار عليها من الناحية الأخلاقية ، وإننا لنسمع طوال العصور الوسطى عن قساوسة وأساقفة يعيشون معيشة طاهرة نقية مخلصين لمن يرفعونهم ، وإن كنا لا ننكر أنه كان في أماكن متفرقة رجال شواذ يندى من فعالهم الجبين ، فهاهو ذا الأسقف بنيفاس يشكو إلى البابا زخارى Zachary في عام ٧٤٢ أن الأسقفيات تعطى « للشهرين من غير رجال الدين ، وللزائنين من القسيسين » (٧٢) ، وأن بعض الشماسية « يحتفظون بأربع سراري أو خمس » (٧٣) ، وقد اتهم بيد الموقر في هذا القرن بعينه « تبعض أساقفة » إنجائراً بأنهم « يضحكون ، ويهزلون ، ويروون الأفاصيص ، ويمرحون ، ويسكرون . . . يحيون حياة الملذات والفسق » (٧٤) . وكثرت هذه التهم وأمثالها في أواخر الألف السنة الأولى بعد الميلاد ، فهاهو ذا رالف جلابر Ralph Glaber يصف قساوسة ذلك العهد بأنهم يشاركون أهلهم في فسادهم الخلقي ، وها هو ذا راهب إيطالى يدعى بطرس داميان Peter Damian (١٠٠٧ - ١٠٧٢) يعرض على البابا كتاباً يسمى Liber Gomorrhianus ويصف فيه بالمغلاة التي يتوقعها الإنسان من رجل متمسك بدينه ، ما يرتكبه القساوسة من رذائل ، وفي هذا الكتاب فصل عن « مختلف الخطايا المناقضة للطبيعة » . ويطالب داميان في هذا الكتاب بقوة أن يحرم الزواج على رجال الدين .

وكانت الكنيسة من زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجته وأبنائه في منزلة أعلى من إخلاصه للكنيسة سواء أدرك ذلك أو لم يدركه ، وأنه سيميل من أجلهم إلى جمع المال أو المتاع ، وأنه سيحاول أن ينقل كرسيه أو مرتبه لأحد أبنائه ، وأن هذا قد يؤدي إلى قيام طبقة وراثية

من رجال الدين في أوروبا تشبه مثلتها في بلاد الهند ، وأن ما يضيفه هذا السلطان الاقتصادي على التساوسة ذوى الأملاك يزيد في قوتهم إلى الحد الذى تعجز معه البابوية عن السيطرة عليهم . ويضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله والكنيسة وبني الإنسان ، وأن مستواه الأخلاقى يجب أن يعلو على مستوى أخلاق الشعب ، وأن يضفى عليه مستواه هذا المكانة التى لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه . وكانت عدة مجالس كنسية قد طالبت بفرض العزوبة على التساوسة ؛ وكان واحدا منها — هو الذى عقد في بافيا عام ١٠١٨ — قد أصدر قراراً يفرض فيه العبودية الدائمة والحرمان من الميراث على جميع أبناء القسيسين^(٧٥) ، لكن رجال الدين ظلوا مع ذلك يتزوجون .

ووجد ليو التاسع أن كرسى الرسول بطرس قد افتقر لكثرة ما يوصى به رجال الدين من أملاك الكنيسة لأبنائهم ، ولاستيلاء الأعيان على ضياع الكنيسة ، ومن سطو قطاع الطرق على الحجاج الذين يأتون بالأدعية ، والملمتسات ، والنذور إلى رومة ، ولهذا وضع نظاما لحماية الحجاج ، وأعاد إلى الكنيسة ما خرج من أملاكها ، وشرع يسطاع بهذا الواجب الثقيل ، واجب تحريم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج التساوسة . وقد بدأ عمله بأن أحال أعمال البابوية الداخلية والإدارية إلى الراهب المتبتل الحضيف الذى أصبح فيما بعد جريجورى السابع ، ثم غادر رومة في عام ١٠٤٩ ، معزما أن يتعرف بنفسه أخلاق رجال الدين وأعمال الكنائس في مدائن أوروبا الكبرى . وسرعان ما أعادت هيئته الشخصية ، وصرامته غير المتكلفة ، ما كان لرئيس الكنيسة الأعلى في قلوب الناس من إجلال ؛ فأخضت الرذيلة رأسها لمقدمه ، وارتعدت فرائص جعفرى اللورى الذى نهب الكنائس وتحدى المولحين أصدر البابا قراراً بحرمانه ، وخضع صاغراً للجلد علناً أمام مذبح الكنيسة التى خربها في فردان ، وتعهد بأن يصلح ما خربه منها ، وأخذ يعمل في إصلاحها بيديه . وعقد ليو محكمة بابوية في كولونى ، وقوبل فيها بجميع مظاهر

الإجلال من رجال الدين الألمان الذين كانوا يفخرون بوجود بابا ألماني . ثم انتقل ليو إلى فرنسا ورأس محكمة في ريمس ، وأخذ يفحص عن أخلاق رجال الدين وغير رجال الدين ، وعن بيع المناصب الكنسية ، وانتهاج أملاك الكنيسة ، وتحلل رهبان الأديرة من قوانينها ، وانتشار الزندقة في البلاد . وأمر كل من حضر المحكمة من الأساقفة أن يعترف بخطاياهم ، فأخذ كل منهم ، واحداً بعد واحد ، ومنهم رؤساء الأساقفة أنفسهم ، يتهم نفسه . وأنهم ليو أشد التأنيب ، وأعفاهم من مناصبهم ، وعفا عن بعضهم ، وحرّم أربعة من حظيرة الدين ، واستدعى غيرهم إلى رومة ليكشفوا علنا عن سيئاتهم . وأمر رجال الدين أن يخرجوا زوجاتهم وسرايهم ، وأن يمتنعوا عن استعمال الأسلحة . ثم أصدر مجلس رومة فضلاً عن هذا قراراً يقضى بأن يختار رجال الدين وعامة الشعب الأساقفة ورؤساء الأديرة ، وحرّم بيع المناصب الكهنوتية ، ونهى رجال الدين عن أخذ الأجور نظير تقديم القرابين ، أو عيادة المرضى ، أو دفن الموتى . وأجرى مجلس عقد في مينز (١٠٤٩) بإلحاح ليو ، لإصلاحات شبيهة بهذه الإصلاحات في ألمانيا . وعاد ليو إلى إيطاليا في عام ١٠٥٠ ورأس مجلس قرشلي Vercelli وحرّم فيه آراء برنير التورى Beregrner of Tours الخارجة على الدين .

ورد ليو بزيارته الطويلة الشاقة إلى شمالى أوروبا ما كان للبابوية من هبة ومنزلة سامية ، وأعاد الإمبراطور الألماني رئيساً للكنيسة الألمانية كما كان من قبل ، وأرغم الأسقفيات الفرنسية والأسبانية على الاعتراف بسلطان البابا عليها ، وخطا بعض الخطوات في سبيل تطهير الكنيسة من الرشا والدعارة . ثم قام بحملات أخرى في ألمانيا وفرنسا في عامى ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ورأس جمعية كنسية عظيمة في ورمز وأخرى في مانتوا Mantua ؛ ولما عاد آخر الأمر إلى رومة اضطلع بذلك الواجب البغيض ، واجب حماية الولايات البابوية بقوة السلاح . ذلك أن الإمبراطور هنرى الثالث كان قد وهبه دوقية بنفنتو ؛ ولكن پندلف Pandulf

دوق كهوا أبى أن يقر هذه المنحة واستولى على هذه الدوقية واستمسك بها معتمداً على تأييد النورمان أتباع ربرت جسكارد . وطلب ليو أن يرسل إليه جيش ألماني يساعده على طرد پندلف ولكنه لم يرسل إليه إلا سبعمائة رجل ، ضم إليهم بعض الإيطاليين غير المدربين ، وزحف بهم على النورمان ، وكاد فرسانهم وحدهم يبلغون ثلاثة آلاف من القراصنة المهرة في الحروب . وأوقع النورمان بجيش ليو هزيمة منكرة ، وأسروه ، ثم ركعوا أمامه يطلبون إليه أن يعفو عنهم لأنهم قتلوا خمسمائة من رجاله . وساقوه بعدئذ إلى بنفنتو ، حيث قدموا إليه ما يليق بمقامه من مجاملة وتكريم ، ثم استبقوه سجيناً تسعة أشهر . وتحطم قلب ليو من الحزن وندم أشد الندم على امتشاق الحسام ، فحرم على نفسه أن يلبس غير الخيش ، وأن ينام إلا على بساط وحجر ، وكان يقضى اليوم كله إلا القليل منه في الصلاة . وأدرك النورمان أنه مشرف على الموت ، فأطلقوا سراحه ، ودخل رومة بين تهليل الشعب وفرحه ، وعفا عن جميع الذين حرمهم ، وأمر أن يوضع تابوت في كنيسة القديس بطرس ، وجلس بجواره يوماً واحداً مات بعده عند المذبح . وجاء العرج ، والبيكم ، والمجذومون من جميع أنحاء إيطاليا ليلمسوا جثته .

الفصل الثامن

الانشاق الأكبر في الشرق : ١٠٥٤

حدث الانفصال النهائي بين الكنيستين اليونانية واللاتينية في عهد جلوس سبانت ليو على كرسي البابوية . وبينما كانت أوروبا الغربية تتمخبط في ظلمات القرنين التاسع والعاشر ، وبؤسهما وجهاتهما ، كانت الإمبراطورية الشرقية ، تحت حكم أباطرتها المقدونيين (٨٦٧ - ١٠٥٧) ، تستعيد بعض ما استولى عليه العرب من أملاكها ، وتسترد زعامتها في جنوبي إيطاليا ، وتزدهر فيها الآداب والفنون من جديد . واستمدت الكنيسة اليونانية من عودة الثراء والسلطان إلى الدولة البيزنطية قوة وكرامة ، فأدخلت بلغاريا وبلاد الصرب في حظيرة الكنيسة الشرقية ، وقاومت بشدة لم يسبق لها مثيل ما كانت تدعيه البابوية المنحطة المعذمة من سلطان ديني مطلق على العالم المسيحي . وكان اليونان في ذلك العصر ينظرون إلى المعاصرين لهم من الألمان والأنجليسكسون على أنهم أقوام من الهمج الغلاظ ، وأنهم طائفة من غير رجال الدين الأميين ديدنهم العنف وتزعمهم فئة فاسدة من رجال الدين ، وكان رفض البابوية أن يكون الإمبراطور البيزنطي ملكاً على الفرنجة ، واستيلاء البابوية على مقاطعة رافنا ، وتتويج البابا لإمبراطور منافس لإمبراطور الشرق ، واندفاع البابوية إلى إيطاليا اليونانية - كانت هذه الحوادث السياسية التي تحز في النفوس لا الاختلاف القليل بين العقائد هي التي شطرت العالم المسيحي شطرين أحدهما شرق والآخر غربي .

في عام ١٠٤٣ عين ميخائيل كرولاريوس Cerularius بطريقاً للقسطنطينية . وكان كرولاريوس هذا رجلاً من أسرة نبيلة ، واسع الثقافة ، حاد الذهن ، قوى المزيمة . وكان في الأصل راهباً ولكن الذي رفع من شأنه

هو تاريخه السيامى لا تاريخه الدينى . فقد كان كبير وزراء الإمبراطورية ، وكان من أصعب الأمور على نفسه أن يقبل منصب البطريكية ، لو أنها كانت تتطلب منه الخضوع إلى رومة . وقد أذاع في عام ١٠٥٣ رسالة باللغة اللاتينية كتبها راهب يونانى يلوم فيها الكنيسة الرومانية أشد اللوم لإرغامها رجال الدين على العزوبة مخالفة بذلك أفعال الرسل وتقاليد الكنيسة ، ولاستعمالها خبزاً فطيراً في القربان المقدس ، ولإضافة الفقرة القائلة بأن الروح القدس ينبعث من الأب والابن إلى العقيدة النيقية . وأغاق كرولاوريوس في ذلك العام نفسه جميع كنائس القسطنطينية التى تستخدم الشعائر اللاتينية ، وحرم جميع القساوسة الذين يصرون على استخدامها ، وبعث ليو ، وكان وقتئذ فى أوج سلطانه ، برسالة إلى كرولاوريوس ، يطلب أن يعترف بطرق بسيادة البابوات ، ويصم كل كنيسة ترفض هذا الاعتراف بأنها « جميعية من الخارجين على الدين ، وجماعة من المنشقين ، ومعبد للشيطان » (٧٦) . ثم أرسل ليو وهو فى هذه الحالة النفسية رسلاً إلى القسطنطينية ليناقشوا الإمبراطور والبطريق فى الفوارق التى تبعد فرعى المسيحية أحدهما عن الآخر . واستقبل الإمبراطور رسل البابا بالترحاب ، ولكن كرولاوريوس أنكر عليهم حقهم فى معالجة تلك المسائل : ثم مات ليو فى شهر إبريل من عام ١٠٥٤ وظل كرسى البابوية شاغراً مدة عام . حتى إذا كان شهر يولية أخذ المندوبون هذه المسألة على عاتقهم ، ووضعوا على مذبح كنيسة أياصوفيا قراراً بحرمان كرولاوريوس ، فما كان من ميخائيل إلا أن عقد مجلساً يمثل المسيحية الشرقية على بكرة أبيها ، وكرر هذا المجلس جميع شكاوى الكنيسة اليونانية من الكنيسة الرومانية ، ولم تغفل فيها شكواها من حلق اللحى ، وشنع رسمياً على قرار المندوبين وعلى « كل من كانت له يد فى صياغته ، سواء أكان ذلك بمشورتهم أم بصلواتهم نفسها » (٧٧) . وبذلك تم الانشقاق بين الكنيستين ،

الفصل التاسع

جريجورى السابع هلدبراند (١٠٧٣ - ١٠٨٥)

كان من سوء حظ المسيحية أن وجدت فترة من الفوضى والضعف تفصل بين ولاية ليو التاسع وولاية بابا آخر من أقوى البابوات فى تاريخ الكنيسة .

وهلدبراند اسم ألماني يوحى بأن صاحبه من أصل ألماني ، ويفسره معاصرو جريجورى بأن معناه *الشجرة الخالصة* . وقد ولد من أبوين ينتميان إلى أسرة وضيعة فى قرية سوفانو Sovano الواقعة فى مستنقعات تسكانيا (١٠٢٣ ؟) ، وتلقى تعليمه فى دير سانت ماري القائم على تل الأفتين فى رومة ، ثم انضم إلى طائفة الرهبان البندكتيين . ولما أن خلع البابا جريجورى السادس من منصبه ونفى إلى ألمانيا فى عام ١٠٤٦ صلبه هلدبراند فى متفاه ليكون راعياً خاصاً ؛ وقد استفاد فى السنة التى قضىها فى كولونى الشيء الكثير عن ألمانيا ، وكان ما تعلمه ذا فائدة كبيرة له فى الصراع الذى نشب فيما بعد بينه وبين هنرى الرابع ، ولم يمض على عودته إلى رومة إلا قليل من الوقت حتى جعله ليو التاسع مساعد شماس أصيل ، وعينه مديراً للولايات البابوية ، واختاره فى الوقت نفسه مندوباً للبابا فى فرنسا ، وفى وسعنا أن ندرك من ارتقاء شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره إلى هذه المناصب العالية ما كان له من الكفاية فى الشئون السياسية والدبلوماسية ؛ وظل البابا فكتور الثانى (١٠٥٥ - ١٠٥٧) واستيفن التاسع (١٠٥٧ - ١٠٥٨) يستخدمانه فى المهام الكبرى ، ولما ارتقى نقولاس الثانى عرش البابوية فى عام ١٠٥٩ ، وكان أكبر الفضل فى ارتقائه إياه راجعاً إلى نفوذ هلدبراند نفسه ، عين هذا الراهب الذى لا غنى عنه وزيراً للبابا مع أنه لم يكن قد أصبح بعد قساً .

وكان هو الذى أقنع نقولاس ومجلس لاتران فى عام ١٠٥٧ بإصدار مرسوم

انتقل بمقتضاه حق انتخاب البابا إلى مجمع الكرادلة . وكان هدف هلدبراند من هذه الخطوة الحاسمة أن ينقذ البابوية من النبلاء الرومان والأباطرة الألمان ، وكان الشاب الديني والحاكم السياسي قد وضع منذ ذلك الوقت المبكر خطته السياسية البالغة الأثر . وقد رأى أن ينقذ البابوية من السيطرة الألمانية بأن يغمض عينه عن غارات النورمان وصلفهم في إيطاليا الجنوبية ، وأن يعترف بامتلاكهم ما انزعوه من الأرض ، ويوافق على مطامعهم ، نظير تعهدهم له بحماية الحرية . ورفع هلدبراند في عام ١٠٧٣ إلى عرش البابوية بعد أن خدم ثمانية بابوات مدة خمس وعشرين سنة ، واقد قاوم هو هذا الاختيار لأنه كان يفضل أن يعمل من وراء هذا العرش ، واكن الكرادلة ، والقساوسة ، والشعب عامه نادوا قائلين : « إن القديس بطرس يريد أن يكون هلدبراند بابا ! » . ولهذا رسم قسيسا ، ثم عين بابا ، واتخذ لنفسه ذلك اللقب المبجل - جريجورى .

وكان قصير القامة ، عادى الملامح ، حاد البصر ، عزيز النفس ، صلب الإرادة ، قويا في الحق ، واثقا من النصر ، تلهمه وتشجدهمته أربعة أغراض : أن يتم ما بدأه ليو من تقويم أخلاق رجال الدين ، وأن يضع حداً لتولى غيرهم المناصب الدينية ، وأن يوحد أوروبا كلها تحت سلطان كنيسة واحدة وجمهورية واحدة برياسة البابوية ، وأن يوجه جيشاً مسيحياً إلى بلاد الشرق ليسترد الأرض المقدسة من الأتراك . وقد كتب في عام ١٠٧٤ إلى أعيان برغندي وسافوى ، وإلى الإمبراطور هنرى الرابع ، يرجوهم أن يجمعوا المال ويحشدوا الجند للقيام بحرب صليبية يعزم أن يقودها بنفسه ، فأما أعيان برغندي فلم يتحركوا لتلبية ندائه ، وأما هنرى فقد حال ترعزع مركزه فوق عرشه بينه وبين التفكير في حرب صليبية .

وكان مجلس لائران المنعقد برياسة نقولاس الثانى وهدلبراند فى عام ١٠٥٩ قد حرم من حظيرة الدين كل قس يحتفظ بزوجة أو سرية ، ونهى المسيحيين

عن حضور القداس الذى يقيمه قس يعرفون أنه يحتفظ بامرأة فى بيته ، ولم يشأ كثيرون من أساقفة لمبارديا أن يشتتوا أسر قساوستهم فأبوا أن يذنبوا هذه القرارات ، وأخذ بعض رجال الدين المعروفين فى تسكانيا يبدافعون عن مبدل زواج القساوسة ويقولون إنه يتفق مع الأخلاق ومع قوانين الكنيسة . وبذلك أصبح تنفيذ هذا التشريع غير مستطاع ، وتذرع الوعاظ الخارجون على الدين بالرأى القائل إن القساوسة الذين يعيشون « آثمين » لا يستطيعون القيام بمراسم العشاء الرباني الصحيحة فأخذوا ينادون متحمسين ببطلاق هذه المراسم ، مما اضطر البابوية إلى الرجوع فى دعوتها هذه إلى جماهير المصلين (٧٨) . ولما أصبح هلدبراند هو جريجورى السابع (١٠٧٣) تصدى لهذه المشكلة بعزيمة لا تثنى ولا تعرف الملل ، فجدد مجمع دىنى عقد فى عام ١٠٧٤ قرارات ١٠٥٩ ، وأرسل جريجورى هذه القرارات إلى جميع أساقفة أوروبا ومعها أمر صارم لهم بإذاعتها وتنفيذها بالقوة ، وأباح لعامة الشعب ألا يطيعوا أمر من يخالفها من القساوسة ، وكان لهذه الأوامر هى الأخرى رد فعل عنيف ، فأعلن كثيرون من القساوسة أنهم يفضلون التخلّى عن مناصبهم على التخلّى عن أزواجهم ، وعارض غيرهم فى تنفيذ القرارات لأنها تفرض على الطبيعة البشرية قيوداً لا يقبلها العقل السليم ، وتنبأوا بأن تنفيذها سينشر الاختلاط الجنسى السرى ، وأعلن أنو أسقف كنستانس بأنه يجبّد آراء قساوسته المتزوجين ويحميهم من العدوان ، فما كان من جريجورى إلا أن أصدر قراراً بحرمانه ، وأعطى رعاياه من إطاعة أوامره . وخطا جريجورى خطوة أخرى فى عام ١٠٧٥ فأمر أذواق سوايبيا وكارنثيا ، وغيرهم من الأمراء أن يلجأوا إلى القوة إذا دعت الضرورة لمنع من يقاومون أوامره من القساوسة من أداء واجبات مناصبهم ؛ وأطاعه عدد من الأمراء الألمان ، وحرّم كثيرون من القساوسة الذين أبوا أن يتخلّوا عن أزواجهم من مناصبهم (٧٩) . ومات جريجورى دون أن يتم له النصر ، ولكن لإرباب الثانى ، وبسكال الثانى ،

وكلكتوس Calixtus الثانى أكدوا قراراته ونفذوها ، حتى إذا كان عام ١٢١٥ أصدر مجلس لا تران برياسة إنوسنت الثانى قراراً نهائياً بتحريم زواج القساوسة وأخذت هذه العادة بعد ذلك تزول .

وبدت مشكلة المناصب الدينية أبسط من مشكلة زواج القسيسين . فإذا سلمنا بأن المسيح قد أنشأ الكنيسة ، وهو الرأى الذى يجمع عليه الملوك والبابوات ، اتضح أن رجال الكنيسة ، لا العلمانيين هم الذين يحق لهم أن يختاروا الأساقفة ورؤساء الأديرة ، ولهذا كان من أكبر العار ألا يكتفى الملوك بتنصيب الأساقفة ، بل أن يخلعوا عليهم فوق ذلك (كما يحدث فى ألمانيا) عصا الأسقفية وخاتمها — وهما الرمزان المقدسان للسلطة الروحية . ولكن الملوك كان لهم رأى لا يقل عن هذا وضوحاً . فإدام الأساقفة ورؤساء الأديرة يسلمون (كما يسلم معظم الأساقفة الألمان ورؤساء الأديرة منهم) أن الملوك قد وهبهم الأرض والدخل ، وألقوا عليهم التبعات الزمنية ، فقد يبدو خليقاً بهم وعدلاً — حسب قوانين الإقطاع — أن يكون أولئك الرؤساء الدينيون — أو الأساقفة منهم فى القليل — مدينين بمناصبهم وولائهم الزمنى للملوك ، كما ظلوا مدينين بها فى غير تدمير فى عهد قسطنطين وشارلمان . فإذا ما أعفوا من هذا الخضوع وذاك الولاء خرجت نصف الأراضي الألمانية — التى منحت فى السنين السابقة للأسقفيات والأديرة — عن سلطان الدولة ^(٨٠) ، وعما اعتاد أن يؤديه لها أصحابها من واجبات وخدمات . وأرتاب الأساقفة الألمان وكثيرون من الأساقفة اللمبارد المتتمون إلى أصل ألماني والمدينون بمناصبهم إلى الألمان فى نيات جريجورى وظنوا أنه يسعى للقضاء على استقلالهم الكنسى النسبى وإخضاعهم لكرسى رومة إخضاعاً تاماً . أما جريجورى نفسه فكان راضياً بأن يحتفظ الأساقفة بولائهم الإقطاعى للملك ^(٨١) ، ولكنه لم يكن يرضى بأن يردوا الأراضي التى وهبها الملوك لهم ^(٨٢) ، ذلك أن قانون الكنيسة لا يجيز انتقال ملكية أراضي الكنيسة لغيرها . وشكا جريجورى من أن تعيين غير

رجال الدين في المناصب الكنسية قد نشأت عنه معظم المفاصل الخاصة ببيع المناصب الكهنوتية ، والانغماس في الشرور الدنيوية ، والفساد الخلقى وهى الآثام التى ظهرت فى الأبرشيات الألمانية والفرنسية . ولهذا كان يرى أن من الواجب إخضاع الأساقفة لسلطان البابا ، وإلا صارت الكنيسة الغربية ، كما صارت الكنيسة الشرقية ، تابعاً ذليلاً للدولة .

وكان من وراء هذا الصراع التاريخى صراع آخر هو صراع البابوية مع الإمبراطورية ، وهل من حق هذه أو تلك أن توحد أوروبا وتبكيها . وكان الأباطرة الألمان يدعون أن سلطتهم هم أيضاً سلطة مقدسة لأنها من ضرورات النظام الاجتماعى . ألم يقل الرسول بولس إن السلطات القائمة مقدرة من عند الله ؟ أليسوا هم كما يقول البابوات أنفسهم ورثة إمبراطورية رومة ؟ فهم المدافعون عن حرية الجزء كما يدافع جريجورى عن وحدة الكل وعن النظام فيه ؟ وكان يسوءهم هم أنفسهم - قبل حركة الإصلاح الدينى بزمان طويل - أن ينساب الذهب فى شكل أجور وهبات لكنيسة بطرس - من ألمانيا إلى إيطاليا^(٨٣) ، وكانوا يرون أن السياسة البابوية ليست إلا جهوداً تبذلها رومة اللاتينة لإعادة سيطرتها القديمة على البلاد التى تزدريها إيطاليا وتسميها بلاد الشمال التيوتوتية الهمجية . وكانوا يعترفون اعترافاً صريحاً بسلطان الكنيسة فى الشؤون الروحية ، ولكنهم يؤكدون 'سلطان الدولة فى الشؤون الزمنية أو الدنيوية . وكان هذا يبدو فى نظر جريجورى ثنائية غتلة النظام ، ويرى أن الاعتبارات الروحية يجب أن تعلو على الشؤون المادية كما تعلو الشمس على القمر^(٨٤) ، ولهذا يجب أن تخضع الدولة للكنيسة - أن تخضع مدينة الإنسان لمدينة الله - فى جميع المسائل التى لها مساس بالعقيدة ، أو التعليم ، أو الأخلاق ، أو العدالة ، أو التنظيم الكنسى . ألم يعترف ملوك فرنسا وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة اعترافاً ضمناً بأن السلطة الروحية مصدر السلطة الزمنية وصاحبة السيادة عليها ، وذلك حين ارتضوا أن يمسحهم

البابوات أو يثبتوهم في مناصبهم ؟ إن الكنيسة بوصفها نظاماً إلهياً خليفة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية ؛ ومن حق البابا وواجبه ، بوصفه خليفة الله في أرضه ، أن يخلع الملوك غير الصالحين ، وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال (٨٥) ، وقد تسامل جريجورى في رسالة كتبها وهو غاضب إلى هرمان Hermann أسقف متز : « منذ الذى يجهل أن الملوك والأمراء يرجعون بأصولهم إلى الذين لا يعرفون الله ، ثم يتعالون ويصطنعون العنف والغدر ، ويرتكبون في الحقيقة جميع أنواع الجرائم . . . ويطالبون بحقوقهم في حكم من لا يقلون عنهم - أى الشعب - جشعاً وعماية وعجرفة لا تطاق ؟ » (٨٦) وقد بدا لجريجورى ، من نظرته إلى ماساد أوربا من فرقة سياسية ، وفوضى ، وحروب ، أن لا نجاة لها من هذا البؤس الذى خيم عليها دهرأ طويلا إلا بقيام نظام عالمى تتخلى فيه هذه الدول عن بعض سيادتها التى تعض عليها بالنواجذ وتعترف بالبابا سيداً اجتماعياً لها ، وبأنه هو الزعيم الأجل لجمهورية مسيحية ، أوربية في القليل ، إن لم تكن عالمية ٥

وكانت الخطوة الأولى في سبيل الوصول إلى هذه الغاية هي تحرر البابوية من السيطرة الألمانية ، والخطوة الثانية هي إخضاع جميع الأساقفة للكرسى البابوى ، إن لم يكن إخضاعاً تاماً ، فإلى الحد الذى يتحتم معه أن يكون الذين يختارونهم هم رجال الدين وشعب الأبرشية بإشراف أسقف يرشحه البابا أو المطران ، وألا يصبح الاختيار نهائياً وقانونياً إلا إذا أيدته رئيس الأساقفة أو البابا نفسه (٨٧) . وبدأ جريجورى عمله برسالة وجهها (١٠٧٣) إلى أسقف شالون Châlon أنذر فيها بأن يحرم فيليب أغسطس ملك فرنسا لأنه يبيع مناصب الأساقفة . ثم وجه في عام ١٠٧٤ رسالة عامة إلى الأسقفيات الفرنسية يدعوها إلى التشهير بجرائم الملك في حضرته ، وأن يتمتعوا عن أداء جميع الخدمات الدينية في فرنسا إذ أبى فيليب أن يصلح شأنه (٨٨) . وظل غير رجال الدين رغم هذا يعينون في المناصب الدينية ،

ولكن الأساقفة الفرنسيين ساروا على حذر وتركوا النزاع بحسم في ألمانيا نفسها .
واجتمع في فبراير من عام ١٠٧٥ مجمع من الأساقفة الطليان في رومة .
برئاسة جريجورى ، وأصدر قرارات تحرم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج
رجال الدين ، وتعيين غيرهم في المناصب الكنسية . وأسرع جريجورى بعد
صدور هذه القرارات لإسراعاً عجيباً فحرم خمسة أساقفة للمتاجرة بالرتب
الكهنوتية ، وكان هؤلاء الخمسة من مستشارى هنرى الرابع ، ثم أوقف
أسقفى باثيا وتورين ، وخلع أسقف پياسنزا Piacenza وأمر هرمان أسقف
بامبرج Bamberg بالحضور إلى رومة ليرى نفسه من الهم الخاصة بالمتاجرة
بالرتب الكهنوتية ، ولما حاول هرمان أن يرشو رجال المحكمة البابوية خلعه
جريجورى دون أدنى جمالة ، وطلب إلى هنرى بأدب ولطف أن يزشح
شخصاً يليق أن يخلفه أسقفاً لبامبرج . ولم يكتف هنرى بترشيح أحد
رجال حاشيته المقربين بل إنه نخلع عليه عصا الأسقفية وخاتمها دون أن
ينتظر موافقة البابا - وذلك لإجراء إن كان يتفق مع العادة المتبعة ،
فإن فيه تحدياً صريحاً لقرار مجمع رومة المقدس . وكأنما أراد هنرى أن
يجعل رفضه مطلب جريجورى أوضح مما ظهر بتحديثه هذا فعين أساقفة
لابرشيات ميلان ، وفرمو Fermo ، وأسبليتو - وهى بلدان قريبة كل
القرب من مقر البابا - وظل المستشارون المحرومون موضع عطفه ورعايته .

وبعث جريجورى في شهر ديسمبر من عام ١٠٧٥ برسالة احتجاج إلى
هنرى ، وأمر حاملها بأن يضيفوا إليها رسالة شفوية يندرون فيها الملك بالحرمان
إذا ظل يتجاهل قرارات مجمع رومة المقدس . فلما تلقى هنرى الرسالة عقد مجلساً
من الأساقفة الألمان في ورمز (٢٤ يناير سنة ١٠٧٦) حضره أربعة وعشرون
منهم ، وتختلف عنه بعضهم . وقبل أن ينعقد المجلس اتهم هيو Hugh أحد
الكرادلة الرومان جريجورى بالفسق ، والقسوة ، والسحر ، وبأنه توصل إلى
كرسى البابوية بالرشوة والعنف ، وذكر الأساقفة بأن العادات التى ظلت سارية

من قرون طوال تتطلب ألا يكون اختيار البابا مشروطاً بموافقة إمبراطور ألمانيا ، ولم يكن جريجورى قد طلب هذه الموافقة . . وكان مما شجع الإمبراطور على المضي في خطته أنه أخضع منذ قليل فتنة قامت في سكسونيا ، فعرض على المجلس اقتراحاً بخلع البابا ، ووقع جميع من حضر من الأساقفة هذا القرار ، وأيده مجلس من أساقفة لمبارديا عقد في بياسنزا ، وبعث هنرى بهذا القرار إلى جريجورى مديلاً بهذه الحاشية المتتمة : « من هنرى الملك بأمر الله لا بالاغتصاب إلى هلدبراند الراهب المزيف لا البابا » (٨٩) . وسلمت الرسالة إلى جريجورى في مجمع مقدس برومة (٢١ فبراير سنة ١٠٧٦) ، وأراد الأساقفة الحاضرون كلهم البالغ عددهم مائة أسقف وعشرة أساقفة أن يقتلوا الرسول ، ولكن جريجورى حماه ، وحرم المجمع المقدس الأساقفة الذين وقعوا قرار ورمز ، وأصدر البابا حكماً مثلاً بجرمان هنرى ، ولعنته ، وخلعه ، وأعطى رعاياه من يمين الطاعة له (٢٢ فبراير سنة ١٠٧٦) . ورد هنرى على هذا بأن أقنع أساقفة أوترخت بأن يصبوا على جريجورى « الراهب الخائن » اللعنات من منبر الكنيسة . وروعت أوروبا كلها بأن يخلع البابا إمبراطوراً ، وروعت أكثر من هذا بأن يخلع الإمبراطور بابا ويلعنه الأساقفة . وتبين أن العاطفة الدينية كانت أقوى من العاطفة القومية ، وسرعان ما تخلى الرأى العام عن الإمبراطور ، وعادت سكسونيا إلى الثورة ، ولما أن استدعى هنرى أساقفة مملكته وأعيانها إلى مجلسين يعقدان في ورمز ومينز أغفلت دعوته إغفالاً يكاد يكون تاماً . بل كان ما حدث هو نقيض هذا فقد وجد الأشراف الألمان في هذه الظروف فرصة سانحة لهم لتقوية سلطتهم الإقطاعية ضد الملك فاجتمعوا في تريبور Tribur (١٦ أكتوبر سنة ١٠٧٦) ، ووافقوا على حرمان الإمبراطور ، وأعلنوا أنه إذا لم يحصل على مغفرة من البابا قبل اليوم الثانى والعشرين من شهر فبراير عام ١٠٧٧ فلأنهم سيرشحون خلفاً له على العرش . وتم الاتفاق بين الأعيان ومندوبى البابا في

تريبور أن يجتمع مجلس في أوجزبرج في اليوم الثاني من فبراير عام ١٠٧٧ برياسة البابا لتسوية شئون الكنيسة والمملكة .
ولجأ هنرى إلى اسبير مغلوباً على أمره لا يكاد يجد له معيناً . وكان يعتقد أن المجلس المقترح سيؤيد خلعه من ملكه ، فبعث بالرسول إلى رومة ، يعرض على البابا أن يأتي هو بنفسه إليه ويسأله المغفرة ؛ ورد عليه جريجورى بأنه مزع أن يسافر قريباً إلى أوجزبرج ولهذا فإنه لا يستطيع استقبال هنرى في رومة . وبينما كان البابا في طريقه إلى تلك المدينة استضافته في مانتوا مائتدا كونتة تسكانيا وصديقه وموئده ؛ وهنا عرف أن هنرى قد دخل إيطاليا ؛ وخشى جريجورى أن يحشد الملك جيشاً من سكان لمبارديا المعارضين للبابا ، فليجأ إلى قصر مائتدا الحصين في كانوسا Canossa ، القائم فوق جبال الأبين بالقرب من رجيو إميليا Reggio Emilia . وهناك في الخامس والعشرين من شهر يناير سنة ١٠٧٧ ، وفي يوم من أيام الشتاء الذى لم تشهد إيطاليا مثيلاً له في برودته ، أقبل هنرى ، كما يقول التقرير الذى بعث به جريجورى إلى الأمراء الألمان :

« بنفسي إلى كانوسا . . . وليس معه إلا عدد قليل من أفراد حاشيته . . . ووقف بباب القصر ، حافياً ، وليس عليه إلا أثواب بالية من الصوف ، يتوسل إلينا والخوف يملأ قلبه أن نغفر له ونعفو عنه . . . وظل يفعل هذا ثلاثة أيام رثا فيها كل من حولنا لشقوته ، وجاءوا يشفعون له بدموعهم وصلواتهم . . . فرغنا آخر الأمر الحرمان عنه وقبلناه مرة أخرى في حظيرة الكنيسة أمنا المقدسة » (٩٠) .

ولم يكن تردد جريجورى طوال هذا الوقت ناشئاً من قسوة قلبه ، بل إنه قد قرر مصالحة هنرى دون أن يستشير الأمراء الألمان ؛ وكان يعرف أنه إذا شجع هنرى عليه بعد أن عفا عنه ، ثم حرمه مرة أخرى ، فإن هذا الحرمان لن يكون له من الأثر ما كان لحرمانه الأول ، ولن يؤيده الأشراف بنفس القوة التى أبدوه بها من قبل ؛ ولن يسهل على العالم المسيحي أن يفهم كيف يأبى خليفة

لمسيح أن يعفو عن هذا التائب الدليل . وكان هذا الحادث نصراً روحياً لجريجورى ، ولكنه كان إلى جانب هذا نصراً دلب ماسياً بارعاً هنرى ، فقد استعاد به عرشه من تلقاء نفسه وعاد جريجورى بعد ذلك إلى رومة وقضى العامين التاليين فى إصدار التشريعات الكنسية التى كانت تهدف قبل كل شئ إلى إرغام القساوسة على عدم الزواج . غير أن الأمراء الألمان نادوا برودلف أمير سوابيا ملكاً على ألمانيا (١٠٧٧) وبدأ أن سياسة هنرى قد أخفقت . لكنه بعد أن تجر من اللعنة البابوية لى عطفاً جديداً من الشعب الذى لم يكن شديد الحب للأشراف ، فحشد جيشاً جديداً لتأييده ، وظلت ألمانيا عامين كاملين تمزقها الحروب الداخلية . وظل جريجورى يتدلب طويلاً ، ثم أعلن تأييده لرودلف وحرّم هنرى مرة أخرى ، وحرّم على المسيحيين أن يخدموه ، وعرض على كل من يتطوع تحت راية رودلف أن يغفر له خطاياہ (مارس سنة ١٠٨٠) (١٩) .

وفعل هنرى ما فعله من قبل لم يتحول عنه قيد شعرة . فجمع فى مينز مجلساً من الأعيان والأساقفة الموالين له ، وخلع المجلس جريجورى ، وأبد مجلس من أساقفة ألمانيا وشمالي إيطاليا عقد فى بركسن Brixen قرار الخلع ، ونادى بجيبير Guilbert كبير أساقفة رافنا بابا ، وعهد إلى هنرى أن ينفذ قراراته . واجتمع الجيشان المتعاديان على ضفاف نهر السال Saale فى سكسونيا (١٥ أكتوبر سنة ١٠٨٠) ، وهزم هنرى ولكن رودلف قتل فى المعركة . وبينما كان الأعيان متقسمين على أنفسهم بشأن من يختارونه خلفاً له ، دخل هنرى إيطاليا ، واخترق لمبارديا دون أن يلقى مقاومة ، وجيش وهو يخرقها جيشاً آخر ، وضرب الحصار على رومة . واستغاث جريجورى بربرت جسكارد ولكن ربرت كان بعيداً عنه ، فاستغاث بوليم الأول وكان جريجورى قد وافق على فتحه لإنجلترا وأبد هذا الفتح ، ولكن ولیم لم يكن واثقاً من أنه لا يريد أن يفقد هنرى حجه الملكية . وهاضج أهل رومة عن رئيسهم الدينى دفاع الأبطال ، ولكن هنرى استطاع أن يستولى

على جزء كبير من رومة وفيه كنيسة القديس بطرس ، وفر جريجورى إلى كاستلوساننا أنجيلو Castello Sant Angelo . واجتمع مجمع مقدس فى قصر لاتران بدعوة من هنرى ، وخلع جريجورى وحرمه ، ونادى بجيبير بابا باسم كلمنت الثالث (٢٤ مارس سنة ١٠٨٤) ، وبعد أسبوع من ذلك الوقت توج كلمنت هنرى إمبراطوراً ، وظل هنرى سيد رومة عاماً كاملاً .

غير أن ربرت جسكارد عاد من حروبه مع بيزنطية فى عام ١٠٨٥ ، واقترب من رومة على رأس جيش مؤلف من ٣٦,٠٠٠ رجل ، ولم يكن عند هنرى جيش يستطيع به ملاقاته هذه القوة ، ففر إلى ألمانيا ، ودخل ربرت العاصمة ، وحرر جريجورى ، ونهب رومة ، وخرب نصفها ، وأخذ معه جريجورى إلى مونتي كسينو . واشتد غضب العامة فى رومة على النورمان غضباً لم يستطع معه البابا حليفهم أن يأمن على نفسه فى ذلك المكان . وعاد كلمنت إلى رومة متظاهراً بأنه البابا ، وذهب جريجورى إلى سالرنو ، وعقد فيها مجمعاً مقدساً آخر ، وحرّم هنرى مرة أخرى ، ثم خارت قواه الجسمية والروحية وقال : « لقد كنت أحب العدالة وأمقت الظلم ، ولهذا فلانى أموت متغيّاً » : ولم يكن قد تجاوز الثانية والستين من عمره ، ولكن النزاع المرير الذى خاض غماره قد حطم أعصابه وهد قواه ، ولم تترك له هزيمته الظاهرة على يد الرجل الذى عفا عنه فى كانوسا رغبة فى الحياة . ومات جريجورى فى سالرنو فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٠٨٥ .

وبعد فلعله كان متغطراً فوق ١٠٠ يجب فى حبه للعدالة ، ومتحمساً فوق ما يجب فى كرهه للظلم ؛ وليس من حق الرجل العملى أن يرى ما فى مركز عدوه من عدالة ، بل إن ذلك من حق الفيلسوف وحده ، ولقد استطاع إنوسنت الثالث بعد مائة عام من ذلك الوقت أن يحقق جانباً كبيراً من حلم جريجورى ، وهو جمع العالم تحت لواء خليفة المسيح ، ولكنه حققه بروح أكثر اعتدالاً من روح جريجورى وبوسائل دبلوماسية أكثر من وسائله حكمة . ومع هذا فإن

لأنوسنت لم يظفر بهذا النصر إلا بفضل هزيمة جريجورى ، ولقد تغلق هلدبراند بأعلى مما يستطيع إدراكه ، ولكنه رفع البابوية مدة عشر سنين إلى أعلى ما عرفته من المجد والقوة قبل أيامه . ولقد انتصر فى حربه العوان على زواج القسيسين ، وهى الحرب التى لم يقبل فيها مهادنة ، وبذلك أعد لخلفائه قساوسة لا يدينون بالولاء لغير الكنيسة فزادت بذلك قوتها إلى أقصى حد . وانتهت حروبه ضد بيع الرتب الكهنوتية وحلول غير رجال الدين فى المناصب الدينية بنصر وإن جاء متأخراً ، ولكن آراءه كانت لها الغلبة فى النهاية ، وبذلك أصبح أساقفة الكنيسة خدماً طائعين للبابوية .. وقد أدى استخدامه للمبعوثين البابويين إلى بسط سلطان البابوات على كل أبرشية فى العالم المسيحى ، وهو الذى وضع الخطة التى حررت انتخاب البابا من سيطرة الملوك . وسرعان ما رفعت هذه الانتخابات إلى عرش البابوية طائفة متسلسلة متصلة الحلقات ، من الرجال الذين أدهشوا العالم بقوتهم وعظمتهم ، ولم تمض على موت جريجورى عشر سنين حتى اعترف ملوك العالم وببلاؤه بإربان الثانى زعيماً لأوروبا جميعها فى ذلك المزيج المؤلف من المسيحية ، والإقطاع والفروسية ، والاستعمارية ، وهو المزيج المعروف عندنا باسم الحروب الصليبية .

الباب الثاني والعشرون

الإقطاع والفروسية

٦٠٠ - ١٢٠٠

الفصل الأول

نشأة الإقطاع

تجمعت في الستة القرون التي أعقبت موث جستنيان ظروف عجيبة كان لها أثر بطيء في التغيير الأساسي الذي حدث في الحياة الاقتصادية في عالم أوروبا الغربية .

فقد اجتمعت بعض الظروف التي أشرنا إليها من قبل ومهدت السبيل إلى عهد الإقطاع . ذلك أنه لما أصبحت مدن إيطاليا وغالة غير آمنة على نفسها أثناء الغارات الألمانية ، انتقل أعيان هذه المدن إلى قصورهم الريفية وأحاطوا أنفسهم بأتباعهم من الزراع ، وأسر من « الموالى » ، وأعوان عسكريين . وزاد حركة التفرق التي تهدف إلى تكوين وحدات اقتصادية شبه مستقلة في بلاد الريف قيام الأديرة التي كان رهبانها يفلحون الأرض ويشغلون ببعض الصناعات اليدوية ، ولم تعد الطرق صالحة للاحتفاظ بوسائل النقل وتبادل المتاجر لما أصابها من التخريب بسبب الحروب والإهمال من جراء الفقر . ونقصت إيرادات الدولة بسبب كساد التجارة واضمحلال الصناعة ، وعجزت الحكومات الفقيرة عن حماية الحياة والملك والتجارة . واضطرت قصور الأعيان في الريف بسبب المعقات القائمة في سبيل التجارة أن تسمى للاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية ، فأضحى الكثير من الأدوات التي كانت تشتري من المدن تصنع في الضباع الكبيرة منذ

القرن الثالث الميلادى . وتصف لنا رسائل سيدونيوس أبولينارس فى القرن الخامس سادة الريف وهم يعيشون عيشة الترف وسط ضياع رجة بفلاحها مستأجرون نصف مستعبدين ، وقد أصبحوا من ذلك الوقت البعيد يكونون أرسقراطية إقطاعية لها هاكها الخاصة^(١) وجيوشها^(٢) ولا يختلفون عن البارونات فى العهود المقبلة إلا فى قدرتهم على القيادة .

وكانت العوامل التى مهدت السبيل إلى قيام الإقطاع بين القرنين الثالث والسادس هى بعينها التى أقامته بين القرنين السادس والتاسع ، ذلك أن الملوك المروثنجيين والكارولنجيين أخذوا يؤجرون قوادهم وموظفيهم الإداريين بمنحهم مساحات من الأرض ؛ وأضحت هذه الإقطاعات فى القرن التاسع وراثية وشبه مستقلة بسبب ما طرأ من ضغط على ملوك الأسرة الكارولنجية . وأعدت غارات المسلمين ، والشماليين ، والمجر فى القرن الثامن والتاسع والعاشر نتائج الغارات الألمانية التى حدثت قبلها بستة قرون وزادتها قوة : فقد عجزت الحكومات المركزية عن حماية الأجزاء النائية عن عواصمها ، وأقام الأسقف أو البارون المحلى نظاماً فى مقاطعته وهيئة للدفاع عنها ، وظل محتفظاً بقوته ومحاكمه الخاصة . وإذا كان معظم المغيرين فرساناً فقد كان الطلب يكثر على المدافعين الذين يملك كل منهم جواداً ، وأضحى الفرسان لهذا السبب أهم من المشاة ، وهكذا نشأ فى فرنسا ، وإنجلترا فى عهد النورمان ، وفى أسبانيا المسيحية ، طبقة من الفرسان بين الدوق والبارون من جهة والفلاحين من جهة أخرى ، كما نشأت فى رومة القديمة طبقة من الفرسان بين الأشراف والعامّة . ولم ير الشعب حرجاً فى هذه التطورات ، فقد كانوا يتطلعون إلى وجود نظام عسكري يتولى حمايتهم مما يحيط بهم من الرعب ، ومن الهجمات التى قد تنقض عليهم فى أى وقت كان ، ولهذا الغرض كانوا يبنون بيوتهم أقرب ما تكون إلى قصر البارون المنيع أو الدبر الحصين ،

وهم يرددوا في تقديم ولائهم وخدماتهم إلى سيد يبسط عليهم حمايته القانونية أو دوق يستطيع قيادتهم . وخلق بنا أن ندرك ما عساه يتولاهم من الرعب لو أنهم فهموا خضوعهم هذا ؛ فهام أولاء رجال أحرار لم يعودوا قادرين على حماية أنفسهم ، يعرضون أرضهم وجهودهم على رجل قوى ويطالبون إليه في نظير ذلك أن يحميهم ويطعمهم ؛ وكان من عادة البارون في هذه الأحوال أن يقطع « رجلته » مساحة من الأرض يحتفظ بها بمقد يستطيع واهبها أن يلغيه في أى وقت يشاء ، وقد أضحي هذا التملك المزعزع الصورة المألوفة لامتلاك رقيق الأرض إياها ، فكان الإقطاع بمقتضاه هو خضوع الرجل من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية إلى رجل أسمى منه منزلة في مقابل تنظيم اقتصادى وحماية عسكرية .

وليس من المستطاع تعريف الإقطاع تعريفاً جامعاً مانعاً ، فقد كانت له صور تبلغ المائة عدا في مختلف الأزمنة والأمكنة . وكان منشأه في إيطاليا وألمانيا ، ولكن تطوره الخاص به إنما حدث في فرنسا . ولعله بدأ في بريطانيا بتحويل البريطانيين إلى أرقاء أرض على أيدي الفاتحين الأنجليسكسون^(٢) ، ولكن معظم خواصه في تلك البلاد قد جاء بها الغاليون من نورمندية ، ولم ينضج هذا النظام النضج الكامل في شمالي إيطاليا أو في أسبانيا المسيحية ، ولذلك لم يستطع كبار الملاك في الإمبراطورية الشرقية أن يثبتوا دعائم استقلالهم العسكرى والقضائى ، أو إقامة نظام الولاء المتدرج الذى بدأ في الغرب كأنه من مستلزمات الإقطاع . وبقيت أصقاع كبيرة من أوروبا الزراعية خارج نطاق النظام الإقطاعى : كالرعاة وأصحاب الضياع الخاصة بتربية الماشية في بلاد البلقان ، وشرق إيطاليا ، وأسبانيا ؛ وزراع الكروم في غربى ألمانيا ، وجنوبى فرنسا ؛ والزراع الأشداء في السويد والنرويج ؛ وطلائع التيويون فيما وراء نهر الإلب ؛ وأهل جبال الكريات ،

والألب ، والأينين ، والبرانس . ذلك أنه لم يكن يتوقع أن تكون لقارة
كأوروبا ، تختلف أجزاؤها بعضها عن بعض أشد الاختلاف في طبيعة أرضها
وأحوالها الاقتصادية ، نظام اقتصادى موحد . وحتى في داخل نظام الإقطاع
نفسه كانت ظروف التعاقد ومنزلة المتعاقدين تختلف باختلاف الأمم والملوك ،
والأزمنة المختلفة ؛ ولهذا فإن البحث التحليلى الذى سنصفه فيما بعد ينطبق
أكثر ما ينطبق على فرنسا وإنجلترا في القرنين الحادى عشر والثانى عشر .

الفصل الثاني

التنظيم الإقطاعي

١- العبد

كان المجتمع في تلك البلاد والأوقات يتكون من الأحرار ، ورفيق الأرض ، والعبيد . وكان الأحرار يشملون الأعيان ، ورجال الدين ، والجنود النظاميين ، وأصحاب المهن ، ومعظم التجار والصناع ، والفلاحين الذين يملكون أرضهم ولا يلتزمون إلا بالقليل ، أو لا يلتزمون بشيء على الإطلاق ، لأي سيد إقطاعي ، ولا يستأجرونها من سيد نظير لمجار نقدي .. وكان أولئك الفلاحون الملاك يكونون أربعة في المائة من الزراع في إنجلترا في القرن الحادي عشر ؛ وكانوا أكثر من هذا عدداً في غربي ألمانيا ، وشمال إيطاليا ، وجنوبي فرنسا . والراجح أنهم كانوا يكونون ربع الزراع في أوروبا الغربية (٤) .

ونقص عدد العبيد بازدياد عدد أرقاء الأرض ؛ وكان معظم عملهم في إنجلترا في القرن الثاني عشر مقصوراً على الخدمة المنزلية ، ولا يكاد يكون لهم وجود أرض فرنسا الواقعة شمال نهر اللوار ، وأخذ عددهم يزداد في ألمانيا في القرن العاشر ، حين لم يكن الناس يتخرجون أو يؤثبهم ضميرهم من القبض على الصقالبة الوثنيين ليقوموا بالأعمال اليدوية الحقةرة في الضياع الألمانية ، أو لبيعهم البلاد الإسلامية أو البيزنطية . كذلك كان التجار الصقالبة يخطفون المسلمين أو اليونان من الأراضي الممتدة على شواطئ البحر الأسود ، وسواحل آسيا الغربية ، وإفريقية الشمالية ، لبيعهم للعمل في الزراعة أو الخدمة المنزلية ، أو خضياناً ، أو سراري ، أو عاهرات في بلاد الإسلام والمسيحية . وراجت تجارة العبيد في إيطاليا

بنوع خاص ، وأكبر الظن أن منشأ ذلك هو قربها من البلاد الإسلامية حيث كان في وسع التجار أن يختطفوهم منها وهم مرتاحو الضمير ، فقد كان يلوح لهم أن اختطافهم هو انتقام عادل من المسلمين لغاراتهم على البلاد المسيحية .

وقد نخل إلى الناس ، وفيهم رجال الأخلاق الشرفاء ، أن هذا النظام الذي ظل قائماً من بداية التاريخ المعروف نظام أبدي لاغى عنه . ولما تنكر أن البابا جريجورى الأول أعنتى اثنين من عبيده ، ونطق في هذه المناسبة بعبارات خليقة بالإعجاب عما للناس جميعاً من حق طبيعي في الحرية (٦) ، ولكنه مع ذلك ظل يستخدم مئات العبيد في الضياع البابوية (٧) ، ويوافق على القوانين التي تحرم على العبيد أن يكونوا قساوسة أو أن يتزوجوا من المسيحيات الخرائ (٨) . وقد حرمت الكنيسة بيع الأسرى المسيحيين إلى المسلمين ، ولكنها أباحت استرقاق المسلمين والأوربيين الذين لم يعتنقوا الدين المسيحي . وكان آلاف من الأسرى الصقالبة أو المسلمين يوزعون عبيداً على الأديرة ، وظل الاسترقاق قائماً في أراضي الكنيسة وضياع البابوات حتى القرن الحادى عشر (٩) ؛ وكان القانون الكنسى يقدر ثروة أراضي الكنيسة في بعض الأحيان بعدد من فيها من العبيد لا يقدر ما تساويه من المال ، فقد كان يعد العبد سلعة من السلع كما يعد القانون الرمنى . سواء بسواء ، وحرّم على عبيد الكنائس أن يوصوا لأحد بأملأكهم ، وقرر أن ما قد يكون لهم وقت وفأهم من مال مدخر يوثل إلى الكنيسة (١٠) ؛ وقد أوصى كبير أساقفة نربونة في عام ١١٤٩ بعبيده المسلمين إلى أسقف بيزير Béziers (١١) : وكان القديس تومس أكويناس يفسر الاسترقاق بأنه نتيجة لخطيئة آدم ، وأنه وسيلة اقتصادية في عالم يجب أن يكدح فيه بعض الناس ليتمكنوا بعضهم الآخر من الدفاع عنهم (١٢) . وكانت هذه الآراء متفقة مع أقوال أرسطو ، وموائمة لروح عصرها . وكانت القاعدة المقررة في الكنيسة والتي تنص على أن أملاكها لا يمكن النزول عنها إلا بقيمتها الكاملة في السوق (١٣) ، كانت هذه القاعدة شراً على

عبيدها وأرقاء أرضها . فقد جعلت عتق العبيد والأرقاء في بعض الأحيان أصعب في أملاك الكنيسة منه في أملاك غيرها^(١٤) . غير أن الكنيسة مع هذا خطت خطوات متزايدة في تقييد تجارة الرقيق ، وذلك بتحريم استرقاق المسيحيين في الوقت الذي كانت المسيحية سريعة الانتشار .

ولم يكن اضمحلال نظام الاسترقاق ناشئاً عن ارتقاء الأخلاق ، بل كان نتيجة تطورات اقتصادية . فقد تبين أن الإنتاج الذي يؤدي إليه القسر الجسدي المباشر أقل ربحاً وأشد صعوبة من الإنتاج الذي يكون الحافز عليه هو الرغبة في التملك . ولقد ظل الاسترقاق قائماً ، وكانت كلمة *Servus* اللاتينية تطلق على العبد وعلى رقيق الأرض ، ولكن هذا اللفظ تطور مع الزمن واستحال إلى كلمة *serf* لرقيق الأرض ، كما تطورت كلمة *villein* ومعناها رقيق الأرض فأصبحت *villain* ومعناها الآن « وغد » ، وكما تطورت كلمة *Slave* ومعناها صقلي إلى كلمة *Slave* أى العبد . ولقد كان رقيق الأرض لا العبد هو الذي يصنع الخبز لعالم العصور الوسطى .

٢ - رقيق الأرض

الأصل في رقيق الأرض أنه رجل يفلح مساحة من الأرض يمتلكها سيد أو بارون يوجرها له طول حياته ويسقط عليه حمايته العسكرية ما دام يؤدي له أجراً لها سنوياً من الغلات أو العمل أو المال . وكان في وسع هذا المالك أن يطرده منها متى شاء^(١٥) ، وإذا مات لا تنتقل الأرض إلى أبنائه إلا بموافقة المالك ورضائه . وكان من حق هذا المالك في فرنسا أن يبيع الرقيق مستقلاً عن الأرض بثمن يعادل أربعين شلناً (حوالي ٤٠٠ ؟ دوال أمريكي) ، وكان مالكة أحياناً يبيعه (أى أن يبيع عمله) مجزئاً بعضه لشخص وبعضه لآخر ، وكان في وسع هذا الرقيق في فرنسا أن يحل العقد الإقطاعي إذا أسلم الأرض وكل ما يملك إلى سيده ، أما في إنجلترا فقد حرم من هذا الحق - حق مغادرة الأرض - وكان الذين يفرون

من أرقاء الأرض في العصور الوسطى يعاد القبض عليهم بنفس الصرامة التي يعاد بها القبض على العبيد في هذه الأيام .

وكانت الواجبات الإقطاعية التي يؤديها رقيق الأرض للمالكها متعددة مختلفة الأنواع ، وما من شك في أن تذكرها وحده كان يحتاج إلى بعض الذكاء . (١) كان يؤدي في العام ثلاث ضرائب نقدية . (١) فرضة (ضريبة الرؤوس) وهي ضريبة صغيرة للحكومة عن طريق الممالك (ب) وإيجاراً قليلاً . (ج) ونفقة بقررها المالك كما يهوى وتؤدي إليه مرة أو أكثر من مرة في العام (٢) وكان يؤدي للمالك كل عام جزءاً من محصوله وماشيته ، تبلغ عادة عشرةا . (٣) وكان عليه أن يعمل عند المالك كثيراً من أيام السنة مسخراً من غير أجر ؛ وكان هذا النوع من الواجبات ميراثاً انحدر من النظم الاقتصادية القديمة ، حين كان الفلاحون مجتمعين يؤديون بعض الأعمال العامة كتقطيع أشجار الغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وشق القنوات ، وإقامة الجسور والحواجز ، بوصفها فرضاً واجباً عليهم للمجتمع أو للمالك . وكان بعض الملاك يتطلبون من الرقيق أن يعملوا عندهم ثلاثة أيام كل أسبوع في معظم السنة ، وأربعة أيام أو خمسة كل أسبوع في موسم الحرث أو الحصاد ؛ وكان من حقهم أن يطلبوا عند الضرورة عدة أيام أخرى لا يؤديون عنها إلا وجبات الطعام . ولم تكن هذه السخرة تفرض إلا على فرد واحد من الذكور في كل أسرة (٤) وكان على رقيق الأرض أن يطحن حبوبه ويخبز خبزه ، ويصنع جمته ، ويعصر عنبه في مصنع المالك ، أو تنوره ، أو خاييته ، أو معصرته ، وأن يؤدي له في نظير كل عمل من هذه الأعمال أجراً قليلاً (٥) وكان يؤدي أجراً آخر ليكون له حق صيد السمك ، أو اقتناص الحيوان البري ، أو رعى ماشيته وحيوانه الأليف في أراضي المالك (٦) وكان عليه أن يرفع قضاياها أمام محاكم صاحب الأرض ، وأن يؤدي في نظير هذا رسماً يختلف باختلاف خطر القضية (٧) وكان عليه أن يلي دعوة المالك في الانضمام

إلى قبله إذا نشبت الحرب (٨) وإذا أسر المالك كان على الرقيق أن يشتهك أداء فديته (٩) وكان عليه فوق ذلك أن يشترك في تقديم الهدايا القيمة المستحقة لابن المالك إذا رقى إلى مرتبة الفرسان (١٠) وكان يؤدي للمالك ضريبة عن كل ما يحمله من الغلات ليبيعه في السوق أو المعرض (١١) ولم يكن من حقه أن يبيع جمعه أو خمره إلا بعد أن يسبقه المالك بأسبوعين يبيع فيهما هو جمعه وخمره (١٢) وكان عليه في كثير من الأحيان أن يتناع قدرأ معيناً من خمر سيده كل عام ؛ فإذا لم يبتعها في الوقت المناسب (كما تقول إحدى مواد قانون الضيعة) « صلب المالك قدرأ من الخمر يعادل أربعة جالونات فوق سطح الرقيق ، فإذا جرى الخمر إلى أسفل كان على الرقيق أن يؤدي ثمنه ، وإذا جرى إلى أعلى لم يكن يلزم بأداء شيء ما » (١٣) . (١٤) وكان عليه أن يؤدي غرامة للمالك إذا ما أرسل هو ابناً له ليتعلم تعليماً عالياً أو وهبه للكنيسة لأن الضيعة بذلك تخسر يداً عاملة (١٥) وكان يؤدي ضريبة ، ويحصل على إذن من المالك إذا تزوج هو أو أحد أبنائه من شخص خارج عن نطاق الضيعة لأن المالك يخسر بهذا العمل بعض أبناء الزوج أو الزوجة أو يخسرهم كلهم ، وكان لابد من الحصول على هذا الإذن وهذه الضريبة في بعض المزارع في كل زواج أياً كان (١٦) ونستمع في حالات فردية عن « حق الليلة الأولى » أي حق السيد في أن يقضي مع عروس رقيق الأرض الليلة الأولى من زواجها ، ولكن الرقيق كان يسمح له أحياناً أن « يفترس » عروسه بأجر يؤديه للسيد (١٧) ؛ وقد بقي حق الليلة الأولى بصورته هذه في بافاريا حتى القرن الثامن عشر (١٨) . وكان المالك في بعض الضياع الإنجليزية يفرض غرامة على الفلاح الذي تأثم ابنته ؛ وفي بعض الضياع الأسبانية كانت زوجة الفلاح التي يحكم عليها في جريمة الزنى تؤول أملاكها كلها أو بعضها لصاحب الأرض (١٩) (٢٠) وإذا مات الفلاح ولم يكن له ولد يقيم معه عاد بيته وعادت أرضه إلى السيد تطبيقاً لحق الحكومة في أن ترث من لا وارث له ؛ وإن

كان وارثه ابنة غير متزوجة لم يكن لها أن تستبق الأرض إلا إذا تزوجت رجلاً يقيم في الضيعة نفسها ، وسواء كان للمتوفى وارث أو لم يكن له فقد كان من حق السيد إذا توفى المستأجر أن يستولى في صورة ضريبة التركات على ماشية ، أو قطعة من قطع الأثاث أو ثوب من تركة المتوفى ، ولقس الأسقفية في بعض الحالات أن يستولى على مثل رسوم الوفاة هذه^(٢١). ولم تكن رسوم الوفاة تحصل في فرنسا إلا إذا لم يكن للمتوفى وارث يعيش معه في بيته . (١٧) وكان عليه في بعض الضياع وبخاصة في ضياع الكنيسة أن يؤدي ضريبة سنوية وضريبة تركات للقائد الذي ينظم وسائل الدفاع الحربى عن المقاطعة .

وليس في وسعنا أن نقدر مجموع الفروض الواجب على رقيق الأرض أداؤها بالنظر إلى هذه الرسوم والضرائب المتنوعة ، وهى رسوم وضرائب لم تكن كلها تحصل من كل أسرة . وقد قدرت في ألمانيا في خلال العصور الوسطى بثلاثي محصولاته^(٢٢) ، وكانت قوة العادة ، التى هى ذات السلطان الأكبر في الأنظمة الزراعية ، في صالح رقيق الأرض ؛ فقد كانت الرسوم التى يؤديها نقداً وعبئاً تنزع إلى الثبات كما هى على مر القرون^(٢٣) رغم ازدياد غلة الأرض وانخفاض قيمة النقد . وكان كثير من القيود والفروض التى تثقل كاهل الرقيق في العصور الوسطى يخففها أو يلغها تسامح الملاك ، أو المقاومة الفعالة من جانب الأرقاء ، أو نسيانها على مر الزمان^(٢٤) . ولعل ما يوصف به رقيق الأرض في العصور الوسطى من بؤس قد بولغ فيه ؛ فقد كان الجزء الأكبر من الرسوم التى تنزع منه بديلاً من الإيجار النقدى الواجب أداؤه للمالك ؛ وضرائب تؤدي للمجتمع لتمكنه من أداء الخدمات والأعمال العامة ، ولعل نسبتها إلى دخله كانت أقل من نسبة الضرائب التى تؤديها نحن في هذه الأيام إلى حكومة الاتحاد ، وإلى الولاية ، والمقاطعة ، والمدرسة^{(٢٥)*} . ولقد كانت حال الفلاح المتوسط في القرن الثامن عشر مماثلة

(*) يشير الكاتب هنا بطبيعة الحال إلى الولايات المتحدة الأمريكية . (المترجم) .

لحال بعض الزراع الذين يفتسمون مع الملاك غلة الأرض التي يزرعونها في الدول الحالية ، وكانت بلا شك خيراً من حال صعاليك الرومان في عهد أغسطس (٢٥) . ذلك أن المالك في ذلك الوقت لم يكن يعد نفسه مستغلاً ، بل كان يعمل بجدي في المزرعة ، وقلما كان موفور الثراء . وظل الفلاحون حتى القرن الثالث عشر ينظرون إليه نظرة الإعجاب ، ونظرة الحب في كثير من الأحيان ، وكانوا إذا ترمّل السيد ولم ينجب أبناء يوفدون إليه الوفود يلحون عليه بأن يتزوج مرة أخرى ، حتى لا يترك الضيعة دون وريث من نسله ، ففسوء حالها إذا تعرضت لحرب الوراثة (٢٦) . وكان الإقطاع ، كما كانت معظم الأنظمة الاقتصادية والسياسية في التاريخ ، ما لا بد له أن يكون لمواجهة مستلزمات المكان والزمان وفطرة الناس .

وكان كوخ الفلاح يقام من الخشب الهش الرقيق ، ويسقيف عادة بالقش . والعشب المتلبّد ، وأحياناً بالحصباء . ولم نسمع قط عن نظام لمقاومة الحريق قبل عام ١٢٥٠ ؛ ومن أجل هذا كانت النار إذا اشتعلت في أحد هذه الأكواخ أتت عليه وعلى كل ما فيه . وكان الكوخ في كثير من الأحيان يتكون من حجرة واحدة ولا يزيد قط على حجرتين ، وبه مدفأة يحرق فيها الخشب ، وتور ، ووعاء للعجين ، ومنضدة ، وبضعة مقاعد ، وصوان ، وصحاف ، وآنية ، ومجمرة ، ومرجل ، وحالة لتعليق الأوعية ، وحشية كبيرة من الريش أو القش قرب التنور مبسطة على الأرض ينام عليها الفلاح ، وزوجته ، وأبناؤهما ، وطارق الليل من الضيوف مختلطين بعضهم ببعض يدق بعضهم بعضاً . وكان فناء البيت مأوى الخنازير والدواجن ، وكانت النساء يعنين بنظافة البيت بقدر ما تسمح به الظروف ، ولكن الفلاحين الكادحين كانوا يجدون في تنظيف البيت مشقة كبيرة . وتحدثنا الأقاصيص أن الشيطان لا يقبل أرقاء الأرض في الجحيم لأنه لا يطيق رائحتهم (٢٧) . وكان بالقرب من الدار فضاء مسور للحصان والإبقار ، وقد يكون فيه أحياناً أخلاية للنحل وخن للدجاج ، وبالقرب منه كوم الروث يتكون من فضلات الحيوانات.

وأفراد الأسرة . وكان حول هذا كله أدوات الزرع والصناعات المنزلية ، وكان قط يحرس البيت من الفيران وكلب يشرف على هذا كله .

وكان الفلاح يرتدى قميصاً نصفياً من القماش أو جلد الحيوان ، وسرة من الجلد أو الصوف ، ومنطقة وسروالا ، وحذاء نصفاً أو عالياً ، وما من شك في أنه كان يبدو بملابسه هذه شخصاً قوياً لا يختلف كثيراً عن فلاح فرنسا في هذه الأيام . وليس من حقنا أن نصوره في صورة الشخص المظلوم المغلوب على أمره ، بل علينا أن نتمثله بطلا يفلح الأرض ، قوياً صبوراً ، تحفظ عليه كيانه كما يحفظ كيان كل إنسان غيره عزة كامنة مهما كانت بعيدة عن العقل والمنطق . ولم تكن زوجته أقل منه كدحاً من مطلع الفجر إلى مغيب الشمس . وكانت إلى هذا تنجب له الأبناء ، وإذا كان هؤلاء الأبناء قيمة اقتصادية في المزرعة فقد كانت تكثر منهم ، لكننا مع هذا نقرأ في أقوال بلاجيوس الفرنسي (حوالي ١٣٣٠) أن بعض الفلاحين « كثيراً ما كانوا يمتنعون عن مباشرة أزواجهم كيلا يلدن أبناء محتجين بأنهم يخشون لفقرهم أن يعجزوا عن تربيتهم إذا كثروا » (٢٨) .

وكان طعام الفلاح كافياً مغذياً — يتألف من منتجات اللبن ، والبيض ، والخضر واللحم ؛ وإن كان بعض المؤرخين المتطرفين يرون له لأنه كان يضطر إلى أكل الخبز الأسود — أى المصنوع من الدقيق غير المنخول (٢٩) . وكان يشترك في حياة القرية الاجتماعية ، ولكنه لم تكن له متع ثقافية ، فلم يكن يعرف القراءة ، لأن في وجود رقيق الأرض التي يعرفها إساءة إلى سيده الأمي . وكان يجهل كل شيء عدا الزرع ، وحتى هذا لم يكن بارعاً فيه . وكانت طباعه خشنة شديدة ، ولعله كان فظاً غليظ القلب . وقد اضطرت أحوال أوروبا المضطربة أن يعيش عيشة الحيوان الطيب ، وفي الحق أنه استطاع أن يعيش على هذا النحو . فقد كان لفقره شراً ، ونخوفه قاسياً ، وللكبت الواقع عليه عنيفاً ، وكان جلفاً لأنه يعامل معاملة الأجلاف : وكان هو عماد الكنيسة ، ولكنه كان لديه من

الخرافات أكثر مما كان لديه من الدين ، وقد اتهمه بلاحيوس بأنه كان يخدع الكنيسة فلا يؤدي إليها عشورها ، ويهمل في مراعاة أيامها المقدسة وأيام صومها ، ويشكو جوثيه ده كوانسى Gautier de Coincy (في القرن الثالث عشر) من أن رقيق الأرض « ليس في قلبه من خشية الله أكثر مما في قلب الشاة ولا يأبه مطلقاً بقوانين الكنيسة المقدسة » (٣٠) . وكانت له لحظات فكاهته الثقيلة السمجة ، ولكنه كان في حقله وفي بيته قليل الكلام ، صريح الألفاظ ، رزيناً ، يشغله كدحه المتواصل وأعماله الكثيرة عن أن يضع جهوداً في الكلام أو الأحلام . وكان رغم خرافاته وأقبح النزعة ، يدرك تصارييف الأقدار التي لا هوادة فيها ولا رحمة ، ويوقن أن الموت آت لا ريب فيه ، فقد كان جذب فصل من فصول العام يهلكه هو وحيواناته جوعاً . وقد حدث بين عامي ٩٧٠ و ١١٠٠ ستون فمحطاً حصدت الأهليين زرافات في فرنسا ، ولم يكن في وسع أى فلاح بريطاني أن ينسى ما حدث من القحط في عامي ١٠٨٦ و ١١٢٥ في إنجلترا المرحلة الطروب ، وقد روع أسقف تربيته في القرن الثاني عشر حين رأى الفلاحين يلجئون جواده ويأكلون لحمه (٣١) . ثم زاد الفيضان والوباء والزلازل الطين بلة وأحالت المسلاة - آخر الأمر مأساة .

٣ - مجتمع القرية

وكان جماعة من الفلاحين يترأض عددهم بين خمسين وخمسمائة يتألفون من أرقاء الأرض ، ونصف الأحرار ، والأحرار ، يبنون قريتهم حول قصر السيد الإقطاعي في الريف . ولم تكن بيوتهم منعزلة بعضها عن بعض بل كانت متجاورة داخل أسوار القرية لأن في قربها أماناً لهم . وكانت القرية عادة جزءاً من ضبعة واحدة أو أكثر من ضبعة ، وكان السيد المالك هو الذي يعين الكثرة الغالبة من موظفيها ، ولم يكونوا يسألون إلا أمامه وحده ، ولكن الفلاحين كانوا يختارون لهم عمدة

أورئيساً يتوسط بينهم وبين المالك وينسق نشاطهم الزراعى . وكانوا يجتمعون فى السوق فى فترات معينة ليتبادلوا السلع ، وكان هذا التبادل هو البقية الباقية من التجارة فى هذه الضيقة المكثفة بنفسها من الناحية الاقتصادية ، فقد كان البيت الريفى ينتج بنفسه ما يلزمه من الخضر وبعض ما يلزمه من اللحوم ، ويغزل صوفه أو كتانه ، وينسج معظم ما يحتاجه أفراده من الثياب . وكان حداد القرية يصنع الآلات الحديدية ، ودابغ الجلود يصنع البضائع الجلدية ، والنجار ينشئ الأكواخ ويصنع الأثاث ، وصانع العربات يصنع المركبات ، والقصارون ، والصباغون ، والبناعون ، وصانعو السروج ، والحذاوون ، والصبانون . . . كان كل هؤلاء يعيشون فى القرية أو يأتون إليها ليقيموا فيها بعض الوقت ليصنعوا ما يطلب إليهم صنعه ، وكان القصاب العام أو الخباز يتنافس الفلاح وزوجته فى إعداد اللحم والخبز .

وكانت تسعة أعشار الاقتصاد الإقطاعى قائمة على الزراعة . وقد جرت العادة فى فرنسا وإنجلترا فى القرن الحادى عشر أن تقسم أرض المزرعة إلى ثلاثة حقول : أحدها يزرع قمحاً أو شيلما ، وثانيها شعيراً أو شوفانا ، ويترك الثالث بوراً . وكان كل حقل يقسم قطعاً مساحة كل منها نحو فدان لإنجيزى أو نصف فدان يفصل كلا منها على الأخرى . حاجز من أرض غير محروثة . وكان موظفو القرية يحددون لكل زارع عدداً مختلفاً من القطع فى كل حقل ويحتمون عليه أن يتبع فيها دورة زراعية تجرى على خطة يضعها مجتمع القرية . وكان الأهليون مجتمعين يقومون فى الحقل بالعمليات الزراعية كلها من حرث وتمهيد ، وغرس وبذر ، وحصاد . ولعل توزيع قطع الفلاح الواحد بين ثلاث حقول أو أكثر كان يهدف إلى إعطائه نصيباً معادلاً لنصيب غيره من الأراضى غير المتساوية الخصوبة ، ولعل هذه القرية التعاونية كانت بقية من شيوعية يداثية لاتزال آثار قليلة منها باقية فى هذه الأيام . وكان من حق كل فلاح يؤدى ما عليه من الواجبات الإقطاعية بالإضافة إلى زرع

هذه القطع أن يقطع الأشجار ، ويرعى ماشيته ، ويجمع الكأأ الجاف من غابات الضيعة ، وأرض الكأأ المشاع فيها ، « وأرضها الخضراء » وكان له عادة حول كوخه ما يكفى من الأرض لإنشاء حديقة وغرس الأزهار .

ولم يكن علم الزراعة فى البلاد المسيحية الإقطاعية يضارع نظيره عند الرومان فى عهد كولمبلا *Columbella* أو عند المسلمين فى بلاد العراق أو الأندلس . وكانت أعقاب النبات وغيرها من النفايات تحرق فى الحقول لإخصاب التربة وتطهيرها من الحشرات والأعشاب الضارة ، وكان يتخذ من الطين الغضار (*) أو غيره من التراب والجير نوع من السماد البسيط ، فلم يكن يوجد فى ذلك الوقت مخصبات صناعية ، وكان ما يعترض النقل من صعاب يقلل استخدام روث الحيوان ، ولهذا كان رئيس أساقفة رون *Rouen* يلتقى أقذار اسطبلاته فى نهر السين بدل أن ينقلها إلى حقوله القريبة منها فى ديفيل *Deville* ، وكان الفلاحون يشتركون فى جمع دريهماتهم القليلة لشراء محراث أو زحافة يستعملونهما جميعاً . وظل الثور هو حيوان الجر عندهم حتى القرن الحادى عشر ؛ ذلك أن هذا الحيوان أقل نفقة من الحصان فى إطعامه ، وكان إذا كبرت سنه أكثر منه نفعاً . وإذا اتخذ طعاماً . ولكن صانعى السروج اخترعوا حوالى عام ١٠٠٠ بعد الميلاد الطوق الجامد الذى يمكن الحصان من جر حمل ثقيل دون أن يخنق ؛ وإذا وضع هذا الطوق فى عنق الحصان أمكنه أن يحرك فى اليوم الواحد ثلاثة أمثال ما يحركه الثور أو أربعة أمثاله . وإذا كانت سرعة الحرث مهمة فى الجواء المعتدلة الرطبة فقد أخذ الحصان فى القرن الحادى عشر يحل محل الثور ويفقد ما كان له من منزلة عالية جعلت الناس يحتفظون به من قبل للسفر ، والصيد ، والحرب (٣٢) . ودخلت السواقي أوروبا الغربية . وأواخر القرن الحادى عشر ، وكانت مستخدمة قبل ذلك يزمن طويل فى بلاد الشرق الإسلامية (٣٣) .

(*) السارل ويسمى أيضاً بالثمن وهو نوع من الطين الخزفى غنى بكميات الكلسيوم . (المترجم)

وكانت الكنيسة تخفف من كدح الفلاح بأيام الآحاد والأعياد التي كان « العمل الوضيع » فيها يعد إثمًا من الآثام . وفي ذلك يقول الفلاحون : « إن أثوارنا تعرف متى يحل يوم الأحد ، وهي لذلك تأتي أن تعمل في ذلك اليوم » (٣٤) . وكان الفلاح إذا فرغ من الصلاة في ذلك اليوم يغنى ويرقص ، وينسى في ضحكه الربى العالى أعباء الوعظ والمزرعة الثقال . وكانت الجمعة رخيصة الثمن ، وكان الحديث حراً طليقاً بديئاً . وكانت أقاصيص خليعة عن النساء تختلط بالخرافات الرهيبة التي تروى عن القديسين . وكانت ألعاب جنيفة ككرة القدم ، والهوكنى ، والمصارعة ، وقذف الأثقال يتبارى فيها رجل مع رجل . وكان قتال الديكة ، ومصارعة الثيران كثيرى الحدوث ، وكان تحمس النظارة يصل إلى غايته حين يحاول رجلان معصوبيا العينين ، مسلحان بالعصى الغليظة أن يقتلا إوزة أو خنزيراً داخل دائرة مغلقة . وكان الفلاحون في بعض الليالي يتزاورون ، ويلعبون ألعاباً داخل البيوت ، ويحتسون الخمر ، وكانوا في العادة يقضون أوقاتهم داخل البيوت ، لأن الحارات لم تكن مضادة ، وكانوا يأوون إلى الفراش مبكرين بعد أن تظلم الدنيا بقليل لأن الشموع كانت غالية الثمن . وكانت الأسرة إذا دخل الشتاء بليله الطويل تأوى الماشية في الكوخ وترحب بها وتفيد بما تحدثه فيه من الدفء .

وهكذا كان الفلاحون في أوروبا يطعمون أنفسهم ، وبساتيمهم ، وجنودهم ، وقساوستهم ، وملوكهم ، بكدحهم المتواصل وبسالتهم الصامدة ، لا بما تبعثه في نفوسهم الحوافز الصالحة من مهارة وقدرة على الابتكار . وكانوا يحفون المناقع ، ويقيمون الجسور والحواجز ، ويقطعون أشجار الغابات ، ويطهرون القنوات ، ويشقون الطرق ، ويبنون البيوت ، ويوسعون نطاق دائرة الحضارة ، ويكسبون المعركة القائمة بين الغابة والإنسان . وإن أوروبا الحديثة لما خلقتهم وصنع أيديهم ، ونحن إذا ما شاهدنا الآن تلك السباح الأنيقة ، والحقول المنظمة ، لانستطيع أن

نتصور ذلك الكدح الطويل ، والحن الشداد التي دامت عدة قرون ، والتي حطمت ظهور الرجال وقلوبهم ، والتي سخرت المواد الغفل التي تخرجها الطبيعة السخية على كره ، ووضعت بها الأسس الاقتصادية لحياتنا الحاضرة .

وكانت النساء أيضاً مجندات في تلك الحرب العوان ، فقد كان حصنهن وصبرهن على إنجاب الأبناء وتربيتهم هما اللذين ذللا الأرض . وحارب الرهبان وقتنا ما ، ولم يكونوا في حربهم أقل بسالة من غيرهم ، فقد أقاموا أديرتهم مراقب أمامية في الفقار ، وأنشأوا من القوضى نظاما اقتصاديا ، وبنوا القرى في البرارى ، وبفضل هذه الجهود كلها زفر علم الحضارة على ربوع أوربا في نهاية العصور الوسطى بعد أن كان الجزء الأكبر من أرضها في بداية تلك العصور أرضين غير منزوعة ، وغابات خالية من السكان ، وبرارى مقفرة ، ولعل هذا العمل ، إذا نظرنا إليه النظرة الصحيحة ، هو أشد كفاح ، وأنبى نصر ، وأعظم عمل تم في عصر الإيمان .

٤ — المالك

في كل نظام اقتصادى يسيطر الرجال الذين يستطيعون السيطرة على أولئك الذين لا يستطيعونها إلا على الجهاد . وكان المسيطر على الرجال في أوربا الإقطاعية هو السيد المالك — وهو باللغة اللاتينية dominus ، وبالفرنسية seigneur ، وبالرومانية senior وبالألمانية Herr ، وبالإجليزية lord (أى السيد) وكانت أعماله تنقسم ثلاثة أقسام : أن يوفر وسائل الدفاع العسكرى عن أراضيهم وسكانها ، وأن ينظم شئون الزراعة والصناعة والتجارة في تلك الأراضي ، وأن يخدم سيده الأكبر أو مليكه في الحرب . ولم يكن المجتمع قادراً على البقاء في هذا النظام الاقتصادى الذى تحطم إلى عناصره الأولى وتمزق لطول عهده بالهجرة ، والغارات ، والنهب ، والحروب — لم يكن المجتمع قادراً على البقاء في هذا النظام .

إلا باستقلاله المحلى وكفاية موارده من الطعام والخنود ؛ ولهذا أصبح القادرون على تنظيم وسائل الدفاع وفتح الأرض هم سادتها وملاكها بطبيعة الحال ، وأضحى امتلاك الأرض وإدارتها مصدر الثراء والسلطان ، ونشأ عهد من الأرستقراطية مالكة الأرض دام إلى عهد الانقلاب الصناعى .

وكان المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه الإقطاع هو الولاء المتبادل الذى يتمثل فيما على رقيق الأرض أو التابع من التزامات اقتصادية وعسكرية لسيده ، وفيما على هذا السيد من واجبات مثلها لسيده الأعلى ، وفيما على هذا السيد الأعلى من واجبات للملك ، وفيما على الملك من واجبات نحو السيد الأعلى ، وفيما على هذه السيد الأعلى من واجبات للسيد الأصغر منه ، وفيما على هذا السيد الأصغر من واجبات لتابعه أو رقيق أرضه . وكان السيد يجزى أرقاعه على خدمتهم لإياه أرضاً يستبقونها طوال حياتهم ، تكاد تكون ملكاً لهم . وكان يجيز لهم أن يستخدموا بأجر قليل أفرانه ، ومعاصره ، وطواحينه ، ومياهه ، وغاباته ، وحقله ؛ وكان يستبدل بكثير من الواجبات التى تتطلب جهودهم العضلية قدرأ قليلا من المال ، ويسمح بأن تسقط بعض الواجبات الأخرى على مر الزمان . ولم يكن ينزع الأرض من رقيقه إذا أعجزه المرض أو الشيخوخة — بل كان يعنى به عادة ويقدم له المعونة^(٣٥) . ومن الملاك من كان يفتح أبوابه للفقراء فى أيام الأعياد ويطعم كل من يدخلها ؛ وكان ينظم وسائل المحافظة على القناطر ، والطرق ، والقنوات ، والتجارة ، ويجد الأسواق التى يصرف فيها ما زاد من منتجات الضيعة على حاجتها ، والأيدى العاملة للقيام بأعمالها ، والمال ليشتري به حاجاتها . وكان يأتى إليها بالسلالات الطيبة من الماشية ليربها ، ويسمح لأرقائه أن يلقحوا ماشيتهم بالذكور الممتازة عنده ؛ وكان من حقه أن يضرب رقيق أرضه ، أو أن يقتله فى بعض الأماكن أو الأحوال ، دون أن يخش عقاباً ، ولكن شعوره بمصالحه الاقتصادية كان يكبح جماح وحشيته ، وكانت له فى أملاكه السلطات القضائية والعسكرية ،

وكان يستفيد فوق ما يجب من الغرامات التي تفرضها محاكم الضيعة ، ولكن معظم قضاة هذه المحكمة كانوا من أرقاء الأرض أنفسهم ، وإن كانت ترهبها سلطة المأمور التابع للشريف . ويتبين لنا مع تهاافت الأرقاء على هذه الهيئات القضائية لتعفيه من الخدمات نظير ما يقدمه من المال — يتبين لنا من تهاافتهم عليها أن قراراتها لم تكن شديدة الظلم . وكان في مقدور كل رفيق يجد في نفسه الجرأة الكافية أن يجهر برأيه في محكمة الضيعة ، ومن الأرقاء من كانوا يجادلون في أنفسهم هذه الجرأة ، وقد أعانت هذه المحاكم بأحكامها الفردية ، وبغير قصد منها ، على إيجاد الحريات التي قضت آخر الأمر على عهد رقيق الأرض .

وكان في وسع السيد الإقطاعي أن يمتلك أكثر من ضيعة واحدة ، وكان يعين في هذه الحالة وكيلًا له يشرف على أملاكه أي على ضياعه كلها ، وكان له في كل منها تآظر أو مأمور ، وكان هو ينتقل من ضيعة إلى ضيعة ومعه أفراد أسرته ليستهلكوا غلاتها في مواضع إنتاجها ؛ وقد يكون له قصر حصين في كل واحدة منها . وكان قصر السيد الإقطاعي يرجع نشأته إلى معسكر الفيالق الرومانية المسور (Castellum, Castrum) أو إلى قصر الشريف الروماني الريفي المحصن أو إلى حصن الزعيم الألماني (burg) ، وكان يهدف إلى حماية سكانه أكثر مما يهدف إلى راحتهم . وكان أبعد وسائل الدفاع عنه من الخارج خندق عريض عميق ، وكانت الأتربة الناتجة من حفره والتي تلقى في الجهة الداخلية منه تكون حاجزاً عالياً تدق فيه عُمدة مربعة يرتبط بعضها ببعض ليتكون منها سور متصل . وكان جسر متحرك مثبت طرفه الداخلي يؤدي إلى باب حديدى كبير أو باب آخر شبكى قبله ، يحمى مدخلا ضخماً في سور الحصن . وكان في داخل هذا السور أسطبلات ، ومطبخ ، ومخازن ، وأبنية صغرى ، ونخز ، ومغسل ، وكنيسة صغيرة ، ومساكن للخدم ، مبنية كلها عادة من الخشب . وكان مستأجرو الضيعة يهرعون عادة هم وماشيتهم ومنقولاتهم إلى داخل

هذا السور . ويقوم في وسطه البرج أو بيت المالك ؛ وهو في معظم الأحوال برج مربع كبير مقام من الخشب أيضاً ؛ ولكنه قبل أن يستهل القرن الثاني عشر بنى من الحجارة واتخذ شكلاً دائرياً ليسهل الدفاع عنه أكثر من ذي قبل . وكان الطابق الأدنى من هذا البرج مخزناً وجباً ، ومن فوقه يسكن المالك وأسرته . وقد نشأت من هذه الأبراج في القرنين الحادى عشر والثانى عشر قصور الأشراف في إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وهى القصور التى كانت جدرانها الحجرية المنيعة عماد قوة الملاك ضد مستأجريهم وضد الملك .

وكان البرج من داخله مظلماً ، ضيقاً ، محصوراً ، قليل النوافذ صغيرها ، وقلما كانت لها ألواح زجاجية . وكان الخيش أو الورق الملون ، أو المصاريع الخشبية ، أو شبايك الشيش تمنع عنه معظم المطر والكثير من الضوء ؛ وكانت الشموع والمشاعل تستخدم فى الإضاءة الاصطناعية ، ولم تكن هناك فى معظم الأحوال إلا حجرة واحدة فى كل طابق من أطباقه الثلاثة ؛ وكانت السلام أو الأبواب التى فى السقوف ، أو الدرج المتعرجة ، تصل أطباق البرج بعضها ببعض . وكان فى الطابق الثانى البهو الرئيسى ، الذى تعقد فيه محكمة المالك والذى يستخدم فضلاً عن ذلك مطعماً ، وحجرة جلوس الأسرة ، ونوم معظم أفرادها . وقد يكون فى إحدى أطرافها مصطبة مرتفعة ، يتناول عليها المالك ، وأسرته ، ومن يستضيفه طعامهم . أما غيرهم فكانوا يتناولون طعامهم على موائد متنقلة توضع أمام مقاعد فى ممرات هذا الطابق . فإذا حان وقت النوم وضعت الخشبات على الأرض أو على أسرة منخفضة من الخشب فى الممرات . وكان أهل الدار كلهم ينامون فى هذه الحجرة الوحيدة محججهم حواجز بعضهم عن بعض . وكانت الحجرات تطل بالخير أو بالألوان الزينية ، وتزين بالأعلام ، والأسلحة ، والدروع ، وكان من المستطاع وقاية الحجرة من التيارات الهوائية بالستائر أو الأقمشة المنقوشة . وكانت الأرض تبلط بألواح الفرميد أو الحجارة ، وتغطى بالقش

أو أغصان الأشجار ، وكانت تدفأ من وسطها من موقد يحرق فيه الخشب .. وظلت الدار من غير مدخنة إلى أواخر العصور الوسطى ، وكان الدخان يخرج من فتحة بالسقف ، وكان من خلف المصطبة باب يوصل إلى « مشمس » يستطيع السيد وأسرته وضييفه أن يستريحوا فيها ويستمتعون بأشعة الشمس . وكان الأثاث هنا أدعى إلى الراحة منه في الحجرات ، فقد كان في هذه المشمس بساط ، ومدفأة ، وسرير مريح .

وكان مالك الضيعة يرتدى جلباباً يتخذ عادة من الحرير الملون ، نقشت عليه رسوم هندسية أو نباتية ، وحرملة تغطي الكتفين وغير مشدودة يستطيع رفعها فوق الرأس ، وسروالاً تحتياً (لباساً) قصيراً من فوقه سروال آخر (بنطلون) قصير أيضاً ، وجوربين قصيرين يرتفعان إلى الفخذين ، وحذاءين طويلين يرتفع طرفاهما الأماميين كأنهما مقدم سفينة . وكان يتأرجح من منطقتة جراب وسيف ، وتتدلّى عادة من عنقه مدلاة على شكل صليب . ولما أراد الأشراف الأوربيون أن يميزوا الفرسان ذوي الخوذ والدروع أحدهم عن الآخر في الحرب الصليبية الأولى (٣٦) ، أخذوا عن المسلمين عادة (٣٧) تمييز أرديتهم ، وحلهم ، وألويتهم ، ودروعهم ، وسروج خيلهم بنقوش خاصة أو شعائر حرية ، ومن ثم أنشأت الفروسية لنفسها رطانة عجيبة لا يفهمها إلا الفرسان والقائمون على شئون الفروسية (*). ولم يكن المالك رغم هذه الزينات كلها بالإنسان المتعطل المتطفل ، فقد كان يستطيع في مطلع الفجر ، ويصعد إلى برج أيتهم هل يحدق به خطر ، ثم يفطر مسرعاً ،

(*) وسمى اللون الأصفر ، والأبيض ، والأزرق ، والأحمر ، والأخضر ، والأسود : والبني فسجى ، على هذا الترتيب نفسه ، بالذهبي ، والفضي ، والداوي ، والوردي ، والبنائي ، والرملي ، والأرجواني . وكان الأزرق السهاوي لوناً أخذ عن الشرق ، ومن ثم كان من أسماء « ما وراء البحر » . وكان الصليبيون يزينون معاصمهم ورقابهم بأساور مزركشة بن القرو - تصيغ عادة باللون الأحمر - (واللفظ الإنجليزي الذي يسمى به هذا اللون وهو gule مشتق من لفظ جولاء اللاتيني ومعناه حلق) . وكافت الأديرة ، والبلدان ، والأمم ، تستخدم هذه الرموز في القرن الثالث عشر كما تستخدمها الأسر ، وكانت الأسر القديمة تضع عادة فوق رموزها أو ألويتها شعاراً موجزاً جامعاً مثل : طاهر السريرة ، لا بالكثير ولا بالقليل .. الخ ..

وقد يذهب بعد ذلك للصلاة في الكنيسة ، ثم « يتغدى » في الساعة التاسعة صباحاً ، ويشرف بعدئذ على أعمال الضيعة الكثيرة ، ويشترك بنفسه في بعضها ، ويصدر أوامره إلى الناظر ورئيس الخدم ، والسائس ، وغيرهم من أتباعه ، ويستقبل الزوار وعابري السبيل ، ثم « يتعشى » معهم ومع أسرته في الساعة الخامسة ، ويأوى عادة إلى فراشه في الساعة التاسعة مساء . وكان هذا العمل الرتيب يتغير في بعض الأيام إذا ذهب إلى الصيد ، ويتغير كذلك أحياناً قليلاً إذا لعب « البرجاس » ، ويتغير من حين إلى حين إذا قامت الحرب . وكثيراً ما كان يقيم الولائم ، ويتبادل الهدايا الكثيرة مع الأضياف .

ولا تكاد زوجته تقل عنه عملاً . فكانت تلد له كثيراً من الأبناء وتربهم ، وكانت توجه الخدم الكثيرين ، وتلكهم أحياناً ، وتلاحظ الخبز ، والمطبخ ، والمغسل ، وتشرف على عمل الزبد والجبن ، وعصر الجعة ، وتخليع اللحم لحفظه لأيام الشتاء ، وتعمل في تلك الصناعات المنزلية الكبرى صناعات الحياطة ، والحياكة ، والغزل ، والنسيج والتطريز ، التي تعد بها معظم ملابس الأسرة ؛ فإذا خرج زوجها للحرب قامت هي بشئون المزرعة العسكرية والاقتصادية ، وكان ينتظر منها أن تمدد بحاجاته المالية في أثناء حروبه ؛ فإذا وقع في الأسر كان عليها أن تدبر المال اللازم لافتدائه من كد رقيق أرضه ، أو من بيع جواهرها وأدوات زينتها ؛ وإذا مات زوجها وليس له ولد ذكر ، فقد توكل إليها سيادة الضيعة . فتصبح هي سيدتها dame domina ، ولكنها كان ينتظر منها أن تزوج مرة أخرى بعد زمن قليل . لا يبي للضيعة وللسيد الأكبر ما يلزمهما من الخدمة أو الحماية العسكرية . وكان السيد الأكبر يقصر اختيارها على عدد قليل من الخاطبين القادرين على أداء هاتين المهمتين . وكان في مقدورها أن تصبح في داخل قصرها مسترجلة أو صحابة ، وتبادل زوجها لطمة بلطمة ؛ وكانت في ساعات فراغها تلبس على جسمها القوى أثواباً فضفاضة من الحرير ذات أهداب من الفراء ، وتحمل حذاءين

لطيفين ، وتغطي رأسها بغطاء جميل ، وتزدان بالحلى المتألثة فتصبح بذلك كله قادرة على بعث نشوة الحب أو الأدب في قلوب الشعراء الجوالين .

وكان أبناؤها يتلقون تعليماً يختلف كل الاختلاف عن تعليم الجامعات . لأن أبناء الأشراف قلما كانوا يرسلون إلى المدارس العامة ، ولم يكن في كثير من الحالات يبذل أى مجهود في سبيل تعليمهم القراءة . ذلك أن القراءة والكتابة كانتا تركاناً للقساوسة والكتبة الذين كانوا يستأجرون بأقل الأجور ، وأن الكثرة الغالبة من فرسان الإقطاع كانوا يحتقرون المعارف العقلية ، فقد تعلم جيسكلين Guesclin مثلاً ، وهو من أجل شخصيات الفروسية ، جميع فنون الحرب ، وتعود مواجهة كل تقلبات الجوبقلب ثابت ، ولكنه لم يعن أقل عناية بتعلم القراءة ؛ ولم يحتفظ الأشراف بتقاليدهم الأدبية إلا في إيطاليا وبيزنطية . وكان ابن أسرة الفرسان يرسل السابعة من عمره ، بدل المدرسة ، ليكون وصيفاً في بيت شريف آخر يتأدب فيه ويتعلم الطاعة ، والأخلاق الطيبة ، وطريقة اللبس ، وقانون الشرف الخاص بالفرسان ، ومما تتطلبه المثاقفة والحرب من حذق ، وربما أضاف القسيس المحلى إلى هذا شيئاً من التدريب على القراءة والحساب . وكانت البنات يتعلمن مائة من الفنون النافعة أو الجميلة ، ولم تكن الوسيلة إلى هذا تزيد على النظر والعمل . وكن يعنين بشئون الضيوف ، والفارس حين يعود من الحرب أو البرجاس ؛ فكان يحللن دروعه ، ويحضرن حمامه ، ويأينن له بالثياب التحتية والفوقية ، والعطور ، ويخدمنه وقت الطعام بأدب جم وتواضع ورقة مدروسة ؛ وكن هن ، لا الأولاد ، يتعلمن القراءة والكتابة ، وكان منهن كثرة يستمعن إلى الشعراء ، والقصاصين ، والمغنين وإلى نثر ذلك الوقت وشعره الإبداعيين .

وكثيراً ما كان بيت الشريف يشتمل على بعض المقطعين أو الأمباع . فأما المقطع فكان رجلاً ينال من الشريف نظير خدمته العسكرية والشخصية ،

أو المعونة السياسية ، منفعة أو ميزة قيمة — وهى فى العادة مساحة من الأرض ومن عليها من أرقاء الأرض ، وفى هذه الحال يكون للمقطع حق الانتفاع بالريع ، أما الملكية فتبقى للشريف . وكان الرجل الذى يمنعه كبرياؤه أو تمنعه قوته من أن يكون رقيق أرض ولكنه أضعف من أن يعد لنفسه وسائل الدفاع العسكرية ، يؤدى مراسم « الولاء » للشريف إقطاعى : يركع أمامه وهو أعزل عارى الرأس ، ويضع يديه فى يدي الشريف ، ويعلن أنه « رجل » ذلك الشريف (homme) (وإن كان يحتفظ بحقوقه بوصفه رجلاً حراً) ، ثم يقسم على بعض الخلفات المقدسة أو على الكتاب المقدس أن يظل وفياً للسيد إلى آخر أيام حياته . ثم يرفعه السيد ، ويقبله ، ويمنحه إقطاعية(*) ، ويعطيه رمزاً لهذه المنحة قشة ، أو عصا ، أو حربة ، أو قفازاً . ويصبح السيد من ذلك الحين ملزماً بحماية المقطع ، وصداقته ، والإخلاص له ، وتقديم المعونة الاقتصادية والقضائية ؛ وكان عليه ، كما يقول أحد المحامين فى العصور الوسطى ، ألا يهين هذا المقطع ، أو يغوى انثته أو زوجته^(٣٩) ، فإذا فعل كان من حق المقطع أن « يلقى القفاز » علامة على التحدى ، أى أنه أصبح خارجاً عن الولاء له — ومن حقه مع ذلك أن يحتفظ بإقطاعيته :

وقد يُقطع المقطع « من باطنه » جزءاً من الأرض إلى مقطع أقل منه تكون علاقته به وتبعاته نحوه هى نفس العلاقة والتبعات التى بين المقطع الأصيل والسيد . وكان فى وسع المقطع أن تكون له إقطاعيات من عدد من السادة ، وأن يكون مديناً لهم « بولاء بسيط » وخدمات محدودة ، ولكن عليه أن يدين لسيد أعلى « بولاء كامل » وخدمة كاملة فى السلم والحرب . وقد يكون السيد نفسه مهما عظم شأنه ، مقطوعاً من قبل غيره من السادة إذا أخذ منه ملكاً أو إقطاعية ، وقد يكون مقطوعاً — أى مالكا لإقطاعية — من مقطع من سيد آخر . وكان السادة كلهم

(*) وهى بالإنجليزية fief ؛ والكلمة مشتقة من كلمة fendum اللاتينية ، وهذه مأخوذة من كلمة faibu الألمانية القديمة أو القوطية ، ومعناها الماشية . وهى ذات صلة بكلمة pecu اللاتينية ، ولقد أصبح لها مظهرها معنى ثانوياً وهو البضائع أو النقود .

مقطعين من الملك . ولم تكن الرابطة الأولى في هذه الصلات المعقدة هي الرابطة الاقتصادية ، بل كانت هي الرابطة العسكرية ، فقد كان الرجل يقدم الخدمة العسكرية والولاء الشخصي ، أو يدين بهما ، إلى سيد ، وكان ما يعطى له من الأرض جزاء له على خدمته وولائه لا أكثر ولا أقل . وكان الإقطاع من الوجهة النظرية نظاماً عظيماً يتبادل بمقتضاه الأخلاق الطيبة ، يربط رجال المجتمع المعرض للخطر بعضهم ببعض برباط قوامه تبادل أداء الواجبات ، والحماية ، والإخلاص .

٥ - الكنيسة الإقطاعية

وكان مالِك الضيعة في بعض الأحيان أسقفاً أو رئيس دير ، وكان كثير من الرهبان يعملون بأيديهم ، وكثير من الأديرة والكنائس تنال حظها من أموال العشور التي تجبي من الأبرشية ، ولكن المؤسسات الكهنوتية الكبيرة كانت بالإضافة إلى هذا العمل اليدوي وتلك الأموال في حاجة إلى المعونة المالية ، وكانت تنال الجزء الأكبر من هذه المعونة من الملوك والأشراف على صورة هبات من الأرض أو أنصبه من الإيرادات الإقطاعية . وتراكت هذه الهدايا حتى أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضي ، وأكبر السادة الإقطاعيين في أوروبا ، فقد كان دير فلدا مثلاً يمتلك ١٥٠٠٠٠ قصر صغير من قصور الريف ، وكان دير سانت جول يمتلك ألفين من رقيق الأرض^(٤٠) ، وكان الكوين في تور سيداً لعشرين ألفاً من أرقاء الأرض^(٤١) . وكان الملك هو الذي يعين رؤساء الأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، وكانوا يقسمون يمين الولاء له كغيرهم من الملاك الإقطاعيين ، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية ، ويسكون العملة ، ويرأسون محاكم الأسقفيات والأديرة ، ويضطلعون بالواجبات الإقطاعية الخاصة بالخدمة العسكرية والإشراف الزراعي . وكان الأساقفة ورؤساء الأديرة المرتدون الزرد والدروع والمسلحون بالحرايب من المناظر المألوفة

فى ألمانيا وفرنسا . وكان رتشرد أمير كورنول فى عام ١٢٥٧ يجهر بأسفه
لخاو لإنجلترا من « الأساقفة ذوى الحمية المتوقدة والروح الحربية القوية » (٢) .
وهكذا أضحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من النظام الإقطاعى ، فألفت نفسها
منظمة سياسية ، واقتصادية ، وحرية لا منظمة دينية وكفى . وكانت
أملاكها « الزمنية » أى المادية ، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجعل
بالمعار كل مسيحى مستمسك بدينه ، ومخزية تلوكها السنة الخارجين على
الدين ، ومصدراً للجدل العنيف بين الأباطرة والبابوات . وهكذا أصبحت
الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من نظام الإقطاع .

٦ - الملك

وكما كانت الكنيسة فى القرن الثانى عشر منشأة إقطاعية ذات حكومة
دينية غرضها تبادل الحماية ، والخدمات ، والولاء ، تقوم بها طائفة من رجال
الدين ويرأسها البابا سيدها الأعلى ، كذلك كان الحكم الزمنى الإقطاعى يتطلب
لكى يبلغ تمامه رئيساً أعلى لجميع المقطعين ، وسيداً صاحب السلطان على جميع
السادة الزمنيين ، أى أنه كان فى حاجة إلى ملك . وكان الملك من
الوجهة الزمنية تابعاً لله ، يحكم بما له من حق إلهى ، بمعنى أن الله أجاز له أن
يحكم ، ومن ثم فوضه فى أن يحكم . أما من الوجهة العملية فإن الملك قد
ارتفع إلى عرشه بطريق الانتخاب أو الوراثة ، أو الحرب . نعم إن رجالاً
من أمثال شارلمان ، وأتو الأول ، ووليم الفاتح ، وفليب أغسطس ،
ولويس التاسع ، وفردريك الثانى ، ولويس الجميل ، وسعوا سلطانهم
الموروث بقوة الخلق أو السلاح ، ولكن ملوك أوروبا الإقطاعية لم يكونوا
عادة حكاماً لشعوبهم بقدر ما كانوا مندوبين من قبل الأقبال التابعين لهم ،
فقد كان كبار الأشراف ورجال الدين هم الذين يختارونهم أو يوافقون على
اختيارهم ، وكان سلطانهم المباشر محصوراً فى أملكهم الإقطاعية أو ضياعهم ،
أما فى غير هذه الأملاك والضياع من مملكتهم فقد كان رقيق الأرض أو التابع
(٢٨ - ج ٣ - مجلد ٤)

الذى أقطع أرضاً يدين بالولاء للمالك الذى يحميه ، وقلما كان يدين بهذا الولاء للملك الذى كانت قوته الصغيرة البعيدة عنه عاجزة عن حماية المراكز الأمامية المشتتة فى أنحاء المملكة . وعلى هذا فإن الدولة فى النظام الإقطاعى لم تكن إلا ضيعة الملك .

وذهب هذا التفتيت فى الحكم إلى أبعد حد فى غالة لأن الأمراء الكارولنجيين أضعفوا قواهم بتقسيم الإمبراطورية ، ولأن الأساقفة أخضعوهم لسلطان الكنيسة ، ولأن هجرات الشماليين على فرنسا كانت أشد هجرات هؤلاء الأقوام عنفاً : ولم يكن الملك فى هذا النظام الإقطاعى الكامل إلا « صاحب المقام الأول بين أنداد » ، لا يعلو عن يحملون لقب الأمير ، والدوق ، والمركيز ، والكونت إلا قليلاً ، ولكنه كان من الناحية العملية شيئاً « بأشراف الدولة هؤلاء » ، فقد كان شريفاً إقطاعياً تقتصر موارده المالية على ريع أراضيهِ ، ويضطر إلى الانتقال من ضيعة ملكية إلى أخرى ليحصل على طعامه وشرابه ، ويعتمد فى الحرب والسلام على المعونة العسكرية أو الخدمة الدبلوماسية التى يؤديها له تابعوه الأغنياء ، ولم يكن هؤلاء يتعهدون له بأكثر من أربعين يوماً من العمل المسلح كل عام ، وكانوا يقضون نصف وقتهم فى الائتثار به لخلعه . وكان الملك يضطر إلى منح الضيعة فى إثر الضيعة لأقوياء الرجال ليكسب بذلك معونتهم أو يجزئهم على هذه المعونة ، حتى كان ما بقى من الأرض لملوك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر أقل من أن يجعل لهم فوق أتباعهم الملاك من السيادة ما يؤمنهم على عرشهم ، ولما أن أورث هؤلاء الملاك أبناءهم ضياعهم ، وأنشأوا لأنفسهم شرطة ومحاكم ، وسكوا باسمهم النقود ، لما أن فعلوا هذا لم يجد الملك لديه من القوة ما يمنحهم من فعله ، ولم يكن فى وسعه أن يتدخل فى اختصاصات أتباعه القضائية فى أملاكهم إلا فى قضايا الإعدام التى تستأنف له ، ولم يكن من حقه أن يرسل موظفيه أو جيائه إلى أملاكهم ، أو يمنعهم أن يعقدوا المعاهدات

المستقلة ، أو يشنوا الحروب من تلقاء أنفسهم . نعم إن ملك فرنسا كان من الناحية النظرية يمتلك جميع أراضي الملاك الذين يلقبونه سيدهم ، ولكنه لم يكن في واقع الأمر إلا مالكا من كبار الملاك ، ولم يكن حتماً أكبرهم ، ولم تكن أملاكه في يوم من الأيام أكبر من أملاك الكنيسة .

وكما أن عجز الملوك عن حماية ممالكهم كان سبباً في نشأة نظام الإقطاع ، كذلك كان عجز أمراء الإقطاع عن حفظ النظام فيما بينهم أو إقامة الحكومة الموحدة التي يتطلبها النظام الاقتصادي التجاري ، كان هذا العجز سبباً في إضعاف السادة الإقطاعيين وتقوية الملوك . وكان تحمس الأشراف في المنازعات الحربية في أوروبا الإقطاعية يلقي بهم في غمار الحروب الخاصة والعامة حتى امتصت دماءهم الحروب الصليبية ، وحرب الأعوام المائة ، وحروب الوردتين ، والحروب الدينية التي اختتمت بها هذه الحروب ، ومنهم من افتقروا وخرجوا على القانون فصاروا أشرافاً من قطاع الطرق ينهبون ويقتلون كما يشاءون ، وتطلبت المساوي التي نشأت من الإفراط في الحرية سلطة موحدة تحفظ النظام في جميع أنحاء المملكة ، وأوجدت التجارة والصناعة في خارج نطاق الرابطة الإقطاعية طبقة غنية متزايدة العدد ، ولم يكن التجار راضين عن الضرائب الإقطاعية ، وأخطار النقل داخل الممتلكات الإقطاعية ، وأخذوا يطالبون بأن تحمل حكومة مركزية محل القوانين الخاصة . وتحالف الملك مع هذه الطبقة ومع المدن الآخذة في التنامي فأخذت هذه وتلك تمده بما يحتاجه من المال لتأييد سلطانه وتوسيعه ، وأخذ كل من يحس بالظلم أو الأذى من الأعيان يتطلع إلى الملك لينقذه ويرد الأذى عنه . وكان كبار الملاك من بين رجال الكنيسة أتباعاً للملك عادة وأوفياء له ، كذلك كان البابوات يمدون أن اتصالهم بالملك أيسر من اتصالهم بالأشرف المتفرقين الذين لا يستمسكون كل

الاستمساك بالقانون ، ولم يمنعهم من هذا الاتصال كثرة ما كان يحدث بينهم وبين الملوك من نزاع . واستطاع ملوك فرنسا وإنجلترا تويدهم هذه القوى المختلفة أن يجعلوا سلطتهم وراثية بعد أن كانت بالانتخاب ، وكانت وسيلتهم إلى هذا أن يتوج الواحد منهم ابناً أو أخاً له قبل وفاته ، وارتضى الناس هذه الملكية الوراثية بديلاً من فوضى الإقطاع ، كذلك كان تحسين سبل الاتصال وازدياد تداول النقد مما جعل فرض الضرائب المنتظمة مستطاعاً ، وأمكن الملك بفضل موارده المتزايدة أن يحصل على ما يلزمه من المال لتقوية جيشه وزيادة عدده ، وانضمت طبقة رجال القانون الناشئة إلى العرش وقوته بفضل ما في القانون الروماني الذي عاد إلى الحياة من نزعة نحو المركزية ، فلم يحل عام ١٢٥٠ حتى أيد علماء القانون حق الملك في أن ييسر سلطانه القضائي على كل من في مملكته ، وحتى كان جميع الفرنسيين يقسمون بين الولاء للملكهم لا لسيدهم الإقطاعي . وبهذا كان لفليب الجميل في آخر القرن الثالث عشر من القوة ما أمكنه من إخضاع أشرف بلاده ، بل وإخضاع البابوية نفسها ، لسلطانه .

وخفف ملوك فرنسا على أشرف بلادهم مرارة هذا الانتقال بمنحهم ألقاباً وامتيازات في بلاطهم تعوضهم عن حقهم الخاص في سك النقود ، وإصدار الأحكام القضائية ، وشن الحروب ، فكان كبار أتباعه يوثقون بالملك *Curia regia* ، وأصبحوا بذلك رجال بلاط لا أصحاب صولة ، واستحالت مراسم قصور الأعيان شيئاً فشيئاً إلى خدمات رسمية يقومون بها في مجالس الملك ، وحول مائدته ، وفي غرفة نومه . وكان أبناء الأعيان وبناتهم يرسلون إلى قصر الملك ليخدموه أو ليجعلوا الملكة بأن يكونوا خدماً خصوصيين أو وصيفات ، وليتعلموا آداب البلاط ، وبذلك أصبح قصر الملك مدرسة لأبناء الأشراف

وكانت خاتمة الحفلات وأعظمها هي حفلة تتويج ملك فرنسا في ريمس أو إمبراطور ألمانيا في آخن أو فرانكفورت ، ففي هذه الحفلات كان صفوة الأعيان من جميع البلاد يجتمعون في أثوابهم وعدتهم الفخمة الرهيبة ، وكانت الكنيسة تستخدم كل ما في شعائرها من خفاء وجلال لإحاطة تتويج الحاكم الجديد بجميع مظاهر المجد والجلال ، وبهذا أضحت سلطة الملك سلطة إلهية ، لا يستطيع أحد أن يعارضها وإلا أعد خارجاً صراحة على الدين . وأقبل الملاك الإقطاعيون على بلاط الملك الذي أخضعهم لسلطانه ، وأسبغت الكنيسة حقاً إلهياً على الملوك الذين حطموا زعامتها وسلطانها على أوروبا بعد ذلك الوقت .

الفصل الثالث

شريعة الإقطاع

كانت العادات والشرائع في الغالب شيئاً واحداً في نظام الحكم الإقطاعي حيث كان القضاة والقائمون بتنفيذ القانون المدني عادة أميين . فلذا ما أثارت مشكلة خاصة بالقانون أو العقاب ، سئل أكبر أعضاء المجتمع سناً عما جرت به العادة في هذه المشكلة أيام شبابه ، ولهذا كان المجتمع نفسه المصدر الرئيسي للقوانين . نعم إنه كان في مقدور الشريف أو الملك أن يصدر الأوامر ، ولكن هذه الأوامر لم تكن قوانين ، وإذا ما طلب إلى الناس أكثر مما تجيزه العادات حالت بينه وبين مطالبه مقاومة الشعب عامة جبهة أو صمماً (١٣) . وكان لفرنسا الجنوية قانون مكتوب ورثته عن الرومان ، أما فرنسا الشمالية حيث كان الإقطاع أكثر تغلغلاً منه في الجنوب ، فقد احتفظت في الأغلب الأعم بشرائع الفرنجة ، ولما أن دونت هذه القوانين أيضاً في القرن الثالث عشر ، أضحي تغييرها ، الذي كان من قبل صعباً ، أشد صعوبة مما كان ، ونشأت مائة قصة قضائية للتوفيق بين هذه القوانين وبين الحقيقة الواقعة .

وكان قانون الملكية الإقطاعي قانوناً فذاً معقداً ، يقر ثلاثة أشكال للملكية العقارية : (١) الملكية المطلقة غير المشروطة بشرط ما . (٢) الالتزام وهو منح غلة الأرض لا ملكيتها لتابع إقطاعي بشرط أداء الخدمة المفروضة على الشريف . و (٣) الإيجار - وهو الذي تعطى به غلة الأرض لرقيق الأرض أو مستأجرها على شريطة أن يقوم بأداء الالتزامات الإقطاعية . وكان الملك وحده حسب النظرية الإقطاعية هو الذي يستمتع بالملكية المطلقة ، أما كل من عداه ، ومنهم أسمي الأشراف مقاماً ، فكانوا مستأجرين يمتلكون الأرض على شريطة أن يؤدوا

عنها الخدمة الواجبة . كذلك لم تكن ملكية السيد الإقطاعى للأرض مقصورة عليه وحده ، بل كان لكل واحد من أبنائه حق موروث فى أرض الآباء ، وكان له أن يحول دون بيعها^(٤٤) . وكانت العادة المألوفة أن تؤول الأرض إلى أكبر الأبناء الذكور ، ذلك بأن هذه العادة التى لم تكن معروفة فى القانون الرومانى أو قوانين الأمم المتبربرة أصبحت موافقة لظروف النظام الإقطاعى ، لأنها تضع شئون الحماية العسكرية والإشراف الاقتصادى فى يد رئيس واحد ، يفترض فيه أنه أنضج أبناء الأسرة عقلاً . أما الذكور الأصغر منه سناً فكانوا يشجعون على المغامرة لتلك ضياع أخرى فى أراضى غير أرض آبائهم ؛ وكان القانون الإقطاعى « رغم ما فرضه على الملكية من قيود ، لا يقل عن أى قانون سواه احتراماً للملكية وتسوة فى عقاب من يعتلون على حقوقها . مثال ذلك أن أحد القوانين الألمانية كان ينص على أن من يزيل لحاء إحدى أشجار الصفصاف التى تملك أحد الجسور « يشق بطنه ، وتنتزع أوعاهه ، وتلف حول القطع الذى أحدثه » ؛ وكان فى وسفاليا قانون ظل معمولاً به حتى عام ١٤٥٤ يقضى بأن من يرتكب جريمة إزالة أحد معالم حدود أرض جاره ، يدفن فى الأرض إلى ما تحت رأسه ، ثم تسلط عليه أثوار ورجال لم يسبق لهم أن حرقوا أرضاً يحرثون رأسه ، وللرجل الدفين أن ينقل نفسه بخير وسيلة يستطيعها »^(٤٥) .

وكانت الإجراءات القضائية فى القانون الإقطاعى تتبع فى الأغلب الأعم قوانين البلاد الممجية ، وتعمل لاستبدال العقوبات القانونية العامة بالتأثير الفردى . وكانت الكنائس ، والأسواق العامة ، ومدن الالتجاء « تمنح حق الأماكن الحرم ؛ وكان من المستطاع بفضل هذه القيود أن يوقف الانتقام حتى يتدخل القانون فى الأمر . وكانت محاكم الضياع تنظر القضايا التى تقوم بين مستأجر ومستأجر ، أو بين مستأجر وسيد ، أما المنازعات التى تثور بين سيد وتابع له ، أو بين سيد وسيد ، فكانت تعرض على محلفين « من أعيان البارونية » وهم رجال

يجب ألا يقلوا في المنزلة عن الشاكي نفسه^(١٧) ، وأن يكونوا تانعين للإقطاعية نفسها ، ومن يجلسون معه في هو إقطاعي واحد . وكانت محاكم الأسقفيات أو الأديرة تنظر في قضايا رجال الدين ، أما الاستئناف الأعلى فكان يرفع إلى المحكمة الملكية المؤلفة من أعيان الدولة ، وكان يرأسها الملك نفسه أحياناً . وكان المدعى والمدعى عليه أمام محاكم الضياع يحبسان حتى يصدر الحكم في قضيتهم . وكان المدعى الذي يخسر القضية المرفوعة أياً كان نوعها يعاقب بنفس العقوبة التي توقع على المدعى عليه إذا ثبتت عليه التهمة . وكانت الرشوة شائعة في جميع المحاكم^(١٨) .

وظل التحكيم الإلهي معمولاً به طوال عهد الإقطاع . وقد حدث في عام ١٢١٥ أن فرض الاختبار بالحديد المحمى على بعض الخارجين على الدين في كمبريه Cambrai ؛ فلما أصيبوا بحروق سيقوا إلى القائمة التي يشد إليها من يحرقون ، ولكن أحدهم أعفى من العقوبة ، كما يقولون ، لأنه أقر بذنبه ، فشفيته يده من فوره ، ولم يبق فيها أثر للحروق . وكان انتشار الفلسفة في خلال القرن الثاني عشر ، وإقبال الناس من جديد على دراسة القانون الروماني ، من أسباب كراهية الناس لهذا « التحكيم الإلهي » . واستطاع البابا إنوسنت الثالث أن يقنع مجلس لاترن الرابع في عام ١٢١٦ بإلغاء هذا النوع من المحاكمة إلغاء تاماً ، وأدخل هنري الثالث هذا الإلغاء في القانون الإنجليزي (١٢١٩) ، كما أدخله فردريك الثاني في قانون نابلي (١٢٣١) ؛ أما في ألمانيا فقد ظلت الاختبارات القديمة معمولاً بها حتى القرن الرابع عشر ، وقاسى سفنرولا Savonarola التحكيم الإلهي بالنار عام ١٤٩٨ في فلورنس ، وعاد هذا التحكيم إلى الوجود في محاكمة الساحرات في القرن السادس عشر^(١٩) .

وشجع نظام الإقطاع السنة الألمانية القديمة ، سنة المحاكمة بالاقتتال ، وكانت هذه السنة وسيلة للإثبات من ناحية ، وبديلاً من الثأر الفردي من ناحية أخرى .

وأعاد النورمان هذه السنة إلى بريطانيا بعد أن أهملت في عهد الأنجليسكسون ، ثم ظلت ثابتة في سجل القانون الإنجليزي حتى القرن التاسع عشر (٥٠) .
ومما يذكر في هذا الصدد أن فارساً يدعى هرمان Hermann اتهم فارساً آخر يدعى جاي Guy بالاشتراك في اغتيال تشارلس الصالح Charles the Good ملك فلاندرز ، فلما أنكر جاي التهمة دعاه هرمان إلى مبارزة قضائية ، وظل الرجلان يتقاتلان عدة ساعات ، حتى فقد كلاهما جواده ونخسر سلاحه ، فانتقلا من المبارزة إلى المصارعة ، واستطاع هرمان أن يبرهن على عدالة التهمة بانتزاع خصيقي جاي من جسمه ، ويموت جاي بتأثير هذا الانتزاع (٥١) . ولعل الإقطاعيين قد استحووا من هذه العادات الممجيبة ففرضوا قيوداً على حق المبارزة ظلت تتراكم على مدى الأجيال ؛ فكان يطلب إلى المدعى إذا أراد أن يحصل على حق الدعوة إلى المبارزة أن يتقدم بقضية مرجحة الكسب ، وكان من حق المدعى عليه أن يرفض القتال إذا أثبت أنه كان في غير مكان الجريمة حين وقوعها ؛ ولم يكن لرفيق أرض أن يبارز حراً ، أو مجذوم أن يبارز سليماً ، أو ابن غير شرعي أن يبارز ابناً شرعياً ، وقصارى القول أنه لم يكن يصبح لشخص أن يبارز إلا شخصاً مساوياً له في مرتبته . وكانت قوانين بعض المجتمعات تمنح المحكمة حق منع أية مبارزة قضائية متى شاءت ؛ وكان رجال الدين ، والنساء ، والمصابون بأية عاهة جسمية يعفون من المبارزة ، ولكنهم كان لهم أن يختاروا «أبطالاً» — أى مبارزين بارعين — ينوبون عنهم في المبارزة .
والذلك نسمع منذ القرن العاشر عن أبطال ماجورين يحلون محل الذكور المبارزين وإن كانوا صحيحى الأجسام ، ذلك بأنه إذا كان الله سيقضى في الأمر حسب عدالة التهمة فقد يبدو أن شخصية المقتتلين لا شأن لها بهذا القضاء . وقد عرض أتو الأول مسألة عفة ابنته ، والزاع القائم حول وراثة بعض الضياع ، ليفصل فيها أبطال مبارزون (٥٢) ، وكذلك بلأ ألفونسو العاشر ملك قشتالة إلى هذا النوع من المبارزة ليقرر هل يعمل بالقانون الرومانى في

ملكته^(٥٣) وكانت السفارات تزود أحياناً بالأبطال المبارزين ليكونوا حاضرين إذا نشب نزاع دبلوماسي يجوز الفصل فيه بالمبارزة . وظل أبطال من هذا النوع يظهرون في الاحتفال بتتويج ملوك الإنجليز حتى عام ١٨٢١ ؛ وقد أصبحوا قبل ذلك التاريخ من مخلفات الماضي ذوات الشكل الجميل ، ولكن هذا البطل المبارز كان يفترض فيه في العصور الوسطى أن يلتقى قفازه على الأرض ، ويعلن بصوت عال استعدادة للمبارزة للدفاع عما للملك من حق إلهي في تاجه^(٥٤) .

وكان الالتجاء إلى الأبطال مما يحط من شأن المحاكمة بالاقتتال ، ولهذا حرمة الطبقات الوسطى الناشئة في التشريعات العامة ، واستبدلت به في القرن الثالث عشر القانون الروماني في أوروبا الجنوية ، وكثيراً ما نددت به الكنيسة ، وحرمه إنوسنت الثالث تحريماً قاطعاً (١٢١٥) ، ومنعه فردريك الثاني من أملاكه في نابلي ، وألغاه لويس التاسع في الأقاليم الخاضعة لحكمه خضوعاً مباشراً (١٢٦٠) ، وحرمه فليب الجميل (١٣٠٣) في جميع أنحاء فرنسا . هذا والمبارزة لا تستمد أكبر أسباب نشأتها من الاقتتال القضائي بقدر ما تستمده من حق الناس القديم في أن يثاروا لأنفسهم ممن يعتدون عليهم .

وكانت العقوبات الإقطاعية قاسية قسوة وحشية ، فكانت الغرامات لا يخصص لها عدد ، وكان السجن يستخدم وسيلة لحجز المتقاضين أكثر مما يستخدم عقاباً للمذنبين ، ولكن السجن كان في حد ذاته تعذيباً للمسجون لما كان في حجراته من حشرات ، وجردان ، وأفاع^(٥٥) . وكان يحكم أحياناً على الرجال والنساء بالحنك أو الصلب علناً ، وأن يجعل المعاقب هدفاً لسخرية الجماهير ، أو يقذف بالطعام الفاسد أو يرمي بالحجارة ؛ وكان كرسى الاعتراف يتخذ عقاباً لمن يرتكبون بعض الجرائم أو الثرائين أو النساء الساقطات ، فكان من يحكم عليهم بهذا العقاب يشدون إلى كرسى يربط بزائفة طويلة ثم يفرق بهم الكرسى في مجرى مائي أو بركة . وكان الأشداء من المذنبين يحكم عليهم أحياناً بالعمل في السفن ،

فكانوا يساقون إليها عراة ، ولا يناون إلا القليل من الطعام الذى لا يغنى من جوع ، ويشدون إلى المقاعد ثم يرغمون على التعذيب فيها حتى تخور قواهم ، فإذا امتنعوا أو توانوا جلدوا أشد الجلد وأقساه . وكان الجلد بالوسط أو العصا من العقوبات العادية . وكان جسم المذنب ووجهه أحياناً - يكوى ليوسم بحرف ما يرمز للجريمة . وكان الحنث فى الإيمان والتجديف يعاقبان أحياناً بحرق اللسان بقطعة من الحديد الحمى : وكان بتر الأعضاء أمراً مألوفاً ، فكانت اليدان ، أو القدمان ، أو الأذنان ، أو الأنف تقطع ، والعينا تسملان ، وكان من اللوسائل التى لجأ إليها ولیم الفائح لمكافحة الجرائم « ألا يقتل إنسان أو يشنق لجريمة ارتكبها ، بل أن تفقأ عيناه ، وأن تقطع يده ، وقدماه ، وخصيتاه ، حتى إذا ما بقی شيء من جسمه كان ذلك الشيء الباقى دليلاً على جميع جرائمه وجوره » (٥٦) . وقبلما كان التعذيب من العقوبات المعمول بها فى العصور الوسطى ، وإن كانت الشرائع الرومانية والكنسية قد أعادته إلى الوجود فى القرن الثالث عشر . وكان القتل والسرقة يعاقب عليهما أحياناً بالنفى ، وكان أكثر ما يعاقبان به هو قطع الرأس أو الشنق ، وكان عقاب القاتلات أن يدفن وهن على قيد الحياة (٥٧) . ويمكن عقاب الحيوان الذى يقتل آدمياً بدفنه حياً أو بشنقه . وكانت المسيحية تدعو إلى الرأفة ، ولكن المحاكم الكنسية كانت تعاقب على الجرائم بنفس العقوبات التى توقعها المحاكم المدنية ، من ذلك أن محكمة دير سانت چنيفيف St. Geneviève حكمت بدفن سبع نساء وهن على قيد الحياة عقاباً لمن على السرقة (٥٨) : وبعد فلعل كبح جماح الخارجين على القانون فى العصور الهمجية ، كان يحتاج إلى تلك العقوبات الوحشية ، ولكن هذه العقوبات الوحشية نفسها بقيت حتى القرن الثامن عشر ، ولم تكن شر أنواع التعذيب هى التى يفرضها الأسراف على القتلة بل كانت هى التى يفرضها الرهبان المسيحيون على الأتقياء المارقين .

الفصل الرابع

الحروب الإقطاعية

نشأ الإقطاع ليكون نظاماً عسكرياً لمجتمع زراعى غير مطمئن على نفسه ، وكانت فضائله حربية أكثر منها اقتصادية . وكان يُنظر من سادة الإقطاع وأتباعهم أن يدربوا أنفسهم على الحرب وأن يكونوا فى كل لحظة من اللحظات مستعدين لترك المحراث وانتضاء السيف .

وكان جيش الإقطاع هو الأداة الحكومية الإقطاعية ، تنظمه روابط الولاء الإقطاعى وينقسم انقساماً دقيقاً إلى طبقة فوق طبقة حسب درجات الشرف والمنزلة ، فالأمير ، والمركز ، والكونت ، ورئيس الأساقفة ، هم قواد الجيش ، والبارون ، والسيد ، والأسقف ، ورئيس الدير ، هم رؤساء الفرق ، وكان الفرسان Knights أو Chevaliers هم راكبي الخيل ، وكان الأتباع هم خدام البارونات أو الفرسان ، وكان حملة السلاح men-at-arms — الجيش المربط فى المقاطعات أو القرى — يحاربون مشاة ، وكان من وراء الجيش الإقطاعى ، كما نراه فى الحروب الصليبية ، حشد من الخدم Varlets يذبحون الجند سيراً على الأقدام من غير نظام ولا قواد ، وكانوا يساعدون الجيوش على انتهاب المغلوبين ، ويريحون المعذبين ممن يسقطون فى حومة الوغى ، والجرى من الأعداء بأن يجهزوا عليهم ببلطهم الحربية أو عصيهم الغليظة^(٥٩) . ولكن الجيش الإقطاعى كان فى جوهره وأساسه هو الفارس مكرراً ، ذلك أن المشاة قد فقدوا منزلتهم العليا بعد معركة هديرانوبل (٣٧٨) ، ولم يستعيدوا هذه المنزلة إلا فى القرن الرابع عشر ، وكان الفرسان هم عماد القروسية ، وكان اسمهم وكل ما يتصل به من الأسماء الأخرى Cavalry ، Chivalry ، Caballero ، Chevalier ، Cavalier مشتقاً من اسم الفرس .

وكان المحارب في عهد الإقطاع يستخدم الخربة ، والسيف ،
والقوس ، والسهم . وقد مد الفارس نفسه ووسع دائرتها حتى شملت
سيفه ، وأطلق عليه اسما ينم على إعزازه ووجهه ، وإن كان مما لا شك
فيه أن الشعراء القصاصين هم الذين أطلقوا على سيف شارلمان اسم
« المبهجة » Joyeuse وعلى سيف رولان دورندل Durandel ، وعلى
سيف الملك آرثر اسم Excalibur . وكان للقوس عدة أشكال فقد
تكون قوسا بسيطة قصيرة ، تشد عند الصدر ، وقد تكون قوسا
طويلة تشد نحو العين والأذن ، وقد تكون قوسا متقاطعة يشد وترها في محز
بمقبضها ، ثم تطلق فجأة ، وقد يستخدم أحيانا زناد في إطلاقها ، وتنطلق
منها قذيفة من الحديد أو الحجر . وكانت القوس المتقاطعة أداة قديمة العهد ،
أما القوس الطويلة فكان أول من اشتهر باستعمالها إدورد الأول (١٢٧٢ —
١٣٠٧) في حروبه مع أهل ويلز . وكانت الرماية أهم عناصر التدريب
العسكري في إنجلترا كما كانت من أهم العناصر في ألعاب القروسية . وكان تطور
القوس وإتقانها بداية تدهور النظام الإقطاعي من الناحية العسكرية ،
ذلك أن الفارس كان يستنكف أن يحارب راجلا ، ولكن الرماة كانوا
يقتلون جواده ، ويرغمونه على أن ينزل إلى الأرض التي لا تتفق وطبيعته .
ووجهت آخر الضربات إلى الإقطاع في القرن الرابع عشر بعد اختراع
البارود والمدافع ، فقد أمكن بهما قتل الفارس المدرع وتدمير قصره من
مساحة لا سلطان للفارس عليها لبعده عنها .

وإذ كان للمحارب الإقطاعي جواد يحمله ، فقد كان يسعه أن يثقل نفسه
بالدروع ، ولهذا كان الفارس الكامل العدة في القرن الثاني عشر يغطي جسمه
بالزرد من عنقه إلى ركبتيه — تستره شبكة ذات أكرام للراعيه ، وقلنسوة من
الحديد تغطي كل رأسه عدا عينييه ، وأنفة ، وفه ، وكانت ساقاه وقدماه تغطي
بدروع من الزرد خاصة بها . فإذا كان في الحرب غطي رأسه فضلا عن غطائه
السالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد تحمي أنفه . وظهرت في

القرن الرابع عشر البيضة ذات الحافة الأمامية البارزة ، والدرع المصنوع من الصفائح المعدنية لحاية الفارس من القوس الطويلة أو المتقاطعة ، وبقيتنا حتى القرن السابع عشر ، ثم بطل استعمال الدروع كلها تقريبا ليكون المحارب سريع الحركة . وكان للفارس ترس معلق في عنقه ، يقبض عليه بيده اليسرى من سيور مثبتة في سطحه الداخلي ، وكان هذا الترس يصنع من الخشب ، والجلد ، والأربطة الحديدية ، ويزدان في وسطه بمشبك من الحديد المذهب ، وهكذا كان الفارس في العصور الوسطى قلعة متحركة .

وكانت الحصون عادة هي أهم وسائل الدفاع وأجدها في الحروب الإقطاعية . فكان في وسع الجيش الذي يهزم في ميدان القتال أن يجد له ملجأ داخل أسوار بيت الشريف ، وكان في وسعه أن يقف من العدو وقفته الأخيرة داخل البرج . واضمحل علم الحصار في العصور الوسطى لأن ما يلزم لذلك أسوار الأعداء من تنظيم وعدد كان أغلى وأشق من أن يطيقه الفرسان أصحاب المكاينة العالية ، ولكن فن المدمر والجندى الملمغم ظل باقيا في تلك العصور . كذلك قل شأن الأساطيل في عالم كانت النزعة الحربية فيه أقوى مما تحتمله موارده . وقد ظلت السفائن الحربية شبيهة بسفائن الأقدمين - تحمل فوق سطوحها أبراج القتال ، ويدفعها بالبحايف الرجال الأحرار أو الأرقاء المشدودون إليها . وكان ما ينقص الرجل أو السفينة من القوة يستعاض عنه بالزينة ، فكان بناء السفن والفنانون في العصور الوسطى يضعون على خشب السفينة طبقة من القار تقيه من تأثير الماء والهواء ، ثم يطلونها من فوقه بالألوان الزاهية الممزجة بالشمع - بيضاء أو قرمزية أو زرقاء في لون ماء البحر الشديدة الزرقة ، وكانوا يدهبون جوؤها وأسيجتها ، و يقيمون في مقدمها ومؤخرها تماثيل لأناس ، وحيوانات ، وآلهة . وكانت الأشعة تلون بألوان زاهية ، بعضها أرجواني ، وبعضها ذهبي ، وكانت سفينة السيد تنقش عليها شارة درعه . وتختلف حروب العصور الوسطى عن الحروب القديمة والحديثة في كثرة

عددها ، وقلة نفقاتها وعدد من يقتلون فيها . فأما كثرة العدد فكان سببها أن كل سيد كان يدعى لنفسه حق محاربة كل رجل لا تربطه به روابط الإقطاع ، كان كل ملك حراً في أن يعتمد إلى السرقة الشريفة سرقة أراضي غيره من الحكام . وإذا ذهب الملك أو الشريف إلى الحرب ، كان على أتباعه وأقاربه حتى الطبقة السابعة أن يتبعوه ويقاتلوا معه أربعين يوماً ، ولا يكاد يوجد يوم من أيام القرن الثاني عشر لم تكن فيه حرب في جزء من أجزاء البلاد المعروفة الآن باسم فرنسا ، وكان أسمى ما يبلغه الفارس من الصفات أن يكون محارباً بارعاً ، وكان ينتظر منه أن يكيل أو يتلقى الضربات القوية في سرور أو جلد ، وكانت أعظم أمنية له أن يموت ميتة المحارب في « ميدان الشرف » ، لا « ميتة الأبقار » في الفراش^(٦٠) ، ولقد شكى برثولد الراتسبونى Berthold of Ratisbon من « قلة عدد السادة الذين يصلون إلى السن الصحيحة أو يموتون الميتة الصحيحة »^(٦١) ولكن راتسبون هذا كان من الرهبان .

ولم تكن الحرب شديدة الخطورة ، فهاهو ذا أودركس فيتالس Ordericus Vitalis يصف معركة بريمول Brémule (١١١٩) بقوله إنه « لم يقتل إلا ثلاثة من الفوارس التسعمائة الذين كانوا يحاربون »^(٦٢) ، وقد أسر أربعمائة فارس في معركة تنشبريه Tinchebrai (١١٠٦) ، التي كسب فيها هنرى الأول ملك إنجلترا بلاد نورماندية ، ولكن فارساً واحداً لم يقتل من فرسان هنرى . وفي واقعة بوفين Bouvine (١٢١٤) وهى من الوقائع الحاسمة التي كانت أشد معارك العصور الوسطى هولا قتل مائة وسبعون فارساً من الألف والحسمائة الذين اشتركوا في القتال^(٦٣) . وكانت الدروع والقلاع تجعل الميزة في الحرب للدفاع ، فقد كان من الصعب أن يقتل الرجل الكامل العدة إلا إذا قطع رأسه وهو راقد على الأرض ، ولم يكن هذا العمل مما ترضى عنه الفروسية . كذلك كان أسر الفارس وقبول فديته أدنى إلى الصواب من قتله والتعرض للانتقام الدموى ؛ وها هو ذا فرواسبار

Froissart يحزنه أن قتل في إحدى المعارك « كثيرون من الأسرى كان مستطاعاً أن ينجى من افتدائهم ٤٠٠,٠٠٠ ف ذلك » (٦٤) : وكانت قواعد الفروسية ، والحكمة المتبادلة بين الفرسان بعضهم وبعض ، تحض على مجاملة الأسرى ، والاجتدال فيما يطلب من الفداء ، وكان من المعتاد أن يطلق سراح الأسير إذا وعد بشرفه أن يعود ومعه فديته قبل وقت معين ، وقبلما كان فارس يحث في هذا الوعد (٦٥) . وكان الفلاحون هم الذين قاسوا أشد البلاء في حروب الإقطاع . وكان كل جيش في فرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، يغير على أراضي أتباع عدوه وأرقاء أرضه وينهب بيوتهم ويستولى على كل ما لم يجمع من الماشية في داخل أسواره ، وكان كثيرون من الفلاحين بعد هذه الحروب يهجرون محاربتهم ، وهلك الكثيرون منهم جوعاً لقلة ما أنتجته الأرض من الحبوب .

وحاول الملوك والأمراء أن يحتفظوا بالسلم الداخلية في فترات بين الحروب ، ونجح في هذه المحاولات الأدواق النورمنديون في نورمندي ، وإنجلترا ، وصقلية ، وكونت فلاندرز في بلاده ، وكونت برشلونة في قطلونية ، ونجح هنري الثالث مدى جيل من الزمان في ألمانيا ، وفيما عدا هؤلاء كانت الكنيسة صاحبة الفضل في تقييد الحروب ، فقد أصدرت عدة مجالس كنسية في فرنسا بين عامي ٩٨٩ و ١٠٥٠ قراراً بتحديد « سلم إلهية » وأندرت كل من يستخدم العنف في الحرب مع غير المقاتلين بالحرمان من حظيرة الدين . ونظمت الكنيسة الفرنسية حركة تدعو إلى السلام في عدة مراكز مختلفة ، وأقنعت كثيرين من الأشراف بأن يمتنعوا عن الحروب الخاصة بين بعضهم وبعض ، ثم لم تكتف بهذا بل أقنعتهم فوق ذلك أن يشتركوا معها في تحريمها ، وقام فلبرت أسقف تشارتر *Fulbert of Chartres* (٩٦٠ - ١٠٢٨) بحمد الله في ترنيمة ذائعة الصيت لوجود فترة من السلام غير عادية . ورحبت الجماهير ترحيباً حماسياً بهذه الحركة ، وأخذ الصالحون يتنبأون بأنه لن تمضي خمس سنين حتى يكون جميع سكان العالم

المسيحي قد وافقوا على برنامج السلام^(٦٦) ، وأعلنت مجالس الكنيسة الفرنسية من عام ١٠٢٧ وما بعدها « هدنة الله » ، ولعلها في هذا كانت تذكّر تحريم المسلمين للحرب في الأشهر الحرم فقالت : على الناس جميعاً أن يمتنعوا عن أعمال العنف طوال أيام الصوم الكبير ، وفي موسم الحصاد وقطاف الكروم (من ١٥ أغسطس إلى ١١ نوفمبر) ، وفي أعياد محددة ، وفي جزء من كل أسبوع - كان عادة من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين ، وأجازت هذه الهدنة في صورتها النهائية قيام الحروب الخاصة أو الحروب الإقطاعية ثمانية يوماً في السنة . وقد أثمرت هذه النداءات والإنذارات ثمرتها ، ففضى على الحروب الخاصة شيئاً فشيئاً بتعاون الكنيسة ، وبقوة الملوك المتزايدة ، ونشأة المدن والطبقات الوسطى ، واستنفاد النشاط العسكري في الحروب الصليبية ، وأضحت هدنة الله في القرن الثاني عشر جزءاً من القانون المدني والقانون الكنسي في أوروبا الغربية ، وحرّم مجلس لاتران الثاني (١١٣٩) استخدام العدد الحربية ضد الناس^(٦٧) ، واقترح جر هوو الرينخزبرجى Gerhoh of Reichersburg أن يحرم البابا جميع الحروب بين المسيحيين بعضهم وبعض ، وأن يُعرض كل ما يشجر من النزاع بين الحكام المسيحيين على التحكيم البابوى^(٦٨) . ورأى الملوك أن الوقت لم يحن بعد لتنفيذ هذا الاقتراح ، فكانوا يثيرون الحروب القومية أكثر من ذى قبل كلما نقصت الحروب الفردية ، وكان البابوات أنفسهم في القرن الثالث عشر ، وهم يحركون الييادق البشرية ليظفروا بالسلطان ، كان هؤلاء البابوات يستخدمون الحرب أداة من أدوات السياسة :

الفصل الخامس

الفروسية

من العادات الألمانية القديمة عادات التعليم العسكرى ، بعد أن تأثرت بأساليب المسلمين فى بلاد الفرس ، والشام ، والأندلس وبالأفكار المسيحية المتصلة بالخشوع والأسرار المقدسة ، من هذه كلها نشأ نظام الفروسية ، وهو نظام لم يبلغ حد الكمال ولكنه نظام نبيل كريم .

كان الفارس شخصاً شريف المولد - أى ينتمى إلى أسرة تحمل لقباً شريفاً وتمتلك أرضاً . ولم يكن من حق جميع أصحاب « الأصول » (أى الذين يمتازون بانتسابهم إلى أسر نبيلة) أن يختاروا فرساناً أو يحملوا هذا اللقب ، فالأبناء غير الابن الأكبر - عدا أبناء الملوك - لم يكن لهم فى العادة إلا أملاك قليلة لا تفى بالنفقات التى تتطلبها الفروسية ، ولهذا يبقى هؤلاء ضمن الأتباع . إلا إذا حصلوا بجهودهم على أراضى وألقاب جديدة .

وكان الشاب الذى يتطلع إلى أن يكون فارساً يخضع لنظام تأديبى شاق طويل . فكان يعمل وهو فى السابعة أو الثامنة من عمره وصيفاً عند أحد السادة ، حتى إذا بلغ الثانية عشرة أو الرابعة عشرة أصبح تابعاً لهذا السيد ، يقوم بخدمته على مائدة الطعام ، وفى غرفة نومه ، وفى قصر الضيعة ، وفى المناقفة أو القتال ، ويقوى جسمه وروحه بالتمارين والألعاب الشاقة الخطرة ، ويتعلم بالتقليد والتجربة كيف يستخدم أسلحة الحرب الإقطاعية . فإذا أتم تدريبه سلك فى نظام الفرسان فى حفل يشمل مراسم رهيبة يبدوها الطالب بالاستحمام بوصفه رمزاً للتطهير الروحى ولعله كان أيضاً رمزاً للتطهير الجسمى . وكان لهذا يمكن أن يسمى « فارس الحمام » تمييزاً له من « فرسان السيف » الذين تلقوا لقب الفروسية فى ميدان.

القتال جزاء عاجلاً لهم على بسالتهم . وكان يرتدى في هذا الاحتفال قبصاً أبيض ، من فوقه رداء أحمر ومعطف أسود ، يمثل أولها ما يرجى أن يتصف به من نقاء الخلق ، وثانيهما الدم الذي قد يسفكه في سبيل الشرف أو سبيل الله ، وثالثها الموت الذي يجب أن يكون متأهباً لملاقاته بلا وجل . وكان يصوم يوماً كاملاً ثم يقضى ليلة يصلى في الكنيسة ، ويعترف بذنوبه إلى أحد القسيسين ، ثم يحضر مراسم القداس ، ويأخذ العشاء الرباني ، ويستمع إلى موعظة عن واجبات الفارس الخلقية ، والدينية ، والاجتماعية ، والحربية ، ويتعهد في خشوع أن يؤديها كلها . فإذا فعل هذا تقدم إلى المذبح ومعه سيف يتدلى من عنقه ، فيرفع القس السيف ويباركه ويضعه مرة أخرى فوق عنقه ، ثم يلتفت الطالب إلى الشريف الجالس الذي يريد أن يتلقى منه لقب الفروسة ، فيسأله هذا السيد ذلك السؤال الصارم : « لأي غرض تريد أن تنضم إلى هذا النظام ؟ إن كنت تبغى المال ، أو الراحة ، أو الشرف ، دون أن تعمل ما يشرف الفروسية ، فأنت غير خالق بها ، وستكون منزلتك في نظام الفروسية كمنزلة القس المتاجر بالرتب الكهنوتية في الأسقفية . ويكون الطالب وقتئذ متأهباً لأن يجيبه برد يؤكد له استعدادة للقيام بما يفرضه عليه نظام الفروسية . وحينئذ يتقدم إليه فرسان أو سيدات يلبسونه زرد الفروسية من درع على صدره وفي ذراعيه . وقفازين من زرد في يديه ، ومهمازين في خداه (*) . ثم يقوم الشريف ويلطمه ثلاث لطمات بغرض السيف على عنقه أو كتفه ، وقد يلطمه لكمة أخرى على خده ، وهي كلها رموز لآخر الإهانات التي يستطيع أن يتلقاها دون أن يثار لنفسه ، ثم يمنح رتبة الفروسية بهذه الصيغة : باسم الله ، والقدّيس ميخائيل ، والقدّيس جورج أجعلك

(هـ) وكان المهمازان المصنوعان من الذهب هما علامة الفارس ، والمصنوعان من الفضة علامة تابعه ، وإذا قيل عن إنسان إنه « كسب مهمازيه » (الذهبيين) كان معنى هذا أنه باع رتبة الفروسية .

فارساً». ثم يتسلم الفارس الحديد حربة ، وخوذة ، وجواداً ، فيحكم خوذته على رأسه ، ويقفز فوق جواده ، ويهز حربيته ، ويلوح بسيفه ، ويخرج من الكنيسة راكباً ، ويوزع الهدايا على خدمه ، ويولم وليمة لأصدقائه .

وكان من حنوقه وامتيازاته وقتئذ أن يخاطر بحياته في البرجاس الذي يتدرب فيه أكثر من ذى قبل على المهارة ، والجد ، والجرأة . وكانت بداية البرجاس في القرن العاشر ، وكان أكثر ما ازدهر في فرنسا ، وهو الذى سما ببعض العواطف الثائرة وضروب النشاط التى أفسدت حياة رجال الإقطاع . وقد يدعو إليه الملك أو شريف عظيم على لسان مناد للاحتفال بتنصيب فارس ، أو زيارة ملك ، أو زواج فرد من أفراد الأسرة المالكة . وكان الفرسان الذين يرغبون فى الاشتراك فى البرجاس يأتون إلى البلدة التى سيعقد فيها ، ويعلقون أسلحتهم خارج نوافذ حجراتهم ، ويثبتون دروعهم فى جدران الحصون ، والأديرة ، وغيرها من الأماكن العامة . وكان النظارة يبحثون هذه كلها ، وكان لهم أن يتقدموا بما لديهم من الشكاوى الخاصة بما أخطأ فيه كل متقدم للاشتراك فى اللعب ، فيستمع موظفو البرجاس إلى القضية ويحكمون بعدم أهلية المذنب من المتقدمين ، وفى هذه الحالة تكون « على ترسه أو درعه لطخة » . ويفد إلى هذا الجمع الحاشد المتحفز تجار الخيول ليعدوا الفارس للبرجاس ، وبائعو الخردوات ليحلوه هو وجواده بالحلل الجميلة ، والمرايون لافتداء من يسقطون فى الحلبة ، والعرافون ، واللاعبون على الحبال ونحوها ، والممثلون الصامتون ، والشعراء الجائلون والمغنون ، والعلماء المثقلون ، والنساء الخليعات ، والسيدات ذوات المقام السامى . وكان الحادث كله احتمالاً بهيجاً فيه الغناء والرقص ، ومواعيد اللقاء ، والمشاجرات ، والمراهنات التى لا حدها على المباريات .

وقد يدوم البرجاس إلى ما يقرب من أسبوع ، وفد لا يدوم إلا يوماً واحداً . وقد قسمت الأيام فى برجاس عقد فى عام ١٢٨٥ ، فكان يوم الأحد يوم اجتماع

وعيد ، وخصص يوما الاثنين والثلاثاء للمثاقفة ، ويوم الأربعاء للراحة ، ويوم الخميس للبرجاس نفسه الذى أطلق اسمه على الحفل بوجه عام . وكانت حلبة الصراع ميدان بلدة أو فضاء فى أحد أطرافها تحيط به من بعض نواحيه مقاعد وشرفات يشاهد منها السراة الحفل وهم مرتدون أفخر ما كان فى العصور الوسطى من حلل . أما السوق فكانوا يشاهدون الألعاب وهم وقوف حول الحلبة ، وكانت المقاعد تزدان بالنسيج المزركش ، والبيارق المستطيلة ، والدروع المنقوش عليها شارات الأسر الشريفة . وكان الموسيقيون يبدأون المباريات بالأنغام الموسيقية ، ويحيون بالنغمات العالية أبرع ما فى السباق من ضربات . وكان النبلاء والنبيلات ينثرون النقود على للسوق الواقفين فى الميدان ، فكان هؤلاء يتلقفونها وهم يصيحون « هبات ! » و « مرحى ! » .

ويدخل الفرسان قبل المباراة الأولى حلبة البرجاس فيمشون إلى الميدان فى حللهم وعددهم الفاخرة متباهين فى خطاهم ، ومن ورائهم أتباعهم على ظهور الجياد تقودها فى بعض الأحيان بسلاسل من الفضة أو الذهب السيدات اللاتى سيحارب الفرسان تمجيداً لهن . وكانت العادة المألوفة أن يحمل كل فارس ترسه ، وخوذته أو حربته ؛ ولقاعة أو قناعاً ، أو دثاراً ، أو شريطاً انتزعه السيدة المختارة من ثيابها .

وكانت المثاقفة معركة فردية بين فارسين يتباريان . وكانا يعدوان بجواديهما متقابلين ويرمى كلاهما الآخر بحربته المصنوعة من الصلب . فإذا ما اضطر أحد المتبارين أن ينزل عن جواده فإن قواعد المباراة تتطلب أن يترجل الآخر ، وبهذا تلور المعركة بينهما راجلين وتستمر حتى يصبح أحدهما طالباً وقف القتال أو يضطر إلى الخروج منه لأنه تعب ، أو جرح ، أو مات ، أو حتى يطلب القضاة أو الملك وقفه . ثم يمثل المنتصر أمام القضاة ، ويتلقى فى وقار جم جائزة منهم أو من سيدة جميلة . وكانت تشغل عدة أدوار من هذا النوع اليوم كله . وكان الحفل يختم باقتتال حق . يصطف فيه الفرسان المتبارون جماعات متقابلة ويقتتلون اقتتالا حقيقية ،

وإن كان يدور في العادة بأسلحة مثلثة ، وقد أدى قتال من هذا النوع دأر في نيوس Neuss (١٢٤٠) إلى موت نحو ستين فارساً : وفي أمثال هذه المباريات كان يؤبر البعض ، وتؤخذ الفدية ممن يؤسرون كما يحدث في الحروب الحقيقية سواء بسواء . وكانت جياد الأسرى وأسلحتهم غنيمة للمنتصرين ، فقد كان الفرسان يحبون المال أكثر مما يحبون القتال نفسه : وقد ورد في مجموعة الأقاصيص الفرنسية التي كتبت في فرنسا بين منتصف القرن الثاني عشر وآخر القرن الثالث عشر(*) أن أحد الفرسان احتج على تحريم الكنيسة لألعاب البرجاس وقال إن هذا التحريم إذا نفذ حرمه من الوسيلة الوحيدة التي يكسب بها عيشه^(١) . فإذا انتهت جميع المباريات اجتمع الأحياء من الفرسان والنبلاء من النظارة في حفل ليلي تعد فيه الولائم ، ويدور فيه الرقص والغناء ، ويستمتع فيه الفرسان الظافرون بتقبيل أجمل النساء ، ويستمتع الحاضرون إلى القصائد والأغاني التي تؤلف تخليداً لانتصارهم .

وكان يطلب إلى الفارس من الوجهة النظرية أن يكون بطلاً ، وسميداً(**) ، وقديساً ، وإذا كانت الكنيسة حريصة على ترويض الشرسين من الفرسان ، فقد أحاطت بنظام القروسية بمراسم وإيمان دينية . فقد كان الفارس يقسم أن يكون صادقاً في القول ، وأن يدافع عن الدين ، ويحمي الفقراء والمساكين ، وينشر لواء السلم في ولايته ، ويقا تل الكفرة . وكان مدينأ لسيد الإقطاعي بولاء يرتبط به أكثر من ارتباط الآباء بحب الأبناء ؛ ويتعهد أن يكون حارساً للنساء ، مدافعاً عن عفتهم ؛ وأن يكون أخاً لجميع الفرسان يبادلهم المجاملة وضروب المساعدة . وقد

(*) هي المعروفة باسم Fabliax ويبلغ عددها نحو مائة قصة معظمها هزلي . (المترجم)

(**) ورد في القاموس المحيط للفيروزبأدي : السميدع : السيد ، الكريم ، الشريف ،

السخي ، الموطأ الأكناف ، والشجاع . ولعل هذه أقرب ترجمة لكلمة gentleman وقد

وردت في بعض أشعار المعتد . (المترجم)

يحدث في إبان الحروب أن يقاتل الفارس غيره من الفرسان ، فلماذا أسر واحداً منهم عامله معاملة الضيف . وهكذا كان الفرسان الفرنسيون الذين أسبروا في كريسى Grécy وپواتييه يعيشون أحراراً مستمتعين بالراحة والاطمئنان في ضياع من أسروهم من الفرسان الإنجليز ، يشتركون مع مضيفيهم في الولائم والألعاب ، وظلوا كذلك حتى افتدوا (٧٠) . ورفع الإقطاع الشرف الأرستقراطي ومطالب النبيل عند الفارس إلى منزلة عالية علواً لا يستطيع أن يدركه ضمير السوقه — فكان يقسم ألا يتخلى عن البسالة الحربية والوفاء الإقطاعى ، وأن يضع نفسه إلى أقصى حد في خدمة جميع الفرسان ، وجميع النساء ، وجميع الضعفاء والفقراء . وهكذا عادت الرجولة Virtus إلى معناها الذى كان لها عند الرومان بعد أن ظلت المسيحية ألف عام تؤكد الفضائل النسائية ؛ وبهذا كانت الفروسية ، رغم هالتها المسيحية ، انتصاراً للأفكار الألمانية ، والوثنية ، والعربية على المبادئ المسيحية ، ولقد كانت أوروبا التى توالى عليها الهجمات من كل ناحية في ميسس الحاجة إلى الروح الحربية مرة أخرى .

على أن هذا كله كان هو الفروسية من الوجهة النظرية ؛ وكان عدد قليل من الفرسان يستمسكون به في حياتهم ، كما كان عدد قليل من المسيحيين يسمون إلى المستوى الرفيع الشاق من إنكار الذات . ولكن الطبيعة البشرية التى ولدت بين الغابات والوحوش قد لوثت هذا المثل الأعلى وذاك ، فهذا البطل الذى قاتل يوماً ما ببسالة في ألعاب البرجاس أو في ميدان القتال قد يكون في يوم آخر سفاحاً غادراً ؛ وقد يفخر بشرفه كما يفخر بالريشة التى في خوذته ، ويفعل ما فعله لانسلو Lancelot ، وترسترام Tristram ، وغيرهما ممن هم أكثر تأصلاً في الفروسية فيحطم بالزنى الأسر الطبية . وقد يتشدد بحماية الضعفاء ، ثم يقتل الفلاحين العزل بحمد السيف ؛ وكان يعامل العامل البدوى الذى يعتمد عليه حصنه ومجده معاملة ملوئها الازدراء ، كما يعامل الزوجة التى أقسم أن يعزها ويحميها بغلظة

فى كثير من الأحيان وبوحشية فى بعضها^(٧١) . وقد يستمع إلى الصلاة فى الصباح ، ويسطو على كنيسة فى آخر النهار ، ويشرب حتى يفقد وعيه فى المساء . وهذا ما وصف به جلداس Oidas الفرسان البريطانيين الذين كان يعيش بينهم فى القرن السادس ، وهو القرن الذى يرى بعض الشعراء أن آرثر Arthur « والطبقة العظيمة من فرسان المائدة المستديرة » كانوا يعيشون فى خلاله^(٧٢) . وكان الفارس يتحدث عن الولاء والعدالة ولكنه يملأ صفحات فرواسار Froissart بالغدر والعنف . وبينما كان الشعراء الألمان يتغنون بالفروسية ، تراهم لا يقطعون عن اللكمات ، وإحراق الدور ، وقطع الطريق على المسافرين البيريثين^(٧٣) . ولقد دهش المسلمون من فظاظة الصليبيين وقسوتهم ، وحتى بوهمند Bohemund العظيم نفسه ، لما أراد أن يظهر احتقاره لإمبراطور الروم ، بعث له ببضاعة من الأنوف والإبهامات المقطعة^(٧٤) . لقد كان هؤلاء شواذ ولكنهم كانوا كثيرين . ولسنا ننكر أن من السخف أن نتظر من الجنود أن يكونوا قديسين ، ذلك أن إجابة التقتيل تتطلب فضائلها الفذة ، وهؤلاء الفرسان الغلاظ هم الذين طردوا الصقالبة من ضفاف نهر الأودر، والمجر من إيطاليا وألمانيا، وهم الذين روضوا أهل الشمال فكانوا هم النورمان ، وجاءوا بالحضارة الفرنسية إلى إنجلترا على شفار السيوف ، فكانوا ما لا بد أن يكونوا .

وكان ثمة عاملان هما اللذان خففا من همجية الفروسية ، ونعنى بهما النساء والسيحية ، فأما المسيحية فقد أفلحت إلى حد ما فى تحويل تيار الخصام فى الفروسية إلى الحروب الصليبية ، ولعلها استمدت العون فى هذا التحويل من عبادة مريم العذراء أم المسيح ، فقد رفعت هذه العبادة منزلة الفضائل النسائية فخففت بذلك من حدة تحمس الرجال الأشداء الميالين إلى العنف . ولكن لعل النساء اللاتى يعشن على ظهر الأرض ، واللاتى لهن تأثير كبير فى الحواس وفى الأرواح ، قد كان لهن أثر أكبر من أثر مريم العذراء فى تحويل الفارس المحارب إلى سيد كريم

الأخلاق . وكثيراً ما حرمت الكنيسة ألعاب البرجاس ، ولكن الفرسان كانوا يغفلون أوامرهم ويظهرون ابتهاجهم بهذا الإغفال ، وكانت النساء يحضرنه ، ولم يكن الفرسان يتجاهلون وجودهن ؛ وكانت الكنيسة غير راضية عن الدور الذى تضطلع به النساء فى حفلات البرجاس وفى الشعر ، وقام الصراع بين أخلاق السيدات النبيلات وبين التعاليم الأخلاقية التى تدعو إليها الكنيسة ، وانتصرت السيدات وانتصر الشعراء فى صراع عالم الإقطاع .

لقد وجد الحب العذرى ، الحب الذى يجعل من المحبوب مثلاً أعلى ، فى كل عصر من العصور على الأرجح ، وكان فى شدته يتناسب إلى حد ما مع ما يوضع من العقبات وما يمضى من الزمن بين الشهوة وإشباعها . ولما كان هذا الحب من أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر سبب الزواج ، وإذا ما وجدنا هذا الحب منفصلاً كل الانفصال عن الزواج فى عصر ازدهار الفروسية ، وجب علينا أن نعد هذه الحال أقرب إلى الطبيعة وإلى الأحوال السوية من أحوالنا الحاضرة . لقد كانت النساء فى معظم العصور ، وبخاصة فى عصر الإقطاع ، يتزوجن الرجال لما لديهم من مال ، ويعجبن بغير أزواجهن لما يتمتعون به من سحر وجمال . وكان الشعراء لفقرهم يتزوجون من الطبقات الدنيا ويحبون من طبقات بعيدة المنال ، ويتوجهون بأجل أغانيهم إلى السيدات اللاتى لا يرجون أن يصلوا إليهن . وكان الفارق بين الحب وحيييه فى العادة كبيراً إلى درجة يرى معها الناس أن أحفل الشعر بالعواطف الجياشة لا يعلو أن يكون تحية ظريفة للمحبوب . وكان السيد الإقطاعى المهذب يكافئ الشعراء الذين يتشبهون بزوجته ؛ وشاهد ذلك أن الفيكونت فو Vaux ظل يستضيف الشاعر پير فيدال Peire Vidal بعد أن تغزل پير بامرأته — بل بعد أن حاول أن يغويها (٧٥) — وإن كانت هذه درجة من المجاملة لا يضح للشعراء عادة أن يجروا عليها . وكان الشاعر الحب يرى أن الزواج ، إذ يتيح أكبر فرصة للمتعة بأقل قدر من الإغراء ، قلما يوجد الحب

العذرى أو يستبتيه بعد أن يوجد ؛ ويبدو أن دانتي التقي نفسه لم يحلم قط بأن يقرض الشعر الغزلى فى زوجته ، ولم يجد ما يعيبه فى التغزل بغيرها من النساء المتزوجات منهن وغير المتزوجات . وكان الفارس يرى ما يراه الشاعر من أن حب الفارس يجب أن تختص به سيدة أخرى غير زوجته ، وكانت هذه السيدة عادة زوجة فارس آخر (٧٦) . وكان معظم الفرسان يسخرون من هذا الحب العذرى ، ويعودون بعد وقت ما إلى أزواجهم ، ويسلون أنفسهم بالحروب . وقد نسمع عن فرسان يصمون آذانهم عن نداء النساء اللاتي يعرضن عليهم حين العذرى (٧٧) . ولقد مات رولان Roland ، كما تحدثنا الأغنية Chanson وهو لا يكاد يفكر فى خطيبته أود Aude التي كادت تموت من الحزن حين جاءها خبر وفاته . كذلك لم يكن حب النساء كله حبا عذريا ؛ ولكن جرى العرف الذى كان متبعاً عند الكثيرات منهن أن يكون للسيدة حبيب ، أفلاطونى أو بيرونى (*) ، مضافا إلى زوجها . وإذا جاز لنا أن نصدق روايات الحب التي كتبت فى العصور الوسطى قلنا إن الفارس كان يقسم بأن يقوم بخدمة السيدة التي أعطته لونها (**) ليلبسه أو بأداء الواجب الذى يفرضه عليه حبا . وكان لها أن تفرض عليه مغامرات خطيرة لتمتحن حبه أو لتبعده عنها ؛ وإذا ما قام بخدمتها على الوجه الأكمل كان المنتظر منها أن تكافئه على خدمته بعناق أو بما هو خير عنده من العناق ؛ ذلك هو الجزء الذى كان يطلبه . وكان يوجه إليها كل ما يقوم به من أعمال جريئة مجيدة ، وكان اسمها هو الذى يناديه فى ساعات القتال الحرجة ، أو حين يلفظ آخر أنفاسه . وتلك حالة أخرى من الحالات التي لم يكن فيها الإقطاع جزءا من المسيحية ، بل كان نقيضها ومنافسها . ذلك أن النساء اللاتي كن من الوجهة

(*) الحب الأفلاطونى معروف أما الحب البيرونى فنسبة إلى الشاعر الإنجليزي بيرون صاحب الحب الشهوانى الذى لم يكن يستحي منه ، وكان يقول إنه إنما يفعل جهرة ما يفعله غيره فى الخفاء . (المترجم)

(**) أى الشارة ذات اللون الخاص بها . (المترجم)

النظرية مقيدات في حين بقيود شديدة ، قد أكدت بهذه الطريقة حقهن في الحرية ، وشكلن بأنفسهن قانونهن الأخلاقي . وأخذت عبادة المرأة الشهبانية تنافس عبادة مريم العذراء الروحية ؛ ونودي بالحب على أنه أساس مستقل تقدر به قيم الناس ، وأوجد مثلاً علياً لأداء الخدمات لهم ، وقواعد للسلوك ، وكان فيه تجاهل للدين معيب حتى في الوقت الذي كان يأخذ عنه مصطلحاته وصوره .

وقد أثارت هذه التفرقة المعقدة بين الحب والزواج مشاكل كثيرة خاصة بالأخلاق وآداب السلوك . وكان المؤلفون يعالجون هذه المسائل في تلك الأيام ، كما كانوا يعالجونها في أيام أوفد بكل ما يتصف به الأخلاقيون من تدقيق وإتقان . وحدث في وقت ما بين عامي ١١٧٤ و ١١٨٢ أن ألف رجل يدعى أندرياس كيلانوس Andreas Capellanus أى القس أندرو — رسالة في الحب ودوائه Tractatus de amore et de amoris remedio أورد فيها بين ما أورد من المسائل قانون الحب العذري ومبادئه . ويقصر أندرو هذا الحب على الأشراف ، ويقول بلا حياة إنه هو هيام فارس هياماً محرماً بوجه فارس آخر ، ولكنه يذكر أن خواص هذا الحب هي الولاء والتبعية ، وخدمة الرجل للمرأة . وهذا الكتاب هو أهم المراجع التي يستشهد بها على وجود « محاكم الحب » التي كانت السيدات ذوات الألقاب يُستجوبن فيها ويقدمن القرارات الحاضرة بالحب العذري . وكانت زعيمة السيدات في هذه الإجراءات أيام أندرو ، إذا كان لنا أن نصدق ما يقوله هو عن هذا ، هي الأميرة الشاعرة مارية Marie كونتة شمبانيا ، وكانت زعيمتها قبل وقتها بجيل هي أمها . وأكثر النساء فتنة في المجتمع الإقطاعي هي إيلانور Eleanor دوقة أكتين Aquitaine التي كانت في وقت ما ملكة فرنسا ثم ملكة إنجلترا بعدئذ . وكانت هي وأمها قاضيتين ترأسان محكمة الحب في مدينة بواتييه في بعض القضايا^(٧٩) وكان أندرو يعرف نمارية حق المعرفة ، وكان قساً خاصاً بها ، ويبدو أنه ألف كتابه ليذيع به

نظرياتها وأحكامها في الحب ؛ ومن أقواله فيه إن « الحب يعلم كل إنسان أن يتحلى بكثير من ضروب الأخلاق الفاضلة » ؛ ويؤكد لنا أن أشراف بواتيه الغلاط قد انقلبوا بفضل تعاليم ماريّة مجتمعا من كرائم السيدات وذوى المروعة والشهامة من الرجال .

وتحتوى قصائد شعراء الفروسية الغزلين عدة إشارات إلى محاكم الحب السالفة الذكر التي كانت تقيمها سيدات من الطبقة الراقية — كونة نربونة Narbonne وكونته فلاندرز وغيرهما — في بييرفو Pierrefeu وأفنيون Avignon وغيرهما من بلدان فرنسا^(٨٠) . ويحدثنا المؤرخون أن عشر نساء ، أو أربع عشرة ، أو ستين منهن كن يجلسن للفصل في القضايا التي تعرض عليهن ، ومعظمها يعرضه نساء ، وبعضها يعرضه رجال ؛ وكانت تلك المحاكم تفض المنازعات وتسوى الخلافات ، وتوقع العقاب على من يخرق القانون . وبمقتضى هذا الحق أصدرت ماريّة الشمبانية Marie of Champagne (كما يقول أندرو) في السابع والعشرين من إبريل عام ١١٧٤ فتوى في سؤال وجه إليها يقول فيه صاحبه : « هل يمكن وجود حب حقيقي بين الأشخاص المتزوجين ؟ » فكان جوابها إنه لا يمكن وجوده ، وكانت حجتها في ذلك أن « المحبين يعطون كل شيء بلا مقابل ، ولا يتقيدون فيما يعطون بموجبات الضرورة ؛ أما المتزوجون فإن ما عليهم من واجبات يرغبهم على أن يخضع كل منهم لرغبات زوجه »^(٨١) . وقد أجمعت محاكم الحب كلها ، كما يقول أندرو ، على واحد وعشرين قانونا من « قوانين الحب » : منها (١) لا يمكن أن يتخذ الزواج حجة لرفض الحب . . . (٣) لا يستطيع إنسان أن يحب اثنين في وقت واحد (٤) لا يمكن أن يظل كل الحب على حال واحدة ، فهو إما أن يزيد وإما أن ينقص (٥) المنة التي يسديها صاحبها مرغما منة تافهة (١١) لا يليق بالرجل أن يحب النساء اللاتي لا يحببن إلا بقصد الزواج . . . (١٤) إن السهولة المفرطة في نيل الحبيب تحقر الحب ، أما الصعاب التي تعترض الحب فلإنها ... ترفع من قدره ... (١٩) إذا بدأ الحب يتناقص فسرعان ما يزول ، وقلما يعود ... (٢١) يزداد الحب

على الدوام بتأثير الغيرة . . . (٢٣) الشخص الذى يقع فريسة الحب لا ينام إلا قليلا ولا يطعم إلا قليلا (٢٦) الحب لا يضمن بشئ على حبيبه (٨٢) .

وكانت محاكم الحب هذه أجزاء من ندوات تقيمها نساء طبقة الأشراف ؛ ولكن رجال هذه الطبقة لم يكونوا يعبأون بها ، وكان الفرسان العشاق يضعون لأنفسهم قواعدهم . غير أن الذى لا شك فيه أن ازدياد الثراء والتعطل قد أحاط الحب بأخيلة وآداب ومجاملات امتلأت بها قصائد شعراء الفروسية الغزليين وقصائد بداية النهضة . وفى ذلك يقول فلانى Villani شاعر فلورنس (١٢٨٠ ؟ - ١٣٤٨) « تكون فى فلورنس فى شهر يونية من عام ١٢٨٣ فى عيد القديس يوحنا بينا كانت المدينة سعيدة آمنة . . . اتحاد اجتماعى قوامه ألف شخص ، يرتدون كلهم بيض الثياب ، ويطلقون على أنفسهم اسم غرامم الحب . وقد نظمت هذه الجماعة سلسلة من الألعاب ، والحفلات والرقص ، مع السيدات ؛ فكان الأعيان ورجال الطبقة الوسطى يمشون على دقات الطبول وأنغام الموسيقى ، وقيمون الولائم فى منتصف النهار وفى الليل . وقد ظلت محكمة الحب هذه قائمة نحو شهرين ، وكانت أجهل وأشهر ما أقيم من نوعها فى تسكانيا » (٨٣) .

نشأت الفروسية فى القرن العاشر ، وبلغت ذروتها فى القرن الثالث عشر ، وقاست الأمرين من وحشية حرب المائة السنين ، واضمحلت أشد الاضمحلال من جراء الأحقاد المريرة التى بددت شمل طبقة الأشراف الإنجليز فى حروب الوردتين ، ثم لفظت آخر أنفاسها فى وسط الأحقاد التى أثارها الحروب الدينية فى القرن السابع عشر ؛ ولكنها تركت آثارها البارزة فى أوروبا أثناء العصور الوسطى والعصر الحديث من النواحي الاجتماعية ، والتربوية ، والفنية ، والأدبية ، والفنية ، واللغوية . وازداد عدد طبقات الفروسية - ربطة الساق ، والحمام ، والخنزيرة الذهبية - وتضاعفت حتى بلغ عددها ٢٣٤ طبقة منتشرة فى بريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ؛ وجمعت مدارس

كمدارس إيتن Eton ، وهرو Harrow ، وونشستر Winchester بين
مثال الفروسية الأعلى والتربية « الحرة » في جهودها الموفقة في تاريخ التربية
لتثقيف العقل ، وتقوية الإرادة ، وتقويم الأخلاق . وإذا كان الفارس
يتعلم الآداب ، والشهامة والمروءة ، في حاشية النبيل أو المليك ، فقد كان
ينقل بعض هذه الصفات إلى من هم دونه من أفراد الطبقات الاجتماعية
الأخرى ، وليست الإجمالات والرقرة في الوقت الحاضر إلا مزيجاً مخففاً من
فروسية العصور الوسطى المركزة . ولقد ازدهر الأدب الأوربي من أغنية
رولان إلى دن كيشوت ، لأنه أخذ يصف أخلاق الفرسان وموضوع
الفروسية ، وكان الكشف الثاني لنظام الفروسية من العناصر الفعالة في الحركة
الأدبية الإبداعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومهما يكن في آداب
الفروسية الخلقية من إسراف ومخافات ، ومهما كان الفرق كبيراً بين
حقيقتها العملية ومثلها العليا ، فإنها بلا ريب من أعظم ما ابتدعته الروح
البشرية من نظم ، وإنها فن من فنون الحياة أبهى وأفخم من كل فن سواه .
وهكذا نرى أن الصورة التي رسمناها للإقطاع لم تقتصر على أن تكون
صورة للاسترقاق في الأرض ، وللأمية ، والاستغلال ، والعنف ، بل
كانت تجمع بين هذا كله وبين قدر يعدله من الفلاحين الأقوياء ، يقطعون
أشجار الغابات ، ومن رجال متباهين أشداء في لغتهم ، وجهم ،
وحروبهم ، وفرسان يقسمون بأن يكونوا شرفاء ، خادمين لمن يحتاجون
إلى خدمتهم ، يجدون في طلب المغامرات وأسباب الشهرة كما يجد غيرهم
في طلب الراحة والأمن ، يحتقرون الخطر والموت والجحيم ، ونساء
صابرات كادحات ، يلدن ويربين الأبناء في قرى الفلاحين ، وسيدات
من ذوات الحسب والنسب الرفيع يمزجن دعواتهن الرقيقة لمريم العذراء
بالحرية الجريئة في التغنى بالشعر الشهواني والحب العذرى — ولعل
الفروسية كانت أقوى أثراً من المسيحية في رفع منزلة المرأة . ولقد كان أهم
ما اضطلع به الإقطاع من أعمال هو إعادة النظام السيامي والاقتصادى إلى أوربا

يعد أن توالى عليها الغارات والكوارث المخربة المقطعة لأوصالها مائة عام .
ولقد أفلحت في غرضها هذا ؛ ولما أن اضمحلت قامت على أنقاضها وتراتها
مدنيتنا الحديثة .

وبعد فليست العصور الوسطى حقبة يحق للعالم أن ينظر إليها بتشامخ
وازدراء . ذلك أنه لم يعد في وسعه أن يشهر بما كان فيها من جهل
وخرافات ، وتفكك سياسى ، وفقر اقتصادى وثقافى ؛ بل عليه بدلا من
هذا أن يعجب كيف استطاعت أوروبا أن تفيق من الضربات المتعاقبة التى
كألها لها القوط ، والهن ، والوندال ، والمسلمون ، والحجر ، والشهابيون ،
واحتفظت في وسط الاضطراب والمآسى بهذا القدر الكبير من الآداب
والأساليب الفنية القديمة . ولا يسهه إلا أن يعجب بشارلمان ، وألفريد ،
وأولاف ، وأتو ، وأمثالهم من الرجال الذين أقاموا من هذه الفوضى نظاماً ؛
كما يعجب ببندكت ، وجريجورى ، وبنيفاس ، وكولبا ، وألكوين ،
وبرونو ومن إليهم من الرجال الذين صابروا وصبروا حتى بعثوا الأخلاق
والآداب من قفار تلك الأيام ؛ وبالمطارنة والصناع الذين استطاعوا أن
يشيدوا الكنائس الكبرى ، والشعراء المجهولين الذين استطاعوا أن يُغَنِّوا
فيما بين كل حرب وحرب ، وإرهاب وإرهاب . وكان لا بد للدولة
والكنيسة أن تبدا عملهما مرة أخرى من الدرك الأسفل ، كما بدأه رميولوس
ونوما قبلهما بألف عام ؛ وكانت الشجاعة التى يتطلبها بناء المدن من
الغابات ، وخلق المواطنين الصالحين من الهمج ، أعظم من أختها التى شادت
شارتر ، وأمين ، وريمس في الزمن الحديث ، أو هدأت حمى دانتي
الانتقامية فصاغت منها شعراً موزوناً .

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع المجلدة في الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويملأها رقم الفصل ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويملأها رقم الفصل أو الآية في القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER XV

4. Abbott, G.F., *Israel in Egypt*, 43.
2. Baron, S., *Social and Religious History of the Jews*, I, 286; Gratez, H., *History of the Jews*, II, 566.
3. Socrates, *Ecclesiastical History*, III; 20; Julian, *Works*, III, 51.
4. Abbott, 45.
5. Ammianus Marcellinus, *Works*, xxiii, 1.
6. Jerome, *Commentary on Isaiah*, vi, 11-18, in Baron, I, 261.
7. Baron, I, 255.
8. Baeder, Gershom *Jewish Spiritual Heroes*, III, 46.
9. Talmud, Yebamoth, 37b.
10. Friedländer, L., *Roman Life and Manners under the Early Empire*, III, 173.
11. Gregory of Tours *History, of the Franks*, 1916, viii, 1.
12. References to the Mishna will be by tractate, chapter, and section; to the (Babylonian) Gemara by tractate and folio sheet.
13. Baba Kama, 60b.
14. Megilla, 16b.
15. Tanhuma, ed. Buber, Yitro. sect. 7, in Moore, G. F., *Judaism in the First Centuries of the Christian Era*, II, 242.
16. Menachoth, 99b.
17. Pesikta Rabbati, 10, 4. in Newman, L., and Spitz, S., *Talmudic Anthology*. 300.
18. Chagiga, 10a.
19. Examples in Moore, I, 259.
20. Berachoth. 6b.
21. Aboda Zara, 8b; Newman, 81.
22. Chagiga, 8b.
23. Succah, 52b.
24. Barachoth, 6a.
25. Aboda Zara, 3b.
26. Mechilta, 65a, on Exod. xix, 18.
27. From Deut. vi, 4.
28. Shebouth, 77b.
29. Erubin, 18a.
30. Bereshit Rabbah on Gen. xxiii, 9.
31. Berachoth, 6a.
32. Aboda Zara, 5a.
33. Sifre on Deut. 32.
34. Shebuth, 55a.
35. Midrash Mishle, 28, in Newman,
36. Genesis Rabbah, xlviii, 8.
37. Baba Metzia, 58b.
38. Berachoth, 34a.
39. Ketuboth, 111a.
40. Wayyikra Rabbah, 34. in Newman, 108.

41. Bereahit Rabbah, 44, 1, in Newman, 292.
42. Quoted in Cohen, A., *Everyman's Talmud*, 89.
43. Aboda Zara, 70b.
44. Kiddushin, 66d.
45. Shebuoth, 41a.
46. In Cohen, A., 258.
47. Leviticus xxi, 2-5.
48. Yebamoth, 48b.
49. Ketuboth, 27 : Cohen, A., 257.
50. Pesachim, 113a.
51. Shebuoth, 152.
52. Pesachim, 49b.
53. Exod. xxiii, 19 ; xxiv, 26 ; Deut xiv, 21.
54. Nidda, 17.
55. Yoma, 75.
56. Shebuoth, 33.
57. Ibid., 152a.
58. Baba Bathra, 58b.
59. Pesachim, 109a.
60. Berachoth, 55a, 60b.
61. Taanith, 11a.
62. Pesachim, 108.
63. Exod. xii, 13.
64. Megilla on Esther, 7b, in Moore, II, 51.
65. In Oesterley, W.O., and Box, G. H., *Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism*, 149.
66. Kiddushin, 31a ; Isaiah vi, 8.
67. Baba Bathra, 8b ; Baron, I, 277-8.
68. Berachoth, 16a.
69. Gen. i, 28 ; Kiddushin, 29.
70. Genesis Rabbah, lxxi, 6.
71. Yebamoth, 12b ; Himes, N. E., *Medical History of Contraception*, 72.
72. Baba Bathra, 72.
73. Exodus Rabbah, i, 1.
74. Harris, M. H., ed., *Hebraic Literature : Translation from the Talmud, Midrashim, and Kabbala*, 336.
75. Baba Bathra, 9a.
76. Ketuboth, 50a, 67.
77. Taanith, 22.
78. Ibid., 20b.
79. Graetz, II, 486, 545.
80. Baba Bathra, 9.
81. Gittin, 70a.
82. Chagiga, 16a.
83. Berachoth, 61a.
84. Kiddushin, 29b.
85. Sota, 44a.
86. Taanith, iv, 8.
87. Yebamoth, 63a.
88. Ibid., 65a, 44a.
89. Pesikta Rabbati, 25, 2, in Newman, 3.
90. Berachoth, xxiv, 1.
91. Kiddushin, 4.
92. Yebamoth, xiv, 1 ; 54b.
93. Gittin, ix, 10.
94. Ketuboth, vii, 6.
95. Cohen, A., 179.
96. Ketuboth, 77a ; Newman, A. (A.), *The Jews in Spain*, Philadelphia, 1942, II, 59.
97. Yebamoth, xxi, in Beder, III, 66.
98. Gittin, 90b.
99. Kiddushin, 80b.
100. Nidda, 45.
101. Kiddushin, 49d.
102. Yoma, 83b.
103. Mikva'oth, 9b, in Cohen, A., 17.
104. Hal Gaon in Newman, 540.
105. Yebamoth, 88.
106. Ketuboth 47b.
107. Shebuoth, 30b.
108. Erubin, 41b.
109. Baeder, III, 15.

110. Bereshit Rabbah, xvii, 7.
111. Harris, M.: *H' Hebraic Literature* 340.
112. Pirke Aboth, iv, 1.
113. Ibid., iv, 3.
114. Ibid., i, 17.
115. Ibid., iii, 17.
116. Shemot Rabbah, xxv, 16 Newman, 897.
117. Menachoth 29b, in Moore, II, 187.
118. Renan, E., *Origins of Christianity: The Christian Church*, 131; Baron, I, 305-6.

CHAPTER XVI

1. Graetz, III, 308.
2. Abrahams, Israel *Jewish Life in the Middle Ages*, 219.
3. Benjamin of Tudela, *Travels*, in Komroff, M., ed., *Contemporaries of Marco Polo*, 290.
4. Graetz, III, 90. Others date the Gaonate from 589: cf. Oesterley and Box, 209.
5. Graetz, III, 133.
6. Ibid., 148.
7. Druck, D., *Yehuda Halevy*, 68.
- 8. Baron, I, 353.
9. Husik, I., *History of Medieval Jewish Philosophy*, 85. 421.
10. Malter, H., *Saadia Gaon*, 279, 291.
11. Benjamin of Tudela, in Komroff 310.
12. Baron, I, 318.
13. Friedländer, III, 181.
14. Dill, Sir S., *Roman Society in Gaul in the Merovingian Age*, 248.
15. Graetz, III, 143, 161, 241, 389.
16. Benj. of Tudela, in Komroff, 260.
17. Ibid., 257.
18. Ameer Ali, Sayad, *The Spirit of Islam*, 260.
19. Druck, 26.
20. Dozy, R., *Spanish Islam*, 5971.
21. Abbott, G. F., 71.
22. Abrahams, *Jewish Life*, 886.
23. Dozy, 721.
24. Graetz, III, 617.
25. Neuman, A., *Jews in Spain*, I, 5.
26. Ibid., 164.
27. Ibid., II, 184.
28. Ibid., II, 221; Graetz, III, 281.
29. Neuman, II, 221.
30. Graetz, III, 360f.
31. Baron II, 37; Graetz, III, 506.
32. Neuman, II, 149.
33. Ibid., 247.
34. Abrahams, *Jewish Life*, 67.
35. Solom Asch in Browne, Lewis, ed., *The Wisdom of Israel*, 698.
36. Baba Kama, 113a.
37. Pirke Aboth, iii, 2.
38. Baron, II, 17.
39. Ibid., 26.
40. Ibid.
41. Bracton, *De Legibus*, vi. 51, in Baron, II, 24.
42. Pollock, F., and Maitland, F.W., *History of English Law before Edward I*, I, 455.
43. *Cambridge Medieval History*, II, 602.
44. Ricard, T.A., *Man and Metals*, II, 602.
45. Abrahams, *Jewish Life*, 241.
46. Rapaport, S., *Tales and Maxims from the Talmud*, 147.
47. Graetz, III, 229.
48. Arnold, Sir, T., and Guillaume, A., *The Legacy of Islam*, 102.
49. Pirenne, H., *Medieval Cities*, 258.
50. Baron, II, 8f.
51. *Jewish Encyclopedia*, IV, 379.
- ! . Deut. xxiii, 20.
53. Baba Metziz, v, 1-2, 11.
54. Abrahams, *Jewish Life*, 110

55. Baron, II, 120.
56. Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*, 134.
57. *Cambridge Medieval History*, VII 644.
58. Ibid., 646.
59. Neuman, A., I, 202; Lacroix, P., *Manuvers Customs and Dress during the Middle Ages*, 451.
60. Coulton, G. O., *Medieval Panorama*, 352.
61. Abbott, *Israel*, 113.
62. Lacroix, *Manners*, 451.
63. Ashley, W. J. *Introduction to English Economic History and Theory* 202.
64. Abbott, 177.
65. Pollock and Maitland, 451.
66. *Cambridge Medieval History*, VI, 226.
67. Abbott, 122.
68. Hasik, 508.
69. Abbott, 125; Graetz, III, 583.
70. Abbott, 158; Lacroix, *Manners*, 445.
71. In Foakes-Jackson, F., and Lake, K., *Beginnings of Christianity*, I, 76.
72. Baba Bathra, 90.
73. Baba Metzia, iv. 3.
74. Baron, I, 277-8; II, 108.
75. Barón, II, 99.
76. Moore, II, 174-5.
77. Abrahams, *Jewish Life*, 141, 319, 326, 335; Baron, II, 99.
78. Coulton, *Panorama*, 357.
79. Abrahams, 277.
80. Ibid., 281.
81. Burton, Sir R. F., *The Jew, the Gypsy, and El Islam*, 128; Baron II, 169
82. Abrahams, 331.
83. Baba Kama, 118b.
84. Abrahams, 106.
85. Ibid., 104.
86. Ibid., 90.
87. Baron, II, 112.
88. Abrahams, 166.
89. Kiddushin, 41a; Neuman, II, 21.
90. Ibid.
91. Moore, II, 22.
92. Abrahams, 117.
94. Burton, *The Jew*, 48.
95. White, F. M., *Woman in World History*, 176.
96. Abrahams, 155.
97. Brittain, A., *Women of Early Christianity*, 10.
98. White, 189.
99. Neuman, II, 229.
100. White, 185.
101. Marcus, J., *The Jew in the Medieval World*, 818.
102. Abrahams, 82.
103. Neuman, II, 153.
104. Barow, I, 288; II, 97.
105. Abrahams, 126.
106. Brittain, 12.
107. Moore, I, 316.
108. Maimondee, *Mishneh Torah*, — Book I, tr. Mofer, Hayamson, 63a.
109. In Waxman, M., *History of Jewish Literature*, I, 214.
110. Jewish Encyclopedia, IX, 122.
111. *Oxford Histor of Music* intro. volume, 60.
112. Jewish Encyclopedia, III, 452.
- 112a. In Zeitlin, S., *Maimonides*, 44
113. Baron, II, 88.
114. Lacroix, *Munners*, 439.
115. Baron, II, 35.
116. Abrahams, 411; Moore, II, 74.

117. Dent. vii, 3; Nehemiah xiii, 25.
118. Klausner, J., *From Jesus to Paul*, 515.
119. Baron, II, 56.
120. Olttin. 61.
121. Abrahams, 418-4.
122. Ibid., 418.
123. Ibid., 424; Baron, II, 40.
124. Baron, II, 36.
125. Abbott, 93.
126. Coulton, *Panorama*, 352.
127. Ibid.
128. Graetz, IV, 33.
129. Gregory I, Epistle II, 6, in Dudden, F. H., *Gregory the Great*, II, 155.
130. Ep. xlii, 15, in Dudden, II, 155
131. Belloc, H., *Paris*, 170.
132. Graetz, III, 421.
133. Coulton, *Panorama*, 352.
134. Thatcher, O. J., and McNeal, E.H., *Source Book of Medieval History*, 212.
135. Lea, H.C., *History of the Inquisition in the Middle Ages*, II, 63.
136. Graetz, III, 563.
137. Ibid., 583.
138. Marcus, 151.
139. Baron, II, 85.
140. Abbott, 51; Jewish Encyclopedia III, 453.
141. *Camb. Med. H.*, VII, 624; Jewish Encyclopedia. IX, 368.
142. Graetz, III, 299.
143. Ibid., 300.
144. Ibid., 301f; *Cambridge Medieval History*, V., 275f; VII, 641.
145. Graetz III, 350; Abbot, 88.
146. Jewish Encyclopedia. IV, 379.
147. Graetz, III, 356.
148. *Cambridge Medieval History*, VII, 642.
149. Graetz, IV, 35; Jewish Encyclopedia, IX, 358.
150. Abbott, 144.
151. Coulton, *Panorama*, 359.
152. Cunningham, W., *Growth of English Industry and Commerce* 204.
153. Jewish Encyclopedia, IV, 379.
154. Lacroix, *Manners*, 447.
155. Graetz, III, 642; Abbott, 130.
156. Abbott, 131.
157. Ibid., 68.
158. Lacroix, *Manners*, 447.
159. Abbot. 68.
160. Montesquieu, C. Baron de, *The Spirit of Laws*, I, xii, 5.
161. Joseph ben Joshua ben Meir. *Chronicles*, I, 197.
162. Marcus, 24.
163. Graetz, III, 570.
164. Villehardouin, G. de, *Chronicles of the Crusades*, 148.
165. Abbott. 118.
166. *Cambridge Medieval History*, VII, 641.

CHAPTER XVII

1. Abrahams, *Jewish Life* 210.
2. Sarton, G., *Introduction to the History of Science*, II (1), 295.
3. Abrahams, I., *Chapters on Jewish Literature*, 116.
4. Waxman, I, 226.
5. Graetz, III, 269.
6. Gabirol, S. Ibn, *Selected Religious Poems*, tr. Israel Zangwill, 62.
7. Ibid., 80.
8. Abrahams, *Literature*, 109.
9. Abrahams, *Jewish Life*, 163.
10. In Wilson, E., ed. *Hebrew Literature*, 383.
11. Sarton, II, (1), 188.
12. Hamevi, J., *Selected Poems*, tr. Nina Salaman, 58.
13. Abbott, 72.
14. Druck, 97.
15. Ibid., 94.
16. Wilson, *Hebrew Literature*, 365-6.
17. Novella 146 in Burton, *The Jew*, - 105.

18. Ornetz, III, 673.
19. Sarton, II (II), 557.
20. Schechter, S., *Studies in Judaism*, I, 107.
21. Ornetz, III, 604.
22. Sarton, II, (I), 145.
23. *N. Y. Times*, June 2, 1937.
24. Sarton, II, (I), 145.
25. Cf. Komroff, M. *The Contemporaries of Marco Polo*.
26. Husik, 24.
27. Munk, S., *Mélanges de philosophie juive et arabe* 158.
28. Marcus, 312.
29. Cf. Gabirol, S. ibn, *Improvement of the Moral Qualities*, tr. Stephen Wise, 4, 27.
30. Gabirol, *Fons Vitae*, i, 8, in Munk, 6.
31. Halevi, J., *Kitab 'al-Khazar*, tr. H. Hirschfeld, i, 116.
32. *Ibid.*, III, 5, 7.
33. Husik, 215.
34. Yellin, D., and Abrahams, I., *Maimonides*, 11; Zeitlin, *Maimonides*, I,
35. Ueberweg, F., *History of Philosophy*, I, 427.
36. Zeitlin, *Maimonides*, 5.
37. "Letter of Consolation" in Yellin, 46.
38. Zeitlin, 178.
39. Arnold, Sir T., *Preaching of Islam*, 421.
40. Baron, S., ed., *Essays on Maimonides*, 290.
41. Maimonides, Aphorisms, in Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*, I, 176.
42. Zeitlin, 172.
43. In Baron, *Essays*, 288.
44. Zeitlin, 174.
45. Baron, *Essays*, 284.
46. Maimonides, *Mishneh Trab*, Introd., 4b.
47. Zeitlin, 214.
48. *Mishneh Torab*, Introd., 16. 3a.
49. In Baron, *Essays*, 117.
50. Maimonides, *Guide to the Perplexed* tr. M., Friedländer, II, xli.
51. *Ibid.*, III, 36, Baron, *Essays*, 139.
52. *Guide*, III, xxii, xli; Deut. xxlii, 17; Exod, xxii, 1; xxxi, 15.
53. *Mishneh Torab*, 40b.
54. *Ibid.*, 59a.
55. *Ibid.*, 54a.
56. *Ibid.*, 58a.
57. *Ibid.*, 58ab.
58. *Ibid.*, 52b.,
59. In Baron, *Essays*, 110.
60. Zeitlin, 132.
61. *Guide*, I, Introd.
62. *Ibid.*, II, xix; III, xiv.
63. II, Pt. II, Introd. and Prop xx.
64. *Ibid.*, xxxvi-xixi.
65. III, xxii.
66. II, xviii.
67. II, xxx.
68. III, x, xii.
69. III, lxx.
70. Zeitlin, 151.
71. *Ibid.*, 103; Baron, *Essays*, 148.
72. *Guide*, II, Pt. II, Introd.
73. Baron, *Essays*, 119-21; Zeitlin, 209.
74. Marcus, 307-9.
75. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, xv, 4.
76. Roth, L., *Spinoza Descartes, and Maimonides*, 66; Baron, *Essays*, 7.

77. Husik, 302; Graetz, IV, 23.
78. Ibid., III, 681.
79. Neuman, A., II, 122.
80. Ibid., 118; Graetz, IV, 29-41.
81. Jewish Encyclopedia, III, 467, 479.
82. Sarton, II, (1), 366.
83. Graetz, V, 21.
84. Baron, *History*, II, 136.
85. Ibid., 142.
86. Abrahams, *Jewish Life*, 143, 157, 198.
87. In Marcus, 314.

CHAPTER XVIII

1. Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 173.
2. Gibbon, IV, 504.
3. *Cambridge Medieval History*, II, 989.
4. Ibid., IV, 6; Gibbon, V, 142.
5. In Diehl, *Monuel*, 335.
6. *Cambridge Medieval History*, IV, 115f.
7. Voltaire, *Works*, XIII, 190.
8. Diehl, *Portraits* 169; Bury, *Eastern Roman Empire*, 169.
9. McCabe, J., *Emperors of Constantinople*, 174.
10. *Cambridge Medieval History*, IV, 106; Diehl, *Portraits*, 264.
11. Boissonnade, P., *Life and Work in Medieval Europe*, 86.
12. *Cambridge Medieval History*, IV, 760.
13. Diehl, *Portraits*, 286.
14. *Cambridge Medieval History*, IV, 746.
15. Komroff, *Contemporaries of Marco Polo*, 266.
16. *Cambridge Medieval History*, IV, 760.
17. Ibid.
18. Clapham and Power, 212.
19. Diehl, *Portraits*, 159; Gibbon V, 458; Brittain, *Women of Early Christianity*, 318.
20. Lopez, R.S., in *Speculum*, Vol. XX, No. 1, pp. 17-18; Boissonnade, 46-7; *Cambridge Medieval History*, IV, 761.
21. Boissonnade, 60.
22. Ibid., 61.
23. Castiglione, 254.
24. Bury, *Eastern Roman Empire*, 436; Grunebaum, *Medieval Islam* 54.
25. Psellus *Chronographia*, vi, 46.
26. Ibid., v, 25-37.
27. Diehl, *Manuel*, 406.
28. Luitprand in Grunebaum, 29.
29. Cf. Walker Trust Report, *The Great Palace of the Byzantine Emperors*, plates 24-37 and 57.
30. The judgment of Kondakof in Diehl, *Manuel*, 580.
31. Diehl, 590.
32. Ibid., 381.
33. Finlay, *Greece under the Romans*, 21.
34. Thompson, J.W., *Feudal Germany*, 458.
35. Kluchevsky, V. O. *History of Russia*, I, 46; Thompson, *Feudal Germany*, 456.
36. Pokrovsky, M. N., *History of Russia* 11; Fustel de Coulanges questioned this - cf. Dopsch, 26.
37. *Cambridge Medieval History*, IV, 136.
38. Navor, J., *Economic History of Russia*, I, 15.
39. Kluchevsky, I, 88.
40. Rambaud, A., *History of Russia*, I, 84.

CHAPTER XIX

1. Paul the Deacon, *History of the Longobards*, I, 9.
2. Munro and Sellery, 538.
3. Dante, *Eleven Letters*, 185.
4. Note by W. D. Foulke in Paul the Deacon, 309.

6. Voltaire, *Works*, XIII, 80.
7. Molmenti, P., *Venice*, I, 1, 212-4.
8. *Cambridge Medieval History*, III, 170
9. Pirenne, *Medieval Cities*, 110.
10. Ruskin, *Stones of Venice*, I, 66.
11. Lanciani, R., *Ancient Rome*, 67.
12. *Ibid.*, 275.
13. Castiglione, 801.
14. Dozy, *Spanish Islam*, 440.
15. Coulton, G. G., *Five Centuries of Religion*, I, 174.
16. Hume, M., *The Spanish People*, 129; *Spain*, 191; *Encyclopedia Britannica*, V., 699.
17. In Guizot, *History of France*, I, 171.
18. *Ibid.*, 168.
19. Pirenne, *Cities*, 248; Voltaire, XIII, 131.
20. Freeman, E. A., *Historical Essays*, First Series, 179.
21. *Cambridge Medieval History*, II, 316.
22. Guizot, *France*, I, 229f; Guizot, *History of Civilization*, II, 198-6.
23. Pollock and Maitland, I, 117, Barnes, H. E., *History of Western Civilization*, I, 775.
24. Lea, *Superstition and Force*, 469.
25. Guizot *Civilization*, II, 225f.
26. Capitulary of Charlemagne, year 803, // 3, in Guizot *Civilization*, II, 222.
27. In Pirenne, *Cities*, 168.
28. *Ibid.*, 58; *Cambridge Medieval History*, II, 657.
29. *Cambridge Medieval History*, II, 657.
30. Letter of Alcuin in William of Malmesbury, I, 3, p. 66.
31. Eginhard, *Life of Charlemagne*, 61.
32. Hodkin, T., *Charlemagne*, 812.
33. West, A. F., *Alcuin*, 55.
34. Eginhard, p. 14.
35. *Ibid.*, 62.
36. *Ibid.*, 64.
37. Capitulary of 802 in Bebel A., *Woman under Socialism*, 60.
38. Eginhard, 83.
39. Bury, *Eastern Empire*, 318.
40. Eginhard, 66-8.
41. Raby, F. J., *History of Secular Latin Poetry in the Middle Ages*, I, 190.
42. Eginhard, 52.
43. *Ibid.*, 48; Russell, C. E., *Charlemagne*, 262.
44. Guizot, *France*, I, 241.
45. Morey, C. R., *Medieval Art*, 207.
46. *Ibid.*, 191.
47. Davis *Medieval England*, 266.
48. Guizot, *Civilization*, II, 375.
49. Erigena, J. S., *De divisione naturae*, I, 69.
50. In Guizot, *Civilization*, II, 383.
51. Erigena, // 517.
52. *Ibid.*, // 443
53. // 518.
54. // 896.
55. // 919-26, 937-40.
56. // 861.
57. Poole, R. L., *Illustration of the History of Medieval Thought*, 61.
58. Guizot, *Civilization*, II, 388.
59. William of Malmesbury, II, 4.
60. Guizot, *France*, I, 303
61. *Ibid.*, 311.
62. *Ibid.*, 329.
63. *Ibid.*, 336.

CHAPTER XX

1. Asser, *Alfred the Great*, 61.
2. Asser, 66, 78, 85.

3. Alfred, Preface to tr. of Gregory
I's *Cura pastoralis*, in Ogg,
*Source Book of Medieval
History*, 191.
4. Voltaire, *Works*, XIII, 176.
5. Boissonnade, *Life and Work in
Medieval Europe*, 88.
6. Green, J. R., *Conquest of England*
185, 329, 359-60.
7. Stubbs, W., *Constitutional History
of England*, I, 146, 157.
8. Hume, D., *History of England*,
I, 181.
9. Pollock and Maitland, II, 450.
10. William of Malmesbury in Coul-
ton, O.G., *Social Life in Britain*
20; Green, J. R., *Making of
England*, 192.
11. Traill, H. D., *Social England*, I,
204.
12. Hume, D., *History of England*, I,
188.
13. Briffault, R., *The Mothers*, II, 419.
14. William of Malmesbury, I, 4.
15. *Ibid.*, I, 2.
16. *Ibid.*, II, 5.
17. Bede, v, 24.
18. *Ibid.*, I, 15.
19. *Ibid.*, *Introd.*, xvi.
20. Gordon, R. K., *Anglo-Saxon
Poetry*, 81-2.
21. In Ker, W.P., *Epic and Romance*,
68.
22. *Beowulf*, xxxvii and xliii, in
Gordon, *Anglo-Saxon Poetry*,
60, 70.
23. Bede, iv, 23.
24. Plummer, *Life and Times of
Alfred the Great*, 14.
25. In Addison, J., *Art and Crafts
in the Middle Ages*, 4.
26. Aldhelme (c. 709) in Addison,
199.
27. Bede, iv, 18.
28. Freeman, E.A., *Norman Conquest*
II, 298.
29. William of Malmesbury, III, 238;
Ordericus Vitalis, *Historia Ecc-
lesiastica*, 492A; Freeman, *Norman
Conquest*, II, 244.
30. Guizot, *France*, I, 345; Freeman,
Norman Conquest, III, 320.
31. *Mabinogion*, II.
32. Hyde, *Literary History of Ireland*
238.
33. Joyce, *Short History of Ireland*,
39-46.
34. Thompson, J. W., *Economic
History*, 148.
35. Boissonnade, 78.
36. Joyce, 80.
37. *Ibid.*, 168.
38. *Ibid.*, 153, 158.
39. Hyde, 222.
40. *Ibid.*, 239.
41. *Ibid.*, 279f.
42. Thompson, Sir E. M., *Introd to
Greek and Latin Palaeography*,
374.
43. Joyce, 189-92.
44. Keating in Hyde, 488.
45. Horn, F. W., *Literature of the
Scandinavian North*, 13, *Cam-
bridge Medieval History*, II, 481
46. Surluson, S., *Heimskringla*
47. *Ibid.*, Hauke the Good, ch. 23.
48. *Ibid.*, Olaf Tryggvesson, ch. 7.
49. *Ibid.*, ch. 99.
50. *Ibid.*, ch. 87.
51. *Ibid.*, St. Olaf, ch. 56, 181.
52. *Ibid.*, ch. 74.

53. *Ibid.*, Appendix to Olaf Trygvesson's Saga; Encyclopedia Britannica. art. Columbus.
54. *Beomulf.* xxxv.
55. Sturluson, Son of Magnus, ch. 33; DuChailly, II, 370-379.
56. Saxo Grammaticus, *Danish History*, I, 28.
57. Haskins, *Encyclopedia*, III, 499c.
58. DuChailly, II, 1.
59. Haskins, *Normans in European History*, 36.
60. DuChailly, I, 486.
61. Saxo, 25.
62. Thompson, J. W., *The Middle Ages*, I, 827.
63. Sturluson, Magnus the Good, ch. 16.
64. Sigfusson, Saemud, *The Elder Edda*, 22-58.
65. *Ibid.*, 28.
66. 59.
67. 66.
68. 14.
69. 84.
70. 102.
71. 81.
72. 65.
73. 73.
74. 121.
75. 66.
76. 55-6.
77. 86.
78. 68.
79. Horn, *Literature of the Scandinavian North*, 41.
80. Faereyinga Saga in Ker, *Epic and Romance*, 236.
81. Sturluson, Olaf Tryggvesson's Saga, ch. 9.
2. Sturluson, Ynglinga Saga, ch. 6 and note; Hodgkin, *Charlemagne* 154; Saxo, 44.
88. Milman, III, 216. Milman persuasively defends the credibility

94. *Cambridge Medieval History*, 270.
85. West, *Alcuin*, 127.
86. Rab, F. J. E. *History of Christian Latin Poetry in the Middle Ages* 188.
87. Welch, Alice K., *Of Six Medieval Women*, 5.
88. Addison, *Arts and Crafts*, 16.

CHAPTER XXI

1. *Cambridge Medieval History*, I, 586.
2. In Russell, B., *History of Western Philosophy*, 879.
3. Rule of St. Benedict, ch. 3, in Ogg. 87.
4. Ch. 7.
5. Ch. 63.
6. Dudden, I, 111.
7. In Maitland, S.R., *Dark Ages*, 196-8.
8. In Dudden, I, 58.
9. *Ibid.*, 289.
10. Bede, II, 1.
11. Gregory of Tours, 227.
12. Dudden, I, 215.
18. Thompson, J.W., *Middle Ages*, I, 178.
14. Dudden, II, 156; McCabe, J., *Story of Religious Controversy*. 307.
15. Bede, II, 1.
16. *Ibid.*, 198.
17. Gregory I, Ep. xlii, 45, in Dudden, I, 278.
18. In Abélard, *Ouvrages inédits, Quaestio*, 1a.
19. Gregory I, *Magna Moralia*, in Dudden, II, 813.
20. *Dialogues*, IV, 7, in Dudden, I, 380.
21. Dudden, II, 484f.
22. *Ibid.*, 38.
23. Thompson, J.W., *Middle Ages*, I, 178.

24. Voltaire, *Works*, XIII, 90.
25. *Cambridge Medieval History*, II, 490.
26. Funk, I, 287; *Cambridge Medieval History*, V, 710.
27. In Milman, III, 25.
28. Gibbon, IV, 82.
29. Sarton, I, 555.
30. Poole, R.L., *Illustration*, 20.
31. Taylor, H. O. *Medieval Mind*, I, 136.
32. Dudden, I, 86.
33. *Ibid.*
34. Montalembert, Comte de, *Monks of the West*, I, 558.
35. Guizot, *Civilization*, II, 113 - 9: Toynbee, A.J., *Study of History* II, 331.
36. Waddell, H., *Wandering Scholar* 34.
37. Bede, I, 17.
38. William of Malmesbury, I, 2.
39. Bede, I, 80.
40. Bede, Letter to Egbert.
41. Green, *Making of England*, 413.
42. Gibbon, V, 534.
43. Coulton, *Five Centuries of Religion*, I, 222.
44. *Ibid.*, 352.
45. *Cambridge Medieval History*, V, 662.
46. *Ibid.*, III, 67.
47. Milman, III, 111.
48. *Cambridge Medieval History*, III, 455.
49. Milman, III, 180; McCabe, *Crises in the History of the papacy*, 128f.
50. *Ibid.*, 181, quoting the *Liber Pontificalis*.
51. Milman, III, 171: *Cambridge Medieval History*, III, 455.
52. Milman, III, 178.
53. *Ibid.*, 185f.
54. Sandys, Sir John, *Companion to Latin Studies*, 847.
55. Vincent of Beauvais, *Spec. Hist.*, in Milman, III, 221.
56. Thorndik, *Magic and Experimental Science* I, 704.
57. *Cambridge Medieval History*, III, 109.
58. Hulme, E.M. *Middle Ages*, 339; Coulton G.O., *Life in the Middle Ages*, I, 1: Sarton, I, 734.
59. Funk, I, 282.
60. Stephens, W.R. W. *Hildebrand*, 14: Milman, III, 230: McCabe, *Crises*, 140.
61. *Cambridge Medieval History*, 10.
62. Guizot, *France*, I, 160.
63. Porter, A. K. *Medieval Architecture*, II, 2.
64. *Ibid.*
65. Carville R.W., *History of Medieval Political Theory in the West* IV, 52.
66. Coulton, *Five Centuries of Religion*, IV, 187.
67. Coulton, *From St. Francis to Dante*, a tr. of *The Chronicle of Salimbene*, 286.
68. *Cambridge Medieval History* V, 9-10.
69. Catholic Encyclopedia, I, 156
70. *Cambridge Medieval History*, V, 12.
71. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 210.
72. Lecky *Morals*, II, 237.
73. Lea, *History of Auricular Confessions*, I, 46.
74. Letter to Egbert in Bede, p. 4.
75. Catholic Encyclopedia, III, 486.
76. *Cambridge Medieval History*, IV, 268.
77. *Ibid.*, 272.

78. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 194, 223; Thompson, *Social and Economic History*, 662.
79. Lea, *Celibacy*, 228.
80. Bryce, Jas., *Roman Empire*, 158.
81. *Cambridge Medieval History* V, 90.
82. Thompson, *Social and Economic History*, 663.
83. Taylor, *Medieval Mind*, II, 55
84. Letter of Gregory VII to William I of England, 1080, in Bryce, 160.
85. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
86. Figgis, *Political Aspects of St. Augustine's City of God*, 88.
87. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
88. Carlyle, R.W., *Medieval Political Theory*, IV, 64.
89. Stephens, *Hildebrand*, 116.
90. Thatcher and McNeal, 169.
91. *Cambridge Medieval History*, V, 741.
12. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, IIIae, xciv, 5.
13. Decree of Fourth Council of Orléans, in Dopsch, 260.
14. Lecky, *Morals*, II, 70, Sarton, II (II), 799, but cf. Catholic Encyclopedia, XIV, 38.
15. Ashley, *Intro. to English Economic History*, II, 276.
16. Coulton, *Medieval Village*, 59.
17. Westermarck, E., *Short History of Marriage*, 14; Coulton, *Medieval Village*, 80.
18. Reignobos, 14; Coulton, *Medieval Village*, 464.
19. Bebel, 57.
20. *Cambridge Medieval History*, VII, 721.
21. Coulton, *Life in the Middle Ages*, III, 123-5.
- 21a. *Cambridge Medieval History*, VII, 22.
22. Reignobos, 21.
23. Coulton, *Medieval Village*, 65.
24. Cram R.A., *Substance of Gothic*, 181.
25. Lynn White, Jr. in *Speculum*, Apr. 1940, p. 151.
26. Taine, H. *Ancient Regime*, 9, Carlyle,
27. Barnes, *Economic History*, 145.
28. *Cambridge Medieval History*, VII, 741.
29. Coulton, *Medieval Village*, 11-18.
30. *Ibid.*, 21, 243.
31. Coulton, *Panorama*, 92.
32. *Speculum*, Apr. 1940.
33. *Ibid.*, 155.
34. Châteaubriand, *Vicomte de, The Genius of Christianity*, IV, 1.4
35. Coulton *Medieval Village*, 119.

CHAPTER XXII

1. Lot, *End of the Ancient World*, 126.
2. Dopsch, 268.
3. Seebohm, F., *English Village Community*, 126f, 179.
4. Reignobos, C., *Feudal Regime*, 34, Barnes, *Economic History*, 139.
5. Clapham and Power, 237-8.
6. Letters, IV, 2.
7. Coulton, G.O., *Medieval Village*, 161.
8. McCabe, *Story of Religious Controversy*, 323.
9. Thompson, *Social and Economic History*, 679.
10. Coulton, *Medieval Village*, 492.
11. Coulton, *Medieval Panorama*, 322

36. Lacroix. Paul. *Military and Religious Life in the Middle Ages*. 166.
37. Hitti. *History of the Arabs*. 663; *Arnold Legacy of Islam* 131.
38. Lacroix. Paul. *Science and Literature in the Middle Ages*. 299f.
39. Beaumanoir in Seignobos. 55.
40. Coulton. *Panorama*. 50.
41. Voltaire. *Works*. XIII., 181.
42. Thompson. *Feudal Germany*. 801
43. Carlyle. R.W. *Medieval Political Theory*. 463.
44. Pollock and Maitland. II. 242.
45. Maine. Sir H. *Ancient Law*. 185.
46. Coulton *Medieval Village*. 528.
47. Jenks. E. *Law and Politics in the Middle Ages*. 23.
48. Coulton *Medieval Village*. 187.
49. Lea. *Superstition and Force*. 286, 297, 314.
50. Coulton, *Panorama* 379.
51. Lea. *Superstition*. 178.
52. *Ibid.*, 140f, 179.
53. Seignobos. 79.
55. Sumner W.G. *Folkways*. 522.
56. Barnes. *Western Civilization*. I. 798.
57. Seignobos. 81.
58. Coulton. *Medieval Village*. 248.
59. Lacroix. *Milliary Life*, 49.
60. Davis, W.S. *Life on a Medieval Barony*. 176.
61. Coulton. *From St. Francis to Dante*. 20.
62. Seignobos. 74.
63. Coulton, *Chaucer and His England*. 199.
64. Coulton, *Panorama*. 247.
65. Prestage, E., *Chivalry*. 72.
66. *Speculum*, Apr. 1930. 189.
67. Thorndike, *Magie and Science*. II. 31.
68. Hoover, H., and Gibbons. H.A. *Conditions of a Lasting Peace* 29.
69. Prestage. 75.
70. Coulton. *Panorama*. 289.
71. Traill. I. 379.
72. In Briffault. *Mothers*, III. 383.
73. Bebel. 63.
74. Prestage, 9.
75. Rowbotham, 283.
76. Prestage, 89.
77. Davis. *Life on a Medieval Barony* 77.
78. Vossler. K., *Medieval Culture* I. 299; Taylor *Medieval Mind*, II, 542.
79. Miss Amy Kelly in *Speculum*, 1937, 5.
80. Rowbotham, 224, 285.
81. *Ibid.*, 249.
82. *Ibid.*, 245.

الفهرس

الكتاب الثالث - الحصار اليهودية

الصفحة

الموضوع

٣

الحوادث التاريخية مرتبة حسب تواريخها

الباب الخامس عشر : التلمود

٥	الفصل الأول : النفي
١١	الفصل الثاني : واضعو التلمود
١٧	الفصل الثالث : الشريعة
١٧	١ - الناحية الدينية
٢٢	٢ - الشعائر الدينية
٣٧	الفصل الرابع : الحياة والشريعة

الباب السادس عشر : يهود العصور الوسطى

٤١	الفصل الأول : المجتمعات الشرقية
٤٨	الفصل الثاني : الجماعات اليهودية في أوروبا
٥٧	الفصل الثالث : الحياة اليهودية في البلاد المسيحية
٥٧	١ - الحكومة
٥٩	٢ - الشؤون الاقتصادية
٦٦	٣ - الأخلاق
٧٣	٤ - الدين
٧٩	الفصل الرابع : كراهية اليهود

الباب السابع عشر : عقل اليهودى وقلبه

٩٥	الفصل الأول : الأدب
٦٠٥	الفصل الثاني : مقامرات التلمود
١٠٩	الفصل الثالث : العلوم عند اليهود
١١٤	الفصل الرابع : نشأة الفلسفة اليهودية
١٢٠	الفصل الخامس : ابن ميمون
١٣٢	الفصل السادس : الحرب الميمونية

الموضوع	الصفحة
الفصل السابع : القبلة	١٣٦
الفصل الثامن : العتق	١٤١

الكتاب الرابع - العصور المظلمة

الحوادث التاريخية في الكتاب الرابع	١٤٧
------------------------------------	-----

الباب الثامن عشر : العالم البيزنطي

الفصل الأول : هرقل	١٥٢
الفصل الثاني : محطو العصور والتمثيل الدينية	١٥٧
الفصل الثالث : نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية	١٦٢
الفصل الرابع : الحياة في بيزنطية	١٨٠
الفصل الخامس : النهضة البيزنطية	١٨١
الفصل السادس : البلقان	١٩٣
الفصل السابع : مولد روسيا	٢٠٠

الباب التاسع عشر : اضمحلال الغرب

الفصل الأول : إيطاليا	٢٠٨
١ - اللمبارد	٢٠٨
٢ - النورمان في إيطاليا	٢١١
٣ - البندقية	٢١٣
٤ - الحصار الإيطالية	٢١٦
الفصل الثاني : أسبانيا المسيحية	٢٢٢
الفصل الثالث : فرنسا	٢٢٧
١ - مجيء الكارولنجيين	٢٢٧
٢ - شارلمان	٢٢٩
٣ - اضمحلال الكارولنجيين	٢٤٧
٤ - الآداب والفنون	٢٥٦
٥ - نشأة الأدواق	٢٦٣

الباب العشرون : نهضة الشمال

الفصل الأول : إنجلترا	٢٦٨
١ - ألفرد والدنمركيون	٢٦٨
٢ - الحصار الإنجليزية - السكسونية	٢٧٣

الموضوع	الصفحة
٣ - بين فتحين	٢٨٦
الفصل الثاني : ويلز	٢٩٣
الفصل الثالث : الحضارة الإيرلندية	٢٩٦
الفصل الرابع : اسكتلندة	٣٠٦
الفصل الخامس : أهل الشمال	...
١ - قصص الملوك	٣٠٨
٢ - الحضارة الفيكينية	٣١٣
الفصل السادس : ألمانيا	٣٢٥
١ - تنظيم السلطة	٣٢٥
٢ - الحضارة الألمانية	٣٣٢

الباب الحادى والعشرون : صراع المسيحية

الفصل الأول : القديس بندكت	٣٣٧
الفصل الثاني : جريجورى الأكبر	٣٤٢
الفصل الثالث : الشؤون السياسية للبابوية	٣٥٢
الفصل الرابع : الكنيسة اليونانية	٣٥٧
الفصل الخامس : المسيحية تغزو أوروبا	٣٦٣
الفصل السادس : البابوية فى الحضيض	٣٧٧
الفصل السابع : إصلاح الكنيسة	٣٨١
الفصل الثامن : الانشقاق الأكبر فى الشرق	٣٩٢

الباب الثانى والعشرون : الإقطاع والفروسية

الفصل الأول : نشأة الإقطاع	٤٠٤
الفصل الثانى : التنظيم الإقطاعى	٤٠٨
١ - العبد	٤٠٨
٢ - رقيق الأرض	٤١٠
٣ - مجتمع القرية	٤١٦
٤ - المالك	٤٢٠
٥ - الكنيسة الإقطاعية	٤٢٨
٦ - الملك	٤٢٩
الفصل الثالث : شريعة الإقطاع	٤٣٤
الفصل الرابع : الحروب الإقطاعية	٤٤٠
الفصل الخامس : الفروسية	٤٤٦

فهرس الصور

رقم الصورة	مدلوها	الصفحة
١	نقش على الزجاج من القرن الثاني عشر في كنيسة تشارتر	... أول الكتاب
٢	واجهة كنيسة القديس مرقس في مدينة البندقية	... أمام ص ٢١٤
٣	كوة معقودة في كنيسة منريال	... » » ٢١٦
٤	مدخل كايلا بلانتينا في بلرم بإيطاليا	... » » ٢١٨